الأمثل

في تفسيرِ كِتَاب الله المُنزَل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر

آية الله الشَّيخ

نَاصِر مَكَارِم الشّيرازي

المجلد السادس

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

آية الله

في

١٢/١١

هود
الحجر

مؤسسة

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

١١ - ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الحادي عشر

منشورات

مؤسسة الأعلى للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ -٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور - ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

سُورَةُ هُودٍ

مكية وعدد آياتـها مائة وثلاث وعشرون

محتوى هذه السّورة وفضيلتها

المشهور بين المفسّرين أنّ هذه السورة بأكملها نزلت بمكّة. . . وطبقاً لما ورد في «تأريخ القرآن» أنّها السورة التاسعة والأربعون في ترتيب السور النازلة على المرسل ﷺ.

وطبقاً لما صرّح به بعض المفسّرين - أيضاً - فإنّ هذه السورة نزلت في السنوات الأخيرة التي قضاها النّبي ﷺ بمكّة، أي بعد وفاة عمّه «أبي طالب عليه السلام» وزوجته «خديجة عليها السلام». . . وبطبيعة الحال فإنّ هذه السورة جاءت في فترة من أشد الفترات صعوبة في حياة النّبي ﷺ حيث كان يعاني فيها من ضغوط الأعداء وأراجيفهم الإعلامية الحاقدة المسمومة أكثر ممّا عاناه في السنوات السابقة، ولذلك يُلاحظ في بداية السورة تعابير فيها جانب من التسلية للنّبي ﷺ وللمؤمنين.

ويُشكل القسم المهم والعمدة من آيات هذه السورة قصص الأنبياء الماضين وخاصّة قصّة نوح النّبي عليه السلام الذي انتصر بالفئة القليلة التي معه على الأعداء الكثيرين.

إنّ سرد هذه القصص فيه تسلية لخاطر النّبي ﷺ والمؤمنين معه وهم أمام الكمّ الهائل من الأعداء، كما أنّ فيه درساً لمخالفيهم من الأعداء.

وعلى كل حال. فإنّ آيات هذه السورة - كسائر السور المكية - تتناول أصول «المعارف الإسلامية» ولا سيّما المواجهة مع الشرك وعبادة الأصنام، ومسألة المعاد والعالم بعد الموت، وصدق دعوة النّبي ﷺ، كما يبدو فيها تهديد ضمنيٌّ للأعداء، وأمر بالاستقامة للمؤمنين.

في هذه السورة - إضافة إلى قصّة نوح النّبي عليه السلام وجهاده العنيف التي ذُكرت بتفصيل - إشارة إلى قصص الأنبياء هود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام ومواقفهم الشجاعة بوجه الشرك والكفر والانحراف والظلم. . .

شيبتني سورة هود!

إنّ آيات هذه السورة تقرر أن على المسلمين أن لا يتركوا السوح والميادين - في الحرب والسلم - لكثرة الأعداء ومواجهاتهم الحادة... بل عليهم أن يواصلوا مسيرتهم ويستقيموا أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم...

وعلى هذا فإنّنا نقرأ في حديث معروف عن النّبي ﷺ أنّه قال: «شيبتني سورة هود»(١).

وفي حديث آخر أنّه حين لاحظ أصحاب النّبي آثار الشيب قبل أوانه على محيّاه ﷺ قالوا: يا رسول الله، تعجّل الشيب عليك. فقال ﷺ: «شيبتني سورة هود والواقعة»(٢).

وفي روايات أُخرى أضيف أيضاً سورة المرسلات وسورة النبأ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وسورة التكوير وغيرها إلى هاتين السورتين(٣).

ونُقل عن ابن عباس في تفسير الحديث الشريف - آنف الذكر - أنّه ما نزل على رسول الله ﷺ آية كان أشدّ عليه ولا أشق من آية ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(٤).

كما نقل عن بعض المفسّرين أنّ أحد العلماء رأى رسول الله ﷺ في المنام فسأله عن سبب ما نُقل عنه من قوله: «شيبتني سورة هود» أهو ما سلف من الأمم السابقة وهلاكها؟ فبيّن له ﷺ أن سببه آية ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(٥).

وعلى كل حال فإنّ هذه السورة - بالإضافة إلى هذه الآية - فيها آيات مؤثّرة أُخرى تتعلق بيوم القيامة والمحاسبة في محكمة العدل الإلهي، وآيات تتعلق بما ناله الأقوام

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٣٣٤؛ زبدة البيان، ص ١٦٧.
(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية (١١٢) من تفسير سورة هود؛ ووسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٧٢، ح٧٦٥٩.
(٣) تفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٧٩؛ ووسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٧٢.
(٤) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ١١٢ من سورة هود؛ تفسير الميزان، ج ١١، ص ٦٦.
(٥) روح المعاني، ج ٢، ص ٢٠٦. تفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٧٩؛ ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٢١٣؛ في الحديث المرفوع: «شيبتني هود»، فقيل له في ذلك، فقال قوله: «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك».

السابقون من جزاء، وما جاء مع بعضها من أوامر في الوقوف بوجه الفساد بحيث يحمل جميعها طابع المسؤولية. . . فلا عجب إذاً أن يشيب الإنسان عندما يفكر في مثل هذه المسؤوليات. . .

مسألة دقيقة أُخرى ينبغي الالتفات إليها في هذا المجال، وهي أنّ كثيراً من هذه الآيات تؤكّد ما ورد في السورة السابقة - أي سورة يونس - وأوائلها بوجه خاص يشبه أوائل تلك السورة ومضامينها تؤكّد تلك المضامين.

التّأثير المعنوي لهذه السّورة

أمّا بالنسبة لفضيلة هذه السورة، فقد ورد في حديث شريف عن النّبي ﷺ أنّه قال: «من قرأ هذه السورة أُعطي من الأجر والثواب بعدد من صدّق هوداً والأنبياء عليهم السلام ومن كذب بهم وكان يوم القيامة في درجة الشهداء وحوسب حساباً يسيراً»[١].

ومن الوضوح بمكان أنّ مجرّد التلاوة لا يعطي هذا الأثر، وإنّما يكون هذا الأثر إذا كانت تلاوة هذه السورة مقرونة بالتفكر والعمل بعدها. وهذا هو الذي يقرّب الإنسان إلى المؤمنين السالفين ويبعده عن الذين أنكروا على الأنبياء وجحدوا دعواتهم، وعلى هذا الأساس يُثاب بعددهم ويعطى أجر كل واحد منهم، ويكون هدفه كهدف شهداء تلك الأُمم السالفة. . . فلا مجال للتعجب من أن ينالَ درجاتهم ويحاسب حساباً يسيراً. . .

وينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من كتب هذه السورة على رق ظبي ويأخذها معه أعطاه الله قوّةً ونصراً، ومن حاربه مائة رجل لانتصر عليهم وغلبهم وإن صاح بهم انهزموا، وكلّ من رآه يخاف منه»[٢].

ولعل بعضاً ممن يطلب الراحة وينظر إلى الأُمور بسطحيّة يتصوّر في قراءته لمثل هذه الأحاديث أنّ الإنسان يمكن أن يصل إلى مثل هذه الأهداف بمجرّد وجود الكتابة أو الرسم القرآني معه، ولكنّه جلي وواضح أنّ المقصود بذلك العمل على طبق ما في السورة، وأن يتخذها منهجاً لحياته وأن يقرأها دائماً ويمضي على العمل بها بحذافيرها. . . ولا شك أنّ مثل هذا العمل تتحقق فيه مثل هذه الآثار أيضاً، لأنّ هذه السورة تأمر بالاستقامة والوقوف بوجه الفساد والانسجام مع الأهداف، وتحتوي على التجارب السابقة من تأريخ الأمم السالفة التي يوجد في كلّ واحد منها درس من الانتصار على العدوّ.

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٠٦، ح ٣. (٢) المصدر السابق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا
ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم
مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

التّفسير

الأُصول الأربعة في دعوة الأنبياء

تبدأ هذه السورة - كما في بداية السورة السابقة وسائر سور القرآن - ببيان أهميّة الكتاب العزيز المنزل من السماء، ليلتفت الناس إلى محتوياته أكثر ويتفكروا فيه بنظرة أدق.

وذكر الحروف المقطعة ﴿الٓر﴾ - نفسه - دليل على أهميّة هذا الكتاب السماوي العزيز الذي يتشكل من حروف بسيطة معروفة للجميع مثل الألف واللام والراء ﴿الٓر﴾(١) مع ما فيه من عظمة وإعجاز بالغين، ثمّ يبيّن بعد هذه الحروف المقطعة واحدة من خصائص القرآن الكريم في جملتين.

أوّلاً: إنّ جميع آياته متقنة ومحكمة ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

وثانياً: إنّ تفصيل حاجات الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية - مادية كانت أو معنوية - مبيَّن فيها أيضاً ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾.

هذا الكتاب العظيم مع هذه الخصيصة، من أين أُنزل، وكيف؟! أُنزل من عند ربّ حكيم وخبير ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

فبمقتضى حكمته أُحكمت آيات القرآن، وبمقتضى أنّه خبير مطلع بيّن آيات القرآن في مجالات مختلفة طبقاً لحاجات الإنسان، لأنّ من لم يطلع على تمام جزئيات الحاجات الروحية والجسمية للإنسان لايستطيع أن يصدر أحكاماً جديرة بالتكامل.

---

(١) شرحنا هذا المعنى وسائر التفاسير التي ذُكرت للحروف المقطعة في القرآن في بداية سورة البقرة وآل عمران والأعراف.

الواقع، إنّ كل واحدة من صفات القرآن التي جاءت في هذه الآية تسترفد من واحدة من صفات الله. . . فاستحكام القرآن من حكمته، وشرحه وتفصيله من خبرته.

وفي بيان ما هو الفرق بين ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ و﴿فُصِّلَتۡ﴾ بحث المفسّرون كثيراً وأبدوا احتمالات عديدة. . . وأقرب هذه الاحتمالات - بحسب مفهوم الآية آنفة الذكر - هو أنّ الجملة الأولى تعني أنّ القرآن مجموعة واحدة مترابطة كالبنيان المرصوص الثابت، كما تدل على أنّه نازل من إله فرد، ولهذا فلايوجد أي تضادٌ في آياته، ولا يُرى بينها أي اختلاف.

والجملة الثّانية إشارة إلى أنّ هذا الكتاب في عين وحدته فيه شعب وفروع متعددة تستوفي جميع حاجات الإنسان الرّوحيّة والمادية، فهو في عين وحدته كثير، وفي عين كثرته واحدا. .

وفي الآية التالية يُبيّن أهم ما يحتويه القرآن وما هو أساسه وهو التوحيد والوقوف بوجه الشرك ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾(1) وهذا أوّل تفصيل لمحتوى هذا الكتاب العظيم.

والثّاني من محتويات الدعوة السماوية: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾. . . نذير لكم من الظلم والفساد والشرك والكفر، وأُحذركم من عنادكم وعقاب الله لكم!

وثالث ما في منهج دعوتي إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم وتطهروا أنفسكم من الأدران: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

ورابعها هو أن تعودوا إلى الله بالتوبة، وأن تتصفوا - بعد غسل الذنوب والتطهر في ظل الاستغفار - بصفات الله، فإنّ العودة إليه تعالى لا تعني إلاّ الاقتباس من صفاته ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

في الواقع إنّ أربع مراحل من مراحل الدعوة المهمّة نحو الحق سبحانه بُيّنت في أربع جمل وفي أربعة أقسام، فقسمان يتضمنان الجانب «العقيدي» والأساسي. وقسمان يتضمنان الجانب «العملي» والفوقاني.

فقبول أصل التوحيد ومحاربة الشرك، وقبول رسالة النّبي محمّد ﷺ أصلان اعتقاديان، والتطهّر من الذنوب والتخلّق بالصفات الإلهية - اللذان يحملان معنى البناء

---

(١) في جملة ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ احتمالان: الأوّل: إنّه على لسان النبي ﷺ - كما أشرنا إليه - والتقدير: دعوتي وأمري ألاّ تعبدوا إلاّ الله. والثّاني: أنّه كلام الله، والتقدير: آمركم ألاّ تعبدوا إلاّ الله، ولكن جملة ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ تنسجم مع المعنى الأوّل.

بتمام معناه - أمران عمليان حضّ عليهما القرآن، وإذا تأملنا بدقّة في الآيات الكريمة وجدنا أن جميع محتوى القرآن يتلخص في هذه الأُصول الأربعة. .

هذا هو الفهرس لجميع محتوى القرآن، ولجميع محتوى هذه السورة أيضاً.

ثمّ تبيّن الآيات النتائج العملية لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو التالي ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذا عملنا بهذه الأُصول فإنّ الله سبحانه يهبنا حياة سعيدة إلى نهاية العمر، وفوق كل ذلك فإنّ كُلاً يُعطى بمقدار عمله ولا يهمل التفاوت والتفاضل بين الناس في كيفية العمل بهذه الأصول. . . ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ وأمّا في صورة المخالفة والعناد فتقول الآية: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ حين تمثلون للوقوف في محكمة العدل الإلهي.

واعلموا أنّ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ كائناً من كنتم، وفي أي محل ومقام أنتم، وهذه الجملة تشير إلى الأصل الخامس من الأصول التفصيليّة للقرآن وهي مسألة «المعاد والبعث» ولكن لا تتصوروا - أبداً - أنّ قدرتكم تعدّ شيئاً تجاه قدرة الله، أو أنّكم تستطيعون الفرار من أمره ومحكمة عدله. . . ولا تتصوروا - أيضاً - أنّه لا يستطيع أن يجمع عظامكم النخرة بعد الموت ويكسوها ثوباً جديداً من الحياة. . . ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

علاقة الدين بالدنيا

ما يزال الكثير يظنون أن التدين هو العمل لعمارة الآخرة والسعادة بعد الموت، وأنّ الأعمال الصالحة هي الزاد والمتاع للدار الآخرة. . . ولا يكترثون أبداً بأثر الدين الأصيل في الحياة الدنيا في حين أن الدين الصحيح في الوقت الذي يعمر الدار الآخرة يعمر «الدنيا» أيضاً. . . وطبيعي إذا لم يكن للدين أي تأثير على هذه الحياة الدنيا فلا تأثير له في الحياة الأُخرى أيضاً.

والقرآن الكريم يتعرض لهذا الموضوع بصراحة في آيات كثيرة، وربّما يتناول أحياناً الجزئيات من هذه المسائل، كما ورد في سورة نوح عليه السلام على لسان هذا النّبي العظيم مخاطباً قومه ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[1].

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ - ١٢.

ويفهم البعض أنّ صلة هذه المواهب المادية في الدنيا مع الاستغفار والتطهر من الذنوب معنوية وغير معروفة، في حين أنّه لا دليل على ذلك، بل الصلة بينهما ظاهرة معروفة.

فأي أحد لا يعلم أن الكذب والسرقة والفساد تهدم العلاقات الاجتماعية؟ وأي أحد لايعلم أن الظلم والتبعيض والإجحاف تجعل من حياة الناس جحيماً وتكدر صفوهم؟! وأيّ أحد يشك في حقيقة أن قبول أصل التوحيد وتكوين مجتمع توحيدي على أساس قيادة الأنبياء، وتطهير المجتمع من الذنوب والآثام، والتحلّي بالقيم الإنسانية - وهي الأصول الأربعة ذاتها التي أُشير إليها في الآيات المتقدّمة - يسير بالمجتمع البشري نحو هدف تكاملي أفضل، ويخلق محيطاً آمناً عامراً بالصفاء والحرية والصلاح؟

وعلى هذا الأساس نقرأ بعد هذه الأصول الأربعة في الآيات المتقدمة قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

التّفسير

اختلف بعض المفسّرين في شأن نزول الآية، فقيل إنّها نزلت في أحد المنافقين واسمه «الأخنس بن شريق» الذي كان ذا لسان ذلق ومظهر جميل، وكان يُبدي للنّبي ﷺ الحب ظاهراً لكنّه كان يخفي العداوة والبغضاء في الباطن(١).

كما نُقل عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام أنّها نزلت في جماعة من المشركين، حيث كانوا حين يمرون بالنّبي ﷺ كانوا يطأطئون برؤوسهم ويستغشون ثيابهم لئلا يراهم النّبي ﷺ(٢).

ولكن الآية تشير - على العموم - إلى أحد الأساليب الحمقاء التي كان يتبعها أعداء الإسلام والنّبي ﷺ وذلك بالاستفادة من طريقة النفاق والابتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم وماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعوا قول الحق.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٠٢ و ١٠٣؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٠٣؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

لذلك فإنّ الآية تقول: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾.

ومن أجل أن نفهم الآية فهماً دقيقاً ينبغي أن تتضح لنا كلمة ﴿يَثْنُونَ﴾ بجلاء فهي من مادة «ثنى» وهي في الأصل تعني ضم أقسام الشيء بعضها إلى بعض، فمثلاً في طي قطعة القماش والثوب يقال «ثنى ثوبه» وإنّما يقال للشخصين على سبيل المثال: اثنان، فلأجل أن انضمّ واحد إلى جانب الآخر، ويقال للمادحين «مثنون» كذلك، لأنّهم يعدون الصفات البارزة واحدة بعد الأخرى.

وتعني الانحناء أيضاً، لأنّ الإنسان بعمله هذا وهو الانحناء يقرّب أجزاء من جسمه بعضها إلى بعض.

وتأتي هذه المادة بمعنى أن تجد العداوة والبغضاء والحقد طريقها إلى القلب أيضاً لأنّ الإنسان بهذا العمل يقرب عداء الشخص - أو أيّ شيء آخر - إلى القلب، ومثل هذا التعبير موجود في الأدب العربي إذ يقال: «اثنونى صدره على البغضاء»(١).

ومع الأخذ بنظر الاعتبار بما ورد آنفاً من معان لمادة «ثنى» فلا يبعد أن تكون كلمة «يثنون» مشيرة إلى كل عمل خفيّ - ظاهري وباطنيّ - قام به أعداء النّبي ﷺ، فمن جهة يُضمرون العداوة والبغضاء في القلوب ويبدون المحبّة في لسان ذلق جميل! ومن جهة أُخرى يقرّبون رؤوسهم بعضها إلى بعض عند التحدث، ويثنون الصدور ويستغشون الثياب، لئلا تنكشف مؤامراتهم وأقوالهم السيئة ويطّلع أحد على نياتهم.

لذلك فإنّ القرآن يعقّب مباشرة: أن احذروهم، فإنّهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإنّ الله يعلم ما يخفون وما يعلنون... ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

جميع الأحياء ضيوف مأدبته

الآية السابقة أشارت إلى سعة علم الله وإحاطته بالسرّ وما يخفون وما يعلنون، والآية

(١) يراجع «تاج العروس» و«مجمع البيان» و«المنار» و«مفردات الراغب» في هذا الشأن. صفحة ١٦.

محل البحث تُعدّ دليلاً على تلك الآية المتقدمة، فإنّها تتحدث عن الرازق لجميع الموجودات ولا يمكن أن يتمّ ذلك إلاّ بالإحاطة الكاملة بجميع العالم وما فيه..

تقول الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ويعلم تقلّبها وتنقلها من مكان لآخر، وحيثما كانت فإنّ الرزق يصل إليها منه.

وهذه الحقائق مع جميع حدودها ثابتة في كتاب مبين ولوح محفوظ في علم الله ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ملاحظات:

١ - بالرغم من أنّ كلمة ﴿دَآبَّةٍ﴾ مشتقة من مادة «دبيب» التي تعني السير ببطء وبخطى قصيرة، ولكنّها من الناحية اللغوية تشمل كل حيوان يتحرك في سيره ببطء أو بسرعة، فنرى كلمة الدابة تُطلق على الفرس وعلى كل حيوان يركب عليه، وواضح أنّ الكلمة في هذه الآية - محل البحث - تشمل جميع الحيوانات الموجودة على سطح الأرض بما فيها الحيوانات التي تدبّ في سيرها..

٢ - «الرزق»: هو العطاء المستمر، ومن هنا كان عطاء الله المستمر للموجودات رزقاً، وينبغي الالتفات إلى أن مفهوم الرزق غير منحصر في الحاجات المادية، بل يشمل كل عطاء ماديّ أو معنوي. ولذلك نقول مثلاً: «اللّهم ارزقني علماً كاملاً» أو نقول: «اللّهم ارزقني الشهادة في سبيلك».

والظاهر أنّ المراد من الرزق في هذه الآية الرزق المادي، ولكن إرادة المفهوم العام الذي يندرج تحته الرزق المعنوي غير بعيد..

٣ - «المستقر» - في الأصل - تعني المقّر، لأن جذر هذه الكلمة في اللغة مأخوذ من «قرّ» على وزن «حرّ» وتعني كلمة القرّ البرد الشديد الذي يجعل الإنسان والموجودات الأُخرى يركنون إلى بيوتهم، ومن هنا جاءت بمعنى التوقف والسكون أيضاً.

و«المستودع» و«الوديعة» من مادة واحدة، وهاتان الكلمتان في الأصل تعنيان «إطلاق الشيء وتركه» ولذلك تطلق عليه الأُمور غير الثابتة التي ترجع إلى حالتها الطبيعية، فيُطلق على كل أمر غير ثابت «مستودع» وبسبب رجوع الشيء إلى صاحبه الأصلي وتركه محله الذي هو فيه يسمى ذلك الشيء «وديعة» أيضاً.

فالآية آنفة الذكر تقول: لا ينبغي التصور أن الله سبحانه يرزق الدواب التي تستقر في

أماكنها فحسب، بل هي حيث ما كانت وفي أي ظرف من الظروف تكون فإنّه تعالى يوصل إليها أرزاقها، لأنّه يعلم أماكن استقرارها، وكذلك يعلم جميع المناطق التي تنتقل إليها وترحل عنها من حيوانات بحرية مهولة الحجم، إلى أصغر الكائنات المجهرية، فإنّه تعالى يرزق كلًّا منها بحسب حاجته وحاله.

وهذا الرزق ملحوظ بحيث يناسب حال الموجودات من حيث الكمية والكيفية، وهو مطابق تماماً لمقدار الحاجة والرغبة، حتى غذاء الجنين الذي في رحم أُمّه يتفاوت كل شهر عن الشهر السابق في النوعية والكمية، بل كل يوم عن اليوم السابق بالرغم ممّا يبدو من أنّ الدم نوع واحد لا أكثر. وكذلك الطفل في مرحلة الرضاعة حيث يبدو أنّ غذاءه من نوع واحد، لكن تركيب هذا الغذاء أو اللبن يختلف من يوم لآخر.

٤ - «الكتاب المبين» معناه المكتوب الواضح البيّن، ويشير إلى علم الله الواسع، وقد يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ أيضاً.

ويحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّه لا ينبغي لأحد أن يهتم لرزقه أقلّ اهتمام، أو يحتمل سقوط اسمه وسهمه من القلم، لأنّ أسماء الجميع مثبتة في ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كتاب أحصى الجميع بجلاء ووضوح!

تقسيم الأرزاق والسعي من أجل الحياة

هناك أبحاث مهمّة في مسألة «الرزق»، ونأخذ بنظر الاعتبار - هنا - قسماً منها:

١ - «الرزق» - كما قلنا آنفاً - يعني في اللغة العطاء المستمر والدائم، وهو أعم من أن يكون رزقاً ماديّاً أو معنوياً... فعلى هذا كل ما يكون فيه نصيب للعباد من قبل الله وينتفعون منه - من مواد غذائية ومسكن وملبس أو علم وعقل وفهم وإيمان وإخلاص - يسمى رزقاً، ومن ظنّ أن مفهوم الرزق خاص بالجوانب المادّية لم يلتفت إلى موارد استعماله في القرآن الكريم بدقة... فالقرآن يتحدث عن الشهداء في سبيل الله بأنّهم... ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١).

وواضح أنّ رزق الشهداء - في عالم البرزخ - ليس نعماً مادية، بل هو عبارة عن المواهب المعنوية التي يصعب علينا تصوّرها في هذه الحياة المادية.

٢ - مسألة تأمين الحاجات بالنسبة للموجودات الحية - وبتعبير آخر تأمين رزقها -

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

من المسائل المثيرة التي تنكشف أسرارها بمرور الزمان وتَقدُّم العلم. . . وتظهر كل يوم ميادين جديدة تدعو للتعجب والدهشة.

كان العلماء في الماضي يتساءلون فيما لو كان في أعماق البحار موجودات حيّة، فمن أين يتم تأمين غذائها؟! إذْ إنّ أصل الغذاء يعود إلى النباتات والحشائش، وهي تحتاج إلى نور الشمس، ولكن على عمق ٧٠٠ متر فصاعداً لا وجود لنور الشمس أبداً، بل ليل أبدي مظلم يلقي ظلاله ويبسط أسداله هناك.

ولكن اتّضح بتقدم العلم أنّ نور الشمس يُغذّي النباتات المجهرية في سطح الماء وبين الأمواج، وحين تبلغ مرحلة النضج تهبط إلى أعماق البحر كالفاكهة الناضجة، وتنضم إلى الأرزاق الإلهيّة للاحياء في تلك الأعماق، مائدة نعمة الله للموجودات الحية تحت الماء!

ومن جهة أُخرى فهناك طيور كثيرة تتغذى من أسماك البحر، منها طيور تطير في الليل وتهبط إلى البحر كالغواص الماهر وعن طريق أمواج رادارية خاصّة تخرج من آنافها تعرف صيدها وتصطاده بمنقارها.

ورزق بعض أنواع الطيور يكون مُدّخراً بين ثنايا أسنان حيوانات بحرية كبيرة هذا النوع من الحيوانات بعد أن يتغذى من حيوانات البحر، تحتاج أسنانه إلى «منظف طبيعي».

فيأتي إلى ساحل البحر ويفتح فمه الواسع فتدخل هذه الطيور التي ادّخر رزقها في فم هذا الحيوان الضخم - دون وحشة ولا اضطراب - وتبحث عن رزقها بين ثنايا أسنان هذا الحيوان الكبير، فتملأ بطونها من جهة، وتريح الحيوان الذي تزدحم بين أسنانه «هذه الفضلات» من جهة أُخرى. . . وحين تخرج الطيور وتطير في الفضاء يطبق هذا الحيوان البحري فمه بكل هدوء ويعود إلى أعماق البحر.

طريقة إيصال الرزق من الله تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة ومحيرة حقّاً. من الجنين الذي يعيش في بطن أُمّه ولا يعلم أحد من أسراره شيئاً، إلى الحشرات المختلفة التي تعيش في طيّات الأرض، وفي الأشجار وعلى قمم الجبال أو في أعماق البحر، وفي الأصداف. . . جميع هذه الموجودات يتكفل الله برزقها ولا تُخفى على علمه، وكما يقول القرآن: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

الطريف في الآيات آنفة الذكر أنّها تعبّر عن الموجودات التي تطلب الرزق بـ «الدّابّة»

وفيها إشارة لطيفة إلى العلاقة بين موضوع «الطاقة» و«الحركة». ونعلم أنّه حيثما تكن حركة فلابدّ لها من طاقة، أي ما يكون منشأً للحركة، والقرآن الكريم يبيّن - في الآيات محل البحث - أنّ الله يرزق جميع الموجودات المتحركة، وإذا ما توسعنا في معنى الحركة فإنّ النباتات تندرج في هذا الأمر أيضاً، لأنّ للنباتات حركة دقيقة وظريفة في نموها، ولهذا عدّوا في الفلسفة الإسلامية موضوع «النمو» واحداً من أقسام الحركة. . .

٣ - هل أنّ رزق كلّ أحد مقدّر ومعيّن من أوّل عمره إلى آخره، وهل أنّه يصل إليه شاء أم أبى؟! أم أنّ عليه أن يسعى في طلبه؟

يظنّ بعض الأفراد السذّج استناداً إلى الآية آنفة الذكر، وإلى بعض الرّوايات التي تذكر أنّ الرزق مقدر ومعين، أنّه لا داعي للسعي من أجل الرزق والمعاش، فإنّه لابدّ من وصول الرزق، ويقول بكل بساطة: إنّ من خلق الأشداق قدّر لها الأرزاق.

إنّ سلوك مثل هؤلاء الأفراد الذين لاحظّ لهم من المعرفة الدينية يعطي ذريعة إلى الأعداء حيث يدّعون أنّ الدين أحد عوامل الركود الاقتصادي وتقبل الحرمان وإماتة النشاطات الإيجابيّة في الحياة، فيقول مثلاً: إذا لم تكن الموهبة الفلانية من نصيبي فإنّها لم تكن من رزقي قطعاً. . . فلو كانت من نصيبي لوصلتني حتماً من دون تكلف عناء الكسب. وبهذا يستغل المستعمرون هذه الفرصة ليحرموا الكثير من الخلق التمتع بأسباب الحياة في حين أنّ أقل معرفة بالقرآن والأحاديث الإسلامية تكفي في بيان أنّ الإسلام يعدّ أساس أي استفادة مادية ومعنوية للإنسان هو السعي والجدّ والمثابرة، حتى أنّنا نجد في القرآن جملة بمثابة الشعار لهذا الموضوع، وهي الآية الكريمة ﴿لَيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١).

وكان أئمّة المسلمين - ومن أجل أن يسنّوا للآخرين نهجاً يسيرون عليه - يعملون في كثير من المواقع أعمالاً صعبة ومجهدة.

والأنبياء السابقون - أيضاً - لم يُستثنوا من هذا القانون، فكانوا يعملون على الاكتساب، من رعي الأغنام إلى الخياطة إلى نسج الدروع إلى الزراعة. فإذا كان مفهوم الرزق من الله أن نجلس في البيت وننتظر الرزق، فما كان ينبغي للأنبياء والأئمّة - الذين هم أعرف بالمفاهيم الدينية - أن يسعوا هذا السعي إلى الرزق!

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

وعلى هذا نقول: إنّ رزق كل أحد مقدّر وثابت، إلاّ أنّه مشروط بالسعي والجد، وإذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط. وهذا كما نقول: إن لكلّ فرد أجلاً ومدّة من العمر، ولكن من المسلم والطبيعيّ أن مفهوم هذا الكلام لا يعني أنّ الإنسان حتى لو أقدم على الانتحار أو أضرب عن الطعام فإنّه سيبقى حيّاً إلى أجل معيّن!! إنّما مفهوم هذا الكلام أن للبدن استعداداً للبقاء إلى مدّة معينة ولكن بشرط أن يراعي الظروف الصحيّة وأن يبتعد عن الأخطار، وأن يجنّب نفسه عمّا يكون سبباً في تعجيل الموت.

المسألة المهمّة في هذا المجال أنّ الآيات والرّوايات المتعلقة بتقدير الرزق - في الواقع - بمثابة الكابح للأشخاص الحريصين وعبّاد الدنيا الذين يلجون كل باب، ويرتكبون أنواع الظلم والجنايات، ويتصورون أنّهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمّنوا حياتهم!

إنّ آيات القرآن والأحاديث الإسلامية تحذّر هذا النمط من الناس ألاّ يمدّوا أيديهم وأرجلهم عبثاً، وألاّ يطلبوا الرزق من طرق غير مشروعة ولا معقولة، بل يكفي أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، والله سبحانه يضمن لهم الرزق فالله الذي لم ينسهم في ظلمة الرحم.

الله الذي تكفّل رزقهم أيّام الطفولة حيث هيأ لهم أثداء الأمّهات.

الله الذي جعل الأب يسعى من الصباح إلى الليل ليهيّىء لهم الغذاء بكل عطف وشفقة - بعد أن أنهوا مرحلة الرضاعة - وهو مسرور بالتعب من أجلهم...

أجل، هذا الرّب الرحيم كيف يمكن أن ينسى الإنسان إذا ما كبر ووجد القدرة على العمل والكسب.

تُرى هل يجيز الإيمان والعقل أن يلجأ الإنسان إلى الظلم والإثم والتجاوز على حقوق الآخرين ويحرص على غصب حقوق المستضعفين بمجرّد أنّه يظن عدم توفر رزقه؟

وبالطبع لا يمكن أن ننكر أنّ بعض الأرزاق تصل إلى الإنسان سعى لها أم لم يسع. فهل يمكن أنّ ننكر أنّ نور الشمس يضيء في بيتنا من دون سعينا، وأنّ المطر والهواء يصلان إلينا دون سعي منّا؟

وهل يمكن أن ننكر أنّ العقل والفكر والاستعداد المذخور فينا من أوّل يوم وجودنا لم يكن بسعينا؟!

ولكن هذه المواهب التي تنقلها إلينا الريح - كما يقال - أو بتعبير أصحّ هذه المواهب التي وصلتنا بلطف الله ومن دون سعينا، إذا لم نحافظ عليها بالجدِّ والسعي بطريقة صحيحة فستضيع من أيدينا، أو أنّها ستبقى بلا أثر!

هناك كلام معروف منقول عن الإمام علي عليه السلام في شأن الرزق فيقول: «واعلم يا بني أن الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزق يطلبك»(١) وفي هذا الكلام إشارة إلى هذه الحقيقة.

كما لا ينكر أنّ بعض موارد الرزق لا يأتي تبعاً لشيء ظاهر وملموس، بل يصلنا على أثر سلسلة من الاتفاقات والمصادفات، هذه الحوادث وإن كانت في نظرنا مصادفات، إلاّ أنها في الواقع وفي نظام الخلق قائمة على حساب دقيق، ولاشك أنّ حساب هذا النوع من الرزق منفصل عن الأرزاق التي تأتي تبعاً للجدّ والسعي، والكلام آنف الذكر يمكن أن يشير إلى هذا المطلب أيضاً.

ولكن على كل حال - فإن النقطة الأساسية هنا أنّ جميع التعاليم الإسلامية تأمرنا أن نسعى أكثر فأكثر لتأمين نواحي الحياة المادية والمعنوية، وأنّ الفرار من العمل - بزعم أنّ الرزق مقسوم وأنّه آت لا محالة - غير صحيح!..

٤ - في الآيات المتقدمة - التي هي محل البحث - إشارة إلى «الرزق» فحسب، وبعدها ببضع آيات يأتي التعبير عن التائبين والمؤمنين ويُشار فيها إلى «المتاع الحسن».

وبالموازنة والمقارنة بين هذين الأمرين يدلنا هذا الموضوع على أنّ الرزق معدّ لكل دابّة من إنس وحشرات وحيوانات مفترسة... الخ. وللمحسنين والمسيئين جميعاً!... إلاّ أنّ «المتاع الحسن» والمواهب الجديرة والثمينة خاصّة بالمؤمنين الذين يطهرون أنفسهم من كل ذنب وتلوّث بماء التوبة، ويتمتعون بنعم الله في مسير طاعته، لا في طريق الهوى والهوس!

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

(١) نهج البلاغة، من وصية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام. الرسالة ٣١.

التفسير

الهدف من الخَلق

في هذه الآية بُحثت ثلاثة مطالب أساسية:

المطلب الأوّل: يبحث عن خلق عالم الوجود - وخصوصاً بداية الخلق - الذي يدل على قدرة الله وعظمته سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . ﴾.

ولا حاجة لبيان أنّ المقصود من كلمة «اليوم» في هذه الآية ليس هو اليوم العادي الذي هو مجموع أربع وعشرين ساعة، لأنّ الأرض والسماء لم تكونا موجودتين حينئذ. . . فلا الكرة الأرضية كانت موجودة، ولا حركتها حول نفسها التي تُنتج أربعاً وعشرين ساعة بل المقصود منه - كما بينا سابقاً - هو الزمان، سواء كان قصيراً أو مديداً جدّاً بحيث يبلغ مليارات السنوات مثلاً، وقد نبّهنا على هذا المعنى - في ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف - بشرح وافٍ في هذا المجال، فلا حاجة للتكرار والإعادة.

وذكرنا هُناك أنّ خلق العالم كان في ستة أزمنة متوالية ومتتابعة، مع أنّ الله قادر على أن يخلق العالم كلّه في لحظة واحدة، وذلك لأنّ الخلق التدريجي يعطي صورة جديدة ولوناً جديداً وشكلا بديعاً وتتبيّن قدرة الله وعظمته أكثر وأحسن.

فهو يريد أن يبيّن قدرته في آلاف الصور لا بصورة واحدة، وحكمته في آلاف الثياب لا بثوب واحد، لتتيسر معرفته وكذلك معرفة حكمته وقدرته للناس، ولنجد الدلائل - من خلال عدد الأيّام والسنوات والقرون والأعصار التي مرّت على العالم - على معرفة الله! . . ثمّ يضيف سبحانه أن عرشه كان على الماء ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾.

ومن أجل أن نفهم تفسير هذه الجملة ينبغي أن نفهم المراد من كلمتي «العرش» و«الماء».

«فالعرش» في الأصل يعني السقف أو ما يكون له سقف، كما يطلق على الأسرّة العالية كأسرّة الملوك والسلاطين الماضين، ويطلق أيضاً على خشب بعض الأشجار، وغير ذلك.

ولكن هذه الكلمة استُعملت بمعنى القدرة أيضاً ويقال «استوى فلان على عرشه» كناية عن بلوغه القدرة كما يقال «ثُلَّ عرش فلان» كنايةً عن ذهاب قدرته(١).

---

(١) قد يطلق «العرش» ويراد به «الكرسي» وله مفهوم آخر وقد بيّناه في ذيل الآية (٢٢٥) من سورة البقرة.

كما ينبغي الالتفات إلى هذه الدقيقة، وهي أنّ العرش يطلق أحياناً على عالم الوجود، لأنّ عرش قدرة الله يستوعب جميع هذا العالم.

وأمّا «الماء» فمعناه معروف، وهو السائل المستعمل للشرب والتطهير، إلاّ أنّه قد يطلق على كل سائل مائع كالفلزّات المائعة وما أشبه ذلك، وبضميمة ما قلناه في تفسير هاتين الكلمتين يُستفاد أنّه في بداية الخلق كان الكون بصورة مواد ذائبة «مع غازات مضغوطة للغاية، بحيث كانت على صورة مواد ذائبة أو مائعة».

وبعدئذ حدثت اهتزازات شديدة وانفجارات عظيمة في هذه المواد المتراكمة الذائبة، وأخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلى الخارج، وأخذ هذا الوجود المترابط بالانفصال، ثمّ تشكلت بعد ذلك الكواكب السيّارة والمنظومات الشمسية والأجرام السماوية.

فعلى هذا نقول: إنّ عالم الوجود ومرتكزات قدرة الله كانت مستقرة بادىء الأمر على المواد المتراكمة الذائبة، وهذا الأمر هو نفسه الذي أُشير إليه في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾.

وفي الخُطبة الأُولى من نهج البلاغة إشارات واضحة إلى هذا المعنى..

والمطلب الثّاني: الذي تشير إليه الآية - آنفة الذكر - هو الهدف من خلق الكون، والقسم الأساس من ذلك الهدف يعود للإنسان نفسه الذي يمثل ذروة الخلائق... هذا الإنسان الذي كُتب عليه أن يسير في طريق التعليم والتربية ويشقّ طريق التكامل نحو الله تعالى يقول الله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليختبركم ويمتحنكم أيّكم الأفضل والأحسن عملاً بهذه الدار الدنيا.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ كلمة مشتقّة من مادة «البلاء» و«الابتلاء» ومعناها - كما أشرنا إليه آنفاً - الاختبار والامتحان...

والامتحانات الإلهية ليست من قبيل معرفة النفس وكشف الحالة التي عليها الإنسان في محتواه الداخلي وفي فكره وروحه، بل بمعنى التربية (تقدم شرح هذا الموضوع في ذيل الآية ١٥٥ من سورة البقرة) والطريف في هذه الآية أنّها تجعل قيمة كل إنسان بحسن عمله لا بكثرة عمله، وهذا يعني أنّ الإسلام يستند دائماً إلى الكيفية في العمل لا إلى الكثرة والكمية فيه.

وفي هذا المجال ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوَبكم عملاً، وإنّما الإصابة خشية الله والنيّة الصادقة. ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلاّ الله عزّوجلّ»(١).

والمطلب الثّالث: الذي تشير إليه الآية آنفة الذكر - هو مسألة المعاد الذي لا ينفصل ولا يتجزأ عن مسألة خلق العالم، وفيها بيان الهدف من الخلق وهو تكامل الإنسان وتكامل الإنسان يعني التهيّؤ إلى الحياة في عالم أوسع وأكمل، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وكلمة ﴿هَٰذَآ﴾ التي وردت - في الآية آنفة الذكر - على لسان الكفّار، إشارة إلى كلام النّبي صلى الله عليه وآله في شأن المعاد... أي إنّ ما تدّعيه أيّها النّبي في شأن المعاد سحر مكشوف وواضح، فعلى هذا تكون كلمة السحر هنا بمعنى الكلام العاري عن الحقيقة، والقول الذي لا أساس له، وبتعبير بسيط: الخدعة والسخرية!! لأنّ السَّحَرة يُظهرون للناظرين بأعمالهم أُموراً لا واقع لها، ولهذا قد تطلق كلمة السحر على كل أمر عارٍ عن الحقيقة..

أمّا من يرى بأنّ ﴿هَٰذَآ﴾ إشارة إلى القرآن المجيد، لأنّ القرآن أخّاذ وفيه جاذبية السحر فإنّه يجانب الصواب، لأنّ الآية تتكلم عن المعاد ولا تتكلم عن القرآن، وإن كنّا لا ننكر أنّ القرآن فيه جاذبية وأنّه أخّاذ للغاية.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٠٧؛ أصول الكافي، ج ٢، ص ١٦، ح ٤.

التفسير

استيعاب المؤمنين وعدم استيعاب غيرهم

في هذه الآيات - وبمناسبة البحث السابق عن غير المؤمنين - بيان لزوايا الحالات النفسية ونقاط الضعف في أخلاق هؤلاء الأفراد والتي تجرّ الإنسان إلى هاوية الظلام والفساد.

وأوّل صفة تذكر لهؤلاء هي السخرية من الحقائق وعدم الاكتراث بها وبالمسائل المصيرية، فهؤلاء بسبب جهلهم وعدم معرفتهم وغرورهم حين يسمعون تهديد الأنبياء في مؤاخذة المسيئين ومعاقبتهم، ثمّ تمرّ عليهم عدّة أيّام يؤخر الله تعالى بلطفه فيها العذاب عنهم، نراهم يقولون باستهزاءٍ مبطّن: ما السبب في تأخّر العذاب الإلهي، وأين عقاب الله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾.

و «الأمّة» مشتقّة من مادة «أمّ» وهي بمعنى الوالدة، ومعناها في الأصل انضمام الأشياء بعضها إلى بعض، ولذلك يقال لكل مجموعة على هدف معين، أو زمان أو مكان واحد ﴿أُمَّةٍ﴾.

وقد جاءت هذه الكلمة بمعنى الوقت والزمان أيضاً، لأنّ أجزاء الزمان مرتبطة بعضها ببعض، أو لأنّ المجموعة أو الجماعة تعيش في عصر وزمان معين، فنحن نقرأ في سورة يوسف عليه السلام الآية (٤٥) مثلاً ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ . . .

ففي الآية - محل البحث - كلمة «الأمّة» جاءت بهذا المعنى، ولذلك وصفت بكلمة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ فمعنى الآية هو: إذا أخرنا عن هؤلاء العذاب والمجازاة لمدّة قصيرة قالوا: أي شيء يمنعه؟! . . .

وعلى كلِّ حال، فهذه عادة الجاهلين والمغترين، فكلّما وجدوا شيئاً لا ينسجم مع ميولهم وطباعهم عدّوه سخرية، لذلك يتخذون التهديدات والنذر التي توقظ أصحاب الحق وتهزهم. . . يتخذونها هزواً ويسخرون منها شأنهم شأن من يلعب بالنّار.

لكن القرآن يحذرهُم وينذرهم بصراحة في ردّه على كلامهم، ويبيّن لهم أن لا دافع لعذاب الله إذا جاءهم ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ وأنّ الذين يسخرون منه واقع بهم ومدمّرهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أجل، ستصعد صرخاتهم إلى السماء في ذلك الحين، ويندمون على كلماتهم

المخجلة، لكن لا صرخاتهم تغنيهم وتنقذهم، ولا هذا الندم ينفعهم، ولات حين مندم.

ومن نقاط الضعف عند هؤلاء قلّة الصبر بوجه المشاكل والصعاب وانحسار البركات الإلهية. حيث نجد في الآية التالية قوله تعالى عنهم: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

وبالرغم من أنّ هذا التعبير يتناول الإنسان بشكل عام، لكن - كما أشرنا إليه سابقاً - المراد من الإنسان في مثل هذه الآيات هو الأفراد الذين لم يتلقوا تربية سليمة والمنحرفون عن جادة الحق، لذلك يتطابق هذا البحث مع البحث السابق عن الأفراد غير المؤمنين.

ونقطة الضعف الثّالثة عند هؤلاء أنّهم حين يتنعمون بنعمة ويشعرون بالترف والرفاه يبلغ بهم الفرح والتكبر والغرور درجة ينسون معها كل شيء، ولذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

وهناك احتمال آخر في تفسير هذه الجملة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ وهو أنّ مثل هؤلاء الأشخاص حين يُصابون بالشدائد ثمّ يبدل الله بلطفه هذه الشدائد نعماً من عنده يقول هؤلاء: إنّ الشدائد السابقة كانت كفّارة عن ذنوبنا وقد غسلت جميع معاصينا، لذلك أصبحنا من المقربين إلى الله، فلا حاجة للتوبة والعودة إلى ساحة الله وحضرته.

ثمّ يستثني الله سبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد والمصاعب بصبر، ولا يتركون

الأعمال الصالحة على كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور والتكبر وضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

هؤلاء لا يَغترّون عند وفور النعمة فينسون الله، ولا ييأسون عند الشدائد والمصائب فيكفرون بالله، بل إنّ أرواحهم الكبيرة وأفكارهم السليمة جعلتهم يهضمون النِّعم والبلايا في أنفسهم دون الغفلة عن ذكر الله وأداء مسؤولياتهم ولذلك فإنّ لهؤلاء ثواباً ومغفرة من الله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

بحوث

١ - الأمّة المعدُودَة وأصحاب المهدي عليه السلام

في روايات عديدة وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الأُمّة المعدودة تعني النفر القليل، وفيها إشارة إلى أصحاب المهدي عليه السلام وأنصاره(١)، وعلى هذا يكون معنى الآية: إذا ما أخرنا العذاب عن الظالمين والمسيئين إلى ظهور المهدي عليه السلام وأصحابه، فإنّ أُولئك الظالمين يقولون: أي شيء يقف أمام عذاب الله فيحبسه عنّا!

ولكن كما قلنا إن ظاهر الآية من الأُمّة المعدودة هو الزمان المعدود والمعين، وقد وردت رواية عن الإمام علي عليه السلام في تفسير الأُمّة المعدودة تشير إلى ما بيّناه، وهو الزمان المعين، فيمكن أن تكون الرّوايات الآنفة تشير إلى المعنى الثّاني من الآية، وهو ما اصطلح عليه بـ «بطن الآية» وطبيعي أنّه بمثابة البيان عن القانون الكلي في شأن الظالمين، لا أنّه موضوع خاص بالمشركين الذين عاصروا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن نعلم أنّ آيات القرآن تحمل معانٍ كثيرة مختلفة، فالمعنى الأوّل والظاهر يمكن أن يكون في مسألة خاصّة أو جماعة معينة، والمعنى الآخر يكون عاماً مجرّداً عن الزمان وغير مخصوص بفئة معينة.

٢ - أربع ظواهر لضيق الأفق الفكري

رسمت الآيات المتقدمة ثلاث حالات مختلفة من حالات المشركين والمسيئين، وقد ورد في ضمنها أربعة أوصاف لهم:

الأوّل: إنّ المشرك يؤوس عند قطع النعمة عنه، أي لا يبقى له أمل أبداً.

والثّاني: إنّه كفور، أي غير شاكر أبداً.

والثّالث: إنّه إذا غرق بالنعمة أو نال أقلّ نعمة، فهو - على العكس من الحالة السابقة - ينسى نفسه وينسى كل شيء ويغفل بما ناله من اللّذة والنشاط، فيغدو ثملاً مغروراً وينجر إلى الفساد والتجاوز على حدود الله.

والوصف الرّابع: إنّ حاله عند وفور النعمة حالة الفخر، أي يبلغ درجة كبيرة من التكبر.

(١) بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٠٣.

وعلى كل حال، هذه الأوصاف الأربعة هي ظواهر من ضيق الأُفق وقلّة الاستيعاب والرؤية. . . وهي لا تختص بجماعة معينة من غير المؤمنين وملوّثي الفكر، بل هي سلسلة من الأوصاف العامّة لجميع هؤلاء. .

أمّا المؤمنون الذين يتمتعون بروح كبيرة وفكرٍ عال وصدر رحب ورؤية بعيدة المدى، فلا يهزّهم تبدل الدنيا والزمان، ولا ييأسوا لسلب النعمة عنهم، ولا يغرّهم إقبال النعمة فيكونوا من الغافلين، لذا ينبغي الدقة والملاحظة في آخر الآية التي تستثني المؤمنين، إذ ورد التعبير فيها عن الإيمان بالصبر والاستقامة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

٣ - معيار الضعف النفسي

والمسألة الدقيقة الأُخرى التي ينبغي الالتفات إليها، هي أنّه في الموردين (مورد سلب النعمة بعد إسباغها ومورد إسباغ النعمة بعد سلبها) أشير بكلمة ﴿أَذَقْنَا﴾ المشتقّة من «الإذاقة» ويراد بها أنّ نفوس هؤلاء المشركين ضعيفة إلى درجة أنّهم لو أعطوا نعمة قليلة ثمّ سُلبت منهم يضجرون وييأسون، كما أنّهم إذا ذاقوا نعمة بعد شدة يفرحون ويغترّون بها.

٤ - النعَم جميعُها مواهب

الطريف أنّه في الآية الأُولى عبّر عن النعمة بالرحمة ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وفي الآية الثّانية وردت كلمة «النعمة» نفسها، ويمكن أن تكون إشارة إلى أنّ نعم الله جميعها تصل إلى الإنسان عن طريق التفضل والرحمة لا عن طريق الاستحقاق، وإذا كان الأصل أن تكون النعمة على حسب الاستحقاق، فإنّ جماعة قليلة ستنالها، أو أنّ أية جماعة لن تنالها أبداً.

٥ - أثران للأعمال الحسنة

في آخر آية - من الآيات محل البحث - وعدٌ بالمغفرة، للأفراد المؤمنين الذين يتمتعون بالاستقامة، ووعد بالأجر الكبير أيضاً جزاءً لأعمالهم الصالحة، فهي إشارة إلى أنّ الأعمال الصالحة لها أثران:

الأوّل: غسل الذنوب.

والثّاني: كسب الثواب العظيم والأجر الكبير.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

سبب النّزول

وردت في شأن نزول الآيات المتقدمة روايتان، ويحتمل أن تكون كليهما صحيحتين جميعاً.

الأُولى: إنّ جماعة من رؤساء مكّة جاؤوا إلى النّبي ﷺ، وقالوا: إذا كنت صادقاً في دعواك بأنّك نبي فصيّر جبال مكّة ذهباً أو ائتنا بملائكة من السماء تصدّق نبوّتك، فنزلت هذه الآيات[1].

والثّانية: إنّه روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «يا علي إنّي سألت ربّي أن يوالي بيني وبينك ففعل، وسألت ربّي أن يؤاخي بيني وبينك ففعل، وسألت ربّي أن يجعلك وصيي ففعل» فقال رجلان من قريش - من المخالفين -: والله لصاع تمر في شن بال أحبّ إلينا ممّا سأل محمّد ربّه، فهلا سأل ربّه ملكاً يعضده على عدوه، أو كنزاً يستغني به عن فاقته؟...[2] فنزلت الآيات السابقة لتكون جواباً لأُولئك...

التّفسير

القرآن المعجزة الخالدة

يبدو من هذه الآيات أنّ النّبي ﷺ كان يوكل إبلاغ الآيات - نظراً للجاجة الأعداء ومخالفتهم - لآخر فرصة، لذا فإنّ الله سبحانه ينهى نبيّه في أوّل آية نبحثها عن ذلك

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٠٣ و ١٠٤.

بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ لئلا يطلبوا منك معاجز مقترحة كنزول كنز من السماء، أو مجيء الملائكة لتصديقه ﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ .

وكما يستفاد من آيات القرآن الأخرى كما في سورة الإسراء (الآيات ٩٠ - ٩٣) - إنّ هؤلاء لا يطلبون هذه المعاجز ليصدقوا دعوى النّبي ويتبعوا الحق، بل هدفهم اللجاجة والعناد والتّحجج الواهي، فلذلك تأتي الآية معقبة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ سواءً قبلوا دعواك أم لم يقبلوا، وسخروا منك أم لم يسخروا، فالله هو الحافظ والناظر على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ أي لا تكترث بكفرهم وإيمانهم فإنّ ذلك لا يعنيك، وإنّما وظيفتك أن تبلغهم، والله سبحانه هو الذي يعرف كيف يحاسبهم، وكيف يعاملهم؟ .

وبما أنّ الذين يتذرعون بالحجج ويشكلون على النّبي كانوا أساساً منكرين لِوحي الله، ويقولون: إنّ هذه الآية ليست نازلة من قبل الله، وإنّ هذا الكلام افتراه محمّد - وحاشاه من ذلك - على الله كذباً، لذلك تأتي الآية التالية لتبيّن بصراحة تامة: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ .

فقل لهم يا رسول الله - إن كانوا صادقين في دعواهم أنّ ما تقوله ليس من الله وأنّه من صنع الإنسان - فليأتوا بعشر سور مثل هذا الكلام مفتريات، وليدعوا - سوى الله - ما شاؤوا ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ .

أمّا إذا لم يستجيبوا لدعوتك ولا للمسلمين، ولم يلبوا طلبك على الإتيان بعشر سور مفتريات كسور القرآن، فاعلموا أنّ ذلك الضعف وعدم القدرة دليل على أنّ هذه الآيات نزلت من خزانة علم الله، ولو كانت من صنع بشر، فهم بشرٌ أيضاً . . . فلماذا لا يقدرون على ذلك ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ واعلموا أيضاً أنّه لا معبود سوى الله، ونزول هذه الآيات دليل على هذه الحقيقة ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ فهل يسلم المخالفون مع هذه الحالة ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ ؟

أي بعد ما دعوناكم للإتيان بمثل هذه السور، وظهر عجزكم وعدم قدرتكم على ذلك، فهل يبقى شك في أنّ هذه الآيات منزلة من قبل الله، ومع هذه المعجزة البينة ما زلتم منكرين، أم أنكم تسلمون وتقرّون حقاً؟!

بحوث

١ - من المعلوم أنّ كلمة «لعلّ» تأتي لإظهار الرجاء لعمل شيء ما وتحققه، ولكن «لعل» هنا جاءت بمعنى النهي، وهي تماماً مثل ما يريد الأب مثلاً أن ينهى ولده فيقول له: لعلك ترافق فلاناً فأنت حينئذ غير مهتم للعاقبة، فمعنى الكلام هنا: لا ترافق فلاناً لأن صحبته تضرك.

إذاً فعلى الرغم من أن «لعل» تفيد الرجاء، إلاّ أنّ المفهوم الالتزامي منها النهي عن عمل أيضاً.

في الآيات - محل البحث - يؤكّد الله سبحانه على النّبي ألاّ يؤخر إبلاغه الوحي خوفاً من تكذيب المخالفين أو طلبهم معجزات مقترحة من قبلهم.

٢ - يرد هنا سؤال هو: كيف يمكن للنّبي ﷺ أن يؤخر إبلاغه الوحي، أو لا يبلغه أساساً؟ مع أنّ النّبي ﷺ معصوم ولا يصدر منه الخطأ والذنب!

الجواب: إنّ النّبي ﷺ متى ما أُمر بتبليغ حكم فوري فمن المسلّم أنّه يبلغه فوراً ودون إبطاء، ولكن يتفق - أحياناً أن يكون وقت التبليغ موسعاً... والنّبي يؤخر البلاغ تبعاً لأمور... هذه الأمور ليس لها جانب شخصي بحيث تعود للنبيّ ﷺ نفسه، بل لها جانب عام ودفاع عن الدين، وهذا التأخير ليس ذنباً قطعاً، مثل ما ورد - في سورة المائدة في الآية ٦٧ - من أمر الله للرّسول الأعظم ﷺ بالتبليغ، وأن لا يخاف من تهديدات الناس لأنّ الله سيحفظه حيث يقول عزّوجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

وعلى هذا فلم يكن تأخير البلاغ هنا ممنوعاً على النّبي ﷺ ولكن «الإسراع» فيه دليل على قاطعيته... فالإسراع بالتبليغ يُعدّ أولى من التأخير... فالله سبحانه يريد أن يشدّ من معنوية نبيّه ﷺ ويثبت فؤاده ويجعله صلداً أمام المخالفين بحيث يبلغ «بضرس قاطع» ولا يلتفت إلى طلبات المخالفين وحجج المستهزئين، ولا يستوحش من صخبهم وضجيجهم!

٣ - احتمل المفسّرون في معنى ﴿أَمۡ﴾ التي في أوّل الآية الأُخرى ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ احتمالين:

الأوّل: إنّه بمعنى «أو».

والثّاني: بأنّه بمعنى «بل».

ففي الصورة الأُولى يكون المعنى على النحو التالي:

لعلك لم تتلُ آياتنا خوفاً من حجج المخالفين، أو أنّك تلوتها ولكنّهم كذبوك وقالوا افتريتها على الله سبحانه.

وفي الصورة الثّانية يكون المعنى على النحو التالي:

لا تؤخر إبلاغ آياتنا لحجج المخالفين [ثمّ يضيف سبحانه] بل هم أساساً منكرون للوحي وللنّبوة، ويزعمون أنّ الرّسول يكذب على الله.

وفي الحقيقة، إنّ الله يخبر نبيّه مع هذا البيان أنّ ما يطلبه هؤلاء من المعاجز المقترحة فليس لطلب «الحق»، بل لأنّهم أساساً منكرون للنّبوة. وإنّما هي حجج وتعاليل يتذرعون بها!

وعلى كل حال، فعند التأمل في الآيات آنفة الذكر - وخاصّة إذا دققنا النظر في كلماتها من الناحية الأدبية - نجد أنّ المعنى الثّاني أقرب إلى مفاد الآيات، فتأمّلوا!

٤ - لا شكّ أنّ على النّبي ﷺ أن يُريَ معاجزه للذين يطلبون الحق لتكون سنداً لحقانية نبوّته، ولا يستطيع أي نبي من الأنبياء أن يستند إلى ادعائه فحسب، ولكن لا ريب ولا شك أنّ المخالفين الذين تحدثت عنهم الآيات لم يكونوا يطلبون الحقيقة ويبحثون عنها «وما كانوا يطلبونه من معاجز كانت معاجز اقتراحية على حسب ميولهم وأهوائهم ولا يقتنعون بأيّة معجزة أُخرى».

ومن المسلّم أنّ هؤلاء محتالون وليسوا بطلاّب حقيقة. فهل كان يجب على النّبي ﷺ أن تكون لديه كنوز عظيمة كما كان يريده منه مشركو مكّة؟! أو أن يكون معه ملك يصدق دعوته وبلاغه؟!

وبعد هذا كلّه ألم يكن القرآن نفسه أعظم وأكبر من كل معجزة؟ وإذا لم يكن أُولئك في صدد التّحجُّج والتّحيُّل، فلماذا لم يذعنوا لآيات القرآن الذي كان يتحدّاهم ويقول لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟![1]

٥ - إنّ الآيات - المذكورة - تؤكّد إعجاز القرآن مرّة أُخرى وتقول: ليس هذا كلاماً

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

عادياً يترشّح من الفكر البشري، بل هو وحي السماء الذي ينزل بعلم الله اللامحدود وقدرته الواسعة، وعلى هذا فإنّه يتحدّى جميع البشر أن يواجهوه بمثله، مع ملاحظة أنّ المخالفين من معاصري النّبي ﷺ ومن بعدهم إلى يومنا هذا عجزوا عن ذلك، وفضلوا مواجهة الكثير من المشاكل على معارضة القرآن، وهكذا يتّضح أن مثل هذا العمل لم يكن من صنع البشر ولايكون، فهل المعجزة شيء غير هذا؟!

هذا نداء القرآن ما زال في أسماعنا، وهذه المعجزة الخالدة تدعو العالمين إليها وتتحدى جميع المحافل البشرية، لا من حيث الفصاحة والبلاغة وجمال العبارات وجاذبيتها ووضوح المفاهيم فحسب. بل من حيث المحتوى والعلوم التي فيه والتي لم تكن موجودة في ذلك الزمان، والقوانين التي تتكفل بسعادة البشرية ونجاتها، والبيان الخالي من التناقض، والقصص التاريخية الخالية من الخرافات، وأمثالها، وقد بيّنا ذلك وشرحناه في تفسير الآيتين (٢٣ و٢٤) من سورة البقرة في إعجاز القرآن.

جميع القرآن أو عشر سور منه أو سورة واحدة!

٦ - نحن نعلم أنّ القرآن دعا في بعض آياته المنكرين لنبوة محمّد والمخالفين له إلى الإتيان بمثل القرآن، كما في سورة الإسراء الآية (٨٨). وفي مكان آخر إلى الإتيان بعشر سور، كما هو في الآيات التي بين أيدينا - محل البحث - وفي مكان آخر دعا المخالفين إلى سورة مثل سور القرآن، كما في سورة البقرة الآية (٢٣).

ولهذا السبب بحث جماعة من المفسّرين هذا «السرّ» في التفاوت في التحدّي والدعوة إلى المواجهة، فما هو؟! ولِمَ يطلب الله في مكان من القرآن الإتيان بمثله، وفي مكان بعشر سور، وفي مكان يطلب الإتيان بسورة واحدة ؟! وقد اتبعوا طرقاً مختلفة في الإجابة على هذا السؤال:

ألف - يعتقد البعض أنّ هذا التفاوت من قبيل التنازل من مرحلة عُليا إلى مرحلة أقل على سبيل المثال، أن يقول قائل لآخر: إذا كنتَ ماهراً مثلي في فن الكتابة والشعر فاكتب كتاباً ككتابي وهات ديوان شعر كديواني، ثمّ يتنازل ويقول فهات فصلاً مثل فصول كتابي، إلى أن يتحدّاه بأن يأتي بصفحة مثل صفحاته.

ولكن هذا الجواب يكون صحيحاً في صورة ما لو كانت سور الإسراء وهود ويونس والبقرة قد نزلت بهذا الترتيب، كما هو منقول في كتاب «تأريخ القرآن» عن الفهرست

لابن النديم، لأنّه يقول إنّ سورة الإسراء رقمها في السور (٤٨)، وسورة هود (٤٩)، وسورة يونس (٥١)، والبقرة هي السورة التسعون النازلة على محمّد ﷺ.

ولكن هذا الكلام لا ينسجم مع ترتيب السور في التفاسير الإسلامية.

ب - يرى البعض أن ترتيب السور الآنفة رغم عدم توافقها مع ترتيب التحدي من الأعلى إلى الأدنى، ولكن نعلم أنّ جميع آيات السورة الواحدة لم تنزل مجموعة في آنٍ واحد، فبعض الآيات كانت تتأخر في النزول مدة ثمّ يُلحقها النبي ﷺ بالسورة الفلانية بحسب تناسبها معها، وفي محل كلامنا هذا يمكن أن يكون الأمر كذلك، وعلى هذا فإنّ تاريخ السور لا يتنافى مع التنزّل، أو التنازل من مرحلة عليا إلى مرحلة دنيا.

ج - هناك احتمال آخر لحل هذا الإشكال هو أنّ أجزاء «القرآن» أجزاء تطلق على الكل وعلى البعض منه، فنحن نقرأ في الآية الأُولى من سورة الجن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ وواضح أنّهم سمعوا بعض القرآن لا أنّهم سمعوا القرآن كلّه، ولفظ القرآن في الأساس مشتق من القراءة، ومن المعلوم أنّ القراءة والتلاوة تصدق على جميع القرآن وعلى جزء منه أيضاً، فعلى هذا يكون التحدي بـ «مثل القرآن» غير مقصود به التحدي بالإتيان بمثل جميع القرآن، وهو ينسجم بهذا المعنى مع التحدي بعشر سور منه أو حتى بسورة واحدة.

ومن جهة أُخرى فإنّ السورة في الأصل تعني «المجموعة المحدودة»، فيكون إطلاقها على مجموعة آيات صحيحاً وإن لم يكن ذلك غير جار في الاصطلاح العرفي.

وبتعبير آخر فإنّ السورة تطلق على معنيين:

الأول: يراد به مجموعة الآيات التي تبحث عن هدف معين.

والثّاني: يراد به ما بدىء بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وينتهي قبل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

والشاهد على هذا قوله تعالى في سورة التوبة الآية (٨٦): ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ فالواضح من هذه الآية أنّ المراد بالسورة من قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ليس إلاّ الآيات التي تحمل الهدف الآنف، وهو الإيمان بالله والجهاد مع الرّسول، وإن كانت الآيات بعضاً من سورة!..

أمّا «الراغب الأصبهاني» فيقول في مفرداته في تفسير أوّل سورة النّور ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ أي جملة من الأحكام والحكم. فكما نلاحظ هنا أن الراغب فسّر السورة بمجموعة من

الأحكام والحكم، فلا يبقى فارق مهم بين ألفاظ «القرآن» و«عشر سور» «سورة» من حيث المفهوم اللغوي.

والنتيجة أنّ تحدي القرآن ليس من قبيل التحدي بكلمة واحدة أو بجملة واحدة، حتى يدعي مدع أنّه قادر على الإتيان بآية مثل آية ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[1] أو آية ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾[2] - أو أنّه يستطيع أن يأتي بجمل بسيطة كما في القرآن، بل التحدي في كل مكان بمجموعة من الآيات التي تحمل هدفاً معيناً «فتأمل».

٧ - من هو المخاطب بقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾؟ هناك أقوال بين المفسّرين، فبعض يرى أنّ المخاطب بالآية هم «المسلمون»، أي إذا لم يستجب المنكرون لكم أيّها المسلمون فليأتوا بعشر سور مفتريات فاعلموا أنّ القرآن منزل من الله سبحانه، وهذا كافٍ في الدلالة على إعجاز القرآن.

وقال بعض المفسّرين: المخاطب بالآية هم «المنكرون» أي: أيّها المنكرون إذا لم يستجب الناس لكم وكل ما دعوتم من دون الله، ولم يقدروا على الإتيان بعشر سور فاعلموا أنّ القرآن نازل من قِبل الله.

ولكن من حيث النتيجة لا يوجد تفاوت مهم بين التّفسيرين، وإن كان الاحتمال الأوّل أقرب حسب الظاهر.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

الآيات أعلاه أكملت الحجة مع «دلائل إعجاز القرآن» على المشركين والمنكرين، ولكن جماعة منهم امتنعوا عن القبول - لحفظ منافعهم الشخصيّة - بالرّغم من وضوح الحق، فالآيات هذه تشير إلى مصير هؤلاء فتقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ من رزق مادي وشهرة وتلذذ بالنّعم ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾ نتيجة ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ في هذه الدنيا ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ أي لا ينقص من حقهم شيء في الدنيا!

---

(١) سورة الضحىٰ، الآية: ١.

(٢) سورة الرّحمٰن، الآية: ٦٤.

«البخس» في اللغة نقصان الحق، وجملة ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ إشارة إلى أنّهم سينالون نتيجة أعمالهم بدون أقل نقصان من حقوقهم.

هذه الآية سنّة إلهية دائمة، وهي أنّ الأعمال «الإيجابية» والمؤثرة لاتضيع نتائجها، مع فارق وهو أنّه إذا كان الهدف الأصلي منها هو الوصول إلى الحياة المادية في هذه الدنيا فإنّ ثمراتها في الدنيا فحسب، وأمّا إذا كان الهدف هو «الله» وكسب رضاه فإنّ تأثيرها ونتائجها ستكون في الدنيا وفي الآخرة أيضاً حيث تكون النتائج كثيرة الثمار.

الواقع إنّ القسم الأوّل من هذه الأعمال كالبناية المؤقتة والقصيرة العمر، فلا يستفاد منها إلاّ قليلاً، ثمّ مصيرها إلى الزوال والفناء.

أمّا القسم الثّاني منها فإنّها تشبه البناء المرصوص المحكم الذي يدوم قروناً وينتفع به مدّة مديدة.

وهذا من قبيل ما نراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربي فتح أسراراً كثيرة من العلم بسعيه المتواصل والمنسّق، وأصبح متسلطاً على قوى الطبيعة وحصل على مواهب كثيرة لتصديه الدائب لمشاكل الحياة الدنيوية بصبر واستقامة وجدٍّ، فلا كلام في نيل العالم الغربي جزاء أعماله وتحقيقه انتصارات مشرقة، ولكن لأنّ هدفه الحياة الماديّة فحسب، فإنّ أعماله لاتثمر غير توفر الإمكانات المادية، حتى الأعمال الإنسانية كبناء المستشفيات والمراكز الصحية والمراكز الثقافية وإعانة بعض الأُمم الفقيرة وأمثال ذلك، «مصيدة» لاستعمارهم واستثمارهم للآخرين. . . فلأنّها تحمل هدفاً مادياً فقط ومن أجل حفظ المنافع المادية فإنّ أثرها يكون ماديّاً فحسب. كذلك الحال بالنسبة لمن يعمل رياءً.

فلذلك يقول سبحانه عنهم في الآية التالية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ ليزول كل أثر أُخروي لما عملوا في هذه الدنيا ولا ينالون عليه أي ثواب ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ وكل ما كان لغير الله فسيزول أثره ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

«الحَبْط» في الأصل يطلق على حالة خاصّة من أكل الحيوانات للعلف بشكل غير طبيعي، فتنتفخ بُطونها ويتعطّل الجهاز الهضمي عندها فتبدو وكأنّها قد سمنت ولكنّها في الباطن وفي الحقيقة مريضة.

هذا التعبير الطريف يقال للأعمال التي تبدو في الظاهر مفيدة وإنسانية، إلاّ أنّها في الباطن مقرونة بنية ذميمة وخبيثة!

ملاحظات:

١ - من الممكن أن يُتصور في البداية أنّ الآيتين محل البحث متعارضتان، فالآية الأُولى تقول: إنّ من كان هدفه الحياة الدنيا فإنّه سينال جزاءه فيها كاملاً غير منقوص ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أمّا الآية الثّانية فتقول إنّ أعماله تكون بلا أثر وباطلة: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

ولكن مع الالتفات إلى أنّ إحدى الآيتين تشير إلى ما يجري في الدنيا والثّانية تشير إلى الدار الآخرة، يتّضح الجواب على هذا الإشكال، وهو أنّهم ينالون جزاء أعمالهم في هذه الدنيا، ولكن لا قيمة لهذا العمل حتى ولو كان من أهم الأعمال إذا لم يكن لها في الآخرة أيُّ أثر. لأنّ هدفهم لم يكن نقيّاً ونيّتهم غير خالصة، حيث كانوا يسعون لتحصيل سلسلة من المنافع المادية، وقد تحققت لهم في الدنيا.

٢ - ذكر كلمة «الزينة» بعد «الحياة الدنيا» تدلّ ذم عبادة الدنيا وزخرفها وزبرجها، وليس المقصود من ذلك الاستفادة باعتدال من مواهب هذا العالم!

فكلمة «الزينة» التي جاءت هنا ببيان مغلق، إلاّ أنّها في آيات أُخرى فُسرت بالنساء الجميلات والكنوز والمراكب والزخارف... الخ.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾(١) (٢).

٣ - ذكر كلمة «الباطل» بعد كلمة «الحبط» يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ أعمالهم لها ظاهر بدون محتوى، ولذلك تذهب نتيجتها أدراج الرياح.

ثمّ يضيف أنّ أعمالهم أساساً باطلة من البداية ولا خاصية لها، غاية ما في الأمر أنّ كثيراً من حقائق الأُمور لما كانت في الدنيا غير معروفة فإنّها تنكشف في الدار الآخرة التي هي محل كشف الأسرار، فيتّضح أنّ هذه الأعمال لم يكن لها قيمة منذ البداية!.

٤ - في كتاب «الدر المنثور» حديث منقول عن النّبي ﷺ في تفسير هذه الآيات يبيّن مفاد هذه الآيات بجلاءٍ قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أُمتي

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٢) لمزيد من الإيضاح يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية ١٤ من سورة آل عمران.

على ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياءً، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دُنيا.

فيقول للذي كان يعبد الله للدنيا: بعزّتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ فيقول: الدنيا، فيقول: لاجرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه، انطلقوا به إلى النّار.

ويقول للذي يعبد الله رياءً: بعزّتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ قال: الرياء، فيقول: إنّما كانت عبادتك التي كنت ترائي بها لا يصعد إلي منها شيء ولا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النّار.

ويقول للذي كان يعبد الله خالصاً: بعزّتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ فيقول: بعزّتك وجلالك لأنت أعلم منّي، كنت أعبدك لوجهك ولدارك، قال: صدق عبدي، انطلقوا به إلى الجنّة»(١).

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

هناك أقوال كثيرة - في تفسير الآية أعلاه - بين المفسّرين، ولهم نظرات مختلفة في جزئيات الآية وكلماتها وضمائرها والأسماء الموصولة فيها وأسماء الإشارة، وما نُقلَ عنهم يخالف طريقتنا في هذا التّفسير، ولكنّ تفسيرين منها أشد وضوحاً من غيرهما ننقلهما هنا على حسب الأهميّة:

١ - في بداية الآية يقول الحق سبحانه:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي من الله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ

(١) نقلاً عن تفسير الميزان، ج ١٠، ص ١٨٦. تفسير الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٣٢٣؛ تفسير الميزان، ج ١٠، ص ١٨١.

مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةً. . .﴾ . أي التوراة التي تؤيّد صدقه وعظمته، مثل هذا الشخص هل يستوي ومن لا يتمتع بهذه الخصال والدلائل البينة؟

هذا الشخص هو النّبي ﷺ ، ودليله الواضح هو القرآن المجيد، والشاهد المصدق بنبوّتِهِ كلّ مؤمن حق أمثال علي عليه السلام ، ومن قَبلُ وردتْ صفاته وعلائمه في التوراة، فعلى هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثة حقّة واضحة.

الأوّل: القرآن الكريم الذي هو بيّنة ودليل واضح في يده.

الثّاني: الكتب السماوية التي سبقت نبوّته وأشارت إلى صفاته بدقّة، وأتباع هذه الكتب السماوية في عصر النّبي كانوا يعرفونه حقّاً، ولهذا السبب كانوا ينتظرونه.

والثّالث: أتباعه وأنصاره المؤمنون المضحّون الذين كانوا يبيّنون دعوته ويتحدثون عنه، لأن واحداً من علائم حقانيّة مذهب ما هو إخلاص اتباعه وتضحيتهم ودرايتهم وإيمانهم وعقلهم، إذ إنّ كلّ مذهب يُعرف بأتباعه وأنصاره.

ومع وجود هذه الدلائل الحيّة، هل يمكن أن يقاس مع غيره من المدّعين، أم هل ينبغي التردّد في صدق دعوته؟![1] .

ثمّ يشير بعد هذا الكلام إلى طلاب الحقّ والباحثين عن الحقيقة، يدعوهم إلى الإيمان دعوة ضمنية فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ أي النّبي الذي لديه هذه الدلائل الواضحة.

وبالرغم من أنّ مثل هؤلاء الذين أُشير إليهم بكلمة «أُولئك» في الآية لم يذكروا في الآية نفسها، ولكن مع ملاحظة الآيات السابقة يمكن استحضارهم في جوّ هذه الآية والإشارة إليهم.

ثمّ يعقب بعد ذلك ببيان عاقبة المنكرين ومصيرهم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ .

وفي ختام الآية - كما هي الحال في كثير من آيات القرآن - يوجه الخطاب إلى النّبي ﷺ ويبيّن درساً عاماً لجميع الناس، ويقول: بعدَ هذا كلّه من وجود الشاهد

---

(١) طبقاً لهذا التّفسير يكون المقصود بـ﴿مَن﴾ هو النّبي ﷺ ، والبيّنة هي القرآن، والشاهد ويراد به معنى «الجنس» من كل مؤمن صادق وفي مقدمتهم الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ويعود الضمير في كلمة ﴿مِّنۡهُ﴾ إلى الله سبحانه، ويعود الضمير في كلمة ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ إلى القرآن أو النّبي ﷺ ، ومجموع الجملة مبتدأ وخبره محذوف تقديره: كمن ليس كذلك، أو كمن يريد الحياة الدنيا.

والبيّنة والمصدق بدعوتك، فلا تتردد في الطريق ذاته ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ لأنّه من قبل الله سبحانه ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ولكن كثيراً من الناس ونتيجةً لجهلهم وأنانيتهم لايؤمنون ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢ - التّفسير الثّاني لهذه الآية هو أنّ هدفها الأصل بيان حال المؤمنين الصادقين الذين يؤمنون بالنّبي ﷺ مع وجود الدلائل الواضحة والشواهد على صدق دعوة النّبي ﷺ وما جاء في الكتب السماوية السابقة في شأنه، فأُولئك هم المؤمنون، واستناداً إلى هذه الدلائل جميعاً يؤمنون به ﷺ، فعلى هذا يكون المقصود من قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ جميع الذين لديهم دلائل مقنعة، حيث سارعوا إلى الإيمان بالقرآن ومن جاء به، وليس المقصود بكلمة ﴿مَن﴾ في الآية هو النّبي.

والذي يرجح هذا التّفسير على التّفسير السابق هو وجود الخبر في الآية صريحاً وليس محذوفاً، والمشار إليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مذكور في الآية نفسها، والقسم الأوّل من الآية يبدأ بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ويشكل جملة كاملة من دون أي حذف وتقدير... ولكن من دون شك فإنّ التعبيرات الأُخرى في هذه الآية لاتنسجم مع هذا التّفسير كثيراً، ولهذا جعلنا هذا التفسير في المرحلة الثّانية «فتأمل»!

وعلى كل حال، فالآية تشير إلى امتيازات الإسلام والمسلمين الصادقين واستنادهم إلى الدلائل المحكمة في اختيار مذهبهم هذا... وفي قبال ذلك تذكر ما يصير إليه المنكرون والمستكبرون من مآل مشؤوم أيضاً..

بحوث

١ - ما المقصود «بالشاهد» في الآية؟!

قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بالشاهد هو جبرئيل عليه السلام أمين وحي الله[1]، ومنهم من فسّره بالنّبي ﷺ[2]، ومنهم من قال: إنّ معناه لسان النّبي ﷺ[3] في حالة فهم معنى «يتلو» من التلاوة أي القراءة، لا بمعنى التلّو الذي معناه مجيء شخص بعد آخر.

ولكن كثيراً من كبار المفسّرين فسّروا «شاهد» بالإمام علي عليه السلام، ففي روايات كثيرة

(١-٣) راجع تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢١١؛ أصول الكافي، ج ١١، ص ١٩٠، ح ٣.

وصلتنا عن الأئمّة المعصومين، وفي بعض كتب تفسير أهل السنّة - أيضاً - هناك تأكيد على أنّ المقصود من ﴿شَاهِدٌ﴾ في الآية هو الإمام علي عليه السلام أوّل من آمن بالنّبي والقرآن الكريم، وكان معه في جميع المراحل ولم يقصر لحظةً في التضحية دونه وحمايته إلى آخر نفس(١).

وفي حديث منقول عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «ما من رجل من قريش إلاّ وقد أنزل فيه آية أو آيتان من كتاب الله، فقال له رجل من القوم: وماذا أنزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما تقرأ الآية التي في هود ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على بيّنة من ربّه وكنت أنا الشاهد»(٢).

وفي آخر سورة الرعد عبارة تؤيد هذا المعنى، حيث يقول سبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

هناك روايات كثيرة عن طرق الشيعة وأهل السنّة تبيّن أنّ المراد بقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو الإمام علي عليه السلام (٣).

وممّا يجدر ذكره - كما أشرنا سابقاً - أن واحداً من أفضل طرق حقانيّة أيّ مذهب هو مطالعة شخصية أتباعه والمدافعين عنه وحماته. فحين نلاحظ جماعةً أتقياء، أذكياء، مؤمنين مخلصين اجتمعوا حول أحد القادة، أو مذهب معين فسيتّضح جيداً أنّ هذا القائد وهذا المذهب على درجة عالية من الحق والصدق.

ولكن حين نرى جماعة انتهازيين محتالين غير مؤمنين ولا متقين تجمعوا حول مذهب ما أو قائد ما، فقلّ أن نصدّق أن ذلك المذهب أو القائد على حق.

وينبغي الإشارة إلى هذا الأمر، وهو أنّه لا منافاة بين تفسير كلمة الشاهد بالإمام علي عليه السلام، وبين شمولها لجميع المؤمنين من أمثال أبي ذرّ وسلمان وعمّار وأضرابهم، لأنّ هذه التفاسير تشير إلى الشخص البارز والشاخص في هؤلاء المؤمنين، أي إنّ المقصود هو جماعة المؤمنين الذين في طليعتهم الإمام علي عليه السلام.

والدليل على هذا الكلام رواية منقولة عن الإمام الباقر عليه السلام: قال: «الذي على بينة

---

(١) راجع تفسير البرهان، ونور الثقلين، والقرطبي، ومجمع البيان، وسائر التفاسير. المصدر السابق.

(٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢١٢ ح ٩ وص ٢١٣، ونور الثقلين، ج٢، ص٣٤٦.

(٣) طرق الشيعة: أصول الكافي، ج ١، ص ٢٢٩، ح ٦؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٨١، ح ٣٣٥٤٦. طرق أهل السنة: تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٣٣٥، ذيل الآية ٤٣ من سورة الرعد.

من ربّه رسول الله الذي تلاه من بعده الشاهد منه أمير المؤمنين ثمّ أوصياؤه واحد بعد واحد»(١).

وعلى الرغم من أنّ هذه الرّواية تذكر المعصومين فحسب، ولكنّها تدل على أنّ الرّوايات التي تفسر الشاهد بالإمام علي عليه السلام لا تعني شخصه فحسب، بل كونه مصداقاً وشاخصاً للمؤمنين!...

٢ - لماذا أُشير إلى التوراة فحسب؟!

إن واحداً من دلائل حقانية النّبي - كما ذُكر في الآية الآنفة - الكتب السابقة على نبوّة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن لم تذكر الآية من بينها سوى التوراة، ونحن نعرف أنّ الإنجيل بشّر بظهور نبي الإسلام أيضاً.

ويمكن أن يكون السبب هو أنّ المحيط الذي نزل فيه القرآن وظهر الإسلام فيه (أي مكّة والمدينة) متشبعاً بأفكار اليهود أكثر من غيرهم من أهل الكتاب، وكان المسيحيون يعيشون في أماكن أبعد من اليهود كاليمن والشامات ونجران والجبال الشمالية في اليمن التي تقع على فاصلة عشرة منازل من صنعاء!

أو لأنّ أوصاف النّبي وردت في التوراة بشكل أوسع وأجمع.

وعلى كلِّ حال، فالتعبير عن التوراة بـ﴿إِمَامًا﴾ قد يكون لأجل أنّ أحكام شريعة موسى عليه السلام كانت موجودة فيه بشكل أكمل، حتى أنّ المسيحيين يرجعون إلى تعليمات التوراة!

٣ - من هو المخاطب في قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾؟

هناك احتمالان في من هو المخاطب بهذه الآية:

الاحتمال الأوّل: النّبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، أي: يا رسول الله لا تتردد في حقانيّة القرآن وشريعة الإسلام أقلّ ترددا!

وبالطبع فإنّ النّبي بحكم كونه يدرك الوحي شهوداً، ويدرك بالحواس أنّ القرآن نازل من قبل الله، بل كان في درجة أعلى من الإحساس، فلم يكن لديه تردد في حقانيّة هذه الدعوة، ولكن ليس هذا أوّل خطاب يوجه إلى النّبي ويكون المقصود به عموم الناس، وكما يقول المثل العربي «إيّاك أعني واسمعي يا جارة».

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢١٢ ح ٨؛ بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٣٨٨، ح ٦.

وهذا التعبير أساساً هو ضرب من البلاغة، حيث يوضع المخاطب غير الحقيقي مكان المخاطب الحقيقي لأهمّيته ولأغراض أُخرى.

والاحتمال الثّاني: إنّ المخاطب بهذه الآية كل مكلّف عاقل، أي «فلا تك أيّها المكلف العاقل في مرية وتردد». وهذا وارد إذا لم يكن المقصود بالآية ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هو النبي ﷺ، بل جميع المؤمنين الصادقين (فتدبّر).

ولكن التّفسير الأوّل أكثر انسجاماً مع ظاهر الآية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ
(١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ
(١٩) أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ
يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ (٢٠)
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾

التّفسير

أخسر النّاس أعمالاً

بعد الآية المتقدمة التي كانت تتحدث عن القرآن ورسالة النّبي محمّد ﷺ تأتي آيات أُخر تشرح عاقبة المنكرين وعلاماتهم ومآل أعمالهم.

ففي أوّل آية من هذه الآيات يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ويعني أن تكذيب دعوة النّبي الصادق ﷺ في الواقع هو تكذيب لكلام الله وافتراء عليه بالكذب وتكذيب من لا يتحدث عن أحد سوى الله يعدّ تكذيباً لله(١).

(١) ما يقوله المفسّرون من أنّ المراد من هذه الجملة هو الردّ على من كان يقول: إنّ النّبي يكذب على الله، بعيد جدّاً، لأنّ الآيات السابقة واللاحقة لا تناسب هذا التّفسير، بل المناسب أنّها تشير إلى الكفّار.

وكما تقدم في عدّة مواضع، فالقرآن المجيد يعبر في العديد من الآيات عن جماعة من الناس بقوله: ﴿أَظْلَمُ﴾ في حين أنّ أعمالهم - كما يبدو - مختلفة، ولا يمكن أن نعدّ جماعات كثيرة مع وجود أعمال مختلفة بأنّهم أظلم الناس! بل ينبغي أن يُعدّ البعض ظالمين، والبعض الآخر أظلم منهم، وسواهما أشدّ ظلماً منهما جميعاً. . .

ولكن - كما أجبنا عن هذا السؤال عدّة مرات - جذر جميع هذه الأعمال يعود لشيء واحد، وهو الشرك وتكذيب الآيات الإلهيّة، وهو أعظم البهتان «ولمزيد من الإيضاح يراجع ذيل الآية (٣١) من سورة الأنعام».

ثمّ يبيّن ما ينتظرهم من مستقبل مشؤوم يوم القيامة حين يُعرضون على محكمة العدل الإلهي ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ حينئذ يشهد «الأشهاد» على أعمالهم وأنّ هؤلاء هم الذين كذبوا على الله العظيم الرحيم وولي النعمة. . .

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ثمّ ينادون بصوت عال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

ولكن من هم الأشهاد؟ أهم الملائكة، أم الحفظة على الأعمال، أم الأنبياء؟ للمفسّرين احتمالات وآراء، ولكن مع ملاحظة أن آيات أُخرى من القرآن تشير إلى أنّ الأنبياء هم الأشهاد، فالظاهر أنّ المراد بالأشهاد هنا هم الأنبياء أيضاً. . . أو المفهوم الأوسع وهو أنّ الأنبياء وسائر الأشهاد يشهدون على «الأعمال» يوم القيامة!

وفي الآية (٤١) من سورة النساء نقرأ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

وفي شأن السّيد المسيح عليه السلام نقرأ في الآية (١١٧) من سورة المائدة. ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

بعد هذا مَن القائل: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؟ أهو الله سبحانه، أم الأشهاد على الأعمال؟! هناك أقوال بين المفسّرين، لكن الظاهر أنّ هذا الكلام تتمة لقول الأشهاد. .

والآية التي بعدها تبيّن صفات الظالمين في ثلاث جمل:

الأُولى تقول: إنّهم يمنعون الناس بمختلف الأساليب عن سبيل الله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فمرّة عن طريق إلقاء الشُّبهة، ومرّة بالتهديد، وأحياناً عن طريق الإغراء والطمع، وجميع هذه الأساليب ترجع إلى أمر واحد، وهو الصدّ عن سبيل الله.

الثّانية تقول: إنّهم يسعون في أن يُظهروا سبيل الله وطريقه المستقيم عِوَجاً ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[1].

أي بأنواع التحريف من قبيل الزيادة أو النقصان أو التّفسير بالرأي وإخفاء الحقائق حتى لا تتجلى الصورة الحقيقية للصراط المستقيم. ولا يستطيع الناس وطلاب الحق السير في هذا الطريق.

والثّالثة تقول: إنّهم لا يؤمنون بيوم النشور والقيامة ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وعدم إيمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات، لأنّ الإيمان بتلك المحكمة الكبرى والعالم الوسيع بعد الموت يفعل الطاقات الإيجابية الكامنة في النفس والروح.

ومن الطّريف أنّ جميع هذه المسائل تجتمع في مفهوم «الظلم» لأنّ المفهوم الواسع لهذه الكلمة يشمل كل انحراف وتغيير للموضع الواقعي للأشياء والأعمال والصفات والعقائد.

في الآية التالية يبيّن أنّ هؤلاء لا يستطيعون الهرب من عقاب الله في الأرض ولا أن يخرجوا من سلطانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما أنّهم لا يجدون وليّاً وحامياً لهم غير الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

وأخيراً يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديدة حيث تكون مضاعفة ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

لماذا؟! لأنّهم كانوا ضالين ومخطئين ومنحرفين، وفي الوقت ذاته كانوا يجرّون الآخرين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين، دون التخفيف عن الآخرين من أوزارهم ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2].

وهناك أخبار كثيرة في أن «من سنّ سنةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، ومن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها».

وفي ختام الآية يبيّن الله سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) المقصود بـ«العِوَج» أي الملتوي، وقد بيّنا شرح ذلك في ذيل الآية (٤٥) من سورة الأعراف وينبغي الالتفات إلى أنّ الضمير في ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يعود على سبيل الله فهي مؤنث مجازي، أو بمعنى الجادة والطريقة، فهي مؤنث لفظي، ونقرأ في سورة يوسف عليه السلام الآية (١٠٨) ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

فهم في الحقيقة بإهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين [وسيلتي السمع والبصر] لدرك الحقائق، ضلّوا السبيل وأضلّوا سواهم أيضاً. . . لأنّ الحق والحقيقة لا يدركان إلاّ بالسمع والبصر النافذ.

ومن الطريف هنا أنّنا نقرأ في الآية أنّهم ما كانوا يستطيعون السمع، أي استماع الحق، فهذا التعبير يشير إلى الحالة الواقعية التي هم فيها، وهي أنّ استماع الحق كان عليهم صعباً وثقيلاً إلى درجة يُتصور فيها أنّهم فقدوا حاسة السمع، فلا قدرة لهم على السمع، وهذا التعبير ينسجم تماماً مع قولنا مثلاً: إنّ الشخص العاشق لا يستطيع أن يسمع كلاماً عن عيوب معشوقه!. .

وبديهي أنّ عدم استطاعة دركهم الحقائق كانت نتيجة لجاجتهم الشديدة وعدائهم للحق والحقيقة، وهذا لا يسلب عنهم المسؤولية، لأنّهم هم السبب في ذلك، وهم الذين مهّدوا له، وكان بإمكانهم أن يبعدوا عنهم هذه الحالة، لأنّ القدرة على السبب قدرة على المسبّب.

والآية التي بعدها تبيّن في جملة واحدة حصيلة سعيهم وجدّهم في طريق الباطل، فتقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وهذه أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنساني. . . ثمّ تضيف الآية: إنّهم اتخذوا آلهة ومعبودين مصطنعين «مزيفين» ولكن تلاشت هذه الآلهة المصنوعة والمزيفة أخيراً. . . ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وفي نهاية الآية بيان الحكم النهائي لمآلهم وعاقبتهم بهذا التعبير ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

والسبب واضح؛ لأنّهم حُرموا من نعمة السمع الحاد والبصر النافذ، وخَسِروا كلّ إنسانيتهم ووجودهم، ومع هذه الحال فقد حملوا أثقالَ مسؤوليتهم وأثقال الآخرين مع أثقالهم.

والمعنى الأصلي لكلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ مأخوذ من «جَرَم» على وزن «حرَم» وهو قطف الثمار من الأشجار، كما نقل ذلك الراغب في مفرداته، ثمّ توسع هذا المعنى فشمل كلّ نوع من الكسب والتحصيل، ولكثرة استعمال الكلمة في الكسب غير المرغوب فيه شاعت في هذا المعنى، ولذلك يطلق على الذنب أنّه جُرم.

ولكن حين تبدأ هذه الكلمة جملةً وهي مسبوقة بـ﴿لَا﴾ فيكون معناها حينئذ: أنّه لا

شيء يمكنه أن يمنع أو يقطع هذا الموضوع، فهي قريبة من معنى «لابدّ» أو «من المسلّم به» والله العالم «فتدبر».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

تعقيباً على الآيات المتقدمة التي أوضحت حال منكري الوحي، تأتي الآيتان هنا لتوضحا من في قبالهم، وهم المؤمنون حقّاً.

فالآية الأولى تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: استسلموا وانقادوا خاضعين لأمر الله ووعده الحق، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ملاحظتان:

١ - بيان هذه الأوصاف الثلاثة وهي «الإيمان» و«العمل الصالح» و«التسليم والخضوع والإخبات إلى دعوة الحق» إنّما هو بيان أُمور واقعية ترتبط بعضها ببعض، لأنّ العمل الصالح ثمرة من شجرة الإيمان، فالإيمان الذي ليس فيه مثل هذه الثمرة إيمان ضعيف ولا قيمة له ولا يحسب له حساب، وكذلك التسليم والانقياد والخضوع والاطمئنان لما وعد الله سبحانه، كل ذلك من آثار الإيمان والعمل الصالح... لأنّ الاعتقاد الصحيح والعمل النقي أساس وجود هذه الصفات والملكات العالية في المحتوى الداخلي للإنسان.

٢ - كلمة ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ مشتقة من «الإخبات» وجذرها اللغوي «خَبتَ» على وزن «ثبتَ» ومعناها الأصلي الأرض المنبسطة الواسعة التي يمكن للإنسان أن يخطو عليها باطمئنان وارتياح، فلذلك استعملت هذه المادة «الخبت والإخبات» في الاطمئنان أيضاً... كما استعملت في الخضوع والتسليم، لأنّ الأرض التي تبعث على الاطمئنان في السير هي خاضعة ومستسلمة للسائرين، فعلى هذا يمكن أن يكون معنى الإخبات واحداً من المعاني الثلاثة الآتية، كما ويحتمل شموله لجميع هذه المعاني، إذ لا منافاة بينها:

١ - إنّ المؤمنين حقاً خاضعون لله.

٢ - إنّهم مسلّمون لأمر الله.

٣ - إنّهم مطمئنون بوعود الله.

وفي كل صورة إشارة إلى واحدة من أعلى الصفات الإنسانية في المؤمنين التي ينعكس أثرها على كامل حياتهم!..

الطريف هنا أنّنا نقرأ في حديث عن أبي أسامة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ عندنا رجلاً يسمّى «كليباً» لا يجيء عنكم شيء إلاّ قال: أنا أسلّم، فسمّيناه: كليب تسليم، قال: فترحم عليه ثمّ قال «أتدرون ما التسليم»؟ فسكتنا فقال: هو والله الإخبات، قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾(١).

وفي الآية الأُخرى بيان لحالة هذين الفريقين في مثال حيّ وواضح... حال الأعمى والأصم، وحال السميع والبصير، فتقول الآية: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ثمّ تعقّب الآية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟!

وكما هو معلوم في علم (المعاني والبيان)، فإنّه من أجل تجسيم الحقائق العقلية وتوضيحها وتبيينها لعامّة الناس تشبّه المعقولات بالمحسوسات دائماً.

والقرآن الكريم اتبع هذه الطريقة بكثرة، وبيّن كثيراً من المسائل الدقيقة وذات الأهمية البالغة بأمثلة جليّة وأخّاذة، وبيّن حقائقها في أحسن صورة!

البيان السابق من هذا القبيل، لأنّ أحسن الوسائل التي لها أثرها في معرفة الحقائق الحسية في عالم الطبيعة هي «العين والأذن» ولذلك لايمكن أن يُتصور أنّ أفراداً يُولدون صمّاً وعمياناً يستطيعون إدراك مواضيع هذا العالم بصورة صحيحة، فهم يعيشون في عالم غامض ومجهول.

كذلك حال منكري الوحي، فبسبب لجاجتهم وعدائهم للحق ووقوعهم أسرى بمخالب التعصب والأنانية وعبادة الذات، فقدوا بصرهم وسمعهم للحقيقة البيّنة، فلا يستطيعون إدراك الحقائق المرتبطة بعالم الغيب، وتأثير الإيمان، والتلذذ بعبادة الله، وعظمة التسليم لأمره.

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢١٤ و ٢١٦. ح ١؛ أصول الكافي، ج ١، ص ٣٩٠، ح ٣.

هؤلاء الأفراد يعيشون أبداً عمياناً صمّاً في ظلام مطبق وسكوت مميت. . . في حين أنّ المؤمنين الصادقين يرون كل حركة بأعين بصيرة، ويسمعون كل صوت بآذان سميعة، وبالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم «السعادة».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

قصّة نوح المثيرة مع قومه

تقدم أنّ هذه السورة تحمل بين ثناياها قصص الأنبياء السابقين وتاريخهم، وذلك لإيقاظ أفكار المنحرفين والالتفات إلى الحقائق وبيان العواقب الوخيمة للمفسدين الفجّار. وأخيراً بيان طريق النصر والموفقية.

في البداية تذكر قصّة نوح عليه السلام، وهو أحد الأنبياء أولي العزم، وضمن (٢٦) آية تُرسم النقاط الأساسية لتاريخه المثير. .

ولا شك أنّ قصّة جهاد نوح عليه السلام المتواصل للمستكبرين في عصره، وعاقبتهم الوخيمة، واحدة من العبر العظيمة في تأريخ البشرية، والتي تتضمن دروساً هامّة في كل واقعة منها. . .

والآيات المتقدمة تبيّن بداية هذه الدعوة العظيمة فتقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

التأكيد على مسألة الإنذار، مع أنّ الأنبياء كانوا منذرين ومبشرين في الوقت ذاته لأنّ الثورة ينبغي أن تبدأ ضرباتها بالإنذار وإعلام الخطر، لأنّه أشدّ تأثيراً في إيقاظ النائمين والغافلين من البشارة.

والإنسان عادةً إذا لم يشعر بالخطر المحدق به فإنّه يفضل السكون على الحركة وتغيير المواقع. ولذلك فقد كان إنذار الأنبياء وتحذيرهم بمثابة السياط على أفكار الضالّين ونفوسهم، فتؤثر فيمن له القابلية والاستعداد للهداية على التحرك والاتجاه الى الحق.

ولهذا السبب ورد الاعتماد على الإنذار في آيات كثيرة من القرآن، كما في الآية (٤٩) من سورة الحج، والآية (١١٥) من سورة الشعراء، والآية (٥٠) من سورة العنكبوت، والآية (٤٢) من سورة فاطر، والآية (٧٠) من سورة ص، والآية (٩) من سورة الأحقاف، والآية (٥٠) من سورة الذاريات، وآيات أُخرى كلها تعتمد على كلمة «نذير» في بيان دعوة الأنبياء لأُممِهم.

وفي الآية الأُخرى يُلخّص محتوى رسالته في جملة واحدة ويقول: رسالتي هي ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ثمّ يعقب دون فاصلة بالإنذار والتحذير مرّة أُخرى ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1].

في الحقيقة إن مسألة التوحيد والعبودية لله الواحد الأحد هي أساس دعوة الأنبياء جميعاً. فنحن نقرأ في الآية الثّانية من هذه السورة، والآية (٤٠) من سورة يوسف عليه السلام والآية (٢٣) من سورة الإسراء... نقرأ في هذه الآيات وأمثالها في الحديث عن الأنبياء أن دعوتهم جميعاً تتلخص في توحيد الله سبحانه.

فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحدّون ولايعبدون إلاّ الله، ولا ينقادون للأوثان الوهمية الخارجية منها والداخلية من قبيل الأنانية والهوى والشهوات والمقام والجاه والنساء والبنين فلا يبقى أثر للسلبيات والخبائث في المجتمع البشري.

فإذا لم يصنع الشخص الضعيف من ضعفه هذا صنماً ليسجد له ويتبع أمره، فلا استكبار حينئذ ولا استعمار، ولا آثارهما الوخيمة من قبيل الذل والأسر والتبعية والميول المنحرفة وأنواع الشقاء بين أفراد المجتمع، لأنّ كل هذه الأُمور وليدة الانحراف عن عبادة الله والتوجه نحو الأصنام والطواغيت.. فلننظر الآن أوّل ردّ فعل من قبل الطواغيت وأتباع الهوى والمترفين وأمثالهم إزاء إنذار الأنبياء، كيف كان وماذا كان؟!

---

(١) مع انّ الأليم صفة للعذاب عادة، ولكن في الآية السابقة وقع صفةً لـ«يوم»، وهذا نوع من الإسناد المجازي اللطيف الذي نجده في مختلف اللغات في أدبياتها.

لا شك أنّه لم يكن سوى حفنةً من الأعذار الواهية والحجج الباطلة والأدلة الزائفة التي تعتبر ديدن جميع الجبابرة في كل عصر وزمان، فقد أجاب أُولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأوّل: إنّ الأشراف والمترفين من قوم نوح عليه السلام قالوا له أنت مثلنا ولا فرق بيننا وبينك: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ زعماً منهم أنّ الرسالة الإلهيّة ينبغي أن تحملها الملائكة إلى البشر لا أنّ البشر يحملها إلى البشر! وظنّاً منهم أنّ مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكة، أو أنّ الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

نلاحظ هنا كلمة «الملأ» التي تشير إلى أصحاب الثروة والقوة الذين يملأ العين ظاهرهم، في حين أنّ الواقع أجوف. ويشكلون أصل الفساد والانحراف في كل مجتمع، ويرفعون راية العناد والمواجهة أمام دعوة الأنبياء عليهم السلام.

والإشكال الثّاني: إنّهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك ومن حولك إلاّ حفنةً من الأراذل وغير الناضجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾.

و «الأراذل» جمع لـ «أرذل» وتأتي أيضاً جمع لـ «رذل» التي تعني الموجود الحقير، سواء كان إنساناً أم شيئاً آخر غيره.

وبالطبع فإنّ الملتفين حول نوح عليه السلام والمؤمنين به لم يكونوا أراذل ولا حقراء، ولكن بما أنّ الأنبياء ينهضون للدفاع عن المستضعفين قبل كل شيء، فأوّل جماعة يستجيبون لهم ويلبّون دعوتهم هم الجماعة المحرومة والفقيرة، ولكن هؤلاء في نظر المستكبرين الذين يعدّون معيار الشخصيّة، القوة والثروة فحسب يحسبونهم أراذل وحقراء..

وإنّما سمّوهم بـ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي الذين يعتمدون على الظواهر من دون مطالعة ويعشقون الشيء بنظرة واحدة، ففي الحقيقة كان ذلك بسبب أنّ اللجاجة والتعصب لم يكن لها طريق إلى قلوب هؤلاء الذين التفوا حول نوح عليه السلام لأنّ معظمهم من الشباب المطهرة قلوبهم الذين يحسّون بضياء الحقيقة في قلوبهم، ويدركون بعقولهم الباحثة عن الحق دلائل الصدق في أقوال الأنبياء عليهم السلام وأعمالهم.

الإشكال الثّالث: الذي أوردوه على نوح عليه السلام أنّهم قالوا: بالإضافة إلى أنّك إنسان

ولست ملكاً، وأنّ الذين آمنوا بك والتفوا حولك هم من الأراذل، فإنّنا لا نرى لكم علينا فضلاً ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

والآيات التي تعقبها تبيّن ردّ نوح عليه السلام وإجاباته المنطقية على هؤلاء حيث تقول: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

وقد اختلف المفسّرون في جواب نوح عليه السلام هذا لأي من الإشكالات الثّلاثة هو؟ ولهم في ذلك أقوال.. ولكن مع التدبر في الآية يتّضح أنّ هذا الجواب يمكن أن يكون جواباً للإشكالات الثلاثة بأسرها.

لأنّ أوّل إشكال أوردوه على نوح هو: لِمَ كنت إنساناً مثلنا ولم تكن ملكاً؟ فكان جوابه لهم: صحيح أنّني بشر مثلكم، ولكن الله آتاني رحمة وبيّنة ودليلاً واضحاً من عنده، فلا تمنع بشريّتي هذه من أداء هذه الرسالة العظيمة، ولا ضرورة لأن أكون ملكاً.

والإشكال الثّاني هو: أنّ أتباع نوح مخدوعون بالظواهر. فيردّهم بالقول: إنّكم أحق بهذا الايبتهام، لأنّكم أنكرتم هذه الحقيقة المشرقة، وعندي أدلّة كافية ومقنعة لكلّ من يطلب الحقيقة، إلاّ أنّها خفيت عليكم لغروركم وتكبركم وأنانيتكم!

والإشكال الثّالث: أنّهم قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فكان جواب نوح عليه السلام: أي فضل أعظم من أن يشملني الله برحمته، وأن يجعل الدلائل الواضحة بين يدي، فعلى هذا لا دليل لكم على اتهامي بالكذب، فدلائل الصدق عندي واضحة وجليّة!..

وفي ختام الآية يقول النّبي نوح عليه السلام لهم: هل أستطيع أن ألزمكم الاستجابة لدعوتي وأنتم غير مستعدّين لها وكارهون لها: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

التفسير

ما أنا بطارد الذين آمنوا

في الآيات المتقدمة رأينا أنّ قوم نوح «الأنانيين» كانوا يحتالون بالحجج الواهية والإشكالات غير المنطقية على نوح وأجابهم ببيان جليّ واضح.

والآيات محل البحث تتابع ما ردّ به نوح عليه السلام على قومه المنكرين. فالآية الأُولى التي تحمل واحداً من دلائل نبوّة نوح، ومن أجل أن تُنير القلوب المظلمة من قومه تقول على لسان نوح: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ فأنا لا أطلب لقاء دعوتي مالاً أو ثروة منكم، وإنّما جزائي وثوابي على الله سبحانه الذي بعثني بالنّبوة وأمرني بدعوة خلقه إليه ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

وهذا يوضح بصورة جيدة وبجلاء أنّني لا أبتغي هدفاً مادياً من منهجي هذا، ولا أفكر بغير الأجر المعنوي من الله سبحانه، ولا يستطيع مُدّعٍ كاذبٍ أن يتحمل الآلام والمخاطر دون أن يفكر بالربح والنفع.

وهذا معيارٌ وميزان لمعرفة القادة الصادقين من غيرهم الذين يتحيّنون الفرص ويهدفون إلى تأمين المنافع المادية في كل خطوة يخطونها سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويعقب نوح عليه السلام بعد ذلك في ردّه على مقولة طرد المؤمنين به من الفقراء والشباب فيقول بصورة قاطعة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ لأنّهم سيلاقون ربّهم ويخاصمونني في الدار الآخرة ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾[1].

ثمّ تُختتم الآية ببيان نوح لقومه بأنّكم جاهلون ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾ وأي جهل وعدم معرفة أعظم من أن تضيعوا مقياس الفضيلة وتبحثون عنها في الثروة والمال الكثير والجاه والمقام الظاهري، وتزعمون أنّ هؤلاء المؤمنين العُفاة الحفاة بعيدون عن الله وساحة قدسه!

هذا خطؤكم الكبير وعدم معرفتكم ودليل جهلكم.

---

(١) وهناك احتمال آخر في تفسير هذه الجملة، وهو أنّ مراد نوح عليه السلام: إنّ الذين آمنوا بي إذا كانوا كاذبين في الباطن فإنّهم سيلاقون ربّهم يوم القيامة وهو يحاسبهم، ولكن الاحتمال المذكور أقرب للصحة.

ثمّ أنتم تتصورون - بجهلكم - أن يكون النّبي من الملائكة، في حين ينبغي أن يكون قائد الناس من جنسهم ليحسّ بحاجاتهم ويعرف مشاكلهم وآلامهم.

وفي الآية التي بعدها يقول لهم موضحاً: إنّني لو طردت من حولي فمن ينصرني من عدل الله يوم القيامة وحتى في هذه الدنيا ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾.

فطرد المؤمنين الصالحين ليس بالأمر الهيّن، إذ سيكونون خصومي يوم القيامة بطردي لهم، ولا أحدَ هناك يستطيع أن يدافع عنّي ويخلصني من عدل الله، ولربّما أصابتني عقوبة الله في هذه الدنيا، أم أنّكم لا تفكرون في أنّ ما أقوله هو الحقيقة عينها ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

والفرق بين «التفكر» و«التذكّر» هو أنّ التفكر في حقيقته إنّما يكون لمعرفة شيء لم تكن لنا فيه خبرة من قبل، وأمّا التذكر فيقال في مورد يكون معروفاً للإنسان قبل ذلك، كما في المعارف الفطريّة.

والمسائل التي كانت بين نوح عليه السلام وقومه هي أيضاً من هذا القبيل، مسائل يعرفها الإنسان ويدركها بفطرته وتدبّره، ولكن تعصب قومه وغرورهم وغفلتهم وأنانيتهم ألقت عليها حجاباً وغشاءً فكأنّهم عموا عنها.

وآخر ما يجيب به نوح قومه ويردّ على إشكالاتهم الواهية... إنّكم إذا كنتم تتصورون أن لي امتيازاً آخر غير الإعجاز الذي لديّ عن طريق الوحي فذلك خطأ، وأقول لكم بصراحة: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ولا أستطيع أن أحقّق كل شيء أريده وكل عمل أطلبه، حيث تحكي الآية عن لسانه ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ولا أقول لكم إنّني مطلع على الغيب ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ ولا أدعي أنّني غيركم كأن أكون من الملائكة مثلاً ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ فهذه الادّعاءات الفارغة والكاذبة يتذرع بها المدّعون الكذَبة، وهيهات أن يتذرع بها الأنبياء الصادقون، لأنّ خزائن الله وعلم الغيب من خصوصيات ذات الله القُدسيّة وحدها، ولا ينسجم المَلَك مع هذه الأحاسيس البشرية أيضاً..

فكل من يدعي واحداً من هذه الأمور الثلاثة المتقدمة - أو جميعها - فهو كاذب.

ومثل هذا التعبير ورد في نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً كما نلاحظ ذلك في الآية (٥٠) من سورة الأنعام حيث تقول الآية مخاطبة النّبي أن يبلغ قومه بذلك ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فانحصار امتياز نبيّ الإسلام في مسألة «الوحي» ونفي الأمور الثلاثة الأُخرى يدل على أنّ الآيات التي تحدثت

عن نوح كانت تستبطن هذا المعنى أيضاً وإن لم تصرّح بذلك بمثل هذا التصريح!.

وفي ذيل الآية يكرر التأكيد على المؤمنين المستضعفين بالقول: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ...﴾ بل على العكس تماماً، فخير هذه الدنيا وخير الآخرة لهم وإن كانوا حُفاة لخلوّ أيديهم من المال والثروة... فأنتم الذين تحسبون الخير منحصراً في المال والمقام والسن، تجهلون الحقيقة ومعناها تماماً.

وعلى فرض صحة مُدّعاكم أراذلو «أوباش» ف ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أنا الذي لا أرى منهم شيئاً سوى الصدق والإيمان يجب عليَّ قبولهم، لأنّي مأمور بالظاهر، والعارف بأسرار العباد هو الله سبحانه، فإن عملت غير عملي هذا كنت آثماً ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ويرد هذا الاحتمال أيضاً في تفسير الجملة الأخيرة لأنّها مرتبطة بجميع محتوى الآية، أي إذا كنت أدّعي علم الغيب أو أنّي ملك أو أن عندي خزائن الله أو أن أطرد المؤمنين، فسأكون عند الله وعند الوجدان في صفوف الظالمين.

بحثان

١ - أولياء الله ومعرفة الغيب

الاطلاع على الغيب مطلقاً - كما أشرنا إليه مراراً - وبدون أي قيد وشرط هو من خصوصيّات الله سبحانه، ولكنّه يُطلع أنبياءه وأولياءه على الغيْب بقدر ما يراه مصلحة كما نرى الإشارة إليه في الآيتين (٢٦ و٢٧) من سورة الجن ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾.

فعلى هذا لا منافاة ولا تضادّ بين هذه الآيات - محل البحث - التي تنفي أن يعلم الأنبياء الغيب، وبين الآيات أو الرّوايات التي تنسب إلى الأنبياء أو الأئمّة العلم ببعض الغيب.

فمعرفة أسرار الغيب والاطلاع عليها من خصوصيّات الله بالذات، وما عند الآخرين فبالعَرَض و«بالتعليم الإلهي»، ولذلك فإنّ علم الغيب عند غير الله محدود بالحدود التي يريدها الله سبحانه[1].

(١) لمزيد من الإيضاح يراجع ذيل الآية (٥٠) من سورة الأنعام وذيل الآية (١٨٨) من سورة الأعراف.

٢ - مقياس معرفة الفضيلة

مرّة أُخرى نواجه الواقعية في هذه الآيات، وهي أن أصحاب الثروة والقوة وعبيد الدنيا الماديّين يرون جميع الأشياء من خلال نافذتهم المادية... فهم يتصورون أنّ الاحترام والشخصيّة هما ثمرة وجود الثروة والمقام والحيثيات فحسب، فلا ينبغي التعجب من أن يكون المؤمنون الصادقون الذين خلت أيديهم من المال والثروة في قاموسهم «أراذل» وينظرون إليهم بعين الاحتقار والازدراء.

ولم تكن هذه المسألة منحصرة في نوح وقومه، إذ كانوا يصفون المؤمنين المستضعفين حوله - ولا سيما الشباب الواعي منهم - بأنّ عقولهم خالية وأفكارهم قاصرة، وكأنّهم لا قيمة لهم. فالتاريخ يكشف أن هذا المنطق كان موجوداً في عصر الأنبياء الآخرين وعلى الأخصّ في زمن نبيّ الإسلام ﷺ والمؤمنين الأوائل.

كما نرى الآن مثل هذا المنطق في عصرنا وزماننا، فالمستكبرون الذين يمثلون فراعنة العصر - اعتماداً على سلطانهم وقدراتهم وقواهم الشيطانية - يتّهمون «المؤمنين» بمثل هذا الاتهام... فكأنّما يعيد التاريخ نفسه وصوره على أيدي هؤلاء ومخالفيهم..

ولكن حين يتطهّر المحيط الفاسد بثورة إلهية... فهذه المعايير التي تقاس بها الشخصيّة والعناوين الموهومة الأُخرى تُلقى في مزابل التاريخ، وتحل محلّها المعايير الإنسانية الأصيلة... المعايير المتولدة من صميم حياة الإنسان والتي تكون لبنات تحتية للبناء الفوقاني للمجتمع السليم الحرّ، حيث يستلهم منها قِيَمهُ، كالإيمان والعلم والإيثار والمعرفة والعفو والتسامح والتقوى والشهامة والشجاعة والتجربة والذكاء والإدارة والنظم وما أشبهها..

٣ - معنى علم الغيب في القرآن

هناك بعض المفسّرين كصاحب «المنار» حين يصل إلى هذه الآية يقول لمن يدعي أن علم الغيب لا يختصّ بالله، أو يطلب حلّ المشاكل من سواه، يقول في جملة قصيرة: إنّ هذين الأمرين - علم الغيب وخزائن الله - قد نفاهما القرآن عن الأنبياء، لكن أصحاب البدع من المسلمين وأهل الكتاب يثبتونهما للأولياء والقديسين(١).

---

(١) تفسير المنار، ج١٢، ص ٦٧.

إذا كان مقصودُه نفي علم الغيب عنهم مطلقاً ولو بتعليم الله، فهذا مخالف لنصوص القرآن المجيد الصريحة، وإذا كان مقصوده نفي التوسّل بأنبياء الله وأوليائه بالصورة التي نطلب من الله بشفاعتهم أن يحلّ مشاكلنا، فهذا الكلام مخالف للقرآن والأحاديث القطعيّة المسلّم بها عن طرق الشيعة وأهل السنّة أيضاً.

لمزيد من الإيضاح في هذا المجال يراجع ذيل الآية (٣٤) من سورة المائدة.

﴿قَالُوا يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

التّفسير

كفانا الكلام فأين ما تعدنا به؟!

الآية الأُولى من الآيات أعلاه تتحدث عن قوم نوح عليه السلام أنّهم: ﴿قَالُوا يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ فأين ما تعدنا به من عذاب الله ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ﴾ وهذا الأمر يشبه تماماً عندما ندخل في جدال مع شخص أو أشخاص ونسمع منهم تهديداً ضمنياً حين المجادلة فنقول: كفى هذا الكلام الكثير!! اذهبوا وافعلوا ما شئتم ولا تتأخروا، فمثل هذا الكلام يشير إلى أنّنا لا نكترث بكلامهم ولا نخاف من تهديدهم، ولسنا مستعدين أن نسمع منهم كلاماً أكثر.

فاختيار هذه الطريقة إزاء كل ذلك اللطف وتلك المحبّة من قبل أنبياء الله ونصائحهم التي تجري كالماء الزلال على القلوب، إنّما تحكي عن مدى اللجاجة والتعصب الأعمى لدى تلك الأقوام.

في الوقت ذاته يشعرنا كلام نوح عليه السلام بأنّه سعى مدّة طويلة لهداية قومه، ولم يترك فرصةً للوصول إلى الهدف إلاّ انتهزها لإرشادهم، ولكن قومه الضالين أظهروا جزعهم من أقواله وإرشاداته، وهذه المعادلة تتجلى جيداً في سائر الآيات التي تتحدث عن

نوح عليه السلام وقومه في القرآن، ففي سورة نوح عليه السلام بيان لهذه الظاهرة بشكل وافٍ - أيضاً - فلنلاحظ الآيات التي تبدأ من الآية (٥) وتنتهي بالآية (١٣) من سورة نوح حيث نقرأ فيها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝﴾.

في الآية - محل البحث - وردت جملة ﴿جَادَلْتَنَا﴾ من مادة «المجادلة» وأصلها مشتق من «الجَدَل» التي تعني فتل الحبل وإبرامه، ولذلك يطلق على البازي «أجدل» لأنّه أشد فتلاً من جميع الطيور، ثمّ توسعوا في اللغة فصارت تطلق على الالتواء في الكلام وما أشبه.

مع أنّ «الجدال» و«المراء» و«الحجاج» على وزن «اللجاج» متقاربة المعاني ومتشابهة فيما بينها، لكن بعض المحققين يرى أنّ «المراء» فيه نوع من المذمّة، لأنّه يستعمل أحياناً في الاستدلال في المسائل الباطلة، ولكن ذلك المفهوم لا يدخل في كلمتي «الجدال والمجادلة»، والفرق بين الجدال والحجاج، أن الجدال يستعمل ليلفت الطرف المقابل ويبعده عن عقيدته، أمّا الحجاج فعلى العكس من ذلك بأن يُدعى الشخص إلى العقيدة الفلانية بالاستدلال والبرهان.

لقد أجاب نوح عليه السلام بجملة قصيرة على هذه اللجاجة والحماقة وعدم الاعتناء بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ فذلك خارج من يدي على كل حال وليس باختياري، إنّما أنا رسوله ومطيع لأمره، فلا تطلبوا منّي العذاب والعقاب! . . . ولكن حين يحل عذابه فاعلموا أنّكم لا تقدرون أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى مأمن آخر ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

و«المعجز» مشتق من مادة «الإعجاز» وهي بمعنى سلب القدرة من الغير، وتستعمل هذه الكلمة أحياناً في موارد يكون الإنسان مانعاً لعمل الآخر أو لصدّه عن سبيله فيُعجزه عن القيام بأي عمل، وأحياناً تستعمل في فرار الإنسان من يد الآخر وخروجه من هيمنته فلا يقدر عليه، وأحياناً تستعمل في تكبيل الآخر بالوثاق، أو بجعله مصوناً . . . الخ.

فكل هذه المعاني من أوجه الإعجاز وسلب القدرة من الطرف الآخر.

الآية الآنفة الذكر تحتمل جميع هذه المعاني، لأنّه لا منافاة بين جميع هذه المعاني، فكلّها تعني أنّ لا حيلة تخلّصكم وتجعلكم في أمان من عذابه.

ثمّ يضيف: وإذا كان الله يريد أن يضلّكم ويغويكم - لما أنتم عليه من الذنوب والتلوّث الفكري والجسدي - فلا فائدة من نصحي لكم إذاً ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ فهو وليكم وأنتم في قبضته ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

سؤال: مع مطالعة هذه الآية يثور هذا السؤال فوراً - كما أن كثيراً من المفسّرين أشاروا إليه أيضاً - وهو: هل يمكن أن يريد الله الغواية والضلال لعباده؟ ثمّ أليس هذا دليلاً على الجبر؟ وهل يتوافق هذا المعنى مع أصل حرية الإرادة والاختيار للإنسان؟

الجواب: كما اتّضح من ثنايا البحث المتقدم - وما أشرنا إليه مرات عديدة - أنّه قد تصدر من الإنسان - أحياناً - سلسلة من الأعمال التي تكون نتيجتها الغواية والانحراف الدائمي وعدم العودة إلى الحق، اللجاجة المستمرة والإصرار على الذنوب والعداء الدائم لطلاب الحق والقادة الصادقين.. كل هذه الأمور تلقي على فكر الإنسان حجاباً يفقده القدرة على رؤية أقل شعاع لشمس الحقيقة والحق، ولأنّ هذه الحالة من نتائج الأعمال التي يقوم بها الإنسان، فلا تكون دليلاً على الجبر، بل هي عين الاختيار، والذي يتعلق بالله تعالى أنّه جعل في مثل هذه الأعمال أثراً.

هناك آيات عديدة في القرآن تشير إلى هذه الحقيقة، وقد أشرنا إلى ذلك في ذيل الآية (٧) من سورة البقرة وآيات أُخرى يمكن مراجعتها...

وفي آخر الآية - محل البحث ورد كلام بمثابة الجملة المعترضة ليؤكّد المواضيع التي بحثت قصّة نوح في الآيات السابقة واللاحقة، فتبيّن الآية أنّ الأعداء يقولون: إنّ هذا الموضوع صاغه «محمّد» من قبل نفسه ونسبه إلى الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

ففي جواب ذلك قُلْ يا رسول الله: إن كان ذلك من عندي ونسبته إلى الله فذنبه عليّ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ ولكني بريء من ذنوبكم ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - «الإجرام» مأخوذ من مادة «جرم» على وزن «جهل» وكما أشرنا إلى ذلك - سابقاً - فإنّ معناه قطف الثمرة غير الناضجة، ثمّ أُطلقت على كل ما يحدث من عمل سيىء، وتطلق على من يحث الآخر على الذنب أنّه أجرم، وحيث إنّ الإنسان له ارتباط في ذاته وفطرته مع العفاف والنقاء، فإنّ الإقدام على الذنوب يفصل هذا الارتباط الإلهي منه.

٢ - احتمل بعض المفسّرين أنّ الآية الأخيرة ليست ناظرة الى نبيّ الإسلام، بل ترتبط بنوح عليه السلام نفسه، لأنّ جميع هذه الآيات تتحدث عن نوح عليه السلام، والآيات المقبلة تتحدث عنه أيضاً، فمن الأنسب أن تكون هذه الآية في نوح عليه السلام، والجملة الاعتراضية خلاف الظاهر، ولكن مع ملاحظة ما يلي:

أوّلاً: إنّ شبيه هذا التعبير وارد في سورة الأحقاف الآية (٨) في نبي الإسلام.

ثانياً: جميع ما جاء في نوح عليه السلام في هذه الآيات كان بصيغة الغائب، ولكن الآية - محل البحث - جاءت بصيغة المخاطب، ومسألة الالتفات - أي الانتقال من ضمير الغيبة إلى المخاطب - خلاف الظاهر، وإذا أردنا أن تكون الآية في نوح عليه السلام فإنّ جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ بصيغة المضارع، وجملة ﴿قُلْ﴾ بصيغة الأمر، يحتاجان كليهما إلى التقدير!

ثالثاً: هناك حديث في تفسير البرهان في ذيل هذه الآية عن الإمامين الصادقين الباقر والصادق عليهما السلام يبيّن أنّ الآية المتقدمة نزلت في كفار مكّة[1].

من مجموع هذه الدلائل نرى أن الآية تتعلق بنبيّ الإسلام، والتُّهم التي وجهت إليه كان من قبل كفّار مكّة، وجوابه عليهم.

وينبغي ذكر هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ الجملة الاعتراضية ليست كلاماً لا علاقة له بأصل القول، بل غالباً ما تأتي الجمل الاعتراضية لتؤكّد بمحتواها مفاد الكلام وتؤيده، وإنّما ينقطع ارتباط الكلام أحياناً لتخف على المخاطب رتابة الإيقاع وليبعث الجدة واللطافة في روح الكلام، وبالطبع فإنّ الجملة الاعتراضية لايمكن أن تكون أجنبية عن الكلام بتمام المعنى، وإلاّ فتكون على خلاف البلاغة والفصاحة، في حين أنّنا نجد دائماً في الكلمات البليغة والفصيحة جملاً اعتراضية.

٣ - من الممكن أن يرد هذا الإشكال عند مطالعة الآية الأخيرة، وهو قول النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أو نوح عليه السلام للكفّار: إن يكن هذا الكلام افتراء فإثمه علي. ترى هل يعني قبول مسؤولية الإثم «الافتراء» أنّ كلام الكفّار حقٌّ ومطابقٌ للواقع، وعلى الناس أن يتابعوه ويطيعوه!؟

ولكن مع تدقيق النظر في الآيات السابقة نحصل على جواب هذا الإشكال، وهو أنّ

---

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢١٥؛ وج ١٠، ص ٢٢٠.

الأنبياء في الحقيقة أرادوا القول: إنّ كلامنا يقوم على الاستدلالات العقلية، فعلى فرض المحال أنّنا لم نكن مبعوثين من قبل الله فإثم ذلك على أنفسنا، وهذا بغض النظر عن الاستدلالات العقلية، ولكنّكم أيّها الكفّار ستبقون بمخالفتكم صرعى الإثم دائماً، الإثم المستمر والباقي (لاحظ كلمة تجرمون التي جاءت بصيغة المضارع والتي تدل على الاستمرار) «فتأمل جيداً».

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

التّفسير

بداية النّهاية

إنّ قصّة نوح عليه السلام الواردة في آيات هذه السورة، بُيّنت بعدّة عبارات وجمل، كل جملة مرتبطة بالأخرى، وكل منها يمثل سلسلة من مواجهة نوح عليه السلام في قبال المستكبرين، ففي الآيات السابقة بيان لمرحلة دعوة نوح عليه السلام المستمرة والتي كانت في غاية الجدية، وبالاستعانة بجميع الوسائل المتاحة حيث استمرت سنوات طوالاً آمنت به جماعة قليلة... قليلة من حيث العدد وكثيرة من حيث الكيفية والاستقامة.

وفي الآيات محل البحث إشارة إلى المرحلة الثّالثة من هذه المواجهة، وهي مرحلة انتهاء دورة التبليغ والتهيؤ للتصفية الإلهيّة.

ففي الآية الأولى نقرأ ما معناه: يا نوح، إنّك لن تجد من يستجيب لدعوتك ويؤمن بالله غير هؤلاء: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

وهي إشارة إلى أنّ الصفوف قد امتازت بشكل تام، والدعوة للإيمان والإصلاح غير مجدية، فلابدّ إذاً من الاستعداد للتصفية والتحول النهائي.

وفي نهاية الآية تسلية لقلب نوح عليه السلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون

مثل هذه الأعمال ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ونستفيد من هذه الآية - ضمناً - أنّ الله يطلع نبيّه نوحاً على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغي، كما نجد أنّ الله تعالى يخبره بأنّه لَنْ يؤمن بدعوته في المستقبل غير أُولئك الذين آمنوا به من قبل، وعلى كل حال لابدّ من إنزال العقاب بهؤلاء العصاة اللجوجين ليطهر العالم من التلوّث بوجودهم، وليكون المؤمنون في منأى عن مخالبهم، وهكذا صدر الأمر بإغراقهم، ولكن لابدّ لكل شيء من سبب، فعلى نوح أن يصنع السفينة المناسبة لنجاة المؤمنين الصادقين لينشط المؤمنون في مسيرهم أكثر فأكثر، ولتتم الحجّة على غيرهم بالمقدار الكافي أيضاً.

وجاء الأمر لنوح أن ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

إنّ المقصود من كلمة «أعيننا» إشارة إلى أن جميع ما كنت تعمله وتسعى بجدٍّ من أجله في هذا المجال هو في مرأى ومسمع منّا، فواصل عملك مطمئن البال.

وطبيعي أنّ هذا الإحساس بأنّ الله حاضر وناظر ومراقب ومحافظ يعطي الإنسان قوّة وطاقة، كما أنّه يحسّ بتحمل المسؤولية أكثر.

كما يستفاد من كلمة ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أيضاً أن صنع السفينة كان بتعليم الله، وينبغي أن يكون كذلك، لأنّ نوحاً عليه السلام لم يكن بذاته ليعرف مدى الطوفان الذي سيحدث في المستقبل ليصنع السفينة بما يتناسب معه، وإنّما هو وحي الله الذي يعينه في انتخاب أحسن الكيفيات.

وفي نهاية الآية ينذر الله نوحاً أن لا يشفع في قومه الظالمين، لأنّهم محكوم عليهم بالعذاب وأن الغرق قد كتب عليهم حتماً ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

هذه الجملة تبيّن بوضوح أنّ الشفاعة لا تتيسر لكل شخص، بل للشفاعة شروطها، فإذا لم تتوفر في أحد الأشخاص فلا يحق للنّبي أن يشفع له ويطلب من الله العفو لأجله (راجع المجلد الأوّل من هذا التّفسير ذيل الآية ٤٨ من سورة البقرة).

أمّا عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجدٍّ - ولو لحظة واحدة - في دعوة النّبي نوح عليه السلام ويحتملوا على الأقل أن هذا الإصرار وهذه الدعوات المكررة كلها من «وحي الله» فتكون مسألة العذاب والطوفان حتمية!! إلاّ أنّهم واصلوا استهزاءهم وسخريتهم مرّة أُخرى وهي عادة الأفراد المستكبرين والمغرورين ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

«الملأ» والأشراف الراضون عن أنفسهم يسخرون من المستضعفين في كل مكان،

ويعدونهم أذلاء وحقراء لأنّهم لا قوّة لهم ولا ثروة!! بل حتى أفكارهم وإن كانت سامية، ومذهبهم وإن كان ثابتاً وراسخاً، وأعمالهم وإن كانت عظيمة وجليلة... كل ذلك في حساب «الملأ» حقير تافه..! ولذلك لم ينفعهم الإنذار والنصيحة. فلابدّ أن تنهال أسواط العذاب الأليم على ظهورهم.

يقال إنّ الملأ من قوم نوح والأشراف كانوا جماعات، وكل جماعة تختار نوعاً من السخرية والاستهزاء بنوح ليضحكوا ويفرحوا بذلك الاستهزاء!

فمنهم من يقول: يا نوح، يبدو أن دعوى النبوة لم تنفع وصرت نجاراً آخر الأمر!

ومنهم من يقول: عندما تصنع السفينة، فينبغي أن تصنع لها بحراً، أرأيت إنساناً عاقلاً يصنع السفينة على اليابسة. ومنهم من يقول: واهاً لهذه السفينة العظيمة، كان بإمكانك أن تصنع أصغر منها ليمكنك سحبها إلى البحر.

كانوا يقولون مثل ذلك ويقهقهون عالياً، وكان هذا الموضوع مثار حديثهم وبحثهم في البيوت وأماكن عملهم، حيث يتحدثون عن نوح واصحابه وقلّة عقلهم: تأملوا الرجل العجوز وتفرّجوا عليه كيف انتهى به الأمر، الآن ندرك أنّ الحق معنا حيث لم نؤمن بِكلامه، فهو لا يملك عقلا صحيحاً!!

ولكن نوحاً كان يواصل عمله بجدية فائقة وأناة واستقامة منقطعة النظير لأنّها وليدة الإيمان، وكان لا يكترث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم وعميت قلوبهم، وإنّما يواصل عمله ليكمله بسرعة. ويوماً بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل ويتهيأ لذلك اليوم العظيم، وكان نوح عليه السلام أحياناً يرفع رأسه ويقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

ذلك اليوم الذي يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ما تصنعون، ولا ملجأ لكم، وتصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة.. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنون ومن غفلتكم وجهلكم وعدم معرفتكم ويضحكون عليكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ إشارة إلى أنّه بالرغم من أنّ مضايقاتكم لنا مؤلمة، ولكننا نتحمل هذه الشدائد ونفتخر بذلك أوّلاً، كما أنّ ذلك مهما يكن فهو منقض وزائل، أمّا عذابكم المخزي فهو باقٍ ودائم ثانياً، وهذان الأمران معاً لا يقبلان القياس.

ملاحظات:

١ - التصفية لا الانتقام

يستفاد من الآيات المتقدمة أنّ عذاب الله يفتقد جنبة الانتقام، لأنّه عبارة عن تصفية نوع من البشر وزوالهم لعدم جدارتهم بالحياة، وليبقى الصالحون من بعدهم... إنّ مثل هؤلاء المستكبرين الفاسدين والمفسدين لا أمل بإيمانهم، ولا حقّ لهم في الحياة في نظر نظام الخلق، وهكذا كان قوم نوح لأنّ الآيات السابقة تبيّن له أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن، فلا أمل بإيمانهم فتهيأ لصنع «الفلك» ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾.

وهذا الموضوع يبدو جلياً في دعاء هذا النّبي على قومه، فنحن نقرأ في سورة نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾﴾.

وأساساً فإنّ لكل موجود هدفاً في نظام الخلقة، وحين ينحرف هذا الموجود عن هدفه ويغلق على نفسه جميع طرق الإصلاح، يكون وجوده وبقاؤه بلا معنى، ولا بد من أن يزول شاء أم أبى، ويقول الشاعر:

لا نضرةٌ عندي ولا ورق ولا ورد ولا ثمرٌ ففيم بقائي

٢ - علائم المستكبرين

إنّ المستكبرين الأنانيين يحولون المسائل الجدية التي لا تنسجم مع رغباتهم وميولهم ومنافعهم إلى لعب واستهزاء، ولهذا السبب فإنّ الاستهزاء بالحقائق - ولا سيما فيما يتعلق بحياة المستضعفين - يشكل جزءاً من حياتهم... فكثيراً ما نجدهم من أجل أن يعطوا لجلساتهم المليئة بآثامهم رونقاً وجمالا يبحثون عن مؤمن خالي اليد ليسخروا منه ويستهزئوا به.

وإذا اتفق أنّ أحد المؤمنين لم يكن في مجلسهم فسوف يذكرون واحداً من المؤمنين في غيابه ويسخرون منه ويضحكون!.. إنّهم يتصورون أنفسهم بأنّهم العقل المطلق، ويظنون أنّ الثروة العظيمة - والتي هي من الحرام - دليل على شخصيتهم وعظمتهم وقيمتهم! وأنّ الآخرين فاقدو الشخصية ولا قيمة لهم وغير لائقين!

ولكن القرآن المجيد يوجه أشدّ هجومه على مثل هؤلاء الأفراد المغرورين المتكبرين، ولا سيما استهزاؤهم المحكوم عليه بغضب الله وسخطه!

نقرأ في التاريخ الإسلامي - على سبيل المثال - أن «أبا عقيل الأنصاري» هذا العامل الفقير والمؤمن كان يسهر الليل في حمل الماء من آبار «المدينة» إلى البيوت ويستوفي أجره بتميرات، ثمّ يأتي بهذه التُّميرات إلى النّبي ﷺ في غزوة «تبوك» على أنّها مساعدة لجيش الإسلام، فيلتفت المنافقون المستكبرون ويسخرون منه، فتنزل آيات من القرآن لها وقع الصاعقة عليهم ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

٣ - سفينة نُوح

لا شكّ أنّ سفينة نوح لَم تكنْ سفينة عاديَّة ولم تنتهِ بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته، إذْ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، وتحمل متاعاً وطعاماً كثيراً يكفي للمدّة التي يعيشها المؤمنون والحيوانات في السفينة حال الطوفان، ومثل هذه السفينة بهذا الحجم وقدرة الاستيعاب لم يسبق لها مثيل في ذلك الزمان، فهذه السفينة ستجري في بحر بسعة العالم، وينبغي أن تمرَّ سالمةً عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها.

لذلك تقول بعض روايات المفسّرين: إنّ طول السفينة كان ألفاً ومئتي ذراع، وعرضها كان ستمائة ذراع «كل ذراع يعادل نصف متر تقريباً»[2].

ونقرأ في بعض الرّوايات أنّ النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عامّاً بالعقم وعدم الإنجاب، وكان ذلك مقدمةً لعذابهم وعقابهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٍ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٍ يَٰبُنَيَّ

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٩٦، ح ٤٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ٦٦، ح ٢٥، هناك اختلاف في الأحاديث ومنشأ هذا الاختلاف يرجع إلى أن الطول والعرض والارتفاع لسفينة نوح عليه السلام من هذه الأبعاد:
أ) الطول: ٣٠٠، ٨٠٠ أو ١٢٠٠ ذراع.
ب) العرض: ٥٠٠، ٨٠٠، ٦٠٠، ٥٠ و ١٥٠ ذراع.
ج) الارتفاع: ٣٠، ٨٠، ٢٠٠ ذراع؛ أصول الكافي، ج ٤، ص ٢١٢، ح ٢.

ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

التّفسير

شروع الطّوفان

رأينا في الآيات المتقدمة كيف صنع نوح عليه السلام وجماعته المؤمنون سفينة النجاة بصدق. وواجهوا جميع المشاكل واستهزاء الأكثرية من غير المؤمنين، وهيأوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذي طهّر سطح الأرض من لوث المستكبرين الكفرة.

والآيات - محل البحث - تتعرض لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهاية؟

وكيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبيّنه بهذا التعبير ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

التّنّور: بتشديد النون، هو المكان الذي ينضج الخبز فيه بعد أن كان عجيناً.

لكن ما مناسبة فوران الماء في التنور واقتراب الطوفان؟

اختلف المفسّرون فكانت لهم أقوال كثيرة في ذلك..

قال بعضهم: كان العلامة بين نوح وربّه لحلول الطوفان أن يفور التّنور، ليلتفت نوح وأصحابه إلى ذلك فيركبوا في السفينة مع وسائلهم وأسبابهم.

وقال جماعة آخرون: إنّ كلمة ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ استعملت هنا مجازاً وكناية عن غضب الله، ويعني أن غضب الله اشتدّت شعلته وفار، فهو إشارة الى اقتراب حلول العذاب المدمّر، وهذا التعبير مطرّد حيث يشبّهون شدّة الغضب بالفورة والاشتعال!

ولكن يبدو أنّ احتمال أن يكون التنور قد استعمل بمعناه الحقيقي المعروف أقوى، والمراد بالتنّور ليس تنّوراً خاصّاً، بل المقصود بيان هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّه حين فار التنّور بالماء - وهو محل النّار عادةً - التفت نوح عليه السلام وأصحابه إلى أنّ الأوضاع بدأت تتبدل بسرعة وأنّه حدثت المفاجأة، فأين «الماء من النّار»؟! [1]

(١) طبقاً لبعض الروايات إن محل فوران الماء في التنور هو مسجد الكوفة، وكذلك كان محل صنع سفينة نوح عليه السلام، أصول الكافي، ج ٣، ص ٤٩٢، ح ٣.

وبتعبير آخر: حين رأوا أنّ سطح الماء ارتفع من تحت الأرض وأخذ يفور من داخل التنور الذي يُصنع في مكان يابس ومحفوظ، من الرطوبة علموا أنّ أمراً مهمّاً قد حدث وأنّه قد ظهر في التكوين أمر خطير، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام وأصحابه أن ينهضوا ويتهيأوا.

ولَعَلّ قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. وهي فوران التنور بالماء في بيوتهم ولكن غضّوا أجفانهم وصمّوا آذانهم كعادتهم عند ظهور مثل العلائم الكبيرة حتى أنّهم لم يسمحوا لأنفسهم بالتفكير في هذا الأمر وأن إنذارات نوح حقيقية.

في هذه الحالة بلغ الأمر الإلهي نوحاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

لكنْ كم هم الذين آمنوا معه؟ ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

هذه الآية تشير من جهة إلى امرأة نوح وابنه كنعان - اللذين ستأتي قصتهما في الآيات المقبلة - وقد قطعا علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما وتآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق في ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأنّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

وتشير الآية من جهة أُخرى إلى أنّ ثمرة جهاد نوح عليه السلام بعد هذه السنين الطوال والسعي الحثيث المتواصل في التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل![1]

بعض الرّوايات تقول إنّه استجاب لنوح خلال هذه الفترة الطويلة ثمانون شخصاً فقط، وتشير بعض الرّوايات الأُخرى إلى عدد أقل من ذلك، وهذا الأمر يدل على ما كان عليه هذا النّبي العظيم نوح عليه السلام من الصبر والاستقامة في درجة قصوى بحيث كان معدل ما يبذله من جهد لهداية شخص واحد عشر سنوات تقريباً، هذا التعب الذي لا يبذله الناس حتى لأولادهم!.

جمع نوح عليه السلام ذويه وأصحابه المؤمنين بسرعة، وحين أزف الوعد واقترب الطوفان وأوشك أن يحل عذاب الله أمرهم أن يركبوا في السفينة ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[2].

---

(١) علل الشرائع، ج ١، ص ٣٠، ح١.

(٢) المجرى والمرسى: اسما زمان، ويعني الأوّل وقت التحرك، والثّاني وقت التوقف.

لماذا؟! لكي يعلمهم أنّه ينبغي أن تكونوا في جميع الحالات في ذكر الله تعالى وتستمدوا العون من اسمه وذكره ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينة تحت تصرفكم واختياركم لتنجيكم من الغرق وبمقتضى عفوه وغفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

وأخيراً حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهي فتلبّدت السماء بالغيوم كأنّها قطع الليل المظلم، وتراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، وتتابعت أصوات الرعد وومضات البرق في السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة ومرعبة جدّاً».

شرعَ المطر وتوالى مسرعاً منهمراً أكثر فأكثر، وكما يصفه القرآن في سورة القمر ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

ومن جهة أُخرى ارتفعت المياه الجوفية بصورة رهيبة بحيث تفجرت عيون الماء من كل مكان.

وهكذا اتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل ولا واد ولا تلعة ولا نجد إلاّ استوعبه الماء وصار بحراً محيطاً خضمّاً... أمّا الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم وتغدو كالجبال. وسفينة نوح ومن معه تمضي في هذا البحر ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّ مصيرك الى الفناء إذا لم تركب معنا.

لم يكن نوح هذا النّبي العظيم أباً فحسب، بل كان مربيّاً لا يعرف التعب والنصب، ومتفائلا بالأمل الكبير بحيث لم ييأس من ابنه القاسي القلب، فناداه عسى أن يستجيب له، ولكن - للأسف - كان أثر المحيط السيّىء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرّق عليه.

لذلك فإنّ هذا الولد اللجوج الأحمق، وظنّاً منه أن ينجو من غضب الله أجاب والده نوحاً و﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ ولكنّ نوحاً لم ييأس مرّة أُخرى فنصحه أن يترك غروره ويركب معه و﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ولاينجو من هذا الغرق إلاّ من شمله لطف الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

الجبل أمره سهل وهين، وكرة الأرض أمرها هين كذلك... الشمس والمجموعة الشمسية بما فيها من عظمة مذهلة لا تعدل ذرّة إزاء قدرة الله الأزليّة.

أليس أعلى الجبال بالنسبة لكرة الأرض بمثابة نتوءات صغيرة على سطح برتقالة؟!

أليست هذه الأرض التي ينبغي أن يتضاعف حجمها إلى مليون ومئتي ألف مرّة حتى تبلغ حجم الشمس، وهذه الشمس التي تعدّ نجماً متوسطاً في السماء من بين ملايين الملايين من النجوم في متسع عالم الخلق، فأيّ خيال ساذج وفكر بليد يتوقع من الجبل أن يصنع شيئاً؟

وفي هذه الحالة التي كان ينادي نوح ابنه ولا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة والتهمت كنعان بن نوح وفصل الموج بين نوح وولده ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

بحوث

١ - هل كان طوفان نوح مستوعباً للعالم؟!

من خلال ظاهر الآيات يبدو لنا أنّ الطوفان لم يكن لمنطقة من الأرض دون أُخرى، بل غطى كل سطح الأرض، لأنّ كلمة «الأرض» ذكرت بصورة مطلقة، كما في الآية ٢٦ من سورة نوح ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[١] وفي الآية (٤٤) المقبلة من سورة هود﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ وهكذا ذكر كثير من المؤرخين - أيضاً - أنّ طوفان نوح كان عالمياً، ولذلك يرجع نسل جميع البشر اليوم إلى واحد من أبناء نوح الثلاثة «حام وسام ويافث» الذين بقوا بعده مدةً!

وفي التاريخ الطبيعي نعثر على فترة تدعى فترة الأمطار ذات السيول، فلو لم تكن هذه الفترة الزمنية قبل تولّد الحيوانات، فهي تنطبق على طوفان نوح.

وهذه النظرية موجودة أيضاً في التاريخ الطبيعي للأرض، وهي أن محور الكرة الأرضية يتغير تدريجاً، بحيث يكون القطبان الشمالي والجنوبي مكان خط الاستواء، ويحلّ خط الاستواء محلّهما، وواضح أنّ الحرارة التي تكون في أعلى درجاتها تذيب الثلوج القطبية فترتفع مياه البحار حتى تستوعب كثيراً من اليابسة، ومع النفوذ في ثنايا الأرض وطياتها تحدث العيون المتفجرة، وكل ذلك يبعث على كثرة السحب والأمطار.

كما أنّ مسألة اختيار نوح عليه السلام من كل نوع من الحيوانات زوجين وحملها معه على

---

(١) توضيح ذلك: إن مدار حركة الأرض اليوم من جهة شمالاً ومن جهة أخرى غرباً، ولكن إثر تحول المدار في جهة من خط الاستواء تستقر الجهة الثانية في مقابل خط الاستواء.

السفينة يؤيد كون الطوفان عالميّاً أيضاً، وإذا عرفنا أنّ نوحاً كان يسكن الكوفة[1] - كما تقول الرّوايات - وأن طرف الطوفان وحافته - طبقاً للرّوايات الأخرى - كان في مكّة وبيت الله الحرام، فهذا نفسه أيضاً مؤيد «لعالميّة الطوفان»[2].

ولكن مع هذه الحال، فلا يبعد أن يكون الطوفان في منطقة معينة من الأرض، لأنّ إطلاق الأرض على المنطقة الواسعة من العالم تكرر في عدد من آيات القرآن، كما نقرأ في قصّة بني إسرائيل ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾[3].

وحمل الحيوانات في السفينة ربّما كان لئلا ينقطع نسلها في ذلك القسم من الأرض، خصوصاً أن نقل الحيوانات وانتقالها في ذلك اليوم لم يكن أمراً هيّناً «فتدبر»!

وهناك قرائن أُخرى تقدّم ذكرها يمكن أن يستفاد منها أنّ الطوفان لم يستوعب الكرة الأرضية كلّها.

وهناك مسألة تسترعي الانتباه - أيضاً - وهي أنّ طوفان نوح كان بمثابة العقاب لقومه، وليس لنا دليل على أن دعوة نوح شملت الأرض كلها، وعادةً فإنّ وصول دعوة نوح في مثل زمانه إلى جميع نقاط الأرض أمر بعيد... ولكن على كل حال فالهدف القرآني من بيان هذه القصّة للعبرة وبيان المسائل التي تربي الآخرين، سواءً كان الطوفان عالمياً أو غير عالمي.

٢ - هل تقبل التوبة بعد نزول العذاب؟!

يستفاد من الآيات المتقدمة أنّ نوحاً عليه السلام استمر يدعو ولده حتى بعد شروع الطوفان، وهذا دليل على أنّه لو آمن ابنه «كنعان» لقُبل إيمانه.

ويرد هنا سؤال وهو أنّه بالنظر إلى آيات القرآن الأُخرى والتي مرّت «نماذج» منها، تنصُّ على أنّ أبواب التوبة تغلق بعد نزول العذاب... لأنّ المجرمين في هذه الحالة إذ يرون العذاب محدقاً بهم فالغالبية منهم يتوبون عن إكراه واضطرار لرؤية العذاب بأعينهم، فعندئذ تكون توبتهم بلا محتوى وفاقدة للاعتبار.

ولكن بالتدقيق في الآيات السابقة يمكن الجواب على هذا السؤال، هو أنّ شروع الطوفان وما جرى في بداية الأمر، لم يكن علامة واضحة للعذاب، بل كان يُتصور أنّه

(١) أصول الكافي، ج ٨، ص ٢٧٩. (٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣١٢ - ٣٢٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

مطر شديد لا مثيل له. . . وعلى هذا فإنّ ابن نوح حين قال لأبيه: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ ظنّاً منه أنّ الطوفان والمطر كانا طبيعيين. ففي هذه الحالة لا يبعد أن تكون أبواب التوبة ما تزال مفتوحة،

ويمكن أن يرد سؤال آخر في شأن ابن نوح، وهو أنّه لِمَ نادى نوح ابنه دون سائر الناس في هذه اللحظة الحرجة؟!

ويمكن أن يكون الجواب أنّ نوحاً أدّى وظيفته في الدعوة العامّة للآخرين وبضمنها دعوته لولده، إلاّ أنّه كان يتحمل وظيفةً أصعب بالنسبة لولده، وهي وظيفة «الأُبوّة» إلى جانب وظيفة «النّبوة» فلهذا السبب كان يؤكّد على أداء وظيفته بالنسبة لولده إلى آخر لحظة.

والاحتمال الآخر وكما يقول المفسّرون إنّ ابن نوح لم يكن في صفّ الكفّار ولا في صف المؤمنين، بل كما يقول القرآن: ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ فلأنّه لم يكن مع المؤمنين فإنّه كان يستحق العقاب، ولأنّه لم يكن مع الكافرين فإنّه كان يستحق أن يتوجه إليه التبليغ واللطف والمحبّة بصورة أكثر. . أضف إلى ذلك أن ابتعاده عن الكفّار وكونه في معزل، كان يقوي أمل نوح في أن يندم ولده على الابتعاد عنه.

وهناك احتمال آخر، وهو أنّ ابن نوح لم يكن يخالف أباه بصراحة، بل كان منافقاً وكان يوافق أباه في الظاهر أحياناً، فلذلك طلب نوح من ربّه له النجاة.

وعلى كل حال فإنّ الآية السابقة لا تنافي مضامين الآيات الأُخرى التي تشير إلى انسداد أبواب التوبة حال نزول العذاب.

٣ - دروس تربوية من طوفان نوح

إنّ هدف القرآن الأصلي من ذكر قصص الماضين بيان دروس وعبر ومسائل تربوية، وفي هذا القسم من قصّة نوح مسائل مهمّة جدّاً نشير إلى قسم منها:

أ - تطهير وجه الأرض

صحيح أنّ الله رحيم ودود، ولكن لا ينبغي أن ننسى أنّه حكيم أيضاً، فبمقتضى حكمته أنّه عندما لا تؤثر دعوة الناصحين والمربيّن الإلهيين في قوم فاسدين، فلا حقّ لهم بعد ذلك في الحياة وسينتهون نتيجة للثورات الاجتماعية أو الطبيعية وتحت وطأة التنظيم الحياتي.

وهذا الأمر غير منحصر في قوم نوح ولا بزمان معين، إنّما هو سنة الله في خلقه وعباده في جميع العصور والأزمان حتى في عصرنا الحاضر، وأي إشكال في أن تكون كلٌّ من الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثّانية صورة من صُور «تطهير الأرض».

ب - لِمَ كان العقاب أو الطوفان؟!

صحيح أن قوماً أو أمّة كانوا فاسدين وينبغي زوالهم ومهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، ولكن بالتدقيق في الآيات المتقدمة نستفيد أنّ هناك تناسباً بين الذنوب وعقاب الله دائماً وأبداً. «فتدبر جيداً»

كان فرعون يرى قدرته وعظمته تتجلى في «نهر النيل» ومياهه كثير البركات، لكن الطريف أنّ هلاك فرعون ونهايته كان في النيل.

وكان نمرود يعتمد على «جيشه» العظيم، لكننا نعلم أنّ جيشاً - لا يعتد به - من الحشرات هزمه وجنوده أجمعين.

وكان قوم نوح أهل زراعة «وأنعام» وكانوا يجدون كل خيراتهم في «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضاً..

ومن هنا يتّضح جلياً أنّ حساب الله في غاية الدقّة، ولو لاحظنا الطغاة العتاة في عصرنا وفي الحرب العالمية الأولى والثّانية كيف أُبيدوا بأسلحتهم الحديثة والمتطورة لاتضح المعنى أكثر.

فلا ينبغي أن نعجب أنّ هذه الصناعات المتقدمة التي اعتمدوا عليها في استعمار الشعوب واستثمار خيراتهم واستضعافهم... أدت إلى زوالهم.

ج - اسم الله على كل حال وفي كل مكان

قرأنا في الآيات المتقدمة أنّ نوحاً عليه السلام يوصي أصحابه أن لا ينسوا ذكر اسم الله في بداية حركة السفينة وعند توقفها، فكل شيء يتقوم باسمه وبذكره، وينبغي أن نستمد العون من ذاته القدسيّة، كل حركة وكل توقف، حال الهدوء وحال الإعصار والطوفان، كل هذه الحالات ينبغي أن تبدأ باسمه، لأنّ كل عمل يبدأ دون ذكر اسمه فهو «أبتر ومقطوع»، وكما ورد عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الشريف «كل أمر ذي بال لم يذكر فيه بسم الله فهو أبتر»[1] وليس ذكر الله من باب التشريف، بل هو هدف وغاية،

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٦٦٣.

فكل عمل ليس فيه هدف إلهي فهو أبتر، لأنّ الأهداف المادية تتلاشى وتنتهي إلاّ الأهداف الإلهيّة فهي غير قابلة للفناء، وحين تبلغ الأهداف المادية الذروة تنطفىء وتزول، إلاّ أنّ الأهداف الإلهيّة خالدة وباقية كذاته المقدّسة.

د - المرتكزات الجوفاء

من الطبيعي أنّ كل أحد يعتمد في التغلّب على الصعاب ومواجهة المشاكل في حياته إلى أمر ما، فجماعة يعتمدون على الثروة والمال، وجماعة على المقام والمنصب، وجماعة يلجأون إلى القدرة الجسمية، وآخرون إلى أفكارهم.. ولكن - كما تخبرنا الآيات المتقدمة ويرينا التاريخ - لا أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى مقاومة أمام أمر الله وقدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديدة.

فابن نوح لغروره وغفلته كان غارقاً في مثل هذا الوهم، وظن أنّ الجبل سيعصمه من طوفان غضب الله ويحميه ولكن موجة واحدة من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنّه وأنهت حياته.

من هنا نقرأ في بعض الأدعية «إنّي هارب منك إليك»[1] أي: لو كان هناك ملجأ أمام طوفان غضبك يا ربّ، فهذا الملجأ هو ذاتك المقدّسة والعودة إليك لا إلى سواك.

هـ - سفينة النجاة

لا يمكن الخلاص من أي طوفان دون سفينة النجاة، وليس شرطاً أن تكون هذه السفينة من الخشب والحديد، بل ما أحسن أن تكون هذه السفينة ديناً يقوّم السلوك ويهب الحياة الطيبة ويقاوم أمام أمواج طوفان الانحراف الفكري، ويوصل أتباعه إلى ساحل النجاة.

وعلى هذا الأساس وردت روايات كثيرة عن النّبي ﷺ في مصادر الشيعة والسنّة تعبر عن أهل بيته - وهم الأئمّة الطاهرون وحملة الإسلام - بأنّهم «سفينة النجاة»[2].

يقول حنش بن المغيرة: كنت وأبو ذر آخذٌ بحلقة باب الكعبة وهو يقول: أنا أبو ذر الغفاري، من لم يعرفني فأنا جُندب صاحب رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا»[3].

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٤٤، ح ١٠٠.
(٣) ابن قتيبة الدينوري من مشاهير علماء السنة أورد هذا الحديث في عيون الأخبار، ج ١، ص ٢١١.

وفي بعض الرّوايات أضيف إليها هذا النص «ومن تخلف عنها غرق»[١] أو «من تخلف عنها هلك»[٢].

هذا الحديث الشريف عن النّبي ﷺ يبيّن بصراحة أنّه حين يطغى الطوفان الفكري والعقائدي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي، فإنّ طريق النجاة الوحيد هو الالتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام دون المذاهب التي اصطنعتها السلطات السابقة والتي لا علاقة لها بأهل البيت عليهم السلام.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

نهاية الحادث

قرأنا في الآيات السابقة - إجمالاً - أنّ الأمواج المتلاطمة الصاخبة من الماء أغرقت كل مكان حيث تصاعد منسوب الماء تدريجاً، أمّا المجرمون الجهلة فظنّاً منهم أنّه طوفان عادي فصعدوا إلى أعالي القمم والمرتفعات، لكن الماء تجاوز تلك المرتفعات أيضاً وخفي تحت الماء كل شيء، وأخذت تلوح للعيون أجساد الطغاة الموتى وما بقي من البيوت ووسائل المعاش في ثنايا الأمواج على سطح الماء.

وكان نوح عليه السلام قد أودع زمام السفينة بيد الله سبحانه، وكانت الأمواج تتقاذف السفينة في كل صوب، وفي روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماماً (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذي الحجة) وعلى رواية (من عاشر شهر رجب حتى عاشر محرم)[٣] وطافت السفينة نقاطاً متعددة من الأرض، وطبقاً لما جاء في بعض الرّوايات أنّها سارت على أرض مكّة وحول الكعبة[٤].

---

(١) المعجم الكبير بخط الحافظ الطبراني، صفحة ٣٠ مخطوط؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٣٤، ح٣٣١٤٥.

(٢) المصدر نفسه عن جماعة من أهل السنة كابن المغازلي والخوارزمي، الجزء التاسع من إحقاق الحق، ص٢٨٠.

(٣) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٢٦٩؛ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٤.

(٤) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣١٢ و ٣٢٥.

وأخيراً صدر الأمر الإلهي بانتهاء العقاب وأن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، والآية - محل البحث - تبيّن هذا الأمر وجزئياته ونتيجته في عبارات وجيزة جدّاً، وفي الوقت ذاته بليغة وأخّاذة، وقد جاءت الآية في جمل ست:

١ - ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

٢ - ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ وصدر الأمر للسماء أن لا تمطري.

٣ - ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ ونزل الماء في جوف الأرض.

٤ - ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ انتهى حكم الله.

٥ - ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ واستقرت السفينة على طرف جبل الجودي.

٦ - ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عندئذ لُعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يبتعدوا من رحمة الله.

كم هي رائعة هذه التعابير التي وردت في الآية المتقدمة، وهي في الوقت ذاته وجيزة وتفور بالحياة والجمال الأخّاذ بحيث قال فيها طائفة من علماء العرب: إنّ هذه الآية تعدُّ أفصح آيات القرآن وأبلغها وإن كانت آياته جميعاً في غاية البلاغة والفصاحة.

الشاهد على هذا الكلام هو أنّنا نقرأ في روايات التاريخ الإسلامي أنّ جماعة من كفّار قريش نهضوا لمواجهة القرآن وليأتوا بمثل آياته، فهيأ مريدوهم الطعام والشراب لهم لفترة أربعين يوماً، مثل لب الحنطة الخالص والخمر المعتق ولحم الغنم - لينسجوا براحة البال على منوال آيات القرآن شبيهاً لها، ولكنّهم حين بلغوا هذه الآية - محل البحث - هزتهم بحيث نظر بعضهم إلى بعض وقال كلّ واحد للآخر: هذا كلام لا يشبهه كلام آخر، وهو أساساً لا يشبه كلام المخلوقين، قالوا ذلك وانصرفوا عمّا اجتمعوا له من محاكاة القرآن آيسين[١].

أين يقع الجودي؟

ذهب كثير من المفسّرين أنّ الجودي الذي استقرت عليه السفينة - كما مرّ ذكره في الآية - جبل معروف قرب الموصل[٢] وقال آخرون: هو جبل في حدود الشام أو شمال العراق أو قرب «آمد»[٣].

---

(١) راجع تفاسير مجمع البيان، ح ٥، ص ١٦٥، وروح المعاني، ج ١٢، ص ٥٧. وتفسير الميزان، ج ١٠، ص ٢٤٧، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) راجع تفاسير مجمع البيان، وروح المعاني، والقرطبي، ذيل الآية محل البحث.

(٣) تفسير مجمع البحرين، ج ١١، ص ٤٢٤ مادة (جود).

وفي كتاب الراغب الأصفهاني (المفردات) أنّه جبل بين الموصل والجزيرة، وهي (جزيرة ابن عمر في شمال الموصل).

ولا يبعد أن تكون جميعها بمعنى واحد، «فالموصل» و«الجزيرة» و«آمد» جميعها في الجزء الشمالي من العراق وقرب الشام.

وقال آخرون: يحتمل أن يكون المقصود من الجودي كل جبل صلب أو أرض صلبة وقوية[1]، ومَعنى الآية حسب هذا التّفسير أن السفينة استقرّت على أرض صلبة غير رخوة لينزل ركابها على الأرض، ولكن المشهور والمعروف هو المعنى الأوّل.

وفي كتاب «أعلام القرآن» تحقيق وتتبع حول جبل الجودي نورده بما يلي:

«الجودي» اسم جبل استقرت سفينة نوح واستوت على قمته، وقد ورد اسمه في الآية (٤٤) في سورة هود وهو قريب من المضمون الوارد في التوراة مع ما يتعلق به من أُمور أُخرى، وهناك ثلاثة أقوال بالنسبة إلى محل جبل الجودي:

١ - بناءً على قول «الاصفهاني» فإنّ جبل الجودي في الجزيرة العربية، وهو واحد من جبلين واقعين في منطقة نفوذ قبيلة (طيء).

٢ - إنّ الجودي هو سلسلة جبال «كاردين» الواقعة شمال شرقي جزيرة (ابن عمر) في شرق دجلة قرب الموصل، ويسمّيها الأكراد (كاردو) بلهجتهم، ويسميها اليونانيون (جوردي) ويسمّيها العرب «الجودي».

في «التروم» وهي الترجمة الكلدانية لـ «التوراة» وكذلك الترجمة السريانية لـ «التوراة»: إنّ المكان الذي استقرت عليه سفينة نوح هو قلعة جبل الأكراد، أي «كاردين».

والجغرافيون العرب يطبقون الجودي المذكور في القرآن على هذه المنطقة - المشار إليها آنفاً - ويقولون إنّ قطع السفينة كانت موجودة على قمة هذا الجبل حتى زمان بني العباس وكان المشركون يزورونها..

وفي القصص البابلية قصّة شبيهة بطوفان نوح عليه السلام (ملحمة گيلگامش) ويمكن - إضافة إلى ذلك - احتمال طغيان دجلة في تلك الفترة، وسكنة تلك المنطقة هم المبتلون بالطوفان.

وفي جبل الجودي كتيبة آشورية موسومة بكتيبة «ميسر» وقد لوحظ في هذه الكتيبة اسم «آرارتو».

---

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٣٩؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

٣ - وفي الترجمة الحالية لـ «التوراة»: إن محل استقرار سفينة نوح في جبال «آرارات» وهو جبل «ماسيس» الواقع في «أرمنستان» وقد ضبط صاحب قاموس الكتاب المقدّس معناه الأولي، فكان المعنى «ملعون» وقال: بناءً على ما جاء في الرّوايات فإنّ سفينة نوح استقرّت على قمة هذا الجبل، ويسميّه العرب بـ «الجودي» ويسمّيه الإيرانيون بـ «جبل نوح» ويسميه الأتراك بـ «كرداغ» بمعنى الجبل المنحدر، وهو واقع قرب «أرس».

وحتى القرن الخامس لم يعرف الأرامنة جبلاً في أرمنستان باسم جبل «الجودي» ولكن منذ ذلك الوقت تسرب هذا المفهوم إلى علماء الأرمن وقد يكون السبب هو اشتباه المترجمين للتوراة الذين ترجموا جبل «الأكراد» إلى «آرارات»..

ولعل ممّا سوّغ هذا التصوّر أنّ الآشوريين أطلقوا على الجبال الواقعة شمال بحيرة «وان» وجنوبها اسم «آرارات» أو «آراتو».

يقال إنّ النّبي نوحاً بنى مسجداً على قمة جبل الجودي بعد ما غاض الطوفان(١)، ويقول الأرامنة: إنّ في سفح جبل الجادي «الجودي» قرية تدعى ثمانين أو ثمان، وهي أوّل محل نزل فيه أصحاب نوح عليه السلام (٢) (٣).

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

التّفسير

حادثة ابن نوح المؤلمة

قرأنا في الآيات المتقدمة أنّ ابن نوح لم يسمع نصيحة والده وموعظته، ولم يترك لجاجته وحماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق في أمواج الطوفان.

---

(١) ورد في بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٠٣: «وقيل التين مسجد نوح الذي بُني على الجودي».
(٢) أعلام القرآن للخزائلي، ص ٢٨١.
(٣) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٢٢، ح ٣٠.

وهذه الآيات - محل البحث - تتحدث عن قسم آخر من هذه القصّة، وهو أنّه حين رأى نوح ابنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوّة وتذكّر وعد الله في نجاة أهله فالتفت إلى ساحة الله منادياً ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

وهذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (٤٠) من هذه السورة حيث يقول سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

فكان أن تصوّر نوح أنّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ خاص بزوجته المشركة التي لم تؤمن به دون ابنه كنعان، ولذلك خاطب نوح ربّ العزّة بهذا الكلام.

ولكنّه سمع الجواب مباشرة... جواب يهزّ هزّاً كما أنّه يكشف عن حقيقة كبيرة حقيقة أنّ الرّباط الديني أسمى من رباط النسب والقرابة.... ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة الله لم يكن صحيحاً، ولا ينبغي أن يتصور نجاة ولده ممّا وَعَد الله به في نجاة أهله، لذلك توجه إلى الله معتذراً مستغفراً و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

بحوث

١ - لِمَ كان ابن نوح «عَمَلا غير صالح»؟!

يعتقد بعض المفسّرين أنّ في الآية إيجاز حذف، وأصل الآية هكذا «إنّه ذو عمل غير صالح».

ولكن مع ملاحظة أنّ الإنسان قد يذوب في عمله إلى درجة كأنّه يصير بنفسه العمل ذاته، وفي اللغات المختلفة يأتي مثل هذا التعبير على نحو المبالغة كأن يقال: إنّ فلاناً هو كل العدل والسخاء، أو إنّ فلاناً هو السرقة والفساد فكأنّه غاص في العمل حتى صار هو العمل بذاته.

فابن نوح كان كذلك، فقد جالس رفقاء السوء وغاص في أعمالهم السيئة وأفكارهم المنحرفة، بحيث كأنّ وجوده تبدل إلى عمل غير صالح!..

فعلى هذا . . وإن كان التعبير المقدم موجزاً ومختصراً جداً، إلاّ أنّه يعبّر عن حقيقة مهمّة في ابن نوح!.

أي لو كانَ هذا الظلم والانحراف والفساد في وجود ابن نوح سطحيّاً لكانت الشفاعة في حقّه ممكنة، ولكنّه أصبح غارقاً في الفساد والانحراف، فليس للشفاعة هنا محلّ، فدع الكلام فيه يا نوح! . .

وما يراه بعض المفسّرين من أن كنعان لم يكن ابن نوح حقيقةً، أو أنّه كان ابناً غير شرعي، أو أنّه ابن شرعي من زوجته عن رجل آخر، بعيد عن الصواب لأنّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ في الواقع علة لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي إنّما نقول لك إنّه ليس من أهلك فلأنّه انفصل عنك بعمله وإن كان الرباط النسبي لا يزال قائماً . .

٢ - دائرة الوعد الإلهي

مع ملاحظة ما ورد في الآيات المتقدمة من خطاب نوح لربّه وما أجابه الله به، ينقدح هذا السؤال وهو: كيف لم يلتفت نوح إلى أنّ ابنه كنعان كان خارج دائرة الوعد الإلهي؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال - كما أشرنا آنفاً - أنّ هذا الابن لم تكن له طريقة واحدة معروفة، فتارةً تراه مع المؤمنين وأُخرى مع الكفّار، ممّا يوهم أنّه مؤمن. بالإضافة إلى الإحساس بالمسؤولية الكبرى التي كان نوح يجدها في نفسه بالنسبة إلى ولده، كذلك المحبّة والعلاقة الطبيعية التي يجدها كل أب بالنسبة لابنه، والأنبياء غير مستثنين من هذا القانون، كل ذلك كان سبباً في أن يطلب نوح من ربّه هذا الطلب. .

ولكن بمجرّد أن اطّلع على واقع الأمر، أسِفَ على طلبه فوراً واعتذر إلى الله راجياً عفوه - وإن لم يكن صدر منه ذنب - لأنّ موقع النّبي يقتضي منه أن يراقب كلامه وتصرفاته، فكان الأولى عليه الترك، ومن هنا فقد سأل الله العفو والمغفرة. .

ومن هنا يتّضح الجواب على سؤال: هل يذنب الأنبياء حتى يطلبوا العفو والمغفرة؟ . .

٣ - هناك حيث تنقطع العلائق

تعكس الآيات الآنفة درساً من أنجع الدروس الإنسانية والتربوية ضمن بيان قصّة نوح. . . درساً لا مفهوم له في المذاهب المادية لكنّه أصل أساس في المذهب الإلهي والمعنوي.

فالعلائق المادية «النسب، القرابة، الصداقة، المرافقة» تخضع دائماً في المذاهب السماوية إلى العلائق المعنوية.

وفي المذاهب السماوية لا مفهوم للعلاقة النسبية والقرابة مقابل الرابطة المذهبية.

هناك حيث تتحقق العلاقة الدينية، كسلمان الفارسي الذي لا هو من أهل بيت النّبي ولا من قريش ولا من أهل مكّة، بل لم يكن أساساً من العرب، ولكنّه طبقاً لما ورد في الحديث الشريف المعروف «سلمان منّا أهل البيت» كان يُعدّ من أسرة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم (١).

إلاّ أنّ الابن الواقعي والمباشر للنّبي - كابن نوح - يُطرد على أثر قطع علاقته الدينية، ويقال في شأنه لأبيه نوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

قد تكون هذه المسألة المهمّة عسيرة الفهم لمن يعيش في دائرة التفكير المادي لكنّها حقيقة من صميم الأديان السماوية جميعاً.

وعلى هذا الأساس نجد أحاديث أهل البيت عليهم السلام تتحدث عن بعض الشيعة الذين يحملون اسم التشيّع إلاّ أنّه لا يوجد فيهم علائم من تعليمات أهل البيت عليهم السلام بنفس الطريقة التي تقدمت في الآيات الآنفة في القرآن الكريم حيث نقل عن علي بن موسى عليه السلام أنّه سأل بعض أصحابه يوماً: كيف يفسر الناس هذه الآية ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فأجابه أحد الحاضرين: إنّهم يعتقدون أن كنعان لم يكن الابن الحقيقي لنوح، فقال الإمام: «كلاّ لقد كان ابنه، ولكن لمّا عصى الله نفاه عن أبيه، كذا من كان منّا لم يطع الله فليس منّا»(٢).

٤ - المسلمون المطرودون

ومن المناسب أن نستلهم من الآية فنشير إلى قسم من الأحاديث الإسلامية التي ترى طوائف كثيرة من المسلمين، أو أتباع أهل البيت عليهم السلام في الظاهر مطرودين وخارجين عن صف المؤمنين والشيعة:

١ - فقد ورد عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «من غشّ مسلماً فليس منّا»(٣).

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٢١، ح ٢؛ أصول الكافي، ج ١، ص ٤٠١، ح ٢.

(٢) سفينة البحار، ج٢، ص٣١٨. تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٣٠، ح ٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٢٨٣، ح ٢٢٥٢٨.

٢ - كما روي عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ليس بوليّ لي من أكل مال مؤمن حرام»[١].

٣ - ويقول النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا ومن أكرمه النّاس اتقاء شرّه فليس منّي».

٤ - وروي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «ليس من شيعتنا من يظلم الناس».

٥ - وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه كل يوم»[٢].

٦ - ويقول النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»[٣].

٧ - وقال الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه وكان يدعى «جابراً»: «واعلم يا جابر بأنك لا تكون لنا وليّاً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنّك رجل سوء، لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنّك رجل صالح، لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله»[٤].

هذه الأحاديث تضع علامة «البطلان» على تصورات من يقنع بالاسم فحسب ولكنّهم لايعيرون أهمية للعمل بالتكليف، أو للروابط الإيمانية، وتثبت بوضوح أنّ الأصل في مذهب القادة الرّبانيين والأساس هو الإيمان بالعقيدة والعمل بمناهجهم، وينبغي أن يُقاس كل شخص بهذا المقياس.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

(١) وسائل الشيعة، ج١٢ ، ص ٥٣.
(٢) بحار الأنوار، الطبعة القديمة ج١٥ قسم الأخلاق. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٧٩، ح ١.
(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٤، ح ٥.
(٤) سفينة البحار، ج٢، ص٦٩١.

التّفسير

هبوط نوح بسلام

هاتان الآيتان هما نهاية الآيات التي تتحدث عمّا جاء في نوح وقصّته المليئة بالدروس والعبر في سورة هود، وفيهما إشارة إلى هبوط نوح عليه السلام من سفينته وعودة الحياة والعيش الطبيعي على الأرض.

يقول القرآن في الآية الأولى من هاتين الآيتين: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾.

لا شك أنّ الطوفان كان قد دمّر كل آثار الحياة. . . فالأراضي العامرة والمراتع الخُضر والغابات النضرة كلّها أُبيدت، فالحالة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح وأصحابه بالنسبة للمعاش والغذاء، لكن الله سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة إزاء البركات الإلهيّة والسلامة وأن كل ذلك سيكون مهيّأً وموفّراً لهم فلا ينبغي الحزن على شيء. . .

مضافاً إلى ذلك فقد يأتي الحزن والخوف من شيء آخر وهو الخوف على السلامة والصحة بسبب المستنقعات والمياه الآسنة الباقية من آثار الطوفان التي تهدد حياتهم بالخطر، فالله سبحانه يطمئن نوحاً وأصحابه أيضاً أنّه لا خطر يهددهم، وأنّ الذي أرسل الطوفان لهلاك الطغاة قادر على أن يوفر محيطاً سالماً مليئاً بالخيرات والبركات للمؤمنين كذلك.

هذه الجملة القصيرة تشعرنا وتفهمنا أنّ القرآن يهتم بالمسائل الدقيقة للغاية، ويعكسها في عبارات مضغوطة شائقة وأخّاذة!

كلمة ﴿أُمَمٍ﴾ هي جمع «أمة» وهذا التعبير يدلّ على أنّ مع نوح طوائف من عباد الله وخلقه، كما يدلّ هذا التعبير على أنّ الأفراد الذين هم مع نوح كل منهم سيكون سبباً لوجود قبيلة وأُمّة كبيرة، أو أنّه فِعْلاً كان مع نوح أفراد من قبائل وأُمم متعددة فيشكّل مجموعهم أُمماً أيضاً. . .

ويرد هذا الاحتمال أيضاً، وهو أن الأُمم التي كانت مع نوح تشمل مجموعة الحيوانات المتعددة، لأنّ القرآن أطلق لفظ الأُمّة عليها أيضاً في مكان آخر من آياته، فنحن نقرأ في سورة الأنعام الآية (٣٨): ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

فيتّضح بهذا أنّ نوحاً وأصحابه هبطوا إلى الأرض بسلام ليجدوا بركات الله وليطمئنوا بالحياة الهانئة، كذلك الحال بالنسبة إلى الحيوانات التي كانت معهم في السفينة وهبطت إلى الأرض، فإنّ لطف الله شملها جميعاً كذلك.

ثمّ يضيف القرآن مخاطباً نوحاً أنّه ستعقب الأمم التي معك أُمم من نسلها، ولكن هذه الأُمم ستغتر وتغفل عن نعم الله فتنال جزاءها من الله ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فعلى هذا ليس انتخاب الأصلح من الناس أو إصلاح الناس عن طريق الطوفان هو آخر الانتخاب وآخر الإصلاح، بل ستبلغ مرحلة جديدة من بني آدم أيضاً يصلون بها الذروة من الرُّشد والتكامل، ولكن الناس قد يسيئون الاستفادة من حرية الإرادة ويستخدمونها في طريق الشرّ والفساد، فينالون جزاءهم في هذه الدنيا كما ينالون العذاب في الأُخرى.

الطريف في الآية أنّها تقول ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ثمّ تتحدث عن العذاب مباشرة. وفي ذلك إشارة إلى أنّ الاستمتاع ينبغي أن يكون مدعاة للشكر والثناء على نعم الله وطاعته، ولكن غالباً ما يزيد المتنعمين طغياناً وكفراً ويقطعون العلاقة بينهم وبين الله.

وينقل العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان في ذيل الآية أنّ بعض المفسّرين يقول في قوله: «نمتعهم» الخ: هلك المستمتعون في الدنيا لأنّ الجهل يغلب عليهم والغفلة فلا يتفكرون إلاّ في الدنيا وعمارتها وملذاتها(١).

هذا الواقع يُرى جيداً في الدول المتنعمة والمتموّلة في هذا العالم، حيث يغوص أهلوها بالفساد فلا يفكرون في المستضعفين - فحسب -، بل نراهم يوماً بعد آخر يحاولون الكيد بهم وإراقة دمائهم أكثر فأكثر، لذلك كثيراً ما يتفق أن ينزل الله عليهم الحروب والحوادث الأليمة التي تسلب النِّعم مؤقتاً لعلهم يفيقون من غفلتهم.

وفي آخر آية تختم بها قصّة نوح - في هذه السورة - إشارة كلية عامّة إلى ما حدث في عهد نوح فتقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾.

فالخطاب هنا للنبي محمّد ﷺ يؤكّد عليه أن يصبر ويستقيم كما صبر واستقام

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٨ و ٢٨٧، ذيل الآية ٤٨ من سورة هود.

نوح عليه السلام عندما واجه المشاكل، وهكذا تكون عاقبة الصبر النصر ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الآية الأخيرة تشير إلى عدّة مسائل:

١ - إنّ بيان قصص الأنبياء عليهم السلام - بالصورة الواقعية والخالية من أي نوع من أنواع التحريف والخرافة - ممكن عن طريق الوحي السماوي فحسب، وإلاّ فإنّ كتب تاريخ الماضين مليئة بالأساطير والقصص الخياليّة التي بلغت درجة لا يمكن معها معرفة الحق من الباطل، وكلّما عدنا إلى الوراء أكثر وجدنا الخلط والتزييف أكثر.

فعلى هذا، يعتبر بيان حال الأنبياء الماضين والأقوام السالفة بصورة سليمة وخالية من الخرافات والخزعبلات دليلاً على حقانية القرآن والإسلام والنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ - يستفاد من هذه الآية - خلافاً لما يتصوره البعض - أنّ الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم الله وبالمقدار الذي كان يريده الله لهم، لا أنّهم يعلمون الغيب من أنفسهم، وإذا وجدنا في بعض الآيات ما ينفي العلم الغيبي عنهم، فهو إشارة إلى أنّ علمهم ليس ذاتياً، بل هو من الله.

٣ - وهذه الآية توضح حقيقة أُخرى، وهي أنّ بيان قصص الأنبياء والأقوام الماضين في القرآن ليس درساً للمسلمين فحسب، بل هو إضافة إلى ذلك تسلية لخاطر النّبي وطمأنة لقلبه، لأنّه بشر أيضاً، وينبغي أن يتلقى الدروس من الأديان الالهيّة ويتهيأ لمواجهة الطاغوت في عصره، وأن لا يكترث بهموم المشاكل في طريقه.

أي كما واجه نوح المشاكل بصبرٍ واستقامة لسنين طوال ليهدي قومه إلى الإيمان، فعليك يا نبي الإسلام أن لا تدع الصبر والاستقامة على كل حال!

والآن نودع قصّة نوح بكل ما تحمل من عِبَر وأعاجيب، ونتوجه إلى نبي عظيم آخر وهو هود الذي سُمّيت هذه السورة باسمه.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

التّفسير

محطّم الأصنام الشّجاع

كما أشرنا آنفاً، فإنّ قصص خمسة أنبياء عظام وما واجهوه من شدائد وصعاب في دعواتهم والنتائج المترتبة عليها مبين في هذه السورة. وفي الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السلام وأمّا الآن فالحديث عن هود عليه السلام.

جميع هؤلاء الأنبياء جمعهم هدف واحد ومنطق واحد، وجميعهم نهضوا لإنقاذ البشرية من كل أنواع الأسر، ولدعوتهم إلى التوحيد بجميع أبعاده.

وكان شعارهم جميعاً الإيمان والإخلاص والجدّ والمثابرة والاستقامة في سبيل الله، وكان ردّ الفعل من أقوامهم الخشونة والإرهاب والضغوط..

يقول سبحانه في الآية الأُولى من هذه القصّة.. ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ونلاحظ في الآية أنّها وصفت هوداً بكونه «أخاهم».

وهذا التعبير جار في لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد..

فمثلاً يقولون في الأسدي «أخو أسد» وفي الرجل من قبيلة مذحج «أخو مذحج».

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبيّاً، وهذه الحالة هي صفة الأنبياء جميعاً، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة والقيادة أو معاملة أب لأبنائه، بل من منطلق أنّهم إخوة لهم..

معاملة خالية من أية شائبة واي امتياز أو استعلاء.

كان أوّل دعوة هود - كما هو الحال في دعوة الأنبياء جميعاً - توحيد الله ونفي الشرك عنه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

فهذه الأصنام ليست شركاءه، ولا منشأ الخير أو الشرّ، ولا يصدر منها أي عمل، وأي افتراء أعظم وأكبر من نسبتكم كل هذا المقام والتقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التي لا قيمة لها إطلاقاً.

ثمّ يضيف هود قائلاً لقومه: لا تتصوروا أن دعوتي لكم من أجل المادة، فأنا لا أُريد منكم أي أجر ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ فأجري وحده على من فطرني ووهبني الروح وأنا مدين له بكل شيء، فهو الخالق والرازق ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾.

وأساساً فإنّي في كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنّما أفعل ذلك طاعةً لأمره، ولذلك ينبغي طلب الأجر منه وحده لا منكم، وإضافة إلى ذلك فهل لديكم شيء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثمّ شرع هود ببيان الأجر المادي للإيمان لغرض التشويق والاستفادة من جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق في قومه الظالّين، فبيّن أن هذا الأجر المادي مشروط بالإيمان فيقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فإذا فعلتم ذلك فإنّه ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[1] لئلا تصاب مزارعكم بقلة الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائماً، وزيادة على ذلك فإنّ الله بسبب تقواكم وابتعادكم عن الذنوب والتوجه إليه يرعاكم ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

فلا تتصوروا أنّ الإيمان والتقوى يضعفان من قوتكم أبداً، بل إنّ قواكم الجسميّة ستزداد بالاستفادة من القوّة المعنوية... وبهذا الدعم المهم ستقدرون على عمارة المجتمع وبناء حضارة كبيرة وأُمّة مقتدرة تتمتع باقتصاد قوي وشعب حر مستقل، فعلى هذا إيّاكم والابتعاد عن طريق الحق ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾.

بحوث

١ - التوحيدُ أساس دعوة الأنبياء

يبين تاريخ الأنبياء أنّهم بدأوا دعوتهم جميعاً من التوحيد ونفي الشرك ونفي عبادة الأصنام أيّاً كانت، والواقع فإنّ أي إصلاح في المجتمعات الإنسانية لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأنّ وحدة المجتمع والتعاون والإيثار كلها أُمور تسترفد من منبع واحد وهو توحيد المعبود.

وأمّا الشرك فهو أساس كل فرقة وتعارض وتضاد وأنانية... وما إلى ذلك... وارتباط هذه المفاهيم بالشرك وعبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خافٍ على أحد!

الشخص الذي يدور حول نفسه - أو يجرّ النّار إلى قرصه - يرى نفسه فحسب،

---

(١) «المدرار» كما وضحنا سابقاً مشتق من «درّ» وهو انصباب حليب الأثداء، ثمّ استعمل في انصباب المطر، والطريف في الآية أنّها لا تعبر بـ «ينزل المطر من السماء» بل قالت: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ بمعنى أنّ المطر يهطل إلى درجة غزيرة حتى كأنّ السماء تهطل، وملاحظة أنّ مدراراً صيغة مبالغة أيضاً فيستفاد غاية التوكيد من هذه الجملة.

ولهذا فهو مشرك، لأنّ التوحيد يذيب «الانا» والذات الفردية في محيط اجتماعي واسع عريض، والموحّد لا يرى شيئاً سوى واحد كبير، أي أن جميع المجتمع الإنساني عباد الله!

والأشخاص الذين يطلبون الاستعلاء مشركون من نوع آخر، فهم في صراع مع أبناء جلدتهم ويرون منافعهم منفصِلة عن منافع الآخرين، فهذا التجزي أو «هذه الازدواجية» ليس إلاّ شركاً في أوجه مختلفة.

من هنا بدأ الأنبياء في سبيل إصلاح المجتمع بالدعوة الى توحيد المعبود «الله»، ثمّ توحيد الكلمة، وتوحيد العمل، وتوحيد المجتمع.

٢ - قادة الحق لا يطلبون أجراً من أتباعهم

إنّ الزعيم الواقعي يمكنه أن يكون في مأمن من أي اتهام ويواصل طريقه في غاية الحرية في صورة ما لو لم تكن له حاجة مادّية، فبذلك يستطيع أن يصحح كل انحراف في أتباعه، وإلاّ فإنّ الحاجة الماديّة بالنسبة لهذا المصلح ستكون غلاً تصفّدُ به يداه ورجلاه وقفلاً على لسانه وفكره.

ومن هذا الطريق. . . طريق الحاجة الماديّة يدخل المنحرفون لممارسة ضغوطهم عليه عن طريق قطع المساعدات المادية أو عن طريق الإغراء بزيادة المساعدات، ومهما يكن الزعيم والقائد نقياً صافياً ومخلصاً فهو إنسان - أيضاً - ومن الممكن أن تزل قدماه ولهذا السبب نقرأ في الآيات الآنفة - وآيات أُخرى من القرآن - أنّ الأنبياء يعلنون بصراحة في بداية دعوتهم أنّه ليست لهم حاجة مادية ولا ينتظرون من أتباعهم الأجر.

وهذا دستور لجميع القادة ولا سيما القادة الروحانيين ورجال الدين، غاية ما في الأمر لما كان هؤلاء المصلحون ورجال الدين يقضون أوقاتهم في خدمة الإسلام والمسلمين، فينبغي أن تؤمن حاجاتهم المادية بطريق صحيح، وأن يقوم صندوق الإعانة وبيت مال المسلمين بتكَفّل هذه الجماعة، فإنّ واحداً من أغراض إنشاء بيت المال في الإسلام هو هذا الغرض، أي ليصرف على رجال الدين المنشغلين بالإصلاح والتبليغ.

٣ - الذنب وهلاك المجتمعات

كما نرى أيضاً - في الآيات المتقدمة - أنّ القرآن يقيم رابطة بين المسائل المعنوية والماديّة، فيعدّ الاستغفار من الذنب والتوبة إلى الله أساس العمران والخصب والخضرة والنضرة وزيادة في القوة والاقتدار.

هذه الحقيقة نلمسها في كثير من آيات القرآن الكريم، من هذه الآيات ما ورد في سورة نوح على لسان هذا النبي العظيم لقومه، حيث تقول الآيات: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾[١].

الطريف هنا أنّنا نقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الربيع بن صبيح: قال: كنت عند الحسن بن علي عليه السلام فجاءه رجل وشكا له من الجدب والقحط، فقال له الحسن عليه السلام: استغفر الله، فجاءه آخر فشكا له من الفقر، فقال: استغفر الله، فجاءه ثالث وقال له: ادع لي أن يرزقني الله ولداً، فقال الحسن عليه السلام: استغفر الله، يقول الربيع بن صبيح: فتعجبت وقلت له: ما من أحد يأتيك ويشكو إليك أمره ويطلب النعمة إلاّ أمرته بالاستغفار والتوبة إلى الله..

فأجابه: «إنّ ما قلته لم يكن من نفسي، وإنّما استفدت ذلك من كلام الله الذي يحكيه عن لسان نبيّه نوح»، ثمّ تلا الآيات المتقدمة[٢].

بعض الأشخاص اعتادوا على المرور بهذه المسائل مرور الكرام بأن يقيموا ارتباطاً معنوياً وعلاقة «غير معروفة» بين هذه الأمور ويُريحوا أنفسهم من كل تحليل، ولكن إذا دققنا النظر أكثر نجد بين هذه الأُمور علائق متقاربة تشد المسائل المادية بالمعنوية في المجتمع كالخيط الذي يربط بين قطع القماش مثلاً.

فأيّ مجتمع يكون ملوّثاً بالذنب والخيانة والنفاق والسرقة والظلم والكسل وأمثال ذلك، ثمّ يكون هذا المجتمع عامراً كثير البركات!؟

وأي مجتمع ينزع عنه روح التعاون ويلجأ إلى الحرب والنزاع وسفك الدماء، ثمّ تكون أرضه خصبة خضراء، ويكون مرفهاً في وضعه الاقتصادي أيضاً؟!

وأي مجتمع يغرق أفراده في دوامة الهوى والميول النفسيّة، ثمّ في الوقت ذاته يكون قويّاً راسخ القدم ويثبت أمام عدوّه؟!

ينبغي القول بصراحة أنّه ما من مسألة أخلاقية إلاّ ولها أثر مفيد ونافع في حياة الناس المادّية، ولا يوجد اعتقاد وإيمان صحيح إلاّ وكان لهما نصيب في بناء مجتمع عامر حرّ مستقلّ وقوي..

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ - ١٢.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج١، ص٣٦١؛ وسائل الشيعة، ج ٧، ص ١٧٧، ح ٩٠٥٥.

الأفراد الذين يفصلون المسائل الأخلاقية والإيمان بالدين والتوحيد عن المسائل الماديّة لا يعرفون المسائل المعنوية حقاً ولا المسائل الماديّة.

وإذا كان الدين عبارة عن سلسلة من التشريعات والآداب الظاهرية والخالية من المحتوى بين الناس، فمن البديهي أن لا يكون له تأثير في النظام المادي.

ولكن حين تكون الاعتقادات المعنوية والروحانيّة نافذة في روح الإنسان إلى درجة تظهر آثارها على يده ورجله ولسانه وأذنه وعينه وجميع ذرات وجوده، فإنّ الآثار البنّاءة لهذه الاعتقادات في المجتمع لا تخفى على أحد.

وقد لا نستطيع إدراك علاقة الاستغفار بنزول البركات المادية جيداً، ولكن دون شك فإنّ قسماً كبيراً منها يمكن أن ندركه!

لقد شاهدنا في مواجهات المسلمين الثائرين مع الكفّار في هذا العصر والزمن - جيداً - أنّ الاعتقادات الإسلامية والقوى الأخلاقية والمعنوية استطاعت أن تنتصر على أحدث الأسلحة المعاصرة وأقوى الجيوش والقدرات الاستعمارية، وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدل على أثر العقائد الدينية الإيجابية والمعنوية إلى أقصى حدّ في المسائل الاجتماعيّه والسياسيّة.

٤ - ما المراد من قوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾

إنّ الظاهر من هذه الآية أنّ الله سبحانه يزيدكم من خلال الاستغفار قوةً بالإضافة إلى قوتكم، يشير بعض المفسّرين إليه أنّ المراد من هذه القوّة هي القوّة الإنسانيّة كما مرّ ذلك في سورة نوح: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ ومنهم من قال: إنّها القوى المادية تضاف إلى القوّة المعنويّة. ولكنّ تعبير الآية مطلق وهو يشمل أي زيادة في القوى المادية والمعنويّة، ولا يعارض أيّاً من التفاسير، بل يحتضنها جميعاً.

﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ
لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ
﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

التّفسير

قوّة المنطق

والآن لننظر ماذا كان ردّ فعل القوم المعاندين والمغرورين - قوم عاد - مقابل نصائح أخيهم هود وتوجيهاته إليهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي لم تأتِنا بدليل مقنع لنا ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ الذي تدعونا به إلى عبادة الله وترك الأوثان ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وأضافوا إلى هذه الجمل الثّلاث غير المنطقية، أنّك يا هودُ مجنون و﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ ولا شكّ أنّ هوداً - كأي نبي من الأنبياء - أدّى دوره ووظيفته وأظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل على حقانيته، ولكنّهم لغرورهم - مثل سائر الأقوام - أنكروا معاجزه وعدوّها سحراً وعبارة عن سلسلة من المصادفات والحوادث الاتفاقية التي لايمكن أن تكون دليلاً على المطلوب.

وأساساً، فإنّ نفي عبادة الأوثان لا يحتاج إلى دليل، ومن يكن له أقل شعور وعقل - ويترك المخاصمة - يدرك هذا الأمر جيداً، ولو فرضنا أنّ ذلك يحتاج إلى دليل، فهل يحتاج إلى معجزة بعد الدلائل العقلية والمنطقية...؟!

وبتعبير آخر فإنّ ما جاء في دعوة هود - في الآيات المتقدمة - هو الدعوة إلى الله الواحد الأحد، والتوبة إليه والاستغفار من الذنوب، ونفي أي نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان، كل هذه المسائل يمكن إثباتها بالدليل العقلي.

فعلى هذا، إنّ كان المقصود من قولهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ هو نفي الدليل العقلي، فكلامهم هذا غير صحيح قطعاً. وإذا كان المقصود هو نفي المعجزة، فإنّ هذا الادّعاء لايحتاج إلى معجزة. وعلى كل حال فإنّ قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ دليل على لجاجتهم، لأنّ الإنسان العاقل والباحث عن الحقيقة يتقبل الكلام الحق من أيّ كان.

وخصوصاً هذه الجملة ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ فإنّهم يتهمونه بالجنون على أثر غضب آلهتهم! فإنّ هذا الكلام منهم دليل على خرافة منطقهم، وخرافة عبادة الأصنام!

فالحجارة والأخشاب التي ليس فيها روح ولا شعور والتي تحتاج إلى حماية من الإنسان نفسه، كيف تستطيع أن تسلب العقل والشعور من الإنسان العاقل؟!

أضف إلى ذلك، ما دليلهم على جنون هود إلاّ أنّه كسر طوق «السنة المتبعة عندهم» وكان معارضاً للسنن والآداب الخرافية في محيطه، فإذا كان هذا هو الجنون فينبغي أن نعدّ جميع المصلحين والثائرين على الأساليب الخاطئة مجانين.

وليس هذا جديداً، فالتاريخ السالف والمعاصر مليءٌ بنسبة الجنون إلى الأشخاص الثائرين على الخرافات والعادات السيئة والمواجهين للاستعمار، والنافضين أثواب الأسر.

على كلِّ حال، فإنّ على هود أن يردّ على هؤلاء الضالّين اللجوجين رداً مقروناً بالمنطق، من منطلق القوّة أيضاً... يقول القرآن في جواب هود لهم: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

يشير بذلك إلى أنّ الأصنام إذا كانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاكي وموتي لمحاربتي لها علناً فعلام تسكت هذه الأصنام؟ وماذا تنتظر بي؟

ثمّ يضيف أنّه ليست الأصنام وحدها لا تقدر على شيء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون على شيء، فإذا كنتم قادرين ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

فأنا لا تردعني كثرتكم ولا أعدها شيئاً، ولا أكترث بقوتكم وقدرتكم أبداً، وأنتم المتعطشون لدمي ولديكم مختلف القدرات، إلاّ أنني واثق بقدرة فوق كل القدرات، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

وهذا دليل على أنّني لا أقول إلاّ الحق والصدق، وأن قلبي مرتبط بعالم آخر، فلو فكرتم جيداً لكان هذا وحده معجزاً حيث ينهض إنسان مفرد وحيد بوجه الخرافات والعقائد الفاسدة في مجتمع قوي ومتعصب، لكنّه في الوقت ذاته لا يشعر في نفسه بالخوف منهم، ولا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه! ثمّ يضيف: لستم وحدكم في قبضة الله، فإنّه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، فما لم يأذن به الله، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً.

ولكن اعلموا أيضاً أنّ ربّي القدير ليس كالأشخاص المقتدرين الذين يستخدمون قدرتهم للهوي واللعب والأنانية وفي غير طريق الحق، بل هو الله الذي لا يفعل إلاّ الحكمة والعدل ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ملاحظتان:

الأولى: إنّ «الناصية» في اللغة معناها الشعر المسترسل على الجبهة، وهي مشتقة من «نصا» ومعناها الاتصال والارتباط، وأخذ بناصية فلان «كناية عن القهر والتسلط عليه» فما ورد في الجملة السابقة من الآية من قول الحق سبحانه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ إشارة إلى قدرته القاهرة على جميع الأشياء بحيث لا شيء في الوجود له طاقة المقاومة قبال هذه القدرة، لأنّ من أحكم الإمساك على شعر مقدم الرأس من الإنسان أو أي حيوان آخر، فإنّه يسلب منه القدرة على المقاومة عادة.

والغرض من هذه العبارة أنّ المستكبرين المغترين وعبدة الأوثان والظالمين الباحثين عن السلطة لايتصورون أنّه إذا أخلي لهم الميدان لعدّة أيّام فذلك دليل على قدرتهم على المقاومة أمام قدرة الله، فعليهم أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وأن ينزلوا من مركب غرورهم.

الثّانية: إنّ جملة ﴿رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من أروع التعابير في الحكاية عن قدرة الله المقترنة بعدله، لأنّ المقتدرين في الغالب ظالمون ومتجاوزون للحدود، ولكن الله سبحانه مع قدرته التي لا نهاية لها فهو دائماً على صراط مستقيم، وجادة صافية ونظم وحساب ودقة!.

كما ينبغي الانتباه إلى هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ كلام هود عليه السلام للمشركين كان يبيّن هذه الحقيقة، وهي أنّ الأعداء مهما لجّوا في عنادهم وزادوا من لجاجتهم فإنّ القائد الحق ينبغي أن يزيد من استقامته! فكما أن قوم هود خوّفوه بشدّة من آلهتهم و«أوثانهم»، فإنّ هوداً في المقابل أنذرهم بنحو أشدّ من قدرة الله القاهرة!

ثمّ إنّ هوداً قال لقومه في آخر كلامه معهم كما تحكيه الآية ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾.

إشارة إلى أن لا يتصوروا أنّ هوداً سيتراجع إن لم يستجيبوا لدعوته، فإنّه أدى واجبه ووظيفته، وأداء الواجب انتصار بحدّ ذاته حتى لو لم تقبل دعوته، وهذا درس لجميع القادة الحقيقيين وأئمة طريق الحق ألاّ يحسّوا أبداً بالتعب والقلق من أعمالهم، وإن لم يقبل الناس دعوتهم.

وكما هدّد القوم هوداً، فإنّه هددهم بأشدّ من تهديدهم، وقال: إن لم تستجيبوا لدعوتي فإنّ الله سيبيدكم في القريب العاجل ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

هذه سُنّة الله في خلقه وقانونه العام، إنّه متى كان قوم غير لائقين لاستجابة الدّعوة والهداية والنعم الأُخرى التي أنعمها عليهم فإنّه سيبعدهم ويستخلف قوماً لائقين بمكانهم ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

فلا تفوته الفرصة، ولا يهمل أنبياءه ومحبيه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شيء وقادر على كل شيء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

التّفسير

اللعن الأبدي على القوم الظّالمين

في آخر الآيات التي تتحدث عن قصّة قوم عاد ونبيّهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وتؤكّد أيضاً نجاة المؤمنين ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

الطريف هنا أنّ الآيات قبل أن تذكر عقاب الظلمة والكافرين ومجازاتهم، بيّنت نجاة المؤمنين وخلاصهم، لئلا يُتصور أنّ العذاب الإلهي إذا نزل يحرق الأخضر واليابس معاً لأنّ الله عادل وحكيم وحاشاه أن يعذب ولو رجلاً مؤمناً بين جماعة كفرة يستحقون العذاب والعقاب.

لكن رحمة الله تنقل هؤلاء الأشخاص قبل نزول العذاب إلى محل آمن كما رأينا من قبل في قصّة نوح أنّه قبل شروع الطوفان كانت سفينة النجاة قد أُعدّت للمؤمنين، وقبل أن ينزل العذاب على قوم لوط ويدمّر مدنهم خرج لوط وعدد معدود من أصحابه من المدينة ليلاً بأمر الله.

وفي قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَا﴾ وتكرار هذه الكلمة في الآية مرّتين أقوال مختلفة للمفسّرين، فـ«نجينا» الأولى تعني خلاصهم من عذاب الدنيا و«نجّينا» الثّانية تعني

نجاتهم في المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، وينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضاً.

ويشير بعض المفسرين إلى مسألة لطيفة هنا، وهي أنّ الكلام لما كان على رحمة الله فمن غير المناسب أن تتكرر كلمة العذاب مباشرة، فأين الرحمة من العذاب؟ لذلك تكررت كلمة ﴿نَجَّيْنَا﴾ لتفصل بين الرحمة والعذاب دون أن ينقص شيء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغي الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضاً، وهي أنّ آيات القرآن وصفت العذاب بالغليظ في أربعة موارد(١).

وبملاحظة تلك الآية بدقّة نستنتج أنّ العذاب الغليظ مرتبط بالدار الآخرة، وخصوصاً الآيات التي جاءت في سورة ابراهيم وذكر فيها العذاب الغليظ، فإنّها تصف بصراحة حال أهل جهنّم وأهوالها، وهكذا يكون، وذلك لأنّ عذاب الدنيا مهما كان شديداً فإنّه أخفّ من عذاب الآخرة!

وهناك تناسب ينبغي ملاحظته أيضاً، وهو أنّ قوم عاد - كما سيأتي بيان حالهم إن شاء الله - ورد ذكرهم في سورة القمر، والحاقة، وكانوا قوماً ذوي أبدان طوال خشنين، فشبّهت أجسامهم بالنخل، ولهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرأ في تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا يَنسبون البناءات الضخمة والعالية إلى عاد ويقولون مثلاً: «هذا البناء عاديّ» لذلك كان عذابهم مناسباً لهم لا في العالم الآخر بل في هذه الدنيا كان عذابهم خشناً وعقابهم صارماً، كما مرّ في تفسير السور الآنفة الذكر.

ثمّ تلخّص الآيات ذنوب قوم عاد في ثلاثة مواضيع:

الأوّل: بإنكارهم لآيات الله وعنادهم أيضاً لم يتركوا دليلاً واضحاً وسنداً بيّناً على صدق نبوة نبيّهم إلاّ جحدوه ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

والثّاني: إنّهم من الناحية العملية لم يتّبعوا أنبياء الله ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ وإنّما جاءت الرسل بصيغة الجمع، إمّا لأن جميع دعوات الأنبياء هي نحو حقيقة واحدة وهي

(١) وهي في السور التالية: ١ - إبراهيم، الآية ٧؛ ٢ - لقمان، الآية ٣٤؛ ٣ - فصلت، الآية ٥٠؛ ٤ - هود، الآية ٥٨.

«التوحيد وفروعه» فإنكار دعوة نبي واحد يُعدّ إنكاراً لجميع الأنبياء، أو أن هوداً دعاهم للإيمان بنبوة الأنبياء السابقين أيضاً، وكانوا ينكرون ذلك.

والثّالث من الذنوب: إنهم تركوا طاعة الله ومالوا لكل جبار عنيد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

فأيّ ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، ومخالفة الأنبياء، والخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و«الجبار» يطلق على من يضرب ويقتل ويدمر من منطلق الغضب ولا يتبع أمر العقل، وبتعبير آخر هو من يُجبر سواه على اتباعه ويريد أن يغطي نقصه بادعاء العظمة والتكبر الظاهري.

و«العنيد» هو من يخالف الحق والحقيقة أكثر ممّا ينبغي، ولا يرضخ للحق أبداً.

هاتان الصفتان تتجلّيان في الطواغيت والمستكبرين في كل عصر وزمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبداً ويعمدون إلى من يخالفهم بإنزال أشد أنواع العقاب به بلا رحمة.

هنا يَرِدُ سؤال: إذا كان الجبار يعطي هذا المعنى، فلماذا ذُكرت هذه الصفة لله، كما في سورة الحشر الآية (٢٣) وسائر المصادر الإسلامية؟

والجواب هو أنّ «الجبار» - كما أشرنا آنفاً - مشتق إمّا من «الجبر» بمعنى القوّة والقهر والغلبة، أو من مادة «الجبران» ومعناه: إزالة النقص من شيء.

ولكن «الجبار» سواء كان بالمعنى الأوّل أو الثّاني فهو يستعمل بشكليه، وقد يراد به الذم إذا حاول الإنسان تجاوز النقص الذي فيه باستعلائه على الغير وتكبره وبالادّعاءات الخاطئة، أو أنّه يحاول أن يجبر غيره على أن يكون تحت طاعته ورغبته، فيكون الأخير ذليلاً لأمره.

هذا المعنى ورد في كثير من آيات القرآن الكريم، وأحياناً تقترن معه صفات ذميمة أُخرى، كالآية المتقدمة التي اقترنت مع كلمة ﴿عَنِيدٍ﴾ وفي الآية (٣٢) من سورة مريم نقرأ على لسان عيسى ابن مريم رسول الله ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ كما نقرأ على لسان بني إسرائيل في خطابهم لموسى عليه السلام في من سكن بيت المقدس من الظالمين حيث ورد في الآية (٢٢) من سورة المائدة ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

ولكن قد تأتي كلمة «الجبار» من هذين الجذرين «الجبر» و«الجبران» وهي بمعنى

المدح، وتطلق على من يسدّ حاجات الناس ويرفع نقصانهم ويربط العظام المتكسرة، أو أن تكون له قدرة وافرة بحيث يكون الغير خاضعاً لقدرته، دون أن يظلم أحداً أو يستغل قدرته ليسيء الاستفادة منها، ولذلك حين تكون كلمة الجبار بهذا المعنى فقد تقترن بصفات مدح أخرى، كما نقرأ في سورة الحشر الآية (٢٣): ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ وواضح أن صفات كالقدوس والسلام والمؤمن لا تنسجم مع «الجبار» بمعنى الظالم أو «المتكبر» بمعنى من يرى نفسه أكبر من غيره، وهذا التعبير يدل على أنّ المراد هنا من «الجبار» هو المعنى الثّاني.

ولكن حيث إنّ البعض فسّروا «الجبار» ببعض معانيه دون الالتفات إلى معانيه المتعددة في اللغة، تصوّروا أنّ استعمال هذا اللفظ غير صحيح في شأن الله، وكذلك في ما يخصّ لفظ «المتكبر» ولكن بالرجوع إلى جذورهما اللغوية الأصيلة يرتفع الإشكال[١].

وفي الآية الأخيرة التي تنتهي بها قصّة «هود» وقومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة والباطلة حيث تقول الآية: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ وبعد الموت لايبقى إلاّ خزيهم والصيت السيّىء ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقال لهم ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

وكان يكفي تعريف هذه الجماعة بلفظ «عاد» ولكن بعد ذكر عاد جاء لفظ ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ أيضاً لتؤكّد عليهم أوّلاً، ولتشير الى أنّهم القوم الذين آذوا نبيّهم الناصح لهم ثانياً، ولذلك فقد أبعدهم الله عن رحمته.

بحثان

١ - قوم عاد من منظار التاريخ

بالرغم من أنّ بعض المؤرّخين الغربيين كـ «أسبرينكل» أرادوا أن ينكروا قصّة «عاد» من الناحية التاريخية، وربّما كان ذلك بسبب عدم توفر ذكر لهم في غير الآثار الإسلامية، ولم يجدوها في كتب العهد القديم «التوراة» ولكن هناك وثائق - تشير إلى قصّة عاد - مشهورة إجمالاً بين العرب في زمن الجاهلية، وقد ذكرهم شعراء العرب قبل

(١) يراجع في هذا الصدد تاج العروس للزبيدي والمفردات للراغب مادة (جبر) و(كبر) ومجمع البيان وتفسير البيان ذيل الآية محل البحث وآيات سورة الحشر الأخيرة.

الإسلام، وحتى في العصر الجاهلي كانوا يطلقون لفظ «العاديّ» على البناء العالي والقوي نسبة إلى عاد.

ويعتقد بعض المؤرّخين أنّ لفظ «عاد» يُطلق على قبيلتين:

إحداهما: قبيلة كانت تقطن الحجاز قبل التاريخ ثمّ زالت وزالت آثارها أيضاً، ولم ينقل التاريخ البشري عنها إلاّ أساطير لا يُطمأنّ إلى صحتها، والتعبير الوارد في القرآن «عاداً الأُولى» إشارة إلى هذه القبيلة.

ولكن في زمن التاريخ - ومن المحتمل أن يكون في حدود ٧٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح - وُجد قوم آخرون باسم «عاد» قطنوا الأحقاف أو اليمن أيضاً، وكان أُولئك طوالاً جساماً أقوياء مقتدرين، ولذلك كانوا يعدون من مثيري الحروب.

كما أنّهم كانوا من الناحية الحضارية متمدنين، إذ كانت لهم مدن عامرة وأراضٍ خصبة خضراء وغابات نضرة، كما وصفوا في القرآن ﴿. . .ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾(١).

ولذلك يقول بعض المؤرّخين «المستشرقين»: إنّ «عاداً» كانت تقطن في حدود «برهوت» إحدى نواحي حضرموت اليمن، وعلى أثر البراكين وجبال النّار التي حولها دمرت الكثير من قراهم ومدنهم وتفرقت بقاياهم.

على كل حال فإنّ هؤلاء القوم كانوا يعيشون في نعم وترف، ولكن كما هي طريقة أغلب المتنعمين الغافلين والسكارى من أثر النعمة استغلّوا قدرتهم لظلم الآخرين واستثمارهم واستعمارهم. . . واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وأقروا عبادة الأوثان.

وحين دعاهم نبيّهم هود عليه‌السلام بكلّ ما أوتي من جهد وجدّ ليضيء أفكارهم بنصحه ومواعظه، ويتمّ الحجّة عليهم، لم يكتفوا بإهمال هذه الدعوة فحسب، بل نهضوا لإسكات هذا الصوت النيّر لهذا النّبي العظيم فمرّة نسبوه إلى السفاهة والجنون، ومرّة هددوه بغضب آلهتهم، ولكنّه وقف صامداً أمامهم كالجبل لا يخشى غضب هؤلاء القوم المغرورين الأقوياء، حتى استطاع أن يكتسب منهم جماعة تقدّر بأربعة آلاف وطهّر قلوبهم ودعاهم إلى منهاجه وعقيدته، لكن بقي الآخرون مصرّين على عنادهم ولجاجتهم.

(١) سورة الفجر، الآية: ٨.

وأخيراً - كما سيأتي في سورة الذاريات والحاقة والقمر - غمرهم إعصار شديد لمدّة سبع ليال وستة أيّام جسوماً فأتى على قصورهم فدمّرها وعلى أجسادهم فجعلها كأوراق الخريف وفرقها تفريقاً، ولكنّ هوداً عليه السلام كان قد أبعد المؤمنين عن هؤلاء ونجّاهم من العذاب، وأصبحت حياة أُولئك القوم ومصيرهم درساً كبيراً وعبرة لكل الجبابرة والأنانيين[1].

٢ - اللعن الدائم الأبدي على «عاد»

هذا التعبير وما شابهه ورد في آيات متعددة من القرآن الكريم في شأن أُمم مختلفة.

حيث يقول الله سبحانه بعد ذكر أحوالهم، كما في سورة هود الآية ٦٨: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ وفي آية أُخرى (٩٥) هود ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وفي سورة المؤمنون، الآية (٤١) ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي آية أخرى (٤٤) المؤمنون ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وكما قرأنا في قصّة نوح من قبل في هود الآية (٤٤) ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ففي جميع هذه الآيات جاء اللعن شعاراً لمن أذنبوا ذنباً عظيماً، ويدور هذا اللعن مدار بعدهم عن رحمة الله.

وغالباً ما يطلق اليوم مثل هذا الشعار على المستعمرين والمستكبرين والظالمين، غاية ما في الأمر أن هذا الشعار القرآني أخّاذ وطريف إلى درجة أنّه غير ناظر إلى بعد واحد فحسب. لأنّنا حين نقول مثلاً: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنّ هذا التعبير يشمل الابتعاد عن رحمة الله، والابتعاد عن السعادة، وعن كل خير وبركة ونعمة، وعن كونهم عباداً لله، طبعاً ابتعادهم عن الخير والسعادة هو انعكاس لابتعادهم في نفوسهم وأرواحهم ومحيط عملهم عن الله وخلق الله، لأنّ كل فكرة وعمل له أثر في الدار الآخرة يشابه ذلك العمل تماماً ولذلك فإنّ ابتعادهم هذا في هذه الدنيا أساس ابتعادهم في الآخرة عن رحمة الله وعفوه ومواهبه السنيّة[2].

---

(١) راجع تفسير الميزان، تفسير مجمع البيان، وكتاب أعلام القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) إنّ كلمة ﴿بُعْدًا﴾ من الناحية النحوية مفعول مطلق للجملة المقدّرة (المحذوفة) «أبعدهم الله» وعلى القاعدة ينبغي أن يكون هذا المفعول المطلق للجملة المقدرة (إبعاداً لا بُعداً) لأنّه مصدر «أبعد» لكن قد يأتي المصدر الثّلاثي مكان الرباعي كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فتأمل.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾

التّفسير

قصّة ثمود

انتهت قصّة «عاد قوم هود» بجميع دروسها بشكل مضغوط، وجاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» وهم الذين عاشوا في وادي القرى بين المدينة والشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

ونرى هنا أيضاً أنّ القرآن حين يتحدث عن نبيّهم «صالح» يذكره على أنّه أخوهم، وأي تعبير أروع وأجمل منه حيث بيّنا قسماً من محتواه في الآيات المتقدمة، أخ محترق القلب ودود مشفق ليس له هدف إلاّ الخير لجماعته ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

ونجد أيضاً أنّ منهج الأنبياء جميعاً يبدأ بمنهج التوحيد ونفي أي نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان التي هي أساس جميع المتاعب ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

ولكي يحرك إحساسهم بمعرفة الحق أشار إلى عدد من نعم الله المهمّة التي استوعبت جميع وجودهم فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

فأين هذه الأرض والتراب الذي لا قيمة له، وأين هذا الوجود العالي والخلقة البديعة؟ ترى هل يجيز العقل أن يترك الإنسان خالقه العظيم الذي لديه هذه القدرة العظيمة وهو واهب هذه النعم، ثمّ يمضي إلى عبادة الأوثان التي تثير السخرية.

ثمّ يُذكّر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمة الخلقة بنعم أُخرى موجودة في الأرض حيث قال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

وأصل «الاستعمار» و«الإعمار» في اللغة يعني تفويض عمارة الأرض لأي كان، وطبيعي أنّ لازم ذلك أن يجعل الوسائل والأسباب في اختيار من يفوّض إليه ذلك تحت تصرفه!

هذا ما قاله أرباب اللغة، كالراغب في المفردات، وكثير من المفسّرين في تفسير الآية المتقدمة.

ويَرِدُ احتمال آخر، وهو أنّ الله منحكم عمراً طويلاً في هذه الأرض، وبديهي أنّ المعنى الأوّل وبملاحظة مصادر اللغة هو الأقرب والأصح كما يبدو.

وعلى كل حال فهذا الموضوع يصدق بمعنييه في ثمود، حيث كانت لديهم أراض خصبة وخضراء ومزارع كثيرة الخيرات والبركات، وكانوا يبذلون في الزراعة ابتكارات وقدرات واسعة، وإلى ذلك كله كانت أعمارهم مديدة وأجسامهم قويّة وكانوا متطورين في بناء المساكن والبيوت، كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾[1].

الطريف هنا أنّ القرآن لم يقل: إنّ الله عمر الأرض وجعلها تحت تصرفكم، وإنّما قال: وفوّض إليكم إعمار الأرض ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وهي إشارة إلى أنّ الوسائل معدّة فيها لكل شيء وعليكم إعمارها بالعمل والسعي المتواصل والسيطرة على مصادر الخيرات فيها. وبدون ذلك لا حظّ لكم في الحياة الكريمة.

كما يستفاد ضمناً أنّه ينبغي من أجل الإعمار أن يعطي المجال لأُمّة معينة في العمل، وتجعل الأسباب والوسائل اللازمة تحت تصرفها وفي اختيارها.

فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ لدعواتكم.

مفهوم الاستعمار في القرآن وفي عصرنا الحاضر:

لاحظنا في الآيات المتقدمة أنّ نبي الله «صالحاً» من أجل هداية وتربية قومه الضالين «ثمود» ذكرهم بعظيم خلق الله لهم من التراب.. وتفويض إعمار الأرض إليهم إذ قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾.

لكن هذه الكلمة مع جمالها الخاص وجذابيتها التي تعني العمران وتفويض الاختيارات وإعداد الوسائل اللازمة وتهيئتها، تبدّلت هذه الكلمة في عصرنا إلى درجة أنّها مُسخت وأصبحت تعطي معنىً معاكساً لمفهوم القرآن تماماً.

وليست كلمة الاستعمار وحدها انتهت إلى هذا المصير المشؤوم، فهناك كلمات كثيرة في العربية وفي لغات أُخرى مسخت وحُرّفت وتبدّلت وانقلبت رأساً على عقب،

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٢.

مثل كلمات «الحضارة» و«الثقافة» و«الحرية» وفي ظلال هذه التحريفات تأخذ هذه الكلمات وأمثالها طريقها إلى التغرّب والبعد عن معناها، وتتحول لعبادة المادة وأسر الناس وإنكار الحقائق والتوغل في كل أنواع الفساد وما إلى ذلك.

وعلى كل حال، فإنّ معنى «الاستعمار» في عصرنا ومفهومه الواقعي هو «استيلاء الدول العظمى السياسية والصناعية على الأمم المستضعفة» قليلة القدرة، بحيث تكون نتيجة هذا «الاستيلاء» وهذه «الغارة» امتصاص دمائهم وسلب خيراتهم ومصادرة حياتهم.

هذا الاستعمار الذي له أوجه شؤم مختلفة، يتجسم مرّة بشكل «ثقافي» وأُخرى بوجه «فكري» وثالثة بوجه «اقتصادي» ورابعة بوجه «سياسي» وقد يبدو بوجه «عسكري» أيضاً، وهو الذي بدل دنيانا وجعلها سوداء مظلمة، فالأقلية في هذه الدنيا لديهم كل شيء، والأكثرية العظمى فاقدة لكل شيء هذا الاستعمار هو السبب في الحروب والدمار والانحرافات والفساد والتسابق التسليحي الذي يقصم الظهر.

القرآن استعمل لهذا المفهوم مفردة «الاستضعاف» التي تنطبق تماماً على هذا المعنى أي «جعل الشيء ضعيفاً» بالمعنى الواسع والشامل للكلمة، جعل الفكر ضعيفاً، وجعل الاقتصاد ضعيفاً، وجعل السياسة ضعيفة... الخ..

وقد اتسع مجال الاستعمار إلى درجة بحيث أصبحت كلمة الاستعمار «استعمارية» أيضاً، وذلك لأنّ مفهومها اللغوي قد انقلب رأساً على عقب تماماً.

وعلى كل حال، فإن الاستعمار من القَصَصِ الطويلة المثيرة للحزن والألم، بحيث يمكن أن يقال إنّه يستوعب تاريخ البشرية أجمع وإن تغيّر وجهه دائماً، ولكن من غير المعلوم أنّه متى يزول من المجتمعات الإنسانية، وتقوم حياة البشر على أساس التعاون والاحترام المتبادل بين الناس والمساعدة ليتقدم الواحد بعد الآخر في جميع المجالات...؟!

﴿قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا

تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ ﴾

التّفسير

والآن لنلاحظ ما الذي كان جواب المخالفين لنبيّ الله «صالح عليه السلام» إزاء منطقه الحي الداعي إلى الحق.

لقد استفادوا من عامل نفسي للتأثير على النّبي «صالح» أو على الأقل للمحاولة في عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس، وبالتعبير العامّي الدارج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ وكنّا نتوجه إليك لحل مشاكلنا ونستشيرك في أُمورنا ونعتقد بعقلك وذكائك ودرايتك، ولم نشك في إشفاقك واهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب أدراج الرياح، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان وهو منهج اسلافنا ومفخرة قومنا، فأبديت عدم احترامك للأوثان وللكبار وسخرت من عقولنا ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ﴾ والحقيقة أننا نشكُّ في دعوتك للواحد الأحد ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾.

نجد هنا أن القوم الضّالين يلتجئون تحت غطاء الاسلاف والآباء الذين تحيط بهم هالة من القدسية لتوجيه أخطائهم وأعمالهم وأفكارهم غير الصحيحة، وهو ذلك المنطق القديم الذي كان يتذرع به المنحرفون وما زالوا يتذرعون به في عصر الذّرة والفضاء أيضاً.

لكن هذا النّبي الكبير لم ييأس من هدايتهم ولم تؤثر كلماتهم المخادعة في روحه الكبيرة فأجابهم قائلاً: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ أفأسكت عن دعوتي ولا أبلغ رسالة الله ولا أواجه المنحرفين ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ ولكن اعلموا أن كلامكم هذا واحتجاجكم بمنهج السلف والآباء لا يزيدني إلاّ إيماناً بضلالتكم وخسرانكم: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾.

وبعد هذا كلّه ومن أجل البرهان على صدق دعوته، وبيان المعاجز الإلهيّة التي دونها قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التي هي آية من آيات الله وقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ فاتركوها وذروها تأكل في أرض الله ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾.

ناقة صالح

«النّاقة» في اللغة هي أُنثى الجمل، وقد أُضيفت إلى لفظ الجلالة «الله»[١] وهذه الإضافة تدل على أنّ هذه الناقة لها خصائص معينة، ومع الالتفات إلى ما عبّر عنها في الآية المتقدمة بأنّها «آية» وعلامة إلهيّة ودليل على الحقانيّة، يتّضح أنّها لم تكن ناقة عادية، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة!.

ولكن لم ترد في القرآن خصائص هذه الناقة بشكل مفصّل، غاية ما في الأمر أننا نعرف بأنّها لم تكن ناقة عادية كالنوق الأُخريات، والشيء الوحيد المذكور عنها في القرآن - وفي موردين فحسب - أن صالحاً أخبر قومه أن يتقاسموا ماءهم سهمين: سهم لهم وسهم للناقة، فلهم شرب يوم منه ولها شرب يوم آخر ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢] كما جاء في سورة القمر أيضاً ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[٣].

وفي سورة الشمس إشارة مختصرة إليها أيضاً، حيث يقول سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾[٤].

ولكن لم يتّضح كيف كان تقسيم الماء خارقاً للعادة؟

هناك احتمالان:

الأوّل: إنّ الناقة كانت تشرب ماءً كثيراً بحيث تأتي على ماء «النبع» كله.

والثاني: إنّه حين كانت ترد الماء لا تجرؤ الحيوانات الأُخرى على الورود إلى الماء معها.

أمّا كيف كانت هذه الناقة تستفيد من جميع الماء؟ فيوجه هذا الاحتمال بأنّ ماء القرية كان قليلاً كماء القرى التي ليس فيها أكثر من عين ماء واحدة، وأهل القرية مجبورون على أن يدخروا الماء تمام اليوم في حفرة خاصّة ليجتمع الماء في العين مرّة أُخرى.

ولكن في جزء آخر من سورة الشعراء يتجلّى لنا أنّ ثمود لم يعيشوا في منطقة قليلة

---

(١) مثل هذه الإضافة يقال لها في المصطلح الأدبي إضافة تشريفية. بمعنى أنّها إضافة تدل على شرف الشيء وأهميّته، وفي الآية المتقدمة يلاحظ نموذجان من هذا النوع ١ - ناقة الله. ٢ - أرض الله. وقد ورد في موارد أُخرى غير هذه الكلمات.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة القمر، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الشمس، الآية: ١٣.

الماء، بل كانت لهم غابات وعيون ونخيل ومزارع حيث تقول الآيات: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨﴾[1].

وعلى كلِّ حال فإنّ القرآن ذكر قصّة ناقة صالح بشكل مجمل غير أنّنا نقرأ في روايات كثيرة عن مصادر الشيعة وأهل السنّة أيضاً، أنّ هذه الناقة خرجت من قلب الجبل، ولها خصائص أُخرى ليس هنا مجال سردها.

وعلى كل حال، فمع جميع ما أكّده نبيّهم العظيم «صالح» في شأن الناقة، فقد صمّموا أخيراً على القضاء عليها، لأنّ وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس والتفافهم حول النّبي صالح، لذلك فإنّ جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا يجدون في دعوة صالح خطراً على مصالحهم، ولا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائم استعمارهم للتقويض والانهيار، فتآمروا للقضاء على الناقة وهيأوا جماعة لهذا الغرض، وأخيراً أقدم أحدهم على مهاجمتها وضربها بالسكين فهوت إلى الأرض ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

«عقروها» مشتقة من مادة «العُقر» على وزن «الظلم» ومعناه: أصل الشيء وأساسه وجذره، و«عقرت البعير» معناه نحرته واحتززت رأسه، لأنّ نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل، وأحياناً تستعمل هذه الكلمة لطعن الناقة في بطنها. أو لتقطيع أطراف الناقة بدل النحر وكل ذلك في الواقع يرجع إلى معنى واحد «فتأمل»!....

العلاقة الدّينية

الطريف أنّنا نقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الذي عقر الناقة لم يكن إلاّ واحداً، لكن القرآن ينسب هذا العمل إلى جميع المخالفين من قوم صالح «ثمود» ويقول بصيغة الجمع: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وذلك لأنّ الإسلام يعدّ الرضا الباطني في أمر ما والارتباط معه ارتباطاً عاطفياً بمنزلة الاشتراك فيه، وفي الواقع فإنّ التآمر على هذا العمل لم يكن له جانب فردي، وحتى ذلك الذي أقدم على عمله لم يكن معتمداً على قوته الشخصيّة فجميعهم كانوا مرتاحين لعمله وكانوا يسندونه، ومن المسلّم أنّه لا يمكن أن يعدّ هذا العمل عملاً فردياً. بل يعد عملاً جماعياً. يقول الإمام علي عليه السلام: «وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا»[2].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٤٦ - ١٤٨.

(٢) نهج البلاغة، ومن كلام له، الخطبة رقم ٢٠١.

وهناك روايات متعددة في المضمون ذاته نقلت عن نبيّ الإسلام وأهل بيته الكرام، وهي تكشف غاية الاهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفية والمناهج الفكرية المشتركة بجلاء، ونورد هنا على سبيل المثال - لا الحصر - عدداً منها.

قال رسول الله ﷺ: «من شهد أمراً فكرِهه كمن غاب عنه ومن غاب عن أمر فرضيه كمن شهده»(١).

ويقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «لو أنّ رجلاً قُتل في المشرق فرضي بقتله رجل في المغرب لكان الراضي عند الله عزّوجلّ شريك القاتل»(٢).

ونقل عن الإمام علي عليه السلام أيضاً أنّه قال: «الراضي بفعل قوم كالداخل معهم فيه وعلى كل داخل في باطل إثمان إثم العمل به وإثم الرضا به»(٣).

ومن أجل أن نعرف عمق العلاقة الفكرية والعاطفية في الإسلام وسعتها بحيث لا يُعرف لها حدّ من جهة الزمان والمكان، فيكفي أن نذكر هذا الكلام للإمام علي عليه السلام من نهج البلاغة لنلفت إليه الأنظار: «حين انتصر الإمام علي في حرب الجمل على المتمردين ومثيري الفتنة وفرح أصحاب علي بهذا الانتصار الذي يُعدّ انتصاراً للإسلام على الشرك والجاهلية، قال له أحد أصحابه: «وددت لو أنّ أخي شهدنا هنا في الميدان ليرى انتصارك على عدوك».

فالتفت الإمام عليه السلام إليه قائلاً: «أهوى أخيك معنا؟» فقال: «نعم» فقال الإمام عليه السلام: «شَهِدَنا» ثمّ قال: «ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان»(٤).

ولا شكّ أنّ أُولئك الذين يساهمون في منهج ما ويشتركون فيه ويتحملون كل مشاكله وأتعابه، لهم امتياز خاص، ولكن هذا لا يعني أن الآخرين لم يشتركوا في ذلك أبداً، بل سواءً كانوا في عصرهم أو العصور والقرون المقبلة ولهم ارتباط عاطفي وفكري بهم فهم مشتركون معهم بنحو من الأنحاء.

هذه المسألة التي قد لا نجد لها نظيراً في أي مذهب من مذاهب العالم، قائمة على أساس من حقيقة اجتماعية هامة، وهي أن المنسجمين فكرياً وعقائدياً حتى لو لم يشتركوا في منهج معيّن، إلاّ أنّهم سيدخلون قطعاً في مناهج مشابهة له في محيطهم

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص ٤٠٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١١ المصدر السابق، ص ٤١٠.
(٣) المصدر السابق، ص٤١١.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٢.

وزمانهم، لأنّ أعمال الناس منعكسة عن أفكارهم، ولا يمكن أن يرتبط الإنسان بمذهب معين ولا يظهر أثره في عمله.

والإسلام منذ الخطوة الأُولى يهتم بإيجاد إصلاحات في روح الإنسان ونفسه لإصلاح عمله تلقائياً، وعلى ضوء الرّوايات المتقدمة فإنّ أي مسلم يبلغه أنّ فلاناً عمل عملاً صالحاً - أو سيئاً - ينبغي أن يتخذ الموقف الصحيح من ذلك العمل فوراً ويجعل قلبه وروحه منسجمين مع «الصالحات» وأن ينفر من «السيئات» فهذا السعي و«الجد» الداخلي لا شك سيكون له أثر في أعماله، وسيعمّق الترابط بين الفكر والعمل.

وفي نهاية الآية نقرأ أنّ النّبي «صالحاً» بعد أن رأى تمرّد قومه وعقرهم الناقة أنذرهم ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فهو وعد الله الذي لا يتغير وما أنا من الكاذبين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

التّفسير

نهاية ثمود «قوم صالح»

في هذه الآيات يتبيّن كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم وقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فتقول الآيات: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لا من العذاب الجسماني والمادي فحسب، بل ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾(١).

لأنّ الله قوي وقادر على كل شيء، وله السلطة على كل أمر، ولا يصعب عليه أي شيء ولا قدرة فوق قدرته ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

(١) الخزي في اللغة الانكسار الذي يصيب الإنسان سواءً من نفسه أو من سواه، ويشمل كل أنواع الذلّ أيضاً.

وعلى هذا فإنّ نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبتلى بعذاب الله ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة الله تعالى.

إنّ رحمة الله تستوجب ألاّ يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين، وألاّ يؤاخذ المؤمنون بجريرة غير المؤمنين ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ وهكذا هلكوا وصاروا «شذر مذر» ومضت آثارهم مع الريح ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ عن لطف الله ورحمته.

ملاحظات

١ - نجد في هذه الآيات أنّ رحمة الله بالنسبة للمؤمنين واسعة وشاملة، بحيث تنقلهم جميعاً إلى مكان آمن، ولا تحرق الأخضر واليابس بالعذاب.

ومن الممكن أن تحدث حوادث مؤلمة كالسيول والأوبئة والزلازل التي قد تأتي على الصغير والكبير، وليست هذه الحوادث ترجمة لعذاب الله، وإلاّ فإنّه محال على الله في منطق عدله أن يعذب حتى واحداً بريئاً بجرم ملايين المذنبين.

طبعاً يمكن أن يوجد أناس ساكتون بين جماعة مذنبين فيؤخذوا بوزرهم، لأنّهم لا يردعونهم عن الظلم والفساد، فمصيرهم - إذاً - سيكون كمصير المجرمين. ولكنّهم إذا عملوا بواجبهم فمحال أن تنزل عليهم حادثة أو يحيق بهم العذاب «فصّلنا هذا الموضوع في الأبحاث المرتبطة بمعرفة الله ونزول البلاء والحوادث في كتب معرفة الله»(١).

٢ - ويظهرُ جيداً من الآيات المتقدمة أنّ عقاب المعاندين والطغاة لا يختصّ بالجانب المادي فحسب، بل يشمل الجانب المعنوي، لأنّ نتيجة أعمالهم ومصيرهم المخزي وحياتهم الملوّثة تسجل فصولها في التاريخ بما يكون عاراً عليهم، في حين يكتب التاريخ حياة المؤمنين بسطور من ذهب وصحائف من نور.

٣ - ما المراد من الصيحة؟

الصيحة في اللغة معناها الصوت العظيم الذي يصدر من فم الإنسان أو الحيوان عادة ولكن لا تختصّ بهذا المعنى، بل تشمل كل صوت عظيم... نقرأ في القرآن الكريم أن

---

(١) في المجلد الخامس من التّفسير الأمثل وردت توضيحات مفيدة لفهم هذا المقصود. في تفسيرنا هذا ذيل الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

عدّة أقوام آثمين أخذتهم الصيحة من السماء عقاباً لهم على ذنوبهم، «ثمود» الذين نتحدث عنهم «وقوم لوط» كما نقرأ في سورة الحجر الآية (٧٣) «قوم شعيب» كما ذُكروا في سورة هود الآية (٩٤).

ويستفاد من بعض الآيات الأخرى من القرآن أنّ قوم صالح «ثمودا» عوقبوا بالصاعقة ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(١) ومن هنا يتبيّن أنّ المراد من الصيحة هو صوت الصاعقة الموحش!

سؤال: هل يستطيع صوت الصاعقة الموحش أن يبيد قوماً أو جماعة بأسرهم؟! والجواب: نعم، حتماً!... لأنّنا نعرف أن الأمواج الصوتية إذا تجاوزت حدّاً معيناً تستطيع أن تكسّر الزجاج، وقد تتهدم على أثرها عمارات، وقد تشل أعضاء البدن الداخلية.

الطائرات حين تخترق الجدار الصوتي وتكون سرعتها أكثر من سرعة أمواج الصوت يسقط بعض الأفراد فاقدي الوعي، أو تُسقط الحامل جنينها بسبب ذلك وقد يتكسر جميع الزّجاج في عمارات المنطقة التي تمرّ عليها هذه الطائرات.

وطبيعي أنّه إذا كانت شدّة الأمواج الصوتية أكثر ممّا ذكرنا، فمن السهولة أن تحدث اختلالاً قاتلاً في شبكات الاعصاب والدماغ وحركات القلب وتسبب موت الإنسان!:

ومن الثابت - طبقاً لما في آيات القرآن - أنّ نهاية هذا العالم تكون بصيحة عامّة أيضاً ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾(٢)، كما أنّ يوم القيامة يبدأ بصيحة موقظة أيضاً ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾(٣).

٤ - «الجاثم» من مادة «جثم» ومعناه المصدري الجلوس على الركب، كما يأتي بمعنى السقوط للوجه (ولزيادة التوضيح في هذا المجال يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية ٧٩ من سورة الأعراف).

ويستفاد طبعاً من التعبير بـ﴿جَاثِمِينَ﴾ أنّ الصيحة من السماء كانت السبب في موتهم، إلاّ أنّ أجسادهم كانت ملقاةً على الأرض، لكن يستفاد من بعض الرّوايات أنّ الصاعقة أحرقتهم بنارها، ولا منافاة بين الأمرين، لأنّ أثر الصوت الموحش للصاعقة يتّضح فوراً، وأمّا آثار حرقها - وخاصّة لمن هم داخل البيوت - فيظهر بعدئذ.

(١) سورة فصلت، الآية: ١٣.
(٢) سورة يس، الآية: ٤٩.
(٣) سورة يس، الآية: ٥٣.

٥ - لفظ ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ مشتق من مادة «غني» ومعناه الإقامة في المكان، ولا يبعد أن يكون مأخوذاً من المفهوم الأصلي وهو «الغنى» ومعناه عدم الحاجة، لأنّ الغني هو غير المحتاج، له بيت مهيّأ ومعدّ وليس مجبوراً أن ينتقل كل زمان من منزل إلى آخر - والتعبير بجملة ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ وارد في ثمود، كما هو وارد في قوم شعيب، ومفهوم هذا التعبير أنّ طومار حياتهم قد طُوي بحيث يظنّ الإنسان أنّهم لم يكونوا من سكنة هذه الأرض.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

التّفسير

جانبٌ من حياة محطّم الأصنام

والآن جاء الدور للحديث عن جانب من حياة «إبراهيم عليه السلام» هذا البطل العظيم الذي حطّم الأصنام، وما جرى له مع قومه، طبعاً كل ذلك مذكور بتفصيل أكثر في سور أُخرى من القرآن غير هذه السورة، كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، والأنبياء، وغيرها.

وهنا تذكر الآيات قسماً من حياته المرتبطة بقصّة «قوم لوط» وعقاب هؤلاء الجماعة الملوّثين بالآثام والعصيان، فتقول في البداية: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾.

وهؤلاء الرسل - كما سيتبيّن من خلال الآيات التالية - هم الملائكة الذين أُمروا بتدمير مدن قوم لوط، ولكنّهم قبل ذلك جاؤوا إلى إبراهيم ليسلموه بلاغاً يتضمّن بشرى سارة.

أمّا عن ماهية هذه البشرى فهناك احتمالان، ولا مانع من الجمع بينهما.

الاحتمال الأوّل: البشرى بتولّد إسماعيل وإسحاق، لأنّ إبراهيم عليه السلام لم يرزق ولداً بعد عمر طويل، في حين كان يتمنى أن يرزق ولداً أو أولاداً يحملون لواء النبوّة، فإبلاغهم له بتولد إسماعيل وإسحاق يعد بشارة عظمى.

والاحتمال الثّاني: إنّ إبراهيم كان مستاءً ممّا وجده في قوم لوط من الفساد والعصيان، فحين أخبروه بأنّهم أمروا بهلاكهم سُرَّ، وكان هذا الخبر بشرى له.

فحين جاؤوا إبراهيم ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ فأجابهم أيضاً و﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ ورحّب بهم ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

«العجل» في اللغة ولد البقر و«الحنيذ» معناه المشوي، واحتمل بعضهم أنّ كل لحم مشوي لايطلق عليه أنّه حنيذ، بل هو اللحم المشويّ على الصخور إلى جنب النّار دون أن تصيبه النّار، وهكذا ينضج شيئاً فشيئاً.

ويستفاد من هذه الجملة أنّ من آداب الضيافة أن يعجّل للضيف بالطعام، خاصّة إذا كان الضيف مسافراً، فإنّه غالباً ما يكون متعباً وجائعاً وبحاجة إلى طعام، فينبغي أن يقدم له الطعام عاجلاً ليخلد إلى الراحة.

وربّما يقول بعض المنتقدين: أليس هذا العجل كثيراً على نفر معدود من الأضياف، ولكن مع ملاحظة أنّ القرآن لم يذكر عدد هؤلاء الأضياف أوّلاً، وهناك أقوال في عددهم، فبعض يقول: كانوا ثلاثة، وبعض يقول: أربعة، وبعض يقول: كانوا تسعة، وبعض قال: أحد عشر، ويحتمل أن يكونوا أكثر من ذلك(١).

وثانياً: فإنّ إبراهيم كان له أتباع وعمال وجيران، وهذا الأمر متعارف أن يصنع مثل هذا عند الضيافة ويكون فوق حاجة الأضياف ليأكل منه الجميع..

ولكن حدث لإبراهيم حادث عجيب مع أضيافه عند تقديم العجل الحنيذ لهم، فقد رآهم لا يمدّون أيديهم إلى الطعام، وهذا العمل كان مريباً له وجديداً عليه، فأحسّ بالاستيحاش واستغرب ذلك منهم ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

ومن السنن والعادات القديمة التي لا تزال قائمة بين كثير من الناس الذين لهم التزام بالتقاليد الطيبة للأسلاف، هي أنّ الضيف إذا تناول من طعام صاحبه (وبما اصطلح

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

عليه: تناول من ملحه وخبزه) فهو لا يكنّ له قصد سوء، وعلى هذا فإنّ من له قصد سوء مع أحد - واقعاً - يحاول ألاّ يأكل من طعامه «وخبزه وملحه» ومن هذا المنطلق شك إبراهيم في نيّاتهم، وأساء الظن بهم، واحتمل أنّهم يريدون به سوءاً.

أمّا الرسل فإنّهم لمّا اطلعوا على ما في نفس إبراهيم، بادروا لرفع ما وقع في نفسه و﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وفي هذه الحال كانت امرأته «سارة» واقفة هناك فضحكت كما تقول الآية: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾.

هذا الضحك من سارة يحتمل أن يكون لأنّها كانت مستاءةً من قوم لوط وفجائعهم، واطلاعها على قرب نزول العذاب عليهم كان سبباً لسرورها وضحكها.

وهناك احتمال آخر وهو أنّ الضحك كان نتيجة لتعجبها أو حتى لاستيحاشها أيضاً، لأنّ الضحك لا يختص بالحوادث السارّة بل يضحك الإنسان - أحياناً - من الاستياء وشدة الاستيحاش، ومن أمثال العرب في هذا الصدد «شر الشدائد ما يضحك».

أو أنّ الضحك كان لأنّ الأضياف لم يتناولوا الطعام ولم تصل أيديهم إليه بالرغم من إعداده وتهيئته لهم.

ويحتمل أيضاً أنّ ضحكها لسرورها بالبشارة بالولد، وإن كان ظاهر الآية ينفي هذا التّفسير، لأنّ البشرى بإسحاق كانت بعد ضحكها، إلاّ أن يقال: إنّهم بشروا إبراهيم أوّلاً بالولد، واحتملت سارة أن سيكون الولد منها فتعجبت، وأنّه هل يمكن لامرأة عجوز وفي هذه السن أن يكون لها ولد من زوجها؟ لذلك سألتهم بتعجب فأجابوها بالقول: نعم، وهذا الولد سيكون منك، والتأمل في سورة الذاريات بهذا الشأن يؤكّد ذلك.

وينبغي الالتفات هنا إلى أنّ بعض المفسّرين يصرون على أنّ «ضحكت» مشتقة من «ضَحْك» بمعنى العادة النسائية وهي «الحيض» وقالوا: إنّ سارة بعد أن بلغت سنّ اليأس أتتها العادة في هذه اللحظة وحاضت، والعادة الشهرية تدل على إمكان إنجاب الولد، ولذلك فحين بشرت بإسحاق أمكنها أن تصدّق ذلك تماماً... وهؤلاء المفسّرون استندوا في قولهم إلى لغة العرب، حيث قالوا في هذا الصدد: ضحكت الأرنب، أي حاضت.

ولكن هذا الاحتمال مستبعد من جهات مختلفة:

أوّلاً: لأنّه لم يسمع أنّ هذه «المادة» استعملت في الإنسان بمعنى الحيض في اللغة العربية، ولهذا فإنّ الراغب حين يذكر هذا المعنى في مفرداته يقول بصراحة: إنّ هذا ليس تفسير جملة فضحكت كما تصوّره بعض المفسّرين، بل معناها هو الضحك المألوف، ولكنّها حاضت وهي في حال الضحك أيضاً، ولذلك وقع الخلط بينهما.

ثانياً: إذا كانت هذه الجملة بمعنى حصول العادة النسائية فلا ينبغي لسارة أن تتعجب من البشرى بالولد «إسحاق» لأنّه - والحال هذه - لا غرابة في الإنجاب، في حين نستفيد من الجمل الأُخرى أنّها لم تتعجب من الإنجاب فحسب، بل صرخت وقالت: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾.

وعلى كل حال فإنّ هذا الاحتمال في الآية يبدو بعيداً جدّاً.

ثمّ تضيف الآية أنّ إسحاق سيعقبه ولد من صلبه اسمه يعقوب: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾.

الواقع أنّ الملائكة بشّروها بالولد وبالحفيد، فالأوّل إسحاق والثّاني يعقوب، وكلاهما من أنبياء الله.

ومع التفات «سارة» امرأة إبراهيم إلى كبر سنّها وسن زوجها فإنّها كانت آيسة من الولد بشدّة، فاستنكرت بصوت عال متعجبة من هذا الأمر و﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾.

وكان الحق معها، لأنّه طبقاً للآية (٢٩) من سورة الذاريات، فإنّها كانت في شبابها عاقراً، وحين بشرت بالولد كانَ عمرها - كما يقول المفسّرون وتذكره التوراة في سفر التكوين - تسعين عاماً أو أكثر، أمّا زوجها إبراهيم ﷷ فكان عمره مئة عام أو أكثر.

وهنا ينقدح سؤال وهو: لِمَ استدلّت سارة على عدم الإنجاب بكبر سنّها وكبر سنّ زوجها، في حين أننا نعلم أنَّ النساء عادة يصبحن آيسات بعد الخمسين لانقطاع «الحيض» أو «العادة» واحتمال الإنجاب في هذه المرحلة بالنسبة لهنّ ضعيف، أمّا الرجال فقد أثبتت التجارب الطبيعية أنّهم قادرون على الإنجاب لسنين أطول...؟

والجواب على هذا السؤال واضح: فإنّ الرجال وإن كانوا قادرين على الإنجاب، ولكن يضعف احتماله كلما طعنوا في السنّ، ولذا فطبقاً للآية (٥٤) من سورة الحجر نجدُ إبراهيم نفسه متعجباً من هذه البشرى لكبر سنّه، أضف إلى ذلك فإنّ سارة من الناحية النفسية لعلها لم تكن منفردة بهذه المشكلة (العقم) وأرادت إقحام زوجها معها.

وعلى كل حال فإنّ رسل الله أزالوا التعجب عنها فوراً وذكّروها بنعم الله «الخارقة للعادة» عليها وعلى أُسرتها ونجاتهم من الحوادث الجمّة، فالتفتوا إليها و﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ. . .﴾(١).

ذلك الربّ الذي نجّى إبراهيم من مخالب نمرود الظالم، ولم يصبه سوء وهم في قلب النار، هو ذلك الرّب الذي نصر إبراهيم محطم الأصنام - وهو وحيد - على جميع الطواغيت، وألْهَمَهُ القدرة والاستقامة والبصيرة.

وهذه الرحمة الإلهيّة لم تكن خاصّة بذلك اليوم فحسب، بل هي مستمرة في أهل هذا البيت، وأي بركة أعظم من وجود رسول الله محمّد ﷺ والأئمّة الطاهرين عليهم السلام في هذه الأُسرة وفي هذا البيت بالذات.

واستدل بعض المفسّرين بهذه الآية على أنّ الزوجة تعدّ من «أهل البيت» أيضاً، ولا يختص هذا العنوان بالولد والأب والأم، وهذا الاستدلال صحيح طبعاً، وحتى مع غضّ النظر عن الآية هذه، فإنّ كلمة «أهل» من حيث المحتوى تصحّ بهذا المعنى، ولكن لا مانع أبداً أن يخرج جماعة من أهل بيت النّبوة من الناحية المعنوية بسبب انحرافهم من أهل البيت «وسيأتي مزيد من الإيضاح والشرح في هذا الصدد إن شاء الله ذيل الآية ٣٣ من سورة الأحزاب».

وقالت ملائكة الله لمزيد التأكيد على بشارتهم وكلامهم في شأن الله ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾.

الواقع إنّ ذكر هاتين الصفتين لله تعالى له علاقة بالجملة السابقة، لأنّ كلمة «حميد» تعني من له أعمال ممدوحة وتستوجب الثناء والحمد، وقد جاء صفة لله ليشير إلى نعمه الكثيرة على عباده ليُحمد عليها، وأمّا كلمة «مجيد» فتطلق على من يهب النعم حتى قبل استحقاقها.

ترى هل من العجيب على ربّ له هذه الصفات أن يعطي مثل هذه النعمة العظيمة أي الأبناء الصالحين لنبيّه الكريم؟!

---

(١) إنّ جملة ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ يمكن أن تكون خبرية، وهي حال، كما يمكن أن تكون بمعنى الدعاء أيضاً، ولكن الاحتمال الأوّل أقرب.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

التّفسير

رأينا في الآيات السابقة أنّ إبراهيم عرف فوراً أنّ أضيافه الجدد لم يكونوا أفراداً خطرين أو يخشى منهم، بل كانوا ﴿رُسُلُ اللَّهِ﴾ على حدّ تعبيرهم، ليؤدوا وظيفتهم التي أُمروا بها في قوم لوط.

ولمّا ذهب الهلع والخوف عن إبراهيم من أُولئك الأضياف، ومن ناحية أُخرى فقد بشروه بالوليد السعيد، شرع فوراً بالتفكير في قوم لوط الذين أُرسل إليهم هؤلاء الرُّسل «الملائكة» فأخذ يجادلهم ويتحدث معهم في أمرهم ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾(١).

وهنا يمكن أن ينقدح هذا السؤال، وهو: لِمَ تباحث إبراهيم عليه السلام مع رسل الله وجادلهم في قوم آثمين ظالمين - كقوم لوط - وقد أُمروا بتدميرهم، في حين أنّ هذا العمل لا يتناسب مع نبيّ، خاصّة إذا كان إبراهيم عليه السلام في عظمته وشأنه؟

لهذا فإنّ القرآن يعقّب مباشرة في الآية عن شفقة إبراهيم وتوكله على الله فيقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾(٢).

في الواقع هذه الكلمات الثلاث المجملة جواب على السؤال المشار إليه آنفاً. وتوضيح ذلك: إنّ هذه الصفات المذكورة لإبراهيم تشير إلى أنّ مجادلته كانت ممدوحة، وذلك لأنّ إبراهيم لم يتّضح له أنّ أمر العذاب صادر من قبل الله بصورة قطعية، بل كان يحتمل أنّه لا يزال لهم حظ في النجاة، ويحتمل أنّهم سيرتدون عن غيهم

---

(١) كلمة «رَوْع» على وزن «نَوع» معناها «الخوف والوحشة» وكلمة «رُوْع» على وزن «نوح» معناها «الروح» أو قسم منها الذي هو محل الخوف ومركزه، لمزيد الإيضاح تراجع المعاجم اللغوية.

(٢) «الحليم» مشتق من «الحلم» وهو: الأناة والصبر في سبيل الوصول إلى هدف مقدّس، والأوّاه في الأصل: كثير التحسّر والآه سواء من الخوف من المسؤولية التي يحملها أو من المصائب، والمنيب من الإنابة أي الرجوع.

ويتّعظون، ومن هنا فما زال هناك مجال للشفاعة لهم. . . فكان راغباً في تأخير العذاب والعقاب عنهم، لأنّه كان حليماً، ومشفقاً وأوّاهاً ومنيباً إلى الله.

فما ذكره البعض - من أنّ مجادلة إبراهيم إذا كانت مع الله فلا معنى لها، وإذا كانت مع رسله فهم أيضاً لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من أنفسهم، فعلى كل حال فالمجادلة هذه غير صحيحة - مجانب للصواب، لأنّه لا كلام في الحكم القطعي، أمّا لو كان الحكم غير قطعي فمع تغيير الظروف وتبدل الأوضاع يمكن تغييره، لأنّ طريق الرجوع لا زال مفتوحاً، وبتعبير آخر: فإنّ الأوامر في هذه الحالة مشروطة لا مطلقة.

وأمّا من احتمل أنّ المجادلة كانت مع الرسل في شأن نجاة المؤمنين، واستشهدوا على هذا القول بالآيتين (٣١) و(٣٢) من سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٣٢﴾.

فهذا الاحتمال غير صحيح أيضاً، ولا ينسجم مع الآية التي تأتي بعدها حيث تقول الآية التالية: إنّ الرسل قالوا لإبراهيم - مباشرةً - أن أعرض عن اقتراحِك لأنّ أمر ربّك قد تحقق والعذاب نازل لا محالة.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

والتعبير بـ«ربّك» لايدل على أنّ هذا العذاب خال من الطابع الانتقامي فحسب، بل يدل أيضاً على أنّه علامة لتربية العباد وإصلاح المجتمع الإنساني.

وما نقرؤه في بعض الرّوايات أنّ إبراهيم عليه السلام قال لرسل الله: إذا كان بين هؤلاء القوم مئة مؤمن فهل يعذب المؤمنون؟ قالوا: لا. فقال: إذا كان بينهم خمسون مؤمناً؟ فقالوا: لا أيضاً.

قال: فإذا كان بينهم ثلاثون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: فإذا كان بينهم عشرة؟ قالوا: لا. قال: فإذا كان بينهم خمسة؟ قالوا: لا. قال: فإذا كان بينهم مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: فإنّ فيها لوطاً. قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته[1] . . . الخ.

فمثل هذه الرّواية لا تدل بوجه مطلق على أنّ المجادلة اقتصرت على هذا الكلام؛ بل

(١) راجع تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٢٦؛ أصول الكافي، ج ٥، ص ٥٤٦، ح ٦.

كان ذلك منه بالنسبة إلى المؤمنين، وهو شيء آخر غير مجادلته عن الكفّار. ومن هنا يتّضح أنّ الآيات التي وردت في سورة العنكبوت لا تنافي هذا التّفسير أيضاً «فتدبّر».

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

التّفسير

قوم لوط وحياة الخزي

مرّت في آيات من سورة الأعراف إشارة إلى شيء من مصير قوم لوط، وفسّرنا ذلك في محلّه، وهنا يتناول القرآن الكريم - وبمناسبة ما ذكره من قصص الأنبياء وأقوامهم وبما ورد في الآيات المتقدمة عن قصّة لوط وقومه - قسماً آخر من حياة هؤلاء القوم المنحرفين الضالين ليتابع بيان الهدف الأصلي ألا وهو سعادة المجتمع الإنساني ونجاته بأسره.

يبيّن القرآن الكريم في هذا الصدد أوّلاً... أنّه لما جاءت رسلنا لوطاً طار هلعاً وضاق بهم ذرعاً وأحاط به الهمّ من كل جانب ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

وقد ورد في الرّوايات الإسلامية أنّ لوطاً كان في مزرعَته حيث فوجىء بعدد من الشباب الوسيمين الصّباح الوجوه قادمون نحوه وراغبون في النّزول عنده ولرغبته باستضافتهم من جهة، ولعلمه بالواقع المرير الذي سيشهده في مدينته الملوّثة بالانحراف الجنسي من جهة أُخرى، كل ذلك أوجب له الهم...

ومرّت هذه المسائل على شكل أفكار وصور مرهقة في فكره، وتحدث مع نفسه ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، لاحتمال الفضيحة والتورط في مشاكل عويصة.

كلمة ﴿سِيٓءَ﴾ مشتقّة من ساء، ومعناها عدم الارتياح وسوء الحال، و«الذرع» تعني «القلب» على قول، وقال آخرون: معناها «الخُلق» فعلى هذا يكون معنى ﴿وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرْعًا﴾ أنّ قلبه أصيب بتأثر شديد لهؤلاء الأضياف غير المدعوين في مثل هذه الظروف الصعبة.

ولكن بحسب ما ينقله «الفخر الرازي» في تفسيره عن «الأزهري» أنّ الذرع في هذه الموارد يعني «الطاقة» وفي الأصل معناه الفاصلة بين اذرع البعير أثناء سيره.

وطبيعي حين يحمل البعير أكثر من طاقته فإنّه يضطر إلى تقريب خطواته وتقليل الفاصلة بين خطواته، وبهذه المناسبة وبالتدريج استعمل هذا المعنى في عدم الارتياح والاستثقال من الحوادث.

ويستفاد من بعض كتب اللغة ككتاب «القاموس» أنّ هذا التعبير إنّما يستعمل في شدة الحادثة بحيث يجد الإنسان جميع الطرق بوجهه موصدة.

وكلمة «عصيب» مشتقّة من «العصب» على زنة «الكلب» ومعناه ربط الشيء بالآخر وشده شدّاً محكماً، وبما أنّ الحوادث الصعبة تشدُّ الإنسان وكأنّها تسلبه راحته فيظل مبلبل الأفكار سُمّيت «عصيبة» وتطلق العرب على الأيّام شديدة الحر أنّها عصيبة أيضاً.

وعلى كل حال، فإنّ لوطاً لم يجد بدّاً من أن يأتي بضيوفه إلى البيت ويقوم بواجب الضيافة ولكنّه حدّثهم في الطريق - عدة مرّات - أنّ أهل هذه المدينة منحرفون وأشرار ليكونوا على حذر منهم.

ونقرأ في إحدى الرّوايات أنّ الله سبحانه أمر ملائكته أن لا يعذبوا قوم لوط حتى يعترف لوط عليهم ثلاث مرّات، ومعنى ذلك أنّه حتى في تنفيذ حكم الله بالنسبة لقوم ظالمين لابدّ من تحقق موازين عادلة في المحاكمة، وقد سمع رسل الله شهادة لوط في قومه ثلاث مرّات أثناء الطريق(١).

وورد في بعض الرّوايات أنّ لوطاً أخّر ضيوفه كثيراً حتى حلول الليل، فلعله يستطيع أن يحفظ ماء وجهه من شرور قومه، ويقوم بواجب الضيافة دون أن يُساء إلى أضيافه، ولكن ما عسى أن يفعل الإنسان إذا كان عدوه داخل بيته، وكانت امرأة لوط امرأة كافرة وتساعد قومه الظالمين، وقد اطلعت على ورود هؤلاء الأضياف إلى بيتها، فصعدت إلى أعلى السطح وصفقت بيديها أوّلاً، ثمّ بإشعال النّار وتصاعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأنّ طعمة دسمة قد وقعت في «الشّباك»(٢).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وأصول الكافي، ج ٥، ص ٥٤٧، ح ٦.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٠، ص ٣٦٢؛ أصول الكافي، ج ٥، ص ٥٤٦، ح ٦.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾[1] وكانت حياة هؤلاء القوم مسودّة وملطخة بالعار ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فكان من حق لوط أن يضيق ذرعاً ويصرخ ممّا يرى من شدّة استيائه و﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ فأنا مستعد أن أزوجهن إيّاكم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ يصدكم عن هذه الأعمال المخزية وينصحكم بالإقلاع عنها.

ولكن هؤلاء القوم المفسدين أجابوا لوطاً بكل وقاحة وعدم حياء و﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

وهنا وجد لوط - هذا النّبي العظيم - نفسه محاصراً في هذه الحادثة المريرة فنادى و﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ أو سند من العشيرة والأتباع والمعاهدين الأقوياء حتى أتغلّب عليكم ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾.

ملاحظات

١ - العبارة التي قالها لوط عند هجوم القوم على داره وأضيافه - ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ فتزوجوهنّ إن شئتم فهنّ حلال لكم ولا ترتكبوا الإثم والذنب - أثارت بين المفسّرين عدّة أسئلة:

أوّلاً: هل المراد من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ بنات لوط على وجه الحقيقة والنسب؟! في حين أنّ عددهن - وطبقاً لما ينقل التاريخ - ثلاث أو اثنتان فحسب، فكيف يعرض تزويجهن على هذه الجماعة الكثيرة؟!

أم أنّ المراد من قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ بنات «القبيلة» والمدينة، وعادة ينسب كبير القوم ورئيسهم بنات القبيلة اليه ويطلق عليهنّ «بناتي».

الاحتمال الثّاني يبدو ضعيفاً لأنّه خلاف الظاهر.

والصحيح هو الاحتمال الأوّل، لأنّ الذين هجموا على داره وأضيافه كانوا ثلّة من أهل القرية لا جميعهم فاقترح عليهم لوط ذلك الاقتراح، أضف إلى ذلك أنّ لوطاً كان يريد أن يبدي مُنتهى إيثاره وتضحيته لحفظ ماء وجهه وليقول لهم: إنّي مستعد لتزويجكم

---

(١) ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ مشتقّة من الإهراع ومعناها السياقة الشديدة، فكأنّما تسوق غريزة هؤلاء إيّاهم بشدّة إلى أضيافه.

من بناتي لتُقلعوا عن آثامكم وتتركوا أضيافي فلعل هذا الإيثار المنقطع النظير يردعهم ويوقظ ضمائرهم التي غطتها السيئات.

ثانياً: هل يجوز تزويج البنات المؤمنات أمثال بنات لوط من الكفّار حتى يقترح عليهم لوط ذلك؟!

وقد أجيب على هذا السؤال من طريقين:

الأوّل: إنّ مثل هذا الزواج في مذهب لوط - كما في بداية الإسلام - لم يكن محرماً، ولذلك فإنّ النّبي ﷺ زوّجَ ابنته زينب من أبي العاص[١] قبل أن يسلم، ولكن هذا الحكم نسخ بعدئذ[٢].

الثّاني: إنّ المراد من قول لوط عليه السلام كان زواجاً مشروطاً بالإيمان، أي هؤلاء بناتي فتعالوا وآمنوا لأزوجهن إيّاكم.

ويتّضح أنّ الإشكال على النّبي لوط - من أنّه كيف يزوج بناته المطهرات من جماعة أوباش - غير صحيح، لأنّ عرضه عليهم ذلك الزواج كان مشروطاً بالإيمان وليثبت منتهى علاقته بهدايتهم.

٢ - ينبغي الالتفات إلى أنّ كلمة ﴿أَطْهَرُ﴾ لا تعني بمفهومها أنّ عملهم المخزي والسيّىء كان «طاهراً» ولكن الزواج من البنات «أطهر»، بل هو تعبير شائع في لسان العرب - ولغات أُخرى - في المفاضلة والمقايسة بين أمرين، مثلاً يقال لمن يسوق بسرعة رعناء «الوصول المتأخّر خير من عدم الوصول أبداً» أو «الإعراض عن الطعام المشكوك أفضل من إلقاء الإنسان بنفسه إلى التهلكة» ونقرأ في بعض الرّوايات مثلاً أنّ الإمام الصادق عليه السلام حين يشعر بالخطر الشديد و«التقيّة» من خلفاء بني العباس يقول «والله لئن أفطر يوماً من شهر رمضان أحبّ إليّ من أن تضرب عنقي»[٣].

مع أنّه لا القتل محبوب ولا هو أمر حسن بنفسه، ولا عدم الوصول أبداً، ولا أمثالهما.

٣ - تعبير لوط ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ في آخر كلامه مع قومه المنحرفين يكشف

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٤٨. (والملفت أنّ أبي العاص كان ابن أخت خديجة وابن خالة زينب).

(٢) انظر الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وتفسير مجمع البيان في هذا الصدد. التفسير الكبير؛ وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ١١٠، ح ٢٦٦٥٢.

(٣) وسائل الشيعة، الجزء ٧، ص ٩٥، كتاب الصوم باب ٥٧.

عن هذه الحقيقة، وهي أنّ وجود رجل - ولو رجل واحد رشيد - بين قوم ما وقبيلة ما يكفي لردعهم من أعمالهم المخزية، أي لو كان فيكم رجل عاقل ذو لبّ ورشد لما قصدتم بيتي ابتغاء الاعتداء على ضيفي!

هذا التعبير يوضح بجلاء أثر «الرّجل الرّشيد» في قيادة المجتمعات الإنسانية، وهو الواقع الذي وجدنا نماذج كثيرة منه على امتداد التاريخ.

٤ - من العجيب أنّ هؤلاء القوم المنحرفين الضالين قالوا للوط: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ وهذا التعبير كاشف عن غاية الانحراف في هذه الجماعة، أي إنّ مجتمعاً منحرفاً ملوثاً بلغ حدّاً من العمى بحيث يرى الباطل حقّاً والحقّ باطلاً!!

فالزواج من البنات المؤمنات الطاهرات لا يعدّ حقاً عندهم، وعلى العكس من ذلك يعدّ الانحراف الجنسي عندهم حقّاً.

إنّ الاعتياد والتطبع على الإثم والذنب يكون في مراحله النهائية والخطرة عندما يُتصور أنّ أسوأ الأعمال وأخزاها هي «حق عند صاحبها» وأنّ أنقى الاستمتاع الجنسي وأطهره أمرٌ غير مشروع.

٥ - ونقرأ في حديث للإمام الصّادق عليه السلام في تفسير الآيات المتقدمة أنّ المقصود بالقوّة هو القائم من آل محمّد وأنّ «الركن الشديد» هم أصحابه الذين عددهم (٣١٣) شخصاً[(١)].

وقد تبدو هذه الرّواية عجيبة وغريبة إذ كيف يمكن الاعتقاد أنّ لوطاً كان يتمنّى ظهور مثل هذا الشخص مع أصحابه المشار إليهم آنفاً.

ولكن التعرف على الرّوايات الواردة في تفسير آيات القرآن حتى الآن يعطينا مثل هذا الدرس، وهو أنّ قانوناً كلياً يتجلى غالباً في مصداقه البارز، ففي الواقع إنّ لوطاً كان يتمنّى أن يجد قوماً ورجالاً لديهم تلك القدرة والقوّة الروحيّة والجسمية الكافية لإقامة حكومة العدل الإلهيّة... كما هي موجودة في أصحاب المهدي «عجّل الله فرجه الشّريف» الذين يشكّلون حكومة عالمية حال ظهور الإمام المهدي «عجّل الله فرجه الشّريف» وقيامه، لينهض بهم ويواجه الانحراف والفساد فيزيله عن بكرة أبيه ويبير هؤلاء القوم الذين لا حياء لهم.

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٢٨؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٧٠، ح ٣٠.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾

التّفسير

عاقبة الجماعة الظّالمة

وأخيراً حين شاهد الملائكة ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ الأضياف، ما عليه لوط من عذاب النفس كشفوا «ستاراً» عن أسرار عملهم و﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾.

الطريف هنا أنّ ملائكة الله لم يقولوا: لن يصلنا سوء وضرر، بل قالوا: لن يصلوا إليك يالوط فيؤذوك ويسيئوا إليك!

وهذا التعبير إمّا لأنّهم كانوا يحسبون أنهم غير منفصلين عن لوط لأنّهم أضيافه على كل حال، وهتك حرمتهم هتك لحرمة لوط. أو لأنّهم أرادوا أن يفهموا لوطاً بأنّهم رسل الله، وأنّ عدم وصول قومه إليهم بالإساءة أمر مسلّم به، بل حتى لوط نفسه الذي هو رجل من جنس أُولئك لن يصلوا إليه بسوء، وذلك بلطف الله وفضله.

نقرأ في الآية (٣٧) من سورة القمر ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ وهذه الآية تدل على أنّ هؤلاء الجماعة الذين أرادوا السوء بأضياف لوط، فقدوا بصرهم بإذن الله، فلم يستطيعوا الهجوم عليهم. ونقرأ في بعض الرّوايات - أيضاً - أنّ أحد الملائكة غشّى وجوههم بحفنة من التراب فعموا جميعاً[1].

---

(١) أصول الكافي، ج ٥، ص ٥٤٦، ح ٥. وردت ثلاثة تفاسير في تفسير العبارة «فأخذ كفّاً...» أنّه كيف عميت أبصار المتجاوزين على ضيوف النبي لوط عليه السلام:

أ) أن جبرائيل عليه السلام أشار بإصبعه إليهم فأعماهم، كما ورد في العبارة: «فلما دخلوا أهدى جبرائيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم». أصول الكافي، ج ٨، ص ٣٢٩، ح ٥٠٥.

ب) ضرب جبرائيل بجناحيه على وجوههم فطمسها.

ج) أمر جبرائيل عليه السلام لوطاً النبيّ أن يأخذ كفاً من التراب فيضرب به على وجوههم وذلك في العبارة: «فخذ كفّاً من بطحاء الأرض فاضرب وجوههم».

وعلى كلِّ حال، فاطلاع لوط عليه السلام على حال أضيافه ومأموريتهم نزل كالماء البارد على قلبه المحترق وأحسّ بلحظة واحدة أن ثقلاً كبيراً من الغمّ والحيرة قد أُزيل عن قلبه، وأشرقت عيناه بالسرور والبهجة، وعلم أنّ مرحلة الغم والحيرة أشرفت على الانتهاء، ودنا زمن السرور والنجاة من مخالب هؤلاء القوم المنحرفين المتوحشين.

ثمّ أمر الأضيافُ لوطاً - مباشرة - أن يرحل هو وأهله من هذه البلدة وقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾(١).

ولكن كونوا على حذر ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إلى الوراء ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ لتخلّفها عن أمر الله وعصيانها مع العُصَاة الظَّلَمَة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ عند المفسّرين احتمالات عديدة.

الأوّل: لا ينظر أحد إلى ورائه مديراً وجهه إلى الخلف.

الثّاني: لا تفكروا بما تركتم خلفكم من الأموال ووسائل المعاش، إنّما عليكم أن تنجوا أنفسكم من الهلاك.

الثّالث: لا يتخلف منكم أحد عن هذه القافلة الصغيرة.

الرّابع: إنّ الأرض ستضطرب حال خروجكم وستبدأ مقدمات العذاب فاهربوا بسرعة ولا تلتفتوا إلى الوراء...

ولكن لا مانع من الجمع بين هذه الاحتمالات كلها في الآية(٢).

وخلاصة الأمر فإنّ آخر ما قاله رسل الله - أي الملائكة - للوط عليه السلام: إنّ العذاب سينزل قومه صباحاً. ومع أوّل شعاع للشمس سيحين غروب حياة هؤلاء: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾.

---

(١) «أسر» مشتق من «الإسراء» وهو المسير ليلاً، وذكر الليل في الآية من باب توكيد الموضوع، والقطع معناه ظلمة الليل، إشارة إلى أن يتحرك والناس نيام أو مشغولون عنه بالشراب وحلك الليل ليخرج وهم في غفلة عنه.

(٢) في قوله ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ هذا الاستثناء من أي جملة هو؟ للمفسّرين احتمالان: «الأوّل» إنّه يعدّ استثناء من ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ومفهومها أنّ لوطاً وأهله بما فيهم امرأته تحركوا للخروج من المدينة ولم يلتفت منهم أحد كما أمرهم الرسل، إلا امرأة لوط فإنّها بحكم علاقتها بقوم لوط وتأثرها على مصيرهم، وقفت لحظة ونظرت إلى الوراء، وطبقاً لبعض الرّوايات أصابها حجر من الأحجار التي كانت تهوي على المدينة فقُتلت به. «الثاني» إنّه استثناء من جملة ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فيكون معناها أنّ جميع أهله ذهبوا معه ولكن امرأته بقيت في المدينة ولم يأخذها لوط معه، ولكن الاحتمال الأوّل أنسبُ.

ونقرأ في بعض الرّوايات أنّ الملائكة حين وعدوا لوطاً بنزول العذاب صباحاً، سأل لوط الملائكة لشدة ما لقيه من قومه ممّا ساءه، وجرح قلبه وملأه همّاً وغمّاً أن يعجلوا عليهم بالعذاب في الحال فإنّ الأفضل الإسراع، ولكن الملائكة طمأنوه بقولهم: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وأخيراً دنت لحظة العذاب وتصرّمت ساعات انتظار لوط النّبي عليه السلام، وكما يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾.

وكلمة ﴿سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ فارسية الأصل، وهي مركبة من «سن» ومعناها الحجارةو«گِل» ومعناها الطين، فعلى هذا هي شيء لاصلباً كالحجارة ولا رخواً كالزهرة، وإنّما هي برزخ «وسط» بينهما.

و«المنضود» من مادة «نضد» ومعناه كون الشيء مصفوفاً وموضوعاً بشكل متتابع ومتراكم، أي إنّ هذا المطر كان متتابعاً سريعاً إلى درجة حتى كأنّ هذه الأحجار تتراكب بعضها فوق بعض فتكون «منضودة».

ولكن هذه الأحجار ليست أحجاراً عادية، بل هي أحجار فيها علامات عند الله ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

ولا تتصوروا أنّ هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم وظلموا مجتمعهم، لعبوا بمصير أُمتهم كما استهزؤوا بالإيمان والأخلاق الإنسانيّة، وكلّما نصحهم نبيّهم بإخلاص وحرقة قلب لم يسمعوا له وسخروا منه، وبلغت صلافتهم وعدم حيائهم حدّاً أنّهم أرادوا الاعتداء على ضيوف زعيمهم وهتكِ حرمتهم.

هؤلاء الذين كانوا قد قلبوا كل شيء يجب أن تنقلب مدينتهم عليهم، ولا يكفي أن يغدو عاليها سافلها، بل لُيمطروا بوابل من الأحجار تدمّر كل شيء من «معالم الحياة» هناك ولا يبقى منهم سوى صحراء موحشة وقبور مظلمة تحت ركام الأحجار الصغيرة.

وهل أنّ الذين ينبغي معاقبتهم هم قوم لوط فحسب؟ قطعاً لا. فكل جماعة منحرفة وأُمّة ظالمة ينتظرها مثل هذا المصير، فتارة تكون تحت وابل الأحجار، وأُخرى تحت ضربات القنابل المحرقة، وحيناً تحت ضغط الاختلافات الاجتماعية القاتلة، وأخيراً فإنّ لكلٍّ شكلاً من العذاب وصورة معينة.

ملاحظات

١ - لِمَ كان العذاب صباحاً؟

ملاحظة الآيات المتقدمة تثير في ذهن القارىء هذا السؤال، وهو أيّ أثر للصبح في هذا الأمر، ولِمَ لم ينزل العذاب في قلب الليل البهيم؟!

ترى هل كان ذلك لأنّ الجماعة الذين هجموا على دار لوط فعموا وعادوا إلى قومهم وحدّثوهم بما جرى لهم، فحينئذ فكر أُولئك بما حدث! وإنّ الله أمهلهم إلى الصباح لعلهم ينتبهون ويتوبون؟

أو أنّ الله لم يرد الاغارة عليهم في الليل، ولذلك فقد أمر الملائكة أن ينتظروا حتى يحين الصباح؟!

لم يرد في كتب التّفسير شيء من هذا، ولكنّ ما ذكرناه آنفاً احتمالات تستحق المطالعة.

٢ - لِمَ قلب الله عاليها سافلها؟

قلنا: إنّ العذاب ينبغي أن يتناسب مع الإثم، وحيث إنّ هؤلاء القوم قلبوا كل شيء عن طريق الانحراف الجنسي فإنّ الله جعل مدنهم عاليها سافلها أيضاً، وحيث كانوا دائماً يتقاذفون بالكلمات البذيئة فيما بينهم، فإنّ الله أمطرهم بحجارة لتتهاوى على رؤوسهم أيضاً.

٣ - لماذا الوابل من الأحجار؟!

وهل كان إمطارهم بالأحجار الصغيرة قبل انقلاب المدن، أو كان مقترناً ومتزامناً معها، أو بعدها؟!

هناك أقوال بين المفسّرين، والآيات القرآنية لم تصرّح بشيء في هذا الشأن أيضاً، لأنّ الجملة عُطفت بالواو، وهي لمطلق العطف ولا يستفاد منها الترتيب.

ولكن بعض المفسّرين - كصاحب المنار - يعتقد أنّ مطر الأحجار إمّا أن يكون قبل أن يقلب عاليها سافلها، أو مقترن مع القلب، وذلك لينال بعض الأفراد الذين التجأوا إلى زاوية أو معزل ولم يدفنوا تحت الأنقاض جزاءهم العادل ولا تبقى لهم فرصة للهروب.

والرّواية التي تقول: إنّ أمرأة لوط حين سمعت الصوت والتفتت لترى ما حدث أصابها حجر في الحال فقتلها[1]، هذه الرّواية تدل على أنّ الأمرين «القلب ووابل المطر» حدثا مقترنين.

ولكن لو تجاوزنا عن ذلك فما يمنع أن يكون وابل الأحجار - لتشديد العذاب - بعد قلب المدن عاليها سافلها، لتتوارى أرضهم وتنمحي آثارها تماماً.

٤ - لماذا العلامة المتميّزة؟!

قلنا: إنّ جملة ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ تفهمنا هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ هذه الأحجار كانت ذوات علائم خاصّة ومميّزة عند الله سبحانه... ولكن كيف كانت علاماتها؟ هناك أقوال بين المفسّرين... فقال بعضهم: كان في هذه الأحجار علامات تدل على أنّها ليست كسائر الأحجار «العادية» بل هي خاصّة لنزول العذاب الإلهي لئلا تختلط مع سقوط الأحجار الأُخرى، ولذا قال آخرون: إنّ هذه الأحجار لم يكن لها شبه مع أحجار الأرض بل تدل مشاهدة وضعها على أنّها أحجار سماويّة نزلت إلى الكرة الأرضية من خارجها.

وقال آخرون: هي علامات في علم الله، إنّ كل حجر منها يصيب شخصاً بعلامته أو يستهدف نقطة معينة، وهي إشارة إلى دقة الحساب في عقاب الله وجزائه بحيث يعلم أيَّ شخص يصيبه أي حجر! وليست المسألة اعتباطيّة.

٥ - تحريم الانحراف الجنسي

يُعدّ الميل الجنسي إلى المماثل «سواء وقع ذلك بين الرجال أو بين النساء» من الذنوب الكبيرة في الإسلام، وقد جعل الإسلام لكل من الحالتين حداً شرعياً.

فالحدّ الشرعي في «اللواط» هو القتل فاعلاً كان الرجل أم مفعولاً. وهناك طرق مبيّنة لهذا القتل وردت في الفقه الإسلامي وروايات المعصومين في هذا المجال، ويجب أن يعوّل على طرق معتبرة وقطعية - لإثبات هذا الذنب - فلا يكفي لإقامة الحد الشرعي - وهو القتل هنا - حتى إقرار المذنب على نفسه ثلاث مرات، بل يجب أن يقرّ على نفسه أربع مرات على الأقل.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

وأمّا الحدّ على المرأة في عملية المساحقة فيكون بعد الإقرار بالذنب على نفسها أربع مرات، أو شهادة أربعة شهود «وبالشرائط المذكورة في الفقه» مائة جلدة، وقال بعض الفقهاء: إذا كانت المرأة التي تقوم بهذا العمل الشنيع ذات بعل فحدّها القتل.

وإقامة هذه الحدود لها شرائط دقيقة ذكرت في كتب الفقه الإسلامي.

والرّوايات التي تذم الميل الجنسي إلى المماثل والمنقولة عن قادة الإسلام كثيرة ومذهلة والمطالع لهذه الرّوايات يحسُّ أنّ قبح هذا الذنب ليس له مثيل بين الذنوب.

نقرأ مثلاً من هذه الرّوايات رواية عن الرّسول الأعظم ﷺ أنّه قال: «لمّا عمل قوم لوط ما عملوا بكت الأرض إلى ربّها حتى بلغت دموعها السّماء، وبكت السّماء حتى بلغت دموعها العرش، فأوحى الله إلى السّماء أن احصبيهم وأوحى إلى الأرض أن اخسفي بهم»(١).

ونقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام أنّ النّبي ﷺ قال: «من جامع غلاماً جاء يوم القيامة جنباً لا ينقّيه ماء الدنيا، وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له جهنم وساءت مصيراً. ثمّ قال: إن الذكر يركب الذكر فيهتز العرش لذلك»(٢).

ونقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام . . . والعامل على هذا من الرجال إذا بلغ أربعين سنة لم يتركه، وهم بقية سدوم. أمّا أني لست أعني بهم أنّهم بقيتهم أنّهم ولدهم، ولكنّهم من طينتهم، قال: قلت: سدوم التي قُلبت؟ قال: هي أربع مدائن «سدوم وصريم والدما وغميرا». . . أو [ولدنا وعمورّا] الخ. . .(٣).

ونقرأ في رواية أُخرى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»(٤).

فلسفة تحريم الميول الجنسية لأمثالها

بالرغم من أنّ العالم الغربي مليء بالانحرافات الجنسية، وأنّ هذه الأعمال السيئة قد باتت متعارفة بحيث ذكروا أنّ بعض الدول كبريطانيا وطبقاً لقانون صدر بكل وقاحة من

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٣١؛ وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٣٢، ح ٢٥٧٥٣.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٤٩. (٣) المصدر السابق، ص ٢٥٣.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٥.

المجلس النيابي «البرلمان» فيها يجوّز هذا الموضوع «اللواط أو السحاق» ولكن شيوع هذه المنكرات لا يخفف من قبحها ومن مفاسدها الأخلاقية والاجتماعية والنفسية.

بعض أتباع المذاهب الماديّة الذين تلوّثوا بمثل هذه المنكرات يقولون: نحن لا نجد محذوراً طبيّاً في هذا الأمر.

ولكنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ كل انحراف جنسي له أثره السلبي في روحية الإنسان وبنائه النفسي يفقده توازنه.

توضيح ذلك، أنّ الإنسان الطبيعي والسليم يميل إلى المخالف من جنسه، أي إنّ الرجل يميل إلى المرأة، والمرأة تميل إلى الرجل، وهذا الميل من أشدّ الغرائز المتجذرة فيه، والضامن لبقاء نسله، فأيّ عمل يؤدّي إلى تحوير هذا الميل الطبيعي عن مساره فسيوجد نوعاً من المرض والانحراف النفسي في الإنسان.

فالرجل الذي يميل إلى نظيره من جنسه، ليس رجلاً كاملاً، وقد عُدّ هذا الانحراف في كتب الأمور الجنسية «هموسكواليسيم» أي الميل الجنسي للمماثل من أهم الانحرافات.

والاستمرار على هذا العمل وإدامته يميت في الفرد الميل الجنسي إلى المخالف، والشخص الذي يسلّم نفسه لممارسة هذا العمل معه يشعر شيئاً فشيئاً «بإحساسات المرأة» ويورث هذا العمل الطرفين «الفاعل والمفعول» ضعفاً مفرطاً في الجنس حتى أنّه لا يستطيع بعد مدّة على المعاشرة الطبيعية مع جنسه المخالف.

ومع ملاحظة أنّ الإحساسات الجنسيّة [بالنسبة للرجل والمرأة] لها تأثيرها في أعضاء بدن كل منهما، كما أنّ لها تأثيرها على روحية كلٍّ منهما وأخلاقه، تتّضح أنّ فقدان الإحساسات الطبيعية إلى أي درجة سيؤثر على روح الإنسان وجسمه حتى أنّه من الممكن أن يبتلى الأفراد هؤلاء بالضعف الجنسي الذي يؤدّي إلى عدم القدرة على الإنجاب والتوليد.

وهؤلاء الأشخاص - غالباً - ليسوا أصحاء من الناحية النفسيّة، ويحسون في داخلهم أنّهم غرباء عن أنفسهم وغرباء عن مجتمعهم... ويفقدون بالتدريج القدرة على الإرادة التي هي أساس لكم نجاح وشرط من شروطه، ويتكرس في روحهم نوع من الاضطراب والقلق.

وإذا لم يصمموا على إصلاح أنفسهم فوراً، ولم يستعينوا عند الضرورة والحاجة

بالطبيب النفسي أو الطبيب الجسمي فسيغدو هذا العمل عندهم عادة يصعب تركها، وعلى كلِّ حال، فإنّ أي وقت لترك هذا العمل القبيح لا يعدّ خارجاً عن أوانه، بل لابدّ من التصميم الجاد.

ولا ريب أنّ الحيرة والاضطراب النفسي قد يجرّ هؤلاء إلى استعمال المواد المخدرة والمشروبات الكحولية، كما يجرّهم إلى انحرافات أخلاقية أُخرى، وهذا بنفسه شقاء عظيم.

الطريف أنّنا نقرأ في الرّوايات الإسلامية عبارة موجزة وذات معنى كبير تشير إلى هذه المفاسد، ومن هذه الرّوايات ما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رجلاً سأله: لِمَ حرّم الله اللواط؟ فقال سلام الله عليه: «من أجل أنّه لو كان إتيان الغلام حلالاً لاستغنى الرجال عن النساء وكان فيه قطع النسل وتعطيل الفروج وكان في إجازة ذلك فَساد كبير»(١).

وما يجدر ذكره أنّ أحد العقوبات الشرعية لهذا العمل أنّ الإسلام حرم الزواج من أخت المفعول وأُمّه وبنته على الفاعل، أي إذا تحقق اللواط قبل الزواج فعندئذ يحرم الزواج منهنّ حرمة مؤبدة.

وآخر ما ينبغي التذكير به هنا من المسائل الدقيقة، أن جرّ الأفراد إلى مثل هذا الانحراف الجنسي له أسباب وعلل مختلفة، حتى من ضمنها أحياناً طريقة التعامل والمعاشرة من قبل الوالدين مع أبنائهما، أو الغفلة عنهم وعدم مراقبة من معهم من بني جنسهم، وطريقة معاشرتهم ومنامهم معاً في بيت واحد، كل ذلك له أثره الفاعل في هذا التلوّث والانحراف.

نحن نقرأ في أحوال قوم لوط أنّ سبب انحرافهم وتلوثهم بهذا الذنب أنّهم كانوا قوماً بخلاء، ولمّا كانت مدنهم على قارعة الطريق التي تمرّ بها قوافل الشام ولم يكونوا ليرغبوا في استضافة العابرين من المسافرين، كانوا يوحون إليهم بداية الأمر أنّهم يريدون أن يعتدوا عليهم جنسياً ليفرّ منهم الضيوف والمسافرون، ولكنّ هذا العمل أصبح بالتدريج مألوفاً عندهم ونما عندهم الانحراف الجنسي وبلغ عملهم حدّاً أنّهم تلوّثوا بالآثام من قرنهم إلى قدمهم(٢).

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٤٧؛ علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٤٨.

وربّما جرّ المزاح غير المناسب بين الذكور أو بين الإناث إلى هذا الانحراف، فعلى كل حال، ينبغي ملاحظة هذه المسائل بدقة وإنقاذ المنحرفين والملوّثين بهذا الذنب بسرعة، ويطلب من الله التوفيق في هذا السبيل.

أخلاق قوم لوط:

ونقرأ في الرّوايات والتواريخ الإسلامية أعمالاً سيئة كانت عند قوم لوط سوى الانحراف الجنسي المشار إليه، ومن هذه الأعمال ما ورد في «سفينة البحار» حيث نقرأ ما يلي:

. . . قبل كانت مجالسهم، تشتمل على أنواع المناكير مثل الشتم والسخف والصفع والقمار وضرب المخراق وخذف الأحجار على من مرّ بهم، وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات(١).

وواضح أنّ الانحراف في مثل هذه البيئة وأعمال السوء تأخذ أبعاداً جديدة كل يوم، وبغض النظر عن قبح الأعمال السيئة - أساساً - تبلغ الحال درجةً لا يُرى عندها أي عمل في نظر تلك البيئة سيّئاً أو منكراً.

ويوجد في عصر تقدم العلوم من هم أشقى من قوم لوط حيث يسلكون نفس ذلك السبيل وقد تصل أعمال هؤلاء المخزية إلى درجة ننسى عندها أعمال قوم لوط. . . .

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

التّفسير

مدين بلدة شعيب

مع انتهاء قصّة قوم لوط تصل النوبة إلى قوم شعيب وأهل مدين، أُولئك الذين حادوا

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٥١٧؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٤٦.

عن طريق التوحيد وهاموا على وجوههم في شركهم وعبادة الأصنام، ولم يعبدوا الأصنام فحسب، بل الدّرهم والدينار والثروة والمال، ومن أجل ذلك فإنّهم لوّثوا تجارتهم الرابحة وكسبهم الوفير بالغش والبخس والفساد.

في بداية القصّة تقول الآيات: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وكلمة ﴿أَخَاهُمْ﴾ كما أشرنا إليها سابقاً تستعمل في مثل هذا التعبير لبيان منتهى المحبّة من قِبَل الأنبياء لقومهم، لا لأنّهم أفراد قبيلته وقومه فحسب، بل إضافةً إلى ذلك فإنّه يريد الخيرَ لهم، ويتحرّق قلبه عليهم، فمثله مثل الأخ الودود.

و﴿مَدْيَنَ﴾ على وزن «مريم» اسم لمدينة شعيب وقبيلته، وتقع المدينة شرق خليج العقبة، وأهلها من أبناء إسماعيل، وكانوا يتاجرون مع أهل مصر ولبنان وفلسطين.

ويطلق اليوم على مدينة «مدين» اسم «معّان» ولكن بعض الجغرافيين أطلقوا اسم مدين على الساكنين بين خليج العقبة وجبل سيناء.

وورد في التوراة أيضاً اسم «مديان» ولكن تسمية لبعض القبائل، وطبيعي أنّ إطلاق الاسم على المدينة وأهلها أمر رائج(١).

هذا النّبي وهذا الأخ الودود المشفق على قومه - كأي نبيّ في أُسلوبه وطريقته في بداية الدعوة - دعاهم أوّلاً إلى ما هو الأساس والعماد والمعتقد وهو «التوحيد» وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

لأنّ الدعوة إلى التوحيد دعوة إلى هزيمة جميع «الطواغيت» والسُّنَن الجاهلية ولا يتيسر أيّ إصلاح اجتماعي أو أخلاقي بدونه.

ثمّ أشار إلى أحد المفاسد الاقتصادية التي هي من إفرازات عبادة الأصنام والشرك، وكانت رائجة عند أهل مدين يومئذٍ جدّاً، وقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ﴾ أي حال البيع والشراء.

و﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾ و﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ من ادوات الوزن يعرف بهما وزن المبيع ومقداره، ونقصانه يعني عدم إيفاء حقوق الناس والبخس في البيع.

ورواج هذين الأمرين بينهم يدل على عدم النظم والحساب والميزان في أعمالهم ونموذجاً للظلم والجور والإجحاف في ذلك المجتمع الثري.

---

(١) أعلام القرآن، ص ٥٧٣.

ويشير هذا النّبي العظيم بعد هذا الأمر إلى علّتين:

العلّة الأولى: هي قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾.

يقول أوّلاً: إنّ قبول نصحي يكون سبباً لتفتح أبواب الخير عليكم وتقديم التجارة وهبوط سطح القيمة واستقرار المجتمع.

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه الجملة ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أنّ شعيباً يقول لهم: إنّي أراكم منعمين وفي خير كثير، فعلى هذا لا مدعاة لعبادة الأصنام وإضاعة حقوق الناس والكفر بدلاً من الشكر على نعم الله سبحانه.

وثانياً: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ بسبب إصراركم على الشرك والتطفيف في الوزن وكفران النعمة... الخ.

وكلمة ﴿مُّحِيطٖ﴾ جاءت صفة ليوم، أي يوم شامل ذو إحاطة، وشمول اليوم يعني شمول العذاب والعقاب في ذلك اليوم، وهذا التعبير فيه إشارة إلى عذاب الآخرة كما يشير إلى عقاب الدنيا الشامل.

فعلى هذا لا أنتم بحاجة إلى مثل هذه الأعمال، ولا ربّكم غافل عنكم، فينبغي إصلاح أنفسكم عاجلاً.

والآية الأُخرى تؤكّد على نظامهم الاقتصادي، فإذا كان شعيب قد نهى قومه عن قلّة البيع والبخس في المكيال، فهنا يدعوهم إلى إيفاء الحقوق والعدل والقسط حيث يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

ويجب أن يحكم هذا الأصل «وهو إقامة القسط والعدل، وإعطاء كل ذي حقّ حقه» على مجتمعكم بأسره.

ثمّ يخطو خطوة أوسع ويقول: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾و«البخس» معناه في اللغة التقليل، وجاء هنا بمعنى الظلم أيضاً، ويطلق على الأراضي المزروعة دون سقي «إنّها بخس» لأنّ ماءها قليل، حيث تعتمد على ماء المطر فحسب، أو أنّ هذه الأراضي قليلة الإنتاج بالنسبة إلى الأراضي الزراعية الأُخرى.

وإذا توسّعنا في معنى هذه الكلمة ومفهوم الجملة وجدناها دعوة إلى رعاية جميع الحقوق الفردية والاجتماعية ولجميع الملل والنحل، ويظهرُ «بخس الحق» في كل محيط وعصر وزمان بشكل معين حتى بالمساعدة دون عوض أحياناً، والتعاون وإعطاء قرض معين (كما هي طريقة المستعمرين في عصرنا).

ونجد في نهاية الآية أنّ شعيباً يخطو خطوةً أُخرى أوسع ويقول لقومه: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

فالفساد يقع عن طريق البيع ويقع عن طريق غصب حقوق الناس والاعتداء على حقوق الآخرين، والفساد أيضاً يقع في الإخلال بالموازين والمقاييس الاجتماعيّة، ويقع أيضاً ببخس الناس أشياءهم وأموالهم، وأخيراً يقع الفساد على الحيثيات بالاعتداء على حرمتها وعلى النواميس وأرواح الناس.

وجملة ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ معناها «لا تفسدوا» بدلالة ذكر ﴿مُفْسِدِينَ﴾ بعدها لمزيد التوكيد على هذا الموضوع.

إنّ الآيتين المتقدمتين تعكسان هذه الواقعية بجلاء، وهي أنّه بعد الاعتقاد بالتوحيد والنظر الفكري الصحيح، يُنظر إلى الاقتصاد السليم بأهمّية خاصّة، كما تدلاّن على أنّ الإخلال بالنظام الاقتصادي سيكون أساساً للفساد الوسيع في المجتمع.

ثمّ يخبرهم أنّ زيادة الثروة - التي تصل إلى أيديكم عن طريق الظلم واستثمار الآخرين - ليست هي السبب في غناكم، بل ما يغنيكم هو ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

التعبير بـ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ إمّا لأنّ الربح الحلال القليل المترشح عن أمر الله فهو «بقية الله» وإمّا لأنّ الحصول على الرزق الحلال باعث على دوام نعم الله وبقاء البركات. . .
وإمّا لأنّه يشير إلى الجزاء والثواب المعنوي الذي يبقى إلى الأبد، فإنّ الدنيا فانية وما فيها لا محالة فان، وتشير الآية (٤٦) من سورة الكهف: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ إلى هذا المضمون أيضاً، والتعبير بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنّ هذه الواقعية لا يعرفها إلاّ المؤمنون بالله وحكمته وفلسفة أوامره.

ونقرأ في روايات متعددة في تفسير ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ أنّ المراد بها وجود المهدي عجل الله فرجه الشريف، أو بعض الأئمّة الآخرين[(١)]، ومن هذه الرّوايات ما نقل عن الإمام الباقر عليه السلام في كتاب إكمال الدين:

«أوّل ما ينطق به القائم عليه السلام حين يخرج هذه الآية ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثمّ يقول: أنا بقية الله وحجّته وخليفته عليكم، فلا يسلّم عليه مسلم إلاّ قال: السّلام عليك يا بقية الله في أرضه»[(٢)].

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٤١١، ح ٢؛ وبحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٥٣ و ١٥٤، ح ٣.
(٢) نقلاً عن تفسير الصافي، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٢١٢.

وقد قلنا مراراً إنّ آيات القرآن بالرغم من نزولها في موارد خاصّة، إلاّ أنّها تحمل مفاهيم جامعة وكلية، بحيث يمكن أن يكون لها مصداق في العصور والقرون التالية وتنطبق على مجال أوسع أيضاً.

صحيح أنّ المخاطبين في الآية المتقدمة هم قوم شعيب، والمراد من ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ هو الربح ورأس المال الحلال أو الثواب الإلهي، إلاّ أنّ كل موجود نافع باق من قبل الله للبشرية، ويكون أساس سعادتها وخيرها يعدّ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ أيضاً.

فجميع أنبياء الله ورسله المكرمين هم ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ وجميع القادة المصلحين الذين يبقون بعد الجهاد المرير في وجه الأعداء فوجودهم في الأُمّة يُعدّ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ وكذلك الجنود المقاتلون إذا عادوا إلى ذويهم من ميدان القتال بعد انتصارهم على الأعداء فهم ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ ومن هنا فإنّ «المهدي الموعود» عليه السلام آخر إمام وأعظم قائد ثوري بعد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من أجلى مصاديق ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ وهو أجدر من غيره بهذا اللقب، خاصّة أنّه الوحيد الذي بقي بعد الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

وفي نهاية الآية - محل البحث - نقرأ على لسان شعيب ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ إذ وظيفته هي البلاغ وليس مسؤولاً على «إجبار» أحد أبداً.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾

التّفسير

المنطق الواهي

والآن فَلْنَرَ ما كان ردّ القوم اللجوجين إزاء نداء هذا المصلح السّماوي «شعيب».

فبما أنّهم كانوا يتصورون أنّ عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، ودلالة على أصالة ثقافتهم، وكانوا لا يرفعون اليد عن الغش في المعاملة وتحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالوا ﴿يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ ونترك حريتنا في التصرف بأموالنا فلا نستطيع الاستفادة منها ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ إنّ هذا بعيد منك ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾؟!

وهنا ينقدح هذا السؤال وهو لِمَ سألوه عن الصلاة وأظهروا اهتمامهم بها؟!

قال بعض المفسّرين: كان ذلك لأنّ شعيباً كان يكثر من صلاته ويقول للناس: إنّ الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكرات.

ولكن هؤلاء الأغبياء الذين لم يعرفوا السرّ والعلاقة بين الصلاة وترك المنكرات، كانوا يسخرون من شعيب وكانوا يقولون له: أهذه الأذكار والأوراد والحركات التي تقوم بها تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ونهمل سنّة السلف وثقافتنا التقليدية أو أن نسلب اختيارنا من التصرف بأموالنا كيف شئنا؟!

واحتمل البعض أنّ «الصلاة» إشارة إلى العقيدة والدين، لأنّها عبارة عن المظهر البارز للدين.

وعلى كل حال لو كان أُولئك يفكرون جيداً لأدركوا هذا الأمر الواقعي وهو أنّ الصلاة توقظ في الإنسان الإحساس بالمسؤولية والتقوى ومخافة الله ومعرفة الحقوق، وتذكره بالله وبمحكمة عدل الله، وتنفض عن قلبه غبار حبّ الذات وعبادة الذات! وتصرفه عن هذه الدنيا المحدودة والملوّثة إلى عالم ما وراء الطبيعة، إلى عالم الصالحات وتزكية النفس، ولذلك فهي تخلّصه من الشرك وعبادة الأصنام والتقليد الأعمى للسلف الجاهل وبخس الناس أشياءهم، وعن أنواع الغش والخداع... الخ.

كما ينقدح هنا سؤال آخر، وهو: إنّ قولهم لشعيب ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ هل كان كلاماً واقعياً من منطلق الإيمان به، أم هو على سبيل الاستهزاء والسخرية؟!

احتمل المفسّرون الوجهين ولكن مع ملاحظة أسلوب سؤالهم ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الذي يستبطن الاستهزاء، يظهر أنّ هذه الجملة على نحو الاستهزاء، وهي إشارة إلى أنّ الإنسان الحليم الرشيد هو من لم يتعجل القول أو الرأي في أمر دون أن يسبر غوره ويعرف كنهه، والإنسان العاقل الرشيد هو من لم يسحق سنن قومه تحت رجليه ويسلب حريتهم في التصرف بأموالهم، فيظهر أنّك لم تسبر غور الأمور وليس لديك عقل

حصيف وفكر عميق، لأنّ الفكر العميق والعقل يوجبان على الإنسان ألاّ يرفع يده عن طريقة السلف، ولا يسلب من الآخرين الاختيار وحرية العمل.

ولكن شعيباً ردّ على من اتّهمه بالسفه وقلّة العقل بكلام متين و﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾(١).

إنّه يريد أن يفهم قومه أنّ في عمله هذا هدفاً معنوياً وإنسانياً وتربوياً، وأنّه يعرف حقائق لا يعرفها قومه، والإنسان دائماً عدوّ ما جهل.

ومن الطريف أنّه في هذه الآيات يكرر عبارة ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ وذلك ليُعبّىء عواطفهم لقبول الحق وليشعرهم بأنّهم منه وأنّه منهم، سواء أكان المقصود بالقوم القبيلة أو الطائفة أو الجماعة أو الأُسرة، أم كان المقصود الجماعة التي كان يعيش وسطهم ويُعدّ جزءاً منهم.

ثمّ يضيف هذا النّبي العظيم قائلاً: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ فلا تتصوروا أنني أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أنقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان وأنا أفعل ذلك كلّه، كلا فإنّني لا أفعل شيئاً من ذلك أبداً.

ويستفاد من هذه الجملة أنّهم كانوا يتهمون شعيباً بأنّه كان يريد الربح لنفسه، ولهذا فهو ينفي هذا الموضوع صراحةً ويقول تعقيباً على ما سبق: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾.

وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً، حيث كانوا يسعون إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح العمل، وإصلاح العلائق والروابط الاجتماعية وأنظمتها ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ للوصول إلى هذا الهدف.

وعلى هذا فإنني، ولأجل أداء رسالتي والوصول إلى هذا الهدف الكبير ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

وأسعى للاستعانة به على حل المشاكل، وأتوكل عليه في تحمّل الشدائد في هذا الطريق، وأعوذ إليه أيضاً.

---

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّ جزاء الجملة الشرطية محذوف هنا وتقديره هكذا، أفأعدل مع ذلك عمّا أنا عليه من عبادته وتبليغ دينه.

ثمّ ينبههم إلى مسألة أخلاقية، وهي أنّه كثيراً ما يحدث للإنسان أنّه لا يعرف مصالحه وينسى مصيره، وذلك بسبب بغضه وعدائه بالنسبة لشخص آخر أو التعصب الأعمى واللجاجة في شيء ما، فيقول لهم ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ فتبتلوا بما ابتلى به غيركم و﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ وما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث أمطرهم الله بحجارة من سجيل منضود وقلب مدنهم فجعل عاليها سافلها ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ فلا زمانهم بعيد عنكم كثيراً، ولا مكان حياتهم، كما أنّ أعمالكم وذنوبكم لا تقل عن أعمالهم وذنوبهم أيضاً.

و﴿مَدۡيَنَ﴾ التي كانت موطن شعيب لم تكن بعيدة عن موطن قوم لوط، لأنّ الموطنين كلاهما كانا من مناطق «الشامات» وإذا كان بينهما فاصل زمني، فلم يكن الفاصل بالمقدار الذي يستدعي نسيان تأريخه، وأمّا من الناحية العملية فالفرق كبير بين الانحراف الجنسي الذي كان عليه قوم لوط والانحراف الاقتصادي الذي كان عليه قوم شعيب، لكن كليهما يتشابهان في توليد الفساد في المجتمع والإخلال بالنظام الاجتماعي وإماتة الفضائل الخُلقية وإشاعة الانحراف، ومن هنا نجد في الرّوايات أحياناً مقارنة الدرهم الربوي المرتبط - بالطبع - بالمسائل الاقتصادية بالزنا الذي هو تلوّث جنسي(١).

ثمّ يأمر شعيب قومه الضالين بشيئين هما في الواقع ما كان يؤكّد عليه جميع الأنبياء المتقدمين.

الأوّل: قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي لتطهروا من الذنوب وتجتنبوا الشرك وعبادة الأوثان والخيانة في المعاملات.

والثّاني: قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ أي ارجعوا إليه.

---

(١) ينبغي ذكر هذه المسألة أيضاً وهي أنّ جملة ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ ذات احتمالين:
الأوّل: بمعنى لا يحملنكم، ففي هذه الصورة تكون على النحو التالي لا يجرمن فعل و﴿شِقَاقِيٓ﴾ فاعله، و«كم» الضمير المتصل بالفعل مفعول به أوّل و﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ مصدر مؤول مفعول ثان فيكون معنى الآية: يا قوم لا يحملنكم شقاقي (مخالفتكم إياي) أن يصيبكم مصير كمصير قوم نوح وأمثالهم من الأقوام المذكورين.
الاحتمال الثّاني: أنّ ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ أي لا يجرنكم إلى الذنب والإجرام، ففي هذه الصورة تكون الجملة على النحو التالي، و«لا يجرمن» فعلٌ و﴿شِقَاقِيٓ﴾ فاعله و«كم» مفعوله و﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ نتيجته، ويكون معنى الآية كما ذكرناه في المتن.

والواقع أنّ الاستغفار توقف في مسير الذنب وغسل النفس، والتوبة عودة إلى الله الكمال المطلق.

واعلموا أنّه مهما يكن الذنب عظيماً والوزر ثقيلاً فإنّ طريق العودة إليه تعالى مفتوح وذلك لأنّ ﴿رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

وكلمة «الودود» صيغة مبالغة مشتقّة من الود ومعناه المحبّة، وذكر هذه الكلمة بعد كلمة «رحيم» إشارة إلى أنّ الله يلتفت بحكم رحمته إلى المذنبين التائبين، بل هو إضافة إلى ذلك يحبّهم كثيراً لأنّ رحمته ومحبّته هما الدافع لقبول الاستغفار وتوبة العباد.

﴿قَالُوا يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا
رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ
عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ
﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

التّفسير

التّهديدات المتبادلة بين شعيب وقومه

إنّ شعيباً هذا النّبي العظيم - الذي لُقِّبَ بخطيب الأنبياء[1] لخطبه المعروفة والواضحة، والتي كانت أفضل شاهد أمين للحياة المادّية والمعنوية لهذه الجماعة - واصل محاججته لقومه بالصبر والأناة والقلب المحترق، ولكن تعالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاء القوم الضالون؟!

لقد أجابوه بأربع جمل كلّها تحكي عن جهلهم ولجاجتهم:

فأوّلها: أنّهم قالوا: ﴿يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ . . . فكلامك أساساً ليس فيه أوّل ولا آخر، وليس فيه محتوى ولا منطق قيم لنفكر فيه ونتدبره وليس لديك شيء نجعله ملاكاً لعملنا، فلا ترهق نفسك أكثر! وامض إلى قوم غيرنا . . .

---

(١) سفينة البحار، مادة: (شعيب)؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٧٥ و ٣٨٤، ٣٨٧.

والثّانية: قولهم ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فإذا كنت تتصور أنّك تستطيع إثبات كلماتك غير المنطقية بالقدرة والقوّة فأنت غارق في الوهم.

والثّالثة: هي أنه لا تظنّ أنّنا نتردد في القضاء عليك بأبشع صورة خوفاً منك ومن بأسك، ولكن احترامنا لعشيرتك هو الذي يمنعنا من ذلك ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾!

والطريف أنّهم عبّروا عن قبيلة شعيب: بـ«الرّهط» وهذه الكلمة تطلق في لغة العرب على الجماعة التي مجموع أنصارها ثلاثة إلى سبعة، أو عشرة، أو على قول - وهو الحدّ الأكثر - تطلق على أربعين نفراً.

وهم يشيرون بذلك إلى أنّ قبيلتك تتمتع بالقوّة الكافية مقابل قوتنا، ولكن تمنعنا أمور أُخرى، وهذا يشبه قول القائل: لولا هؤلاء الأربعة من قومك وأُسرتك لأعطيناك جزاءك بيدك، في حين أنّ قومه وأسرته ليسوا بأربعة، بل المراد بيان هذه المسألة، وهي الاستهانة بقدرتهم في نظر القائل.

وقولهم الأخير: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فمهما كانت منزلتك في عشيرتك، ومهما كنت كبيراً في قبيلتك إلاّ أنّه لا منزلة لك عندنا لسلوكك المخالف والمرفوض.

ولكنّ شعيباً دون أن يتأثر بكلماتهم الرخيصة واتهاماتهم الواهية أجابهم بمنطقه العذب وبيانه الشائق متعجباً وقال: ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أفتذروني من أجل رهطي وقبيلتي التي لا تتجاوز عدّة أنفار ولا تصغون لكلامي في الله؟ وهل يمكن أن نقارن عدّة أفراد بعظمة الله سبحانه... وأنتم لم تهابوه وتوقّروه ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾(١).

وفي الختام يقول لهم: لا تظنوا أنّ الله غافل عنكم أو أنّه لا يرى أعمالكم ولا يسمع كلامكم، بل ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

إنّ المتحدّث البليغ هو من يستطيع أن يعرّف موقفه من بين جميع المواقف إلى الطرف المقابل ويشخصه من خلال أحاديثه.

فحيث إنّ المشركين من قوم شعيب هددوهُ في آخر كلامهم بالرجم، وأبرزوا قوتهم

---

(١) هناك في اللغة العربية أُسلوب يستعمل عند عدم الاعتناء بشيء ما وذلك على نحو الكناية فيقال مثلاً «جعلته تحت قدمي» أو يقال مثلاً «جعلته دبر أذني» أو «جعلته وراء ظهري» أو «جعلته ظهرياً» و«الظهر» على زنة «قهر»، والياء بعده ياء النسبة وإنّما كسرت الظاء فذلك لما يطرأ على الاسم المنسوب من تغيرات.

أمامه، كان موقف شعيب من تهديداتهم على النحو التالي: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ(١) إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾(٢) . أي انتظروا لتنتصروا عليّ بقواكم وجماعتكم وأموالكم، وأنا منتظر أيضاً أن يصيبكم الله بعذابه ويهلككم جميعاً.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

التّفسير

عاقبة المفسدين في مدين

قرأنا في قصص الأقوام السابقين مراراً، أنّ الأنبياء كانوا في المرحلة الأُولى يدعونهم إلى الله ولم يألوا جهداً في النصيحة والإبلاغ وبيان الحجّة، وفي المرحلة التي بعدها حيث لم ينفع النصح للجماعة ينذرها نبيّها ويخوّفها من عذاب الله، ليعود إلى طريق الحق من فيه الاستعداد ولتتم الحجّة عليهم، وفي المرحلة الثّالثة، وبعد أن لم يُغن أي شيء ممّا سبق - تبدأ مرحلة التصفية وتطهير الأرض، وينزل العقاب فيزيل الأشواك من الطريق.

وفي شأن قوم شعيب - أي أهل مدين - وصل الأمر إلى المرحلة النهائية أيضاً، إذ يقول القرآن الكريم فيهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾.

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كما قلنا سابقاً معناها في اللغة كل صوت عظيم، والقرآن الكريم يحكي عن هلاك أقوام متعددين بالصيحة السّماوية، هذه الصيحة يحتمل أن تكون صاعقةً من السّماء أو ما شابهها، وكما بينا في قصّة ثمود «قوم هود» قد تبلغ الأمواج الصوتية حدّاً بحيث تكون سبباً لهلاك جماعة من الناس.

---

(١) المكانة: مصدر أو اسم مصدر ومعناه القدرة على الشيء.

(٢) الرقيب: معناه الحافظ والمراقب وهو مشتق في الأصل من الرقبة وإنّما سُمّي بذلك لأنّه يكون حافظاً على رقبة شخص ما «كناية عن أنّه مراقب على روحه» أو يحرك الرقبة ليؤدّي دور الرقابة والحفظ.

ثمّ يعقّب القرآن فيقول: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: أجساداً هامدة بلا روح، لتبقى أجسادهم هناك عبرة لمن اعتبر...

وهكذا طُوي سجلّ وطومار حياتهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾. وانطفأ بريق كل شيء، فلا ثروة ولا قصور ولا ظلم ولا زينة كل ذلك تلاشى وانعدم.

وكما كانت نهاية عاد وثمود - وقد حكى عنهما القرآن - فهو يقول عن نهاية مدين أيضاً ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

وواضح أنّ المقصود من كلمة «مدين» أهل مدين الذين كانوا بعيدين عن رحمة الله وكانوا من الهالكين.

دروس تربوية في قصّة شعيب

إنّ أفكار الأنبياء والوقائع التي جرت للأقوام السابقة تستلهم منها الأجيال التي بعدها، لأنّ تجارب حياة أُولئك الأقوام هي التي تمخضت عن عشرات السنين أو مئات السنين... ثمّ نُقلت إلينا في عدّة صفحات من «التاريخ» وكل فرد منّا يستطيع أن يستلهم العبر في حياته.

قصّة هذا النّبي العظيم «شعيب» فيها دروس كثيرة، ومن هذه الدروس ما يلي:

١ - أهميّة المسائل الاقتصادية

قرأنا في هذه القصّة أنّ شعيباً دعا قومه بعد التوحيد إلى الحق والعدالة في الأُمور المالية والتجارية، وهذا نفسه يدل على أنّ المسائل الاقتصادية في المجتمع لا يمكن تجاوزها وتهميشها. كما يدل على أنّ الأنبياء لم يؤمروا بالمسائل الأخلاقية فحسب، بل كانت دعوتهم تشكل «الإصلاح»... إصلاح الوضع الاجتماعي غير الجيد، وإصلاح الوضع الاقتصادي كذلك، حيث كانت هذه الأُمور من أهم الأُمور - عند الأنبياء - بعد التوحيد.

٢ - لا ينبغي التّضحية بالأصالة من أجل التعصب

كما قرأنا في هذه القصّة فإنّ أحد العوامل التي دعت إلى سقوط هؤلاء في أحضان الشقاء أنّهم نسوا الحقائق لحقدهم وعدائهم الشخصي، في حين أنّ الإنسان العاقل والواقعي ينبغي أن يتقبل الحق من كل أحد حتى ولو كان من عدوّه.

٣ - الصلاة تدعو إلى التوحيد والتطهير

لقد سأل شعيباً قومُه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ وأن نترك الغش وعدم إيفاء الميزان حقّه. فلعلهم كانوا يتصورون متسائلين: إنَّ هذه الأذكار والأدعية ما عسى أن تؤثر في هذه الأمور؟ على حين أنّنا نعرف أن أقوى علاقة ورابطة هي العلاقة الموجودة بين الصلاة وهذه الأُمور، فإذا كانت الصلاة بمعناها الواقعي أي مع حضور الانسان بجميع وجوده أمام الله فإنّ هذا الحضور معراج التكامل وسلّم الصعود في تربية روحه ونفسه، والمطهّر لصدأ ذنوبه ورين قلبه وهذا الحضور يقوّي إرادته ويجعل عزمه راسخاً وينزع عنه غروره وكبرياءه.

٤ - النظرة الذاتيّة (الأنانيّة) رمزٌ للجمود!

لقد كان قوم شعيب - كما عرفنا في الآيات السابقة - أفراداً أنانيين و«ذاتيين» إذ كانوا يتصورون أنفسهم ذوي فهم، وأنّ شعيباً يجهل الأُمور!! وكانوا يسخرون منه ويعدّون كلامه بلا محتوى ويرونه ضعيفاً، وهذه النظرة الضيقة والأنانية صيّرت سماء حياتهم مظلمة ورمت بهم إلى هاوية الهلاك.

ليس الإنسان وحده - بل حتى الحيوان - إذا كان «أنانيّاً» ذا نظرة ضيقة فإنّه سيتوقف في الطريق!!

يقال إنّ فارساً وصل إلى نهر وأراد عبوره ولكنّه لاحظ بتعجب أنّ الفرس غير مستعدّة أن تعبر النهر الصغير والقليل العمق، وكلما ألحّ على الفرس لكي تعبر لم يُفلح، فمرّ به رجل حكيم، فقال له: حرّك ماء النهر ليذهب فإنّ المشكلة ستنحلّ، ففعل ذلك فعبرت الفرس النهر بكل هدوء!! فسأل الحكيم عن السرّ في ذلك، فقال: حين كان الماء صافياً كانت صورة الفرس في الماء فلم يَرُق للفرس أن تطأ نفسها، وحين اختلط الماء بالطين ذهبت الصورة ونسيت الفرس صورتها فعبرت بكل بساطة!

٥ - تلازم الإيمان والعمل

لا يزال الكثيرون يتصورون أنّه يمكن للمسلم أن يكون بالعقيدة وحدها مسلماً حتى وإن قام بأيّ عمل، وما يزال الكثيرون يريدون من الدين ألاّ يكون مانعاً لرغباتهم وميولهم، ويريدون أن يكونوا أحراراً بوجه مطلق.

قصّة شعيب تدلنا على أنّ قومه كانوا يريدون مثل هذا المنهج، لذلك كانوا يقولون

له: نحن غير مستعدين أن نترك ما كان عليه السلف من عبادة الأصنام، ولا نفقد حريتنا في التصرف بأموالنا ما نشاء.

لقد نسي أُولئك أنّ ثمرة شجرة الإيمان - أساساً - هي العمل، وكان نهج الأنبياء أن يصلحوا الانحرافات العمليّة للإنسان ويسددوا خطواته، وإلاّ فإنّ شجرة بلا ثمر وورق وفائدة عملية لا تستحق إلاّ أن تُحرق!

نحن اليوم - وللأسف - نرى بعض المسلمين قد غلب عليهم هذا الطراز من الفكر، وهو أنّ الإسلام عبارة عن عقائد جافّة لا تتعدّى حدود المسجد، فما داموا في المسجد فهي معهم، وإذا خرجوا ودّعوها فيه!! فلا تجد أثراً لإسلامهم في السوق أو الإدارات أو المحيط.

إنّ السير في كثير من الدول الإسلامية - حتى الدول التي كانت مركزاً لانتشار الإسلام - يكشف لنا هذا الواقع المرير، وهو أنّ الإسلام منحصر في حفنة من «الاعتقادات وعدد من العبادات عديمة الروح» لا تجد فيها أثراً عن المعرفة والعدالة الاجتماعية والنمو الثقافي والأخلاق الإسلاميّة....

ولكن - لحسن الحظ - نرى في ضمن هذه الصحوة الاسلامية ولا سيما بين الشباب تحرّكاً نحو الإسلام الصحيح والممازجة بين الإيمان والعمل، فلا تكاد تسمع في هذا الوسط مثل هذا الكلام «ما علاقة الإسلام بأعمالنا؟!» أو أنّ «الإسلام مرتبط بالقلب لا بالحياة والمعاش» وما إلى ذلك.

الأطروحة التي نسمعها من بعض المنحرفين بقولهم: نحن نستوحي عقيدتنا من الإسلام واقتصادنا من ماركس، هي شبيهة بطريقة تفكير قوم شعيب الضالين وهي فاسدة مثلها أيضاً، ولكن هذا الانفصال أو التفرقة بين العمل والإيمان كان موجوداً منذ القدم ولا يزال، وينبغي أن نكافح مثل هذا التفكير!

٦ - الملكية غير المحدودة أساس الفساد

لقد كان قوم شعيب واقعين في مثل هذا الخطأ حيث كانوا يتصورون أنّه من الخطأ القول بتحديد التصرف بالأموال من قِبَل مالكيها، ولذلك تعجبوا من شعيب وقالوا له: أمثلك وأنت الحليم الرشيد يمنعنا من التصرف بأموالنا ويسلب حريتنا منها، إنّ هذا الكلام سواء كان على نحو الحقيقة والواقع، أم كان على نحو الاستهزاء، يَدّل على أنّهم كانوا يرون تحديد التصرّف بالمال دليلاً على عدم العقل والدراية.

في حين أنّهم كانوا على خطأ كبير في تصورهم هذا... إذ لو كان الناس أحراراً في التصرّف بأموالهم لعمّ المجتمع الفساد والشقاء، فيجب أن تكون الأمور المالية تحت ضوابط صحيحة ومحسوبة كما عرضها الأنبياء على الناس، وإلاّ فستجرّ الحرية المطلقة المجتمع نحو الانحراف والفساد.

٧ - هدف الأنبياء هو الإصلاح

لم يكن هذا الشعار: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ شعار شعيب فحسب، بل هو شعار جميع الأنبياء وكل القادة المخلصين، وإنّ أعمالهم وأقوالهم شواهد على هذا الهدف. فهم لم يأتوا لإشغال الناس، ولا لغفران الذنوب، ولا لبيع الجنّة، ولا لحماية الأقوياء وتخدير الضعفاء من الناس، بل كان هدفهم الإصلاح بالمعنى المطلق والوسيع للكلمة... الإصلاح في الفكر، الإصلاح في الأخلاق، الإصلاح في النظم الثقافية والاقتصادية والسياسيّة للمجتمع، والإصلاح في جميع أبعاد المجتمع.

وكان اعتمادهم ودعامتهم على تحقق هذا الهدف هو الله فحسب ولهذا لم يخافوا من التهديدات والمؤامرات كما قال شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

التّفسير

البطل المبارز لفرعون

بعد انتهاء قصّة شعيب وأهل مدين، يُشير القرآن الكريم إلى زاوية من قصّة موسى ومواجهته لفرعون وهذه القصّة هي القصّة السابعة من قصص الأنبياء في هذه السورة.

تحدث القرآن الكريم عن قصّة موسى عليه السلام وفرعون وبني اسرائيل أكثر من مائة مرّة.

وخصوصية قصّة موسى عليه السلام بالنسبة لقصص الأنبياء - كشعيب وصالح وهود ولوط عليهم السلام التي قرأناها في ما سبق - هي أنّ أُولئك الأنبياء عليهم السلام واجهوا الأقوام

الضالين، لكن موسى عليه السلام واجه إضافة إلى ذلك حكومة «ديكتاتور» طاغ مستبدّ هو فرعون الجبار.

وأساساً فإنّ الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الأصل والمنبع، وطالما هناك حكومات فاسدة فلن يُبصر أي مجتمع وجه السعادة، وعلى القادة الإلهيين في مثل هذه المجتمعات أن يدمروا مراكز الفساد قبل كل شيء.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّنا نقرأ في هذا القسم من قصّة موسى زاوية صغيرة فحسب ولكنّها في الوقت ذاته تحمل رسالة كبيرة للناس جميعاً.

يقول القرآن الكريم أوّلاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

«السلطان» بمعنى التسلّط، يستعمل تارةً في السلطة الظاهرية، وأحياناً في السلطة المنطقية، السلطة التي تحاصر المخالف في طريق مسدود بحيث لا يجد طريقاً للفرار.

ويبدو في الآية المتقدمة أنّ «السلطان» استعمل في المعنى الثّاني، والمرادُ بـ «الآيات» هي معاجز موسى الجليلة، وللمفسرين احتمالات أُخرى في هاتين الكلمتين.

وعلى كل حال فإنّ موسى أُرسل بتلك المعجزات القاصمة وذلك المنطق القوي ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾.

وكما قلنا مراراً فإنّ كلمة «الملأ» تُطلق على الذين يملأ مظهرهم العيون بالرّغم من خلوّ المحتوى الداخلي، وفي منطق القرآن تُطلق هذه الكلمة غالباً على الوجوه والأشراف والأعيان الذين يحيطون بالمستكبرين وبالقوى الظالمة... إلاّ أنّ جماعة فرعون الذين وجدوا منافعهم مهددة بالخطر بسبب دعوة موسى، فإنّهم لم يكونوا مستعدين للاستجابة... لمنطقه الحق ومعجزاته ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾. ولكن فرعون ليس من شأنه هداية الناس إلى الحياة السعيدة أو ضمان نجاتهم وتكاملهم: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

إنّ نجاح فرعون هذا لم يحصل بسهولة، فقد استفاد من كل أنواع السحر والخداع والتآمر والقوى لتقدم أهدافه وتحريك الناس ضد موسى عليه السلام، ولم يترك في هذا السبيل أيّ نقطة نفسية بعيدة عن النظر، فتارةً كان يقول: إنّ موسى ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾(١).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٠.

وأُخرى كان يقول: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[1]. فيحرك مشاعرهم وأحاسيسهم المذهبيّة.

وأحياناً كان يتهم موسى، وأُخرى كان يهدّده، وأحياناً يبرز قوّته وشوكته بوجه الناس في مصر، أو يدعي الدهاء في قيادته بما يضمن الخير والصلاح لهم.

ويوم الحشر حين يأتي الناس عرصات القيامة فإنّ زعماءهم وقادتهم في الدنيا هم الذين سيقودوهم هناك حين يُرى فرعون هناك: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وبدلاً من أن ينقذهم ويخلّصهم من حرارة المحشر وعطشه يوصلهم إلى جهنم ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ فبدلاً من أن يسكن عطش أتباعه هناك يحرق وجودهم وبدلاً من الإرواء يزيدهم ظمأ إلى ظمأ.

مع ملاحظة أنّ «الورود» في الأصل معناه التحرّك نحو الماء والاقتراب منه، ولكن الكلمة أُطلقت لتشمل الدخول على كل شيء وتوسّع مفهومها.

و«الوِرد» هو الماء يرده الإنسان، وقد يأتي بمعنى الورود أيضاً، و«المورود» هو الماء الذي يورد عليه، فعلى هذا يكون معنى الجملة بئس الورد والمورود[2] على النحو التالي: النّار بئس ماؤها ماءً حين يورد عليه.

ويلزم ذكر هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ العالم بعد الموت - كما قلنا سابقاً - عالم «تتجسم فيه أعمالنا وأفعالنا» الدنيوية بمقياس واسع، فالشقاء والسعادة في ذلك العالم نتيجة أعمالنا في هذه الدنيا، فالأشخاص الذين كانوا في هذه الدنيا قادة الصلاح يقودون الناس إلى الجنّة والسعادة في ذلك العالم، والذين كانوا قادة للظالمين والضالين وأهل النّار يسوقونهم إلى جهنم يتقدمونهم هناك!

ثمّ يقول القرآن: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾. فأسماؤهم الذليلة تثبت على صفحات التاريخ أبداً على أنّهم قوم ضالون وجبابرة، فقد خسروا الدنيا والآخرة وساءت النّار لهم عطاء وجزاءً ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾[3].

و«الرفد» في الأصل معناه الإعانة على القيام بعمل معين، وإذا أرادوا أن يسندوا شيئاً

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٢) هذه الجملة من حيث التركيب النحوي يكون إعرابها كالتالي: «بئس» من أفعال الذم، وفاعله «الورد» و«المورود» صفة، والمخصوص بالذم «النار» التي حذفت من الجملة، واحتمل البعض أنّ المخصوص بالذم هو كلمة «المورود» فعلى هذا لم يحذف من الجملة شيء، إلاّ أنّ الأوّل أقوى كما يبدو.

(٣) إعراب هذه الجملة كإعراب أُختها السابقة.

إلى شيء آخر عبروا عن ذلك بالرفد، ثمّ أطلقت هذه الكلمة على العطاء لأنّه إعانة من قِبَل المُعطي إلى المُعطى له!

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

التّفسير

في آيات هذه السورة تبيان لقصص سبعة أقوام من الأقوام السابقين ولمحات من تاريخ أنبيائهم، وكل واحد منهم يكشف للإنسان قسماً جديراً بالنظر من حياته المليئة بالحوادث ويحمل بين جنبيه دروساً من العبرة للإنسان.

وهنا إشارة إلى جميع تلك القصص، فيتحدث القرآن عن صورة مستجمعة لما مرّ من الحوادث والأنباء حيث يقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

وكلمة ﴿قَآئِمٌ﴾ تشير إلى المدن والعمارات التي لا تزال باقية من الأقوام السابقين، كأرض مصر التي كانت مكان الفراعنة ولا تزال آثار أُولئك الظالمين باقية بعد الغرق، فالحدائق والبساتين وكثير من العمارات المذهلة قائمة بعدهم.

وكلمة ﴿وَحَصِيدٌ﴾ معناها اللغوي قطع النباتات بالمنجل، وفي هذه الكلمة إشارة إلى بعض الأراضي البائرة، كأرض قوم نوح وأرض قوم لوط، حيث إنّ واحدة منهما دمرها الغرق والثانية أُمطرت بالحجارة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث ركنوا ولجأوا إلى الأصنام والآلهة «المزعومة» ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بل زادوهم ضرراً وخسراناً ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[1].

---

(١) «التتبيب» مشتق من مادة «تبّ» ومعناه الاستمرار في الضرر، وقد يأتي بمعنى الهلاك أيضاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ فلا يدعها على حالها و﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

هذا قانون إلهي عام ومنهج دائم، فما من قوم أو أُمّة من الناس يتجاوزون حدود الله ويمدون أيديهم للظلم ولا يكترثون لنصائح أنبيائهم ومواعظهم، إلاّ أخذهم الله أخذاً شديداً واعتصرتهم قبضة العذاب.

هذه الحقيقة تؤكّد أنّ المنهاج السابق منهاج عمومي وسنّة دائمة، وتستفاد من آيات القرآن بصورة جيدة، وهي في الواقع إنذار لأهل العالم جميعاً: أن لا تظنوا أنّكم مستثنون من هذا القانون، أو أنّ هذا الحكم مخصوص بالأقوام السابقين.

وبالطبع فإنّ الظلم بمعناه الواسع يشمل جميع الذنوب، ووصفت القرية أو المدينةُ بأنّها «ظالمة» مع أنّ الوصف ينبغي أن يكون لساكنيها، فكأنما هناك مسألة دقيقة وهي أنّ أهل هذه المدينة انغمسوا في الظلم إلى درجة حتى كأنّ المدينة أصبحت مغموسة في الظلم أيضاً.

وبما أنّ هذا قانون كلّي وعام فإنّ القرآن يقول مباشرةً: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

لأنّ الدنيا لا تعدُّ شيئاً إزاء الآخرة، وجميع ما في الدنيا حقير حتى ثوابها وعقابها، والعالم الآخر أوسع - من جميع النواحي - من هذه الدنيا، فالمؤمنون بيوم القيامة ينظرون بعين العبرة لدى مشاهدة هذه المُثُل والنماذج في الدنيا، ويواصلون طريقهم.

وفي ختام الآية إشارة إلى وصفين من أوصاف يوم القيامة حيث يقول القرآن: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

هي إشارة إلى أنّ القوانين والسنن الإلهية كما هي عامّة في هذا العالم، فإنّ اجتماع الناس في تلك المحكمة الإلهية أيضاً عام، وسيكون في زمان واحد ويوم مشهود للجميع يحضره الناس كلّهم ويرونه.

من الطريف هنا أنّ الآية تقول: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ ولم تقل «مجموع فيه الناس» وهذا التعبير إشارة إلى أنّ يوم القيامة ليس ظرفاً لاجتماع الناس فحسب، بل هو هدف يمضي إليه الناس في مسيرهم التكاملي.

ونقرأ في الآية ٩ من سورة التغابن ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

وبما أنّ البعض قد يتوهم أنّ الحديث عن ذلك اليوم لم يحن أجله فهو نسيئة وغير معلوم وقت حلوله، لهذا فإنّ القرآن يقول مباشرة: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

وذلك أيضاً لمصلحة واضحة جليّة ليرى الناس ميادين الاختبار والتعلم، وليتجلى آخر منهج للأنبياء وتظهر آخر حلقة للتكامل الذي يمكن لهذا العالم أن يستوعبها ثمّ تكون النهاية.

والتعبير بكلمة ﴿مَّعْدُودٍ﴾ إشارة إلى قُرب يوم القيامة، لأنّ كل شيء يقع تحت العدّ والحساب فهو محدود وقريب.

والخلاصة أنّ تأخير ذلك اليوم لا ينبغي أن يغترّ به الظالمون، لأنّ يوم القيامة وإن تأخر فهو آتٍ لا محالة، بل إنّ التعبير بتأخره أيضاً غير صحيح.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

التّفسير

السّعادة والشّقاوة

أُشير في الآيات المتقدّمة إلى مسألة القيامة واجتماع الناس كلّهم في تلك المحكمة العظيمة... وهذه الآيات - محل البحث - بيّنت زاوية من عواقب الناس ومصيرهم في ذلك اليوم، إذ تقول الآيات أوّلاً: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

قد يُتصور أحياناً أنّ هذه الآية الدالة على تكلّم الناس في ذلك اليوم بإذن الله، تنافي الآيات التي تنفي التكلم هناك مطلقاً، كالآية (٦٥) من سورة يس ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، وكالآية (٣٥) من سورة المرسلات حيث نقرأ: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾.

ولهذا السبب قال بعض المفسّرين الكبار: إنّ التكلم هناك «يوم القيامة» لا مفهوم له

أساساً. لأنّ التكلم وسيلة لكشف باطن الأشخاص وداخلهم، ولو كان لدينا إحساس نستطيع أن نطّلع به على أفكار كل شخص لم يكن حاجة إلى التكلم أبداً.

فعلى هذا لمّا كانت الأسرار وجميع الأشياء تنكشف «يوم القيامة» على حالة «الظهور والبروز» فلا معنى للتكلم أصلاً.

وببيان آخر: إنّ الدار الآخرة دار مكافأة وجزاء لا دار عمل، وعلى هذا فلا معنى هناك لاختيار الإنسان وتكلمه حسب رغبته وإرادته، بل هو الإنسان وعمله وما يتعلق به، فلو أراد التكلم فلا يكون كلامه عن اختيار وإرادة وحاكياً عمّا في ضميره كما في الدنيا، بل كل ما يتكلم به هناك فهو نوع من الانعكاس عن أعماله التي تظهر جليّة ذلك اليوم، أي إنّ الكلام هناك ليس كالكلام في الدنيا بحيث يستطيع الإنسان على حسب ميله أن يتكلم صادقاً أو كاذباً.

وعلى كل حال فإنّ ذلك اليوم هو يوم كشف حقائق الأشياء وعودة الغيب إلى الشهود، ولا شبه له بهذه الدنيا.

ولكن هذا الاستنتاج من الآية المتقدّمة لا ينسجم مع ظاهر الآيات الأُخرى في القرآن، لأنّ القرآن يتحدث عن كثير من كلام المؤمنين والمجرمين والقادة والجبابرة وأتباعهم، والشيطان والمنخدعين به، وأهل النّار وأهل الجنّة، بحيث يدل على أنّ هناك كلاماً كالكلام في هذه الدنيا أيضاً.

حتى أنّ بعض الآيات يستفاد منها أنّ قسماً من المجرمين يكذبون في ردّهم على بعض الأسئلة، كما هو مذكور في سورة الأنعام الآيات (٢٢) إلى (٢٤) حيث تقول الآيات ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فعلى هذا، من المستحسن أن يجاب على السؤال المتعلق بتناقض ظواهر الآيات حول التكلم بما ذكره كثير من المفسّرين، وهو أنّ الناس يقطعون في ذلك اليوم مراحل مختلفة... وكل مرحلة لها خصوصياتها، ففي قسم من المراحل لا يُسألون أبداً حتى أنّ أفواههم يُختم عليها فلا يتكلمون، وإنّما تنطق أعضاء أجسادهم التي حفظت آثار أعمالها بلغة من دون لسان، وفي المراحل الأُخرى يرفع الختم أو القفل عن أفواههم ويتكلمون بإذن الله فيعترفون بأخطائهم وذنوبهم ويلوم المخطئون بعضهم بعضاً، بل يحاولون أن يُلقوا تبعات أوزارهم على غيرهم.

ويشار في نهاية الآية إلى تقسيم الناس جميعاً إلى طائفتين: طائفة محظوظة، وأُخرى بائسة تعيسة ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

و«السعيد» مشتق من مادة «السعادة» ومعناها توفر أسباب النعمة.

و«الشقي» مشتق من مادة «الشقاء» ومعناه توفر أسباب البلاء والمحنة.

فالسعداء - إذاً - هم الصالحون الذين يتمتعون بأنواع النعم في الجنّة والأشقياء هم المسيئون الذين هم يتقلبون في أنواع العذاب والعقاب في جهنم.

وليس هذا الشقاء - على كل حال - وتلك السعادة سوى نتيجة الأعمال والأقوال والنيّات التي سلفت من الإنسان في الدنيا.

والعجيب أنّ بعض المفسّرين يتخذون هذه الآية ذريعة لعقيدتهم الباطلة في مجال الجبر، في حين أنّ الآية ليس فيها أقلّ دليل على هذا المعنى، بل هي تتحدث عن السعداء والأشقياء في يوم القيامة وأنّهم وصلوا جميعاً بأعمالهم إلى هذه المرحلة، ولعلهم توهموا هذه النتيجة من هذه الآية بالخلط بينها وبين بعض الأحاديث التي تتكلم عن شقاء الإنسان أو سعادته وهو في بطن أُمّه قبل الولادة، ولكن هذه المسألة ليس هنا مجالها إذ لها قصّة أُخرى وحديث طويل.

ثمّ تشرح الآيات حالات السعداء والأشقياء في عبارات موجزة وأخّاذة حيث تقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وتضيف حاكية عن حالهم أيضاً: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

بحوث

١ - هل أنّ السعادة والشقاوة ذاتيان؟

أراد البعض أن يثبت من الآيات المتقدمة - كما قلنا آنفاً - كون السعادة والشقاء ذاتيين، في حين أنّ الآيات المتقدمة لا تدل على هذا الأمر فحسب، بل تثبت بوضوح كون السعادة والشقاء اكتسابيين، إذ تقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ أو تقول: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ فلو كان كل من الشقاء والسعادة ذاتيين لكان ينبغي أن يُقال «أمّا الأشقياء وأمّا السعداء» وما أشبه ذلك التعبير، ومن هنا يتّضح بطلان ما جاء في تفسير الفخر الرازي ممّا مؤداه: «إنّ هذه الآيات تحكم من الآن أنّ جماعة في القيامة سعداء وجماعة

أشقياء، ومن حكم الله عليه مثل هذا الحكم ويعلم أنّه في القيامة إمّا شقي أو سعيد، فمحال عليه أن يغير ذلك وإلاّ للزم - في الآية - أن يكون ما أخبر الله به كذباً ويكون علمه جهلاً!! وهذا محال». فكل ذلك لا أساس له.

وهذا هو الإشكال المعروف على «علم الله» في مسألة الجبر والاختيار والذي أُجيب عليه قديماً بأنه: إذا لم نرد تحميل أفكارنا وآرائنا المسبقة على آيات القرآن الكريم، فإنّ مفاهيمها تبدو واضحة، إنّ هذه الآيات تقول: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ يكون فيه جمع من الناس سعداء من خلال أعمالهم، وجمع آخر أشقياء بسبب أعمالهم، والله سبحانه يعلم من الذي اختار طريق السعادة باختياره، وبإرادته، ومن الذي خطا خطوات في مسير الشقاء بإرادته، وهذا المعنى يعطي نتيجة معاكسة تماماً لما ذكره الرازي حيث إنّ الناس إذا كانوا مجبورين على هذا الطريق فإنّ علم الله سيكون جهلاً (والعياذ بالله)، لأنّ الجميع اختاروا طريقهم وانتخبوه بإرادتهم ورغبتهم.

الشاهد في الكلام أنّ الآيات المتقدمة تتحدّث عن قصص الأقوام السابقين، حيث عوقبت جماعة عظيمة منهم - بسبب ظلمهم وانحرافهم عن جادة الحق والعدل، وبسبب التلوث بالمفاسد الأخلاقية الشديدة، والوقوف بوجه الأنبياء والقادة الإلهيين - عقاباً أليماً في هذه الدنيا... والقرآن يقصّ علينا هذه القصص من أجل إرشادنا وتربيتنا وبيان طريق الحق من الباطل، وفصل مسير السعادة عن مسير الشقاء.

وإذا كنّا - أساساً - كما يتصوّر الفخر الرازي ومن على شاكلته - محكومين بالسعادة والشقاء الذاتيين، ونؤخذ دون إرادتنا بالسيئات أو الصالحات، فإنّ «التعليم والتربية» سيكونان لغواً وبلا فائدة... ومجيء الأنبياء ونزول الكتب السّماويّة والنصيحة والموعظة والتوبيخ والملامة والمؤاخذة والسؤال والمحاكمة والثواب... كل ذلك يُعدّ غير ذي فائدة، أو يُعدّ ظلماً.

الأشخاص الذين يرون الناس مجبورين على عمل الخير أو الشرّ، سواءً كان هذا الجبر جبراً إلهياً، أو جبراً طبيعياً، أو جبراً اقتصادياً، أو جبراً اجتماعياً متطرفون في عقيدتهم هذه في كلامهم فحسب، أو في كتاباتهم، ولكنّهم حتى أنفسهم لا يعتقدون - عند العمل - بهذا الاعتقاد، ولهذا فلو وقع تجاوز على حقوقهم فإنّهم يرون المتجاوز مستحقاً للتوبيخ والملامة والمحاكمة والمجازاة... وليسوا مستعدين أبداً للإغضاء عنه بحجة أنّه مجبور على هذا العمل وأنّ من الظلم عقابه ومجازاته، أو يقولوا إنّه لم يستطع

أن لا يرتكب هذا العمل لأنّ الله أراد ذلك، أو أنّ المحيط أجبره، أو الطبيعة. . . وهذا بنفسه دليل آخر على أنّ أصل الاختيار فطري.

وعلى كلِّ حال لا نجد للجبر مسلكاً في أعمالنا اليومية يرتبط بهذه العقيدة، بل أعمال الناس جميعاً تصدر عنهم بصورة حرّة ومختارة وهم مسؤولون عنها، وجميع الأقوام في الدنيا يقبلون حرية الإرادة، بدليل تشكيل المحاكم والإدارات القضائية لمحاكمة المتخلفين.

وجميع المؤسسات التربوية في العالم تقبل بهذا الأصل ضمناً، وهو أنّ الإنسان يعمل بإرادته ورغبته، ويمكن بإرشاده وتعليمه وتربيته أن يتجنب الأخطاء والاشتباهات والأفكار المنحرفة.

٢ - واقع الإنسان بين السعادة والشقاوة

الطريف أنّ لفظ ﴿شَقُوا﴾ في الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبني للمعلوم، ولفظ ﴿سُعِدُوا﴾[1] ورد بصيغة المبني للمجهول، ولعل في هذا الاختلاف في التعبير إشارة لطيفة إلى هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ الإنسان يطوي طريق الشقاء بخطاه، ولكن لابدّ لطيّ طريق السعادة من الإمداد والعون الإلهي، وإلاّ فإنّه لا يوفّق في مسيره، ولا شكّ أنّ هذا الإمداد والعون يشمل أُولئك الذين يخطون خطواتهم الأُولى بإرادتهم واختيارهم فحسب وكانت فيهم اللياقة والجدارة لهذا الإمداد. (فلاحظوا بدقة).

٣ - مسألة الخلود في القرآن

معنى «الخلود» لغة البقاء الطويل، كما جاء بمعنى الأبد أيضاً، فكلمة «الخلود» لا تعني الأبد وحده لأنّها تشمل كل بقاء طويل.

ولكن ذُكرت في كثير من آيات القرآن مع قيود يفهم منها معنى الأبد، فمثلاً في الآية (١٠٠) من سورة التوبة، والآية (١١) من سورة الطلاق، والآية ٩ من سورة التغابن،

---

(١) ﴿سُعِدُوا﴾ من مادة (سعد) وحسب رأي أصحاب اللغة فإنّ هذا الفعل لازم ولا يتعدّى إلى مفعول، فعلى هذا ليست له صيغة للمجهول، فاضطروا أن يقولوا: إنّه مخفّف من (أسعِدوا) وبابه (الإفعال) ولكن كما ينقل الآلوسي في كتاب روح المعاني في شرح الآية عن بعض أهل اللغة، أنّ الفعل الثلاثي من «سعد» يتعدّى إلى المفعول أيضاً - قالوا: سعده الله وهو مسعود، فعلى هذا لا حاجة إلى أن نقول بأنّ ﴿سُعِدُوا﴾ مخفف من «أُسعدوا» «فتدبّر».

حين تذكر هذه الآيات أهل الجنّة تأتي بالتعبير عنهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ومفهومها أبديّة الجنّة لهؤلاء، ونقرأ في آيات القرآن الأخرى وصف أهل النّار كالآية (١٦٩) من سورة النساء، والآية (٢٣) من سورة الجن هذا التعبير أيضاً ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وهو دليل على عذابهم الأبدي.

وتعبيرات أُخرى مثل الآية (٣) من سورة الكهف ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ والآية (١٠٨) من سورة الكهف أيضاً ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ وأمثالها تدل بصورة قطعيّة على أنّ طائفة من أهل الجنّة وطائفة من أهل النّار سيبقون في العذاب أو النعمة.

ولم يستطع البعض أن يحل الإشكالات في الخلود والجزاء الأبدي، فاضطر إلى الرجوع إلى معناه اللغوي وفسّره بالبقاء الطويل، على حين أنّ تعابير كالتعابير الواردة في الآيات المتقدمة لا تفسّر بمثل هذا التّفسير.

سؤال مهم

هنا ترتسم في ذهن كل سامع علامة استفهام كبيرة، إذ كيف نتصوّر عدم التعادل عند الله بين الذنب والعقاب؟! وكيف يمكن القبول بأن يقضي الإنسان كل عمره الذي لا يتجاوز ثمانين سنة - أو مائة سنة على الاكثر - بالعمل الصالح أو بالإثم، ثمّ يثاب على ذلك أو يعاقب ملايين الملايين من السنين؟

وهذا الأمر ليس مهماً بالنسبة للثواب لأنّ الأجر والثواب كلما ازداد كان دليلاً على كرم المثيب والمعطي، فلا مجال للمناقشة في هذا الأمر.

ولكن السؤال يَرِدُ في العمل السيىء والذنب والظلم والكفر، وهو: «هل ينسجم العذاب الدائم مقابل ذنب محدود مع أصل العدل عند الله»؟ فالذي لم تتجاوز مرحلة ظلمه وطغيانه وعناده في أقصى ما يمكن احتماله مئة سنة، كيف يعذب في النّار عذاباً دائماً؟ أفلا تقتضي العدالة أن يكون هناك نوع من التعادل؟ فمثلاً يعاقب مئة سنة بمقدار أعماله السيئة.

الأجوبة غير المُقنِعَة

إنّ تعقيد المسألة كان السبب في توجيه معاني آيات الخلود عند البعض وتفسيرها بما لا يستفاد منه العقاب الدائم الذي هو على خلاف أصل العدالة في عقيدتهم. . . .

١ - ذهب البعض: أنّ المقصود بـ «الخلود» هو المعنى المجازي أو الكنائي عنه، أي مدّة طويلة نسبيّاً، كما يقال مثلاً لأولئك الذين يحكم عليهم بالسجن طول عمره «محكوم

عليه بالسجن المؤبد» مع أنّه من المسلم به لا أبديّة في السجن حيث ينتهي السجن مع انتهاء عمر المسجون، ويقال في العربية أيضاً «يخلّد في السجن» وهو مأخوذ من الخلود في هذه الموارد.

٢ - وقال آخرون: إنّ أمثال هؤلاء الطغاة والمعاندين الذين اكتنفت وجودَهم الآثام، فتحوّل وجودُهم إلى ماهية الكفر أو الإثم، هؤلاء وإن بقوا في نار جهنم دائمين، إلاّ أنّ جهنّم لا تبقى على حالها، فسيأتي يوم تنطفي نارها، كأية نار أُخرى، ويعم أهل النّار نوع من الهدوء والراحة.

٣ - واحتمل آخرون أنّه مع مرور الزمان وبعد معاناة العذاب الطويل ينسجم أهل النّار مع محيطهم، أي إنّهم يتطبّعون ويتعوّدون على هذا المحيط شيئاً فشيئاً حتى تبلغ بهم الحالة ألاّ يحسوا بالعذاب والشقاء.

وبالطبع فإنّ الداعي إلى هذه التوجيهات هو عجزهم وعدم استطاعتهم أن يحلّوا مشكلة خلود العذاب ودوامه، وإلاّ فإنّ ظهور آيات الخلود في ديمومة العذاب وبقائه غير قابلة للإنكار.

الحلّ النهائي للإشكال

ومن أجل حلّ هذا الإشكال ينبغي أن نعود إلى البحوث السالفة ونعالج الاشتباهات الناشئة من قياس مجازاة يوم القيامة بالمجازاة الأُخرى، ليعلم أنّ مسألة الخلود لا تنافي عدالة الله أبداً.

ولتوضيح هذا البحث ينبغي الالتفات إلى ثلاثة أُصول:

١ - إنّ العذاب الدائم - وكما أشرنا إليه من قبل - هو لأُولئك الذين أوصدوا أبواب النجاة بوجوههم، وأضحوا غرقى الفساد والانحراف عامدين، وغشي الظلّ المشؤوم للإثم قلوبهم وأرواحهم فاصطبغوا بلون الكفر، وكما نقرأ عنهم في سورة البقرة الآية (٨١) ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢ - يُخطىء من يتصور أنّ مدّة العقاب وزمانه ينبغي أن تكون على قدر مدّة الإثم وزمانه، لأنّ العلاقة بين الإثم والعقاب ليست علاقة زمانية بل كيفية، أي إنّ زمان العقاب يتناسب مع كيفية الإثم لا مع زمانه.

فمثلاً قد يقدم شخص في لحظة على قتل نفس محترمة، وطبقاً لما في بعض القوانين

يحكم عليه بالحبس الدائم، فهنا نلاحظ أنّ زمن الإثم لحظة واحدة، في حين أنّ العقاب قد يبلغ ثمانين سنة.

إذن المهم في الإثم هو «كيفيته» لا «كمية زمانه».

٣ - قلنا إنّ العقاب والمحاسبات في يوم القيامة هي أثر طبيعي للعمل وخصوصية الذنب، وبعبارة أوضح: إن ما يجده المذنبون من ألم وأذى يوم القيامة هو نتيجة أعمالهم التي أحاطت بهم في الدنيا.

نقرأ في القرآن كما في سورة يس الآية (٥٤): ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونقرأ في الآية (٣٣) من سورة الجاثية: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وفي سورة القصص الآية (٨٤): ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والآن وبعد أن اتّضحت هذه الأصول، فإنّ الحل النهائي لهذا الإشكال لم يعد بعيداً، ويكفي للوصول إليه أن نجيب على الأسئلة التالية.

ولنفرض أنّ شخصاً يُبتلى بالقرحة المعدية نظراً لإدمانه على المشروبات الكحولية لمدّة سبعة أيّام تباعاً، فيكون مجبوراً على تحمل الألم والأذى إلى آخر عمره، تُرى هل هذه المعادلة بين هذا العمل السيّىء ونتيجته مخالفة للعدالة؟! ولو كان عمر هذا الإنسان (مكان الثمانين سنة) ألف سنة أو مليون سنة، ولأجل نزوته النفسية وولعه بشرب الخمر لمدّة أسبوع فإنّه يتألم طول عمره، تُرى هل هذا التألم لمليون سنة - مثلاً - مخالف لأصل العدالة... في حين أنّه أُبلغ حال شرب الخمر بوجود هذا الخطر وأعلم بنتيجته؟

ولنفرض أيضاً أنّ سائق سيارة لا يلتزم بأوامر المرور ومقرراته، والالتزام بها ينفع الجميع قطعاً ويقلل من الحوادث المؤسفة، لكنه يتجاهلها ولا يصغي لتحذير أصدقائه وفي لحظة قصيرة تقع له حادثة - وكل الحوادث تقع في لحظة - ويفقد بذلك عينه أو يده أو رجله في هذه اللحظة، ونتيجة لما وقع يعاني الألم سنين طويلة لفقده البصر أو اليد أو الرجل، فهل تتنافى هذه الظاهرة فيه مع أصل عدالة الله؟!

ونأتي هنا بمثال آخر - والأمثلة تقرب الحقائق العقليّة إلى الذهن وتُهيّىءُ لنيل النتيجة النهائية - فلنفرض أننا نثرنا على الأرض عدة غرامات من بذور الشوك، وبعد عدّة أشهر أو عدة سنوات نواجه صحراء مليئة بالشوك الذي يدمي أقدامنا وعلى العكس ننثر بذور الزهور - مع اطلاعنا - ولا تمرّ فترة حتى نواجه حديقة مليئة بالأزهار العطرة، فهي

تعطرنا وتنعش قلوبنا، فهل في هذه الأُمور التي هي آثار لأعمالنا منافاة لأصل العدالة في حين أنّه لا مساواة بين كمية هذا العمل ونتيجته؟

ومن مجموع ما بيناه نستنتج ما يلي:

حين يكون الجزاء والثواب نتيجة وأثراً لعمل المرء نفسه، فإنّ مسألة المساواة من حيث الكمية والكيفية لا تؤخذ بنظر الاعتبار، فما أكثر ما يكون العمل صغيراً في الظاهر، ولكنه يحوّل حياة الإنسان الى جحيم وعذاب وألم طيلة العمر، وكذلك ما أكثر ما يكون العمل صغيراً في الظاهر، ولكنّه يكون سبباً للخيرات والبركات طيلة عمر الإنسان!

ينبغي أن لا يُتوهم أنّ المقصود من صغر العمل (من حيث مقدار الزمان) لأنّ الأعمال والذنوب الداعية إلى خلود الإنسان في العذاب ليست صغيرة من حيث الأهمّية والكيفيّة.

فعلى هذا حين يحيط الذنب والكفر والطغيان والعناد بوجود الإنسان ويحرق جميع أجنحته وريشه وروحه في نار ظلمه ونفاقه، فأي مكان للعجب أن يُحرم في الدار الآخرة من التحليق في سماء الجنّة وأن يكون مُبتلى هناك بالعذاب والبلاء.

تُرى أما حذّروه وأبلغوه وأنذروه من هذا الخطر الكبير؟!

أجل فأنبياء الله من جهة، وما يأمره العقل من جهة أُخرى... جميعاً حذروه بما يلزم، فهل أن ما أقدم عليه كان من دون اختياره فلقي هذا المصير، أم كان عن علم وعمد واختيار؟ الحقيقة هو أنّه كان عالماً عامداً.

وكانت نفسه ونتيجة أعماله المباشرة قد ساقته إلى هذا المصير! بل إنّ كل ما حدث له فهو من آثار أعماله!

فلهذا لم يبق مجال للشكوى، والإشكال، ولا منافاة للخلود مع قانون عدالة الله سبحانه[١].

٤ - مفهوم الخلود في هذه الآيات

هل الخلود في الآيات - محل البحث - بمعنى البقاء الدائم؟! أو هو بالمعنى اللغوي المراد منه المدّة الطويلة؟

---

(١) المعاد والعالم بعد الموت، ص ٣٨٥-٣٩٣.

قال بعض المفسّرين: بما أنّ الخلود مقيد هنا بقوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فإنّ الخلود ليس معناه البقاء الأبدي الدائم، لأنّ السّماوات والأرض لا أبدية لهما... وطبقاً لصريح القرآن فإنّ يوماً سيأتي تنطوي فيه السّماوات وتبدل الأرض إلى أرض أخرى[1].

ولكن، مع ملاحظة أنّ مثل هذه التعابير في اللغة العربية يراد بها البقاء الدائم، فالآيات - محل البحث - أيضاً تبيّن الدوام.

فمثلاً تقول العرب: هذا الأمر قائم ما لاح كوكب، أو ما كرّ الجديدان ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أو ما أضاء فجر، أو ما اختلف الليل والنهار، وأمثالها... وهي كناية عن البقاء الدائم، ونقرأ عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة وذلك حين أشكل عليه بعض المنتقدين الجهلة على تقسيمه من بيت المال بالسويّة وعدم التمييز بين مقامات الناس لتوطيد دفة الحكم.

فانزعج الإمام عليه السلام وقال: «أتأمرني أن أطلب النصر بالجور في من وليت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السّماء نجماً»[2].

ونقرأ في قصيدة دعبل الخزاعي المعروفة التي أنشدها في حضرة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام هذا البيت:

سأبكيهمُ ما ذرّ في الأفق شارق ونادى منادي الخير في الصلوات[3]

وبالطبع فإنّ هذا الاستعمال ليس مخصوصاً بلغة العرب وآدابها، ففي اللغات الأُخرى يوجد مثل هذا الاستعمال أيضاً... على كل حال فإنّ دلالة الآية على الدوام قطعية وغير قابلة للنقاش.

٥ - ما معنى الاستثناء في الآية؟

الجملة الاستثنائية ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ التي وردت في الآيات المتقدمة في أهل الجنّة وفي أهل النّار أيضاً، أضحت ميداناً واسعاً للمفسرين ومثاراً للبحث، وقد نقل المفسّر الكبير الطبرسي في تفسير هذا الاستثناء عشرة أوجه عن المفسّرين القدامى، ونعتقد أنّ

---

(١) كما في سورة إبراهيم، الآية (٤٨)، والأنبياء، الآية (١٠٤).

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

(٣) نور الأبصار للشبلنجي، ص ١٤٠ وكتاب الغدير، ج ٢، ص ٣٥٩، وكتب أُخرى.

كثيراً من هذه الأوجه ضعيف ولا ينسجم مع الآيات السابقة أو اللاحقة، ولذلك نغض النظر عنها، ونورد ما نراه صحيحاً هنا، وهو وجهان فحسب:

١ - الهدف في بيان هذا الاستثناء أن لا يُتصور أنّ الخلود في النّار أو في الجنّه جار على غير مشيئة الله وإرادته بما يعطي معنى الإلزام وتحديد قدرة الله تعالى وإرادته، بل في الوقت الذي يكون أهل الجنّة وأهل النار خالدين فيهما، فإنّ قدرة الله وإرادته حاكمة على الجميع، وإنّ العذاب والثواب يتحققان بمقتضى حكمته لكلّ من هذين الطرفين.

والشاهد على هذا الكلام ما ورد في الجملة الثّانية بعد الاستثناء وهي قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير منقطع، وهو دليل على أنّ الجملة الاستثنائية لبيان قدرته فحسب.

٢ - وحيث تذكر الآيات هذين الطرفين ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فليس الأشقياء هم الكفار المستحقون للخلود في النّار فقط بل قد يُوجد بينهم مؤمنون من أهل الكبائر فيكون هؤلاء داخلين في هذا الاستثناء.

ولكن قد ينقدح هذا السؤال أيضاً وهو: ما المراد من الاستثناء في الجملة الثّانية (التي تتحدث عن الذين سُعدوا)؟

وفي الجواب على هذا السؤال أُجيب - أيضاً - بأنّ المؤمنين المذنبين يدخلون النّار أوّلاً ليتطهروا من الذنوب، ثمّ يلتحقون بصفوف أهل الجنّة.

فإنّ الاستثناء في الجملة الأُولى هو بالنسبة لآخر الأمر... وفي الجملة الثّانية لأوّل مرّة (فلاحظوا بدقّة).

ويحتمل في الجواب على السؤال الآنف الذكر أنّ الاستثناء في الجملة الأُولى إشارة إلى المؤمنين المذنبين الذين يُعتقون من النّار بعد مدة، والاستثناء في الجملة الثّانية إشارة إلى قدرة الله سبحانه، والشاهد على هذا الكلام ورود قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ في الجملة الأُولى بعد الاستثناء، ليدل على تحقق المشيئة الإلهيّة، وفي الجملة الثّانية ورد قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ليدل على الأبديّة (فتدّبر).

وقد احتمل البعض أن يكون العقاب والثواب متعلقان بحياة البرزخ «النعيم في البرزخ أو الشقاء في البرزخ» التي تكون محدودة المدّة ولابدّ أن تنتهي، ولكنّه احتمال بعيد جدّاً، لأنّ الآيات المتقدمة تتحدث عن يوم القيامة بصراحة، وعلاقة هذه الآيات بتلك الآيات علاقة لا تقبل الانفكاك.

كما أنّ احتمال كون الخلود هنا بمعنى المدّة الطويلة - كما هو في بعض آيات القرآن الأُخرى، وليس هو البقاء الدائم الأبدي - لا ينسجم مع قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ولا مع الاستثناء نفسه الذي يدل على الأبدية في الجمل السابقة.

٦ - تقول الآيات المتقدمة في شأن أهل النّار: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وقد احتمل أهل اللغة والمفسّرون في معنى هاتين الكلمتين «الزفير والشهيق» احتمالات متعددة:

١ - فقال البعض: المراد بـ «الزفير» هو الصراخ المصطحبِ بإخراج النَّفس إلى الخارج، وأمّا «الشهيق» فهو الأنين المقترن بِسحبِ الهواء إلى داخل الرئة.

٢ - وقال آخرون: إنّ الزفير هو بداية صوت الحمار والشهيق نهايته، ولعل هذا التّفسير لا يختلف عن التّفسير الأوّل كثيراً.

وعلى كل حال فإنّ هذين الصوتين يحكيان عن صراخ وعويل أهل النّار الذين يضجون - من الحُزن والغمّ والحسرة - ضجيجاً يملأ جميع وجودهم ويدلّ على منتهى أذاهم وشدّة عذابهم.

وينبغي الالتفات إلى أنّ «الزفير والشهيق» كلاهما مصدر، و«الزفير» في الأصل حمل العبء الثقيل على الكتف، ولأنّ هذا العمل يؤدّي إلى التأوه والضجيج فقد سميّ زفيراً، وأمّا «الشهيق» فمعناه في الأصل الإطالة والارتفاع، ومن هنا فقد سمي الجبل المرتفع بالجبل الشاهق أيضاً، ثمّ أطلقوا هذا اللفظ «الشهيق» على الأنين.

أسباب السعادة والشقاء

السعادة ضالّة كل الناس، وكلّ واحد يبحث عنها في شيء ما ويطلبها في مكان ما، وهي توفّر أسباب تكامل الفَرد في المجتمع، والنقطة المقابلة لها هي الشقاء الذي يتنفر منه كل أحد، وهو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح والتقدم والتكامل.

فعلى هذا، كل من توفرت له أسباب التحرك والتقدم نحو الأهداف السامية روحياً وجسمياً وعائلياً وبيئياً وثقافياً، فهو أقرب للسعادة، وبتعبير آخر هو أكثر سعادة!

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ أساس السعادة أو الشقاء هو إرادة الإنسان نفسه، فهو يستطيع أن يوفر الوسائل لترشيد نفسه وحتى مجتمعه، وهو الذي يستطيع أن يواجه عوامل الشقاء ويهزمها أو يستسلم لها.

وليس الشقاء أو السعادة في منطق الوحي ومدرسة الأنبياء شيئاً من ذات الإنسان

وحتى النواقص في المحيط والعائلة والوراثة كل ذلك قابل للتغيير بتصميم الإنسان وإرادته إلاّ أن ننكر أصل الإرادة في الإنسان وحريته، ونعدّه محكوماً بالظروف الجبرية، وكل من سعادته أو شقائه ذاتي أو هو نتيجة جبرية لمحيطه، وما إلى ذلك.

وهذا الرأي مرفوض في نظر الأنبياء وفي نظر المذهب العقلي أيضاً.

الطريف أنّنا نجد في الرّوايات المنقولة عن النّبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام إشارات إلى مسائل مختلفة على أنّها أسباب السعادة، أو أسباب الشقاء... بحيث يتعرف الإنسان خلال مطالعتها على طريقة التفكير الإسلامي في هذه المسألة المهمّة، وسيقفُ على الواقعيات العينية وأسباب السعادة الحقيقية، بدلاً من أن يقف عليها في المسائل الخرافية والتصوّرات والسنن الخاطئة الموجودة في كثير من المجتمعات.

ونلفت نظر القارىء الكريم على سبيل المثال إلى بعض الأحاديث الشريفة في هذا الصدد:

١ - ينقل الإمام الصّادق عليه السلام عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «حقيقة السعادة أن يختم للرجل عمله بالسعادة وحقيقة الشقاوة أن يختم للرجل بالشقاوة»(١).

فهذه الرّواية تقول بصراحة: إنّ المرحلة النهائية لعمر الإنسان وأعماله هي المرحلة التي تكشف عن سعادته وشقاوته، وعلى هذا فهي تنفي السعادة أو الشقاء الذاتيين، وتجعل الإنسان رهين عمله، كما تجعل طريق العودة مفتوحاً في جميع المراحل حتى نهاية عمره.

٢ - ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام: «السعيد من وُعظ بغيره والشقي من انخدع لِهواه وغروره»(٢).

وكلام الإمام علي عليه السلام هذا تأكيد آخر على عدم ذاتية السعادة والشقاء وبيان بعض أسبابهما.

٣ - ويقول نبي الإسلام ﷺ أيضاً: «أربع من أسباب السعادة وأربع من الشقاوة، فالأربع التي من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب البهيّ. والأربع التي من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء»(٣).

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٣٩٨. (٢) نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

(٣) مكارم الأخلاق، ص ٦٥؛ بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٥٤، ح ٣٤.

مع ملاحظه: أنّ هذه الأُمور الأربعة لها تأثير بالغ في الحياة المادية والمعنوية لكل أحد، ويمكن أن تكون من عوامل النجاح أو الفشل وتتّضح بهذا سعة مفهوم السعادة والشقاوة في منطق الإسلام.

فالمرأة الصالحة ترغّب الإنسان في أنواع «الحسنات»، والبيت الواسع يهب روح الإنسان وفكره الهدوء والراحة ويهيئه للنشاط والفعالية، والجار الصالح الذي يقدم له عوناً مؤثراً في راحته واستقراره وحتى في تقدم أهدافه الإنسانية، المركب الجيد عامل مؤثر في الوصول إلى الأعمال والوظائف الاجتماعية، في حين أنّ المركب السوء يكون عاملاً في التأخير ولا يوصل صاحبه إلى هدفه.

٤ - كما روي عن النّبي ﷺ هذا الحديث أيضاً: «من علامات الشقاء: جمود العينين، وقسوة القلب، وشدّة الحرص في طلب الرزق، والإصرار على الذنب»[(١)].

هذه الأُمور الأربعة التي وردت في الحديث المتقدم، هي أُمور اختيارية وهي نتيجة أعمال الإنسان وأخلاقه الاكتسابية، وعلى هذا فإنّ أبعاد أسباب الشقاء هذه تكمن في اختيار الإنسان نفسه.

وإذا لاحظنا أسباب السعادة والشقاوة في الأحاديث المتقدمة وحقيقتهما وأثرهما البالغ في حياة البشر، وقارنّاهما مع الأسباب والمسائل الخرافية التي يعتقد بها جمع كثير - حتى في عصرنا عصر الذّرة والفضاء - لوصلنا إلى هذا الواقع الذي يؤكّد أنّ التعاليم الإسلامية منطقيّة ومدروسة إلى أقصى حدّ.

ولا يزال إلى اليوم من يعتقد أنّ نعل الفرس سبب للسعادة، وأنّ اليوم الثّالث عشر سبب لسوء الحظّ... والقفز على النّار في بعض ليالي السنة من أسباب السعادة، وصوت بعض الطيور سبب للشقاء وسوء الحظ، وسكب الماء عند خروج المسافر من أسباب السعادة، والعبور من تحت السلم سبب للشقاء!!

وحتى تعليق بعض الأشياء في رقبة الفرد أو على وسائل النقل من أسباب السعادة والعطاس علامة على الفشل إذا كان حين العمل وكثير من أمثال هذه الخرافات نجدها في الشرق والغرب بين الأقوام والأُمم المتعددة.

وكم من أُناس تعطلوا عن نشاطهم في الحياة نتيجة ابتلائهم بمثل هذه الخرافات وأصبحوا رهن المصائب الكثيرة.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٩٨؛ أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٩٠، ح ٦.

لقد شطب الإسلام بقلم أحمر على جميع هذه التصوّرات الخرافية، وحدّد - مبيّناً بوضوح - سعادة الإنسان وشقاوته في الفعاليّات الإيجابية والسلبية ونقاط الضعف والقوّة في الأخلاق والمناهج العملية وطريقة التفكير والعقيدة لكل فرد، من خلال الأمثلة التي قدمناها في الأحاديث الأربعة عن أهل البيت عليهم السلام.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)﴾

التّفسير

الاستقامة والثّبات

هذه الآيات - في الحقيقة - بمثابة تسلية لخاطر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما أنّها نازلة لبيان وظيفته ومسؤوليته، وفي الواقع إنّ من أهم النتائج التي يُتوصل إليها من القصص السابقة للأُمم الماضية هي أن لا يكترث النّبي ومن معه من أتباعه المؤمنين حقّاً من كثرة الأعداء، ولا يخافون منهم، ولا يشكّون أو يتردّدون في هزيمة عَبَدة الأصنام والظالمين الذين يقفون بوجوههم، وأن يواصلوا طريقهم ويعتمدوا على الله واثقين به.

لذلك يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾(١).

ويقول بعدها مباشرةً: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ على أنّ جملة موفوهم نصيبهم تعني أداء الحق كاملاً، لكن ذكر كلمة غير منقوص للتأكيد أكثر على هذه المسألة.

---

(١) «المِرية» على وزن «جِزيَة» كما تأتي على وزن «قَرْيَة» ومعناها التردد في التصميم على أمر ما... وقد قال البعض: إنّها تعني الشكّ المقترن بالتُّهمة، والجذر الأصلي لهذه الكلمة معناه عصر ثدي الناقة بعد احتلابها، على أمل أن يكون شيء من اللبن لا يزال باقياً في الثدي، ولأنّ هذا العمل منشؤهُ التردد والشك فلذلك أُطلقت الكلمة على كل ما فيه شكّ وتردد.

وفي الحقيقة إنّ هذه الآية تجسّم هذه الحقيقة، وهي أنّ ما قرأناه من قصص الأُمم السابقة لم يكن أسطورة، كما أنّها لا تختص بالماضين، فهي سنّة أبدية وخالدة وهي لجميع الناس ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

غاية ما فيه الأمر أنّ هذا العقاب في كثير من الأُمم السابقة نزل على شكل بلايا مهولة وعظيمة، لكنّه وجد شكلاً آخر في شأن أعداء نبي الإسلام، وهو أنّ الله أعطى القدرة والقوة العظيمة لنبيّه وأصحابه المؤمنين بحيث استطاع أن يهزم أعداءه الظالمين اللجوجين الذين أصروا على انحرافهم وغرورهم.

ويسلّي القرآن قلب النّبي ﷺ مرّة أُخرى، فيحدّثه عن موسى وقومه قائلاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ﴾ ... ويقول: إذا ما رأيت أنّ الله لا يعجل العذاب على قومك، فلأنّ مصلحة الهداية والتعليم والتربية لقومك توجب ذلك وإلاّ فإنّ القرار الإلهي المسبق يقتضي التعجيل بعملية التحكيم والقضاء وبالتالي إنزال العقاب ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ وبالرغم من ذلك فهم في شك من هذا الأمر(١).

كلمة ﴿مُرِيبٍ﴾ مشتقّة من «الريب» ومعناه الشكّ المقترن بسوء الظن والنظرة السيئة والقرائن المخالفة، وعلى هذا فيكون مفهوم هذه الكلمة أنّ عبدة الأصنام ما كانوا يترددون في مسألة حقيقة القرآن أو نزول العذاب على المفسدين فحسب، بل كانوا يدّعون بأنّ لديهم قرائن تخالف ذلك أيضاً.

أمّا «الراغب» فيقول في «مفرداته»: إنّ معنى الريب هو الشك الذي يرفع عنه الحجاب بعدئذ ويعود إلى اليقين، فعلى هذا يكون مفهوم الآية أنّ الحجاب سيكشف عاجلاً عن حقانية دعوتك وكذلك عن عقاب المفسدين وتظهر حقيقة الأمر!

ويضيف القرآن لمزيد التأكيد ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ وهذا الأمر ليس فيه صعوبة على الله ولا حرج إذ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الطريف أنّ القرآن يقول: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ ليشير مرّة أُخرى إلى مسألة تجسّم

(١) هناك كلام بين المفسّرين في عودة الضميرين «هم» و«منه» على أية كلمتين في الآية؟! فقال بعضهم: إنّ هذا الضمير هم «وإنهم» يعود على قوم موسى و«منه» يعود على كتاب (التوراة) فمعنى الآية: إن هؤلاء القوم لا يزالون يشكّون في كتاب موسى، ولكن قال آخرون: إنّ الضمير في (إنّهم) يعود على مشركي مكّة و«منه» يعود على القرآن، وبملاحظة أن الآيات جاءت لتسلية قلب النبي فيكون التّفسير الثّاني أقرب للنظر.

الأعمال وأنّ الجزاء والثواب هما في الحقيقة أعمال الإنسان نفسه التي تتخذ شكلاً آخر وتصل إليه ثانيةً.

وبعد ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة ورمز نجاحهم ونصرهم، وبعد تسلية قلب النّبي ﷺ وتقوية إرادته، يبيّن القرآن - عن هذا الطريق - أهمّ دُستور أُمر به النّبي ﷺ وهو ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

«استقم» في طريق الإرشاد والتبليغ... استقم في طريق المواجهة والمواصلة استقم في أداء الوظائف الإلهيّة ونشر التعليمات القرآنية.

ولكن هذه الاستقامة ليست لينال فلانٌ أو فلان مستقبلا زاهراً، وليست للرياء وما شابه ذلك، وليست لاكتساب عنوان البطولة، ولا اكتساب «المقام» أو «الثروة» أو «الموفقية» أو «القدرة»، بل هي لمجرّد طاعة الله واتّباع أمره ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

كما أنّ هذه الاستقامة ليست عليك وحدك، فعليك أن تستقيم أنت ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ استقامة خاليةً من كل زيادة ونقصان وإفراط أو تفريط ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ إذ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ولا تخفى عليه حركة ولا قول ولا أي خطّة أُخرى... الخ.

المسؤولية الكبيرة!!

نقرأ في حديث معروف عن ابن عباس أنّه قال: ما نزل على رسول الله ﷺ آية كانت أشدّ عليه ولا أشقّ من هذه الآية. ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول الله قال: ﷺ: «شيبتني هود والواقعة»(١).

ونقرأ في رواية أُخرى أنّ النّبي ﷺ قال حين نزلت هذه الآية: «شمّروا شمّرُوا... فما رُئي ضاحكاً...»(٢).

والدليل واضح، لأنّ أربعة أوامر مهمّة موجودة في هذه الآية يلقي كل واحد منها عبئاً ثقيلاً على الكتف.

وأهمها الأمر بالاستقامة... الاستقامة «المشتقة من مادة القيام» من جهة أنّ الإنسان يكون تسلطه وسعيه في عمله حال القيام أكثر... الاستقامة التي معناها طلب القيام، أي أوجِدْ حالةً في نفسك بحيث لا تجد طريقاً للضعف فيك، فما أصعَبه من أمر وما أشدّه؟!

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٩٩. (٢) تفسير الدرّ المنثور ج ٣، ص ٣٥١.

غالباً ما يكون النجاح في العمل أمراً هيّناً نسبياً. . . لكن المحافظة على النجاح فيها كثير من الصعوبة. . . وفي أي مجتمع؟! في مجتمع متأخر متخلف. . . في مجتمع بعيد عن العلم والتعقل. . . في مجتمع لجوج وبين أعداء كثيرين معاندين. . . وفي سبيل بناء مجتمع سالم وحضارة إنسانية زاهرة فالاستقامة في هذا الطريق ليس أمراً هيّناً.

والأمر الآخر: أن تحملَ هذه الاستقامةُ هدفاً إلهياً فحسب، وأن تكون الوساوس الشيطانية بعيدة عنها تماماً، أي أن تكتسب هذه الاستقامة أكبر القدرات السياسية والاجتماعيّة من أجل الله.

والأمر الثّالث: مسألة قيادة أُولئك الذين رجعوا إلى طريق الحق وتعويدهم على الاستقامة أيضاً.

والأمر الرّابع: المواجهة والمبارزة في مسير الحق والعدالة والقيادة الصحيحة وصدّ كل أنواع التجاوز والطغيان، فكثيراً ما يبدي بعض الناس منتهى الاستقامة في سبيل الوصول للهدف، لكن لا يستطيعون أن يراعوا مسألة العدالة، وغالباً ما يبتلون بالطغيان والتجاوز عن الحدّ.

أجل. . . مجموع هذه الأُمور وتواليها على النّبي حمّلته مسؤولية كبرى، حتى أنّه ﷺ ما رُئي ضاحكاً. . . وشيّبته هذه الآية من الهمّ.

وعلى كل حال فإنّ هذا الأمر لم يكن للماضي فحسب، بل هو للماضي والحاضر والمستقبل، وهو للأمس واليوم والغد القريب والغد البعيد أيضاً.

واليوم مسؤوليتنا المهمّة - نحن المسلمين أيضاً، وبالخصوص قادة الإسلام - تتلخّص في هذه الكلمات الأربع. وهي: الاستقامة، والإخلاص، وقيادة المؤمنين، وعدم الطغيان والتجاوز. ودون ربط هذه الأُمور بعضها إلى بعض فإنّ النصر على الأعداء الذين أحاطونا من كل جانب من الداخل والخارج، واستفادوا من جميع الأساليب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكريّة. . . هذا النصر لايكون سوى أوهام في مخيلة المسلمين.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

التّفسير

الرّكون إلى الظالمين

إنّ هذه الآية تبيّن واحداً من أقوى وأهم الأسس والبرامج الاجتماعية والسياسية والعسكرية والعقائدية، فتخاطب عامة المسلمين ليؤدوا وظيفتهم القطعية فتقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ والسبب واضح ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ومعلوم عندئذ حالكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - ما هو مفهوم الرّكون؟

مفهوم «الركون» مشتق من مادة «رُكن» ومعناه العمود الضخم من الحجر أو الجدار الذي يربط البناء أو الأشياء الأُخرى بعضها إلى بعض، ثمّ أطلق هذا اللفظ على الاعتماد أو الاستناد إلى الشيء.

وبالرغم من أنّ المفسّرين أعطوا معانٍ كثيرة لهذه الكلمة في تفسيرهم للآية، ولكنّها في الغالب تعود إلى مفهوم جامع وكلي فمثلاً فسّرها البعض بالميل، وفسّرها البعض بـ«التعاون»، وفسّرها البعض بـ«إظهار الرضا»، وفسّرها آخرون بـ«المودّة»، كما فسرها جماعة بالطاعة وطلب الخير، وكل هذه المعاني ترجع إلى الاعتماد والاتكاء كما هو واضح.

٢ - في أيّ الأُمور لا ينبغي الرّكون إلى الظالمين؟

بديهي أنّه في الدرجة الأُولى لا يصح الاشتراك معهم في الظلم أو طلب الإعانة منهم، وبالدرجة الثّانية الاعتماد عليهم فيما يكون فيه ضعف المجتمع الإسلامي وسلب استقلاله واعتماده على نفسه وتبديله إلى مجتمع تابع وضعيف لا يستحق الحياة، لأنّ هذا الركون ليس فيه نتيجة سوى الهزيمة والتبعية للمجتمع الإسلامي.

وأمّا ما نلاحظه أحياناً من مسائل التبادل التجاري والروابط العلمية بين المسلمين والمجتمعات غير الإسلامية على أساس حفظ منافع المسلمين واستقلال المجتمعات الإسلامية وثباتها، فهذا ليس داخلاً في مفهوم الركون إلى الظالمين ولم يكن شيئاً ممنوعاً من وجهة نظر الإسلام، وفي عصر النّبي نفسه ﷺ والأعصار التي تلته كانت هذه الأُمور موجودة وطبيعية أيضاً.

٣ - فلسفة تحريم الركون إلى الظالمين

الرّكون إلى الظالمين يورث مفاسد كثيرة لا تخفى على أحد بصورتها الإجمالية ولكن كلّما تفحصنا في هذه المسألة أكثر اكتشفنا مسائل دقيقة وجديدة. فالركون إلى الظالمين يبعث على تقويتهم، وتقويتهم مدعاة إلى اتساع رقعة الظلم والفساد في المجتمعات، ونقرأ في الأوامر الإسلامية أنّ الإنسان ما لم يُجبر «وفي بعض الأحيان حتى مع الإجبار» لا يحق له أن يراجع القاضي الظالم من أجل اكتساب حقّه[1]، لأنّ مراجعة مثل هذا القاضي الحاكم الجائر من أجل إحقاق الحق مفهومها أن يعترف ضمناً برسميته وتقواه، ولعل ضرر هذا العمل أكبر من الخسارة التي تقع نتيجة فقدان الحق.

والركون إلى الظلمة يؤثر تدريجاً على الثقافة الفكرية للمجتمع، فيضمحل مفهوم «قبح الظلم» ويؤدّي بالناس إلى الرغبة في الظلم.

وأساساً لا نتيجة من الركون إلى الغير بصورة التعلق والارتباط الشديد إلاّ سوء الحظ والشقاء، فكيف إذا كان هذا الركون إلى الظالمين؟

إنّ المجتمع الحضاري المقتدر هو المجتمع الذي يقف على قدميه، كما يعبر القرآن الكريم في مثل بديع في الآية ٢٩ من سورة الفتح إذ يقول: ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ والمجتمع الحرّ المستقلّ هو المجتمع الذي يكتفي ذاتياً، وارتباطه أو تعاونه مع الآخرين هو ارتباط على أساس المنافع المتبادلة لا على أساس رُكون الضعيف إلى القوي، لأنّ هذا الركون - سواء كان من جهة فكرية أو ثقافية أو اقتصادية أو عسكرية أو سياسية - لا يخلّف سوى الأسر والاستثمار، ولا يثمر سوى المساهمة في ظلمهم والمشاركة في خططهم.

وبالطبع فإنّ الآية المتقدمة ليست خاصّة بالمجتمعات فحسب، بل تشمل العلاقة والارتباط بين فردين أيضاً، فلا يجوز لإنسان مؤمن أن يركن إلى أي ظالم، فإنّه إضافة إلى فقدان استقلاله لركونه إلى دائرة ظلمه، فسيؤدّي إلى تقويته واتساع الفساد والعدوان كذلك.

٤ - من المقصود بـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؟

ذكر المفسّرون في هذا المجال احتمالات مختلفة، فقال بعضهم: المقصود بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هم المشركون، ولكن - كما قال آخرون - لا دليل على انحصار هذا

---

(١) أصول الكافي، ج ٧، ص ٤١١، باب كراهية الارتفاع إلى قضاة الجور.

اللفظ بالمشركين رغم أن مصداق الظالمين في عصر نزول الآية هو المشركين.

كما إنّ تفسير هذه الكلمة في الرّوايات بالمشركين(١) لا يدلُّ على الانحصار، لأنّنا قلنا مراراً وتكراراً إنّ مثل هذه الرّوايات إنّما تبيّن المصداق الواضح والجلي، فعلى هذا الأساس يدخل في دائرة هذه الآية جميع الذين امتدّت أيديهم إلى الظلم والفساد، أو استعبدوا خلق الله وعباده، أو استغلوا قواهم لمنافعهم، وباختصار كل الذين دخلوا في المفهوم العام لهذا التعبير ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

ولكن من الواضح أن من أخطأوا في حياتهم خطأً بسيطاً وصاروا من مصاديق الظالم أحياناً غير داخلين في مفهوم الآية قطعاً لأنّه في هذه الصورة لا يخرج عن شمولية هذه الآية إلاّ النادر، فلا يصح الرّكون والاعتماد على أي شخص، اللّهم إلاّ أن نقول: إنّ المراد بالركون هو الاعتماد على الظالم من جهة ظلمه وجوره، وفي هذه الحال حتى الذين تلوّثت أيديهم بالظلم مرّة واحدة لا يجوز الركون إليهم.

٥ - إشكالٌ

بعض المفسّرين من أهل السنّة أشكل إشكالاً يصعب الجواب عليه على مبناهم وهو ما ورد في رواياتهم من وجوب الطاعة والتسليم لسلطان الوقت الذي هو من (أولو الأمر) أيّاً كان(٢)، لما نقلوا حديثاً عن النّبي ﷺ في وجوب طاعة السلطان «وإن أخذ مالك وضرب ظهرك...»!(٣) وروايات أُخرى تؤكّد طاعة السلطان بمعناها الواسع.

ومن جهة أُخرى تقول الآية: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فهل يصحّ الجمع بين هذين الأمرين؟!

أراد البعض أن يرفع هذا التضاد باستثناء واحد، وهو أنّ طاعة السلطان تكون واجبة ما لم ينحرف إلى طريق العصيان ويخطو في طريق الكفر.

ولكن لحن تلك الرّوايات لا ينسجم مع هذا الاستثناء.

وعلى كل حال فنحن نعتقد - وكما ورد في مذهب أهل البيت عليهم السلام - بوجوب طاعة ولي الأمر العادل والعالم الذي يصح أن يكون خليفة عامّاً للنّبي وإماماً من بعده فحسب.

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ زاد المسير، ج ٤، ص ١٢٨ (دار الفكر).
(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٥٧٢، ذيل الآية ٥٩ من سورة النساء.
(٣) فتح القدير، ج ٢، ص ٥٣١.

وإذا كان سلاطين بني أُميّة وبني العباس قد وضعوا الأحاديث في هذا المجال لمصلحتهم، فلا تنسجم بأي وجه مع أُصول مذهبنا والتعليمات القرآنية، وينبغي أن نعالج هذه الرّوايات، فإن كانت تقبل التخصيص خصّصناها، وإلاّ طرحناها جانباً، لأنّ كل رواية تخالف كتاب الله فهي مردودة وباطلة، والقرآن يصرح أنّ إمام المسلمين لا يجوز أن يكون ظالماً، والآية المتقدمة تقول بصراحة أيضاً: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ . . . أو نقول: إنّ أمثال هذه الرّوايات مخصوصة بالحالات الضرورية والاضطرارية.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

التّفسير

الصلاة والصبر

هذه الآيات تشير إلى أمرين من أهمّ الأوامر الإسلامية، وهما في الواقع روح الإيمان وقاعدة الإسلام، فيأتي الأمر أوّلا بالصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾.

وظاهر التعبير من ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ هو بيان صلاة الصبح وصلاة المغرب اللتين تقعان طرفي النهار، و«الزُّلف» جمع «زلفة» التي تعني القرب، ويشار بها إلى أوّل الليل القريب من النهار فتنطبق على صلاة العشاء.

وهذا التّفسير وارد في روايات أهل البيت عليهم السلام أيضاً، أي إنّ الآية تشير إلى الصلوات الثلاث «الصبح والمغرب والعشاء»(١).

ويرد هنا سؤال وهو: لِمَ ذكرت هذه الصلوات الثلاث من بين الصلوات الخمس؟!

غموض الإجابة دعا بعض المفسّرين لان يتوسع في معنى ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ ليشمل صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب أيضاً، وبالتعبير بـ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ الذي يشير إلى صلاة العشاء تكون جميع الصلوات الخمس قد دخلت في الآية!

(١) بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ١٤٠، ح ٨؛ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٠، ح ٤٣٨٥.

والإنصاف أن تعبير ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ لا يتحمل مثل هذا التّفسير، مع ملاحظة أنّ المسلمين في الصدر الأوّل من الإسلام كانوا مقيدين بأداء صلاة الظهر في أوّل الوقت وأداء صلاة العصر في حدود نصف الوقت، أي بين وقت الظهر ووقت المغرب.

الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقال هنا: إنّ آيات القرآن قد تذكر جميع الصلوات الخمس أحياناً كما في سورة الإسراء: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾(١).

وقد تذكر ثلاث صلوات - كالآية محل البحث - وقد تذكر صلاة واحدة كما في سورة البقرة ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾(٢).

فعلى هذا لا يلزم ذكر جميع الصلوات الخمس في كل مورد، وقد توجب المناسبات الإشارة إلى صلاة الظهر «الصلاة الوسطى» لأهمّيتها أو تشير إلى صلاة الصبح أو المغرب والعشاء وذلك لاحتمال أن تقع في دائرة النسيان للتعب أو النوم.

ولأهميّة الصلوات اليوميّة - خاصّة - وجميع العبادات والطاعات والحسنات - عموماً - فإنّ القرآن يشير بهذا التعبير ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

والآية آنفة الذكر كسائر آيات القرآن تبيّن تأثير الأعمال الصالحة في محو أثر الأعمال السيئة، حيث نقرأ في سورة النساء الآية (٣١): ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ونقرأ في سورة العنكبوت الآية (٧): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

وبهذا تثبت مقولة إبطال السيئات بالطاعات والأعمال الحسنة.

ومن الناحية النفسية - أيضاً - لا ريب في أن الذنب والعمل السيّىء يوجد نوعاً من الظلمة في روح الإنسان ونفسه، بحيث لو استمرّ على السيئات تتراكم عليه الآثار فتمسخ الإنسان بصورة موحشة.

ولكن العمل الصالح الصادر من الهدف الإلهي يهب روح الإنسان لطافةً بإمكانها أن تغسل آثار الذنوب وأن تبدّلَ ظلمات نفسه إلى أنوار.

وبما أنّ الجملة الآنفة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذكرت بعد الأمر بإقامة الصلاة

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٨. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

مباشرة، فإنّ واحدة من مصاديقها هي الصلاة اليومية[١]، وإذا ما لاحظنا في الرّوايات إشارة إلى الصلاة اليومية[٢] في التّفسير فحسب فليس ذلك دليلاً على الانحصار، بل - كما قلنا مراراً - إنّما هو بيان مصداق واضح قطعي.

الأهميّة القصوى للصلاة:

تلاحظ في الرّوايات المتعددة المنقولة عن النّبي ﷺ والأئمّة الطاهرين عليهم السلام تعبيرات تكشف عن الأهميّة الكبرى للصلاة في نظر الإسلام.

يقول أبو عثمان: كنت جالساً مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ غصناً يابساً وهزّه حتى تساقطت أوراقه جميعاً، ثمّ التفت إليّ وقال: ما سألتني لِمَ فعلت ذلك؟!

فقلتُ: وما تريد؟!

قال: هذا ما كان من رسول الله ﷺ حين كنت جالساً معه تحت شجرة ثمّ سألني النّبي هذا السؤال وقال: «ما سألتني لِمَ فعلت ذلك؟».

فقلت له: ولمَ يا رسولَ الله؟

فقال: «إنّ المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثمّ صلّى الصلوات الخمس تحاتّت خطاياه كما تحاتّ هذا الورق» ثمّ قرأ الآية ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الخ»[٣].

ونقرأ في حديث آخر عن أحد أصحاب رسول الله ﷺ واسمه أبو أمامة أنّه قال: «كنت جالساً يوماً في المسجد مع رسول الله ﷺ فجاءه رجل وقال: يا رسول الله، أذنبت ذنباً يستوجب الحدّ فأقم عليَّ الحدّ، فقال ﷺ: «أصليت معنا؟» قال: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: «فإن الله غفر ذنبك»... أو «أسقط عنك الحد»[٤].

كما نقل عن علي عليه السلام أنه قال: «كنّا مع رسول الله ننتظر الصلاة فقام رجل وقال: يا رسول الله، أذنبت. فأعرض النّبي بوجهه عنه، فلما انتهت الصلاة قام ذلك الرجل وأعاد كلامه ثانيةً، فقال النّبي ﷺ: ألم تصلّ معنا وأحسنت لها الوضوء؟ فقال: بلى، فقال: هذه كفارة ذنبك»[٥].

---

(١) أصول الكافي، ج ٣، ص ٣٦٦، ح ١٠؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ١٤٦، ح ١٠٢٦٥.
(٢) مستدرك، ج ٣، ص ١٥، ح ١٨٩٧ - ٧.
(٣) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٣١٩، ص ٢٠٨ بتفاوت يسير.
(٤) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.
(٥) المصدر السّابق.

ونقل عن علي عليه السلام أيضاً أنّه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهر جار على باب أحدكم، فما يظن أحدكم لو كان في جسده درن ثمّ اغتسل في ذلك النهر خمس مرات، أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي»(١).

وعلى كلِّ حال، لا مجال للشكّ في أنّه متى ما أدّيت الصلاة بشرائطها فإنّها تنقل الإنسان إلى عالم من المعنويّة والروحانيّة بحيث توثق علائقه الإيمانية بالله، وتغسل عن قلبه وروحه الأدران وآثار الذنوب.

الصلاة تجير الإنسان من الذنب، وتجلو صدأ القلوب.

الصلاة تجذّر الملكات السامية للإنسان في أعماق الروح البشرية، والصلاة تقوي الإرادة وتطهر القلب والروح، وبهذا الترتيب فإن الصلاة الواعية الفاعلة هي مذهب تربوي عظيم.

أرجى آية في القرآن

ينقل في تفسير الآية - محل البحث - حديث طريف عن الإمام علي عليه السلام بهذا المضمون، وهو أنّه التفت مرّة إلى الناس وقال: «أي آية في كتاب الله أرجى عندكم»؟!

فقال بعضهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٢).

فقال عليه السلام: حسنة ليست إيّاها.

فقال آخرون: هي آية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾(٣).

فقال عليه السلام: حسنة ليست إيّاها.

فقالوا: هي آية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٤).

قال عليه السلام: حسنة ليست إيّاها.

فقال آخرون: هي آية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٥) فقال الإمام أيضاً: «حسنة ليست إيّاها».

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ٤٨ و١١٦.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

ثمّ أجم الناس، فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟ فقالوا: والله ما عندنا شيء قال عليه السلام: «سمعت حبيبي رسول الله يقول: أرجى آية في كتاب الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾(١).

وبالطبع كما ذكرنا في شرح الآية (٤٨) من سورة النساء: إنّه ورد حديث آخر يشير إلى أنّ أرجى آية في القرآن هي آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

ولكن مع ملاحظة أنّ كل آية من هذه الآيات تنظر إلى زاوية من هذا البحث وتبيّن بُعداً من الأبعاد، فلا تضادّ بينها.

وفي الواقع إنّ الآية محل البحث فتتحدّث عن أُولئك الذين يؤدّون الصلاة بصورة صحيحة، صلاة مع حضور القلب والروح، بحيث تغسل آثار الذنوب عن قلوبهم وأرواحهم. أمّا الآية الأُخرى تتحدّث عن أولئك الذين حُرموا من هذه الصلاة، فبإمكانهم الدخول من باب التوبة، فإذن هذه الآية لهؤلاء الجماعة أرجى آية، وتلك الآية لأُولئك الجماعة أرجى آية.

وأيّ رجاء أعظم من أن يعلم الإنسان أنّه متى زلت قدمه وغلب عليه هواه (دونَ أن يصرّ على الذنب) وحين يحل وقت الصلاة فيتوضأ ويقف أمام معبوده للصلاة، فيحسّ بالخجل عند التوجه إلى الله لما قدمه من أعمال سيئة ويرفع يديه بالدعاء وطلب العفو فيغفر وتزول عن قلبه الظلمة وسوادها.

وتعقيباً على تأثير الصلاة في بناء شخصية الإنسان وبيان تأثير الحسنات على محو السيئات، يأتي الأمر بالصبر في الآية الأُخرى بعدها ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين حاول تحديد معنى الصبر في هذه الآية في الصلاة، أو إيذاء الأعداء للنّبي صلى الله عليه وآله، إلاّ أنّ من الواضح أن لا دليل على ذلك - بل إنّ الآية تحمل مفهوماً واسعاً كلياً وجامعاً ويشمل كل أنواع الصبر أمام المشاكل والمخالفات والأذى والطغيان والمصائب المختلفة، فالصمود أمام جميع هذه الحوادث يندرج تحت مفهوم الصبر.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢٢٠، ح ٤١.

«الصبر» أصل كلّي وأساس إسلامي، يأتي أحياناً في القرآن مقروناً بالصلاة، ولعل ذلك آتٍ من أن الصلاة تبعث في الإنسان الحركة، والأمر بالصبر يوجب المقاومة، وهذان الأمران، أي «الحركة والمقاومة» حين يكونان جنباً إلى جنب يثمران كل أشكال النجاح والموفقية.

وأساساً لايتحقق عمل صالح دون صبر ومُقاومة... لأنّه لابدّ من إيصال الأعمال الصالحة إلى النهاية، ولذلك فإنّ الآية المتقدمة تعقب على الأمر بالصبر بثواب الله وأجره إذ تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ومعنى ذلك أن العمل الصالح لا يتيسر دون صبر ومقاومة... لا بأس بذكر هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ الناس ينقسمون إلى عدّة جماعات إزاء الحوادث العسيرة الصعبة:

١ - فجماعة تفقد شخصيّتها فوراً، وكما يعبر القرآن: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾(١).

٢ - وجماعة آخرون يصمدون أمام الأزمات بكل تحمّل وتجلّد.

٣ - وجماعة آخرون بالإضافة إلى صمودهم وتحملهم للأزمة، فإنّهم يؤدّون الشكر لله.

٤ - وجماعة آخرون يتجهون إلى الأزمات والمصاعب بشوق وعشق، ويفكرون في كيفية التغلب عليها. ولا يعرفون التعب والنصب في متابعة الأمور، ولا يهدأون حتى تزول المشاكل.

وقد وعد الله مثل هؤلاء الصابرين بالنصر المؤزّر ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾(٢).

وأنعم عليهم وأثابهم في الحياة الأُخرى بالجنّة ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾(٣).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

(١) سورة المعارج، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ١٢.

التّفسير

عامل الانحراف والفساد في المجتمعات

من أجل إكمال البحوث السابقة ذكر في هاتين الآيتين أصل أساسي اجتماعي يضمن نجاة المجتمعات من الفساد، وهو أنّه ما دام هناك في كل مجتمع طائفة من العلماء المسؤولين والملتزمين الذين يحاربون كل اشكال الفساد والانحراف، ويأخذون على عاتقهم قيادة المجتمع فكرياً وثقافياً ودينياً، فإنّ هذا المجتمع سيكون مصوناً من الزيغ والانحراف.

لكن متى ما سكت عن الحق أهله وحماته، وبقي المجتمع دون مدافع أمام عوامل الفساد، فإنّ انتشار الفساد ومن ورائه الهلاك أمر حتمي.

الآية الأولى: أشارت إلى القرون والأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد أنواع البلاء قائلة:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ثمّ تستثني جماعة فتقول: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾.

هذه الجماعة القليلة وإن كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولكنّها كحال لوط عليه السلام وأسرته الصغيرة، ونوح والمعدودين ممن آمن به، وصالح وجماعة من أتباعه، فإنّهم كانوا قلّة لم توفق للإصلاح العام والكلي في المجتمع.

وعلى كلّ حال فإنّ الظالمين الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من المجتمع اتبعوا لذاتهم وتنعمهم، وكما تقول الآية: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

وللتأكيد على هذه الحقيقة، تأتي الآية الثّانية لتقول: إنّ هذا الذي ترون من إهلاك الله للأمم، إنّما كان لعدم وجود المصلحين فيهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

وأحياناً يسود الظلم والفساد في المجتمع، لكن المهم أنّ الناس يشعرون بالظلم والفساد وهم في طريق الإصلاح، وبهذا الشعور والإحساس والتحرك بخطوات في طريق الإصلاح يمهلهم الله، ويقرّ لهم قانون الخلق حق الحياة.

ولكن هذا الإحساس متى ما انعدم وأصبح المجتمع صامتاً، وأخذ الفساد والظلم في الانتشار بكل مكان فإنّ قانون الخلق والوجود لا يعطيهم الحق في الحياة، وهذه

الحقيقة تتضح بمثال يسير. . . في البدن قوّة ومناعة كريّات الدم البيضاء التي تواجه المكروبات والجراثيم عند دخولها البدن عن طريق الهواء أو الغذاء أو الماء أو الجروح الجلدية الخ. . .

وهذه الكُريّات البيضاء بمثابة الجنود المقاتلة إذ تقف بوجه المكروبات والجراثيم فتبيدها، أو على الأقل تحدّ من انتشارها ونموّها.

وبديهي أن هذه القوّة الدفاعية التي تتشكل من ملايين الجنود، لو أضربت يوماً عن العمل وبقي البدن دون مدافع، فسيكون ميداناً لهجوم الجراثيم الضارّة بحيث تسرع أنواع الأمراض إلى البدن.

وجميع المجتمعات البشرية لها مثل هذه الحالة، فلو ارتفعت هذه القوّة المدافعة عنها وهي ما عبّر عنه القرآن بـ ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ فإن جراثيم الأمراض الاجتماعية المتوفرة في كل زاوية من المجتمع سرعان ما تنمو وتتكاثر ويسقط المجتمع صريع الأمراض المختلفة.

إن أثر ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ في بقاء المجتمع حساس للغاية، حتى يمكن القول: إنّ المجتمع من دون «أولي بقية» يُسلب حق الحياة، ومن هنا فقد وردت الإشارة إليهم في الآية المتقدمة.

من هم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾؟

كلمة ﴿أُوْلُواْ﴾ تعني الأصحاب، وكلمة «بقيّة» معناها واضح أي ما يبقى، ويستعمل هذا التعبير في لغة العرب بمعنى «أولو الفضل» لأنّ الإنسان يدخر الأشياء النفيسة والجيّدة لتبقى عنده، فالمصطلح ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ يحمل في نفسه مفهوم الخير والفضل.

ونظراً لأنّ الضعفاء - عادةً - يرجّحون الفرار على القرار في ميدان المواجهة الاجتماعية، أو يصيبهم الفناء، ولا يبقى في ميدان المواجهة إلاّ من يتمتع بقوّة فكرية أو جسدية، وبذلك يبقى الأقوياء فقط، ومن هذا المنطلق أيضاً تقول العرب في أمثالها: في الزوايا خبايا. . . وفي الرجال بقايا.

كما جاءت كلمة «بقيّة» في القرآن الكريم في ثلاثة موارد وهي تحمل هذا المفهوم، حيث نقرأ في قصّة طالوت وجالوت ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

وقرأنا أيضاً قصّة شعيب (في هذه السورة) مخاطباً قومه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وحيث نجد في قسم من التعبيرات إطلاق ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ على «المهدي الموعود» عليه السلام[2] فهو إشارة إلى هذا الموضوع أيضاً، لأنّه وجود ذو فيض وذخيرة إلهيّة كبرى، وهو مُعَدّ ليطوي بساط الظلم والفساد وليرفع لواء العدل في العالم كله.

ومن هنا نعرف الحق الكبير لهؤلاء الرجال الأجلاّء الافذاذ والمكافحين للفساد، والمصطلح عليهم بـ ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ على المجتمعات البشرية لأنّهم رمز لبقاء الأمم وحياتها ونجاتها من الهلاك.

المسألة الأُخرى التي تستجلب النظر في الآية المتقدمة أنّها تقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

وبملاحظة التفاوت بين كلمتي «مصلح» و«صالح» تتجلى هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ الصلاح وحده لا يضمنُ البقاء، بل إذا كان المجتمع فاسداً ولكن أفراده يسيرون باتجاه إصلاح الأمور فالمجتمع يكون له حق البقاء والحياة أيضاً.

فلو انعدم الصالح والمصلح في المجتمع فإنّ من سنةِ الخلقِ أن يحرم ذلك المجتمع حق الحياة ويهلك عاجلاً.

وبتعبير آخر: متى كان المجتمع ظالماً ولكنه مقبل على إصلاح نفسه، فهذا المجتمع يبقى، ولكن إذا كان المجتمع ظالماً ولم يُقبل على نفسه فيصلحها أو يطهرها فإنّ مصيره إلى الفناء والهلاك.

المسألة الدقيقة الأُخرى: إنّ واحداً من أسس الظلم والإجرام - كما تشير إليه الآيات المتقدمة - هو اتّباع الهوى وعبادة اللّذة وحبّ الدنيا، وقد عبّر القرآن عن كل ذلك بـ «الترف».

فهذا التنعم والتلذذ غير المقيد وغير المشروط أساس الانحرافات في المجتمعات المرفهة، لأنّ سكرها من شهواتها يصدها عن إعطاء القيم الإنسانية الأصيلة حقّها ودرك الواقعيات الاجتماعية، ويغرقها في العصيان والآثام.

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٩١.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

التّفسير

في الآية الأُولى محل البحث إشارة إلى واحدة من سنن الخلق والوجود والتي تمثّل اللبنات التحتيّة لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان... وهي مسألة الاختلاف والتفاوت في بناء الإنسان روحاً وفكراً وجسماً وذوقاً وعشقاً، ومسألة حرية الإرادة والاختيار.

تقول الآية: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

لئلا يتصور أحد من الناس أنّ تأكيد الله وإصراره على طاعة أمره دليل على عدم قدرته على أن يجعلهم في سير واحد ومنهج واحد.

نعم، لم يكن - أي مانع - أن يخلق جميع الناس بحكم إلزامه وإجباره على شاكلة واحدة، ويجعلهم مؤمنين بالحق ومجبورين على قبول الإيمان به...

لكن مثل هذا الإيمان لا تكون فيه فائدة ولا في مثل هذا الاتحاد... فالإيمان القسري الذي ينبع من هدف غير إرادي لايكون علامة على شخصية الفرد ولا وسيلة للتكامل، ولا يوجب الثواب كما هو الحال في خلق النحل خلقاً يدفعها بحكم الغريزة إلى أن تجمع الرحيق من الأزهار... وخلق بعوضة الملاريا خلقاً يجعلها تستقر في المستنقعات، ولا يمكن لأيّ منهما أن تتخلى عن طريقتها.

إلاّ أنّ قيمة الإنسان وامتيازه وأهم ما يتفاوت فيه عن سائر الموجودات هي هذه الموهبة، وهي حرية الإرادة والاختيار، وكذلك امتلاك الأذواق والأطباع والأفكار المتفاوتة التي يصنع كل واحد منها قسماً من المجتمع ويؤمّن بُعداً من أبعاده.

ومن طرف آخر فإنّ الاختلاف في انتخاب العقيدة والمذهب أمر طبيعي مترتب على حرية الإرادة ويكون سبباً لأن تقبل جماعة طريق الحق وتتبع جماعة أُخرى الباطل، إلاّ أن يتربى الناس تربية سليمة في أحضان الرحمة الإلهيّة ويتعلموا المعارف الحقة بالاستفادة من مواهب الله تعالى لهم... ففي هذه الحال، ومع جميع ما لديهم من

اختلافات، ومع الاحتفاظ بالحريّة والاختيار، فإنّهم سيخطون خطوات في طريق الحق وإن كانوا يتفاوتون في هذا المسير.

ولهذا يقول القرآن الكريم في الآية الأخرى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ولكن هذه الرحمة الإلهيّة ليست خاصّة بجماعة معينة، فالجميع يستطيعون «شريطة رغبتهم» أن يستفيدوا منها ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

الأشخاص الذين يريدون أن يستظلوا برحمة الله فإنّ الطريق مفتوح لهم... الرحمة التي أفاضها الله لجميع عباده عن طريق تشخيص العقل وهداية الأنبياء.

ومتى ما استفادوا من هذه الرحمة والموهبة، فإنّ أبواب الجنّة والسعادة الدائمة تفتح بوجوههم، وإلاّ فلا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

ملاحظات:

١ - حرية الإرادة هي أساس خلق الإنسان ودعوة جميع الأنبياء، وأساساً لا يستطيع الإنسان بدونها أن يخطو ولو خطوة واحدة في مسير التكامل «التكامل الإنساني والمعنوي» ولهذا فقد أكّدت آيات متعددة على أنّه لو شاء الله أن يهدي الناس بإجباره لهم جميعاً لفعل، لكنّه لم يشأ.

فيما يتعلق بالله هو الدعوة إلى المسير الحق وتعريف الطريق ووضع العلامات، والتنبيه على ما ينبغي الحذر منه وتعيين القائد للمسيرة البشرية والمنهج فحسب.

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[1] كما يقول أيضاً: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[2] ويقول في سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[3] ونقرأ أيضاً في سورة الدهر الآية (٣): ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فعلى هذا فإن الآيات محل البحث من أوضح الآيات التي تؤكّد على حرية الإرادة ونفي مذهب الجبر، وتدل على أنّ التصميم النهائي هو بيد الإنسان.

٢ - في الهدف من الخلق والوجود، في آيات القرآن بيانات مختلفة، وفي الحقيقة يشير كل واحد منها إلى بعد من أبعاد هذا الهدف، من هذه الآيات ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

---

(١) سورة الليل، الآية: ١٢.
(٢) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ و ٢٢.
(٣) سورة الشمس، الآية: ٨.

﴿وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] أي ليتكاملوا في مذهب العبادة وليبلغوا أعلى مقام للإنسانية في هذا المذهب.

ونقرأ في مكان آخر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2].

أمّا في الآية محل البحث فيقول: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ . . . وكما تلاحظون فإنّ جميع هذه الخطوط تنتهي إلى نقطة واحدة، وهي تربية الناس وهدايتهم وتقدمهم وتكاملهم، وكل ذلك يعدّ الهدف النهائي للخلق.

وفائدة هذا الهدف تعود للإنسان نفسه لا إلى الله، لأنّ الله وجود مطلق لا نهاية له من جميع الجهات، ومثل هذا الوجود لا نقص فيه ليرفعه ويزيله بالخلق.

٣ - وفي نهاية الآية الأخيرة تأكيد على الأمر الإلهي بملء جهنم من الجن والإنس أجمعين، وبديهي أنّ هذا الأمر المحتوم فيه شرط واحد وهو الخروج من دائرة رحمة الله، والتقهقر عن هداية الرسل والادلاّء من قِبَلِهِ، وبهذا الترتيب فإنّ هذه الآية لاتعتبر دليلاً على مذهب الإجبار بل هي تأكيد جديد على مذهب الاختيار.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

التّفسير

أربعة معطيات لقصص الماضين

بانتهاء هذه الآيات تنتهي سورة هود، وفي هذه الآيات استنتاج كلي لمجموع بحوث هذه السورة، وبما أنّ القسم الأهمّ من هذه السورة يتناول القصص التي تحمل العبر من سيرة الأنبياء والأُمم السابقة، فإنّ هذه القصص تعطي نتائج قيّمة ملخّصة في أربعة مواضيع.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الملك، الآية: ٢.

تقول هذه الآيات أوّلاً: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾. وكلمة ﴿وَكُلًّا﴾ إشارة إلى تنوع هذه القصص، وكل نوع منها يشير إلى اتّخاذ جبهة «قبال الأنبياء» ونوع من الانحرافات ونوع من العقاب، وهذا التنوّع يلقي أشعة نيرة على أبعاد حياة الناس.

«تثبيت قلب النّبي» ﷺ وتقوية إرادته - التي يشار إليها في هذه الآية - أمر طبيعي، لأنّ معارضة الأعداء اللجوجين الشديدة والقاسية - رضينا أم أبينا - تؤثر على قلب النّبي ﷺ لأنّه إنسان وبشر أيضاً، ولكن من أجل ان لا ينفذ اليأس إلى قلب النّبي المطهّر وتضعف إرادته الفولاذية من هذه المعارضة والمخالفات والمثبطات، فإنّ الله يقص عليه قصص الأنبياء وما واجهوه، ومقاومتهم قبال أممهم المعاندين، وانتصارهم الواحد تلو الآخر ليقوي قلب النّبي والمؤمنين الذين يلتّفون حوله يوماً بعد يوم(١).

ثمّ تشير الآية إلى النتيجة الكبرى الثّانية فتقول الآيات: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾.

أمّا ثالث الآثار ورابعها اللذان يستلفتان النظر هما ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الطريف هنا أنّ صاحب المنار يقول في تفسير الآية معقباً: إنّ الإيجاز والاختصار في هذه الآية المعجزة في غاية الدقّة، حتى كأنّ جميع المعاجز السالفة قد جُمعت في الآية نفسها وبيّنت فوائدها جميعاً بعدّة جمل قصيرة.

وعلى أية حال، فإنّ هذه الآية تؤكّد مرّة أُخرى أنّه لا ينبغي أن نعدّ قصص القرآن ملهاة أو يستفاد منها لإشغال السامعين، بل هي مجموعة من أحسن الدروس الحياتية في جميع المجالات، وطريق رحب لجميع الناس في الحاضر والمستقبل.

ثمّ تخاطب الآيات النّبي ﷺ وهو يواجه أعداءه الذين يؤذونه ويظهرون اللجاجة والعناد إن واصل الطريق ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

---

(١) ممّا ذكر في المتن يتّضح أنّ مرجع الضمير في «هذه» يعود على «أنباء الرسل» وعودة الضمير على هذه الكلمة لقربها وتناسبها مع البحوث الواردة في هذه الآية واضح جدّاً، لكنّ الاحتمالات الأُخرى بأنّ المشار إليه هو «الدنيا» أو «خصوص الآيات السابقة» فبعيد، كما يبدو، وما قاله كثير من المفسّرين من أنّ المشار إليه هو «السورة» فقابل للمطابقة مع ما ذكرنا، لأنّ القسم الأهمّ من السورة يتناول قصص الأنبياء السابقين.

فستعلمون من الذي سينتصر، انتظروا هزيمتنا كما تزعمون انتظاراً غير مُجد، ونحن ننتظر العذاب من الله عليكم، وهو ما ستذقونه من قِبَلنا أو من قِبَل الله مباشرةً.

وهذه التهديدات التي تذكر بصيغة الأمر تلاحظ في أماكن أُخرى من القرآن كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(1).

ونقرأ في شأن الشيطان أيضاً ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾(2).

وبديهي أنّه لا يراد بأيّة صيغة من صيغ الأمر هنا طلب الفعل، بل جميعها جاءت للتهديد والتنديد.

وآخر الآيات من هذه السورة تتحدث عن التوحيد «التوحيد المعرفي والتوحيد الأفعالي، وتوحيد العبادة» كما تحدثت الآيات الأُولى من هذه السورة عن التوحيد أيضاً.

هذه الآية - في الحقيقة - تشير إلى ثلاث شعب من التوحيد، توحيد علم الله أوّلاً، فغيب السّماوات والأرض خاص بالله وهو المطّلع عليها جميعاً ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أمّا سواه فعلمه محدود، وفي الوقت ذاته فإنّ هذا العلم ناشىء من التعليم الإلهي، فعلى هذا فإنّ العلم غير المحدود، والعلم الذاتي بالنسبة لجميع ما في السماوات والأرض مخصوص بذات الله المقدسة.

ومن جهة ثانية فإنّ أزمّة جميع الأفعال مرهونة بقدرته ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ وهذه مرحلة توحيد الأفعال.

ثمّ تستنتج الآيةّ أنه إذا علمت أنّ الإحاطة والعلم غير المحدود والقدرة التي لا تنتهي... جميعها مخصوص بذات الله المقدّسة ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وهذه مرحلة توحيد العبادة.

فينبغي اجتناب العصيان والعناد والطغيان ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - علم الغيب خاص بالله

كما تحدثنا بالتفصيل في تفسير الآية (١٨٨) من سورة الأعراف، وفي تفسير الآية

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٥٠) من سورة الأنعام، أنه لا مجال للتردد في أن الاطلاع على الأسرار الخفية أو الأسرار الماضية والآتية كله خاص بالله. . . والآيات المختلفة من القرآن تؤكّد هذه الحقيقة وتؤيدها أيضاً. . . إنّه ليس كمثله شيء وهو متفرد بهذه الصفة.

وإذا وجدنا في قسم من آيات القرآن بيان أنّ الأنبياء قد يعلمون بعض الأُمور الغيبية، أو قرأنا في بعض الآيات أو الرّوايات الكثيرة أنّ النّبي ﷺ والإمام عليّاً والأئمة المعصومين عليهم السلام قد يخبرون عمّا يجري في المستقبل من حوادث ويبيّنون أسراراً خفيّة منها، فينبغي أن نعرف أن كل ذلك بتعليم الله سبحانه.

فهو سبحانه حيث يجد المصلحة يطلع عباده وأولياءه على قسم من أسرار الغيب، ولكن هذا العلم لا هو علم ذاتي ولا غير محدود، بل هو من تعليم الله وهو محدود بمقدار ما يريده الله.

وبهذا البيان تتّضح الإجابة على المنتقدين لعقيدة الشيعة في مجال علم الغيب حيث يرون أنّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام يعلمون الغيب.

وليس الاطلاع على علم الغيب من قبل الله خاصاً بالأنبياء أو الأئمّة فقد يطلع الله غير النّبي والأئمّة على غيبه أيضاً. . . فنحن نقرأ في قصّة أُم موسى في القرآن أنّ الله قال لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

وقد يطلع الله لضرورة الحياة - أحياناً - الطيور والحيوانات على الأسرار الخفيّة وحتى على المستقبل البعيد نسبيّاً ممّا يصعب علينا تصوّره وبهذا الترتيب قد تكون بعض المسائل التي نحسبها غيباً، هذه المسائل نفسها بالنسبة للطيور أو الحيوانات لا تُعدُّ من الغيب.

٢ - العبادة لله وحده

في الآية المتقدمة دليل لطيف على أنّ العبادة لله وحده، وهو أنّه لو كانت العبادة من أجل العظمة وصفات الجمال، والجلال فهذه الصفات قبل كل شيء موجودة في الله، وأمّا الآخرون فلا شيء بالنسبة إليه، وأكبر دليل على عظمة الله علمه الواسع غير المحدود وقدرته اللامتناهية، وقد أشارت الآية الآنفة إلى أنّهما مختصّان بالله.

وإذا كانت العبادة لأجل الالتجاء - في حلّ المشاكل - إلى المعبود. . . فإنّ مثل

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

هذا العمل جدير بمن هو عليم بجميع حاجات العباد وأسرارهم الخفيّة. وما يغيب عليهم، وهو قادر على إجابة دعوتهم، وبالنتيجة فإنّ توحيد الصفات يكون سبباً لتوحيد العبادة (لاحظوا بدقّة).

قال بعض المفسّرين: إنّ سير الإنسان في طريق عبودية الله، لُخِّصَ كلّه في جملتين في هذه الآية ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ لأنّ العبادة سواء كانت عبادة جسمانية كالعبادة العامّة، أو عبادة روحانية كالتفكّر في خلق الله ونظام أسرار الوجود، هي بداية هذا السير.

والتوكّل الذي يعني الالتجاء المطلق إلى الله وإيداع جميع الأشياء بيده، بحيث يعدّ نوعاً من «الفناء في الله» هو آخر نقطة من هذا السير.

وفي جميع هذا المسير من بدايته حتى نهايته يوجههم إلى حقيقة توحيد الصفات، ويعين السائرين في هذا المسير ويدعوهم إلى البحث المقرون بالعشق لساحته.

اللّهم ألهمنا معرفتك بصفات جلالك وجمالك.

وألهمنا أن نتحرك إليك بعرفان.

اللّهم وفقنا لأن نعبدَك مخلصين ونتوكل عليك عاشقين.

اللّهم أنت رجاؤنا وملاذنا في حل مشاكلنا، ففي هذه الفترة من الزمن أحاطت بالمسلمين المشاكل من كل جانب، وسعى أعداء الله لإطفاء نور هذه الصحوة المباركة، فأنت وليّنا.

اللهم لم نكن لنصل لهذه المرحلة لولا تأييداتك الظاهرة والخفيّة التي أعانتنا للوصول إليها. نسألك أن لا تحرمنا من مواهبك العظيمة في ما بقي من الطريق ولا تقطع ألطافك الخاصّة عنّا.

ووفقنا برحمتك أن نواصل هذا التّفسير الذي يفتح نافذة جديدة على كتابك السّماويّ العظيم.

سُورَة يُوسُف

وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة

«بداية سورة يوسف»

قبل الدخول في تفسير آيات هذه السورة ينبغي ذكر عدّة أمور:

١ - لا إشكال بين المفسّرين في أنّ هذه السورة نزلت في مكّة، سوى ما نُقل عن ابن عباس أنّ أربع آيات مدنية (الآيات الثلاث في أوّل السورة والآية السّابعة منها)[(١)].

ولكن التدقيق في ارتباط هذه الآيات بعضها مع البعض الآخر في هذه السورة يجعلنا غير قادرين على التفكيك بينها، فاحتمال نزول هذه الآيات الأربع في المدينة - على هذا الأساس - بعيد جدّاً.

٢ - جميع آيات هذه السورة سوى الآيات القليلة التي تقع في نهاية السورة تبيّن قصّة نبيّ الله يوسف عليه السلام. القصّة الطّريفة والجميلة والتي تحمل بين طيّاتها العِبَر، ولذلك سمّيت هذه السورة باسم «يوسف» وبهذه المناسبة - أيضاً - ورد ذكر يوسف - من مجموع (٢٧) مرّة في القرآن - (٢٥) مرّة في هذه السورة ومرّة واحدة في سورة غافر الآية (٣٤) ومرّة أُخرى في سورة الأنعام الآية (٨٤).

ومحتوى هذه السورة - على خلاف سور القرآن الأُخرى - مرتبط بعضه ببعض، ويبيّن جوانب مختلفة من قصّة واحدة وردت في أكثر من عشرة فصول، مع بيان أخاذ موجز، عميق، وطريف ومثير.

وبالرغم من أنّ القصّاصين غير الهادفين، أو من لهم أغراض رخيصة سعوا إلى أن يحوّلوا هذه القصّة المهذّبة إلى قصّة عشق يحرك أهل الهوى والشهوة!! وأن يمسخوا الوجه الواقعي ليوسف عليه السلام بحيث بلغت الحال أن يصوروا «فيلماً سينمائياً» وينشروه بصورة مبتذلة... إلاّ أنّ القرآن - وكلّ ما فيه أسوة وعبرة - عكس في ثنايا هذه القصّة أسمى دروس العفة وضبط النفس والتقوى والإيمان، حتى لو أنّ إنساناً قرأها عدّة مرات فإنّه يتأثر - بدون اختيار - بأسلوبها الجذّاب في كل مرّة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، بداية سورة؛ تفسير الصافي هكذا.

ولذا فقد عبّر القرآن عنها بـ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وجعل فيها العبر للمعتبرين ﴿يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٣ - التدقيق في آيات هذه السورة يكشف هذه الحقيقة للإنسان، وهي أنّ القرآن معجز في جميع أبعاده، لأنّ الأبطال الذين يقدمهم في قصصه أبطال حقيقيّون لا خياليّون، وكل واحد في نفسه منهم منعدم النظير

فإبراهيم عليه السلام: البطل الذي حطّم الأصنام بروحه العالية التي لا تقبل المساومة مع الطغاة.

ونوح عليه السلام: بطل الصبر والاستقامة والشفقة والقلب المحترق في ذلك العمر الطويل المبارك.

وموسى عليه السلام: البطل المربّي لقومه اللجوجين، والذي وقف بوجه فرعون المتكبر الطاغي.

ويوسف عليه السلام: بطل الورع والتقوى والطهارة... أمام امرأة محتالة جميلة عاشقة.

بعد هذا كلّه تتجلّى القدرة البيانية للوحي القرآني بصورة تحيّر الإنسان، لأنّ هذه القصّة - كما نعرف - تنتهي في بعض مواردها إلى مسائل العشق ودون أن يمسخها القرآن أو يتجاوزها يتعرض إلى الأحداث في مسرحها بدقة بحيث لا يحس السامع شيئاً غير مطلوب فيها، ويذكر القضايا بأجمعها في المتن، ولكن تحفّها أشعة قوية من التقوى والطهارة.

قصّة يوسف قبل الإسلام وبعده

لا شكّ أنّ قصّة يوسف كانت مشهورة ومعروفة بين الناس قبل الإسلام، لأنّها مذكورة في (١٤) فصلاً من [سفر التكوين] في التوراة بين [الفصل ٣٧ - ٥٠] ذكراً مفصلاً.

وبطبيعة الحال فإنّ المطالعة الدقيقة في هذه الفصول الأربعة عشر تكشف مدى الاختلاف بين ما جاء في التوراة وما جاء في القرآن.

وبالمقارنة بين نصّ التوراة ونصّ القرآن نجد أنّ نصّ القصّة في القرآن في غاية الصدق وتخلو من أي خرافة.

وما يقوله القرآن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[1] يشير إلى

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

قصّة يوسف التي عبّر عنها بأحسنِ القصص، حيث لم يكن النّبي مطّلعاً على حقيقتها الخالصة.

ويظهر من التوراة أنّ يعقوب عليه السلام لما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم قال: هذا قميص ولدي وقد أكله الحيوان المفترس، فيوسف ممزق الأحشاء ثمّ خرق يعقوب ثوبه وشدّ الحزام على ظهره وجلَسَ أيّاماً للبكاء والنواح على يوسف، وقد عزّاه جميع أبنائه ذكوراً وإناثاً إلاّ أنّه امتنع أن يقبل تعزيتهم وقال: سأُدفن في القبر حزناً على ولدي.

بيد أنّ القرآن يبيّن: إنّ يعقوب لم يصدّق ما قاله أولاده، ولم يفزع ولم يجزع لمصيبة ولده يوسف، بل أدّى ما عليه من سنّة الأنبياء من الصبر والتوكل على الله، وقال لأبنائه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1] وإن كان قلبه يحترق على فراق ولده وعيناه تدمعان من أجله حتى ابيضتا وعميتا، ولكن - وكما يعبر القرآن - لم يقم بأي عمل من قبيل تخريق الثوب والنواح وشدّ الحزام على ظهره - والذي كان علامة للمصيبة و«العزاء» - وإنّما قال: «صبر جميل» وكتم حزنه «فهو كظيم».

وعلى كل حال فإنّ هذه القصّة - بعد الإسلام - تناقلتها أقلام مؤرخي الشرق والغرب... وأحياناً مع أغصان وأوراق إضافية.

لِمَ ذكرت قصّة يوسف في مكان واحد بخلاف قصص سائر الأنبياء؟!

إنّ من خصائص قصّة يوسف البارزة أنّ هذه القصّة ذكرت في مكان واحد من القرآن، على خلاف قصص الأنبياء التي ذكرت على شكل فصول مستقلة في سور متعددة من القرآن.

والحكمة في ذلك تعود إلى أنّ تفكيك فصول هذه القصّة مع ملاحظة وضعها الخاص يفقدها ترابطها وانسجامها، فلهذا ينبغي أن تذكر كاملة في مكان واحد للحصول على النتيجة المتوخاة وعلى سبيل المثال فإنّ الرؤيا وما ذكره أبوه من تعبير في أوّل هذه السورة يفقد معناه دون ذكر نهايتها.

لذلك نقرأ في أواخر هذه السورة، حين جاء يعقوب وإخوة يوسف إلى مصر وخرّوا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

له سجداً قال يوسف ملتفتاً إلى أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾(١).

هذا النموذج يوضح الارتباط الوثيق بين بداية السورة ونهايتها، في حين أنّ قصص الأنبياء الآخرين ليست على هذه الشاكلة، ويمكن درك كل واحدة من خلال فصولها.

والخصيصة الأُخرى من خصائص هذه السورة هي أنّ قصص الأنبياء التي وردت في السور الأُخرى من القرآن تبيّن عادة مواجهة الأنبياء لقومهم المعاندين والطغاة، ثمّ تنتهي الحالة إلى إيمان جماعة بالأنبياء ومخالفة جماعة أُخرى لهم واستحقاقهم عذاب الله وعقابه.

أمّا في قصّة يوسف فلا كلام عن هذا الموضوع، بل أكثر ما فيها بيان حياة يوسف نفسه ونجاته من المزالق الخطيرة التي تنتهي أخيراً إلى استلامه سدّة الحكم، وهي في حدّ ذاتها «أنموذج» خاص.

فضيلة سورة يوسف

وردت في الرّوايات الإسلامية فضائل مختلفة في تلاوة هذه السورة، ونقرأ من ضمنها حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «من قرأ سورة يوسف في كل يوم أو في كل ليلة، بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف، ولا يصيبه فزع يوم القيامة، وكان من خيار عباد الله الصالحين»(٢).

إنّ الرّوايات التي وردت في فضائل سور القرآن - كما قلنا مراراً - ليس معناها القراءة السطحيّة دون تفكر وعمل، بل تلاوة تكون مقدمة للتفكر... التفكر الذي يجرّ إلى العمل، ومع ملاحظة محتوى هذه السورة يتّضح أن من يستلهم خطة حياته من هذه القصّة، ويعفّ نفسه أمام طوفان شديد من الشّهوات والمال والجاه والمقام، إلى درجة يرى بها حفرة السجن المظلمة مقرونة بطهارة الثوب أفضل من الحياة في قصور الملوك الملوّثة، فإنّ مَثَل هذا الشخص في جمال روحه كجمال يوسف، وما من خفيّ إلاّ ظهر يوم القيامة... وسيجد له جمالاً مذهلاً ويكون في صف عباد الله الصالحين.

وممّا يلزم ذكره أنّه ورد في عدد من الأحاديث النهي عن تعليم هذه السورة

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٥١، ح ٧٨٦٤.

«للنساء»[1]، ولعلّ السرّ في ذلك هو ما في الآيات المرتبطة بامرأة عزيز مصر . . . فبالرغم من سرد القصّة في بيان عفيف، إلاّ أنّها سبب لتحريك بعض النساء أيضاً. . . وقد جاء التأكيد على تعليم سورة «النّور» المشتملة على آيات الحجاب للنساء بدلاً من سورة يوسف.

ولكن سند هذه الرّوايات بشكل عام لا يُعتمد عليه، إضافة إلى ذلك فقد ورد في بعض الرّوايات الأُخرى خلاف ذلك حيث ترغّب في تعليم هذه السورة للعائلة، وبعد هذا كلّه فإنّه التدقيق في آيات هذه السورة يكشف أنّ هذه السورة، ليس فيها أيّة نقطة سلبية بالنسبة للنساء، وليس هذا فحسب، بل إن ما جرى لامرأة عزيز مصر، درسٌ فيه عبرة لجميع النسوة اللائي يبتلين بالوساوس الشيطانيّة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

التّفسير

أحسن القصص بين يديك

تبدأ هذه السورة بالحروف المقطعة «ألف. لام. راء» وهي دلالة على عظمة القرآن، وإنّ تركيب هذه الآيات ذات المحتوى العميق متكوّن من أبسط الأجزاء، وهي حروف الهجاء «ألف - باء. . . الخ» وقد تحدثنا عن الحروف المقطعة في القرآن - حتى الآن - في ثلاثة مواضع «بداية سورة البقرة، وآل عِمران، والأعراف» بقدر كاف. . . فلا ضرورة للتكرار، وأثبتنا دلالتها على عظمة القرآن.

وربّما كان لهذا السبب أن تأتي الإشارة - بعد هذه الحروف المقطعة مباشرةً - إلى بيان عظمة القرآن في هذه السورة، فتقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

وممّا يستلفت النظر أنّه استُفيد من اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ في هذه الآية للبعيد، نظير ما

(١) الفقيه، ج ١، ص ٣٧٤، ح ١٠٨٩؛ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٨٥، ح ٧٦٨٦.

جاء في بداية سورة البقرة وبعض السور القرآنية الأخرى. وقد قلنا: إنّ مثل هذه التعبيرات جميعاً يشار بها إلى عظمة هذه الآيات، أي إنّها بدرجة من الرفعة والعلوّ كأنّها في نقطة بعيدة لا يمكن الوصول إليها ببساطة، بل بالسعي والجدّ المتواصل... فهي في أوج السّماوات وفي أعالي الفَضاء اللامتناهي، لا أنّها مطالب ومفاهيم رخيصة يحصل عليها الانسان في كل خطوة.

ثمّ يأتي البيان عن الهدف من نزول الآيات فيقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فالهدف إذن ليس القراءة أو التلاوة أو التيمّن أو التبرك بتلاوة هذه الآيات فحسب، بل الهدف الأساسي هو الإدراك... الإدراك القوي الذي يدعو الإنسان إلى العمل بجميع وجوده.

وأمّا سرّ كون القرآن عربياً فهو بالإضافة إلى أنّ اللغة العربية واسعة كما يشهد بذلك أهل المعرفة باللغات المختلفة من العالم، بحيث تستطيع أن تكون ترجماناً للسان الوحي، وأن تبيّن المفاهيم الدقيقة لكلام الله سبحانه، فمن المسلم به - بعد هذا - أنّ نور الإسلام بزغ في جزيرة العرب التي كانت منطلقاً للجاهلية والظلمة والتوحّش والبربرية، ومن أجل أن يجمع أهل تلك المنطقة حول نفسه فينبغي أن يكون القرآن واضحاً مشرقاً، ليُعلّم أهل الجزيرة الذين لاحظ لهم من الثقافة والعلم والمعرفة، ويخلق بذلك مركزاً محورياً لانتشار هذا الدين إلى سائر نقاط العالم.

وبطبيعة الحال فإنّ القرآن بهذه اللغة «العربيّة» لا يتيسّر فهمه لجميع الناس في العالم (وهذا شأن أية لغة أُخرى) لأنّنا لا نملك لغة عالمية ليفهمها جميع الناس، ولكن ذلك لا يمنع من أن يستفيد من في العالم من تراجم القرآن، أو أن يطلعوا تدريجاً على هذه اللغة ليتلمسوا الآيات نفسها ويدركوا مفاهيم الوحي في طيّات هذه الألفاظ.

وعلى كل حال فالتعبير بكون القرآن عربياً - الذي تكرر في عشرة موارد من القرآن - جواب لأولئك الذين يتهمون النّبي ﷺ بأنّه تعلم القرآن من أعجمي، وأنّ محتوى القرآن مستورد وليس وحياً إلهياً.

وهذه التعبيرات المتتابعة تحتم ضمناً وظيفةً مفروضة على جميع المسلمين، وهي أن يسعوا جميعاً إلى معرفة اللغة العربية وأن تكون اللغة الثانية إلى جانب لغتهم، لأنّها لغة الوحي ومفتاح فهم حقائق الإسلام.

ثمّ يقول سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

يعتقد بعض المفسّرين أنّ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ إشارة إلى مجموع القرآن، وأنّ جملة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ قرينة على ذلك. والقصّة هنا ليست بمعنى سرد الحكاية، بل المراد معناها «الجذري» في اللغة وهو البحث عن آثار الشيء، وبما أنّ أي موضوع - حين يشرح ويفصّل - يبيّن بكلمات متتابعة، فلذلك يطلق عليه قصّة أيضاً.

وعلى كل حال فإنّ الله سبحانه عبّر بـ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ عن مجموع هذا القرآن الذي جاء في أجمل البيان والشرح، وأفصح الألفاظ وأبلغها، مقرونةً بأسمى المعاني وأدقّها، بحيث يبدو ظاهرهُ عذباً جميلاً، ومن حيث الباطن فمحتواها عظيم.

ونشاهد في روايات متعددة أنّ هذا التعبير استعمل في مجموع القرآن[١]، رغم أنّ هذه الرّوايات لم ترد في تفسير هذه الآية - محل بحثنا -.

فمثلاً نقرأ حديثاً نقله علي بن إبراهيم عن النّبي ﷺ يقول: «إنّ أحسن القصص هذا القرآن»[٢].

كما نقل في روضة الكافي عن خُطبة لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إن أحسن القصص وأبلغ الموعظة وأنفع الذكر كتاب الله»[٣].

ولكنّ ارتباط الآيات المقبلة التي تبيّن قصّة يوسف عليه السلام مع هذه الآية - محل البحث - بشكل يشدّ ذهن الإنسان إلى هذا المعنى، وهو أنّ الله عبر عن قصّة يوسف بـ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وربّما لا ينقدح في أذهان الكثيرين ممن يطالعون بداية آيات هذه السورة غير هذا المعنى.

وقلنا مراراً إنّه لا مانع من أن تكون مثل هذه الآيات للمعنيين جميعاً... فالقرآن هو أحسن القصص بصورة عامّة، وقصّة يوسف هي أحسن القصص بصورة خاصّة.

ولِمَ لا تكون هذه القصّة أحسن القصص، مع أنّها ترسم في فصولها المثيرة أسمى دروس الحياة؟!

---

(١) أصول الكافي، ج ٣، ص ٤٢٣، ح ٦.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٩؛ بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢١١.
(٣) المصدر السابق. أصول الكافي، ج ٨، ص ١٧٥.

فنحن نشاهد حاكمية إرادة الله على كل شيء في هذه القصّة، وننظر بأعيننا المصير الأسود الذي انتهى إليه الحُسّاد وما رقموه على الماء من خِطط.

كما تتجسم من خلال سطورها الذلةُ في الابتذال وعدم العفة، والعظمة في التقوى ومنظر الصبيّ وهو وحيد في قعر الجبّ، وفي مشهد آخر نراه يقضي الليالي والأيّام دون ذنب في حفرة السجن المظلم، ثمّ انبثاق نور الأمل من خلف حجب اليأس والظّلمات، ثمّ نشاهد بعد ذلك حكومته العظيمة الواسعة نتيجة دراسته وأمانته، كل هذه المشاهد تتجلّى للقارىء لهذه القصّة بشكل رتيب.

لحظات وبسبب رؤيا يتحول مصير أُمّة... إنقاذ أُمّة ومجتمع بشري من الهلكة على يد قائد إلهي متيقظ... وعشرات الدروس الأُخرى - الكبيرة - التي تلوح في هذه القصّة، فلِمَ لا تكون هذه القصّة أحسن القصص؟!

غاية ما في الأمر أنّه لا تكفي أن تكون قصّة يوسف وحدها هي أحسن القصص، بل المهم أن تكون فينا الجدارة لأن نفهم هذا الدرس العظيم وأن نعرف مكانه من نفوسنا.

فكثيرٌ مِنَ الناس لا يزال ينظر إلى قصّة يوسف عليه السلام على أنها حادثة عشق طريف، ومثله كمثل الدابّة التي يلوح لها البستان النضر المليء بالأزهار، إلاّ أنّها تراه حفنة من «العلف» تسدُّ جوعها...

وما يزال الكثير من الناس يضفي على القصّة إفرازات خيالية كاذبة ليحرّف القصّة عن واقعها... وهذا من عدم اللياقة وفقدان الجدارة وعدم قابلية المحل، وإلاّ فإنّ أصل القصّة جمع كل أنواع القيم الإنسانية العليا في نفسه.

وسنرى في المستقبل - بإذن الله - أنّه لا يمكن تجاوز فصول هذه القصّة الجامعة والجميلة وكما يقول الشاعر في هذه القصّة:

يَسكرُ من عطر الزهور الفتى حتى يُرى مفتقداً ثوبه!

أثر القصّة في حياة الناس

مع ملاحظة أنّ القسم المهمّ من القرآن قد جاء على صورة تأريخ للأُمم السابقة وقصص الماضين، فقد يتساءل البعض: لِمَ يحملُ هذا الكتاب التربوي كل هذا «التاريخ» والقصص؟!

وتتضح العلة الحقيقية للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

١ - إنّ التاريخ مختبر لنشاطات البشرية المختلفة، وما رسمه الإنسان في ذهنه من

الأفكار والتصورات يجده بصورة عينية على صفحات التاريخ. وبملاحظة أنّ أكثر المعلومات البشرية توافقاً مع الواقع والحقيقة هي التي تحمل جانباً حسيّاً، فإنّ دور التاريخ في إظهار الواقعيّات الحياتية يمكن دركه جيداً.

فالإنسان يرى بأُم عينيه الهزيمة المُردية - لأمّة ما - نتيجة اختلافها وتفرقها، كما يرى النجاح المشرق في قوم آخرين في ظل اتّحادهم وتوافقهم، فالتاريخ يتحدّث بلغة - من دون لسان - عن النتائج القطعية وغير القابلة للإنكار للتطبيقات العملية للمذاهب والخطط والبرامج عند كل قوم.

وقصص الماضين مجموعة من أكثر التجارب قيمة، ونعرف أنّ خلاصة الحياة ومحصولها ليس شيئاً سوى التجربة.

والتاريخ مرآة تنعكس عليها جميع ما للمجتمعات الإنسانية من محاسن ومساوىء ورقي وانحطاط وأسبابها.

وعلى هذا فإنّ مطالعة تاريخ الماضين تجعل عمر الإنسان طويلاً بقدر أعمارهم حقّاً، لأنّها تضع مجموعة تجاربهم خلال أعمارهم تحت تصرفه واختياره.

ولهذا يقول الإمام علي عليه السلام في حديثه التاريخي خلال وصاياه لولده الحسن المجتبى عليه السلام في هذا الصدد: «أي بني إني وإن لم أكن عمّرت عُمْرَ من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكّرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عُدت كأحدهم، بل كأنّي بما انتهى إليّ من أُمورهم قد عمرت من أوّلهم إلى آخرهم»(١).

والتاريخ الذي نتحدث عنه طبعاً هو التاريخ الخالي من الخرافات والأكاذيب والتملّقات والتحريفات.

ولكن - وللأسف - مثل هذا النوع من التاريخ قليل جداً.

ولا ينبغي أن نبعد عن النظر ما للقرآن من أثر في بيان «نماذج» من التاريخ الأصيل وإراءتها.

التاريخ الذي ينبغي أن يكون كالمرآة الصافية لا المقعّرة.

التاريخ الذي لا يتحدث عن الوقائع فحسب، بل يصل إلى الجذور ويسترشف النتائج.

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٣١ من كتاب له عليه السلام لولده الحسن المجتبى عليه السلام.

فمع هذه الحال لِمَ لا يستند القرآن - الذي هو كتاب تربوي عال في فصوله - على التاريخ ويأتي بالشواهد والأمثال من قصص الماضين؟!

٢ - ثمّ بعد هذا فإنّ للتاريخ والقصّة جاذبية خاصّة، والإنسان واقع تحت هذا التأثير الخارق للعادة في جميع أدوار حياته من سنّ الطفولة حتى الشيخوخة.

ولذلك فإنّ التاريخ والقصّة يشكلان القسم الأكبر من آداب العالم وآثار الكتّاب. وأحسن الآثار التي خلّفها الشعراء والكتاب الكبار سواء كانوا من بلاد العرب أو من فارس أو من بلاد أُخرى هي قصصهم.

فأنت تلاحظ «الكلستان» - لسعدي و«الشاهنامة» لفردوسي و«الخمسة» للنظامي وكذلك آثار «فيجتور هيجو» الفرنسي و«شكسبير» الإنجليزي و«غوتِه» الألماني جميعها كتبت على هيئة قصص جذابة».

والقصّة سواء كُتبت نثراً أو شعراً، أو عُرضت على شاشة المسرح أو بواسطة الفيلم السينمائي، فإنّها تترك أثراً في المشاهد والمستمع دونها أثر الاستدلالات العقلية في مثل هذا التأثير.

والعلّة في ذلك قد تكون أنّ الإنسان حسّي بالطبع قبل أن يكون عقلياً ويتخبط في المسائل المادية قبل أن يتعمق في المسائل الفكرية.

وكلما ابتعد الإنسان عن ميدان الحسّ، باتجاه المسائل العقلية كانت هذه المسائل أثقل على الذهن وأبطأ هضماً.

ومن هنا نلاحظ أنّه لأجل بيان الاستدلال العقلي يستمدّ المفكرون في المسائل الاجتماعية والحياتية المختلفة من الأمثلة الحسيّة، وأحياناً يكون للمثال المناسب والمؤثر في الاستدلال قيمة مضاعفة، ولذلك فإنّ العلماء الناجحين هم أُولئك الذين لهم هيمنة على انتخاب أحسن الأمثلة.

ولِمَ لا يكون الأمر كذلك، والاستدلالات العقلية هي حصيلة المسائل الحسّية والعينيّة والتجريبيّة؟!

٣ - القصّة والتاريخ مفهومان عند كل أحد، على خلاف الاستدلالات العقلية، فإنّ الناس في فهمها ليسوا سواسية... وعلى هذا فإنّ الكتاب الشامل الذي يريد أن يستفيد منه البدوي الأُمّي والمتوحش... إلى الفيلسوف والمفكر الكبير، يجب أن يكون معتمداً على التاريخ والقصص والأمثلة.

ومجموعة هذه الجهات تبيّن أنّ القرآن خطا أحسن الخطوات في بيان التواريخ والقصص في سبيل التعليم والتربية، ولا سيّما إذا التفتنا إلى هذه النقطة، وهي أنّ القرآن لا يذكر الوقائع التاريخية في أيّ مجال بشكل عار من الفائدة، بل يذكر معطياتها بشكل يُنتفع بها تربوياً، كما سنلاحظ «النماذج» والأمثلة في هذه السورة.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

بارقة الأمل وبداية المشاكل

بدأ القرآن بذكر قصّة يوسف من رؤياه العجيبة ذات المعنى الكبير، لأنّ هذه الرؤيا في الواقع تعدّ أوّل فصل من فصول حياة يوسف المتلاطمة.

جاء يوسف في أحد الأيّام صباحاً إلى أبيه وهو في غاية الشوق ليحدثه عن رؤياه، وليكشف ستاراً عن حادثة جديدة لم تكن ذات أهمّية في الظاهر، ولكنّها كانت إرهاصاً لبداية فصل جديد من حياته ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

يقول ابن عباس: (إنّ يوسف رأى رؤياه ليلة الجمعة التي صادفت ليلة القدر) (ليلة تعيين الأقدار والآجال)[1].

ولكن كم كان ليوسف من العمر حين رأى رؤياه؟!

هناك من يقول: كان ابن تسع سنوات، ومن يقول: ابن سبع، ومنهم من يقول: ابن اثنتي عشرة سنة، والقدر المسلم به أنّه كان صبياً[2].

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢١٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢١٧ و ٢١٩.

وممّا يستلفت الإنتباه أنّ جملة ﴿رَأَيْتُ﴾ جاءت مكررة في الآية للتأكيد والقاطِعية، وهي إشارة إلى أنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يريد أن يقول: إذا كان كثير من الناس ينسون رؤياهم ويتحدثون عنها بالشك والتردّد، فلست كذلك. بل أقطع بأنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين لي دون شك.

واللطيفة الأُخرى هي أنّ ضمير «هم» الذي يأتي لجمع المذكر السالم العاقل، قد استعمل للكواكب والشّمس والقمر، ومثل هذا الاستعمال ﴿سَٰجِدِينَ﴾ أيضاً إشارة إلى أنّ سجود الكواكب لم يكن من قبيل الصدفة بل كان أمراً مدروساً ومحسوباً كما يسجد الرجال العقلاء!

وواضح - طبعاً - أنّ السجود المقصود منه هنا هو الخضوع والتواضع، وإلاّ فإنّ السجود المعروف عند الناس لا مفهوم له بالنسبة للكواكب والشمس والقمر.

إن هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزى تركت يعقوب النّبي غارقاً في التفكير... فالقمر والشمس والكواكب، وأي الكواكب! إنّها أحد عشر يسجدون جميعاً لولدي يوسف، كم هي رؤيا ذات مغزى! لا شك أنّ الشمس والقمر «أنا وأُمه أو خالته» والكواكب الأحد عشر إخوته، هكذا يرتفع قدر ولدي حتى تسجد له الشمس والقمر وكواكب السّماء.

إن ولدي «يوسف» عزيز عند الله إذا رأى هذه الرؤيا المثيرة!

لذلك توجه إلى يوسف بلهجة يشوبها الاضطراب والخوف المقرون «بالفَرحة» و﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ وأنـا أعـرف ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهو منتظر الفرصة ليوسوس لهم ويثير نار الفتنة والحسد وليجعل الإخوة يقتتلون فيما بينهم.

الطريف هنا أنّ يعقوب لم يقل «أخاف من إخوتك أن يقصدوا إليك بسوء» بل أكّد ذلك على أنّه أمر قطعي، وخصوصاً بتكرار «الكيد» لأنّه كان يعرف نوازع أبنائه وحساسيّاتهم بالنسبة لأخيهم يوسف، وربّما كان إخوته يعرفون تأويل الرؤيا، ثمّ إنّ هذه الرؤيا لم تكن بشكل يعسر تعبيرها.

ومن جهة أُخرى لا يُتصور أن تكون هذه الرؤيا شبيهة برؤيا الأطفال، إذ يمكن احتمال رؤية الأطفال للشمس والقمر والكواكب في منامهم، ولكن أن تكون الشمس والقمر والكواكب موجودات عاقلة وتنحني بالسجود لهم، فهذه ليست رؤيا أطفال...

ومن هذا المنطلق خشي يعقوب على ولده يوسف نائرة الحسد من إخوته عليه.

ولكن هذه الرؤيا لم تكن دليلاً على عظمة يوسف في المستقبل من الوجهة الظاهرية والمادية فحسب، بل تدل على مقام النبوّة التي سيصل إليها يوسف في المستقبل.

ولذلك فقد أضاف يعقوب - لولده يوسف - قائلاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ (١) الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾.

أجل فإنّ الله على كل شيء قدير و﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ملاحظات:

الرّؤيا والحُلم:

إنّ مسألة الرؤيا في المنام من المسائل التي تستقطب أفكار الأفراد العاديين من الناس والعلماء في الوقت نفسه.

فما هذه الأحلام التي يراها الإنسان في منامه من أحداث سيئة أو حسنة، وميادين موحشة أو مؤنسة، وما يثير السرور أو الغم في نفسه؟!

أهي مرتبطة بالماضي الذي عشعش في أعماق روح الإنسان وبرز إلى الساحة بعد بعض التبديلات والتغييرات؟ أم هي مرتبطة بالمستقبل الذي تلتقط صوره عدسة الروح برموز خاصّة من الحوادث المستقبلية؟! أو هي أنواع مختلفة، منها ما يتعلق بالماضي، ومنها ما يتعلق بالمستقبل، ومنها ناتج عن الميول النفسية والرغبات وما إلى ذلك...؟!

إنّ القرآن يصرّح في آيات متعددة أنّ بعض هذه الأحلام - على الأقل - انعكاسات عن المستقبل القريب أو البعيد.

وقد قرأنا عن رؤيا يوسف في الآيات المتقدمة، كما سنرى قصّة الرؤيا التي حدثت لبعض السجناء مع يوسف في الآية ٣٦ وقصّة رؤيا عزيز مصر في الآية ٤٣ وجميعها تكشف الحجب عن المستقبل.

---

(١) «التأويل» في الأصل إرجاع الشيء، وكل عمل أو كل حديث يصل إلى الهدف النهائي يطلق عليه «تأويل» وتحقق الرؤيا في الخارج مصداق للتأويل... و«الأحاديث» جمع الحديث، وهو نقل ما يجري، والحديث هنا كناية عن الرؤيا لأنّ الإنسان ينقلها للمعبرين.

وبعض هذه الحوادث - كما في رؤيا يوسف - تحقق في وقت متأخر نسبياً «يقال إنّ رؤيا يوسف تحققت بعد أربعين سنة»[١] وبعضها تحقق في المستقبل القريب كما في رؤيا عزيز مصر ولمن في السجن مع يوسف.

وفي غير سورة يوسف إشارات إلى الرؤيا التي كان لها تعبير أيضاً، كما ورد في سورة الفتح عن رؤيا النّبي محمّد ﷺ، وما ورد في سورة الصافات عن رؤيا إبراهيم الخليل «وهذه الرؤيا كانت وحياً إلهياً بالإضافة لما حملت من تعبير».

ونقرأ في الحديث عن النّبي الأكرم ﷺ عن الرؤيا قوله: «الرؤيا ثلاث: بُشرى من الله، وتحزين من الشيطان، والذي يحدث به الإنسان نفسه فيراه في منامه»[٢].

وواضح أنّ أحلام الشيطان ليست شيئاً حتى يكون لها تعبير، ولكن ما يكون من الله في الرؤيا فهي تحمل بشارة حتماً... ويجب أن تكون رؤيا تكشف الستار عن المستقبل المشرق.

وعلى كل حال يلزمنا هنا أن نبيّن النظرات المختلفة في حقيقة الرؤيا، ونشير إليها بأسلوب مكثف مضغوط.

والتفاسير في حقيقة الرؤيا كثيرة ويمكن تصنيفها إلى قسمين هما:

١ - التّفسير المادي.

٢ - التّفسير المعنوي.

١ - التّفسير المادي

يقول الماديون: يمكن أن تكون للرؤيا عدّة علل:

ألف: قد تكون الرؤيا نتيجة مباشرة للأعمال اليومية، أي إنّ ما يحدث للإنسان في يومه قد يراه في منامه.

ب - وقد تكون الرؤيا عبارة عن سلسلة من الأماني، فيراها الإنسان في النوم كما يرى الظمآن في منامه الماء، أو أنّ إنساناً ينتظر مسافراً فيراه في منامه قادماً من سفره.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢١٩، وج ٥٨، ص ١٥٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٤ ويضيف بعض العلماء قسماً رابعاً على هذه الأقسام، هو الرؤيا التي تكون نتيجة مباشرة عن الوضع المزاجي والجسماني للإنسان، وسيشار إليها في البحوث المقبلة... إن شاء الله.

ج - وقد يكون الباعث للرؤيا الخوف من شيء ما، وقد كشفت التجارب أنّ الذين يخافون من لص يرونه في النوم.

أمّا فرويد وأتباعه فلديهم مذهب خاص في تفسير الأحلام، إذ إنّهم بعد شرح بعض المقدمات يقولون: إنّ الرؤيا عبارة عن إرضاء الميول المكبوتة التي تحاول الظهور على مسرح الوعي بعد تحويرها وتبدّلها في عملية خداع الأنا.

ولزيادة الإيضاح يقولون: - بعد قبول أنّ النفس البشرية مشتملة على قسمين «الوعي» وهو ما له ارتباط بالأفكار اليومية والمعلومات الإرادية والاختيارية للإنسان، و«اللاّوعي» وهو ما خفي في باطن الإنسان بصورة رغبة لم تتحقق - فكثيراً ما يحدث أن تكون لنا ميول لكننا لم نستطع إرضاءها لظروف ما - فتأخذ مكانها في ضمير الباطن، وعند النوم حين يتعطل جهاز الوعي تمضي في نوع من إشباع التخيل إلى الوعي نفسه، فتنعكس أحياناً دون تغيير [كمثل العاشق الذي يرى في النوم معشوقته] وأحياناً تتغير أشكالها وتنعكس بصور مناسبة، وفي هذه الحالة تحتاج الرؤيا إلى تعبير.

فعلى هذا تكون الأحلام مرتبطة بالماضي دائماً ولا تخبر عن المستقبل أبداً، نعم يمكن أن تكون وسيلة جيدة لقراءة «ضمير اللاوعي!».

ومن هنا فهم يستعينون لمعالجة الأمراض النفسيّة المرتبطة بضمير «اللاوعي» باستدراج أحلام المريض نفسه.

ويعتقد بعض علماء التغذية أنّ هناك علاقة بين الرؤيا وحاجة البدن للغذاء، فمثلاً لو رأى الإنسان في نومه دماً يقطر من أسنانه، فتعبير ذلك أنّ بدنه يحتاج إلى فيتامين (ث) وإذا رأى في نومه أن شعر رأسه صار أبيض، فمعناه أنّه مبتلى بنقص فيتامين (ب).

٢ - التّفسير المعنوي

وأمّا الفلاسفة الميتافيزقيون فلهم تفسير آخر للرؤيا، حيث يقولون: إنّ الرؤيا والأحلام على أقسام:

١ - الرّؤيا المرتبطة بماضي الحياة حيث تشكل الرغبات والأمنيات قسماً مهماً من هذه الأحلام.

٢ - الرؤيا غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التي تنشأ من التوهم والخيال وإن كان من المحتمل أن يكون لها دافع نفسي.

٣ - الرّؤيا المرتبطة بالمستقبل والتي تخبر عنه.

وممّا لا شك فيه أنّ الأحلام المتعلقة بالحياة الماضية وتجسّد الأُمور التي رأها الإنسان في طول حياته ليس لها تعبير خاص... ومثلها الأطياف المضطربة أو ما تسمى بأضغاث الأحلام التي هي إفرازات الأفكار المضطربة، كالأطياف التي تمرّ بالإنسان وهو في حال الهذيان أو الحمّى، فهي - أيضاً - لا يمكن أن تكون تعبيراً عن مستقبل الحياة ولهذا فإنّ علماء النفس يستفيدون من هذه الأحلام ويتخذونها نوافذ للدخول إلى ضمير اللاّوعي في البشر، ويعدّونها مفاتيح لعلاج الأمراض النفسيّة، ويكون تعبير الرؤيا عند هؤلاء لكشف الأسرار النفسية وأساس الأمراض، لا لكشف حوادث المستقبل في الحياة!

أمّا الأحلام المتعلقة بالمستقبل فهي على نحوين:

قسم منها أحلام واضحة وصريحة لا تحتاج إلى تعبير... وأحياناً تتحقق بشكل عجيب في المستقبل القريب أو البعيد دون أي تفاوت.

وهناك قسم آخر من هذه الأحلام التي تتحدث عن المستقبل، ولكنّها في الوقت ذاته غير واضحة، وقد تغيّرت نتيجة العوامل الذهنية والروحيّة الخاصّة فتحتاج إلى تعبير.

ولكل من هذه الأحلام نماذج ومصاديق كثيرة، ولا يمكن إنكارها جميعاً، لأنّها لا في المصادر المذهبية أو الكتب التاريخية - فحسب - بل تتكرر في حياتنا أو حياة من نعرفهم بشكل لا يمكن عدّه من باب المصادفات والاتفاقات!.

ونذكر هنا عدّة نماذج من الأحلام الصادقة التي كشفت بشكل عجيب عن حوادث مستقبلية سمعناها من أفراد موثوقين:

١ - المرحوم الآخوند ملا علي من علماء همدان الموثوقين والمعروفين ينقل عن المرحوم الميرزا عبد النّبي النوري وهو من علماء طهران الكبار هذه القضية:

عند ما كنت في سامراء كان يصلني سنوياً من مدينة مازندران مبلغ بمقدار مائة تومان تقريباً، وعلى أساس هذا الأمر كنت أستقرض دائماً مقدار حاجتي من المؤونة وعندما يصلني هذا المبلغ كنت أقوم بتسديد هذه القروض.

وفي أحد الأعوام جاءني خبر مؤسف، وهو أنّ المحصول الزراعي في مازندران سيّىء للغاية بسبب القحط، ولهذا فإنّهم يعتذرون عن عدم إرسال المبلغ المقرر في هذه السنة، ولما سمعت بذلك تألمت بشدّة ونمت وأنا في هذه الحال من الهمّ والغمّ،

فرأيت في عالم الرؤيا رسول الله ﷺ وهو يدعوني ويقول: يا فلان، قم وافتح تلك الخزانة (وأشار إلى خزانة في الحائط) وخذ منها مائة تومان موجودة هناك. فانتبهت من النوم، ولم تمض فترة حتى طرقت الباب بعد الظهر، فرأيت رسول الميرزا الشيرازي (قدس سره) المرجع الكبير للشيعة وقال لي: إنّ الميرزا يدعوك: فتعجبت من هذه الدعوة في هذا الوقت بالذات، فذهبت إليه فرأيته جالساً في حجرته (وقد نسيت الرؤيا تماماً) وفجأة قال لي المرحوم الميرزا الشيرازي: يا ميرزا عبد النّبي افتح باب تلك الخزانة وخذ منها مائة تومان موجودة هناك، فتذكرت الرؤيا فوراً وتعجبت كثيراً وأردت أن أقول شيئاً، ولكني شعرت بأنّه لا يرغب في ذلك، فقمت إلى الخزانة فأخذت المبلغ المذكور وخرجت.

٢ - وينقل صديق - وهو محل اعتماد - أنّ المرحوم التبريزي صاحب كتاب «ريحانة الأديب» كان له ولد يشكو من يده اليمنى (ربّما كان مبتلى بالروماتيزم) بشكل يصعب عليه أن يمسك القلم بيده، فتقرر أن يسافر إلى ألمانيا للمعالجة ويقول: حين كنت في السفينة رأيت في المنام أن أُمي توفيت ففتحت التقويم السنوي وسجلت الحادثة - مقيدةً بالساعة واليوم - ولم تمض فترة حتى رجعت إلى بلدي فاستقبلني جماعة من الأقارب والأصدقاء فوجدتهم لبسوا ثياب الحداد فتعجبت، وكنت قد نسيت الرؤيا، وأخيراً أُخبرت - بالتدريج - أن أمي توفيت، فتذكرت مباشرةً رؤياي في السفينة فأخرجت التقويم وسألت عن اليوم الذي توفيت فيه فكان مطابقاً لذلك اليوم تماماً.

٣ - يقول سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» في هامشه على الآيات المتعلقة بسورة يوسف: إذا كنت أنكر جميع ما قلتم في الرؤيا فلن أستطيع أن أنكر ما حدث لي يوم كنت في أمريكا أبداً... رأيت هناك في المنام أنّ ابن أختي قد نزفت عيناه دماً ولا يستطيع أن يرى (كان ابن أُختي وسائر أعضاء أُسرتي بمصر) فاستوحشت ممّا رأيت وكتبت رسالة إلى أُسرتي بمصر فوراً، وسألتهم عن حال ابن أُختي بوجه خاص، فلم تمض فترة حتى جاءني الجواب الذي يخبرني بأنّ ابن أُختي مبتلى بنزيف داخلي في عينيه ولا يستطيع أن يرى، وهو مشغول بالمعالجة.

وممّا يستلفت النظر أنّ النزف الداخلي كان بشكل لا يمكن رؤيته إلاّ بالأجهزة الطبيّة، وقد حُرم ابن أُختي من النظر والرؤية على كل حال، غير أنني رأيت في منامي حتى هذه المسألة الدقيقة.

إن الأحلام التي تكشف الحجب عن الأسرار والحقائق المرتبطة بالمستقبل، أو الحقائق الخفيّة المتعلقة بالحاضر، هي أكثر من أن تُحصر، وليس بمقدور بعض الأفراد الذي لا يعتقدون بهذه الحقائق إنكارها، أو حملها على المصادفة والاتفاق!

ومن خلال التحقيق مع الأصدقاء القريبين يمكن الحصول على شواهد كثيرة من هذه الأحلام، وهذه الأحلام لا يمكن تعبيرها عن طريق التّفسير المادي أبداً، وإنما الطريق الوحيد هو تعبير فلاسفة الروح والاعتقاد باستقلال الروح، ومن مجموع هذه الأحلام يمكن أن نستفيد منها كشاهد على استقلال الروح.

٢ - تعبير يعقوب عليه السلام لرؤية يوسف عليه السلام

في الآيات - محل البحث - نلاحظ أن يعقوب بالإضافة إلى تحذيره لولده يوسف من أن يقصّ رؤياه على إخوته فإنّه عبر عن رؤياه بصورة إجماليّة وقال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾.

ودلالة رؤيا يوسف على أنّه سيبلغ في المستقبل مقامات كبيرة معنوية ومادية يمكن دركها تماماً... ولكن يبرز هذا السؤال، وهو: كيف عرف يعقوب أنّ ابنه يوسف سيعلم تأويل الأحاديث في المستقبل؟ أهو خبر أخبره يعقوب ليوسف مصادفةً ولا علاقة له بالرؤيا، أم أنّه اكتشف ذلك من رؤيا يوسف؟

الظاهر أنّ يعقوب فهم ذلك من رؤيا يوسف، ويمكن أن يكون ذلك عن أحد طريقين:

الأوّل: إنّ يوسف في حداثة سنّه وقد نقل لأبيه - خاصّة - بعيداً عن أعين إخوته (لأنّ أباه أوصاه أن لا يقصّها على إخوته) وهذا الأمر يدلّ على أن يوسف نفسه كان له إحساس خاص برؤياه بحيث لم يقصصها بمحضر الجميع....

ولأنّ مثل هذا الإحساس في صبيّ - كيوسف عليه السلام - يدلّ على أنّ له استعداداً روحيّاً لتعبير الرؤيا، وأنّ أباه قد أحسّ بهذا الاستعداد... وبالتربية الصحيحة سيكون له في المستقبل حظٌّ زاهر في هذا المجال.

الثّاني: إنّ ارتباط الأنبياء، بعالم الغيب له عدّة طرق، فمرّة عن طريق «الإلهامات القلبية» وتارة عن طريق «ملك الوحي» وأُخرى عن طريق «الرؤيا».

وبالرغم من أنّ يوسف لم يكن نبيّاً في ذلك الوقت، لكن رؤيته لهذه الرؤيا ذات المعنى الكبير يدلّ على أن سيكون له ارتباط بعالم الغيب في المستقبل، ولا بدّ أن يعرف تعبير الرؤيا - طبعاً - حتى يكون له مثل هذا الارتباط.

٣ - حفظ الأسرار

من الدروس التي نستلهمها من هذا القسم من الآيات أن نحفظ الأسرار، وينبغي أن يُطبق هذا الدرس أحياناً حتى أمام الإخوة، فدائماً تقع في حياة الإنسان أسرار لو أُذيعت وفشت بات مستقبله أو مستقبل مجتمعه معرضاً للخطر، والمواظبة على حفظ هذه الأسرار دليل على سعة الروح وتملك الإرادة، فكثير من ضعاف الشخصيّة أوقعوا أنفسهم أو مجتمعهم في الخطر بسبب إفشاء الأسرار، وكم يرى الإنسان من مساءة وضرر لأنّه ترك حفظ الأسرار....

وفي هذا المجال ورد حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إذ قال: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال: سُنّة من ربّه، وسُنّة من نبيّه، وسُنّة من وليّه. فأمّا السُّنة من ربّه فكتمان السرّ، وأمّا السُّنة من نبيّه فمداراة الناس، وأمّا السُّنة من وليّه فالصبر على البأساء والضراء»(١).

وورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «سرّك من دمك فلا يجرينّ من غير أوداجك»(٢).

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

المؤامرة

من هنا تبدأ قصّة مواجهة إخوة يوسف واشتباكهم معه:

---

(١) بحار الأنوار، ط جديدة، ج ٧٨، ص ٣٣٤. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٣٤؛ تحف العقول، ص٤٤٢.

(٢) سفينة البحار، مادة: (كتم).

ففي الآية الأُولى - من الآيات محل البحث - إشارة إلى الدروس التربوية الكثيرة التي توحيها القصّة، إذ تقول الآية: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾.

وفي أنّ المراد بالسائلين، من هم؟ يقول بعض المفسّرين كالقرطبي في التّفسير الجامع وغيره: إنّ هؤلاء السائلين هم جماعة من يهود المدينة، جاؤوا يسألون النّبي أسئلة في هذا المجال، ولكن ظاهر الآية مطلق، فلا مرجّح لأنّ يكون المراد بالسائلين هم اليهود دون غيرهم.

وأيّ درس أعظم من أن يجتمع عدّة أفراد لإهلاك فرد ضعيف ووحيد - في الظاهر - وبخطط أعدّها الحسدُ، ويبذلون أقصى جهودهم لهذا الأمر، ولكن نفس هذا العمل - ودون شعور وإرادة منهم - بات سبباً في تربّعه على سرير الملك وصيرورته آمراً على البلد الكبير «مصر» ثمّ يأتي إخوته في النهاية ليطأطئوا برؤوسهم إعظاماً له، وهذا يدلّ على أنّ الله إذا أراد أمراً فهو قادر على أن يجريه حتى على أيدي من يخالفون ذلك الأمر، ليتجلّى أن الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيداً في هذا العالم، فلو سعى جميع أفراد هذا العالَم إلى إزهاق روحه والله لا يريد ذلك، فإنهم لا يستطيعون أن يسلبوا منه شعرة واحدة.

كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، واثنان منهم: يوسف وبنيامين وهما من أُم واحدة اسمها راحيل[١]، وكان يعقوب يولي هذين الولدين محبّة خاصّة، لا سيما يوسف.

لأنهما أوّلاً: أصغر أولاده، وبالطبع فهما يحتاجان إلى العناية والرعاية والمحبّة.

وثانياً: لأنّ أُمّهما ارتحلت من الدنيا[٢] - طبقاً لبعض الرّوايات - وبعد هذا كلّه كانت بوادر النبوغ والذكاء الحادّ ترتسم على يوسف، وهذه الأُمور أدّت إلى أن يولي يعقوب ابنه هذا عناية أكثر.

إلاّ أنّ الإخوة الحساد - دون أن يلتفتوا إلى هذه الجهات - تألّموا من حبّ أبيهم ليوسف وأخيه، وخاصّة بعد اختلافهم في الأم والمنافسة الطبيعية المترتبة على هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم وتدارسوا الأمر وصمموا على المؤامرة ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[٣].

وحكموا على أبيهم من جانب واحد بقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

(١-٢) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢١٩؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) «العصبة» معناها الجماعة المتفقون على الأمر، وهذه الكلمة معناها الجمع لامفرد لها من جنسها.

إنّ نار الحسد والحقد لم تدعهم ليفكروا في جميع جوانب الأمر ليكتشفوا دلائل علاقة الحبّ التي تربط يعقوب بولديه يوسف وبنيامين، لأنّ المنافع الخاصّة لكل فرد تجعل بينه وبين عقله حجاباً فيقضي من جانب واحد لتكون النتيجة «الضلال عن جادة الحق والعدل» وبالطبع فإنّ اتهامهم لأبيهم بالضلالة، لم يكن المقصود منها الضلالة الدينية، لأنّ الآيات الآتية تكشف عن اعتقادهم بنبوّة أبيهم، وإنّما استنكروا طريقة معاشرته فحسب.

ثمّ أدّى بهم الحسد إلى أن يخططوا لهذا الأمر، فاجتمعوا وقدموا مقترحين وقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا -أرسلوه إلى منطقة بعيدة- يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

ومن الحق أن تشعروا بالذنب والخجل في وجدانكم لأنّكم تقدمون على هذه الجناية في حق أخيكم الصغير، ولكن يمكن أن تتوبوا وتغسلوا الذنب ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

وهناك احتمال آخر لتفسير هذه الآية هو أنّكم إذا أبعدتم أخاكم عن عيني أبيكم يصلح ما بينكم وبين أبيكم وتذهب أتعابكم ويزول أذاكم من هذا الموضوع، ولكن التّفسير الأوّل أقرب للنظر!

وعلى كلِّ حال فإنّ هذه الجملة تدلّ على إحساسهم بالذنب من هذا العمل، وكانوا يخافون الله في أعماق قلوبهم، ولذلك قالوا: نتوب ونكون من بعده قوماً صالحين.

ولكن المسألة المهمّة هنا هي أنّ الحديث عن التوبة قبل الجريمة - في الواقع - هو لأجل خداع «الوجدان» وإغرائه وفتح الباب للدخول إلى الذنب، فلا يعدّ دليلاً على الندم أبداً.

وبتعبير آخر: إنّ التوبة الواقعية هي التي توجِد بعد الذنب حالة من الندم والخجل للإنسان، وأمّا الكلام في التوبة قبل الذنب فليس توبة.

وتوضيح ذلك أنّه كثيراً ما يقع أن الإنسان حين يواجه الضمير و«الوجدان» عند الإقدام على الذنب، أو حين يكون الاعتقاد الديني سدّاً وحاجزاً أمامه يمنعه عن الذنب وهو مصمم عليه، فمن أجل أن يجتاز حاجز الوجدان أو الشرع بيسر، يقوم الشخص بخداع نفسه وضميره بأنني سوف لا أقف مكتوف اليدين بعد الذنب، بل سأتوب وأمضي إلى بيت الله وأؤدي الأعمال الصالحة، وسأغسل جميع آثار الذنوب.

أي إنّه في الوقت الذي يرسم الخطة الشيطانية للإقدام على الذنب، يرسم خطة شيطانية أُخرى لمخادعة الضمير والوجدان... وللاعتداء على عقيدته! فإلى أيّ درجة

تبلغ هذه الخطة من السوء بحيث تمكّن الإنسان من تحقيق الجناية والذنب وكسر الحاجز الديني الذي يقف أمامه!!

إنّ إخوة يوسف دخلوا من هذا الطريق أيضاً.

المسألة الدقيقة الأخرى في هذه الآية: أنّهم قالوا: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ ولم يقولوا: يخلُ لكم قلب أبيكم، وذلك لأنّهم لم يطمئنّوا إلى أنّ أباهم ينسى يوسف بهذه السرعة فيكفي أن يتوجه إليهم أبوهم، ولو ظاهراً!

وهناك احتمال آخر لهذا التعبير، وهو أنّ الوجه والعينين نافذتان إلى القلب، فمتى ما خلا الوجه لهم فإنّ القلب سيخلو ويتوجه إليهم بالتدريج.

ولكن كان من بين الإخوة من هو أكثر ذكاءً وأرق عاطفة ووجداناً، لأنّه لم يرض بقتل يوسف أو إرساله إلى البقاع البعيدة التي يُخشى عليه من الهلاك فيها... فاقترح عليهم اقتراحاً ثالثاً، وهو أن يلقى في البئر (بشكل لا يصيبه مكروه) لتمرّ قافلة فتأخذه معها، ويغيب عن وجه أبيه ووجوههم، حيث تقول الآية في هذا الصدد ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ...﴾.

ملاحظات:

١ - ﴿الْجُبِّ﴾ معناه «البئر» التي لم تنضّد بالطابوق والصخور، ولعلّ أغلب آبار الصحراء على هذه الشاكلة.

و«الغيابة» المخبأ من البئر الغائب عن النظر ولعلّ هذا التعبير يشير إلى أن الآبار الصحراوية يصنع في قعرها مكان قريب من الماء، بحيث لو أراد أحد النزول، إلى البئر ليستفيد من الماء، فإنّه يستطيع أن يجلس هناك ويملأ دلوه من ذلك الماء دون أن ينزل هو في الماء، وبالطبع فإنّ من ينظر البئر من فوقها لا يرى ذلك المكان ولذلك سمي ﴿غَيَابَتِ﴾[1].

٢ - لا شك أنّ اقتراح هذا القائل ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ لم يكن الهدف منه موت يوسف في البئر، بل بقاءه سالماً لتنقذه القافلة عند مرورها على البئر للاستسقاء.

٣ - يستفاد من جملة ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أنّ القائل لم يكن يرغب - أساساً - حتى بهذا الاقتراح ولعله كان لا يوافقهم على إيذاء يوسف أصلاً.

---

(١) مقتبس من تفسير المنار ذيل الآية مورد البحث.

٤ - هناك اختلاف بين المفسّرين في اسم هذا الأخ القائل ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فقال بعضهم: اسمه «روبين» وكان أذكاهم، وقال بعضهم: اسمه «يهودا» وقال آخرون: اسمه «لاوى»(١).

٥ - أثر الحسد المدمّر في حياة الناس: الدرس الآخر الذي نتعلّمه من هذه القصّة، وهو أنّ الحسد يمكن أن يدفع الإنسان حتى إلى قتل أخيه، أو إيجاد المشاكل له، فنار الحسد إذا لم يمكن إخمادها فإنّها ستحرق صاحبها بالإضافة إلى إحراق الآخرين بها.

وأساساً إذا حرم الإنسان من نعمة أنعمها الله على عبد سواه، فإنّه سيكون امام أربع حالات مُختلفة:

الأولى: أن يتمنّى أن ينعم الله عليه مثل ما أنعم على غيره، وهذه الحالة تدعى «الغبطة» وهي جديرة بالثناء والمدح، وليس لها أثر سيّىء، لأنّها تدعو صاحبها للسعي والجدّ والمثابرة حتى ينال مثل ما نال المغبوط.

الثّانية: أن يتمنّى أن تُسلب هذه النعمة عن الآخرين، ويسعى من أجل تحقيق هذا التمني، وهذه هي الحالة المذمومة الموسومة «بالحسد» التي تدعو صاحبها إلى التخريب وسلب النعمة عن الآخرين، دون أن تدعوه لأن يطلب من الله مثل ما أعطى غيره من النعم.

الثّالثة: أن يتمنّى أن تكون هذه النعمة له فقط ويُحرم الآخرون منها وهذه الحالة تُسمّى «البُخل» والأنانية التي تدعو الإنسان أن يطلب شيئاً لنفسه، ويلتذّ من حرمان الآخرين.

الرّابعة: أن يتمنّى ويحب تنعّم الآخرين بهذه النعمة وإن كان محروماً منها، وهو مستعدّ أن يقدّم ما عنده من أجلهم... وبغض النظر عن منافعه الشخصية، وهذه الحالة الرفيعة هي ما تسمّى بـ «الإيثار» التي هي من أهم الصفات الإنسانية الحميدة.

وعلى كل حال فإنّ الحسد لا يقتصر على قتل إخوة يوسف لأخيهم فحسب، بل قد يوصل الإنسان إلى قتل نفسه.

ولهذا نجد في الأحاديث الإسلامية تعابير مؤثرة تدعو إلى مكافحة هذه الرّذيلة، وعلى سبيل المثال نورد منها ما يلي:

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٢٠.

١ - في حديث عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ الله نهى موسى عن الحسد وقال له: إنّ الحاسد ساخط لنعمي صادّ لقسمي الذي قسمتُ بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّي»(١).

٢ - ونقرأ حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يقول: «آفة الدين الحسد والعجب والمفاخرة» كما نقرأ له حديثاً يقول: «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط»(٢).

٦ - كما نستنتج درساً آخر من هذا المقطع في القصّة، وهو أنّ الوالدين ينبغي أن يلاحظا أبناءها الآخرين عند إبراز عنايتهما ومحبّتهما لواحد منهم، فبالرغم من أن يعقوب لم يرتكب خطأ - دون أيّ شك - بالنسبة لإبراز علاقته لولديه يوسف وبنيامين، وإنّما كان كل ذلك وفق حسابات خاصّة، ولكن هذه الحادثة تكشف لنا أنّه ينبغي أن يكون الإنسان أكثر إحساساً - في هذه المسألة - من القدر اللازم. لأنّ إبراز العلاقة لبعض الأبناء دون بعض توجد عقدةً في نفوس الآخرين، إلى درجة أنّها تجرّهم إلى كل عمل مخرّب، حيث يجدون شخصياتهم منهزمة ولابدّ من تحطيم شخصية أخيهم للتعويض عن هذه الهزيمة، فيكون الإقدام على هذا العمل دون لحاظ الرحمية ووشائج القربى.

وإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بعمل معاكس، فإنّه يظل يلوم نفسه ويحرضها حتى يبتلى بالمرض النفسي.

وما زلت أذكر أنّه كان لي صديق قد مرض ولده الصغير، فأوصى ولده الكبير برعايته، وأخذ الأبُ يولي ولده الصغير محبةً وشفقة فائضة «لأنّه مريض».

فلم تمض فترة حتى مرض هذا الابن الكبير بمرض نفسي مجهول، قلت لذلك الصديق العزيز: ألا تفكّر أنّ أساس المرض هو عدم العدالة بين ولديك... لكنّه لم يصدّق، وأخيراً راجع الطبيب النّفساني المختصّ فقال: إن ابنك ليس مريضاً بمرض خاصّ، وإنّما أساس مرضه هو اهتمامك بأخيه وعدم اهتمامك به، وهو يحس بأنّ شخصيته متعطشة للحنان والحبّ، في حين أنّ أخاه لم يحرم منهما.

وفي هذا الصدد نقرأ في الرّوايات الإسلامية أن الإمام الباقر عليه السلام قال يوماً: «والله إنّي لأصانع بعض ولدي، وأجلسه على فخذي، وأنكز له المخّ، وأكسر له الكسر، وإن

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٧؛ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٦٦، ح ٢٠٧٥٩.
(٢) المصدر السابق.

الحقّ لغيره من ولدي، ولكن مخافة عليه منه ومن غيره، لا يصنعوا به ما فعل بيوسف إخوتُه، وما أنزل الله سورة إلاّ أمثالا لكي لا يحسد بعضنا بعضاً كما حسد يوسفَ إخوتُه، وبغوا عليه، فجعلها رحمةً على من تولاّنا، ودان بحبّنا وحجّة على أعدائنا ومن نصب لنا الحرب والعداوة»[١].

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

المؤامرة المشؤومة!

بعد أن صوّب إخوة يوسف اقتراحَ أخيهم في عدم قتل يوسف، وإلقائه في الجبّ، أخذوا يفكرون في كيفية فصل يوسف عن أبيه، لذلك أقدموا على تخطيط آخر، فجاؤوا إلى أبيهم بلسان ليّن يدعو إلى الترحم، وفي شكل يتظاهرون به أنهم مخلصون له وحدثوا أباهم و﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾.

تعال يا أبانا وارفع اليد عن اتهامنا، فإنّه أخونا وما يزال صبياً وبحاجة إلى اللهو واللعب، وليس من الصحيح حبسه عندك في البيت، فخلّ سبيله ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[٢].

وإذا كنت تخشى عليه من سوء فنحن نواظب على حمايته ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وبهذا الأسلوب خططوا لفصل أخيهم عن أبيه بمهارة، ولعلّهم قالوا هذا الكلام أمام يوسف ليطلب من أبيه إرساله معهم.

وهذه الخطة تركت الأب - من جانب - أمام طريق مسدود، فإذا لم يرسل يوسف مع

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٧٨، وج ٧١، ص ٧٨؛ وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٢٤٦، ح ٢٤٥١٧.

(٢) «يرتع» من مادة «رتع» على وزن «قطع» ومعناه في الأصل رعي الأغنام والأنعام بصورة عامّة للنباتات وشبعها منها، ولكن قد يطلق هذا اللفظ (رتع، يرتع) ويراد به تنزّه الإنسان وكثرة الأكل والشرب أيضاً.

إخوته فهو تأكيد على اتهامه إيّاهم، وحرضت - من جانب آخر - يوسف على أن يطلب من أبيه الذهاب معهم ليتنزّه كما يتنزه إخوته، ويستفيد من هذه الفرصة لاستنشاق الهواء الطلق خارج المدينة.

أجل، هكذا تكون مؤامرات الذين ينتهزون الفرصة، وغفلة الطرف الآخر، فيستفيدون من جميع الوسائل العاطفية والنفسيّة، ولكن المؤمنين ينبغي ألاّ ينخدعوا بحكم الحديث المأثور «المؤمن كيّس»(١) أي فطن ذكي فلا يركنُوا للمظهر المنمّق حتى لو كان ذلك من أخيهم.

ولكن يعقوب - دون أن يتهم إخوة يوسف بسوء القصد - أظهر تردّده في إرسال يوسف لأمرين: الأوّل: أنّه سيبتعد عنه فيحزن عليه، والثاني: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

وهذه المسألة طبيعية، حيث قد يبتعد إخوة يوسف عنه فيغفلون عن أمره، فيأتي إليه الذئب فيأكله.

وبديهي أنّ الإخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الأوّل الذي أشار إليه أبوهم يعقوب، لأنّ الحزن والاغتمام على فراق يوسف لم يكن شيئاً عاديّاً حتى يعوّض عنه، وربّما كان هذا التعبير مثيراً لنار الحسَد في إخوة يوسف أكثر.

ومن جهة أُخرى فإن هذا الموضوع الذي أشار إليه يعقوب، وهو حزنه على ابتعاد يوسف عنه يمكن ردّه، وهو لا يحتاج إلى بيان، لأنّ الولد لابدّ له من الابتعاد عن أبيه من أجل أن ينمو ويرشد، وإذا أريد له أن يكون كنبات «النّورس» بحيث يبقى تحت ظل شجرة «وجود الأب» فإنّه سوف يبقى عالة عليه فلابدّ من هذا الابتعاد والانفصال حتى يتكامل ولده، فاليوم تنزّه وغداً اجتهاد ومثابرة لتحصيل العلم، وبعد غد عمل وسعي للحياة، وأخيراً فإنّ الانفصال لابدّ منه.

لذلك فإنّهم لم يجيبوه عن الشقّ الأوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثّاني لأنّه كان مهماً وأساسياً بالنسبة لهم إذ ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

أي: أترانا موتى فلا ندافع عن أخينا، بل نتفرج على الذئب كيف يأكله! ثمّ إضافة

(١) بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٣٠٧، ح ٤٠؛ غرر الحكم، ص ٨٩، ١٥١٢.

إلى علاقة الأخوّة التي تدفعنا للحفاظ على أخينا، ما عسى أن نقول للناس عنّا؟ هل ننتظر ليقال عنّا: إنّ جماعة أقوياء وفتية أشداء جلسوا وتفرجوا على الذئب وهو يفترس أخاهم! فهل نستطيع العيش بعد هذا مع الناس؟!

لقد أجابوا أباهم بما تضمن قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ ومشغولون بلعبكم، كيف يكون ذلك؟ والمسألة ليست بهذه البساطة... إنّها الخسارة وذهاب ماء الوجه والخزي... إذ كيف يمكن لواحد منّا أن يشغله اللعب فيغفل عن أخيه يوسف، لأنّه في مثل هذه الحال لا تبقى لنا قيمة ولا نصلح لأي عمل.

ويبرز هنا سؤال مهم... وهو: لماذا أشار يعقوب إلى خطر الذئب من دون الأخطار الأخرى؟!

قال البعض: إنّ صحراء كنعان - كانت - «صحراء مذئبة» ومن هنا كان الخوف من الذئب أكثر من غيره.

وقال البعض الآخر: كان ذلك للرؤيا التي رآها يعقوب من قبل وهي أن ذئاباً هجمت على ولده يوسف.

وهناك احتمال آخر هو أن يعقوب أجابهم بلسان الكناية، والمقصود من الذئاب في كلامه هم الأناس المتصفون بصفة الذئب أي إخوة يوسف.

وعلى كل حال فقد استطاع إخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، وبتحريك أحاسيس يوسف النقيّة وترغيبه إلى التنزه خارج المدينة، وربّما كان لأوّل مرّة يتاح ليوسف أن يحصل على مثل هذه الفرصة... استطاعوا أن يأخذوا يوسف معهم وأن يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

بحوث

وينبغي هنا الالتفات إلى عدة دروس حيّة تستلهم من هذه القصّة:

١ - مؤامرات الأعداء في ثياب الأصدقاء

من الطبيعي أنّ الأعداء لا يدخلون الميادين - عند الهجوم - بصراحة ودون استتار أبداً.

بل إنّهم من أجل تفويت الفرصة على الطرف الآخر واستغفاله وسلبه كل وسائل الدفاع يسعون إلى إخفاء عملهم تحت قناع جذّاب، إنّ إخوة يوسف أخفوا خطة هلاكه

أو إبعاده تحت غطاء أسمى الأحاسيس والعواطف الأخوية، هذه الأحاسيس التي كانت تحرّك يوسف من جهة لأن يمضي معهم، وكانت عند أبيهم موضع قبول من جهة أُخرى أيضاً.

وهذه هي الطريقة التي نواجهها في حياتنا اليوميّة على المدى الواسع، وما تلقيناه من ضربات قاسية من أعدائنا المخاتلين بثياب الأبرار في هذا المضمار غير قليل، ولها مظاهر متعددة، فمرةً بمظهر المساعدات الاقتصادية، وأُخرى تحت ستار التبادل الثقافي، وثالثة في ثوب الدفاع عن حقوق البشر، ورابعة بأسلوب المعاهدات الدفاعية... كل تلك الأمور كانت نتيجة أسوأ القرارات الاستعمارية المذلّة للأُممِ المستضعفة والتي من ضمنها أُمتنا الإسلاميّة.

ولكن ومع هذه التجارب التاريخيّة ينبغي أن نكون حذرين للغاية وأن نعرف أعداءنا جيداً، فلا نحسن الظن بهذه الذئاب البشرية التي تريد أن تمتص دماءنا بما تظهره من عواطف وأحاسيس متلبسة بثياب المخلصين المتفانين فما زلنا نتذكر ما فعلته الدول المتسلطة على العالم حيث أرسلت تحت ستار المساعدات الطبيّة إلى بعض الدول الإفريقية المتضررة بالحرب أسلحة وعتاد أرسلت إلى عملائها، كما بعثت أخطر جواسيسها تحت ثياب الدبلوماسية والسفارات والممثلين لها إلى مختلف مناطق العالم.

وتحت ستار الخبراء العسكريين وتدريب الدّول المستضعفة على الأسلحة الحديثة والمتطورة كانوا يأخذون مع عودتهم جميع الاسرار العسكرية لتلك الدولة.

وبإرسال خبراء فنيين!! إلى هذه الدول يربطون عجلة اقتصادها بالمناهج التي تكرس التبعية: تُرى أليست كل هذه التجارب التاريخيّة كافية لئلاّ ننخدع بهذه الزخارف البرّاقة الكاذبة وأن نعرف وجوه هؤلاء الذئاب المتظاهرين بالإنسانيّة؟!

٢ - حاجة الإنسان الفطرية والطبيعية إلى التنزّه والارتياح

من الطريف أن يعقوب عليه السلام لم يردّ على كلام إخوة يوسف واستدلالهم على أنّه بحاجة إلى التنزه والارتياح، بل وافق على ذلك عمليّاً، وهذا دليل كاف على أن أيّ عقل سليم لا يستطيع أن يُنكر هذه الحاجة الفطرية والطبيعيّة... فالإنسان ليس آلة تستعمل في أي وقت كان وكيف كان، بل له روح ونفس ينالهما التعَبُ والنَّصُب كما ينالان الجسم. فكما أن الجسم يحتاج إلى الراحة والنوم، كذلك الرّوح والنَّفس بحاجة إلى التنزّه والارتياح السليم.

التجربة - أيضاً - تدل على أن الإنسان كلّما واصل عمله بشكل رتيب، فإنّ مردود هذا العمل سيقلّ تدريجياً نتيجة ضعف النشاط، وعلى العكس من ذلك فإنّ الاستراحة لعدة ساعات تبعث في الجسم نشاطاً جديداً بحيث تزداد كمية العمل وكيفيته معاً، ولذلك فإنّ الساعات التي تصرف في الراحة والتنزه تكون عوناً على العمل أيضاً.

وفي الرّوايات الإسلامية نجد هذه الواقعية بأسلوب طريف جاء بمثابة «القانون» حيث يقول الإمام علي عليه السلام: «للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يرمّ معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذّتها فيما يحلّ ويجمل»[1].

وممّا يستجلب النظر أنّ في بعض الرّوايات الإسلامية أضيفت هذه الجملة إلى النص المتقدم «وذلك عون على سائر الساعات».

وعلى حدّ تعبير البعض فإنّ التنزّه والارتياح بمثابة تدهين وتنظيف أجهزة السيّارة، فلو توقفت هذه السيارة ساعة عن العمل لمراقبة أجهزتها وتنظيفها، فإنها ستغدو أكثر قوّةً ونشاطاً يعوّض عن زمن توقفها أضعاف المرات، كما أنّه سيزيد من عمر السيارة أيضاً.

لكن المهم أن يكون هذا التنزّه صحيحاً، وإلاّ فإنّه لا يحل المشكلة، بل سيزيدها، فإنّ كثيراً من حالات التنزّه هذه تدمر الإنسان وتسلب منه نشاطه وقدرته على العمل لفترة ما، أو على الأقل تخفف من نشاط عمله.

وهناك نقطة تدعو للالتفات أيضاً، وهي أنّ الإسلام اهتم بمسألة الترويض والاستراحة النفسيّة بحيث أجاز المسابقات في هذا المضمار... ويحدثنا التاريخ أنّ قسماً من هذه المسابقات جرت بمرأى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأحياناً كانت تناط إليه مهمة التحكيم والقضاء في هذه المسابقة، وربّما أعطى ناقته - الخاصّة - لبعض الصحابة للتسابق عليها.

ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ النّبي أجرى الإبل مقبلة من تبوك فسبقت العصباء وعليها أسامة، فجعل الناس يقولون: سبق رسول الله ورسول الله يقول: سبق أسامة»[2] (إشارة إلى أنّ المهم في السبق هو الراكب لا المركب، حتى وإن كان المركب السابق عند من لا يجيدون السبق).

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار: رقم الكلمة ٣٩٠.
(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٥٩٦؛ وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٢٥٥، ح ٢٤٥٣٨.

النقطة الأُخرى هي أنّه كما أن إخوة يوسف استغلّوا علاقة الإنسان - ولا سيما الشاب - بالتنزّه واللعب من أجل الوصول إلى هدفهم الغادر. . . ففي حياتنا المعاصرة - أيضاً - نجد أعداء الحق والعدالة يستغلّون مسألة الرياضة واللعب في سبيل تلويث أفكار الشباب، فينبغي أن نحذر المستكبرين «الذئاب» الذين يخططون لإضلال الشباب وحرفهم عن رسالتهم تحت اسم الرياضة والمسابقات المحلّية والعالمية.

ولا ننسى ما كان يجري في عصر الطاغوت (الشاه)، فإنّهم وبهدف تنفيذ بعض المؤامرات ونهب ثروات البلاد وتحويلها إلى الأجانب لقاء ثمن بخس، كانوا يرتّبون سلسلة من المسابقات الرياضية الطويلة العريضة لإلهاء الناس لئلاّ يطلعوا على المسائل السياسيّة.

٣ - الولد في ظلّ الوالد

إذا كانت محبّة الأب الشديدة أو الأُم بالنسبة للولد تستوجب أن يبقى الولد إلى جانبهما، إلاّ أنّ من الواضح أنّ فلسفة هذه المحبّة من وجهة نظر قانون الخلقة هي المحافظة التامة على الولد عند الحاجة إليها، وعلى هذا الأساس ينبغي أن تقل هذه المحافظة كلّما تقدّمت به السن، ويُمنح الولد الإجازة ليخطو في حياته نحو الاستقلال، والاّ فسيكون كمثل غرسة النّورس تحت ظل الشجرة القوية دائماً لا تنمو كما يلزم.

وربّما وافق يعقوب عليه السلام - لهذا السبب - على اقتراح أبنائه رغم علاقته الشديدة بيوسف، وأرسله معهم إلى خارج المدينة، ومع أنّ هذا الأمر كان صعباً على يعقوب، ولكن مصلحة يوسف وحاجته إلى الرُّشد والنُّموّ كانت تستوجب أن يُجيزه أبوه ليبتعد عنه ساعات وأيّاماً!

وهذه مسألة تربوية مهمّة غَفل عَنها كثير من الآباء والأُمهات، حيث يربّون أولادهم تربية بحيث لا يستطيعون أن يعيشوا خارج «خيمة الأبوين» ومحافظتهما عليهم، وبالتالي يسقطون أمام تيارات الحوادث وضغوطها، كما أنّ هناك رجالاً عظماء فقدوا والديهم في دور الطفولة، ولكنّهم صنعوا أنفسهم بأيديهم وواجهوا المشاكل وتجاوزوها.

فالمهم أن يلتفت الوالدان إلى هذه المسألة التربوية، وإلاّ فستكون محبتهما «الكاذبة» مانعاً من استقلال أولادهم.

من الطريف أن هذه المسألة موجودة في بعض الحيوانات بشكل غريزي، فنحن نرى

أفراخ الدجاج «الفروج» - مثلاً - يبدأ حياته تحت جناحي أمه، وتحافظ الدجاجة الأُم عليها كما تحافظ على روحها «العزيزة».

ولكن بعد فترة حيث تكبر هذه الأفراخ فإنّ الأُم لا تترك المحافظة على هذه الأفراخ فحسب، بل تنقرُ أيّاً منها يصل إليها، ومعنى هذا أنّها تريد أن تعوِّدهم على أن يتعلموا طريق الحياة المستقلة! فإلى متى تعيشون غير مستقلين؟!

ولكن هذا الموضوع لا ينافي تقوية الروابط العائلية والمحافظة على المودة والمحبّة، بل هي محبّة عميقة وعلاقة محسوبة ونافعة للطرفين.

٤ - لا قصاص ولا اتهام قبل الجناية

نشاهد في هذا الفصل من القصّة أنّ يعقوب بالرغم من علمه بما سيقدم عليه إخوة يوسف... وتحذيره ولَدَهُ يوسف ألاّ يقصص رؤياه على إخوته، وأن يكتم الأمر، إلاّ أنّه لم يكن مستعداً لأن يتّهمهم بقصد الإساءة إلى يوسف، بل كان عذره إليهم أنّه يحزنه فراقه، ويخاف أن يأكله الذئب في الصحراء.

والأخلاق والمعايير الإنسانية والأسس القضائية العادلة توجب ذلك أيضاً، فحيث لم تتوفر لدينا علامة ظاهرة على مخالفة شخص ما فلا ينبغي اتّهامه، فالأصل البراءة والصحّة والطهارة إلاّ أن يثبت خلافه.

٥ - تلقين العدوّ

المسألة الأُخرى أننا نقرأ - في ذيل الآيات المتقدمة - رواية عن النّبي ﷺ أنّه قال: «لا تلقّنوا الكذّاب فيكذب فإنّ بني يعقوب عليه السلام لم يعلموا أنّ الذئب يأكل الإنسان حتى لقّنهم أبوهم»(١). إشارة إلى أنّه قد يحدث أحياناً أن لا يلتفت الطرف الآخر إلى الحيلة وإلى طريق الاعتذار وانتخاب طريق الانحراف، فعليكم أن تحذروا من ذكر الاحتمالات المختلفة التي تبيّن له طرق الانحراف.

ومثل هذا يشبه تماماً ما لو قال الإنسان لطفله: لا ترمِ الكرة باتّجاه المصباح، ولم يكن الطفل يعلم أن الكرة يمكن أن تُرمى نحو المصباح، فيلتفت إلى أنّ مثل هذا العمل ممكن، وتتحرك فيه نوازع الفحص... ماذا سيكون لو رميت الكرة باتجاه المصباح؟ ثمّ يبدأ «لعبته» لتنتهي بتكسّر المصباح!

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤١٥؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٢١.

وليس هذا موضوعاً هيناً ولا خاصاً بالأطفال، فقد يتفق أحياناً أنّ الأوامر والنواهي الخاطئة، تسبب أن يتعلم الناس أشياء لم يعرفوها من قبل، فتوسوس لهم أنفسهم أن يقدموا عليها، فينبغي في مثل هذه الموارد - قدر المستطاع - أن تثار المسائل بشكل لا يبعث على أي تعلّم سيىء!

وبالطبع فإنّ يعقوب النّبي عليه السلام قال كلامه عن صفاء وطهارة قلب، إلاّ أنّ أبناءه الضالين استغلوا كلامه لقصدهم السيىء.

وشبيه هذا الموضوع الأُسلوب الذي نجده في كثير من المقالات - فمثلاً قد يكتب أحدهم مقالة أو يقوم بإخراج فيلم أو غيرها - عن ضرر الموادّ المخدرة أو الاستمناء، فيتناول هذه المسائل بصورة يتعلمها غيرُ المطلعين وينسون المسائل التي تذكر في هذه المواضيع لذم هذه الأعمال وبيان طرق النجاة منها، ولذلك فغالباً ما يكون ضرر هذه المقالات والأفلام وخسارتها أكثر من فائدتها بمراتب.

٦ - وآخر نقطة نشير إليها هنا أنّ إخوة يوسف ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ وهي إشارة إلى أنّ الإنسان إذا تحمّل مسؤوليةً ما - ووافق عليها - فإنّ من الواجب عليه أن يوقف نفسه من أجلها. . . وإلاّ فإنّه سيفقد كل قِيمهِ، قيمة شخصيته، وماء وجهه، والموقع الاجتماعي، ووجدانه.

فكيف يعقل أن يكون للشخص ضمير حيّ ووجدان يقظ وشخصية كريمة يعتز بحيثيته وماء وجهه، ومع كل ذلك يتنصل عن مسؤولياته ويقف موقفاً سلبياً إزاءها؟!

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ
﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ
الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ
بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ
عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

الكذب المفضوح

وأخيراً انتصر إخوة يوسف وأقنعوا أباهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئني البال بانتظار الصبح لتنفيذ خطتهم وإزاحة أخاهم الذي يقف عائقاً في طريقهم... وكان قلقهم الوحيد أن يندم أبوهم ويسحب كلامه ووعده بإرسال يوسف معهم.

فجاؤوا صباحاً إلى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، وكرر توصياته في شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم وأبدوا احترامهم الفائق ومحبتهم العميقة، وتحركوا إلى خارج المدينة.

يقال: إنّ أباهم ودعهم إلى بوابة المدينة ثمّ أخذ منهم يوسف وضمّه إلى صدره ودمعت عيناه، ثمّ أودع يوسف عندهم وفارقهم(١)، ولكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، وكان إخوة يوسف لا يقصرون عن مداراة أخيهم يوسف وإظهار عنايتهم به ومحبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، ولكن ما أن غاب عنهم أبوهم واطمأنوا إلى أنّه لا يراهم، حتى انفجرت عقدتهم وصبوا «جام غضبهم» وحقدهم وحسدهم المتراكم لعدّة سنوات على رأس يوسف، فالتفّوا حوله يضربونه بأيديهم ويلتجىء من واحد لآخر ويستجير بهم فلا يجيرهُ أحد منهم(٢).

نقرأ في رواية أنّ يوسف كان يبكي تحت وابل اللكمات والضربات القاسية، ولكن حين أرادوا أن يلقوه في الجبّ شرع بالضحك فجأة... فتعجب إخوته كثيراً وحسبوا أنّ أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحاً... ولكنّه رفع الستار عن ضحكه وعلّمهم درساً كبيراً إذ قال: لا أنسى أنني نظرت - أيّها الإخوة - إلى عضلات أيديكم القويّة وقواكم الجسدية الخارقة، فسررت وقلت في نفسي: ما عسى أن يخشى ويخاف من الحوادث والملمّات من كان عنده مثل هؤلاء الإخوة، فاعتمدت عليكم وربطت قلبي بقواكم، والآن وقد أصبحت أسيراً بين أيديكم وأستجير بكم من واحد لآخر فلا أُجار، وقد سلطكم الله عليّ لأتعلم هذا الدرس، وهو ألاّ أعتمد وأتوكّل على أحد سواه... حتى ولو كانوا إخوتي.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٧٣؛ تفسير الصافي، ج ٣، ص ٨، ذيل الآية ١٥ من سورة يوسف.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ١٢، ص ١٩٦، ذيل الآية ١٥ من سورة يوسف.

وعلى كل حال فالقرآن الكريم يقول في هذا الصدد: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[(١)].

جملة ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ تدلّ على أنّ جميع الإخوة كانوا متفقين على هذه الخطّة، وإن لم يتفقوا جميعاً على قتله.

وأساساً فإنّ كلمة ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ مأخوذة من مادة «جمع» وهي في هذه الموارد إشارة إلى جمع الآراء والأفكار.

ثمّ تبيّن الآية أنّ الله أوحى إلى يوسف وهدأ روعه وألهمه ألاّ يحزن فالعاقبة له، إذ تقول: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ذلك اليوم الذي تجلس فيه على العرش وأنت القوي الأمين، فيأتي إخوتك ليمدّوا أيدي الحاجة إليك، ويكونوا كالظامئين إلى النبع العذب في الصحراء اللاهبة ويسرعون إليك في منتهى التواضع، ولكنّك في حال من العظمة بحيث لا يصدّقون أنّك أخوهم، وستقول لهم في ذلك اليوم: ألستم الذين فعلتم مع أخيكم الصغير يوسف كذا وكذا... وكم سيكونون خجلين من فعلهم هذه في ذلك اليوم!

وهذا الوحي الإلهي لم يكن وحي النبوة، بقرينة الآية (٢٢) من السورة ذاتها، بل كان إلهاماً لقلب يوسف ليعلم أنّه ليس وحيداً، بل له حافظ ورقيب، وهذا الوحي بثّ في قلب يوسف نور الأمل وأزال عن روحه ظلمات اليأس والحيرة.

لقد نفّذ إخوة يوسف خطتهم كما أرادوا، ولكن ينبغي أن يفكروا عند العودة كيف كي يصدّق أبوهم أنّ يوسف انتهى بصورة طبيعية لا عن مكيدة ليضمنوا عواطف أبيهم نحوهم؟

وكانت الفكرة التي أوصلتهم إلى هذا الهدف هي ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه - ظاهراً - عن هذا الطريق مدّعين بأنّ الذئب قد أكل يوسف وجاؤوا إليه بدلائل مزيّفة!!

يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ بكاءً كاذباً، وهذا يدلّ على أنّ البكاء الكاذب ممكن... ولا يمكن أن يُخدع العاقل ببكاء العين وحدها.

أمّا الأب الذي كان ينتظر مجيء ولده (يوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتزّ وارتجف حين

---

(١) في العبارة المتقدمة حُذف جوابُ «لما» والتقدير كما يلي: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ عظمت فتنتهم (تفسير القرطبي) ولعل هذا الحذف اقتضى لعظم هذه الحادثة المؤلمة أن يسكت عنه المتكلم، وهو بنفسه من فنون البلاغة العربية (تفسير الميزان).

رأى الجمع وليس بينهم يوسف، وسأل عنه مستفسراً... فأجابوه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ لصغر سنه ولأنّه لا يعرف التسابق، وانشغلنا عنه ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

لأنك أخبرتنا من قبلُ بهذا الاحتمال، وستظن أن ادّعاءنا مجرّد احتيال.

لقد كان كلام إخوة يوسف مدروساً بشكل دقيق، وذلك - أوّلاً - لأنّهم خاطبوا يعقوب بقولهم بكلمة ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾ وفيها ما فيها من الاستعطاف.

وثانياً: لأنّ من الطبيعي أن ينشغل هؤلاء الإخوة الأقوياء بالتسابق، ويتركوا أخاهم الصغير رقيباً على متاعهم، وبعد ذلك كله فقد جاؤوا أباهم يبكون لتمرير خطتهم، وقالوا له: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

ومن أجل أن يبرهنوا على صحة كلامهم فقد ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ إذ لطخوا الثوب بدم الغزال أو الخروف أو التيس...

ولكن حيث إنّ الكاذب لا يمتلك حافظة قويّة، وحيث إنّ أية حقيقة فيها علائق مختلفة وكيفيات ومسائل، يقل أن تجتمع منظّمة في الكذب، فقد غفل إخوة يوسف عن هذه المسألة الدقيقة... وهي - على الأقل - أن يخرقوا قميص يوسف الملطخ بالدم ليدل على هجوم الذئب... فقد قدّموا القميص سالماً غير مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما إن وقعت عيناه على القميص حتى فهم كل شيء و﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾.

جاء في بعض الرّوايات أنّ يعقوب أخذ قميص يوسف وهو يقلّبه ويقول: «ما أرى أثر ناب ولا ظفر إنّ هذا السبع رحيم»[(١)]، وفي رواية أنّه أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزّق عليه قميصه، وجاء أنّه بكى وصاح وخرّ مغشيّاً عليه فأفاضوا عليه من الماء فلم يتحرك ونادوه فلم يجب ووضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفس ولا تحرك له عرق، فقال: ويل لنا من ديّان يوم الدين، ضيعنا أخانا وقتلنا أبانا فلم يفق إلاّ ببرد السحر[(٢)].

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٢، ص ٢٠٠، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الآلوسي: ذيل الآية. تفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث؛ تفسير القرطبي، ج ٩، ص ١٤٤، ذيل الآية مورد البحث.

وبالرغم من احتراق قلبه ولهيب روحه لم يجر على لسانه ما يدل على عدم الشكر أو اليأس أو الفزع أو الجزع، بل قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(١) ثمّ قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وأسأله أن يبدل مرارة الصبر في فمي إلى «حلاوة» ويرزقني القوة والقدرة على التحمّل أكثر أمام هذا الطوفان العظيم، لئلا أفقد زمامي ويجري على لساني كلام غير لائق.

ولم يقل: أسأله أن يعطيني الصبر على موت يوسف، لأنّه كان يعلم أن يوسف لم يُقتل . . . بل قال: أطلب الصبر على مفارقتي ولدي يوسف. . . وعلى ما تصفون.

ملاحظات:

١ - حول الترك «الأولى»

ينقل أبو حمزة الثمالي عن الإمام السجاد عليه السلام فيقول: كنت يوم الجمعة في المدينة وصليت الغداة مع الإمام السجاد عليه السلام فلمّا فرغ من صلاته وتسبيحه نهض إلى منزله وأنا معه، فدعا مولاة له تُسمى سكينة فقال لها: «لا يعبر على بابي سائل إلاّ أطعمتموه فإنّ اليوم يوم الجمعة».

يقول أبو حمزة: فقلت له: ليس كل من يطلب العَونَ مستحقاً له، فقال: يا أبا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقّاً فلا نُطعمه ونردّه فينزل بنا - أهل البيت - ما نزل بيعقوب وآله. أطعِمُوهم إن يعقوب كان يذبح كل يوم كبشاً فيتصدق منه ويأكل هو وعياله منه، وإن سائلاً مؤمناً صوّاماً محقّاً له عند الله منزلة، وكان مجتازاً غريباً اعترَّ على باب يعقوب عشية جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم، يهتف بذلك على بابه مراراً وهم يسمعونه، قد جهلوا حقّه ولم يصدقوا قوله: فلما أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى الله وبات وطاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً وأصبحوا وعندهم من فضل طعامهم.

قال: فأوحى الله عزّوجلّ إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت - يا يعقوب - عبدي ذلة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى ولدك يا يعقوب، إنّ أحبّ أنبيائي إليّ وأكرمهم عليّ من رحم مساكين عبادي

---

(١) صبر جميل (صفة وموصوف) خبر لمبتدأ محذوف، وتقدير الكلام: صبري صبر جميل.

وقرَّبهم اليه وأطعمهم، وكان لهم مأوى وملجأ، يا يعقوب، ما رحمت «ذميال» عبدي المجتهد في عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس لمّا عبر ببابك عند أوان إفطاره ويهتف بكم: أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع، فلم تطعموه شيئاً، فاسترجع واستعبر وشكا ما به إليّ وبات جائعاً وطاوياً حامداً، أصبح لي صائماً، وأنت - يا يعقوب - ووُلدك شباع، وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم.

أو علمت - يا يعقوب - أنّ العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها، إلى أعدائي الخ...[١].

ومن الطريف أنّ أبا حمزة يقول: سألت الإمام زين العابدين عليه السلام متى رأى يوسف رؤياه؟ فقال الإمام: «في تلك الليلة»[٢].

يستفاد من هذا الحديث أنّ زلّة بسيطة أو بعبارة أدق: «ترك الأولى» وهو لا يعدّ خطيئة أو إثماً، لأنّ يعقوب لم يتّضح له حال السائل... هذا الترك من قبل الأنبياء والأولياء يكون سبباً لأن يبتليهم الله بلاءً شديداً... وما ذلك إلاّ لمقامهم الكبير الذي يوجب عليهم أن يراقبوا كل حركاتهم وسكناتهم، لأنّ «حَسنات الأبرار سيئات المقربين»[٣].

فإذا كان يعقوب عليه السلام قد ابتلي بهذا البلاء والهمّ لأنّه لم يطلع على حال قلب السائل وآلامه، فكيف الحال في المجتمعات التي تغرق فيها طائفة بالنعيم والرفاه وطائفة من الناس جياع، كيف لا يشملهم غضب الله! وكيف يسلَمون من عذاب الله!

٢ - دعاء يوسف البليغ الجذّاب

ترد في روايات أهل البيت عليهم السلام وروايات أهل السنّة، أن يوسف حين استقرّ في قعر الجبّ انقطع أمله من كل شيء، وصرف كلَّ توجهه إلى ذات الله المقدسة يناجي ربّه، وكانت لديه حوائج ذكرها بتلقين جبرئيل إياه...

ففي رواية أنّه دعا ربّه بهذه المناجاة «اللّهم يا مؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، يا ملجأ كل خائف، ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل

(١-٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٤٣ ونور الثقلين، ج ٢، ص ٤١١؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٧١ و٢٧٢، ح ٤٨.
(٣) بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٠٥.

شكوى، ويا حاضر كل ملأ، يا حيّ يا قيّوم، أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي همّ ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنّك على كل شيء قدير»[١].

ومن الطريف أنّنا نقرأ في ذيل هذه الرواية، أنّ الملائكة سمعت صوت يوسف فنادت: «إلهنا نسمع صوتاً ودعاءً، الصوت صوت صبي والدعاء دعاء نبيّ»[٢].

وهناك نقطة تدعو للالتفات وهي: حين رمى يوسفَ إخوتهُ في الجبّ خلعوا عنه قيمصه وتركوه عارياً، فنادى: اتركوا لي قميصي - على الأقل - لأغطي به بدني إذا بقيت حياً، ويكون كفني إذا متّ. فقال له إخوته: اطلبه من الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر الذين رأيتهم في منامك، ليكونوا مؤنسيك في هذه البئر، ويكسوك ويُلبسوك ثوباً على بدنك... فدعا يوسف على أثر اليأس المطلق بالدعاء الآنف الذكر[٣].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: حين أُلقي يوسف في الجبّ هبط عليه جبرئيل وقال: ما تصنع هنا أيّها الغلام؟ فقال له: إن إخوتي ألقوني في البئر. فقال له جبرئيل: أتُحبُّ أن تخرج من البئر؟ قال: ذلك بمشيئة الله، إن شاء أخرجني. فقال له: إنّ الله يأمرك أن تدعو بهذا الدعاء لتخرج من البئر: «اللّهم إنّي أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلاّ أنت المنّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أن تصلي على محمّد وآل محمّد وأن تجعل لي ممّا أنا فيه فرجاً ومخرجاً»[٤].

٣ - جملة ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ تدلّ على أنّهم لم يرموه في البئر، بل أنزلوه على مكان يشبه الرصيف لمن يريد النّزول إلى سطح الماء، وقد شدوه بحبل حتى إذا نزل ووصل إلى غيابة الجبّ تركوه وحده.

وهناك قسم من الرّوايات التي تفسّر الآيات المتقدمة تؤيد هذا الموضوع.

٤ - تسويل النفس

جملة ﴿سَوَّلَتْ﴾ مشتقّة من «التسويل» ومعناه «التزيين» وقد يأتي بمعنى «الترغيب» وقد يأتي بمعنى «الوسوسة» كما في بعض التفاسير... جميع هذه المعاني ترجع إلى شيء واحد... أي إنّ هوى النفس زيّن لكم هذا العمل.

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٣٧. (٢-٣) المصدر السابق، ص ٤١٦.

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤١٦؛ أصول الكافي، ج ٢، ص ٥٥٦، ح ٤. (دار الكتب الإسلامية)؛ تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٧٠.

وهي إشارة إلى أنّه حين يطغى هوى النفس على الإنسان ويستبدّ به عناده، فإنه يتصور أنّ أسوأ الجنايات لديه أمر حسن، كما لو كان ذلك قتل الأخ أو إبعاده، وقد يتصور أن ذلك أمر مقدّس. . . وهذه نافذة على أصل كلي في المسائل النفسية، بحيث يجعل الميل المفرط والرغبة الجامحة لأمر ما - وخاصّة مع اقترانهما بالرذائل الأخلاقية - غشاوة على إحساس الإنسان، فتنقلب عنده الحقائق وتتغير صورها.

لذا فإنّ القضاء الصحيح وإدراك الواقعيّات العينيّة، لا يمكن لها أن تتحقق دون تهذيب النفس، وإذا كانت العدالة شرط في القاضي فإنّ هذا الأمر واحد من أسبابها. . . وإذا كان القرآن الكريم يقول في الآية (٢٨٢) من سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ فذلك إشارة إلى هذه الحقيقة أيضاً.

٥ - الكذاب عديم الحافظة

قصّة يوسف - وما جرى له مع إخوته - تثبت مرّة أُخرى هذا الأصل المعروف الذي يقول: إنّ الكذاب لا يستطيع أن يكتم سرّه دائماً، لأنّ الواقعيات العينية حين تظهر إلى الوجود الخارجي تظهر ومعها روابط - أكثر من أن تعدّ - مع موضوعات أُخرى تدور حولها، وإذا أراد الكاذب أن يهيىء مناخاً لمسألة غير واقعية فإنّه لا يستطيع أن يحفظ هذه الروابط مهما كان دقيقاً.

ولنفرض أنّه يستطيع أن يؤلف بين عدد من الروابط الكاذبة في حادثة ما، ولكن المحافظة على هذه الروابط المصطنعة في ذهنه ليست عملاً هيّناً، فإنّ أقل غفلة منه تسبب وقوعه في التناقض، فتتسبب هذه الغفلة في فضيحة صاحبها وتكشف الأمر الواقعي وهذا درس كبير لمن يريد المحافظة على ماء وجهه ومكانته في المجتمع أن لا يلجأ إلى الكذب فيتعرض موقعه الاجتماعي للخطر وينزل عليه غضب الله.

٦ - ما هو الصبر الجميل؟

الصبر أمام الحوادث الصعبة والأزمات الشديدة يدلّ على قوة شخصية الإنسان، وعلى سعة روحه بسعة ما تتركه هذه الحوادث فلا يتأثر ولا يهتز لها.

ربّما يحرك النسيم العليل ماء الحوض الصغير، ولكن المحيطات العظيمة كالمحيط الهادي - مثلاً - يستوعب حتى الإعصار الذي يتلاشى أمام هدوئه وسعته.

وقد يتصبّر الإنسان ويملك نفسه أحياناً، ولكنّه سرعان ما يتلف هذا الصبر بكلماته النابية التي تدل على عدم الشكر وعدم تحمل الحادثة ونفاد الصبر.

ولكن المؤمنين الذين يتمتعون بإرادة قويّة واستيعاب للحوادث، هم أُولئك الذين لا يتأثرون بها ولا يجري على لسانهم ما يدلّ على عدم الشكر وكفران النعمة أو الجزع أو الهلع.

صبر هؤلاء هو الصبر الجميل...

قد يبرز الآن هذا السؤال، وهو أننا نقرأ في الآيات الأُخرى - من هذه السورة - أنّ يعقوب بكى على يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، أفلا ينافي ما صدر من يعقوب صبرَه الجميل؟!

والجواب على هذا السؤال في جملة واحدة، وهي: إنّ قلوب عباد الله مركز للعواطف، فلا عجب أن ينهلّ دمع عينهم مدراراً، المهم أن يسيطروا على أنفسهم، ولا يفقدوا توازنهم، ولا يقولوا شيئاً يسخط الله.

ومن الطريف أن مثل هذا السؤال وجه إلى النّبي محمّد ﷺ حين بكى على موت ولده إبراهيم حيث قالوا له: يا رسول الله، أتنهانا عن البكاء وتبكي؟!

فأجابهم النّبي الكريم ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الربّ»[1]. وفي رواية أُخرى أنه قال: «ليس هذا بكاء إنّه رحمة»[2].

وهذا إشارة إلى أنّ ما في صدر الإنسان هو القلب، وليس الحجر! وطبيعيّ أن يتأثر الإنسان أمام المسائل العاطفية، وأبسط هذا التأثر هو انهلال الدمع... إنَّ هذا لايعدّ عيباً، بل هو أمر حسن، العيب هو أن يقول الإنسان ما يسخط الربّ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

نحو أرض مصر

قضى يوسف في ظلمة الجب الموحشة والوحدة القاتلة ساعات مرّةً، ولكنّه بإيمانه

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٥٧ و١٥٨؛ أصول الكافي، ج ٣، ص ٢٦٢، ح ٤٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٥١، ح ١؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٨١، ح ٣٦٥٦.

بالله وسكينته المنبثقة عن الإيمان شع في قلبه نور الأمل، وألهمه الله تعالى القوة والقدرة على تحمّل الوحدة الموحشة، وأن ينجح في هذا الامتحان.

ولكن. . . الله أعلم كم يوماً قضى يوسف في هذه الحالة؟

قال بعض المفسّرين: قضى ثلاثة أيام، وقال آخرون: يومين(١).

وعلى كل حال تبلج النّور ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾(٢).

وانتخَبت منزلها على مقربة من الجُبّ، وطبيعي أنّ أوّل ما تفكر القافلة فيه - في منزلها الجديد - هو تأمين الماء وسد حاجتها منه ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾(٣).

فانتبه يوسف إلى صوت وحركة من أعلى البئر، ثمّ رأى الحبل والدلو يسرعان إلى النّزول، فانتهز الفرصة وانتفع من هذا العطاء الإلهي وتعلق بالحبل بوثوق.

فأحسّ المأمور بالإتيان بالماء أن الدلو قد ثقُلَ أكثر ممّا ينبغي، فلمّا سحبه بقوّة إلى الأعلى فوجىء نظره بغلام كأنّه فلقة قمر، فصرخ وقال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾.

وشيئاً فشيئاً سرى خبر يوسف بين جماعة من أهل القافلة، ولكن من أجل أن لا يذاع هذا الخبر وينتشر، ولكي يمكن بيع هذا الغلام الجميل في مصر، أخفوه ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾(٤).

وبالطبع هناك احتمالات أُخرى في تفسير هذه الجملة منها أنّ الذين عثروا على يوسف أسرّوه وأخفوا خبره، وقالوا: هذا متاع لأصحاب هذا الجبّ أودعوه عندنا لنبيعه في مصر.

ومنها أنّ أحد إخوة يوسف كان بين الحين والحين يأتي إلى الجبّ ليطلع على يوسف ويأتيه بالطعام وحين اطلع إخوة يوسف على ما جرى أخفوا علاقتهم الأخوية بيوسف

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ١٢، ص ٢٠٣؛ ذيل الآية مورد البحث.

(٢) سمّيت القافلة «سيارة» لأنّها في سير وحركة دائمين.

(٣) «الوارد» في الأصل من «الورود» وهو من يأتي بالماء، ثمّ توسع استعمال الكلمة وأطلقت على كل ورود ودخول.

(٤) «البضاعة» في الأصل من مادة «بضع» على وزن «نذر» ومعناها: القطعة من اللحم، ثمّ توسعوا في المعنى وأطلقوا هذا اللفظ على القطعة المهمّة، من المال. والبضعة هي القطعة من الجسد، وحَسنَ البضع معناه: الإنسان المكتنز لحمه، و«بِضع» على وزن «حِزب» معناه العدد من ثلاثة إلى عشرة (راجع المفردات للراغب).

وقالوا: هذا غلامنا فرّ من أيدينا واختفى هنا، وهددوا يوسف بالموت إذا كشف الستار عن الحقيقة.

ولكن التّفسير الأوّل يبدو أقرب للنظر.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وبالرغم من اختلاف المفسّرين في من هم الذين شروا يوسف بثمن بخس، وقول بعضهم: هم إخوة يوسف، ولكن ظاهر الآيات هو من كان في القافلة، وقد تمّ البحث عن إخوته في نهاية الآية التي سبقت هذه الآيات، وجميع الضمائر في الجُمَل ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ و﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ تعود على من كان في القافلة.

هنا يبرز هذا السؤال وهو: لِمَ باعوا يوسف الذي كان يعدّ - على الأقل - غلاماً ذا قيمة بثمن قليل، أو كما عبّر عنه القرآن ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ . . . ؟

ولكن هذا أمر مألوف فإنّ السُّراق أو أُولئك الذين تأتيهم بضاعة مهمّة دون أي تعب ونصب يبيعونها سريعاً لئلا يطلع الآخرون.

ومن الطبيعي أنّهم لا يستطيعون بهذه الفورية أن يبيعوه بسعر غال.

و«البخس» في الأصل معناه تقليل قيمة الشيء ظلماً، ولذلك فإنّ القرآن يقول: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾(١).

ثمّ إنّ هناك اختلافاً آخر بين المفسّرين في الثمن الذي بيع به يوسف، وكيف قُسّم بينهم؟ فقال البعض: عشرون درهماً، وقالت طائفة: اثنان وعشرون، ومع ملاحظة أنّ الباعة كانوا عشرين يتّضح سهم كل منهم، وكم هو زهيد! . . . وتقول الآية: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

وفي الحقيقة إنّ هذه الجملة في حكم بيان العلة للجملة المتقدمة، وهي إشارة إلى أنّهم باعوا يوسف بثمن بخس، لأنّهم لم يرغبوا في هذه المعاملة ولم يعتنوا بها.

وهذا البيع البخس إمّا لأنّ أهل القافلة اشتروا يوسف بثمن بخس، والإنسان إذا اشترى شيئاً رخيصاً باعه رخيصاً عادةً، أو إنّهم كانوا يخافون أن يفتضح سرّهم ويجدون من يدّعيه، أو من جهة أنّهم لم يجدوا في يوسف أثراً للغلام الذي يباع ويُشترى، بل وجدوا فيه آثار الحرّية واضحة في وجهه، ومن هنا فلا البائعون كانوا راغبين ببيعه ولا المشترون كانوا راغبين بشرائه.

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٥.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

التّفسير

في قصر عزيز مصر

انتهت حكاية يوسف مع إخوته الذين ألقوه في غيابة الجبّ وبيّناها تفصيلاً، بدأ فصل جديد من حياة هذا الغلام الحدث في مصر... فقد جيء بيوسف إلى مصر وعرض للبيع، ولما كان تحفة نفيسة فقد صار من نصيب «عزيز مصر» الذي كان وزيراً لفرعون أو رئيساً لوزرائه، لأنّه كان يستطيع أن يدفع قيمة أعلى لغلام ممتاز من جميع الجهات، والآن لنَر ما الذي حدث له في بيت عزيز مصر.

يقول القرآن الكريم في شأن يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾(١) فلا ينبغي أن تنظري إليه كما ينظرإلى العبيد.

يستفاد من سياق الآية أنّ عزيز مصر لم يرزق ولداً وكان في غاية الشوق للولد، وحين وقعت عيناه على هذا الصبيّ الجميل والسعيد تعلّق قلبه به ليكون مكان ولده.

ثمّ يضيف القرآن الكريم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

هذا «التمكين» في الأرض إمّا أن يكون لمجيء يوسف إلى مصر، وخاصّة أن خطواته في محيط مصر مقدّمة لما سيكون عليه من الاقتدار والمكانة القصوى، وإمّا أنّه لا قياس، بين هذه الحياة في مصر «العزيز» وبين تلك الحياة في غيابة الجبّ والوحدة والوحشة. فأين تلك الشدّة من هذه النعمة والرفاه!

ويضيف القرآن أيضاً ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾.

المراد من ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ - كما أشرنا سابقاً - هو علم تفسير الأحلام وتعبير

---

(١) «المثوى» من مادة (ثوى) ومعناه المقام، ولكن معناه هنا الموقعية والمنزلة والمقام كذلك.

الرؤيا حيث كان يوسف قادراً على أن يطلع على بعض أسرار المستقبل من خلاله، أو المراد منه الوحي لأنّ يوسف مع عبوره من المضائق الصعبة والشدائد القاسية ونجاحه في الاختبارات الإلهيّة في قصر عزيز مصر، نال الجدارة بحمل الرسالة والوحي. ولكن الاحتمال الأوّل أقرب كما يبدو للنظر.

ثمّ يختتم القرآن هذه الآية بالقول: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنّ واحدة من مظاهر قدرة الله العجيبة وهيمنته على الأمور كلها أن يدع - في كثير من الموارد - أسباب موفقية الإنسان ونجاحه بيد أعدائه كما حدث في مسألة يوسف عليه السلام، فلولا خطة إخوته لم يصل إلى الجبّ أبداً، ولو لم يصل إلى الجبّ لما وصل إلى مصر، ولو لم يصل إلى مصر لما ذهب إلى السجن ولما كان هناك أثر من رؤيا فرعون التي أصبح يوسف بسببها عزيزَ مصر!

ففي الحقيقة إن الله أجلس يوسف على عرش الاقتدار بواسطة إخوته الذين تصوروا أنّهم سيقضون عليه في تركهم إيّاه في غيابة الجُبِّ.

لقد واجه يوسف في هذا المحيط الجديد، الذي يعدّ واحداً من المراكز السياسية المهمّة في مصر مسائل مستحدثة... فمن جهة كان يرى قصور الطغاة المدهشة وثرواتهم ومن جهة أُخرى كانت تتجسد في ذهنه صورة أسواق النخاسين وبيع المماليك والعبيد ومن خلال الموازنة بين هاتين الصورتين كان يفكر في كيفية القضاء على هموم المستضعفين من الناس لو أصبح مقتدراً على ذلك!

أجلْ، لقد تعلم الكثير من هذه الأشياء في هذا المحيط المفعم بالضوضاء، وكان قلبه يفيض همّاً لأنّ الظروف لم تتهيأ له بعدُ. فاشتغل بتهذيب نفسه وبنائها، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

كلمة «أشدّ» مشتقّة من مادة «شدّ» وتعني فتل العقدة باستحكام... وهي هنا إشارة إلى الاستحكام الجسماني والروحاني.

قال بعضهم: إنّ هذه الكلمة جمع لا مفرد لها... ولكن البعض الآخر قال: إنّها جمع (شدّ) على وزن (سدّ) ولكن معناها الجمعي غير قابل للإنكار على كل حال!

المراد من «الحكم» و«العلم» الواردين في الآية المتقدمة التي تقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾ إمّا أن يكون مقام النبوّة كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين،

وإمّا أن يكون المراد من الحكم العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح الخالي من اتباع الهوى والاشتباه، والمراد من العلم الاطلاع الذي لا يقترن معه الجهل، ومهما كان فإنّ الحكم والعلم موهبتان نادرتان وهبهما الله ليوسف لتقواه وصبره وتوكله عليه، وجميع هذه الصفات مجتمعة في كلمة «المحسنين».

قال بعض المفسّرين: هناك ثلاثة احتمالات لمعنى كلمتي (الحكم والعلم) الواردتين في الآية، وهي:

١ - إنّ الحكم إشارة إلى مقام النبوة (لأنّ النّبي حاكم على الحق) والعلم إشارة إلى علم الدين.

٢ - إن الحكم يعني ضبط النفس إزاء الهوى والميول النفسيّة، وهو هنا إشارة إلى الحكمة العملية. والعلم إشارة إلى العلم النظري... وتقديم الحكم على العلم هنا لأنّ الإنسان إذا لم يهذب نفسه ويبنيها بناءً صحيحاً لا يصل إلى العلم الصحيح.

٣ - إنّ الحكم معناه أن يبلغ الإنسان مقام «النفس المطمئنة» ويتسلّط على نفسه بحيث يستطيع أن يتملك زمام النفس الأمّارة ووسوستها... والمراد من العلم هو الأنوار القدسيّة وأشعة الفيض الإلهي الذي تنزل من عالم الملكوت على قلب الإنسان الطاهر[1].

ملاحظات:

١ - ما هو اسم «عزيز» مصر؟

ممّا يستجلب النظر في الآيات المتقدمة أنّ اسم عزيز مصر لم يذكر فيها، إنّما ورد التعبير عنه بـ ﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾.

لكن من هو هذا العزيز؟! لم تذكره الآية، كما سنرى في الآيات المقبلة أنّ عنوانه لم يصرّح به إلاّ بالتدريج، فمثلاً نقرأ في الآية (٢٥) هذا النصّ ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾.

وحين نتجاوز هذه الآيات ونصل إلى الآية (٣٠) نواجه التعبير عن زوجته بـ «امرأة العزيز».

وهذا البيان التدريجي إمّا لأنّ القرآن يتحدث - حسب طريقته - بالمقدار اللازم، وهذا دليل من أدلة الفصاحة والبلاغة، أو لأنّه - كما هو ملاحظ هذا اليوم في «نصوص

(١) راجع التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٨، ص ١١١.

الآداب» أيضاً - حين يبدأ بالقصّة، يبدأ بها من نقطة غامضة ليتحرك الإحساس في الباحث، وليلفت نظره نحو القصّة.

٢ - يوسف عليه السلام وتعبير الأحلام

الملاحظة الأُخرى التي تثير السؤال في الآيات المتقدمة، هي: ما علاقة الاطلاع على تفسير الأحلام وتأويل الأحاديث بمجيء يوسف إلى قصر عزيز مصر الذي أشير إليه بلام الغاية في جملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾؟!

لكن مع الالتفات إلى أنّ هذه النقطة يمكن أن تكون جواباً للسؤال الآنف الذكر، وهي أنّ كثيراً من المواهب العلمية يهبها الله قبال التقوى من الذنوب ومقاومة الأهواء والميول النفسيّة، أو بتعبير آخر: إنّ هذه المواهب التي هي ثمرة البصيرة القلبية الثاقبة، هي جائزة إلهية يهبها الله لمثل هؤلاء الأشخاص.

نقرأ في حالات ابن سيرين مفسر الأحلام المشهور أنّه كان رجلاً بزازاً وكان جميلاً للغاية فعشقته امرأة وتعلق قلبها به، واستدرجته إلى بيتها بأساليب وحيل خاصّة، ثمّ غلّقت الأبواب عليه (لينال منها الحرام) لكنه لم يستسلم لهوى تلك المرأة وأخذ ينصحها ويذكر مفاسد هذا الذنب العظيم، ولكن نار الهوى كانت متأججة في قلبها بحيث لم يطفئها ماء الموعظة، ففكر ابن سيرين في الخلاص من قبضتها، فلوّث جَسده بما كان في بيتها من أقذار تنفر الرائي، فلما رأته المرأة نفرت منه وأخرجته من البيت.

يقال إنّ ابن سيرين أصبح ذكيّاً بعد هذه الحادثة ورزق موهبة عظيمة في تفسير الأحلام[1]، وذكروا قصصاً عجيبة عنه في الكتب التي تتناول تفسير الأحلام تدل على عمق اطلاعه في هذا المجال!

فعلى هذا يمكن أن يكون يوسف عليه السلام قد نال هذه الموهبة الخاصّة (العلم بتأويل الأحاديث) لتسلّطه على نفسه قبال إثارة امرأة العزيز لهوى النفس!

ثمّ بعد هذا كله فإنّ قصور الملوك في ذلك الزمان كانت مراكز لمفسري الأحلام، وإنّ شاباً - ذكياً كيوسف - كان يستطيع أن يستفيد من تجارب الآخرين، وأن يكون له استعداد روحي لإفاضة العلم الإلهي في هذا المجال!

وعلى كل حال فإنّه ليس مستبعداً أن يهب الله سبحانه لعباده المخلصين المنتصرين في

---

(١) الكنى والألقاب، ج ١، ص ٣١٩؛ سفينة البحار، ج ١، ص ٦٧٨، مادة (سير).

ميادين «جهاد النفس للهوى والشّهوات» مواهب من المعارف والعلوم التي لا تقاس بأيّ معيار مادي، ويمكن أن يكون الحديث المعروف «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»(١) إشارة إلى هذه الحقيقة.

هذا العلم ليس ممّا يقرأ عند الأستاذ، ولا يعطى لأيّ كان وبدون حساب... بل هو جائزة من الجوائز التي تمنح للمتسابقين في ميادين جهاد النفس!

٣ - المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾

قلنا إن (أشدّ) معناه الاستحكام الجسماني والروحاني، وبلوغ الرشد معناه الوصول إلى هذه المرحلة، ولكن هذا العنوان قد عبّر عنه القرآن الكريم في مراحل مختلفة من عمر الإنسان.

فتارة أطلقه على سنّ البلوغ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾(٢).

وتارةً يرد هذا المعنى في وصول الإنسان إلى أربعين سنة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾(٣).

وتارةً يراد به ما قبل مرحلة الشيخوخة والكبر، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾(٤).

ولعل هذا التفاوت في التعبيرات آتٍ من طيّ الإنسان مراحل مختلفة لاستحكام الروح والجسم، ولا شكّ أن الوصول إلى سنّ البلوغ واحد من هذه المراحل.

وبلوغ الأربعين الذي يكون توأماً للنضج الفكري والعقلي مرحلة ثانية، كما أن المرحلة الثّالثة تكون قبل أن يسير الإنسان نحو قوس النّزول ويبلغ الضعف والوهن!

وعلى كل حال فإنّ المقصود في الآية - محل البحث - هو مرحلة البلوغ الجسمي والروحي الذي ظهر في يوسف في بداية شبابه، يقول الفخر الرازي في تفسيره في هذا الصدد: «مدة دورة القمر ثمانية وعشرون يوماً وكسرٌ، فإذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة أيام، فلا جرمَ رتبوا أحوال الأبدان على الأسابيع،

(١) مصباح الشريعة، ص ١٦؛ بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٤٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤. (٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.
(٤) سورة غافر، الآية: ٦٧.

فالإنسان إذا وُلد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب إلى أن يتم له سبع سنين، ثمّ إذا دخل في السبعة الثانية حصلت فيه آثار الفهم والذكاء والقوّة، ثمّ لا يزال في الترقي إلى أن يتمّ له أربع عشرة سنة، فإذا دخل في السنة الخامسة عشرة دخل في الأسبوع الثّالث وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتتحرك فيه الشهوة، ثمّ لا يزال يرتقي على هذه الحالة إلى أن يتم السنةَ الحاديةَ والعشرين وهناك يتم الأسبوع الثّالث، ويدخل في السنة الثّانية والعشرين وهذا الأسبوع آخر أسبوع النشوء والنماء، فإذا تمّت السنة الثّامنة والعشرون فقد تمّت مدّة النشوء والنماء وينتقل الإنسان منه إلى زمان الوقوف، وهو الزمان الذي يبلغ الإنسان فيه أشدّه، وبتمام هذا الأسبوع الخامس - يحصل للإنسان خمس وثلاثون سنة ثمّ إنّ هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان، فهذا الاسبوع الخامس الذي هو أسبوع الشدّة والكمال يبتدىء من السنة التّاسعة والعشرين إلى الثّالثة والثّلاثين، وقد يمتّد إلى الخامسة والثّلاثين، فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب، والله أعلم بحقائق الأشياء»[(١)].

التقسيم المتقدّم وإن كان مقبولاً إلى حدٍّ ما. . . لكنّه يبدو غير دقيق، لأنّ مرحلة البلوغ أوّلاً ليست في انتهاء العقد الثاني، وكذلك فإنّ التكامل الجسماني - طبقاً لما يقول علماء اليوم - هو ٢٥ سنة. . . والبلوغ الفكري الكامل أربعون سنةً طبقاً لبعض الرّوايات[(٢)]، وبعد هذا كله فإنّ ما ورد آنفاً لا يصحّ أن يكون قانوناً عامّاً ليصدق على جميع الأشخاص.

٤ - وآخر ما ينبغي قوله هنا هو أنّ القرآن بعد أن يتحدث عن إتيان يوسف الحكم والعلم يعقب بالقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ومعنى ذلك أنّ مواهب الله - حتى للأنبياء - ليست اعتباطاً، وكلّ ينال بمقدار إحسانه ويغرف من بحر الله وفيضه اللامحدود كما نال يوسف سهماً وافراً من ذلك بصبره واستقامته أمام كل تلك المشاكل.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٨، ص ١١١.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٠٢، ح ٢١٠٩٣.

﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

العشق الملتهب

لم يأسر جمال يوسف الملكوتي عزيز مصر فحسب، بل أسر قلب امرأة العزيز كذلك وأصبح متيّماً بجماله!.

وامتدّت مخالب العشق إلى أعماق قلبها، وبمرور الزمن كان هذا العشق يتجذّر يوماً بعد يوم ويزداد اشتعالاً... لكنّ يوسف هذا الشابّ الطاهر التقي، لم يفكّر بغير الله، ولم يتعلّق قلبه بغير عشق الله سبحانه.

وهناك أُمور أُخرى زادت من عشق امرأة العزيز ليوسف... فمن جهة لم تُرزق الولَد، ومن جهة أُخرى انغمارها في حياة مترفة مفعمة بالبذخ... ومن جهة ثالثة عدم ابتلائها بأيّ نوع من البلاء كما هي حال المتنعّمين، وعدم الرقابة الشديدة على هذا القصر من قبل العزيز من جهة رابعة... كلّ ذلك ترك امرأة العزيز - الفارغة من الإيمان والتقوى - تهوي في وساوسها الشيطانية إلى الحضيض، بحيث أفضت ليوسف أخيراً عمّا في قلبها وراودته عن نفسه.

واتّبعت جميع الأساليب والطرق للوصول إلى هدفها، وسعت لكي تلقي في قلبه أثراً من هواها وترغيبها وطلبها، كما يقول عن ذلك القرآن الكريم: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾.

وجملة ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ مأخوذة من مادّة «المراودة» وأصلها البحث عن المرتع والمرعى، وما ورد في المثل المعروف «الرائد لا يكذب أهله» إشارة إلى هذا المعنى، كما يطلق «المرود» على وزن (منبر) على قلم الكحل الذي تكحل به العين، ثمّ توسّعوا في هذا اللفظ فأُطلق على كلّ ما يُطلب بالمداراة والملاءمة.

وهذا التعبير يشير إلى أنّ امرأة العزيز طلبت من يوسف أن ينال منها بطريق المسالمة والمساومة - كما يصطلح عليه - وبدون أي تهديد، وأبدت محبّتها القصوى له بمنتهى اللين.

وأخيراً فكّرت في أن تخلو به وتوفّر له جميع ما يثير غريزته، من ثياب فضفاضة، وعطور عبقة شذيّة، وتجميلات مرغبة، حتى تستولي على يوسف وتأسره!.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

﴿وَغَلَّقَتِ﴾ تدلّ على المبالغة وأنّها أحكمت غلق الأبواب، وهذا يعني أنّها سحبت يوسف إلى مكان من القصر المتشكّل من غرف متداخلة... وكما ورد في بعض الرّوايات كانت سبعة أبواب، فغلقتها عليه جميعاً... لئلاّ يجد يوسف أي طريق للفرار... إضافةً إلى ذلك أرادت أن تُشعر يوسف أن لا يقلق لانتشار الخبر فإنّه سوف لا يفتضح، حيث لا يستطيع أحد أن ينفذ إلى داخل القصر أبداً.

وفي هذه الحال، حين رأى يوسف أنّ هذه الأُمور تجري نحو الإثم، ولم ير طريقاً لخلاصه منها، توجّه يوسف إلى زليخا و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وبهذا الكلام رفض يوسف طلب امرأة العزيز غير المشروع... وأعلمها أنّه لن يستسلم لإرادتها، وأفهمها ضمناً - كما أفهم كلّ إنسان - أنّه في مثل هذه الظروف الصعبة لا سبيل إلى النجاة من وساوس الشيطان وإغراءاته إلاّ بالالتجاء إلى الله... الله الذي لا فرق عنده بين السرّ والعلن، بين الخلوة والاجتماع، فهو مطّلع ومهيمن على كلّ شيء، ولا شيء إلاّ وهو طوع أمره وإرادته!

وبهذه الجملة إعترف يوسف بوحدانية الله تعالى من الناحية النظرية، وكذلك من الناحية العملية أيضاً، ثمّ أضاف ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ ... أليس التجاوز ظُلماً وخيانةً واضحة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

المراد من كلمة ﴿رَبِّىٓ﴾

هناك أقوال كثيرة بين المفسّرين في المراد من قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ فأكثر المفسّرين، كالعلاّمة الطبرسي في مجمع البيان وكاتب المنار في تفسير المنار وغيرهما، قالوا: إنّ كلمة «ربّ» هنا استعملت في معناها الواسع، وقالوا: إنّ المراد من كلمة «ربّ» هنا هو «عزيز مصر» الذي لم يألُ جهداً في إكرام يوسف، وكان يوصي امرأته من البداية بالاهتمام به وقال لها: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾.

ومن يظنّ أنّ هذه الكلمة لم تستعمل بهذا المعنى فهو مخطىء تماماً، لأنّ كلمة «ربّ» في هذه السورة أطلقت عدّة مرّات على غير الله سبحانه. وأحياناً ورد هذا الاستعمال على لسان يوسف نفسه، وأحياناً على لسان غيره!

فمثلاً في قصّة تعبير الرؤيا للسجناء، طلب يوسف من الذي بشّره بالنجاة أن يذكر حاله عند ملك مصر ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ الآية ٤٢ من هذه السورة.

كما نلاحظ هذا الاستعمال على لسان يوسف - أيضاً - حين جاءه مبعوث فرعون مصر، إذ يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (الآية ٥٠).

وفي الآية (٤١) من هذه السورة، وذيل الآية (٤٢) أُطلقت كلمة «ربّ» في لسان القرآن الكريم بمعنى المالك وصاحب النعمة. فعلى هذا تلاحظون أنّ كلمة «ربّ» استعملت ٤ مرّات - سوى الآية محلّ البحث - في غير الله، وإن كانت قد استعملت في هذه السورة وفي سور أُخرى من القرآن في خصوص ربّ العالمين (الله) مراراً.

فالحاصل أنّ هذه الكلمة من المشترك اللفظي وهي تستعمل في المعنيين.

ولكن رجّح بعض المفسّرين أن تكون كلمة «ربّ» في هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ يُقصد بها الله... لأنّها جاءت بعد كلمة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ مباشرةً، وكونها إلى جنب لفظ الجلالة صار سبباً لعود الضمير في ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ عليه فيكون معنى الآية: إنّني ألتجىء إلى الله وأعوذ به فهو إلهي الذي أكرمني وعظم مقامي وكلّ ما عندي من النعم فهو منه.

ولكن مع ملاحظة وصيّة عزيز مصر لامرأته ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ وتكرارها في الآية - محل البحث - يكون المعنى الأوّل أقرب وأقوى.

جاء في التوراة الفصل ٣٩ رقم ٨ و٩ و١٠ ما مؤدّاه: «وبعد هذا وقعت المقدّمات، إنّ امرأة سيّده ألقت نظرتها على يوسف وقالت: اضطجع معي، لكنّه أبى وقال لامرأة سيّده: إنّه سيّدي غير عارف بما معي في البيت، وكلّ ما يملك مودع عندي، ولا أجد أكبر منّي في هذا البيت، ولم يزاحمني شيء سواك لأنّك امرأته، فكيف أُقدم على هذا العمل القبيح جدّاً، وأتجرّأ في الذنب على الله». فهذه الجمل في التوراة تؤيّد المعنى الأوّل.

وهنا يبلغ أمر يوسف وامرأة العزيز إلى أدقّ مرحلة وأخطرها، حيث يعبّر القرآن عنه تعبيراً ذا مغزى كبير ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

وفي معنى هذه الجملة أقوال بين المفسّرين يمكن تصنيفها وإجمالها إلى ثلاثة تفاسير:

١ - إنّ امرأة العزيز كانت تريد أن تقضي وطراً مع يوسف، وبذلت وسعها في ذلك، وكاد يوسف يستجيب لرغبتها بطبيعة كونه بشراً شابّاً لم يتزوّج ويرى نفسه إزاء المثيرات الجنسيّة وجهاً لوجه... لولا أن رأى برهان الله... أي روح الإيمان والتقوى وتربية النفس، أضف إلى كلّ ذلك مقام العصمة الذي كان حائلاً دون هذا العمل!

فعلى هذا يكون الفرق بين معاني «همّ» أي القصد من امرأة العزيز، والقصد من قبل يوسف، هو أنّ يوسف كان يتوقّف قصده على شرط لم يتحقّق، أي (عدم وجود برهان ربّه) ولكن القصد من امرأة العزيز كان مطلقاً، ولأنّها لم يكن لديها مثل هذا المقام من التقوى والعفّة، فإنّها صمّمت على هذا القصد حتى آخر مرحلة، وإلى أن اصطدمت جبهتها بالصخرة الصمّاء!

ونظير هذا التعبير موجود في الآداب العربيّة وغيرها كما نقول مثلاً: إنّ جماعة لا ترتبط بقيم أخلاقية ولا ذمّة صمّمت على الإغارة على مزرعة فلان ونهب خيراته، ولولا أنّي تربّيت سنين طوالاً عند أُستاذي العارف الزاهد فلان، لأقدمت على هذا العمل معهم.

فعلى هذا كان تصميم يوسف مشروطاً بشرط لم يتحقّق، وهذا الأمر لا منافاة له مع مقام يوسف من العصمة والتقوى، بل يؤكّد له هذا المقام العظيم كذلك.

وطبقاً لهذا التّفسير لم يبدُ من يوسف أي شيء يدلّ على التصميم على الذنب، بل لم يكن في قلبه حتى هذا التصميم.

ومن هنا فيمكن القول إنّ بعض الرّوايات التي تزعم أنّ يوسف كان مهيّئاً لينال وطراً من امرأة العزيز، وخلع ثيابه عن بدنه، وذكرت تعبيرات أُخرى[1] نستحيي من ذكرها، كلّ هذه الأُمور عارية من الصحّة ومختلقة، وهذه أعمال من شأن الأفراد المنحرفين الملوّثين غير الأنقياء، فكيف يمكن أن يتّهم يوسف مع هذه المنزلة وقداسة روحه ومقام تقواه بمثل هذا الاتّهام.

الطريف أنّ التّفسير الأوّل نقل عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في عبارة موجزة جدّاً وقصيرة، حيث يسأله المأمون «الخليفة العبّاسي» قائلاً: ألا تقولون إنّ الأنبياء معصومون؟ فقال الإمام: «بلى». فقال: فما تفسير هذه الآية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾؟ فقال الإمام عليه السلام: «لقد همّت به، ولولا أن رأى

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ تفسير مجمع البيان، ج ١٢، ص ٢٤١ و ٢٤٢.

برهان ربّه لهمّ بها كما همّت، لكنّه كان معصوماً والمعصوم لا يهمّ بذنب ولا يأتيه» فقال المأمون: لله درُّك يا أبا الحسن(١).

٢ - إنّ تصميم كلّ من امرأة العزيز ويوسف لا علاقة له بالوطر الجنسي، بل كان تصميماً على ضرب أحدهما الآخر...

فتصميم امرأة العزيز على هذا العمل كان لعدم انتصارها في عشقها وبروز روح الانتقام فيها ثأراً لهذا العشق.

وتصميم يوسف كان دفاعاً عن نفسه، وعدم التسليم لطلب تلك المرأة.

ومن جملة القرائن التي تذكر في هذا الموضوع:

أوّلاً: إنّ امرأة العزيز كانت قد صمّمت على نيل الوطر الجنسي قبل هذه الحالة، وكانت قد هيّأت مقدّمات هذا الأمر، فلا مجال - إذن - لأن يقول القرآن: إنّها صمّمت على هذا العمل الآن، لأنّ هذه الساعة لم تكن ساعة تصميم.

وثانياً: إنّ ظهور حالة الخشونة والانتقام بعد هذه الهزيمة أمر طبيعي، لأنّها بذلت ما في وسعها لإقناع يوسف، ولمّا لم توفّق إلى ما رغبت فيه توسلّت بطريق آخر، وهو طريق الخشونة والضرب.

وثالثاً: إنّنا نقرأ في ذيل هذه الآية ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ والمراد بالفحشاء هو التلوّث وعدم العفّة... والمراد بصرف السوء، هو نجاته من عواقب مخالفة امرأة العزيز(٢)، وعلى كلّ حال فحين رأى يوسف برهان ربّه... تجنّب الصراع مع امرأة العزيز وضربها، لأنّه قد يكون دليلاً على تجاوزه وعدوانه عليها، ولذا رجّح أن يبتعد عن ذلك المكان ويفرّ نحو الباب.

٣ - ممّا لا شكّ فيه أنّ يوسف كان شابّاً يحمل جميع الأحاسيس التي في الشباب، وبالرغم من أنّ غرائزه كانت طوع عقله وإيمانه... إلاّ أنّ مثل هذا الإنسان - بطبيعة الحال - يهيج طوفان في داخله لما يشاهده من مثيرات في هذا المجال، فيصطرع العقل والغريزة، وكلّما كانت أمواج المثيرات أشدّ كانت كفّة الغرائز أرجح، حتى أنّها قد تصل في لحظة خاطفة إلى أقصى مرحلة من القوّة، بحيث لو تجاوز هذه المرحلة خطوة

---

(١) تفسير نور الثقلين ج٢ ص٤٢١؛ بحار الأنوار، ج ١١، ص ٨٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٢.

لهوى في مزلق مهول، ولكنّ قوّة الإيمان والعقل ثارت في نفسه فجأة وتسلّمت زمام الأمور في انقلاب عسكري سريع وكبحت جماح الشهوة.

والقرآن يصوّر هذه اللحظة الخاطفة الحسّاسة والمتأزّمة التي وقعت بين زمانين هادئين في الآية المتقدّمة، فيكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أنّ يوسف انجرّ إلى حافّة الهاوية في الصراع بين الغريزة والعقل، ولكن فجأةً ثارت قوّة الإيمان والعقل وهزمت طوفان الغريزة(١) .. لئلاّ يتصوّر أحد أنّ يوسف عندما استطاع أن يخلّص نفسه من هذه الهاوية فلم يقم بعمل مهمّ، لأنّ أسباب الذنب والهياج الجنسي كانت فيه ضعيفة... كلاّ أبداً... فهو في هذه اللحظة الحسّاسة جاهد نفسه أشدّ الجهاد.

ما المراد من ﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾؟

«البرهان» في الأصل مصدر «بَرِهَ» ومعناه «صيرورة الشيء أبيض» ثمّ أُطلق هذا اللفظ على كلّ دليل محكم قوي يوجب وضوح المقصود، فعلى هذا يكون برهان الله الذي نجّى يوسف نوعاً من الأدلّة الإلهيّة الواضحة، وقد احتمل فيه المفسّرون احتمالات كثيرة، من جملتها:

١ - العلم والإيمان والتربية الإنسانية والصفات البارزة.

٢ - معرفته بحكم تحريم الزنا.

٣ - مقام النبوّة وعصمته من الذنب.

٤ - نوع من الإمداد الإلهي الذي تداركه في هذه اللحظة الحسّاسة بسبب أعماله الصالحة.

٥ - هناك رواية يستفاد منها أنّه كان في قصر امرأة عزيز مصر صنم تعبده، وفجأةً وقعت عيناها عليه، فكأنّها أحسّت بأنّ الصنم ينظر إلى حركاتها الخيانيّة بغضب، فنهضت وألقت عليه ستراً، فاهتزّ يوسف لهذا المنظر، وقال: أنت تستحين من صنم لا يملك عقلاً ولا شعوراً ولا إحساساً، فكيف لا أستحيي من ربّي الخبير بكلّ شيء، والذي لا تخفى عليه خافية؟

---

(١) مقتبس من تفسير «في ظلال القرآن» لسيّد قطب ذيل الآية مورد البحث ج٤ ص٧١١.

فهذا الإحساس منح يوسف قوّة جديدة، وأعانه على الصراع الشديد في أعماق نفسه بين الغريزة والعقل، ليتمكّن من التغلّب على أمواج الغريزة في نفسه(١).

وفي الوقت ذاته لا مانع أن تكون جميع هذه المعاني منظورة، لأنّ مفهوم البرهان العام يستوعبها جميعاً، وقد أطلقت آيات القرآن كلمة «البرهان» على كثير من المعاني المتقدّمة.

أمّا الرّوايات التي لا سند لها والتي ينقلها بعض المفسّرين، والتي مؤدّاها أنّ يوسف صمّم على الذنب، ولكنّه لاحظ فجأةً حالة من المكاشفة بين جبرئيل ويعقوب وهو يعضّ على إصبعه، فرأى يوسف هذا المنظر وتخلّف عن إقدامه على هذا الذنب... فهذه الرّوايات ليس لها أي سند معتبر... وهي روايات إسرائيلية أنتجتها الذهنيات البشرية الضيّقة التي لم تدرك مقام النبوّة أبداً.

والآن لنتوجّه إلى تفسير بقيّة الآية إذ يقول القرآن المجيد: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. وهي إشارة إلى أنّ هذا الإمداد الغيبي والإعانة المعنوية لإنقاذ يوسف من السوء والفحشاء من قبل الله لم يكن اعتباطاً، فقد كان عبداً عارفاً مؤمناً ورعاً ذا عمل صالح طهّر قلبه من الشرك وظلماته، فكان جديراً بهذا الإمداد الإلهي.

وبيان هذا الأمر يدلّ على أنّ مثل هذه الإمدادات الغيبية، في لحظات الشدّة والأزمة التي تدرك الأنبياء - كيوسف مثلاً - غير مخصوصة بهم، فإنّ كلّ من كان في زمرة عباد الله الصالحين المخلصين فهو جدير بهذه المواهب أيضاً.

بحوث

١ - جهاد النفس

نحن نعرف أنّ أعظم الجهاد في الإسلام هو جهاد النفس، الذي عُبّر عنه في حديث عن النّبي الأكرم ﷺ: بـ«الجهاد الأكبر» أي هو جهاد أعظم من جهاد العدوّ الذي عبّر عنه بالجهاد الأصغر... وإذا لم يتوفّر في الإنسان الجهاد الأكبر بالمعنى الواقعي - أساساً - فلن ينتصر في جهاده على أعدائه.

وفي القرآن المجيد ترتسم صور شتّى في ميادين الجهاد، وتتجلّى فيها علاقة الأنبياء

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٤٢٢؛ وتفسير القرطبي، ص٣٩٨، ج٥.

وأولياء الله الصالحين. وقصّة يوسف وما كان من عشق امرأة العزيز الملتهب واحدة من هذه الصور، وبالرغم من أنّ القرآن لم يوضّح جميع ما في القصّة من خفايا وزوايا، إلاّ أنّه أجملها بصورة موجزة في جملة قصيرة هي ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وبيّن شدّة هذا الطوفان.

لقد خرج يوسف من هذا الصراع منتصراً بوجه مشرق لثلاثة أسباب:

الأوّل: إنّه التجأ إلى الله واستعاذ به، وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

الثّاني: التفاته إلى الإحسان الذي أسداه إليه عزيز مصر، وما تناوله في بيته فأثّر فيه، فلم ينس فضله طيلة حياته، ومع ملاحظة نعم الله التي لا تُحصى وإنقاذه له من غيابة الجبّ الموحشة إلى محيط الأمان والهدوء جعلته يفكّر في ماضيه ومستقبله، ولا يستسلم للتيارات العابرة.

الثّالث: بناءُ شخصيّته وعبوديّته المقرونة بالإخلاص التي عبّر عنها القرآن ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يستفاد منها أنّها منحته القوّة والقدرة ليخرج من ميادين الوسوسة التي تهجم عليه من الداخل والخارج بانتصار.

وهذا درس كبير لجميع الناس الأحرار الذين يريدون أن ينتصروا على عدوّهم الخطر في ميادين جهاد النفس.

يقول الإمام علي بن أبي طالب «أمير المؤمنين عليه السلام» في دعاء الصباح، بأُسلوب جميل رائق: «وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان، فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان»(١).

ونقرأ في بعض الأحاديث أنّ النّبي صلى الله عليه وآله بعث سرية فلمّا رجعوا قال: «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر» فقيل: يارسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: «جهاد النفس»(٢).

ويقول الإمام علي عليه السلام أيضاً «المجاهد من جاهد نفسه»(٣).

كما ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي حرّم الله جسده على النار»(٤).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٣٣٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٢٢؛ أصول الكافي، ج ٥، ص ١٢، ح ٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٢٤.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٢٣.

٢ - ثواب الإخلاص

كما أشرنا في تفسير الآيات المتقدّمة، فإنّ القرآن المجيد عزا نجاة يوسف - من هذه الأزمة الخطرة التي أوقعته امرأة العزيز فيها - إلى الله، إذ قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾.

ولكن مع ملاحظة الجملة التي تليها: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تتجلّى هذه الحقيقة، وهي أنّ الله سبحانه لا يترك عباده المخلصين في اللحظات المتأزّمة وحدهم ولا يقطع عنهم إمداداته المعنويّة... بل يحفظ عباده بألطافه الخفيّة. وهذا الثواب في الواقع هو ما يمنحه الله جلّ جلاله لأمثال هؤلاء العباد، وهو ثواب الطهارة والتقوى والإخلاص.

وهناك مسألة جديرة بالتنويه، وهي أنّ يوسف «من عباد الله المخلَصين» ومفرد الكلمة «مُخلَص» على وزن «مطلق» وهو اسم مفعول، ولم تأت الكلمة على وزن اسم الفاعل أي «مُخلِص« على وزن «مُحسِن».

والدقّة في آيات القرآن تكشف عن أنّ كلمة «مخلِص» (بكسر اللام) غالباً ما تُستعمل في مراحل تكامل الإنسان الأولى وفي حال بناء شخصيته، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى الْفُلْكِ دَعَوُا۟ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(١).

وكقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(٢).

غير أنّ كلمة «مخلَص» بفتح اللام استعملت في المرحلة العالية... التي تحصل بعد مدّة مديدة من جهاد النفس، تلك المرحلة التي ييأس الشيطان فيها من نفوذه ووسوسته داخل الإنسان، وفي الحقيقة تكون نفس الإنسان مؤمّناً عليها من قبل الله، يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾(٣).

وكان يوسف قد بلغ هذه المرحلة بحيث وقف كالجبل أمام تلك الأزمة، فينبغي على كلّ فرد السعي لبلوغ هذه المرحلة.

٣ - العفّة والمتانة في البيان

من عجائب القرآن وواحدة من أدلّة الإعجاز، أنّه لا يوجد في تعبيره ركّة وابتذال وعدم العفّة وما إلى ذلك، كما أنّه لا يتناسب مع أُسلوب الفرد العادي الأُمّي الذي تربّى

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥. (٢) سورة البيّنة، الآية: ٥.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٢ - ٨٣.

في محيط الجاهليّة، مع أنّ حديث كلّ أحد يتناسب مع محيطه وأفكاره!.

وبين جميع قصص القرآن وأحداثه التي ينقلها توجد قصّة غرام وعشق واقعية، وهي قصّة (يوسف وامرأة عزيز مصر).

قصّة تتحدّث عن عشق امرأة جميلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جميل طاهر القلب.

أصحاب المقالات والكتاب حين يواجهون مثل هذا الأمر. إمّا أن يتحدّثوا عن أبطال القصّة بأن يطلقوا للقلم أو اللسان العنان، حتى تظهر في (البين) تعابير مثيرة وغير أخلاقية كثيرة.

وإمّا أن يحافظوا على العفّة والنزاهة في القلم واللسان، فيحوّلوا القصّة إلى القرّاء أو السامعين بشكل غامض ومبهم.

فالكاتب أو صاحب المقال مهما كان ماهراً يبتلى بواحد من هذين الإشكالين، ترى هل يعقل أنّ فرداً لم يدرس يرسم رسماً دقيقاً وكاملاً لفصول مثل هذا العشق المثير، دون أن يستعمل أقلّ تعبير مهيّج وبعيد عن العفّة؟!

ولكنّ القرآن يمزج في رسم هذه الميادين الحسّاسة من هذه القصّة - بأُسلوب معجب - الدقّة في البيان مع المتانة والعفّة، دون أن يغضّ الطرف عن ذكر الوقائع، أو أن يظهر العجز، وقد استعمل جميع الأُصول الأخلاقية والأُمور الخاصّة بالعفّة.

ونعرف أنّ أخطر ما في هذه القصّة ما جرى في «خلوة العشق» وما أظهرته امرأة العزيز بابتكارها وهواها.

والقرآن يتناول كلّ ما جرى من حوادث ويتحدّث عنها دون أن يظهر أقلّ انحراف من أصول العفّة حيث يقول: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

والمسائل التي تسترعي الانتباه في هذه القصّة ما يلي:

١ - كلمة «راود» تستعمل في مكان يطلب فيه أحد من الآخر شيئاً بإصرار ممزوجاً بالترغيب واللين، لكن ما الذي أرادته امرأة العزيز من يوسف؟!.. بما أنّه كان واضحاً فقد اكتفى القرآن بالكناية والتلميح دون التصريح!.

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

٢ - إنّ القرآن هنا لم يعبّر عن امرأة العزيز تعبيراً مباشراً، بل قال: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ ليقترب من بيان العفّة وإسدال الحجاب، كما جسّد معرفة يوسف للحقّ وجسّد مشاكل يوسف أيضاً في عدم التسليم إزاء من كانت حياته في قبضتها.

٣ - ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ التي تدلّ على المبالغة وأنّ الأبواب جميعاً أوصدت بشدّة، (وهذا تصوير من هذا الميدان المثير).

٤ - جملة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تشرح آخر كلام امرأة العزيز للبلوغ إلى وصال يوسف، ولكنّها في عبارة متينة ذات مغزى كبير وليس فيها ما يشير إلى تعبير سيىء.

٥ - ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ التي قالها يوسف لتلك المرأة الجميلة، معناها كما يقول أكثر المفسّرين: إنّي ألتجىء إلى الله فإنّ عزيز مصر صاحبي وسيّدي وهو يجلّني ويحترمني ويعتمد عليّ، فكيف أخونه؟! وهذا العمل خيانة وظلم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وبهذا توضّح الآية سعي يوسف إلى إيقاظ العواطف الإنسانية في امرأة العزيز.

٦ - جملة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ترسم - من جهة - تلك الخلوة بدقّة، بحيث لو أنّ يوسف لم يكن لديه مقام العصمة أو العقل أو الإيمان لكان قد وقع في «الفخ».

ومن جهة أُخرى ترسم انتصار يوسف أخيراً في هذه الظروف على شيطان الشهوة الطاغي... بأسلوب رائع.

الطريف هنا أنّ الآية استعملت كلمة «همّ» فحسب، أي إنّ امرأة العزيز صمّمت من جهتها ولو لم يَرَ يوسف برهان ربّه لصمّم من جهته أيضاً، ترى هل توجد كلمة أكثر متانة للتعبير عن (القصد والتصميم) أفضل من هذه؟!

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ

﴿كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير

فضيحة امرأة العزيز!!

المقاومة الشديدة التي أبداها يوسف جعلت امرأة العزيز آيسة منه تقريباً . . . ولكن يوسف الذي انتصر في هذا الدور على تلك المرأة المعاندة أحسّ أنّ بقاءه في بيتها - في هذا المزلق الخطر - غير صالح، وينبغي أن يبتعد عنه، ولذلك أسرع نحو باب القصر ليفتحه ويخرج، ولم تقف امرأة العزيز مكتوفة الأيدي، بل أسرعت خلفه لتمنعه من الخروج، وسحبت قميصه من خلفه فقدّته ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾.

(الاستباق) في اللغة هو المسابقة بين شخصين أو أكثر.

و(قدّ) بمعنى مُزّق طولاً، كما أنّ «قطّ» بمعنى مُزّق عرضاً، ولذلك نقرأ في الحديث «كانت ضربات علي بن أبي طالب عليه السلام أبكاراً، إذا اعتلى قدّ، وإذا اعترض قطّ»(١).

وعلى كلّ حال فقد أوصل يوسف نفسه نحو الباب وفتحه فرأيا «يوسف وامرأة العزيز» عزيز مصر خلف الباب فجأةً. يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾.

«ألفيا» من مادّة «الإلفاء» ومعناها العثور المفاجىء. . . والتعبير عن الزوج بـ«السيّد» كما يقول بعض المفسّرين كان طبقاً للعرف السائد في مصر، حيث كانت تخاطب المرأة زوجها بالسيّد.

في هذه اللحظة التي رأت امرأة العزيز نفسها على أبواب الفضيحة من جهة، وشعلة الانتقام تتأجّج في داخلها من جهة أُخرى، كان أوّل شيء توجّهت إليه أن تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحقّ متّهمة يوسف إذ ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

من الطريف هنا أنّ هذه المرأة الخائنة نسيت نفسها أنّها امرأة العزيز حينما كانت لوحدها مع يوسف، ولكن عندما وجدت نفسها مشرفة على الافتضاح، عبّرت عن

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٥٠.

نفسها بأنّها أهله لتثير فيه إحساس الغيرة! فهي خاصّة به ولا ينبغي لأحد أن يلقي عليها نظرات الطمع!!

وهذا الكلام قريب الشبه بكلام فرعون مصر في عصر موسى إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾(١)، حيث كان جالساً على عرش السلطنة! ولكنّه حين وجد نفسه مشرفاً على السقوط، ووجد ملكه وتاجه في خطر، قال عن موسى وأخيه: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾(٢).

والأمر الآخر أنّ امرأة العزيز لم تقل إنّ يوسف كان يريد السوء بي، بل تحدّثت [عن ما يستحقّه من الجزاء] مع عزيز مصر، فكأنّ أصل المسألة مسلّم به!! والكلام عن كيفية الجزاء.

وهذا التعبير المدروس الذي كان في لحظة اضطراب ومفاجأة للمرأة يدلّ على شدّة احتيالها(٣).

ثمّ إنّ التعبير عن السجن أوّلاً، ثمّ عدم قناعتها بالسجن وحده، إذ تتجاوز هذا الحكم إلى العذاب الأليم أو «الإعدام» مثلاً.

ولكن يوسف أدرك أنّ السكوت هنا غير جائز... فأماط اللثام عن عشق امرأة العزيز ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

وطبيعي أنّ مثل هذا الحادث من العسير تصديقه في البداية، أي إنّ شابّاً يافعاً غير متزوّج لا يُعدّ آثماً، ولكن امرأة متزوّجة ذات مكانة اجتماعية - ظاهراً - آثمة! فلذلك كانت أصابع الاتّهام تشير إلى يوسف أكثر من امرأة العزيز.

ولكن حيث إنّ الله حامي الصالحين والمخلصين فلا يرضى أن يحترق هذا الشاب المجاهد بشعلة الاتّهام، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾. وأي دليل أقوى من هذا الدليل، لأنّ طلب المعصية إن كان من طرف امرأة العزيز فقد ركضت خلف يوسف وقدّت قميصه من دُبر، لأنّه كان يريد الفرار فأمسكت بثوبه فقدّته، وإذا كان يوسف هو الذي هجم عليها وهي تريد الفرار

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٠. (٢) سورة طه، الآية: ٦٣.

(٣) في المراد من «ما» من قولها ﴿مَا جَزَاءُ﴾ أهي نافية أم استفهامية؟ هناك اختلاف بين المفسّرين، والنتيجة واحدة.

أو وقفت أمامه للمواجهة والدفاع، فمن المسلّم أن يُقدّ قميص يوسف من قُبل! وأيّ شيء أعجب من أن تكون هذه المسألة البسيطة «خرق الثوب» مؤشّراً على تغيير مسير حياة بريء وسنداً على طهارته ودليلاً على افتضاح المجرم!.

أمّا عزيز مصر فقد قبل هذا الحكم الدقيق، وتحيّر في قميص يوسف ذاهلاً: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

في هذه الحال، ولخوف عزيز مصر من انتشار خبر هذا الحادث المؤسف على الملأ، فتسقط منزلته وكرامته في مصر رأى أنّ من الصلاح كتمان القضيّة، فالتفت إلى يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي اكتم هذا الأمر ولا تخبر به أحداً... ثمّ التفت إلى امرأته وقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِـِٔينَ﴾[1].

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ القائل لهذه الجملة ليس عزيز مصر، بل الشاهد نفسه، ولكن لا دليل يؤيّد هذا الاحتمال وخاصّة مع وقوع هذه الجملة بعد قول العزيز.

بحوث

١ - من كان الشاهد؟!

هناك أقوال في الشاهد الذي ختم «ملفّ يوسف وامرأة العزيز» بسرعة، وأوضح البريء من المسيء، من هو؟

قال بعضهم: هو أحد أقارب امرأة العزيز، وكلمة ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ دليل على ذلك. وعلى القاعدة فهو رجل حكيم وعارف ذكي بحيث استطاع أن يستنبط الحكم من قدّ الثوب دون أن يكون لديه شاهد أو بيّنة. بل اكتشف حقيقة الحال... ويقال: إنّ هذا الرجل كان من مشاوري عزيز مصر وكان معه.

التّفسير الآخر: إنّ الشاهد كان طفلاً رضيعاً من أقارب امرأة العزيز وكان على مقربة من الحادث، وكان يوسف قد طلب من عزيز مصر أن يحتكم إلى هذا الطفل، فتعجّب عزيز مصر من هذا الطلب... تُرى هل يمكن هذا؟! لكن «الطفل» حين تكلّم - كما

(١) ورد التعبير بالخاطئين وهو جمع مذكّر، ولم يرد التعبير بالخاطئات الذي هو جمع مؤنث، لأنّ جمع المذكّر السالم يُغلّب في كثير من الموارد ويطلق على جماعة الذكور والإناث أي «إنّك في زمرة الخاطئين».

تكلّم المسيح عليه السلام في المهد - وأعطى هذا المعيار لمعرفة البريء من المسيء، التفت عزيز مصر إلى أنّ يوسف ليس غلاماً (عادياً) بل هو نبي أو متنبي.

والرّوايات المنقولة عن طريق أهل البيت عليهم السلام وأهل السنّة تشير إلى هذا التّفسير، من جملتها ما نقله ابن عبّاس عن النّبي صلى الله عليه وآله: أنّه قال: «أربعة تكلّموا أطفالاً: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريح، وعيسى ابن مريم»(١).

كما نقل عن تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ شاهد يوسف كان طفلاً في المهد(٢).

ولكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ أيّاً من الحديثين المتقدّمين ليس له سند قوي، بل هما مرفوعان.

الاحتمال الثالث: إنّ الشاهد هو القدّ في الثوب الذي تكلّم بلسان الحال، ولكن مع ملاحظة كلمة ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ يضعّف هذا الاحتمال، بل ينفيه!.

٢ - الموقف الضعيف لعزيز مصر

من جملة المسائل التي تستجلب الانتباه في هذه القصّة أنّ في مثل هذه المسألة المهمّة التي طُعن فيها بناموس عزيز مصر وعرضه، كيف يكتفي قانعاً بالقول ﴿وَاسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِـِٔينَ﴾ وربّما كانت هذه المسألة سبباً لأن تدعو امرأة العزيز نساء الأشراف إلى مجلسها الخاص، وتكاشفهنّ بقصّة حبّها وغرامها بجلاء.

تُرى: أكان هذا خوفاً من الافتضاح، فاختصر عزيز مصر هذه المسألة وغضّ النظر عنها!؟

أم أنّ هذه المسألة - أساساً - ليست بذات أهميّة للحكّام ومالكي أزمّة الأُمور والطواغيت، فهم لا يكترثون للغيرة وحفظ الناموس، لأنّهم ملوّثون بالذنوب وغارقون في مثل هذه الرذائل والفساد حتى كأنّه لا أهميّة لهذا الموضوع في نظرهم.

يبدو أنّ الاحتمال الثّاني أقرب للنظر!.

٣ - حماية الله في الأزمات

الدرس الكبير الآخر الذي نتعلّمه من قصّة يوسف، هو حماية الله ورعايته للإنسان

---

(١) تفسير المنار، ج١٢، ص٢٨٧؛ بحار الأنوار، ج ٣٨، ص ٢٣٥ بتفاوت يسير.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج١٢، ص٤٢٢.

الأكيدة في أشدّ الحالات، وبمقتضى قوله: ﴿يجعل له مخرجا ۝٢ ويرزقه من حيث لا يحتسب ۝٣﴾(١). فمن جهة كان يوسف لا يُصدّق أبداً أنّ نافذة من الأمل ستفتح له، ويكون قدُّ القميص سنداً للطهارة والبراءة، ذلك القميص الذي يصنع الحوادث، فيوماً يفضح إخوة يوسف لأنّهم جاؤوا أباهم وهو غير ممزّق، ويوماً يفضح امرأة العزيز لأنّه قدّ من دُبر، ويوماً آخر يهب البصر والنّور ليعقوب، وريحه المعروف يسافر مع نسيم الصباح من مصر إلى أرض كنعان ويبشّر العجوز «الكنعاني» بقدوم موكب البشير!.

وعلى كلّ حال فإنّ لله ألطافاً خفيّة لا يسبر غورها أحد، وحين يهبّ نسيم هذه الألطاف تتغيّر الأسباب والمسبّبات بشكل لا يمكن حتى لأذكى الأفراد أن يتنبّأ عنها!.

بل قد يتّفق أحياناً أنّ خيوط العنكبوت تبدّل مسير الحياة لأُمّة أو قوم بشكل دائم، كما حدث في قصّة غار ثور وهجرة النّبي ﷺ.

٤ - خطّة امرأة العزيز

في الآيات المتقدّمة إشارة إلى مكر النسوة (طبعاً النساء اللائي لا ارتباط لهنّ بشيء إلاّ هواهنّ كامرأة العزيز) وهذا المكر والتحيّل الموصوف بالعظمة ﴿إنّ كيدكنّ عظيم﴾ يوجد منه

في التاريخ والقصص التاريخيّة أمثلة كثيرة، حيث تكشف إجمالا أنّ النساء اللائي يسوقهنّ هواهنّ يرسمن خططاً لا نظير لها من نوعها.

رأينا في القصّة المتقدّمة كيف أنّ امرأة العزيز بعد الهزيمة في عشقها وافتضاح أمرها، برّأت نفسها بمهارة واتّهمت يوسف ولم تقل إنّ يوسف قصد السوء بي، بل افترضت ذلك أمراً مسلّماً به. وإنّما سألت فقط عن جزاء مثل من يعمل هذا العمل!! جزاءً لا يتوقّف على السجن فحسب، بل يأخذ أبعاداً أُخرى غير محدودة.

ونرى أيضاً أنّ هذه المرأة في مقابل لوم نسوة مصر لها إذ عشقت غلامها - في الآيات التالية - تستعمل مثل هذا المكر أو الخداع، وهذا تأكيد آخر على مكر مثل هؤلاء النسوة!

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ - ٣.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

مؤامرة أخرى

بالرغم من أنّ عشق امرأة العزيز - المذكور آنفاً - كان مسألة خصوصية بحيث أكّد حتى العزيز على كتمانها، ولكن حيث إنّ هذه الأسرار لا تبقى خافية، ولا سيّما في قصور الملوك وأصحاب المال والقوّة - التي في حيطانها آذان صاغية - فسوف تتسرّب إلى خارج القصر كما يقول القرآن في هذا الشأن: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ثمّ لُمْنها وعنّفنها بهذه الجملة ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وواضح أنّ المتحدّث بمثل هذا الكلام كنّ نساء أشراف مصر حيث كانت أخبار القصور المفعمة بفساد الفراعنة والمستكبرين مثيرةً لهنّ وكنّ يستقصينها دائماً.

لم يكن فساد هؤلاء النسوة بأقلّ من امرأة العزيز ولكنّ أيديهنّ لم تصل إلى يوسف، وكما يقول المثل - «العين بصيرة واليد قصيرة» فكنّ يرين امرأة العزيز بسبب هذا العشق في ضلال مبين.

ويقول بعض المفسّرين: إنّ إذاعة هذا السرّ من قبل هذه المجموعة من نساء مصر، كانت خطّة لتحريك امرأة العزيز حتى تدعوهنّ إلى قصرها لتكشف لهنّ عن براءتها وتريهن يوسف وجماله!

ولعلّهنّ كنّ يتصوّرن أنّ يوسف إذا رآهنّ بهره جمالهنّ، وربّما رآهنّ أجمل من امرأة العزيز، ولأنّ يوسف كان يحترم امرأة العزيز احترام الولد لوالدته - أو مربّيته - فهو لا يطمع فيها، ولهذا السبب يكون احتمال نفوذهنّ إلى قلبه أقوى من نفوذ امرأة العزيز إليه!.

«الشغف» من مادّة «الشغاف» ومعناه أعلى القلب أو الغشاء الرقيق المحيط بالقلب، وشغفها حبّاً معناه أنّها تعلّقت به إلى درجة بحيث نفذ حبّه إلى قلبها واستقرّ في أعماقه.

وهذا التعبير إشارة إلى العشق الشديد والملتهب.

يذكر «الآلوسي» في تفسيره «روح المعاني» نقلاً عن كتاب أسرار البلاغة مراتب الحبّ والعشق ونشير هنا إلى قسم منها:

فأوّل مراحل الحبّ «الهوى» ومعناه الميل، ثمّ «العلاقة» وهي المحبّة الملازمة للقلب، وبعدها «الكلف» وهو الحبّ الشديد، ثمّ «العشق» وبعده «الشعف» بالعين المهملة أي الحالة التي يحترق القلب فيها من الحبّ ويحسّ باللّذة من هذه الحالة... وبعدها «اللوعة» ثمّ «الشغف» وهو المرحلة التي ينفذ العشق فيها إلى جميع زوايا القلب، ثمّ «الوله» وهو المرحلة التي تخطف عقل الإنسان من العشق، وآخر المراحل «الهيام» وهو المرحلة التي تذهل العاشق وتجرّه إلى كلّ جهة دون اختياره[(١)].

هناك مسألة جديرة بالالتفات وهي: من الذي أذاع هذا السرّ؟ هل كان من امرأة العزيز التي لم ترغب في هذه الفضيحة أبداً! أو من قبل العزيز نفسه! وكان يؤكّد على كتمان السرّ، أو القاضي الحكيم الذي حكم في الأمر، ويُستبعد منه هذا العمل؟!

وعلى كلّ حال فإنّ مثل هذه المسائل في هذه القصور المفعمة بالفساد لا تبقى طيّ الكتمان، وأخيراً فإنّها تنتقل على ألسنة الذين يظهرون الحرص على شرف القصر وتنتشر، ومن الطبيعي أن يضيف عليها آخرون أوراقاً وأغصاناً.

أمّا امرأة العزيز فقد وصلها ما دار بين النسوة من افتضاحها ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾[(٢)].

---

(١) تفسير روح المعاني ج ١٢، ص ٢٠٣.

(٢) «المتكأ» ما يتكأ عليه كالكراسي والأسرّة، وما يوضع خلف الظهر كما هو معروف في القصور، ولكن البعض قال: إنّ المتكأ هو نوع من الفواكه المعروفة «بالأترنج» والذين فسّروا المتكأ بالمعنى المتقدّم قالوا أيضاً: إنّها فاكهة «الأترنج» وهي فاكهة من فصائل الحمضيات لها قشر ضخم يستعمل في المربيات، وهذه الفاكهة في مصر خفيفة الحموضة وتؤكل!

هذا العمل دليل على أنّ امرأة العزيز لم تكن تكترث بزوجها، ولم تأخذ الدرس من فضيحتها، ثمّ أمرت يوسف أن يتخطّى في المجلس ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وتعبير ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ بدلاً من «ادخل» يشير إلى أنّها كانت أخفت يوسف داخل البيت، أو جعلته مشغولا في إحدى الغرف التي يوضع فيها الغذاء عادةً حتى يكون دخوله إلى المجلس مفاجأة للجميع.

نساء مصر - وطبقاً لبعض الرّوايات التي تقول: كنّ عشراً... أو أكثر - فوجئن بظهور يوسف كأنّه البدر أو الشمس الطالعة، فتحيّرن من جماله ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ وفقدن أنفسهنّ ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ مكان الفاكهة، وحين وجدن الحياء والعفّة تشرقان من عينيه وقد احمّر وجهه خجلاً صحن جميعاً و﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[١].

وهناك أقوال بين المفسّرين في أنّ النسوة إلى أي حدّ قطّعن أيديهن؟ فمنهم من بالغ في الأمر، ولكن كما يستفاد من القرآن على نحو الإجمال أنّهن جرحن أيديهنّ.

وفي هذه الحال التي كانت الدماء تسيل من أيدي النسوة وقد لاحظن ملامح يوسف كلّها وصرن أمامه «كالخُشُبِ المسنَّدة» كشفن عن أنّهن لسن بأقل من امرأة العزيز عشقاً ليوسف، فاستغلّت امرأة العزيز هذه الفرصة فـ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

فكأنّ امرأة العزيز أرادت أن تقول لهنّ: لقد رأيتن يوسف مرّة واحدة فحدث لكنّ ما حدث وفقدتُنّ صوابكن وقطعتن أيديكن من جماله وعشقه، فكيف أُلام وأنا أراه وأسكن معه ليل نهار؟!

وهكذا أحسّت امرأة العزيز بالغرور لأنّها وُفّقت في ما ألقته من فكرة وأعطت لنفسها العذر، واعترفت بكلّ صراحة بكلّ ما فعلت وقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

وبدلاً من أن تظهر الندم على كلامها أو تتحفّظ على الأقل أمام ضيوفها، أردفت القول بكلّ جدّ يحكي عن إرادتها القطعيّة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ ... ولا أكتفي بسجنه، بل ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

ومن الطبيعي أنّه إذا اكتفى عزيز مصر إزاء خيانة امرأته بالقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾

---

(١) ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ من مادّة «حشى» معناها الطرف أو الناحية... والتحاشي الابتعاد ومفهوم جملة ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي إنّ الله منزّه، وهي إشارة إلى أنّ يوسف عبد منزّه وطاهر.

فينبغي أن تجرّ امرأته الفضيحة إلى هذه المرحلة... وأساساً فإنّ مثل هذه الأمور والمسائل في قصور الفراعنة والملوك ليست أموراً مهمّة.

ينقل البعض روايات عجيبة مؤدّاها أنّ بعضاً من نسوة مصر أعطين الحقّ لامرأة العزيز ودرن حول يوسف ليرغبّنه بأن يستسلم لحبّها وكلّ واحدة تكلّمت بكلام![1]

فقالت واحدة: أيّها الشاب ما هذا الصبر والدلال، ولِمَ لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، ألا ترى هذا الجمال الآسر؟ أليس عندك قلب؟! ألست شابّاً؟ ألا تستلذّ بالعشق والجمال، فهل أنت حجارة أو خشب؟!

وقالت الثّانية: إذا كنت لا تعرف عن الجمال والعشق شيئاً... لكن ألا تدري أنّ امرأة العزيز ذات نفوذ وقدرة... ألا تفكّر أن لو ملكت قلبها فستنال كلّ شيء وتبلغ أيّ مقام شئت...

وقالت الثّالثة: إذا كنت لا ترغب في جمالها المثير ولا تحتاج إلى مقامها ومالها، ولكن ألا تعرف أنّها ستنتقم لنفسها بما أُوتيت من وسائل الانتقام الخطرة، ألا تخاف من السجن ووحشته ومن الغربة المضاعفة فيه؟!

تهديد امرأة العزيز من جانبها بالسجن والإذلال من جهة، ووساوس النسوة الملوّثات اللائي خطّطن ليوسف كما يخطّط الدلاّل من جهة أُخرى، أوقعا يوسف في أزمة شديدة، وأحاط به طوفان المشاكل، ولكن حيث إنّ يوسف كان قد صنع نفسه، وقد أوجد نور الإيمان والعفّة والتقوى في قلبه هدوءاً وسكينة خاصّة، فقد صمّم بعزم وشجاعة والتفت نحو السّماء ليناجي ربّه وهو في هذه الشدّة ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾.

وحيث كان يدري أن لا مهرب له إلاّ إلى الله في جميع الأحوال ولا سيما في الساعات الحرجة، فقد أودع نفسه عند الله بهذا الكلام ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ربّاه... إنّني أتقبّل السجن الموحش رعاية لأمرك وحفظاً لطهارة نفسي... هذا السجن تتحرّر فيه روحي وتطهّر نفسي، وأنا أرفض هذه الحريّة الظاهرية التي تأسر روحي في سجن «الشهوة» وتلوّث نفسي.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٧٦.

ربّاه. . . أعِنّي، وهب لي القوّة، وزدني قدرةً وعقلاً وإيماناً وتقوى، حتى أنتصر على هذه الوساوس!

وحيث إنّ وعد الله حقّ، وأنّه يُعين المجاهد (لنفسه أو لعدوّه) فإنّه لم يترك يوسف سُدىً وتلقفته رحمته ولطفه كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فهو يسمع نجوى عبيده، وهو مطلع على أسرارهم، ويعرف طريق الحلّ لهم.

ملاحظات:

١ - كما رأينا من قبلُ فإنّ امرأة العزيز ونسوة مصر، استفدن من أُمور مختلفة في سبيل الوصول إلى مرادهن، فمرّة بإظهار العشق والعلاقة الشديدة والتسليم المحض، ومرّة بالترغيب والطمع، ثمّ بالتهديد، أو بتعبير آخر: توسلن بالشهوة والمال والقوّة!!

وهذه أُصول متّحدة المآل يتوسّل بها الطغاة والمتجبرون في كلّ عصر وزمان، حتى لقد رأينا كراراً ومراراً أنّهم ومن أجل أن يجبروا رجال الحقّ على الاستسلام، يظهرون لهم في مجلس واحد ليناً للغاية ويلوّحون بالمساعدات وأنواع الإمداد ترغيباً، ثمّ يتوسلون في نهاية المجلس بالتهديد والوعيد، ولا يلتفتون إلى ما في هذا من التناقض في مجلس واحد وما فيه من دناءة وخسّة ولؤم فاضح.

والسبب واضح. . . فهم يريدون الهدف ولا تهمّهم الوسيلة، وبتعبير آخر: يستسيغون للوصول إلى أهدافهم أي أُسلوب وأيّة وسيلة كانت.

وفي هذا المحيط يستسلم الأفراد الضعاف، سواء في أوّل المرحلة أو وسطها أو نهايتها، إلاّ أنّ أولياء الحقّ لا يكترثون بهذه الأساليب بما لديهم من شهامة وشجاعة ونور الإيمان ويرفضون التسليم بضرس قاطع حتى ولو أدّى ذلك إلى الموت. . . وعاقبتهم الانتصار طبعاً، انتصار أنفسهم وانتصار مبادئهم، أو على الأقل انتصار مبادئهم.

٢ - كثيرون هم مثل نسوة مصر، فطالما هم جالسون حول الحمى يظهرون أنفسهم منزّهين وأتقياء ويلبسون ثياب العفّة ويعدّون الانحراف - كما هو في امرأة العزيز - في ضلال مبين.

ولكن حين يتعرّضون لأدنى صدمة ينكشف أنّ أقوالهم لا تصدّق أفعالهم. . . فإذا كانت امرأة العزيز بعد سنين من معاشرة يوسف قد وقعت في شرك حبّه وعشقه، فإنّهم في أوّل مجلس يبتلون بمثل هذا المصير ويقطّعون «الأيدي» مكان «الأترنج».

٣ - هنا قد يرد سؤال وهو: لِمَ وافق يوسف على طلب امرأة العزيز وخرج على النسوة في المجلس؟ المجلس الذي ترتّب من أجل الإثم، أو لتبرئة امرأة آثمة؟!

ولكن مع ملاحظة أنّ يوسف كان بحسب الظاهر غلاماً مشترى وعليه أن يخدم في القصر، فلعلّ امرأة العزيز استغلّت هذه الفرصة والحيلة ليأتي بالطعام مثلاً دون أن يعرف بهذه الخطّة ومكر النسوة.

وخاصّة أنّنا قلنا إنّ تعبير القرآن ﴿اَخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ كما يظهر منه أنّه لم يكن خارجاً، بل كان في إحدى الغرف المجاورة للمجلس كالمطبخ مثلاً.

٤ - جملة ﴿يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وجملة ﴿تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ تدلاّن جيّداً على أنّ نسوة مصر - ذوات الهوى - بعد ما جرى لهنّ من تقطيع الأيدي والانبهار بجمال يوسف، وردن هذا الميدان أيضاً وطلبن من يوسف أن يستسلم لهنّ أو لامرأة العزيز، ولكن يوسف أبى عليهنّ جميعاً(١)، وهذا يعني أنّ امرأة العزيز لم تكن وحدها في الجريمة بل كان لها شريكات في ذلك.

٥ - حين يقع الإنسان أسيراً بقبضة الشدائد والحوادث وتجرّه إلى شفى الهاوية، فعليه أن يتوكّل على الله ويلتجىء إليه ويستمدّ منه فقط، فإذا لم يحظ بلطفه وعونه فإنّه لا يستطيع أن يقوم بأي عمل، وهذا درس علّمنا إيّاه يوسف العظيم الطاهر الذيل، فهو القائل: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ﴾ فأنت يا ربّ الحافظ لي، ولا أعتمد على قواي وقدرتي وتقواي.

هذه الحالة «التعلّق المطلق بلطف الله» بالإضافة إلى أنّها تمنح عباد الله قدرة واستقامة غير محدودة، فهي تشملهم بألطافه الخفيّة... تلك الألطاف التي لا يمكن وصفها والتصديق بها إلاّ عند رؤيتها ومشاهدتها.

فهؤلاء هم الذين يسكنون في ظلّ الله ورحمته في الدنيا والآخرة... فقد ورد حديث عن النبي ﷺ في هذا الشأن يقول: «سبعة يظلّهم الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: إمام عادل، وشابّ نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ، ورجل قلبه متعلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان كانا على طاعة الله عزّ وجلّ فاجتمعا على ذلك وتفرّقا، ورجل ذكر الله عزّ وجلّ خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إنّي

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٧٦.

أخاف الله تعالى، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تصدّق بيمينه»[1].

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

التّفسير

السّجن بسبب البراءة

انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف في قصر العزيز في تلك الغوغاء والهياج، ولكنّ خبره - بالطبع - وصلَ إلى سمع العزيز... ومن مجموع هذه المجريات اتّضح أنّ يوسف لم يكن شاباً عاديّاً، بل كان طاهراً لدرجة لا يمكن لأي قوّة أن تجرّه إلى الانحراف والتلوّث، واتّضحت علامات هذه الظاهرة من جهات مختلفة، فتمزّق قميصه من دُبر، ومقاومته أمام وساوس نسوة مصر، واستعداده لدخول السجن وعدم الاستسلام لتهديدات امرأة العزيز بالسجن والعذاب الأليم، كلّ هذه الأُمور أدلّة على طهارته لا يمكن لأحد أن يسدل عليها الستار أو ينكرها!.

ولازم هذه الأدلّة إثبات عدم طهارة امرأة العزيز وانكشاف جريمتها، وعلى أثر ثبوت هذه الجريمة فإنّ الخوف من فضيحة جنسية في أُسرة العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم.

---

(١) سفينة البحار، ج١، ص٥٩٥، مادّة «ظلّ». وسائل الشيعة، ج ٥، ص ١٩٩، ح ٦٣٢٣؛ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٦١، ح ٤٢.

فكان الرأي بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس اسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أوّلاً، وليشيع بين الناس أنّ المذنب الأصلي هو يوسف ثانياً، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾.

التعبير بكلمة ﴿بَدَا﴾ التي معناها ظهور الرأي الجديد، يدلّ على أنّ مثل هذا التصميم في حقّ يوسف لم يكن من قبل، ويحتمل أن تكون هذه الفكرة اقترحتها امرأة العزيز لأوّل مرّة... وبهذا دخل يوسف النزيه - بسبب طهارة ثوبه - السجن، وليست هذه أوّل مرّة ولا آخرها أن يدخل الإنسان النزيه «بجريرة نزاهته» السجن!!

أجل... في المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين الذين يسيرون مع التيار وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب،... بل إنّ الأفراد النجباء كيوسف الذي لا يتلاءم مع ذلك المحيط ولونه ويتحرّك على خلاف مجرى الماء! ينبغي أن يقبعوا في زاوية النسيان... ولكن إلى متى؟ هل تستمر هذه الحالة؟... قطعاً لا...

ومن جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾.

وحيث إنّ الظروف لم تكن تسمح للإنسان أن يحصل فيها على الأخبار بطريق عادي، فإنّه يأنس لأحاسيس الآخرين ليبحث عن مسير الحوادث ويتوقّع ما سيكون، حتى أنّ الرؤيا وتعبيرها عنده يكون مطلباً مهمّاً.

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوماً هذان الفتيان اللذان يقال: إنّ أحدهما كان ساقياً في بيت الملك، والآخر كان مأموراً للطعام والمطبخ، وبسبب وشاية الأعداء وسعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسمّ الملك، وتحدّث كلّ منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة وكانت بالنسبة له أمراً عجيباً.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ ثمّ أضافا ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وحول معرفة الفتيين واطلاعهما على أنّ يوسف له خبرة بتأويل الأحلام هناك أقوال بين المفسّرين:

قال بعضهم: إنّ يوسف نفسه أخبر السجناء بأنّ له اطلاعاً واسعاً في تفسير الأحلام، وقال بعضهم: إنّ سيماء يوسف الملكوتية كانت تدلّ على أنّه ليس فرداً عادياً... بل هو

فرد عارف مطّلع وصاحب فكر ونظر، ولابدّ أن يكون مثل هذا الشخص قادراً على حلّ مشاكلهم في تعبير الرؤيا.

وقال البعض الآخر: إنّ يوسف من بداية دخول السجن برهن - بأخلاقه الحسنة والمعاشرة الطيّبة للسجناء وخدمتهم وعيادة مرضاهم - أنّه رجل صالح وحلاّل المشاكل، لذلك كانوا يلتجئون إليه في حلّ مشاكلهم ويستعينون به.

وهناك ملاحظة جدير ذكرها، وهي أنّ القرآن عبّر بـ «الفتى» مكان «العبد» وهو نوع من الاحترام، وعندنا في الحديث «لا يقولنّ أحدكم عبدي وأمتي ولكن فتاي وفتاتي»[1] ليكون العبيد في مراحل الانعتاق والحريّة التي نظّمها الإسلام في مأمن من كلّ أنواع التحقير.

التعبير بـ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ إمّا لأنّه رأى في النوم أنّه يعصر العنب للشراب أو العنب المخمّر الذي في الدن، وهو يعصره ليصفّيه مستخرجاً منه الشراب، أو أنّه يعصر العنب ليقدّم عصيره للملك!.. دون أن يكون خمراً، وحيث إنّ العنب يمكن أن يتبدّل خمراً أطلق عليه لفظ الخمر.

والتعبير بـ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ بدلاً من «إنّي رأيت» هو بعنوان حكاية الحال، أي إنّه يفرض نفسه في اللحظة التي يرى فيها الرؤيا «النوم»، وهذا الكلام لتصوير تلك الحالة.

وعلى كلّ حال فقد اغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا - وكان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء ونصحهم - وبحجّة التعبير كان يبيّن حقائق مهمّة تفتح لهم السُّبُل ولجميع الناس أيضاً.

في البداية، ومن أجل أن يستلفت اهتمامهما واعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذي كان مثار اهتمامهما وتوجّههما ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾.

وبهذا فقد طمأنهما أنّهما سيجدان ضالّتهما قبل وصول الطعام إليهما.

وهناك احتمالات كثيرة في هذه الجملة بين المفسّرين، من جملتها: إنّ يوسف قال: أنا بأمر الله مطّلع على بعض الأسرار، لا أنّي أستطيع تعبير الأحلام فحسب، بل أنا أستطيع حتى إخباركم بما سيأتيكم من الطعام وما نوعه وبأي صورة وأي خصوصية!.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣٢.

فعلى هذا يكون التأويل بمعنى ذكر خصوصيات ذلك الطعام، وإن كان التأويل قليل الاستعمال في مثل هذا المعنى طبعاً، ولا سيّما أنّه ورد في الجملة السابقة بمعنى تعبير الرؤيا.

والاحتمال الآخر من مقصود يوسف هو: إنّ أي نوع من الطعام ترونه في النوم فأنا أعرف ما تأويله (ولكن هذا الاحتمال لا ينسجم مع الجملة السابقة) ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

فعلى هذا يكون أحسن التفاسير للجملة المتقدّمة، هو التّفسير الأوّل الذي ذكرناه في بداية الحديث.

ثمّ إنّ يوسف أضاف إلى كلامه مقروناً بالإيمان بالله والتوحيد الجاري بجميع أبعاده في أعماق وجوده، ليبيّن بوضوح أن لا شيء يتحقّق إلاّ بإرادة الله قائلاً: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ ولئلاّ يتصوّر أنّ الله يمنح مثل هذه الأُمور دون حساب، قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

والمقصود بهذه الملّة أو الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر أو عبدة الأصنام من كنعان.

وينبغي لي أن أترك مثل هذه العقائد لأنّها على خلاف الفطرة الإنسانية النقيّة، ثمّ إنّي تربّيت في أُسرة الوحي والنبوّة ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

ولعلّ هذه هي أوّل مرّة يعرّف يوسف نفسه للسجناء بهذا التعريف، ليعلموا أنّه سليل الوحي والنبوّة وقد دخل السجن بريئاً... كبقيّة السجناء الأبرياء في حكومة الطواغيت.

ثمّ يضيف على نحو التأكيد ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ لأنّ أُسرتنا أُسرة التوحيد... أُسرة إبراهيم محطّم الأصنام ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وعلى هذا فلا تتصوّروا أنّ هذا الفضل والحبّ شملا أُسرتنا أهل النبوّة فحسب، بل هي الموهبة العامّة التي تشمل جميع عباد الله المودعة في أرواحهم المسمّاة بالفطرة حيث يتكاملون بقيادة الأنبياء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

جدير بالذكر والالتفات أنّ «إسحاق» عُدّ في الآية المتقدّمة في زمرة «آباء يوسف» في حين أنّنا نعرف أنّ يوسف هو ابن يعقوب ويعقوب هو ابن إسحاق، فتكون كلمة أب بهذا مستعملة في الجدّ أيضاً.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ
خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ
تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ
فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

التّفسير

السّجن أو مركز التّربية

حين هيّأ يوسف في البحث السابق قلوب السجينين لقبول حقيقة التوحيد، توجّه إليهما وقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

فكأنّ يوسف يريد أن يفهم السجينين أنه لِمَ تريانِ الحرية في النوم ولا تريانها في اليقظة؟! أليس ذلك من تفرقتكم وشرككم ونفاقكم الذي مصدره عبادة الأوثان والأرباب المتفرّقين ممّا سبّب أن يتغلّب عليكم الطغاة والجبابرة؟! فلِمَ لا تجتمعون تحت راية التوحيد، وتعتصموا بحبل الواحد القهّار، لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين والجبابرة الذين يسوقونكم إلى السجن أبرياء دون ذنب؟!

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ بل هي صنع عقولكم العاجزة وأفكاركم المنحرفة... ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ فلا ينبغي أن تطأطئوا رؤوسكم لسواه من الطغاة والفراعنة، ثمّ أضاف زيادة في التأكيد قائلاً: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾.

أي إنّ التوحيد في جميع أبعاده - في العبادة، في الحكومة، في المجتمع، في المسائل الثقافية، وفي كلّ شيء - هو الدين الإلهي المستقيم والثابت. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ولذلك خضعوا لحكومة غير (الله) فذاقوا الشقاء والسجون في هذا السبيل.

وبعد أن أرشد يوسف صاحبي سجنه ودلّهما ودعاهما إلى حقيقة التوحيد، بدأ بتعبير الرؤيا لهما... لأنّهما من البداية جاءا لهذا الأمر وقد وعدهما بتعبير الرؤيا، ولكنّه اغتنم الفرصة وحدّثهما عن التوحيد الحي والمواجهة مع الشرك، ثمّ التفت إليهما وقال: ﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

وبالرغم من تناسب كلّ رؤيا مع ما عبّره يوسف، فكان معلوماً إجمالا مَن الذي يطلق من السجينين؟ ومن الذي يصلب منهما؟ إلاّ أنّ يوسف لم يرغب في أن يُبيّن التعبير بصراحة أكثر من هذه... خاصّة وأنّ فيه خبراً غير مريح، لذلك جعل التعبير تحت عنوان ﴿أَحَدُكُمَا﴾.

ثمّ أضاف مؤكداً ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وهو إشارة إلى أنّ هذا التعبير ليس تعبيراً ساذجاً، بل هو من أنباء الغيب التي تعلّمها من الله، فلا مجال للترديد والكلام بعد هذا.

في كثير من التفاسير ورد في ذيل الجملة المتقدّمة أنّ السجين الثّاني الذي سمع بالخبر المزعج أخذ يكذّب رؤياه ويقول: كنت أمزح معك، ظانّاً أنّ مصيره سيتبدّل بهذا التكذيب، فعقّب عليه يوسف بالجملة المتقدّمة![1]

ويحتمل أيضاً أنّ يوسف كان قاطعاً في تعبير الرؤيا إلى درجة بحيث ذكر الجملة المتقدّمة تأكيداً لما سبق بيانه.

وحين أحسّ يوسف أنّ السجينين سينفصلان عنه عاجلاً، ومن أجل أن يجد يوماً يُطلق فيه ويُبّرأُ من هذه التهمة، أوصى أحد السجينين الذي كان يعلم أنّه سيطلق أن يذكره عند الملك ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ لكن هذا الغلام «الناسي» مثله مثل الأفراد قليلي الاستيعاب، ما إن يبلغوا نعمةً ما حتى ينسوا صاحبها، وهكذا نسي يوسف تماماً، ولكن القرآن عبّر عن ذلك بقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ وهكذا أصبح يوسف منسيّاً ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

هناك أقوال بين المفسّرين في أنّ الضمير من ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ هل يعود على ساقي الملك، أم على يوسف؟ كثير من المفسّرين يعيدون الضمير على يوسف فيكون المعنى: إنّ الشيطان أنسى يوسف ذكر الله فتوسّل بسواه.

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٣٠؛ تفسير الصافي، ج ٣، ص ٢١.

ولكن مع ملاحظة الجملة السابقة التي تذكر أنّ يوسف كان يوصي صاحبه أن يذكره عند ربّه، يظهر أنّ الضمير يعود على الساقي نفسه.

وكلمتا «الربّ» في المكانين بمعنى واحد.

كما أنّ جملة ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾(١) التي ستأتي في الآيات التالية، تدلّ على أنّ الذي نسي هو الساقي.

ولكن سواءً عاد الضمير على يوسف أم على صاحبه، فما من شكّ من أنّ يوسف توسّل بالغير في سبيل نجاة نفسه!

وبديهي أنّ مثل هذا التوسّل للنجاة من السجن ومن سائر المشاكل، ليس أمراً غريباً بالنسبة للأفراد العاديين، وهو من قبيل التوسّل بالأسباب الطبيعية، ولكن بالنسبة للأفراد الذين هم قدوة وفي مكانة عالية من الإيمان والتوحيد، لا يمكن أن يخلو من إيراد، ولعلّ هذا كان سبباً في بقاء يوسف في السجن بضع سنين، إذ لم يرض الله سبحانه ليوسف «ترك الأولى»!.

في حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «عجيب من أخي يوسف كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق؟»(٢) وروي أنّه قال: «لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث» يعني قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

وروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «جاء جبرئيل عليه السلام فقال: يا يوسف من جعلك أحسن الناس؟ قال: ربّي، قال: فمن حبّبك إلى أبيك دون إخوانك؟ قال: ربّي، قال: فمن ساق إليك السيارة؟ قال: ربّي، قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربّي، قال: فمن أنقذك من الجُبّ؟ قال: ربّي، قال: فمن صرف عنك كيد النسوة؟ قال: ربّي، قال: فإنّ ربّك يقول: ما دعاك إلى أن تنزل حاجتك بمخلوق دوني؟ البث بالسجن بما قلت بضع سنين»(٣).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٥.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣٥، ذيل الآية مورد البحث؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٢٧.

(٣) مجمع البيان في تفسير الآية، الجزء ٣، ص٢٣٥. وج ٥، ص ٢٣٥؛ مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ٢٢٢، ح ١٢٨١ - ٣.

بحوث

١ - السّجن مركز للإرشاد أو بؤرة للفساد

للسجن تأريخ مؤلم ومثير للغمّ جدّاً في هذا العالم، فأسوأ المجرمين وأحسن الناس كلاهما دخل السجن، ولهذا السبب كان مركزاً دائماً لأفضل الدروس البنّاءة أو لأسوأ الاختبارات.

وفي الحقيقة إنّ السجون التي يجتمع فيها المفسدون تعدّ معهداً عالياً للفساد! ففي هذه السجون تتمّ مبادلة الخطط التخريبيّة والتجارب... وكلّ منحرف يعلم درسه للآخرين، ولهذا السبب حين يطلقون من السجن يواصلون طريقهم بأُسلوب أكثر مهارة من السابق وبتشكيل جديد... إلاّ أن يلتفت مسؤولو السجن لهذا الموضوع، ويعملوا على تغيير هؤلاء الأفراد الذين فيهم الاستعداد والقابلية إلى عناصر صالحة ومفيدة وبنّاءة.

وأمّا السجون التي تتشكّل من الصالحين والأبرياء والنزيهين والمجاهدين في طريق الحقّ والحرية، فهي معاهد ومراكز لتعليم الدروس العقائديّة والطرق العملية للجهاد والمبارزة والبناء.

وهذه السجون تعطي فرصة طيّبة للمنافحين في طريق الحقّ ليؤدّوا دورهم، وينسّقوا جهودهم بعد التحرّر من هذه السجون.

وحين انتصر يوسف على امرأة محتالة ماكرة متّبعة لهواها - كامرأة عزيز مصر - ودخل السجن، سعى أن يبدّل محيط السجن إلى محيط بنّاء ومركز للتعليم والتربية، حتى أنّه وضع أساس حريته وحرية الآخرين ضمن تخطيطه هناك.

وهذا الماضي يعطينا درساً مهمّاً، وهو أنّ الإرشاد والتربية ليسا محدودين في مركز معيّن كالمسجد والمدرسة - مثلاً - بل ينبغي أن يستفاد من كلّ فرصة سانحة للوصول إلى هذا الهدف، حتى ولو كانت في السجن وتحت أثقال القيود.

أمّا عدد السنوات التي قضاها يوسف في السجن، فهناك أقوال بين المفسّرين، والمشهور أنّها سبع سنوات، إلاّ أنّ بعضهم قال: إنّ يوسف بقي في السجن اثنتي عشرة سنة، خمس قبل رؤيا صاحبي سجنه، وسبع بعدها، وكانت سنوات ملأى بالتعب والنَّصب إلاّ أنّها من جهة الإرشاد كانت سنوات مفعمة بالبركة والخير[1].

---

(١) لزيادة الإيضاح في سنوات سجن يوسف يراجع تفسير المنار، والقرطبي، والميزان، والفخر الرازي.

٢ - حين يُصلبُ المصلحون!

من الطريف أنّنا نقرأ في هذه القصّة أنّ الذي رأى في منامه أنّه يعصر خمراً ويقدّمه للملك قد تحرّر وأطلق من السجن، وأنّ الذي رأى أنّه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه قد صعد عود المشنقة.

أليس مفهوم هذا أنّ الذين هم على خُطى الشّهوات وفي محيط المفسدين وأنظمة الطغاة ينالون الحريّة، وأمّا الذين يقدّمون خدمة للمجتمع ويعطون الخبز للناس فليس من حقّهم الحياة! وينبغي أن يموتوا؟ فهذا نسيج المجتمع الذي يحكمه النظام الفاسد... وهذه نهاية الصالحين في أمثال هذا المجتمع!.

صحيح أنّ يوسف - اعتماداً على الوحي الإلهي وعلم التعبير - توقّع ما كان، ولكنّ أيّ معبّر لا يمكن له أن يبعد عن نظره هذه المناسبات!

ففي الحقيقة إنّ الخدمة في مثل هذه المجتمعات ذنب عظيم، والخيانة والإساءة هي الثواب بعينه!.

٣ - أكبر دروس الحريّة

رأينا أنّ أكبر درس علّمه يوسف للسجناء هو درس التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد، ذلك الدرس الذي حصيلته الحريّة والتحرّر.

لقد كان يعرف أنّ الأرباب «المتفرّقين» والمعبودين المختلفين والأهداف المتفرّقة، كلّها أساس التفرقة في المجتمعات، وطالما هناك تفرقة فالجبابرة مسلّطون على رقاب الناس، لذلك أعطى يوسف «دستوراً» وأمراً بقطع جذورهم بسيف التوحيد الباتر، لئلاّ يضطرّوا إلى رؤية الحريّة في الأحلام والمنام، بل ينبغي أن يشاهدوا الحريّة في اليقظة.

تُرى، أليس الجبابرة المسلّطون على رقاب الناس هم ثلّة من الأفراد يستطيع الناس مكافحتهم، إلاّ أنّهم بإيجاد التفرقة والنفاق، وعن طريق «الأرباب المتفرقين» استطاعوا أن يتحكّموا على رقاب الناس ويهدّدوا قوى المجتمع؟!

ومن الطبيعي أن يكون اليوم الذي تجتمع فيه الأمم على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة تحت راية ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1] ويجمعوا قواهم، هو يوم زوال أُولئك الجبابرة

(١) سورة الزمر، الآية: ٤؛ وسورة ص، الآية: ٦٥.

الظالمين، وهذا درس مُهم جدّاً ليومنا وغدنا ولجميع الناس في كلّ المجتمعات البشرية وعلى امتداد التاريخ.

ومن الضروري أن نلتفت إلى هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ يوسف يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾(١) ثمّ يؤكّد أنّ العبادة والخضوع لا تكونان إلاّ له ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٢) ويؤكّد بعد ذلك بالقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(٣) ويعقّب أخيراً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

فعلى هذا لو تعلّم الناس المعارف الصحيحة وعرفوا الحقيقة، ونهضت فيهم حقيقة التوحيد، فإنّ المشاكل ستنحلّ لا محالة.

٤ - استغلال شعار بنّاء بشكل سيىء

شعار ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي هو شعار قرآني إيجابي مثبت، ينفي أيّة حكومة كانت سوى حكومة الله أو ما تنتهي إلى حكومة الله، إلاّ أنّه - وللأسف - استُغلّ على امتداد التاريخ بشكل عجيب، ومن ذلك استغلال الخوارج لهذا الشعار في واقعة «النهروان» حيث كانوا أُناساً جامدين حمقى قشريين منحرفين جدّاً... فتمسكوا بهذا الشعار لنفي التحكيم في حرب صفين وقالوا: لا يصحّ التحكيم لإنهاء الحرب أو تعيين الخليفة لأنّ الله يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

لقد كانوا غافلين أو متغافلين عن هذه المسألة البديهيّة، وهي أنّ التحكيم إذا كان قد تعيّن من أئمّة أمر الله باتّباعهم فحكمهم أيضاً حكم الله لأنّه ينتهي إليه.

صحيح أنّ الحكمين في حرب صفين لم يتمّ تعيينهما من قبل الإمام علي عليه السلام، ولو كان الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام عيّنهما فإنّ حكمهما حكمه، وحكم علي حكم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وحكم النّبي حكم الله.

وهل يا ترى يحكمُ الله أو يقضي مباشرةً بين المجتمعات! أو يتولّى أُمور الناس أشخاص من جنسهم، غاية ما في الأمر ينتهي أمرهم إلى الله؟! ولكن الخوارج ودون أن يتوجّهوا إلى هذه الحقيقة الواضحة أشكلوا على أصل قصّة التحكيم على الإمام علي عليه السلام وحتى عدّوه - والعياذ بالله - زيغاً منه، يا لهذا الجهل والجمود والبلادة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

وهكذا فإنّ مثل هذه الأمور البنّاءة حين تقع بأيدي أفراد جهّال تتحوّل إلى أسوأ الوسائل التخريبيّة.

وفي هذا اليوم نرى مجموعة من الناس من ضعاف النفوس الذين لا يقلّون عن أُولئك جهلاً ولجاجةً، تمسّكوا بالآية المتقدّمة لنفي التقليد عن المجتهدين، أو نفي صلاحيّة حكومتهم، لكن جوابهم جميعاً هو ما ذكرناه آنفاً.

٥ - التوجّه لغير الله

التوحيد لا يتلخّص في أنّ الله تعالى أحد فرد، بل ينبغي أن يتجسّد في جميع شؤون الحياة، وأحد أبرز علائمه أنّ الإنسان الموحّد لا يعتمد على غير الله ولا يلتجىء إلاّ إليه.

نحن لا نقول يجب على الإنسان أن لا يلحظ عالم الأسباب وقانون العلّية ولا يرى الأسباب شيئاً، ولا يعتمد على الوسائل والأسباب، بل نقول: أنّ لا يرى تأثيراً واقعيّاً في السبب، بل يرى رأس الخيط في جميع الأُمور بيد مسبّب الأسباب. وبتعبير آخر: لا يرى للأسباب استقلالاً، بل يراها تحت هيمنة الذات المقدّسة لله سبحانه.

ويمكن أن يكون عدم توجّه الأفراد العاديين لهذه الحقيقة الكبرى مدعاة للعفو، ولكن عدم الالتفات ولو بمقدار رأس الإبرة بالنسبة لأولياء الله يكون سبباً لمجازاتهم، وإن لم يكن أكثر من «ترك الأولى» ورأينا كيف أنّ يوسف بسبب عدمِ توجّهه لهذه المسألة المهمّة امتدّ حبسه سنوات لينضج آخراً في «موقد» الحوادث، وليحصل على استعداد أكبر لمواجهة الطغاة، وليعلم أنّه لا ينبغي الاعتماد إلاّ على الله. وعلى المظلومين الذين يسيرون في طريق (الله).

وهذا درس كبير لمن يطوي هذا الطريق وللمجاهدين الصادقين بأن لا يخطر ببالهم الاتّفاق مع الشيطان لضرب شيطان آخر!.. ولئلاّ يميلوا إلى الشرق أو الغرب، ولا يغذّون الخطى إلاّ على الجادّة الوسطى وهي «الصراط المستقيم».

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ

ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا
ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ
خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ
سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

التّفسير

رؤيا ملك مصر وما جرى له

بقي يوسف سنين في السجن المظلم كأي إنسان منسيّ، ولم يكن لديه من عمل إلاّ بناء شخصيته، وإرشاد السجناء وعيادة مرضاهم وتسلية الموجَعين منهم.

حتى غيّرت (حظّه وطالعه) حادثة صغيرة بحسب الظاهر... ولم تغيّر هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ أُمّة مصر وما حولها.

لقد رأى ملك مصر الذي يقال إنّ اسمه هو «الوليد بن الرّيان»[1] وكان «عزيز مصر وزيره» رأى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبّرين للرؤيا ومن حوله فقصّ عليهم رؤياه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ ثمّ التفت إليهم طالباً منهم تعبير رؤياه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

ولكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

«الأضغاث» جمع «ضِغْث» على وزن (حرص) ومعناه المجموعة من الحطب أو

---

(١) ذكر صاحب تفسير مجمع البيان في تفسير ذيل الآية المذكورة أنّه ورد اسم ملك مصر - حيث كان عزيز مصر وزيره - في سورتين:
أ) الريان بن الوليد (بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٢٢٤؛ تفسير الميزان، ج ٤، ص ٥٣٤ في تفسير ذيل الآية ٣٦ من سورة يوسف).
ب) الوليد بن الريان (بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٢٣).

العشب اليابس أو الأخضر أو شيء آخر، و«الأحلام» جمع «حُلُم» على وزن «رُخم» معناه الطيف والرؤيا، فيكون معنى ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ هو الأطياف المختلطة، فكأنّها متشكّلة من مجموعة مختلفة ومتفاوتة من الأشياء، وجاءت كلمة الأحلام في جملة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ مسبوقة بالألف واللام العهدية وهي إشارة إلى أنّ المعبّرين غير قادرين على تأويل مثل هذه الأحلام.

ومن اللازم ذكر هذه المسألة الدقيقة وهي: أنّ إظهار عجز أُولئك في الحقيقة كان من أجل أنّ المفهوم الواقعي لهذه الرؤيا عندهم غير واضح، ولذلك عدّوها ضمن الأحلام المختلطة و«الأضغاث» حيث قسّموا الأحلام إلى قسمين:

أحلام ذات معنى وهي قابلة للتعبير.

وأحلام مختلطة لا معنى لها حيث لم يجدوا لها تعبيراً وتأويلاً... وكانوا يعدّون هذا النوع نتيجة قوّة الخيال، على العكس من النوع الأوّل الذي يعدّونه نتيجة اتّصال الروح بعالم الغيب.

كما أنّ هناك احتمالاً آخر، وهو أنّهم توقّعوا أن تقع حوادث مزعجة في المستقبل، وما اعتاد عليه حاشية الملوك والطغاة هو ذكر المسائل المريحة لهم فحسب، وكما يُصطلح عليه ما فيه طيب الخاطر، ويمتنعون عن ذكر ما يزعجهم، وهذا أحد أسباب سقوط مثل هذه الحكومات المتجبّرة!

هنا يرد سؤال، وهو: كيف تجرّأ هؤلاء أمام السلطان، بقولهم جواباً لسؤاله عن رؤياه إنّها ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ في حين أنّ المعروف عن حاشية السلطان أن تفلسف كلّ حركة منه ولو كانت بغير معنى ويفسّرونها تفسيراً مقبولاً.

من الممكن أنّهم رأوا الملك مهموماً من هذه الرؤيا، وكان من حقّه ذلك لأنّه رأى ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

ألا يدلّ ذلك على أنّ من الممكن أنّ أفراداً ضعافاً يتسلّمون السلطة من يده على حين غرّة؟!

لذلك قالوا له: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ ليرفعوا الكدورة عن خاطره، أي: لا تتأثّر فما هنالك أمر مهم، وهذه الأحلام لا يمكن أن تكون دليلاً على أي شيء.

وهناك احتمال آخر ذكره المفسّرون وهو أنّ مرادهم من ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ لم يكن أنّ هذه الأحلام لا تأويل لها، بل المراد أنّ مثل هذه الأحلام ملتوية ومجموعة من أمور

مختلفة، وهم غير قادرين على تأويل مثل هذه الأحلام، فهم لم ينكروا إمكان وجود أُستاذ ماهر وقادر على تأويل هذه الرؤيا، وإنّما أظهروا عجزهم عن التعبير والتأويل فحسب.

وهنا تذكّر ساقي الملك ما حدث له ولصاحبه في السجن مع يوسف، ونجا من السجن كما بشّره يوسف ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾.

أجل في زاوية السجن يعيش رجل حيّ الضمير طاهر القلب مؤمن وقلبه مرآة للحوادث المستقبلية، إنّه الذي يستطيع أن يكشف الحجاب عن هذه الرؤيا المغلقة ويعبّرها.

جملة ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ تشير إلى أنّ من الممكن أن يكون يوسف ممنوع المواجهة، وكان الساقي يريد أن يأذن الملك ومن حوله بمواجهته لهذا الشأن.

وهكذا حرّك كلام الساقي المجلس وشخصت الأبصار نحوه، وطلبوا منه الإسراع بالذهاب إليه والإتيان بالخبر.

مضى الساقي إلى السجن ليرى صديقه القديم... ذلك الصديق الذي لم يفِ بوعده له، لكنّه ربّما كان يعرف أنّ شخصية يوسف الكريمة تمنعه من فتح «باب العتاب» فالتفت إليه وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ تشير إلى احتمال أنّ رؤيا الملك صيّرها أطرافه المتملّقون وحاشيته حادثة مهمّة لذلك اليوم، فنشروها بين الناس وعمّموا حالة «القلق» من القصر إلى الوسط الاجتماعي العام.

وعلى كلّ حال فإنّ يوسف دون أن يطلب شرطاً أو قيداً أو أجراً لتعبيره، عبّر الرؤيا فوراً تعبيراً دقيقاً لا غموض فيه ولا حجاب مقروناً بما ينبغي عمله في المستقبل و﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[1].

ثمّ إنّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا أمطار ولا زراعة كافية، فعليكم

(١) كلمة «دأب» على وزن «أدب» تعني في الأصل إدامة الحركة، كما أنّها بمعنى العادة المستمرة، فيكون معنى الكلام: عليكم أن تزرعوا تبعاً لعادتكم المستمرة في مصر ولكن ينبغي أن تقتصدوا في مصرفه... ويحتمل أن يكون المراد منه أن تزرعوا بجدّ وجهد أكثر فأكثر لأنّ دأباً ودؤوباً بمعنى الجدّ والتعب أيضاً، أي اعملوا حتى تتعبوا.

بالاستفادة ممّا جمعتم في سنيّ الرخاء ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ .

ولكن عليكم أن تحذروا من استهلاك الطعام ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وإذا واظبتم على هذه الخطّة فحينئذ لا خطر يهدّدكم لأنّه ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ . .

و﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، وليس هذا فحسب، بل ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ المحاصيل لاستخراج الدهن والفاكهة لشراب عصيرها . . . الخ .

ملاحظات :

١ - كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقاً ومحسوباً، حيث كانت البقرة في الأساطير القديمة مظهر «السنة» . . . وكون البقرات سماناً دليل على كثرة النعمة، وكونها عجافاً دليل على الجفاف والقحط، وهجوم السبع العجاف على السبع السّمان كان دليلاً على أن يُستفاد من ذخائر السنوات السابقة .

وسبع سنبلات خضر وقد أحاطت بها سبع سنبلات يابسات تأكيد آخر على هاتين الفترتين فترة النعمة وفترة الشدّة .

إضافةً إلى أنّه أكّد له على هذه المسألة الدقيقة، وهي خزن المحاصيل في سنابلها لئلاّ تفسد بسرعة وليكون حفظها إلى سبع سنوات ممكناً .

وكون عدد البقرات العجاف والسنابل اليابسات لم يتجاوز السبع لكلّ منهما دليل آخر على انتهاء الجفاف والشدّة مع انتهاء تلك السنوات السبع . . . وبالطبع فإنّ سنةً ستأتي بعد هذه السنوات سنة مليئة بالخيرات والأمطار، فلابدّ من التفكير للبذر في تلك السنة وأن يحتفظوا بشيء ممّا يخزن لها .

في الحقيقة لم يكن يوسف مفسّراً بسيطاً للأحلام، بل كان قائداً يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، وقد قدّم مقترحاً من عدّة مواد لخمسة عشر عاماً على الأقل، وكما سنرى فإنّ هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك وحاشيته وكان سبباً لإنقاذ أهل مصر من القحط القاتل من جهة، وأن ينجو يوسف من سجنه وتخرج الحكومة من أيدي الطغاة من جهة أُخرى .

٢ - مرّة أُخرى تعلّمنا هذه القصّة هذا الدرس الكبير وهو أنّ قدرة الله أكبر ممّا نتصوّر، فهو القادر بسبب رؤيا بسيطة يراها جبابرة الزمان أنفسهم أن ينقذ أُمّة كبيرة من فاجعة عظيمة، ويخلّص عبده الخالص بعد سنين من الشدائد والمصائب أيضاً .

فلابدّ أن يرى الملك هذه الرؤيا، ولابدّ أن يحضر الساقي عنده ويتذكّر رؤياه في

السجن، وترتبط أخيراً حوادث مهمّة بعضها ببعض، فالله تعالى هو الذي يخلق الحوادث العظيمة من توافه الأمور.

أجل، ينبغي لنا توكيد ارتباطنا القلبي مع هذا الربّ القادر..

٣ - الأحلام المتعدّدة في هذه السورة، من رؤيا يوسف نفسه إلى رؤيا السجينين إلى رؤيا فرعون مصر، والاهتمام الكبير الذي كان يوليه أهل ذلك العصر بالنسبة لتعبير الرؤيا أساساً، يدلّ على أنّ تعبير الرؤيا في ذلك العصر كان من العلوم المتقدّمة، وربّما وجب - لهذا السبب - أن يكون نبي ذلك العصر - أي (يوسف) - مطّلعاً على مثل هذا العلم إلى درجة عالية بحيث يعدّ إعجازاً منه.

أليست معاجز الأنبياء يجب أن تكون من أبرز العلوم في زمانهم، ليحصل اليقين - عند العجز من قبل علماء العصر - بأنّ مصدر العلم الذي يحمله نبيّهم هو الله!.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

التّفسير

تبرئة يوسف من كلّ اتّهام!

لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك - كما قُلنا - دقيقاً ومدروساً ومنطقياً إلى درجة أنّه جذب الملك وحاشيته إليه، إذ كان يرى أنّ سجيناً مجهولاً عبّر رؤياه بأحسن تعبير وتحليل، دون أن ينتظر أيّ أجر أو يتوقّع أمراً ما... كما أنّه أعطى للمستقبل خطّة مدروسة أيضاً.

لقد فهم الملك إجمالا أنّ يوسف لم يكن رجلاً يستحقّ السجن، بل هو شخص أسمى مقاماً من الإنسان العادي، دخل السجن نتيجة حادث خفيّ، لذلك تشوّق لرؤيته،

ولكن لا ينبغي للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته، بل أمر أن يُؤتى به إليه كما يقول القرآن: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك و﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إذن... فيوسف لم يرغب أن يكون كأي مجرم، أو على الأقل كأي متّهم يعيش مشمولاً بـ«عفو الملك»... لقد كان يرغب أوّلاً أن يُحقق في سبب حبسه، وأن تثبت براءته وطهارة ذيله، ويخرج من السجن مرفوع الرأس، كما يُثبت ضمناً تلوّث النظام الحكومي وما يجري في قصر وزيره!.

أجل لقد اهتمّ بكرامة شخصيته وشرفه قبل خروجه من السجن، وهذا هو نهج الأحرار.

الطريف هنا أنّ يوسف في عبارته هذه أبدى سمواً في شخصيته إلى درجة أنّه لم يكن مستعدّاً لأن يصرّح باسم امرأة العزيز التي كانت السبب المباشر في اتّهامه وحبسه، بل اكتفى بالإشارة إلى جماعة النسوة اللاتي لهنّ علاقة بهذا الموضوع فحسب.

ثمّ يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجني شعب مصر ولا جهازه الحكومي وبأي سبب وصلت السجن، فالله مطّلع على ذلك ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرّة ثانية إلى الملك، وأخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إبائه وعلوّ همّته، لذا عظم يوسف في نفس الملك وبادر مسرعاً إلى إحضار النسوة اللاتي شاركن في الحادثة، والتفت إليهنّ و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يجب أن تقلنَ الحقّ... هل ارتكب يوسف خطيئة أو ذنباً؟

فتيقّظ فجأةً الوجدان النائم في نفوسهنّ، وأجبنه جميعاً بكلام واحد، متّفق على طهارته و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾.

أمّا امرأة العزيز التي كانت حاضرة أيضاً، وكانت تصغي بدقّة إلى حديث الملك ونسوة مصر، فلم تجد في نفسها القدرة على السكوت، ودون أن تُسأل أحسّت بأنّ الوقت قد حان لأن تنزّه يوسف وأن تعوّض عن تبكيت وجدانها وحيائها وذنبها بشهادتها القاطعة في حقّه، وخاصّة أنّها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك، إذ لم يعرّض فيها بالطعن في شخصيتها وكان كلامه عامّاً ومغلقاً تحت عنوان «نسوة مصر».

فكأنّما حدث انفجار في داخلها فجأةً وصرخت و﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

ثمّ واصلت امرأة العزيز كلامها ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ لأنّي عرفت بعد هذه المدّة الطويلة وما عندي من التجارب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

في الحقيقة (بناءً على أنّ الجملة المتقدّمة لامرأة العزيز كما يقتضيه ظاهر العبارة) فإنّها ومن أجل اعترافها الصريح بنزاهة يوسف وما أخطأته في حقّه، تقيم دليلين:

الأوّل: إنّ وجدانها، الذي يحتمل بقايا علاقتها بيوسف، لا يسمح لها أن تستر الحقّ أكثر من هذا، وأن تخون هذا الشاب الطاهر في غيابه.

الثّاني: إنّ من مشاهدة الدروس المليئة بالعبر على مرور الزمن تجلّت لها هذه الحقيقة، وهي أنّ الله يرعى الصالحين ولا يوفّق الخائنين في مرادهم أبداً.

وبهذا بدأت الحجب تنقشع عن عينيها قليلاً قليلاً... وتلمس حقيقة الحياة ولا سيّما في هزيمة عشقها الذي صنع غرورها وشخصيتها الخياليّة، وانفتحت عيناها على الواقع أكثر، فلا عجب أن تعترف هذا الاعتراف الصريح.

وتواصل امرأة العزيز القول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ وبحفظه وإعانته نبقى مصونين، وأنا أرجو أن يغفر لي ربّي هذا الذنب ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال بعض المفسّرين: إنّ الآيتين الأخيرتين من كلام يوسف. وقالوا: إنّهما في الحقيقة تعقيب لما قاله يوسف لرسول الملك ومعنى الكلام يكون هكذا.

«إذا قلت حقّقوا عن شأن النسوة اللاتي قطّعن أيديهن، فمن أجل أن يعلم الملك أو عزيز مصر الذي هو وزيره، أنّي لم أخنه في غيابه والله لا يهدي كيد الخائنين كما لا أُبرىءُ نفسي لأنّ النفس أمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم».

الظاهر أنّ الدافع لهذا التّفسير المخالف لظاهر الآية أنّه صعب عليهم قبول هذا المقدار من العلم والمعرفة لامرأة العزيز التي تقول بلحن مخلص وحاك عن التنبّه والتيقّظ.

والحال أنّه لا يبعد أنّ الإنسان حين يرتطم في حياته بصخرة صمّاء، تظهر في نفسه حالة من التيقّظ المقرون بالإحساس بالذنب والخجل، خاصّة أنّه لوحظ أنّ الهزيمة في العشق المجازي يجرّ الإنسان إلى طريق العشق الحقيقي «عشق الله».

بتعبير علم النفس المعاصر: إنّ تلك الميول النفسية المكبوتة يحصل فيها حالة الـ «تصعيد» وبدلاً من تلاشيها وزوالها فانّها تتجلّى بشكل عال.

ثمّ إنّ قسماً من الرّوايات التي تشرح حال امرأة العزيز - في السنين الأخيرة[1] من حياتها - دليل على هذا التيقّظ والانتباه أيضاً.

وبعد هذا كلّه فربط هاتين الآيتين بيوسف بعيدٌ، وهو خلاف الظاهر بحيث لا ينسجم مع أي من المعايير الأدبية للأسباب الآتية:

أوّلاً: كلمة «ذلك» التي ذكرت في بداية الآية هي بعنوان ذكر العلّة، أي علّة الكلام المتقدّم الذي لم يكن سوى كلام امرأة العزيز فحسب، وربط هذا التذييل بكلام يوسف الوارد في الآيات السابقة أمر عجيب.

ثانياً: إذا كانت هاتان الآيتان بياناً لكلام يوسف فسيبدو بينهما نوع من التناقض والتضادّ، فمن جهة يقول: إنّي لم أخنه بالغيب، ومرّة يقول: وما أُبرىء نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء. وهذا الكلام لا يقوله إلاّ من يعثر أو يزل ولو يسيراً، في حين أنّ يوسف لم يصدر منه أي زلل.

وثالثاً: إذا كان مقصوده أن يعرف عزيز مصر أنّه بريء فهو من البداية «بعد شهادة الشاهد» عرف الواقع، ولذلك قال لامرأته: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ وإذا كان مقصوده أنّه لم يخن الملك، فلا علاقة للملك بهذا الأمر، والتوسّل إلى تفسيرهم هذا بحجّة أنّ الخيانة لامرأة العزيز خيانة للملك الجبّار، فهو حجّة واهية - كما يبدو - خاصّة أنّ حاشية القصر لا يكترثون بمثل هذه المسائل.

وخلاصة القول: إنّ هذا الارتباط في الآيات يدلّ على أنّ جميع ما ورد في السياق من كلام امرأة العزيز التي انتبهت وتيقّظت واعترفت بهذه الحقائق.

ملاحظات:

١ - هذه عاقبة التقوى

رأينا في هذا القسم من قصّة يوسف أنّ عدوّته المعاندة «زليخا» اعترفت أخيراً بطهارته، كما اعترفت بذنبها وخطئها... وببراءته... وهذه عاقبة التقوى وطهارة الثوب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ۝٣﴾[2].

(١) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٨١، ح ٦٠. (٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ - ٣.

فكن طاهراً واستقم في طريق «الطهارة» فالله حاميك ولا يسمح للملوّثين أن يسيئوا إليك.

٢ - الهزائم التي تكون سبباً للتيقّظ

لا تكون الهزائم هزائم دائماً، بل - في كثير من الأحيان - تعدّ الهزيمة هزيمةً في الظاهر إلاّ أنّها في الباطن نوع من الانتصار المعنوي، وهذه هي الهزائم التي تكون سبباً لتيقّظ الإنسان، وتشقّ حجب الغفلة والغرور عنه، وتعدّ نقطة انعطاف جديدة في حياته.

فامرأة العزيز التي تدعى «زليخا» أو راعيل» وإن ابتُليت في عملها بأشدّ الهزائم، لكن هذه الهزيمة في مسير الذنب كانت سبباً لأن تنتبه ويتيقّظ وجدانها النائم، وأن تندم على ما فات من عملها... والتفتت إلى ساحة الله. وما ينقل من قصتها بعد لقائها بيوسف وهو عزيز مصر - آنئذ - شاهد على هذا المدّعى، إذ قالت: «الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته وجعل الملوك عبيداً بمعصيته».

ونقرأ في نهاية الحديث أنّ يوسف تزوّج منها أخيراً[١].

السعداء هم أُولئك الذين يصنعون من الهزائم انتصاراً، ومن سوء الحظّ حظّاً حسناً، ومن أخطائهم طريقاً صحيحاً للحياة.

وبالطبع فليس ردّ الفعل من قِبل جميع الأفراد إزاء الهزائم هكذا... فالأشخاص الضعاف حين تصيبهم الهزيمة ييأسون ويكتنف القنوط جميع وجودهم، وقد يؤدّي بهم إلى الانتحار وهذه هي الهزيمة الحقيقيّة.

لكن الذين يشعرون بكرامتهم وشخصيّتهم، يسعون لأن يجعلوا الهزائم سلّماً لصعودهم وترقّيهم وجسراً لانتصارهم.

٣ - الحفاظ على الشرف خير من الحرية الظاهرية

رأينا أنّ يوسف لم يدخل السجن لطهارة ثوبه فحسب، بل لم يكن مستعدّاً للخروج من السجن حتى يعود مبعوث الملك ويجري التحقيقات حول النسوة اللاتي قطّعن أيديهن لتثبت براءته ويخرج من السجن مرفوع الرأس... لا أن يخرج كأي مجرم ملوّث يشمله عفو الملك!! وذلك ذلّ وأي ذلّ! وهذا درس لكلّ الناس في الماضي والحاضر والمستقبل.

---

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٥٥٤؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٦٨، ح ٤٢.

٤ - النفس الأمّارة «المتمردّة»

يقسّم علماء النفس والأخلاق النفس «وهي الإحساسات والغرائز والعواطف الإنسانية» إلى ثلاث مراحل، وقد أشار إليها القرآن المجيد:

المرحلة الأولى: «النفس الأمّارة» وهي النفس التي تأمر الإنسان بالذنب وتجرّه إلى كلّ جانب، ولذا سمّوها «أمّارة» وفي هذه المرحلة لا يكون العقل والإيمان قد بلغا مرحلة من القدرة ليكبحا جماحها، بل في كثير من المواقع يستسلمان للنفس الأمّارة، وإذا تصارعت النفس الأمّارة مع العقل في هذه المرحلة فإنّها ستهزمه وتطرحه أرضاً.

وهذه المرحلة هي التي أُشير إليها في الآية المتقدّمة، وجرت على لسان امرأة العزيز بمصر، وجميع شقاء الإنسان أساسه النفس الأمّارة بالسوء.

المرحلة الثّانية: «النفس اللّوّامة» وهي التي ترتقي بالإنسان بعد التعلّم والتربية والمجاهدة، وفي هذه المرحلة ربّما يخطىء الإنسان نتيجة طغيان الغرائز، لكن سرعان ما يندم وتلومه هذه النفس، ويصمّم على تجاوز هذا الخطأ والتعويض عنه، ويغسل قلبه وروحه بماء التوبة.

وبعبارة أُخرى: في المواجهة بين النفس والعقل، قد ينتصر العقل أحياناً وقد تنتصر النفس، إلاّ أنّ النتيجة والكفّة الراجحة هي للعقل والإيمان.

ومن أجل الوصول إلى هذه المرحلة لابدّ من الجهاد الأكبر، والتمرين الكافي، والتربية في مدرسة الأُستاذ، والاستلهام من كلام الله وسنن الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

وهذه المرحلة هي التي أقسم الله بها في سورة القيامة في الآيتين ١ و ٢ قسماً يدلّ على عظمتها ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾.

المرحلة الثّالثة: «النفس المطمئنة» وهي المرحلة التي توصل الإنسان بعد التصفية والتهذيب الكامل إلى أن يسيطر على غرائزه ويروّضها فلا تجد القدرة للمواجهة مع العقل والإيمان، لأنّ العقل والإيمان بلغا درجة من القوّة بحيث لا تقف أمامهما الغرائز الحيوانية.

وهذه هي مرحلة الاطمئنان والسكينة... الاطمئنان الذي يحكم المحيطات والبحار حيث لا يظهر عليها الانهزام أمام أشدّ الأعاصير.

وهذا هو مقام الأنبياء والأولياء وأتباعهم الصادقين، أُولئك الذين تدارسوا الإيمان

والتقوى في مدرسة رجال الله، وهذّبوا أنفسهم سنين طوالاً، وواصلوا الجهاد الأكبر إلى آخر مرحلة.

وإليهم وإلى أمثالهم يشير القرآن الكريم في الآيات ٢٧ - ٣٠ من سورة الفجر ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

اللهمّ أعنّا لنستضيء بنور آياتك، ونصعّد أنفسنا الأمّارة إلى اللّوامة ومنها إلى النفس المطمئنة... ولنجد روحاً مطمئناً لا يضطرب ولا يتزلزل أمام طوفان الحوادث، وأن نكون أقوياء أمام الأعداء، ولا تبهرنا زخارف الدنيا وزبارجها، وأن نصبر على البأساء والضرّاء.

اللهمّ ارزقنا العقل لننتصر على أهوائنا... ونوّرنا إذا كنّا على خطأ بالتوفيق والهداية.

اللهمّ إنّنا لم نبلغ هذه المرحلة بخُطانا، بل كنت أنت في كلّ مرحلة دليلنا وقائدنا، فلا تحبس ألطافك عنّا... وإذا كان عدم شكرنا على جميع هذه النعم مستوجباً لعقابك، فأيقظنا من نومة الغافلين قبل أن نذوق العذاب آمين ربّ العالمين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

التّفسير

يوسف أميناً على خزائن مصر

رأينا أنّ يوسف - هذا النّبي العظيم - ثبتت براءته أخيراً للجميع، وحتى الأعداء شهدوا بطهارته ونزاهته، وظهر لهم أنّ الذنب الوحيد الذي أودع من أجله السجن لم يكن غير التقوى والأمانة التي كان يتحلّى بهما.

إضافةً إلى هذا فقد ثبت لهم أنّ هذا السجين منهل العلم والمعرفة والنباهة وطاقة فذّة

وعالية في الإدارة، حيث إنّه حينما فسّر رؤيا الملك (وهو سلطان مصر) بيّن له الطرق الكفيلة للخلاص من المشكلة الاقتصادية المتفاقمة القادمة.

ثمّ يستمر القرآن بذكر القصّة فيقول: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ وهكذا أمر الملك بإحضاره لكي يجعله مستشاره الخاص ونائبه في المهمّات فيستفيد من علمه ومعرفته وخبرته لحلّ المشاكل المستعصية.

ثمّ أرسل الملك مندوباً لزيارته في السجن، فدخل عليه وأبلغه تحيات الملك وعواطفه القلبية تجاهه ثمّ قال له: إنّه قد لبّى طلبك في البحث والتحقيق عن نساء مصر واتّهامهنّ إيّاك، حيث شهدن جميعهنّ صراحةً ببراءتك ونزاهتك فالآن لا مجال للتأخير، قم لنذهب إلى الملك.

فدخل يوسف على الملك وتكلّم معه فعندما سمع من يوسف الأجوبة التي تحكي عن علمه وفراسته وذكائه الحادّ، ازداد حبّاً له وقال: إنّ لك اليوم عندنا منزلة رفيعة وسلطات واسعة وإنّك في موضع ثقتنا واعتمادنا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فلابدّ أن تتصدّى للمناصب الهامّة في هذا البلد، وتهتمّ بإصلاح الأمور الفاسدة، وإنّك تعلم (حينما فسّرت الرؤيا) بأنّ أزمة اقتصادية شديدة سوف تعصف بهذا البلد، وفي تصوّري إنّك الشخص الوحيد القادر على أن يتغلّب على هذه الأزمة.

فاختار يوسف منصب الأمانة على خزائن مصر، وقال اجعلني مشرفاً على خزائن هذا البلد فإنّي حفيظ عليم وعلى معرفة تامّة بأسرار المهنة وخصائصها ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

كان يوسف يعلم أنّ جانباً كبيراً من الاضطراب الحاصل في ذلك المجتمع الكبير المليء بالظلم والجور يكمن في القضايا الاقتصادية، والآن وبعد أن عجزت أجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل واضطرّوا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له أن يسيطر على اقتصاد مصر حتى يتمكّن من مساعدة المستضعفين وأن يخفّف عنهم - قدر ما يستطيع - الآلام والمصاعب ويستردّ حقوقهم من الظالمين، ويقوم بترتيب الأوضاع المترديّة في ذاك البلد الكبير، ويجعل الزراعة وتنظيمها هدفه الأوّل وخاصّةً بعد وقوفه على أنّ السنين القادمة هي سنوات الوفرة حيث تليها سنوات المجاعة والقحط، فيدعو الناس إلى الزراعة وزيادة الإنتاج وعدم الإسراف في استعمال المنتوجات الزراعية وتقنين الحبوب وخزنها والاستفادة منها في أيّام القحط والشدّة.

وهكذا لم ير يوسف بُدّاً من تولية منصب الإشراف على خزائن مصر.

وقال البعض: إنّ الملك حينما رأى في تلك السنة أنّ الأُمور قد ضاقت عليه وعجز عن حلّها، كان يبحث عمّن يعتمد عليه وينجّيه من المصاعب، فمن هنا حينما قابل يوسف ورآه أهلاً لذلك أعطاه مقاليد الحكم بأجمعها واستقال هو من منصبه.

وقال آخرون: إنّ الملك جعله في منصب الوزير الأوّل بديلاً عن (عزيز مصر).

والاحتمال الآخر هو أنّه بقي مشرفاً على خزائن مصر - وهذا ما يستفاد من ظاهر الآية الكريمة - إلاّ أنّ الآيتين (١٠٠) و(١٠١) واللتين يأتي تفسيرهما بإذن الله تدلاّن على أنّه أخيراً استقلّ بأُمور مصر، بدل الملك وصار هو ملكاً على مصر.

وبرغم أنّ الآية رقم (٨٨) تقول: إنّ إخوة يوسف حينما دخلوا عليه نادوه باسم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ وهذا دليل على أنّه استقلّ بمنصب عزيز مصر، لكن نقول: إنّه لا مانع من أن يكون يوسف قد ارتقى سلّم المناصب تدريجاً حيث كان في أوّل الأمر مشرفاً على الخزائن، ثمّ جُعل الوزير الأوّل، وأخيراً صار ملكاً على مصر.

ثمّ يقول الله سبحانه وتعالى مُنهياً بذلك قصّة يوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾.

نعم إنّ الله سبحانه وتعالى ينزل رحمته وبركاته ونعمه المادية والمعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلاً لذلك ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾.

وأنّه سبحانه وتعالى لا ينسى أن يجازي المحسنين، وأنّه مهما طالت المدّة فإنّه يجازيهم بجزائه الأوفى ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

ولكن لا يقتصر سبحانه وتعالى على مجازاة المحسنين في الدنيا، بل يجازي المتّقين والمحسنين بأحسن من ذلك في الآخرة وهو الجزاء الأوفى ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

بحوث

١ - كيف استجاب يوسف لطلب طاغوت زمانه؟

بالنسبة للآيات المتقدّمة فإنّ أوّل ما يجلب إليها النظر هو أنّه كيف لبّى يوسف - هذا النّبي العظيم - طلب طاغوت زمانه وتعاون معه وتحمّل منصب الوزارة أو الإشراف على خزينة الدولة؟

جواب هذا السؤال - في الحقيقة - يكمن في نفس الآيات السابقة، فإنّه قد تحمّل هذه المسؤولية بعنوان أنّه ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ كي يحفظ بيت المال المتضمّن لأموال الشعب ويستثمره في سبيل منافعهم، وبخاصّة حقوق الطبقة المحرومة والتي غالباً ما يستولي عليها المستكبرون.

إضافةً إلى هذا فإنّه عن طريق معرفته بتعبير الرؤيا - كما ذكرنا - كان على علم بالأزمة الاقتصادية الشديدة التي سوف تعصف بالشعب المصري، بحيث لولا التخطيط الدقيق والإشراف المباشر عليها لماتت جماعات كثيرة من الشعب. . . فبناءً على هذا فإنّ إنقاذ حياة الأُمّة والاحتفاظ بأرواح شعب بريء يقتضي أن يستفيد يوسف من هذه الفرصة التي أُتيحت له ويستغلّها لأجل خدمة جميع أفراد الشعب، وبخاصّة المحرومين منهم حيث إنّهم عادةً ما يكونون أوّل ضحايا الأزمة الاقتصادية وأكثر المتضرّرين من الغلاء.

وقد ورد كلام مفصّل حول هذا الموضوع في بحث استجابة طلب الظالم وقبول الولاية في علم الفقه، وإنّ استجابة طلب الظالم والتصدّي لمناصب الحكم لا يكون حراماً دائماً، بل تارةً يكون مستحبّاً، وقد يكون في بعض الأحيان واجباً شرعاً، وذلك إذا كانت منفعة التصدّي ومرجّحاته الدينيّة أكثر من الأضرار الناتجة عن التصدّي من دعم حكم الظالم وغيره.

ونلاحظ في روايات عديدة أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام كانوا يجوّزون لبعض خلّص شيعتهم وأصحابهم أمثال علي بن يقطين - الذي كان من أصحاب الكاظم عليه السلام - حيث تصدّى لمنصب الوزارة لفرعون زمانه - هارون الرشيد - وذلك بأمر من الإمام عليه السلام، غاية ما في الأمر أنّ الاستجابة والتصدّي لمناصب الحكم أو ردّها تابعان لقانون «الأهم والمهم».

فلابدّ من ملاحظة المنافع الدينيّة والاجتماعية ومقارنتها مع الأضرار الناتجة، إذ لعلّ الذي يتصدّى للمنصب قد يستطيع في نهاية المطاف أن يزيح الظالم عن الحكم (كما حدث ليوسف بناءً على مضمون بعض الرّوايات الواردة) أو يكون المعين الذي تنبثق منه الحركات والثورات، لأنّه يقوم بتهيئة مقدّمات الثورة من داخل أجهزة الحكم القائم (ويمكن أن يكون مؤمن آل فرعون من هذا القبيل) أو يكون على الأقل ملجأً وملاذاً للمظلومين والمحرومين ومخفّفاً عن آلامهم والضغوط الواردة عليهم من قبل أجهزة النظام.

وكلّ واحد من هذه الأُمور يمكن أن يكون مبرّراً للتصدّي للمناصب وقبولها من الحاكم الظالم، وللإمام الصادق عليه السلام رواية معروفة في حقّ هؤلاء الأشخاص يقول عليه السلام: «كفّارة عمل السلطان قضاء حوائج الإخوان»(١).

لكن هذا الموضوع - التعاون مع الظالم - من الأُمور التي يقترب فيها حدود الحلال من الحرام، وكثيراً ما يؤدّي تهاون صغير من الشخص المتصدّي إلى وقوعه في أشراك النظام وارتكاب جريمة تعدّ من أكبر الجرائم وأفظعها - وهي التعاون مع الظالم - في حين يتصوّر أنّه يقوم بعبادة وخدمة إنسانية مشكورة.

وقد يستفيد بعض الانتهازيين من حياة (يوسف) أو (علي بن يقطين) ويتّخذه ذريعة للتعاون مع الظالم وتغطية لأعمالهم الشريرة، في حين أنّه يوجد بون شاسع بين تصرّفاتهم وتصرّفات يوسف أو علي بن يقطين(٢).

هنا سؤال آخر يطرح نفسه وهو أنّه كيف رضخ سلطان مصر الظالم لهذا الأمر - واستجاب لطلب يوسف - مع علمه بأنّ يوسف لا يسير بسيرة الظالمين والمستثمرين والمستعمرين، بل يكون على العكس من ذلك معادياً لهم؟

الإجابة على هذا السؤال لا تكون صعبة مع ملاحظة أمر واحد وهو أنّه تارةً تحيط الأزمات الاقتصادية والاجتماعية بالظالم بحيث تزلزل أركان حكومته الظالمة، فيرى الخطر محدقاً بحكومته وبكلّ شيء يتعلّق بها... في هذه الحالة وتجنّباً من السقوط التامّ لا يمانع، بل يدعم قيام حكومة شعبية عادلة لكي يحافظ على حياته وبجزء من سلطته.

٢ - أهميّة المسائل الاقتصادية والإدارية

رغم أنّنا لا نتّفق مع الرؤية التي تنظر إلى الأُمور بمنظار واحد وتحصر جميع الأُمور في القضايا الاقتصادية دون إعطاء أي دور للإنسان، ولكن برغم ذلك فإنّه لا يمكن غضّ

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ١٣٩؛ وبهذا المعنى جاء عن الإمام الكاظم عليه السلام حول علي بن يقطين في سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٢) نطالع في روايات عديدة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّ بعض الجاهلين بالمعايير الإسلامية كانوا يعترضون على الإمام أحياناً، بأنّه لماذا قبلت ولاية عهد المأمون مع كلّ زهدك في الدنيا وإعراضك عنها؟ فكان الإمام عليه السلام يجيبهم: «ياهذا أيّما أفضل النبي أم الوصي»؟ فقالوا: لا بل النّبي، فقال: «أيّهما أفضل مسلم أم مشرك»؟ فقالوا: لا بل مسلم فقال: «فإنّ العزيز - عزيز مصر - كان مشركاً، وكان يوسف عليه السلام نبياً، وإنّ المأمون مسلم» وأنا وصي، ويوسف سأل العزيز أن يولّيه حين قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، وأنا أُجبرت على ذلك» وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٤٦.

النظر عن أهمية القضايا الاقتصادية ودورها في المجتمعات، والآيات السابقة تشير إلى هذه الحقيقة، والملاحظ أنّ يوسف ركّز من بين جميع مناصب الدولة على منصب الإشراف على الخزانة، وذلك لعلمه أنّه إذا نجح في ترتيب اقتصاد مصر، فإنّه يتمكّن من إصلاح كثير من المفاسد الاجتماعية، كما أنّ تنفيذه للعدالة الاقتصادية يؤدّي إلى سيطرته على سائر دوائر الدولة وجعلها تحت إمرته.

وقد إهتّمت الرّوايات الإسلامية بهذا الموضوع اهتماماً كبيراً، فمثلاً نرى في الرّواية المعروفة المروية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه جعل (قوام الدين والدنيا) في ركنين: أحدهما القضايا الاقتصادية وما يقوم عليه معاش الناس، والركن الآخر هو العلم والمعرفة.

وبرغم أنّ المسلمين قد أهملوا هذا الجانب من الحياة الفردية والاجتماعية الذي اهتمّ به الإسلام كثيراً وتأخّروا عن أعداء الإسلام في هذا الجانب، إلاّ أنّ يقظة المجتمعات الإسلامية المتزايدة وتوجّههم نحو الإسلام يزيد الأمل في النفوس بأن تزيد من نشاطها الاقتصادي وتعتبره عبادة إسلامية كبرى، وتقوم ببناء نظام اقتصادي مدروس وفق خطط محكمة لكي تعود إليهم قوّتهم ونشاطهم.

وهنا نقطة أُخرى يجب التنبيه عليها، وهي إنّنا نلاحظ أنّ يوسف عليه السلام يخاطب الملك ويقول له: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وهذه إشارة إلى أهميّة عنصر الإدارة إلى جانب عنصر الأمانة وأنّ توفّر عنصر الأمانة والتقوى فقط في شخص لا يؤهّله لأن يتصدّى لأحد المناصب الاجتماعية الحسّاسة، بل لا بدّ من اجتماع ذلك العامل مع العلم والتخصّص والقدرة على الإدارة، لكونه قرن الـ(عليم) مع الـ(حفيظ) وكثيراً ما نشاهد الأضرار الناتجة عن سوء الإدارة لا تقلّ بل تزيد على الخسائر الناتجة عن الخيانة!

فهذه التعليمات الإسلامية صريحة في أهميّة جانب الإدارة والقدرة عليها، ومع ذلك نرى تهاون بعض المسلمين بهذا الجانب، فالمهمّ لديهم هو نصب الأشخاص الذين يطمئنون إلى تقواهم وأمانتهم لإدارة الأُمور، مع أنّ السيرة النبوية الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك سيرة علي عليه السلام ترشدان إلى أنّهما كانا يهتّمان اهتماماً كبيراً بالجانب الإداري والقدرة على الإدارة مع اهتمامهم بأمانة الشخص وسلوكه الحسن.

٣ - الرقابة على الاستهلاك

الملاحظ في القضايا الاقتصادية أنّه قد لا تكون (زيادة الإنتاج) بمكان من الأهميّة بقدر أهميّة (الرقابة على الاستهلاك) ومن هنا نشاهد أنّ يوسف في أيّام حكومته، حاول

- بشدّة - أن يسيطر على الاستهلاك الداخلي في سنوات الوفرة لكي يتمكّن من الاحتفاظ بجزء كبير من المنتوجات الزراعية لسنوات القحط والمجاعة القادمة، وفي الحقيقة أنّ زيادة الإنتاج والرقابة متلازمان لا يفترقان، فالزيادة في الإنتاج لا تثمر إلاّ إذا أعقبتها رقابة صحيحة، كما أنّ الرقابة تكون أكثر فائدة إذا أعقبتها زيادة في الإنتاج.

إنّ السياسة الاقتصادية التي انتهجها يوسف عليه السلام في مصر أظهرت أنّ الخطّة الاقتصادية الصحيحة والمتطورة مع الزمن لا يمكن أن تقتصر على متطلّبات الجيل الحاضر، بل لابدّ وأن تراعي مصالح الأجيال القادمة، لأنّ التفكير بالمصالح المستعجلة للجيل الحاضر والتغاضي عن مصالح الأجيال القادمة - كما لو استهلكنا جميع ثروات الأرض - تعتبر غاية الأنانية وحبّ الذات، إذ إنّ الأجيال القادمة هم في الواقع إخوتنا وأبناؤنا فلابدّ من التفكير في مصالحهم وعدم التفريط بها.

والملفت للنظر أنّه يستفاد من بعض الرّوايات الواردة كما ورد عن الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام: «وأقبل يوسف على جمع الطعام فجمع في السبع سنين المخصبة فكبسه في الخزائن، فلمّا مضت تلك السنون وأقبلت المجدبة أقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم في السنة الأُولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلاّ صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة الثّانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر إلاّ صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة الثّالثة بالدّواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية إلاّ صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة الرّابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق بمصر ومن حولها عبد ولا أمة إلاّ صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة الخامسة بالدّور والعقار حتى لم يبق بمصر وما حولها دار ولا عقار إلاّ صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة السّادسة بالمزارع والأنهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلاّ صار في ملكية يوسف، وباعهم في السنة السّابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حرّ إلاّ صار عبد يوسف، فملك أحرارهم وعبيدهم وأموالهم وقال النّاس: ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما أعطى هذا الملك حكماً وعلماً وتدبيراً، ثمّ قال يوسف للملك: أيّها الملك ما ترى فيما خولني ربّي من ملك مصر وأهلها أشر علينا برأيك، فإنّي لم أصلحهم لأفسدهم، ولم أنجهم من البلاء ليكون وبالاً عليهم ولكن الله نجاهم على يدي، قال له الملك: الرأي رأيك، قال يوسف: إنّي أشهد الله وأشهدك أيّها الملك أنّي أعتقت أهل مصر كلّهم، ورددت اليهم

أموالهم وعبيدهم، ورددت إليك أيّها الملك خاتمك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلاّ بسيرتي ولا تحكم إلاّ بحكمي قال له الملك: إنّ ذلك لشرفي وفخري لا أسير إلاّ بسيرتك ولا أحكم إلاّ بحكمك، ولولاك ما قويت عليه ولا اهتديت له، ولقد جعلت سلطاني عزيزاً على ما يرام، وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنت رسوله فأقم على ما وليتك فإنّك لدينا مكين أمين»[(١)].

٤ - مدح النفس

لا شكّ في أنّ مدح الإنسان نفسه يعدّ من الأُمور القبيحة، ولكن ليست هذه قاعدة عامّة، بل قد تقتضي الأُمور بأن يقوم الإنسان بعرض نفسه على المجتمع والإعلان عن خبراته وتجاربه، لكي يتعرّف عليه الناس ويستفيدوا من خبراته ولا يبقى كنزاً مستوراً.

وقد مرّ علينا في الآيات السابقة أنّ يوسف حينما تولّى مسؤولية الإشراف على خزائن مصر وصف نفسه بأنّه: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، وكان هذا الوصف من يوسف لنفسه ضرورياً وذلك حتى يعرف شعب مصر وملكها أنّه يمتلك الصفات اللازمة التي تؤهلّه للتصدّي لهذا المنصب.

ومن هنا نقرأ في تفسير العياشي نقلاً عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه حينما سئل عن الحكم الشرعي لمدح الإنسان نفسه؟ أجاب عليه السلام: «نعم إذا اضطرّ إليه، أما سمعت قول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)]، وقول العبد الصالح: وأنا لكم ناصح أمين»[(٣)].

ومن هنا يتّضح لنا جلياً فلسفة مدح الإمام علي عليه السلام نفسه في بعض الخطب، فمثلاً يقول في خطبة الشقشقية واصفاً نفسه: «... إنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليّ الطير...» فمثل هذه الأوصاف هي في الواقع لأجل إيقاظ الغافلين وإرشادهم إلى الاستفادة من هذا المنهل العذب في سبيل الوصول إلى سعادة الفرد والمجتمع.

٥ - أفضليّة الجزاء المعنوي على سواه

برغم أنّ كثيراً من المؤمنين الخيرين يلقون في هذه الدنيا جزاء أعمالهم الخيرة، كما

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٤٤، تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٣٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٨.
(٣) تفسير نور الثّقلين، ج ٢، ص ٤٣٣.

هو الحال بالنسبة ليوسف حيث جوزي جزاءً حسناً، لعفافه وتقواه وصبره على البلاء، إذ لو كان آثماً لما اعتلى هذا المنصب، ولكن هذا لا يعني أنّ على الإنسان أن ينتظر الجزاء في هذه الدنيا ويتوهّم أنّ الجزاء يجب أن يكون ماديّاً وملموساً وفي هذه الدنيا ويرى تأخير الجزاء ظلماً في حقّه، لكن هذا التصوّر بعيد عن الواقع، لأنّ الجزاء الأوفى هو ما يوافي الإنسان في حياته القادمة.

ولعلّ لدفع هذا التوهّم الخاطىء وإنّ ما جوزي به يوسف هو الجزاء الأوفى، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

٦ - الدفاع عن المسجونين

برغم أنّ السجن لم يكن دائماً محلاً للأخيار، بل يستضيف تارةً الأبرياء وتارةً المجرمين، لكنّ القواعد الإنسانية تستوجب التعامل الحسن مع السجناء، حتى ولو كانوا مجرمين.

وقد يتصوّر البعض أنّ الدفاع عن المسجونين من مبتكرات العصر الحديث، لكن المتّتبع للتاريخ الإسلامي يرى أنّه منذ الأيّام الأُولى لقيام دولة الإسلام كان رسول الله ﷺ يؤكّد ويوصي على التعامل الحسن مع الأسرى والمسجونين، كما قرأنا جميعاً وصيّة علي عليه السلام في حقّ المجرم الذي قام باغتياله (وهو عبدالرحمن بن ملجم المرادي) حيث أمر أن يرفق به وحتى إنّه عليه السلام بعث إليه من اللبن الذي كان يشربه وعندما أرادوا قتله قال: ضربة بضربة.

كما أنّ يوسف حينما كان في السجن كان يعدّ أخاً حميماً وصديقاً وفيّاً ومستشاراً أميناً لجميع نزلاء السجن، وحينما خرج من السجن، أمر أن يكتب - لجلب انتباه العالمين - على بابه «هذا قبور الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء»[1].

وأظهر لهم بهذا الدعاء عطفه ومحبّته حيث قال: «اللهمّ اعطف عليهم بقلوب الأخيار، ولا تعم عليهم الأخبار»[2].

والطريف أنّنا نقرأ في سياق الحديث السابق أنّه: «فذلك يكون أصحاب السجن أعرف الناس بالأخبار في كلّ بلدة».

(١-٢) تفسير نور الثّقلين، ج ٢، ص ٤٣٢.

وقد مرّت علينا هذه التجربة في أيّام السجن، حيث كانت تصلنا الأخبار وبصورة منتظمة - إلاّ في بعض الحالات النادرة - وعن طرق خفيّة لا يكشفها السجّانون، وكثيراً ما كان الذي يدخل إلى السجن يطّلع على بعض الأخبار التي لم يكن قد سمعها عندما كان في الخارج، والحديث عن هذا الموضوع طويل وقد يخرجنا عن هدف هذا الكتاب.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

التّفسير

اقتراح جديد من يوسف لإخوته

وكما كان متوقّعاً، فقد تحسّنت الزراعة في مصر خلال سبع سنوات متتالية وذلك على أثر توالي الأمطار ووفرة ماء النيل وكثرته، ويوسف الذي كان مسؤولاً عن الشؤون الاقتصادية في مصر ومشرفاً على خزائنها، أمر ببناء المخازن الكبيرة والصغيرة التي تستوعب الكميّات الكبيرة من المواد الغذائية وتحفظها عن الفساد، وقد أجبر أبناء الشعب على أن يبيعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الإنتاج الزراعي، وهكذا امتلأت المخازن بالمنتوجات الزراعية والاستهلاكية ومرّت سبع سنوات من الرخاء والوفرة، وبدأ القحط والجفاف يُظهر وجهه الكريه، ومنعت السّماء قطرها، فلم تينع ثمرة، ولم تحمل نخلة.

وهكذا أصاب عامّة الشعب الضيق وقلّت منتوجاتهم الزراعية، لكنّهم كانوا على علم بخزائن الدولة وامتلائها بالمواد الغذائية، وساعدهم يوسف حيث استطاع - بخطّة محكمة ومنظّمة مع الأخذ بعين الاعتبار الحاجات المتزايدة، في السنين القادمة - أن يرفع الضيق عن الشعب بأن باع لهم المنتوجات الزراعية مراعياً في ذلك العدالة بينهم.

وهذا القحط والجفاف لم يكن مقتصراً على مصر وحدها، بل شمل البلدان المحطية بها أيضاً، ومنهم شعب فلسطين وأرض كنعان المتاخمة لمصر والواقعة على حدودها في الشمال الشرقي، وكانت عائلة يوسف تسكن هناك وقد تأثّرت بالجفاف، واشتدّ بهم الضيق، بحيث اضطرّ يعقوب أن يرسل جميع أولاده - ما عدا بنيامين الذي أبقاه عنده بعد غياب يوسف - إلى مصر، حيث سافروا مع قافلة كانت تسير إلى مصر ووصلوا إليها - كما قيل - بعد ١٨ يوماً.

وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ الأجانب عند دخولهم إلى الأراضي المصرية كانوا ملزمين بتسجيل أسمائهم في قوائم معيّنة لكي تعرض على يوسف، ومن هنا فحينما عرض الموظفون تقريراً على يوسف عن القافلة الفلسطينية وطلبهم للحصول على المؤن والحبوب رأى يوسف أسماء إخوته بينهم وعرفهم وأمر بإحضارهم إليه، دون أن يتعرّف أحد على حقيقتهم وأنّهم إخوته..

يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ وكان طبيعيّاً أن لا يتعرّف إخوة يوسف عليه لأنّه في جانب كان قد مضى على فراقهم إيّاه منذ أن أودعوه الجبّ وخرج منه ودخل إلى مصر ما يقرب من أربعين سنة، ومن جهة أُخرى كان لا يخطر ببالهم أنّ أخوهم صار عزيزاً لمصر، وحتى لو رأوا الشبه بين العزيز وبين أخيهم لحملوه على الصدفة.

إضافةً إلى هذا فإنّ ملابس يوسف تختلف عن السابق، ومن الصعب عليهم معرفة يوسف وهو في ملابس أهل مصر، كما أنّ احتمال بقاء يوسف على قيد الحياة بعد هذه المدّة كان ضعيفاً عندهم، وعلى أيّة حال فإنّ إخوة يوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب ودفعوا ثمنه بالأموال أو الكُندر أو الأحذية أو بسائر ما جلبوه معهم من كنعان إلى مصر.

أمّا يوسف فإنّه قد رحّب بإخوته ولاطفهم وفتح باب الحديث معهم، قالوا: نحن عشرة إخوة من أولاد يعقوب، ويعقوب هو ابن إبراهيم الخليل نبي الله العظيم، وأبونا أيضاً من أنبياء الله العظام، وقد كبر سنّه وألمّ به حزن عميق ملك عليه وجوده.

فسألهم يوسف: لماذا هذا الغمّ والحزن؟

قالوا: كان له ولد أصغر من جميع إخوته وكان يحبّه كثيراً، فخرج معنا يوماً للنزهة والتفرّج والصيد وغفلنا عنه فأكله الذئب، ومنذ ذلك اليوم وأبونا يبكي لفراقه.

نقل بعض المفسّرين أنّه كان من عادة يوسف أن لا يعطي ولا يبيع لكلّ شخص إلاّ حمل بعير واحد، وبما أنّ إخوته كانوا عشرة فقد باع لهم ١٠ أحمال من الحبوب، فقالوا: إنّ لنا أباً شيخاً كبيراً عاجزاً عن السفر وأخاً صغيراً يرعى شؤون الأب الكبير، فطلبوا من العزيز أن يدفع إليهم حصّتهما، فأمر يوسف أن يضاف إلى حصصهم حملان آخران، ثمّ توجّه إليهم مخاطباً إيّاهم وقال: إنّي أرى في وجوهكم النبل والرفعة كما إنّكم تتحلّون بأخلاق طيبة، وقد ذكرتم أنّ أباكم يحبّ أخاكم الصغير كثيراً، فيتّضح أنّه يمتلك صفات ومواهب عالية وفذّة ولهذا أحبّ أن أراه إضافة إلى هذا، فإنّ الناس هنا قد أساؤوا الظنّ بكم واتّهموكم، لأنّكم من بلد أجنبي، فأتوا بأخيكم الصغير في سفركم القادم لتثبتوا صدقكم، وتدفعوا التّهمة عن أنفسكم.

وهنا يقول القرآن الكريم: إنّه حينما جهّزهم يوسف بجهازهم وأرادوا الرحيل عن مصر ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ لكنّه ختم كلامه بتهديد مبطّن لهم، وهو أنّني سوف أمنع عنكم المؤن والحبوب إذا لم تأتوني بأخيكم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، وكان يوسف يحاول بشتّى الطرق، تارةً بالتهديد، وأُخرى بالتحبّب، أن يلتقي بأخيه بنيامين ويبقيه عنده، وظهر من سياق الآيات، أمران: أنّ الحبوب كانت تُباع وتشترى في مصر بالكيل لا بالوزن، واتّضح أيضاً أنّ يوسف كان يستقبل الضيوف - ومنهم إخوته - الذين كانوا يفدون إلى مصر بحفاوة بالغة ويستضيفهم بأحسن وجه.

وأجاب إخوة يوسف على طلب أخيهم: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ويستفاد من قوله ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ وإجابتهم الصريحة لعزيز مصر، أنّهم كانوا مطمئنين إلى قدرتهم على التأثير على أبيهم وأخذ الموافقة منه، وكيف لا يكونون مطمئنين بقدرتهم على ذلك وهم الذين استطاعوا بإصرارهم وإلحاحهم أن يفرّقوا بين يوسف وأبيه؟!

وأخيراً أمر يوسف رجاله بأن يضعوا الأموال التي اشتروا بها الحبوب في رحالهم - جلباً لعواطفهم - ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

بحوث

١ - لماذا لم يظهر يوسف حقيقته لإخوته؟

بالنسبة للآيات السابقة فإنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو أنّه لماذا لم يعرّف يوسف

نفسه لإخوته، حتى يقفوا على حقيقة حاله ويرجعوا إلى أبيهم ويخبرونه عن مصير يوسف، وبذلك تنتهي آلامه لأجل فراق يوسف؟

ويمكن طرح هذا السؤال على شكل أوسع وبصورة أُخرى، وهو أنّه حينما التقى يوسف بإخوته في مصر كان قد مرّ ثمان سنوات على تحريره من السجن، حيث كان في السنة الأُولى من سنوات القحط والجدب، التي أعقبت سبع سنوات من الوفرة والرخاء، وقام بخزن المنتوجات الزراعية، وفي السنة الثامنة أو بعدها، جاء إخوة يوسف إلى مصر لشراء الحبوب، فلماذا لم يحاول يوسف خلال هذه السنوات الثمان أن يبعث إلى كنعان من يخبر أباه بواقع حاله ويخرجه عن آلامه وينهي مرارته الطويلة؟

حاول جمع من المفسّرين - كالعلاّمة الطبرسي في مجمع البيان والعلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان والقرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن - الإجابة على هذا السؤال، وذكروا له عدّة أجوبة، ولعلّ أحسنها وأقربها هو أنّ يوسف لم يكن مجازاً من قبل الله سبحانه وتعالى في إخبار أبيه، لأنّ قصّة يوسف مع غضّ النظر عن خصائصه الذاتية كانت ساحة لاختبار يعقوب وحقلاً لامتحانه، فلا بدّ من أن يؤدّي يعقوب امتحانه ويجتاز فترة الاختبار قبل أن يسمح ليوسف بإخباره، وإضافةً إلى هذا فإنّ إسراع يوسف في إخبار إخوته قد يؤدّي إلى عواقب غير محمودة، مثلاً قد يستولي عليهم الخوف والهلع من انتقام يوسف منهم لما ارتكبوه سابقاً في حقّه فلا يرجعوا إليه.

٢ - لماذا أرجع يوسف الأموال إلى إخوته؟

السؤال الذي يطرح نفسه هو أنّه لماذا أمر يوسف أن تردّ أموال إخوته التي دفعوها ثمناً للحبوب، وتوضع في رحالهم؟

وقد أجاب المفسّرون عن هذا السؤال بإجابات عديدة، ومنهم الرازي في تفسيره حيث ذكر عشرة أجوبة، لكن بعضها بعيد عن الواقع، ولعلّ ملاحظة الآيات السابقة تكفي في الإجابة عن السؤال، لأنّ الآية الشريفة تقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنّ يوسف كان يقصد من وراء هذا العمل، أنّ إخوته بعد رجوعهم إلى الوطن حينما يجدون أموالهم قد خبّئت في متاعهم، سوف يقفون على كرم عزيز مصر (يوسف) وجلالة قدره، أكثر ممّا شاهدوه، وسوف يطمئن يعقوب بنوايا عزيز مصر ويعطي الإذن بسفر بنيامين، ويكون السبب والدافع في سفرهم إلى مصر مرّة أُخرى وباطمئنان أكثر مستصحبين معهم أخاهم الصغير.

٣ - كيف وهب يوسف إلى إخوته أموال بيت المال؟

السؤال الآخر الذي يطرح نفسه هنا هو أنّه كيف وهب يوسف الأموال من بيت المال لإخوته دون أي تعويض؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال بطريقتين:

الأوّلى: أنّ بيت المال في مصر كان يحتوي على حصّة معيّنة من الأموال تصرف في شؤون المستضعفين (ومثل هذه الحصّة موجودة دائماً) وبما أنّ إخوة يوسف كانوا في تلك الفترة من المستضعفين، استغلّ يوسف هذه الفرصة واستفاد من هذه الحصّة لمساعدة إخوته: (كما كان يستفيد منها في مساعدة سائر المستضعفين) ومن المعلوم أنّ الحدود المصطنعة بين الدول لم تكن حائلاً دون مساعدة مستضعفي سائر البلدان من هذه الحصّة.

الثّانية: إنّ المناصب العالية في الدولة - كمنصب يوسف - تتضمّن عادةً على امتيازات وحقوق معيّنة، ومن أقلّ هذه الحقوق هو أن يهيىء لنفسه ولعائلته المحتاجة ولمن يقرب إليه كأبيه وإخوته مستلزمات العيش الكريم، وقد استفاد يوسف من هذا الحقّ في إعطاء الأموال لإخوته.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

التّفسير

موافقة يعقوب

رجع إخوة يوسف إلى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنّهم كانوا يفكّرون بمصيرهم في المستقبل وأنّه لو رفض الأب ولم يوافق على سفر أخيهم الصغير

(بنيامين) فإنّ عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما إنّه لا يعطيهم حصّتهم من الحبوب والمؤن.

ومن هنا يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ ولا سبيل لنا للحصول عليه إلاّ أن ترسل معنا أخانا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾[1] وكن على يقين من أنّنا سوف نحافظ عليه ونمنعه من الآخرين ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

أمّا الأب الشيخ الكبير الذي لم يمح صورة (يوسف) عن ذاكرته مرّ السنين فإنّه حينما سمع هذا الكلام استولى عليه الخوف وقال لهم معاتباً: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ فكيف تتوقّعون منّي أن أطمئن بكم وألبّي طلبكم وأوافق على سفر ولدي وفلذّة كبدي معكم إلى بلاد بعيدة، ولا زلت أذكر تخلفّكم في المرّة السابقة عن عهدكم، ثمّ أضاف ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هذه العبارة لعلّها إشارة إلى ما تحدّثت به نفس يعقوب من أنّه يصعب عليّ أن أُوافق على سفر بنيامين معكم وقد عرفت سوءكم في المرّة السابقة، لكن حتى لو وافقت على ذلك فإنّني أتّكل على الله سبحانه وتعالى الذي هو أرحم الراحمين وأطلب رعايته وحفظه منه لا منكم.

الآية السابقة لا تدلّ على الموافقة القطعيّة وقبوله لطلبهم، وإنّما هي مجرّد احتمال منه حيث إنّ الآيات القادمة تظهر أنّ يعقوب لم يكن قد وافق على طلبهم إلاّ بعد أن أخذ منهم العهود والمواثيق، والاحتمال الآخر هو أنّ هذه الآية لعلّها إشارة إلى يوسف، حيث كان يعلم أنّه على قيد الحياة (وسوف نقرأ في الآيات القادمة أنّه كان على يقين بحياة يوسف) فدعا له بالحفظ.

ثمّ إنّ الإخوة حينما عادوا من مصر ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ﴾ فشاهدوا أنّ هذا الأمر هو برهان قاطع على صحّة طلبهم، فجاؤوا إلى أبيهم و﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾[2] وهل هناك فضل وكرم أكثر من هذا أن يقوم حاكم أجنبي وفي ظروف القحط والجفاف، بمساعدتنا ويبيع لنا الحبوب والمؤن ثمّ يردّ إلينا ما دفعناه ثمناً له؟!

ثمّ إنّه ردّ بضاعتنا علينا بشكل خفي بحيث لا يستثير فينا الخجل - أليس هذا غاية

---

(١) ﴿نَكْتَلْ﴾ في الأصل من «نكتال» من مادة «كيل» بمعنى أخذ الشيء بالكيل، ولكن «كال» بمعنى إعطاء الشيء.

(٢) يمكن أن تكون جملة ﴿مَا نَبْغِى ۖ﴾ استفهامية ويكون تقديرها: (ما نبغي وراء ذلك) ويمكن أن تكون نافية وتقديرها: (ما نبغي بذلك الكذب - أو - ما نبغي منك دراهم).

الجود والكرم؟! فيا أبانا ليس هناك مجال للتأخير - ابعث معنا أخانا لكي نسافر ونشتري الطعام ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾[١] وسوف نكون جادّين في حفظ أخينا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، وهكذا نتمكّن من أن نشتري كيل بعير من الحبوب ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وإنّنا على يقين في أنّ سماحة العزيز وكرمه سوف يسهّلان حصوله ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[٢].

وفي كلّ الأحوال رفض يعقوب إرسال ابنه بنيامين معهم، ولكنّه كان يواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوي بحيث اضطرّ إلى التنازل على مطلبهم ولم يَر بدّاً من القبول، ولكنّه وافق بشرط: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾، والمقصود من قوله ﴿مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ هو العهد واليمين المتضمّن لاسم الله سبحانه وتعالى، وأمّا جملة ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فهي في الواقع بمعنى إلاّ إذا أحاطت بكم وغلبتكم الحوادث، ولعلّها إشارة إلى حوادث الموت أو غيرها من الحوادث والمصائب التي تسلب قدرة الإنسان وتقصم ظهره وتجعله عاجزاً[٣].

وذكر هذا الاستثناء دليل بارز على ذكاء نبي الله يعقوب وفطنته، فإنّه برغم حبّه الشديد لولده بنيامين لكنّه لم يحمل أولاده بما لا يطيقوا وقال لهم: إنّكم مسؤولون عن سلامة ولدي العزيز وإنّي سوف أطلبه منكم إلاّ أن تغلبكم الحوادث القاهرة، فحينئذ لا حرج عليكم.

وعلى كلّ حال فقد وافق إخوة يوسف بدورهم على شرط أبيهم، وحينما أعطوه العهود والمواثيق المغلّظة قال يعقوب: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

بحثان

١ - بالنسبة للآيات السابقة فإنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن، هو أنّه كيف وافق يعقوب على سفر بنيامين مع إخوته برغم ما أظهروه في المرّة السابقة من سوء المعاملة مع

(١) ﴿وَنَمِيرُ﴾: مأخوذ من مادة «مير» يعني حمل الطعام والمواد الغذائية.

(٢) ويراد من جملة: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ فضلاً على ما - قيل في المتن، ويحتمل أن يراد به كان إخوة يوسف مرادهم أنّ ما جئنا به يصير كيلاً يسيراً ولو جاء أخانا الصغير معنا لحظينا بكيل أكثر من الغلة.

(٣) ورد هذا التغيير في موارد من القرآن الكريم يعني الهلاك والفناء: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، و﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢]، ولكن من الواضح أنّه لا يراد في الآية المذكورة هذا المعنى (هلاك) بل عذر يسلب من الإنسان القدرة والحركة.

يوسف، إضافة إلى هذا فإنّنا نعلم أنّهم كانوا يبطنون الحقد والحسد لبنيامين - وإن كان أخفّ من حقدهم وحسدهم على يوسف - حيث وردت في الآيات الافتتاحية لهذه السورة قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي إنّ يوسف وأخاه أحبّ إلى أبينا برغم ما نملكه نحن من قوّة وكثرة.

لكن تظهر الإجابة على هذا السؤال إذا لاحظنا أنّه قد مضى ثلاثون إلى أربعين سنة على حادثة يوسف، وقد صار إخوة يوسف الشبّان كهولاً، ومن الطبيعي أنّهم نضجوا أكثر من السابق، كما وقفوا على الآثار السلبية والسيّئة لما فعلوه مع يوسف، سواء في داخل أُسرتهم أم في وجدانهم، حيث أثبتت لهم تجارب السنين السالفة أنّ فقد يوسف كان لا يزيد حبّ أبيهم لهم، بل ازداد نفوره منهم وخلق لهم مشاكل جديدة.

إضافةً إلى هذه الأُمور فإنّ يعقوب لم يواجه طلباً للخروج إلى التنزّه والصيد، بل كان يواجه مشكلة مستعصية مستفحلة، وهي إعداد الطعام لعائلة كبيرة وفي سنوات القحط والمجاعة.

فمجموع هذه الأُمور أجبرت يعقوب على الرضوخ لطلب أولاده والموافقة على سفر بنيامين ولكنّه أخذ منهم العهود والمواثيق على أن يرجعوه سالماً.

٢ - السؤال الآخر الذي نواجهه هنا هو أنّه هل الحلف وأخذ العهود والمواثيق منهم كان كافياً لكي يوافق يعقوب على سفر بنيامين معهم؟

الجواب: إنّه من الطبيعي أنّ مجرّد الحلف واليمين لم يكن كافياً لذلك، ولكن في هذه المرّة كانت الشواهد والقرائن تدلّ على أنّ هناك حقيقة واضحة قد برزت إلى الوجود، وهي خالية عن محاولات الخداع والتضليل (كما هو الحال في المرّة السابقة) ففي مثل هذه الصورة لا سبيل لتأكيد هذه الحقيقة وجعلها أقرب إلى التنفيذ سوى العهد واليمين، مثل ما نشاهده في هذه الأيّام من تحليف الزعماء السياسيين كرئيس الجمهورية أو نوّاب البرلمان، حيث يحلفون بالوفاء للدستور والعمل على طبقه وذلك بعد أن انتخبهم الشعب من خلال انتخابات حرّة ونزيهة.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم

مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

التّفسير

وأخيراً توجّه إخوة يوسف صوب مصر للمرّة الثانية بعد إذن أبيهم وموافقته على اصطحاب أخيهم الصغير معهم، وحينما أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصياً إيّاهم بقوله: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ ثمّ أضاف: إنّه ليس في مقدوري أن أمنع ما قد قدّر لكم في علم الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ولكن هناك بعض الأمور التي يمكن للإنسان أن يجتنب عنها حيث لم يثبت في حقّها القدر الإلهي المحتوم، وما أسديته لكم من النصيحة هو في الواقع لدفع هذه الأمور الطارئة والتي بإمكان الإنسان أن يدفعها عن نفسه ثمّ قال أخيراً: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

لا شكّ في أنّ عاصمة مصر في تلك الأيّام شأنها شأن جميع البلدان، كانت تمتلك سوراً عالياً وأبواباً متعدّدة وكان يعقوب قد نصح أولاده بأن يتفرّقوا إلى جماعات صغيرة، وتدخل كلّ جماعة من باب واحد، لكن الآية السابقة لم تبيّن لنا فلسفة هذه النصيحة.

ذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ سبب هذه النصيحة هو أنّ إخوة يوسف كانوا يتمتّعون بقسط وافر من الجمال (وإن لم يكونوا كيوسف لكنّهم في كلّ الأحوال كانوا إخوته) وبأجسام قويّة رشيقة، وكان الأب الحنون في قلق شديد من إلفات نظر الناس إلى هذه المجموعة المكوّنة من ١١ شخصاً وتدلّ سيماهم على أنّهم غرباء وإنّهم ليسوا من أهل مصر، فيصيبهم الحسد من تلك العيون الفاحصة.

ثمّ بعد هذا التّفسير دخل المفسّرون في بحث طويل ونقاش مستمر حول موضوع تأثير العين في حياة الإنسان واستدلّوا على ذلك بشواهد عديدة من الرّوايات والتاريخ. ونحن بحول الله وقوّته سوف نبحث عن هذا الموضوع عند حديثنا عن قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾[1]. ونثبت أنّه برغم الخرافات الكثيرة التي لفّها العوام حوله

(١) سورة القلم، الآية: ٥١.

إلاّ أنّ مقداراً من هذا الأمر له حقيقة موضوعية حيث ثبت علمياً أنّ أمواج سيّالة تخرج من العين وتمتلك بعض المواصفات المغناطيسيّة.

وهناك سبب آخر ذكره المفسّرون وهو أنّ دخول هذه المجموعة إلى مصر بوجوههم المشرقة وأجسامهم الرشيقة القويمة والسير في شوارعها، قد يثير الحسد والبغضاء في بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان ويظهرونهم كمجموعة أجنبية تحاول العبث بأمن البلد ونظامه، فحاول يعقوب عليه السلام أن يجنبهم بنصيحته عن هذه المشاكل.

وأخيراً حاول بعض المفسّرين[1] تأويل الآية بمعنىً قد يعد ذوقياً... قال: إنّ يعقوب بنصيحته تلك أراد أن يعلم أولاده دستوراً اجتماعياً هامّاً، وهو أنّ على الإنسان أن يبحث عن ضالّته بطرق عديدة وسبل شتّى بحيث لو سُدّ طريق بوجهه لكان بمقدوره البحث عنها من طرق أُخرى حيث سيكون النصر حليفه في النهاية، أمّا إذا حاول الوصول إلى هدفه بانتهاجه طريقاً واحداً فقط، فقد يصطدم في أوّل الطريق بعائق يمنعه عن الوصول فعند ذاك يستولي عليه اليأس ويترك السعي إليه.

واصل الإخوة سيرهم نحو مصر، وبعد أن قطعوا مسافة طويلة وشاسعة بين كنعان ومصر دخلوا الأراضي المصرية، وعند ذاك ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فهم برغم تفرّقهم إلى جماعات صغيرة - طبقاً لما وصّاهم به أبوهم - فإنّ الفائدة والثمرة الوحيدة التي ترتّبت على تلك النصيحة ليس ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهذه إشارة إلى أنّ أثرها لم يكن سوى الهدوء والطمأنينة التي استولت على قلب الأب الحنون الذي بعد عنه أولاده، وبقي ذهنه وفكره مشغولاً بهم وبسلامتهم وخائفاً عليهم من كيد الحاسدين وشرور الطامعين، فما كان يتسلّى به في تلك الأيّام لم يكن سوى يقينه القلبي بأنّ أولاده سوف يعملون بنصيحته.

ثمّ يستمرّ القرآن في مدح يعقوب ووصفه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذه إشارة إلى أنّ كثيراً من الناس يتيهون في الأسباب وينسون قدرة الله سبحانه وتعالى ويتصوّرون أنّ ما يصيب الإنسان من الشرور إنّما هو من الآثار الملازمة لبعض العيون فيتوسلّون بغير الله سبحانه وتعالى لدفع هذه الشرور ويغفلون عن التوكّل على الله سبحانه وتعالى والاعتماد عليه، إلاّ أنّ يعقوب كان عالماً

(١) العالم الجليل والخطيب الكبير، المرحوم الإشراقي.

بأنّه بدون إرادة الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيء، فكان يتوكّل في الدرجة الأُولى على الله سبحانه وتعالى ويعتمد عليه، ثمّ يبحث عن عالم الأسباب ومن هنا نرى في الآية (١٠٢) من سورة البقرة أنّ القرآن يصف سحرة بابل وكهنتها بأنّهم ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهذه إشارة إلى أنّ القادر الوحيد هو الله سبحانه وتعالى، فلابدّ من الاعتماد والاتّكال عليه لا على سواه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا
تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ
فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ
عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ
بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤
قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ
بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا
لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ
مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾

التّفسير

يوسف يخطّط للاحتفاظ بأخيه

وأخيراً دخل الإخوة على يوسف وأعلموه بأنّهم قد نفّذوا طلبه واصطحبوا معهم أخاهم الصغير برغم امتناع الأب في البداية، ولكنّهم أصرّوا عليه وانتزعوا منه الموافقة لكي يثبتوا لك أنّهم قد وفوا بالعهد، أمّا يوسف فإنّه قد استقبلهم بحفاوة وكرم بالغين ودعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر أن يجلس كلّ اثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا وجلس كلّ واحد منهم بجنب أخيه على الطعام، وبقي بنيامين وحيداً فتألّم من وحدته وبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لعطف عليّ ولأجلسني إلى جنبه على

المائدة لأنّنا إخوة من أب واحد وأُمّ واحدة، قال يوسف مخاطباً إيّاهم: إنّ أخاكم بقي وحيداً وإنّني سأجلسه بجنبي على المائدة ونأكل سويّة من الطعام، ثمّ بعد ذلك أمر يوسف بأن تهيّأ لهم الغرف ليستريحوا فيها ويناموا، ومرّة أُخرى بقي بنيامين وحيداً، فاستدعاه يوسف إلى غرفته وبسط له الفراش إلى جنبه، لكنّه لاحظ في تقاسيم وجهه الحزن والألم وسمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوّهاً، عند ذاك نفد صبر يوسف وكشف عن حقيقة نفسه، والقرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ مأخوذ من مادّة (البؤس) وهو أصل بمعنى الضرر والشدّة، لكن في الآية الشريفة استعملت بمعنى: لا تسلط الغمّ على نفسك ولا تكن حزيناً من معاملتهم لك، والمراد بقوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ هو معاملة الإخوة السيّئة لأخيهم بنيامين حيث خطّطوا لإبعاده وطرده من بينهم كما فعلوا بيوسف، فقال يوسف لأخيه: لا تحزن فإنّ المحاولات التي قاموا بها لإلحاق الضرر بي قد انقلبت إلى خير وسعادة ورفعة لي، إذاً لا تحزن وكن على يقين بأنّ محاولاتهم سوف تذهب أدراج الرياح.

وتقول بعض الرّوايات: إنّه عند ذاك اقترح يوسف على أخيه بنيامين وقال له: هل تودّ أن تبقى عندي ولا تعود معهم؟

قال بنيامين: نعم، ولكن إخوتي لا يوافقون على ذلك، لأنّهم قد أعطوا أبي العهود والمواثيق المغلّظة بأن يرجعوني إليه سالماً.

قال يوسف: لا تهتمّ بهذا الأمر فإنّي سوف أضع خطّة محكمة بحيث يضطرّون لتركك عندي والرجوع دونك.

وبدأ يوسف بتنفيذ الخطّة، وأمر بأن يعطى لكلّ واحد منهم حصّة من الطعام والحبوب ثمّ عند ذاك ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

لا شكّ في أنّ يوسف قام بهذا العمل بسرية تامّة، ولعلّه لم يطّلع على هذه الخطّة سوى موظّف واحد وعند ذاك افتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكي الخاص، وبحث عنه الموظّفون والعمّال كثيراً لكن دون جدوى وحينئذ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

وحينما سمع إخوة يوسف هذا النداء ارتعدت فرائصهم واستولى عليهم الخوف، حيث لم يخطر ببالهم أن يتّهموا بالسرقة بعد الحفاوة التي قوبلوا بها من جانب يوسف،

فتوجّهوا إلى الموظفين والعمال وقالوا لهم: ماذا فقدتم؟ ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ .

قالوا: قد فقدنا صواع الملك ونظنّ أنّه عندكم ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وبما أنّ الصواع ثمين ومورد علاقة الملك فإنّ لمن يعثر عليه جائزة، وهي حمل بعير من الطعام ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ ، ثمّ أضاف المؤذّن والمسؤول عن البحث عن الصواع المفقود، إنّني شخصياً أضمن هذه الجائزة ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ .

فاشتدّ اضطراب الإخوة لسماعهم هذه الأُمور وزادت مخاوفهم، وتوجّهوا إلى الموظّف مخاطبين إيّاه ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ .

قولهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا. . .﴾ إلى آخره لعلّه إشارة إلى ما قصده الإخوة في خطابهم للموظفين من أنّكم قد وقفتم على حسن نيّتنا في المرّة السابقة حيث جئناكم وقد وضعتم الأموال التي دفعناها إليكم ثمناً للطعام في رحالنا، لكنّنا رجعنا إليكم مرّة ثانية، فلا يعقل أنّنا وقد قطعنا المسافات البعيدة للوصول إلى بلدكم نقوم بعمل قبيح ونسرق الصواع؟

إضافةً إلى هذا فقد ورد في بعض المصادر أنّ الإخوة حينما دخلوا أرض مصر ألجموا جمالهم ليمنعوها من التطاول والتعدّي على المزارع وأموال الناس، فمثلنا الحريص على أموال الناس كيف يعقل أن يقوم بهذا العمل القبيح؟

إلاّ أنّ الموظفين توجّهوا إليهم و﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ .

أجاب الإخوة: إنّ عقاب من وجد الصواع في رحله هو أن يؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ وإنّ هذا العقاب هو جزاء السارق ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

وحينئذ أمر يوسف الموظفين والعمال بأن تنزل رحالهم من على ظهور الجمال ويفتح متاعهم وأن يبحثوا فيها واحداً بعد واحد ودون استثناء، وتجنّباً عن انكشاف الخطّة أمر يوسف بأن يبدأوا البحث والتفتيش في أمتعة الإخوة أوّلا قبل أمتعة أخيه بنيامين، لكنّهم وجدوه أخيراً في أمتعة بنيامين ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ .

بعد أن عثر على الصاع في متاع بنيامين، استولى الارتباك والدهشة على الإخوة، وصعقتهم هذه الواقعة ورأوا أنفسهم في حيرة غريبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبيح وسرق صواع الملك، وهذا يعود عليهم بالخزي والعار، ومن جهة أُخرى إنّ هذا العمل

سوف يفقدهم اعتبارهم ونفوذهم عند الملك خصوصاً مع حاجتهم الشديدة إلى الطعام، وإضافةً إلى كلّ هذا، كيف يجيبون على استفسارات أبيهم؟ وكيف يقنعونه بذنب ابنه وعدم تقصيرهم في ذلك؟

قال بعض المفسّرين: إنّه بعد أن عثر على الصاع توجّه الإخوة إلى بنيامين وعاتبوه عتاباً شديداً، فقالوا له: ألا تخجل من فعلك القبيح قد فضحتنا وفضحت أباك يعقوب، وآل يعقوب... قل لنا كيف سرقت الصاع ووضعته في رحلك؟

أجابهم بنيامين ببرود، حيث كان عالماً بالقضيّة وأسرارها: إنّ الذي قام بهذا العمل ووضع الصواع في رحلي، هو نفسه الذي وضع الأموال في متاعكم في المرّة السابقة، لكن الإخوة لم ينتبهوا - لهول الواقعة عليهم - لمغزى كلام بنيامين(١).

ثمّ يستمرّ القرآن الكريم ويبيّن كيف استطاع يوسف أن يأخذ أخاه بالخطّة التي رسمها الله له دون أن يثير في إخوته أي نوع من المقاومة والرفض ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

والأمر المهمّ في هذه القضيّة هو أنّه لو أراد يوسف أن يعاقب أخاه بنيامين، - وطبقاً للقانون المصري - لكان عليه أن يضرب أخاه ويودعه السجن لكن مثل هذه المعاملة كانت تخالف رغبات وأهداف يوسف للاحتفاظ بأخيه، ومن هنا وقبل القبض على بنيامين، سأل إخوته عن عقوبة السارق عندهم، فاعترفوا عنده بأنّ السنة المتّبعة عندهم في معاقبة السارق أن يعمل السارق عند المعتدى عليه كالعبد.

لا ريب أنّ للعقوبة والجزاء طرقاً عديدة منها أن يعاقب المعتدي على طبق ما يعاقب به في قومه، وهكذا عامل يوسف أخاه بنيامين، وتوضيحاً لهذه الحالة وأنّ يوسف لم يكن بإمكانه أخذ أخيه طبقاً للدستور المصري يقول القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ لكن الله سبحانه وتعالى يستثني بقوله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وهو إشارة إلى أنّ ما فعله يوسف بأخيه لم يكن إلاّ بأمر منه سبحانه وتعالى وطبقاً لإرادته في الاحتفاظ ببنيامين، واستمراراً لامتحان يعقوب وأولاده.

وأخيراً يضيف القرآن الكريم ويقول: إنّ الله سبحانه يرفع درجات من استطاع أن يفوز في الامتحان ويخرج مرفوع الرأس كما حدث ليوسف ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ ولكن في كلّ الأحوال فإنّ الله تعالى عليم يهدي الإنسان إلى سواء السبيل وهو الذي أوقع هذه الخطّة في قلب يوسف وألهمه إيّاها ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٥، ص٢٥٣ ذيل الآية.

بحوث

الآيات السابقة تثير أسئلة كثيرة فلابدّ من الإجابة عليها:

١ - لماذا لم يعترف يوسف بالحقيقة؟

لماذا لم يعترف يوسف بالحقيقة لإخوته لينهي - وفي أسرع وقت ممكن - مأساة أبيه وينجيه من العذاب الذي كان يعيشه؟

الجواب على هذا السؤال: هو ما مرّ علينا خلال البحث، من أنّ الهدف كان امتحان يعقوب وأولاده واختبار مدى تحمّلهم وصبرهم على الشدائد والمصائب، وبتعبير آخر: لم تكن هذه الخطّة أمراً عفوياً دون تفكير، وإنّما نفذت طبقاً لأوامر الله سبحانه وتعالى وإرادته في اختبار يعقوب ومدى صبره على مصيبة فقد ثاني أعزّ أولاده، لكي تكمل سلسلة الامتحانات ويفوز بالدرجات العالية التي يستحقّها، كما كانت الخطّة اختباراً لإخوة يوسف في مدى تحمّلهم للمسؤولية وقدرتهم على حفظ العهد ومراعاة الأمانة التي قطعوها مع أبيهم.

٢ - لماذا اتّهم يوسف أخاه؟

هل يجوز شرعاً أن يتّهم الإنسانِ بريئاً لم يرتكب ذنباً، ولم تقتصر آثار هذه التّهمة على البريء وحده، بل تشمل الآخرين من قريب أو بعيد؟ كما هو الحال في يوسف حيث شمل اتّهامه الإخوة وسبب لهم مشاكل عديدة.

يمكن معرفة الجواب بعد وقوفنا على أنّ توجيه هذه التّهمة لبنيامين كان باتّفاق مسبق بينه وبين يوسف، وكان عارفاً بأنّ هدف الخطّة وتوجيه التهمة إليه لأجل بقائه عند يوسف، أمّا بالنسبة للآثار السلبية المترتّبة على الإخوة فإنّ اتّهام بنيامين بالسرقة لم يكن في الواقع اتّهاماً مباشراً لإخوته وإن سبب لهم بعض التشويش والقلق ولا مانع من ذلك بالنظر إلى امتحان مهم.

٣ - لماذا اتُّهمَ الجميع بالسرقة؟

مرّ علينا في الآية الشريفة قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ وهذه في الواقع تهمة موجّهة إلى الجميع وهي تهمة كاذبة، فما المسوغ والمجوّز الشرعي لمثل هذا الاتّهام الباطل؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال في عدّة نقاط وهي:

أوّلاً: إنّ قائل هذه الجملة غير معلوم، حيث ورد في القرآن أنّه ﴿قَالُوٓاْ...﴾ ولعلّ القائلين هم بعض الموظفين من عمّال يوسف والمسؤولين عن حماية خزائن الحبوب، فهم حينما افتقدوا صواع الملك، اطمأنّوا بأنّ السارق هو أحد أفراد القافلة القادمة من كنعان، فوجّهوا الخطاب إليهم جميعاً، وهذا من الأُمور الطبيعيّة، فحينما يقوم شخص مجهول في ضمن مجموعة معيّنة بعمل ما، فإنّ الخطاب يوجّه إليهم جميعاً ويقال لهم: إنّكم فعلتم هذا العمل، والمقصود أنّ أحد هذا المجموعة أو بعضها قد فعل كذا.

ثانياً: الطرف الذي وجّهت إليه التّهمة وهو بنيامين، كان موافقاً على توجيه هذه التهمة له، لأنّ التهمة كانت مقدّمة للخطّة المرسومة والتي كانت تنتهي ببقائه عند أخيه يوسف، وأمّا شمول الاتّهام لجميع الإخوة ودخولهم جميعاً في دائرة الظنّ بالسرقة، فإنّ كلّ ذلك كان إتّهاماً مؤقتاً حيث زالت بمجرّد التفتيش والعثور على الصواع وظهر المذنب الواقعي.

قال بعض المفسّرين: إنّه قصد بالسرقة - فيما نسبوه إلى إخوة يوسف - هو ما اقترفوه سابقاً من سرقة الإخوة يوسف من أبيه، لكن هذا التوجيه يتمّ إذا كانت التهمة قد وجهت إليهم من قبل يوسف، لأنّه كان عالماً بالذنب الذي ارتكبوه، ولعلّ ما ورد في ذيل الآية الشريفة يدلّ على ذلك، حيث قال العمّال إنّنا: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ ومثل هذا الخطاب لا يتضمّن توجيه السرقة إليهم، (ولكن الجواب الأوّل أصح ظاهراً).

٤ - عقوبة السرقة في تلك الأزمنة

يستفاد من الآيات السابقة أنّ عقوبة السرقة عند المصريين كانت تختلف عنها عند الكنعانيين، فعند إخوة يوسف (آل يعقوب) ولعلّه عند الكنعانيين كانت العقوبة هي عبودية السارق (بصورة دائمة أو مؤقتة) لأجل الذنب الذي اقترفه[(١)].

لكن المصريين لم يجازوا السارق بالعبودية الدائمة أو المؤقتة، وإنّما كانوا يعاقبون المذنب بالضرب المبرح أو السجن، وفي كلّ الأحوال لا يستفاد من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ إنّ الشرائع السّماوية كانت تحدّد عقوبة السارق

(١) يقول الطبرسي في مجمع البيان - ذيل الآية - إنّ السنّة المتّبعة لدى بعض المجتمعات في ذلك الزمان هو أن يصير السارق عبداً لمدّة سنة كاملة، وذكر أيضاً أنّ أُسرة يعقوب كانت ترى عبودية السارق بمقدار ما سرق (أي يعمل عندهم بذلك المقدار).

بالعبودية، ولعلّها كانت سنّة متّبعة عند بعض المجتمعات في تلك الأزمنة، وقد ذكر المؤرخّون في تاريخ العبودية أنّ بعض المجتمعات التي كانت تدين بالشرائع الخرافية، كانوا يعاقبون المدين العاجز عن سداد دينه بالعبودية للمدين.

٥ - السقاية أو الصواع

يلاحظ في الآيات السابقة أنّ الله سبحانه وتعالى يعبّر عن الكيل تارةً بـ(الصواع) وأُخرى بـ(السقاية)، والظاهر أنّهما صفتان لشيء واحد، حيث ورد في بعض المصادر أنّ هذا الصاع كان في أوّل الأمر كأساً يسقى به الملك، ثمّ حينما عمّ القحط والغلاء في مصر وصار الطعام والحبوب يوزّع على الناس حسب الحصص، استعمل هذا الكأس الثمين لكيل الطعام وتوزيعه، وذلك إظهاراً لأهميّة الحبوب وترغيباً للناس في القناعة وعدم الإسراف في الطعام.

ثمّ إنّ المفسّرين ذكروا أوصافاً عديدة لهذا الصاع، حيث قال بعضهم إنّها كانت من الفضّة وقال آخرون: إنّها كأس ذهبية، وأضاف آخرون أنّ الكأس كان مطعماً بالجواهر والأحجار الكريمة، وقد وردت في بعض الرّوايات الضعيفة إشارة إلى هذه الأُمور، لكن ليس لنا دليل قطعي وصريح على صحّة كلّ هذه المذكورات، إلاّ ما قيل من أنّ هذا الصاع كان في يوم من الأيّام كأساً يُسقى به ملك مصر، ثمّ صار كيلاً للطعام، ومن البديهي أنّه لا بدّ وأن يكون لهذا الصاع صبغة رمزية واعتبارية للدلالة على أهمّية الطعام وتحريض الناس على عدم الإسراف فيه، إذ لا يعقل أن يكون الجهاز الذي يوزن به كلّ ما يحتاجه البلد من الطعام والحبوب، هو مجرّد كأس كان يستعمله الملك في يوم من الأيّام.

وأخيراً فقد مرّ علينا خلال البحث أنّ يوسف قد اختير مشرفاً على خزائن الدولة، ومن الطبيعي أن يكون الصاع الملكي الثمين في حوزته، فحينما حكم على بنيامين بالعبودية صار عبداً لمن كان الصاع في يده (أي يوسف) وهذه هي النتيجة التي كان يوسف قد خطّط لها.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

قَالُوٓاْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

التّفسير

موقف إخوة يوسف

وأخيراً اقتنع إخوة يوسف بأنّ أخاهم (بنيامين) قد ارتكب فعلاً شنيعاً وقبيحاً وإنّه قد شوّه سمعتهم وخذلهم عند عزيز مصر، فأرادوا أن يبرّئوا أنفسهم ويعيدوا ماء وجههم ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي إنّه لو قام بالسرقة فهذا ليس بأمر عجيب منه فإنّ أخاه يوسف وهو أخوه لأبويه قد ارتكب مثل هذا العمل القبيح، ونحن نختلف عنهما في النسب، وهكذا أرادوا أن يفصلوا بينهم وبين بنيامين ويربطوه بأخيه يوسف.

وحينما سمع يوسف كلامهم تأثّر بشدّة لكنّه كتم ما في نفسه ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ لأنّه كان عالماً بأنّهم قد افتروا عليه واتّهموه كذباً، إلاّ أنّه لم يرد عليهم وقال لهم باختصار واقتضاب: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ أي إنّكم أحقر وأشرّ مكاناً ممّن تتّهمونه وتنسبون إليه السرقة، أو أنتم أحقر الناس عندي.

ثمّ أضاف يوسف: إنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بما تنسبون ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

الملاحظ هنا أنّه برغم أنّ إخوة يوسف افتروا عليه زوراً واتّهموه بالسرقة لكي يبرّئوا أنفسهم، لكن لابدّ وأن تكون لهذه التّهمة أرضية قديمة بحيث تمسّك بها الإخوة في تلك اللحظة الحرجة.

ومن هنا فقد قام المفسّرون بالبحث والتنقيب في الرّوايات القديمة والمصادر التاريخية، ونقلوا ثلاثة نصوص في هذا المجال:

الأوّل: أنّ يوسف بعد أن توفّيت أُمّه قضى فترة من طفولته عند عمّته، وقد كانت تكنّ له حبّاً عميقاً، وحينما كبر يوسف وأراد يعقوب أن يفصله عنها، لم تَرَ عمّته حيلة ووسيلة للاحتفاظ بيوسف إلاّ بحيلة نسائية وذلك بأن ربطت على خاصرته حزاماً أو شالاً ممّا

تركه آل إسحاق، ثمّ ادّعت أنّ يوسف أراد سرقتها، فلابدّ من أن يعاد إليها يوسف - وطبقاً للدستور والسنّة المتّبعة عندهم - عبداً قناً جزاءً له.

الثّاني: قيل إنّ امرأة من أرحام يوسف من أُمّه كان لها صنم تعبده، فأخذه يوسف وحطمه ورمى به على الطريق، فاتّهموه بالسرقة.

الثّالث: قيل إنّ يوسف كان يأخذ - أحياناً - بعض الطعام من المائدة ويتصدّق به على الفقراء والمساكين، فعلم الإخوة بذلك واتّهموه بالسرقة.

لكن مثل هذه الأعمال لا تعدّ سرقة، لأنّ النّبيه يعرف أنّ ربط الحزام على الشخص دون علمه بأنّه ملك الغير، أو كسر الصنم ورميه على الطريق، أو أخذ الطعام من المائدة التي بسطها أبوه ويعلم أنّه يرضى بالتصدّق ببعضها للفقراء والمساكين، لا يعدّ سرقة ولا يجوز معاقبة من فعله بهذه التّهمة.

وعندما لاحظ الإخوة أنفسهم محاصرين بين أمرين، فمن جهة - وطبقاً للسنّة والدستور المتعيّن عندهم - لابدّ وأن يبقى أخوهم الصغير بنيامين عند عزيز مصر ويقوم بخدمته كسائر عبيده، ومن جهة أُخرى فإنّهم قد أعطوا لأبيهم المواثيق والأيمان المغلّظة على أن يحافظوا على أخيهم بنيامين ويعودوا به سالماً إليه، حينما وقعوا في هذه الحالة توجّهوا إلى يوسف الذي كان مجهول الهوية عندهم، مخاطبين إيّاه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ لكي نرجعه إلى أبيه ونكون قد وفينا بالوعد الذي قطعناه له، فإنّه شيخ كبير ولا طاقة له بفراق ولده العزيز، فنرجو منك أن تترحّم علينا وعلى أبيه فـ ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أمّا يوسف فإنّه قد واجه هذا الطلب بالإنكار الشديد و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ فإنّ العدل والإنصاف يقتضي أن يكون المعاقب هو السارق، وليس بريئاً رضي بأن يتحمّل أوزار عمل غيره، ولو فعلنا لأمسينا من الظالمين ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾.

والطريف أنّ يوسف لم ينسب لأخيه السرقة وإنّما عبّر عنه بـ ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾. وهذا برهان على السلوك الحسن والسيرة المستقيمة التي كان ينتهجها يوسف في حياته.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾

التّفسير

رجوع الإخوة إلى أبيهم خائبين

حاول الإخوة أن يستنقذوا أخاهم بنيامين بشتّى الطرق، إلاّ أنّهم فشلوا في ذلك، ورأوا أنّ جميع سبل النجاة قد سدّت في وجوههم، فبعد أن فشلوا في تبرئة أخيهم وبعد أن رفض العزيز استعباد أحدهم بدل بنيامين، استولى عليهم اليأس وصمّموا على الرجوع والعودة إلى كنعان لكي يخبروا أباهم، يقول القرآن واصفاً إيّاهم: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي إنّهم بعد أن يئسوا من عزيز مصر أو من إنقاذ أخيهم، ابتعدوا عن الآخرين واجتمعوا في جانب وبدأوا بالتشاور والنجوى فيما بينهم.

قوله تعالى: ﴿خَلَصُوا﴾ بمعنى الخلوص، وهو كناية عن الابتعاد عن الآخرين والاجتماع في جلسة خاصّة، أمّا قوله تعالى ﴿نَجِيًّا﴾ فهو من مادّة (المناجاة) وأصله من (نجوة) بمعنى الربوة والأرض المرتفعة، فباعتبار أنّ الربوات منعزلة عن أراضيها المجاورة، سمّيت الجلسات الخاصّة البعيدة عن عيون الغرباء والحديث في السرّ قياساً عليها بـ(النجوى) فإذاً كلمة (النجوى) تطلق على الحديث السرّي والخاص سواء كانت في جلسة خصوصية أو في محاورة خاصّة بين اثنين لا يتعدّى سمعهما.

ذهب كثير من المفسّرين إلى أنّ جملة ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ تعدّ من أفصح العبارات في القرآن وأجملها حيث إنّ الله سبحانه وتعالى قد بيّن في كلمتين أُموراً كثيرة يحتاج بيانها إلى عدّة جمل.

وفي ذلك الاجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلاً: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا

أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ بأن تردّوا إليه بنيامين سالماً، فالآن بماذا تجيبونه؟ وقد سوّدنا صفحتنا في المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾[1] فالآن والحالة هكذا، فإنّني لا أُغادر أرض مصر وسوف أعتصم فيها ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ والظاهر أنّ قصده بحكم الله، إمّا الموت الذي هو حكم إلهي، أي لا أبرح من هذه الأرض حتى أموت فيها، وإمّا أن يفتح الله سبحانه وتعالى له سبيلاً للنجاة، أو عذراً مقبولاً عند أبيه.

ثمّ أمرهم الأخ الأكبر أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى عليهم ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ وهذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد صواع الملك، ثمّ عثر عليه عند أخينا، وظهر للجميع أنّه قد سرقها ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ولكن نحن لا نعلم إلاّ ما شهدناه بأعيننا وهذا غاية معرفتنا ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

وقد يرد احتمال في تفسير هذه الآية، فلعلّهم بقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ. . . ﴾ أرادوا أن يخاطبوا أباهم بأنّنا وإن قطعنا الأيمان والعهود المغلّظة على أن نرجع أخانا سالماً، لكنّنا لا نعرف من الأُمور إلاّ ظواهرها ومن الحقائق إلاّ بعضها، فغيب الأُمور عند الله سبحانه ولم نكن نتصوّر أن يسرق أخونا.

ثمّ أرادوا أن يزيلوا الشكّ والريبة عن قلب أبيهم فقالوا: يمكنك أن تتحقّق وتسأل من المدينة التي كنّا فيها ﴿وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[2] ومن القافلة التي سافرنا معها إلى مصر ورجعنا معها، حيث إنّ فيها أُناساً يعرفونك وتعرفهم، وبمقدورك أن تسألهم عن حقيقة الحال وواقعها ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾[3] وفي كلّ الأحوال كن على ثقة بأنّنا صادقون ولم نقص عليك سوى الحقيقة والواقع ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

---

(١) ﴿فَرَّطتُمْ﴾ من مادّة تفريط وأصله من (فروط) على وزن شروط، ومعناه التقدّم، ولكن حينما يكون من باب التفعيل يأخذ معنى القصور في التقدّم، وحينما يكون من باب الافعال (إفراط) يأخذ معنى الإسراف في التقدّم والتجاوز عنه.

(٢) ﴿الْقَرْيَةَ﴾ لا تطلق عند العرب على القرى والأرياف خاصّة، بل تشمل جميع الأرياف والمدن والقرى - الصغيرة منها والكبيرة - والمقصود منها في الآية هي مصر.

(٣) ﴿وَالْعِيرَ﴾ كما يقول الراغب في المفردات، تعني الجماعة التي تصحب معها الإبل والدواب المحمّلة بالغذاء، أي يطلق على المجموع «عير» فعلى هذا يكون السؤال منهم ممكناً لأنّ الكلمة تشمل الأشخاص أيضاً ولا حاجة للتقدير، ولكن بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ «العير» يطلق على الدواب فقط فلابدّ من التقدير كما هو الحال في «القرية».

يستفاد من مجموع هذه الكلمات والحوار الذي دار بين الأولاد والأب أنّ قضيّة سرقة بنيامين كانت قد شاعت في مصر، وأنّ جميع الناس علموا بأنّ أحد أفراد العير والقافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفي الملك تمكّنوا بيقظتهم من العثور عليها والقبض على سارقها، ولعلّ قول الإخوة لأبيهم: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ. . .﴾ أي اسأل أرض مصر، كناية عن أنّ القضيّة شاعت بحيث علم بها حتى أراضي مصر وحيطانها.

بحوث

١ - من هو أكبر الإخوة؟

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّه كان روبين (روبيل) وقال آخرون: إنّه (شمعون) واحتمل البعض أن يكون أكبرهم هو (يهودا).

وحصل نقاش آخر بين المفسّرين في أنّه ما المقصود من الكبر، هل هو في العمر أم في العقل؟ لكن المستفاد من ظاهر الآية أنّ المقصود به هو أكبر الإخوة في العمر.

٢ - الحكم وفق الدلائل الظاهرة

ويستفاد من مدلول الآية الشريفة أنّه يحقّ للقاضي والحاكم أن يحكم في الواقعة المرفوعة إليه على ما يستفيده من القرائن والشواهد القطعيّة، وأن يقرّ المتّهم أو يشهد الشهود عنده، لأنّنا لاحظنا في قضيّة إخوة يوسف أنّه بمجرّد أن عثر على الصاع في متاع بنيامين عُدّ مذنباً وحكم عليه بالسرقة من دون شهادة أو إقرار، لأنّنا حينما نتحرّى عن القضيّة نرى أنّ كلّ شخص كان مسؤولاً عن حمل متاعه من الحبوب بنفسه، أو أنّه كان حاضراً على الأقل عند تحميل العمال لمتاعه، ومن جهة أُخرى لم يكن يتصوّر أحد أنّ هناك خطّة في البين، وهؤلاء الإخوة لم يعاديهم أحد في مصر، فجميع القرائن والشواهد تورث اليقين بأنّ هذا الفعل (السرقة) قد صدر عمّن وجد عنده الصاع.

وهذا الموضوع بحاجة إلى دراسة عميقة في الفقه الإسلامي لتأثيره المهمّ في قضايانا المعاصرة لأنّ عالم اليوم يعتمد عليه كثيراً في محاكماته، لكنّنا تركنا هذا المبحث لأنّ مجاله كتاب (القضاء).

يستفاد من الآيات السابقة أنّ إخوة يوسف كانت طبائعهم مختلفة، أمّا الأخ الأكبر

فإنّه كان وفيّاً بميثاقه وحافظاً لوعده الذي واعد به أباه، أمّا بقيّة الإخوة فإنّهم بعد أن شاهدوا فشل جميع محاولاتهم في إقناع العزيز، تراجعوا عن موقفهم وعدّوا أنفسهم معذورين، ومن الطبيعي إنّ ما قام به الأخ الأكبر كان هو الأُسلوب المجدي والصحيح، لأنّه ببقائه في مصر والاعتصام بها وعلى مقربة من بلاط العزيز وقصره كان باعثاً للأمل في أن يترحّم العزيز على الإخوة وعلى أبيهم الشّيخ الكبير، ويعفو عن هذا الغريب ولا يجازيه من أجل صاع سرقه ثمّ عثر عليه العمّال، فعلى هذا وأملاً في استجداء عطف العزيز، بقي في مصر وبعث بإخوته إلى أبيهم في كنعان ليبلغوه الخبر ويطلبوا منه أن يدلّهم على الطريق الصحيح لإنقاذ أخيهم.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

التّفسير

يعقوب والألطاف الإلهيّة

وأخيراً غادروا مصر متّجهين إلى كنعان في حين تخلّف أخواهم الكبير والصغير، ووصلوا إلى بيتهم منهوكي القوى وذهبوا لمقابلة أبيهم، وحينما رأى الأب الحزن والألم مستولياً على وجوههم (خلافاً للسفرة السابقة والتي كانوا فيها في غاية الفرح) علم أنّهم يحملون إليه أخباراً محزنة وخاصّة حينما افتقد بينهم بنيامين وأخاه الأكبر، وحينما أخبروه عن الواقعة بالتفصيل، استولى عليه الغضب وقال مخاطباً إيّاهم بنفس العبارة التي خاطبهم بها حينما أرادوا أن يشرحوا له خديعتهم مع يوسف ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي إنّ أهواءكم الشيطانية هي التي استولت عليكم وزيّنت لكم الأمر بهذه الصورة التي أنتم تصفونه.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو أنّ يعقوب هل اكتفى في نسبة الكذب واتّباع

الهوى لأولاده استناداً إلى ما فعلوه في المرّة السابقة مع يوسف من سوء الفعل والحنث باليمين والعهد، مع أنّ مثل هذا الظنّ والقول واتّهام الآخرين لمجرّد تجربة سابقة بعيد عن سيرة عامّة الناس فضلاً عن يعقوب الذي هو نبي معصوم، وعلى الخصوص إذا استند المدّعي في دعواه على وثائق ومستندات تثبت دعواه، كما أنّ طريق الفحص والتحقيق عن واقع الحال كان مفتوحاً ليعقوب.

أو كان يعقوب يقصد بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ...﴾ إلى آخر الإشارة إلى أمور أخرى؟ منها:

١ - لعلّه عتاب لأولاده لخضوعهم أمام الأمر الواقع وتسليمهم لحكم العزيز بمجرّد عثور الصاع عند أخيهم، مع أنّ العثور بمفرده لا يعدّ دليلاً منطقيّاً على السرقة.

٢ - ولعلّه عتاب لأولاده لما بيّنوه للعزيز من أنّ عقوبة السارق عندهم هو استعباده مع أنّ هذه السنّة السائرة في أهل كنعان سنّة باطلة ولا تعدّ قانوناً سماوياً (هذا إن قلنا إنّ هذه السنّة لم تكن مأخوذة من شريعة يعقوب كما ذهب إليه بعض المفسّرين).

٣ - وأخيراً لعلّه عتاب لأولاده على استعجالهم في الخضوع لأحكام العزيز وخلق المعاذير والمبرّرات والرجوع مستعجلين إلى كنعان دون الاقتداء بأخيهم الكبير في البقاء بمصر برغم العهود والمواثيق المغلّظة التي قطعوها مع أبيهم(١).

لكن بعد هذا العتاب المليء بالحزن والأسى رجع يعقوب إلى قرارة نفسه وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(٢) أي أنّني سوف أُمسك بزمام نفسي، ولا أسمح لها بأن تطغى عليّ بل أصبر صبراً جميلاً على أمل بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يعيد لي أولادي (يوسف وبنيامين وأخوهم الأكبر) ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ فإنّه هو العالم بواقع الأُمور والخبير بحوادث العالم ما مضى منها وما سوف يأتي، ولا يفعل إلاّ عن حكمة وتدبير ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ثمّ بعد هذه المحاورات بين يعقوب وأولاده، استولى عليه الحزن والألم، وحينما رأى مكان بنيامين خالياً عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، وتذكّر تلك الأيّام الجميلة التي كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة

---

(١) احتمل بعض المفسّرين أنّ هذه الآية لعلّها إشارة إلى قصّة يوسف، لكنّه بعيد عن الواقع، لأنّ الآيات السابقة لا تبحث عن قضيّة يوسف وفراقه عن أبويه.

(٢) فراجع حول «صبر جميل» ذيل الآية ١٨ من هذه السورة.

والذكاء العالي فيشمّ رائحته الطيّبة ويستعيد نشاطه، أمّا اليوم فلم يبق منه أثر ولا عن حياته خبر، كما أنّ خليفته (بنيامين) أيضاً قد ابتلي مثل يوسف بحادث مؤلم وذهب إلى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكّر يعقوب هذه الأمور ابتعد عن أولاده واستعبر ليوسف ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أمّا الإخوة فإنّهم حينما سمعوا باسم يوسف، ظهر على جبينهم عرق الندامة وازداد خجلهم واستولى عليهم الحزن لمصير أخويهم بنيامين ويوسف، واشتدّ حزن يعقوب وبكاؤه على المصائب المتكرّرة وفقد أعزّ أولاده ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ لكن يعقوب كان - في جميع الأحوال - مسيطراً على حزنه ويخفّف من آلامه ويكظم غيظه ولا يتفوّه بما لا يرضى به الله سبحان وتعالى ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

يفهم من هذه الآيات أنّ يعقوب لم يكن فاقداً لبصره، لكنّ المصائب الأخيرة وشدّة حزنه ودوام بكائه أفقده بصره، وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذا الحزن والألم والعمى كان خارجاً عن قدرته واختياره، فإذاً لا يتنافى مع الصبر الجميل.

أمّا الإخوة فكانوا متألّمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم ممّا أحدثوه ليوسف، وفي قضيّة بنيامين شاهدوا أنفسهم في وضع صعب وامتحان جديد، ومن جهة ثالثة كان يصعب عليهم أن يشاهدوا أباهم يتجرّع غصص المرارة والألم ويواصل بكاءه الليل بالنهار، فلذلك توجّهوا إلى أبيهم وخاطبوه معاتبين: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[1] أي إنّك تردّد ذكر يوسف وتتأسّف عليه حتّى وتقع على فراش المرض وتشرف على الهلاك وتموت.

لكنّ شيخ كنعان هذا النبي العظيم صاحب الضمير اليقظ ردّ عليهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2] لا إليكم، أنتم الذين تخونون الوعد وتنكثون العهد لأنّني ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهو اللطيف الكريم الذي لا أطلب سواه.

---

(١) (حرض) على وزن مرض بمعنى الشيء الفاسد والمؤلم، والمقصود منه هنا هو المريض الذي ضعف جسمه وصار مشرفاً على الموت.

(٢) (بثّ) بمعنى التفرقة والشيء الذي لا يمكن إخفاؤه، والمقصود منه هنا هو الألم والحزن الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا
يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ
أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ
﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ
﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى
بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

التّفسير

اليأس علامة الكفر!

كان القحط والغلاء وشحّة الطعام يشتدّ يوماً بعد آخر في مصر وما حولها ومنها كنعان، ومرّة أُخرى أمر يعقوب أولاده بأن يتّجهوا صوب مصر للحصول على الطعام، لكنّه هذه المرّة طلب منهم بالدرجة الأُولى أن يبحثوا عن يوسف وأخيه بنيامين، حيث قال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

لكن بما أنّ أولاد يعقوب كانوا مطمئنين إلى هلاك يوسف وعدم بقائه، تعجّبوا من توصية أبيهم وتأكيده على ذلك، لكن يعقوب نهاهم عن اليأس والقنوط ووصّاهم بالاعتماد على الله سبحانه والاتّكال عليه بقوله: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه القادر على حلّ الصعاب و﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

(تحسّس) أصله من (حس) بمعنى البحث عن الشيء المفقود بأحد الحواس، وهنا بحث بين اللغويين والمفسّرين في الفرق بينه وبين (تجسّس) وقد نقل عن ابن عبّاس أنّ التحسّس هو البحث عن الخير، والتجسّس هو البحث عن الشرّ، لكن ذهب آخرون إلى

أنّ التحسّس هو السعي في معرفة سيرة الأشخاص والأقوام دون التجسّس الذي هو البحث لمعرفة العيوب.

وهنا رأي ثالث في أنهما متّحدان في المعنى، إلاّ أنّ ملاحظة الحديث الوارد بقوله: «لا تجسّسوا ولا تحسّسوا» يثبت لنا أنّهما مختلفان وأنّ ما ذهب إليه ابن عبّاس في الفرق بينهما هو الأوفق بسياق الآيات المذكورة، ولعلّ المقصود منهما في هذا الحديث الشريف: لا تبحثوا عن أمور الناس وقضاياهم سواء كانت شرّاً أم خيراً.

قوله تعالى ﴿رَوْحِ﴾ بمعنى الرحمة والراحة والفرج والخلاص من الشدّة.

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: (الرَّوْحُ والرُّوحُ في الأصل واحد وجعل الروح اسماً للنّفس... والرَّوح للتنفّس وقد أراح الإنسان إذا تنفّس...).

وأخيراً جمع الإخوة متاعهم وتوجّهوا صوب مصر، وهذه هي المرّة الثّالثة التي يدخلون فيها أرض مصر، هذه الأرض التي سبّبت لهم المشاكل وجرّت عليهم الويلات.

لكن في هذه السفرة - خلافاً للسفرتين السابقتين - كانوا يشعرون بشيء من الخجل يعذّب ضمائرهم فإنّ سمعتهم عند أهل مصر أو العزيز ملوّثة للوصمة التي لصقت بهم في المرّة السابقة، ولعلّهم كانوا يرونهم بمثابة (مجموعة من لصوص كنعان) الذين جاؤوا للسرقة. ومن جهة أُخرى لم يحملوا معهم هذه المرّة من المتاع ما يستحقّ أن يعاوضوه بالطعام والحبوب، إضافةً إلى هذه الأمور فإنّ فقد أخيهم بنيامين والآلام التي ألمّت بأبيهم كانت تزيد من قلقهم وبتعبير آخر فإنّ السكين قد وصلت إلى العظم - كما يقول المثل - إلاّ أنّ الذي كان يبعث في نفوسهم الأمل ويعطيهم القدرة على تحمّل الصعاب هو وصيّة أبيهم ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾.

وأخيراً استطاعوا أن يقابلوا يوسف، فخاطبوه - وهم في غاية الشدّة والألم - بقولهم: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي إنّ القحط والغلاء والشدّة قد ألمّت بنا وبعائلتنا ولم نحمل معنا من كنعان إلاّ متاعاً رخيصاً ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾[1] لا قيمة لها ولكن - في كلّ الأحوال - نعتمد على ما تبذل لنا من كرمك

---

(١) (البضاعة) أصلها (البضع) على وزن جزء، وهي بمعنى القطعة من اللحم المقطوعة من الجسم، كما يطلق على جزء من المال الذي يقتطع منه ثمناً لشيء ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ من (الإزجاء) بمعنى الدفع، وبما أنّ الشيء التافه والقليل الثمن يدفعه الآخذ عن نفسه، أُطلق عليه (مزجاة).

ونأمل في معروفك ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ بمنّك الكريم وصدقاتك الوافرة ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ ولا تطلب منّا الأجر، بل اطلبه من الله سبحانه وتعالى حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

والطريف أنّ إخوة يوسف لم ينفذوا وصيّة أبيهم في البحث عن إخوتهم أوّلاً، بل حاولوا الحصول على الطعام، ولأجل ذلك قابلوا العزيز وطلبوا منه المؤن والحبوب، ولعلّ السبب في ذلك ضعف أملهم في العثور على يوسف، أو لعلّهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم أمام العزيز والمصريين وكأنّهم أُناس جاؤوا لشراء الطعام والحبوب فقط، ثمّ يطرحون مشكلتهم أمام العزيز ويطلبون منه المساعدة، فعند ذاك يكون وقع الطلب أقوى واحتمال تنفيذه أكثر.

قال بعض المفسّرين: إنّ مقصود الإخوة من قولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ كان طلب الإفراج عن أخيهم لأنّهم لم يطلبوا من العزيز الطعام والحبوب مجّاناً دون عوض حتى يطلبوا منه التصدّق عليهم، فإنّهم يدفعون ثمنه.

ونقرأ في روايات وردت في هذا المقام، أنّ الإخوة كانوا يحملون معهم رسالة من أبيهم إلى عزيز مصر، حيث مدح يعقوب في تلك الرسالة عزيز مصر وأكبر عدالته وصلاحه وشكره على ما بذله له ولعائلته من الطعام والحبوب، ثمّ عرّف نفسه والأنبياء من أهل بيته وأخبره برزاياه وما تحمله من المصائب والمصاعب من فقده أعزّ أولاده وأحبّهم إلى نفسه يوسف وأخيه بنيامين، وما أصابهم من القحط والغلاء، وفي ختام الرسالة طلب من العزيز أن يمنّ عليه ويطلق سراح ولده بنيامين، وذكّره أنّ بنيامين سليل بيت النبوّة والرسالة وأنّه لا يتلوّث بالسرقة وغيرها من الدناءات والمعاصي.

وحينما قدّم الأولاد رسالة أبيهم إلى العزيز شاهدوا أنّه فضّ الرسالة باحترام وقبلها ووضعها على عينيه وبدأ يبكي بحيث إنّ الدموع بلّت ثيابه[1] (وهذا ما حيّر الإخوة وبدأوا يفكّرون بعلاقة العزيز مع أبيهم بحيث جعله يبكي شوقاً وشغفاً حينما فتحها ولعلّ فعل العزيز أثار عندهم احتمال أن يكون يوسف هو العزيز ولعلّ هذه الرسالة أثارت عواطف العزيز وشعوره بحيث لم يطق صبراً وعجز عن أن يخفي نفسه بغطاء السلطة وأجبره على كشف نفسه لإخوته).

وفي تلك اللحظة، وبعد أن مضت أيّام الامتحان الصعب وكانت قد اشتدت محنة الفراق على يوسف وظهرت عليه آثار الكآبة والهمّ، أراد أن يعرّف نفسه لإخوته

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

فابتدرهم بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

لاحظوا عظمة يوسف وعلوّ نفسه حيث يسألهم أوّلاً عن ذنبهم لكن بهذه الكناية اللطيفة يقول: ﴿مَّا فَعَلْتُم﴾ وثانياً يبيّن لهم طريقة الاعتذار وأنّ ما ارتكبوه في حقّ أخويهم إنّما صدر عن جهلهم وغرورهم، وأنّه قد مضت أيّام الصبا والطفولة وهم الآن في دور الكمال والعقل!

كما أنّه يفهم من الآية الشريفة أنّ يوسف لم يكن وحده الذي ابتلي بإخوته ومعاملتهم السيّئة، بل إنّ بنيامين أيضاً كان يقاسي منهم ألوان العذاب، ولعلّه قد شرح لأخيه يوسف في الفترة التي قضاها في مصر، جانباً ممّا عاناه تحت أيديهم، ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ يوسف حينما استفسر عمّا فعلوه معه ومع أخيه ختم استفساره بابتسامة عريضة ليدفع عن أذهانهم احتمال أنّه سوف ينتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجميلة ولاحظوا وتذكّروا الشبه بينه وبين أسنان أخيهم يوسف(١).

أمّا هم، فإنّهم حينما لاحظوا هذه الأُمور مجتمعة، وشاهدوا أنّ العزيز يتحدّث معهم ويستفسرهم عمّا فعلوه بيوسف، تلك الأعمال التي لم يكن يعلمها أحد غيرهم إلاّ يوسف.

ومن جهة أُخرى أدهشهم يوسف وما أصابه من الوجد والهياج حينما استلم كتاب يعقوب، وأحسّوا بعلاقة وثيقة بينه وبين صاحب الرسالة.

وثالثاً: كلّما أمعنوا النظر في وجه العزيز ودقّقوا في ملامحه، لاحظوا الشبه الكبير بينه وبين أخيهم يوسف... لكنّهم في نفس الوقت لم يدر بخلدهم ولم يتصوّروا أنّه يمكن أن يكون أخوهم يوسف قد إرتقى منصب الوزارة وصار عزيزاً لمصر، أين يوسف وأين الوزارة والعزّة؟! لكنّهم تجرّأوا أخيراً وسألوه مستفسرين منه ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

كانت هذه الدقائق أصعب اللحظات على الإخوة، حيث لم يكونوا يعرفون محتوى إجابة العزيز! وأنّه هل يرفع الستار ويظهر لهم حقيقته، أم أنّه سوف يعتقد بأنّهم مجانين حيث ظنّوا هذا الظنّ.

كانت اللحظات تمرّ بسرعة والانتظار الطويل يثقل على قلوبهم فيزيد في قلقهم، لكن

---

(١) مجمع البيان في ذيل الآية مورد البحث.

يوسف لم يدع إخوته يطول بهم الإنتظار ورفع الحجاب بينه وبينهم وأظهر لهم حقيقة نفسه و﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾ لكن لكي يشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعمه من جميع هذه المواهب والنعم، ولكي يعلّم إخوته درساً آخر من دروس المعرفة قال: إنّه ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لا يعرف أحد كيف مرّت هذه اللحظات الحسّاسة على الإخوة كما لا يعرف أحد مدى انفعالهم وما خامرهم من السرور والفرح وكيف تعانقوا واحتضنوا أخاهم والدموع الغزيرة التي ذرفوها وذلك حينما التقوا بأخيهم وبعد عشرات السنين من الفراق، لكنّهم في كلّ الأحوال كانوا لا يطيقون النظر إلى وجه أخيهم يوسف لعلمهم بالذنب والجريمة التي اقترفوها في حقّه، فترقّبوا إجابة يوسف وأنّه هل يغفر لهم إساءتهم إليه ويعفو عن جريمتهم أم لا؟ فابتدأوا مستفسرين بقولهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾(١) أي إنّ الله سبحانه وتعالى قد فضّلك علينا بالعلم والحلم والحكومة ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾(٢).

أمّا يوسف الذي كانت نفسه تأبى أن يرى إخوته في حال الخجل والندامة - خاصّة في هذه اللحظات الحسّاسة وبعد انتصاره عليهم - أو لعلّه أراد أن يدفع عن أذهانهم ما قد يتبادر إليها من احتمال أن ينتقم منهم، فخاطبهم بقوله: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾(٣) أي إنّ العتاب والعقاب مرفوع عنكم اليوم، اطمئنوا وكونوا مرتاحي الضمير ولا تجعلوا للآلام والمصائب السابقة منفذاً إلى نفوسكم، ثمّ لكي يبيّن لهم أنّه ليس وحده الذي أسقط حقّه وعفا عنهم، بل إنّ الله سبحانه وتعالى أيضاً عفا عنهم حينما أظهروا الندامة والخجل قال لهم: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي إنّ الله سبحانه وتعالى قد قبل توبتكم وعفا عنكم لأنّه أرحم الراحمين.

---

(١) ﴿ءَاثَرَكَ﴾ أصله من (الإيثار) وفي الأصل بمعنى البحث عن أثر الشيء، وبما أنّه يقال للفضل والخير: أثر، فقد استعملت هذه الكلمة للدلالة على الفضيلة والعلو، فبناء على هذا يكون معنى قوله: ﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي إنّ الله سبحانه وتعالى قد أكرمك وفضّلك علينا لما قمت به من الأعمال الخيّرة.

(٢) يرى الفخر الرازي في تفسيره أنّ الفرق بين الخاطئ والمخطئ هو أنّ الخاطىء يقال لمن تعمّد الخطأ، والمخطئ لمن أخطأ عن سهو.

(٣) ﴿تَثْرِيبَ﴾ أصله من مادّة (ثرب) وهو شحمة رقيقة تغطّي المعدة والأمعاء، والتثريب بمعنى رفع هذا الغطاء، ثمّ بمعنى العتاب والملامة فكأنّ المعاقب قد رفع بعتابه غطاء الذنب عن وجه المذنب (راجع القاموس ومفردات الراغب وتفسير الرازي وروح المعاني).

وهذا دليل على علو قدر يوسف وغاية فضله حيث إنّه لم يعف عن سيّئات إخوته فحسب، بل رفض حتى أن يوبّخ ويعاتب إخوته - فضلاً عن أن يجازيهم ويعاقبهم - إضافةً إلى هذا فإنّه طمأنهم على أنّ الله سبحانه وتعالى رحيم غفور وأنّه تعالى سوف يعفو عن سيّئاتهم، واستدلّ لهم على ذلك بأنّ الله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين.

وهنا تذكّر الإخوة مصيبة أُخرى قد ألمّت بعائلتهم والشاهد الحي على ما اقترفوه في حقّ أخيهم، ألا وهو أبوهم حيث فقد الشيخ الكبير بصره حزناً وفراقاً على يوسف، أمّا يوسف فإنّه قد وجد لهذه المشكلة حلاً حيث خاطبهم بقوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ثم طلب منهم أن يجمعوا العائلة ويأتوا بهم جميعاً ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

بحوث

١ - من الذي حمل قميص يوسف؟

ورد في بعض الرّوايات أنّ يوسف قال: إنّ الذي يحمل قميصي المشافي إلى أبي لابدّ وأن يكون هو نفسه الذي حمل قميصي الملطّخ بالدماء إليه، لكي يدخل السرور على قلبه بعد أن ملأ قلبه حزناً وألماً من قبل! فأعطى لـ(يهودا) قميصه بعد أن اعترف له أنّه هو الذي حمل قميصه الملطّخ بالدماء إلى أبيه وأخبره بأنّ الذئب قد أكل يوسف، وهذا التصرّف من يوسف إن لم يدلّ على شيء فإنّه يدلّ على أنّه برغم أعماله الكثيرة ومتاعبه اليوميّة، فإنّه لم يغفل عن صغائر الأُمور المتعلّقة بالسلوك الأخلاقي[١].

٢ - يوسف وجلالة شأنه

ورد في بعض الرّوايات أنّ إخوة يوسف - بعد هذه القضايا - كانوا يحسّون بالخجل الشديد فأرسلوا إليه من يقول له: يا يوسف إنّك تستضيفنا كلّ يوم صباحاً ومساءً على مائدتك فنأكل من زادك وهذا ما يزيد في خجلنا حيث لا نطيق النظر إلى وجهك بعد أن نتذكّر إساءتنا إليك، فأجابهم بكلمة لطيفة ليبعد عنهم الخجل بأنّ الفضل يعود إليهم، وأنّ جلوسهم على مائدته لهو مكرمة منهم وإنّ الشعب المصري كانوا ينظرون إليّ نظرة الحرّ إلى العبد ويقولون فيما بينهم (سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ!!) أي

---

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

انظروا إلى فعل الله سبحانه وتعالى بهذا العبد فإنّه قد بيع في السوق بعشرين درهماً وهو الآن وصل إلى هذه المرتبة السامية، لكنّهم الآن ينظرون إلى مائدتي وأنتم جلوس حولها، فيعرفون قدري وتثبت لهم منزلتي وإنّني لست بعبد ذليل بيع بعشرين درهماً، وإنّما أنا سليل بيت النبوّة والرسالة ومن أولاد نبي الله إبراهيم الخليل، وهذا ما أُباهي وأفتخر به أمام الآخرين[1].

٣ - الشكر على الانتصار

إنّ الآيات السابقة تعلّمنا بجلاء ووضوح درساً من دروس الأخلاق الإسلامية، وهو أنّه بعد الانتصار على العدو وكسر شوكته لابدّ أن لا ننسى العفو والرحمة، وأن لا نعامله بقساوة، فإنّ إخوة يوسف قد عاملوه أشدّ المعاملة أشرفت به على نهايته وأوصلته إلى أبواب الموت، ولو لم تشمله عناية الله سبحانه وتعالى، لعجز عن الخلاص ممّا أوقعوه فيه، هذا إضافة إلى المصائب والآلام التي تحملها أبوه، لكنّهم الآن جميعاً واقفون أمّام يوسف وهو السيّد المطاع وبيده القوّة والقدرة، لكنّه عاملهم بلطف وإحسان.

كما أنّه يفهم من خلال حديثه معهم أنّه لم يحقد عليهم قطّ، بل الذي يقلقه هو تذكّر الإخوة ماضيهم الأسود ويحسّوا بالخجل! ولذا حاول جاهداً أن يريحهم من هذا القلق ويزيح هذا الكابوس عن صدورهم، بل أكثر من هذا فإنّه حاول أن يفهمهم أنّ لهم عليه فضلاً في مجيئهم إلى مصر والتعرّف عليهم، فإنّهم كانوا السبب في كشف حقيقته أمام الشعب في هذا البلد، حيث عرف أهل مصر أنّ عزيزهم هو سليل بيت النبوّة والرسالة وليس عبداً بيع في السوق بدراهم معدودات، ومن هنا فإنّ يوسف كان يرى لهم في ذلك فضلاً ومنّة!

ومن حسن الصدف أنّنا نرى رسول الله ﷺ يمتحن بمثل هذه المواقف الحرجة، فمثلاً حينما فتح رسول الله ﷺ مكّة وأذلّ المشركين وهزمهم وكسر أصنامهم وداس شوكتهم وكبرياءهم، جاء رسول الله ﷺ (كما رواه ابن عبّاس) إلى جوار الكعبة وأخذ بحلقة بابها وكان المشركون قد التجؤوا إليها ينتظرون حكم رسول الله ﷺ فيهم، وقال كلمته المشهورة: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثمّ توجّه إلى قريش وخاطبهم بقوله: «ماذا تظنّون يا معشر قريش؟ قالوا: خيراً، أخ كريم

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج١٨، ص٢٠٦.

وابن أخ كريم، وقد قدرت! قال: وأنا أقول كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾.

أي إنّ اليوم ليس يوم ملامة وانتقام وإظهار الحقد والضغينة «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

فقال عمر بن الخطاب: ففضت عرقاً من الحياء من رسول الله ﷺ ذلك أنّي قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكّة: اليوم ننتقم منكم ونفعل[1].

كما أنّه وردت في كثير من الرّوايات الإسلامية أنّ «زكاة النصر هو العفو».

يقول علي عليه السلام: «إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»[2].

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

التّفسير

وأخيراً شملتهم رعاية الله ولطفه

أمّا أولاد يعقوب فإنّهم بعد أن واجهوا يوسف وجرى لهم ما جرى حملوا معهم قميص يوسف فرحين ومستبشرين وتوجّهوا مع القوافل القادمة من مصر، وفيما كان الإخوة يقضون أسعد لحظات حياتهم، كان هناك بيت في بلاد الشام وأرض كنعان ألا وهو بيت يعقوب الطاعن في السنّ حيث كان يقضي هو وعائلته أحرج اللحظات وأشدّها حزناً وبؤساً.

لكن - مقارناً مع حركة القافلة من مصر - حدث في بيت يعقوب حادث غريب بحيث أذهل الجميع وصار مثاراً للعجب والحيرة، حيث نشط يعقوب وتحرّك من مكانه

(١) تفسير القرطبي، ج ٥ ص ٣٤٨٧، ج٩، ص٢٥٨.
(٢) نهج البلاغة - الكلمات القصار - الكلمة ١١.

وتحدّث كالمطمئن والواثق بكلامه قال: لو لم تتحدّثوا عنّي بسوء ولم تنسبوا كلامي إلى السفاهة والجهل والكذب لقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فإنّي أحسّ بأنّ أيّام المحنة والآلام سوف تنصرم في القريب العاجل، وأنّه قد حان وقت النصر واللقاء مع الحبيب، وأرى أنّ آل يعقوب قد نزعوا ثوب العزاء والمصيبة ولبسوا لباس الفرح والسرور لكن لا تصدّقون كلامي ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾(١).

والمستفاد من قوله تعالى ﴿فَصَلَتِ﴾ أنّه بمجرّد أن تحرّكت القافلة من مصر أحسّ يعقوب بالأمر وتغيّرت أحواله.

أمّا الذين كانوا مع يعقوب - وهم عادةً أحفاده وأزواج أولاده وغيرهم من الأهل والعشيرة - فقد استولى عليهم العجب وخاطبوه بوقاحة مستنكرين: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أليس هذا برهاناً واضحاً على ضلالك حيث مضت سنين طويلة على موت يوسف لكنّك لا زلت تزعم أنّه حي، وأخيراً تقول: إنّك تشمّ رائحته من مصر؟! أين مصر وأين الشام وكنعان؟! وهذا دليل على بعدك عن عالم الواقع وانغماسك في الأوهام والخيالات لكنّك قد ضللت منذ مدّة طويلة، ألم تقل لأولادك قبل فترة اذهبوا إلى مصر وتحسّسوا عن أحوال يوسف!

يظهر من هذه الآية الشريفة أنّ المقصود بـ(الضلال) ليس الانحراف في العقيدة، بل الانحراف في تشخيص حقيقة حال يوسف والقضايا المتعلّقة به، لكن يستفاد من هذه التعابير أنّهم كانوا يتعاملون مع هذا النبي الكبير والشيخ المتيقّظ الضمير بخشونة وقساوة بالغين بحيث كانوا يقولون له مرّة: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهنا قالوا له: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لكنّهم كانوا غافلين عن الحقيقة التي كان يتحلّى بها يعقوب وعن صفاء قلبه، ويتصوّرون أنّ قلب يعقوب كقلوبهم القاسية المظلمة وأنّه لا يطّلع على حقائق الأمور ماضيها ومستقبلها.

وتمضي الليالي والأيّام ويعقوب في حالة الانتظار... الانتظار القاسي الذي يستبطن

---

(١) ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ من مادّة (الفَند) على زنة (الرَّمَد) ومعناها العجز الفكري والسفاهة، ومضى بعض اللغويين إلى أنّ معناها الكذب ومعناها في الأصل الفساد. فبناءً على ذلك فإنّ جملة ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ معناها إذا لم تتّهموني بالسفاهة وفساد العقل.

السرور والفرح والهدوء والاطمئنان، إلاّ أنّ المحيطين به كانوا مشغولين عن هذه الأُمور لاعتقادهم بأنّ قضيّة يوسف مختومة وإلى الأبد.

وبعد عدّة أيّام من الانتظار - والتي لا يعلم إلاّ الله كيف قضاها يعقوب - ارتفع صوت المنادي معلناً عن وصول قافلة كنعان من مصر، لكن في هذه المرّة - وخلافاً للمرّات السابقة - دخل أولاد يعقوب إلى المدينة فرحين مستبشرين، وتوجّهوا مسرعين إلى بيت أبيهم، وقد سبقهم الـ (بشير) الذي بشّر يعقوب بحياة يوسف وألقى قميص يوسف على وجهه.

أمّا يعقوب الذي أضعفت المصائب بصره ولم يكن قادراً على رؤية القميص فبمجرّد أن أحسّ بالرائحة المنبعثة من القميص شعر في تلك اللحظة الذهبية بأنّ نوراً قد شعّ في جميع ذرّات وجوده وأنّ السّماء والأرض مسروران ونسيم الرحمة يدغدغ فؤاده ويزيل عنه الحزن والألم، شاهد الجدران وكأنّها تضحك معه، وأحسّ يعقوب بتغيّر حالته، وفجأةً رأى النّور في عينيه وأحسّ بأنّهما قد فتحتا ومرّة أُخرى رأى جمال العالم، والقرآن الكريم يصف لنا هذه الحالة بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

هذه الحالة التي حصلت ليعقوب أسالت دموع الفرح من عيون الإخوة والأهل، وعند ذاك خاطبهم بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذه المعجزة الغريبة، جعلت الأولاد يعودون إلى أنفسهم ويتساءلون عنها ويفكّرون في ماضيهم الأسود المليء بالأخطاء والذنوب، وما اعتورهم من الحسد وغيره من الصفات الرذيلة البعيدة عن الإنسانية، لكن ما أجمل التوبة والعودة إلى طريق الصواب حينما ينكشف للإنسان خطأ المسيرة التي سار فيها... وما أحلى تلك اللحظات التي يحاول المذنب أن يطلب العفو ممّن جنى عليه، ليطهّر به نفسه ويبعدها عن جادّة الخطأ والانحراف، وهذا ما قام به الإخوة حيث وقعوا نادمين على يد أبيهم يقبّلونها ويطلبون منه العفو والاستغفار ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

أمّا يعقوب هذا الرجل العظيم الذي كانت روحه أوسع من المحيطات، فقد أجابهم دون أن يلومهم على تلك الأفعال التي اقترفوها في حقّه وحقّ أخيهم... أجابهم بقوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ وأملي معقود بأن يغفر الله سبحانه وتعالى ذنوبكم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

بحوث

١ - كيف أحسّ يعقوب برائحة قميص يوسف؟!

هذا سؤال أثاره كثير من المفسّرين، واعتبروه معجزة خارقة للعادة من قبل يعقوب أو يوسف. إلاّ أنّه مع الأخذ بنظر الاعتبار سكوت القرآن عن هذا الأمر ولم يتناوله على أنّه أمر إعجازي أو غير إعجازي فمن الهيّن أن نجد له توجيهاً علميّاً أيضاً، إذ إنّ حقيقة «التليباثي» أو انتقال الفكر من النقاط أو الأماكن البعيدة تُعدّ مسألة علميّة قطعيّة مسلّماً بها... وأنّها تحدث عند من تكون لديهم علاقة قريبة تربط بعضهم ببعض، أو تكون لديهم قدرة روحيّة عالية.

ولعلّ كثيراً منّا يواجه مثل هذه المسألة في حياته اليوميّة، وذلك أن يشعر شخص «من أب، أو أُمّ، أو أخ» مثلاً بالكآبة وانقباض النفس دون سبب، ثمّ لا يمضي وقت - أو فترة - حتى يبلغه خبر بأنّ أخاه أو ولده قد حدث له حادث ما في نقطة بعيدة عنه.

فالعلماء يوجّهون هذا الإحساس على أنّه جرى عن طريق انتقال الفكر.

وما ورد في قصّة يعقوب لعلّه من هذا القبيل أيضاً، فعلاقته الشديدة بيوسف وعظمة روحه، كلّ ذلك كان سبباً لأن يشعر بالحالة الحاصلة للإخوة نتيجة حمل قميص يوسف من مسافة بعيدة.

ومن الممكن أن يتعلّق هذا الأمر بمسألة سعة دائرة علم الأنبياء أيضاً.

وقد وردت إشارة طريفة - في بعض الرّوايات - إلى مسألة انتقال الفكر، وهي أنّ بعضهم سأل الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام: فقال: جُعلت فداك، ربّما حزنت من دون مصيبة تُصيبني أو أمر ينزل بي، حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي.

فقال عليه السلام: «نعم يا جابر، إنّ الله خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأُمّه، فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حُزنٌ حزنت هذه لأنّها منها»[1].

ويستفاد من بعض الرّوايات أيضاً أنّ هذا القميص لم يكن قميصاً مألوفاً، بل كان

---

(١) أُصول الكافي، ج٢، ص١٣٣ «والسائل هو جابر الجعفي».

ثوباً من ثياب الجنّة، وقد خلّفه إبراهيم الخليل عليه السلام في آل يعقوب وأُسرته ليكون ذكرى له، وأنّ رجلاً كيعقوب عليه السلام الذي كانت لديه شامّة من «الجنّة» أحسّ برائحة هذا الثوب الذي هو من ثياب الجنّة من بعيد(١).

٢ - اختلاف حالات الأنبياء

الإشكال المعروف الآخر هنا هو ما أثاره بعضهم في شأن يعقوب من سؤال وهو:

كيف يمكن أن يكون هذا النّبي العظيم قد أحسّ بريح قميص يوسف من مسافة قدّرها بعضهم بثمانين فرسخاً، وقال بعضهم: من مسافة عشرة أيّام، مع أنّه لم يطّلع على الحوادث القريبة منه التي مرّت على يوسف عندما أُلقي في الجبّ في أرض كنعان؟

والجواب على هذا السؤال - مع الالتفات إلى ما ذكرناه آنفاً في شأن علم الغيب، وحدود علم الأنبياء والأئمّة - يسير لا غبار عليه، لأنّ علمهم بالأُمور الغيبيّة يستند إلى علم الله وإرادته، وما يشاؤه الله لهم من العلم «أو عدمه» حتى ولو كان ذلك في أقرب نقطة من نقاط العالم.

فيمكن تشبيههم من هذا الوجه بالقافلة التي تسير في ليل مظلم في صحراء تغشيها الغيوم وبينا هي على هذه الحال وإذا السّماء تومض بالبرق اللامع فتضيء الصحراء إلى منتهى أطرافها، فترى القافلة بأُمّ أعينها كلّ شيء أمامها، إلاّ أنّ البرق ينطفىء ثانيةً ويستوعب الظلام كلّ مكان فلا يرى أحد شيئاً.

ولعلّ الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام في شأن علم الإمام عليه السلام إشارة إلى هذا المعنى، إذ جاء عنه عليه السلام أنّه قال: «جعل الله بينه وبين الإمام عموداً من نور، ينظر الله به إلى الإمام، وينظر الإمام به إليه، فإذا أرادَ علم شيء نظر في ذلك النّور فعرفه»(٢).

ومع الالتفات إلى هذه الحقيقة، فلا مجال للتعجّب بأن تقتضي مشيئة الله سبحانه - لابتلاء يعقوب وتمحيصه - أن لا يعرف يوماً شيئاً عن الحوادث في كنعان وهي تجري قريباً منه، وأن يحسّ برائحة قميص ولده يوسف وهو في مصر في يوم آخر عندما قُدّر له أن تنتهي محنته وبلواه.

---

(١) لمزيد الاطلاع على هذه الرّوايات يراجع المجلد الثّاني من تفسير نور الثقلين، ص٤٦٤.
(٢) شرح نهج البلاغة، للخوئي، ج٥، ص٢٠٠.

٣ - كيف رُدّ على يعقوب بصره؟!

احتمل بعض المفسّرين أنّ يعقوب عليه السلام لم يفقد بصره بصورة كليّة، وإنّما ضعف بصره، وعند حصول مقدّمات الوصال تبدّل تبدّلاً بحيث عاد ذلك البصر إلى حالته الطبيعيّة الأُولى، إلاّ أنّ ظاهر آيات القرآن يدلّ على أنّه فقد بصره تماماً وابيضّت عيناه من الحزن، وعلى ذلك فإنّ بصره عاد إليه عن طريق الإعجاز، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾.

٤ - الوعد بالاستغفار

نقرأ في الآيات - محل البحث - أنّ يوسف عليه السلام قال لإخوته عندما أظهروا له ندامتهم: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ إلاّ أنّ يعقوب عليه السلام قال لهم عندما اعترفوا عنده بالذنب وأظهروا الندامة: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ﴾ وكان هدفه - كما تقول الرّوايات - أن يؤخّر استجابة طلبهم الاستغفار إلى السحر (من ليلة الجمعة) الذي هو خير وقت لاستجابة الدعاء وقبول التوبة[1].

والآن ينقدح هذا السؤال وهو: كيف أجابهم يوسف بصورة قطعيّة، وأوكل أبوهم ذلك إلى المستقبل؟!

ولعلّ هذا الاختلاف ناشيء عن أنّ يوسف عليه السلام كان يتحدّث عن «إمكان المغفرة» وأنّ هذا الذنب من الممكن أن يعفو الله عنه، ويعقوب كان يتحدّث عن «فعليّة المغفرة» وأنّه ما الذي ينبغي أن يفعل حتى تتحقّق التوبة والمغفرة «فلاحظوا بدقّة».

٥ - التوسّل جائز

يستفاد من الآيات - آنفة الذكر - أنّ طلب الاستغفار من الآخرين غير مناف للتوحيد، بل هو سبيل إلى الوصول إلى لطف الله سبحانه، وإلاّ فكيف كان يمكن ليعقوب أن يستجيب لطلب أبنائه في أن يستغفر لهم وأن يجيبهم بالإيجاب على توسّلهم به.

وهذا الأمر يدلّ على أن التوسّل بأولياء الله جائز على الإجمال، والأشخاص الذين

(١) نقرأ في تفسير القرطبي أنّ هدفه كان الاستغفار لهم في ليلة الجمعة الموافقة ليوم عاشوراء «المزيد الاطلاع يراجع تفسير القرطبي، ج٦، ص٣٤٩١».

يرون ذلك مخالفاً لأصل التوحيد غافلون عن نصوص القرآن، أو أنّ التعصّب المقيت يحجب أبصارهم عن تلك النصوص.

٦ - نهاية الليلة السوداء

إنّ الدرس الكبير الذي نستلهمه من الآيات المتقدّمة هو أنّه مهما كانت المشاكل والحوادث صعبة وعسيرة، ومهما كانت الأسباب والعلل الظاهرية غير تامّة ومحدودة، ومهما كان النصر أو الفرج بطيئاً (أو غير متحقّق فعلاً) فإنّ أيّاً من أولئك لا يمنع من الرجاء والأمل بلطف الله، فالله الذي أعاد البصر برائحة القميص ونقل رائحة ذلك القميص من مسافة بعيدة، وردّ العزيز المفتقد بعد سنين طويلة، قادر على أن يضمّد القلوب المجروحة من الفراق، وأن يشفي آلام النفوس.

أجل إنّنا نجد الدرس التوحيدي الكبير ينطوي في هذا القصص والتاريخ، وهو أنّه لا شيء على الله بعزيز ولا عسير، بل يهون كلّ شيء بأمره وإرادته: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

التّفسير

عاقبة أمر يوسف وأبيه وإخوته

مع وصول القافلة التي تحمل أعظم بشارة من مصر إلى كنعان، وعودة البصر إلى

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

يعقوب، ارتفعت أهازيج في كنعان، فالبيت الذي لم يخلع أهله عنهم ثياب الحزن والأسى لسنين عديدة، أصبح غارقاً في السرور والحبور، فلم يكتموا رضاهم عن هذه النعم الإلهيّة أبداً.

والآن ينبغي على أهل هذا البيت - وفقاً لوصيّة يوسف - أن يتحرّكوا ويتّجهوا نحو مصر، وتهيأت مقدّمات السفر من جميع النواحي، وركب يعقوب راحلته وشفتاهُ رطبتان بذكر الله وتمجيده، وقد منحه عشق يوسف قوّةً وعزماً إلى درجة وكأنّه عاد شاباً من جديد.

وهذا السفر على خلاف الأسفار السابقة - التي كانت مقرونة لدى إخوة يوسف بالقلق والحزن - كان خالياً من أيّة شائبة من شوائب الهمّ والغمّ. وحتى لو كان السفر بنفسه متعباً، فهذا التعب لم يكن شيئاً ذا بال قِبالَ ما يهدفون إليه في مسيرهم هذا.

كانوا يطوون الليالي والأيّام ببطء، لأنّ الشوق كان يحيل كلّ دقيقة إلى يوم أو سنة، ولكن انتهى كلّ شيء ولاحت معالم مصر وأبنيتها من بعيد بمزارعها الخُضر وأشجارها الباسقة السامقة وعماراتها الجميلة.

إلاّ أنّ القرآن الكريم - كعادته دائماً - حذف هذه المقدّمات التي يمكن أن تدرك بأدنى تفكّر وتأمّل، فقال في هذا الشأن: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾.

وكلمة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ - كما يقول الراغب في مفرداته - تعني في الأصل انضمام شيء إلى شيء آخر، وضمّ يوسف أبويه إليه كناية عن احتضانهما ومعانقتهما.

وأخيراً تحقّقت أحلى سويعات الحياة ليعقوب، وفي هذا اللقاء والوصال الذي تمّ بين يعقوب ويوسف بعد سنين من الفراق، مرّت على يعقوب ويوسف لحظات لا يعلم إلاّ الله عواطفها في تلك اللحظات الحلوة، وأيّة دموع انسكبت من عينيهما من الفرح.

وعندها التفت يوسف إلى إخوته وأبويه ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُوا۟ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ لأنّ مصر أصبحت تحت حكم يوسف في أمن وأمان واطمئنان.

ويُستشفّ من هذه الجملة أنّ يوسف كان قد خرج إلى خارج بوّابة المدينة لاستقبال والديه وإخوته، ولعلّ التعبير بـ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يحتمل أن يكون يوسف قد أمر أن تنصب الخيام هناك «خارج المدينة» وأن تُهيأ مقدّمات الاستقبال لأبويه وإخوته.

فلمّا دخلوا القصر أكرمهم يوسف عليه السلام: «ورفع أبويه على العرش».

وكانت هذه العظمة من النعمة الإلهيّة واللطف والموهبة التي منّ الله بها على يوسف

قد أدهشت إخوة يوسف وأبويه فذهلوا جميعاً ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

وعندها التفت يوسف إلى أبيه ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾.

ألم يقل أنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين؟!

فانظر يا أبت كما كنت تتوقّع من عاقبة أمري ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ . . . ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾.

الطريف هنا أنّ يوسف تكلّم هنا عن سجنه في مصر من بين جميع مشاكله ولم يتكلّم على الجبّ مراعاةً لإخوته.

ثمّ أضاف يوسف قائلاً: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾.

ومرّة أُخرى يظهر هنا يوسف مثلاً آخر من سعة صدره وعظمته، ودون أن يقول: من هو المقصّر، وإنّما يقول بصورة مجملة إنّ الشيطان تدخّل فنزغ بيني وبين إخوتي، فهو لا يريد أن يتشكّى من أخطاء إخوته السالفة.

والتعبير عن أرض كنعان بالبدو تعبير طريف وكاشف عن مدى الاختلاف بين تمدّن مصر وتخلّف كنعان «حضاريّاً».

وأخيراً يقول يوسف: إنّ جميع هذه المواهب هي من قِبَل الله، ولِمَ لا تكون كذلك فـ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُ﴾.

فيتولّى أُمور عباده بالتيسير والتدبير. . . وهو يعلم من هو المحتاج ومن هو الجدير بالاستجابة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

ثمّ يلتفت يوسف نحو مالك الملك الحقيقي وولي النعمة الدائمة فيقول شاكراً راجياً: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾.

وهذا العلم البسيط بحسب الظاهر «تأويل الأحاديث» كم كان له من أثر عظيم في تغيير حياتي وحياة جماعة آخرين من عبادك، وما أعظم بركة العلم!

فأنت يا ربّ: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

ولذلك فقد خضعت واستسلمت قبال قدرتك جميع الأشياء.

ربّاه: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي إنّني لا أطلب دوام الملك وبقاء الحكم والحياة الماديّة منك ياربّ، لأنّ هذه الأُمور جميعها فانية وليس فيها سوى البريق الجذّاب. بل أطلب منك ياربّ أن تكون

عاقبة أمري على خير، وأن أقضي حياتي وأموت مؤمناً في سبيلك مسلِّماً لإرادتك، وأن أكون في صفوف الصالحين، فهذه الأمور هي المهمّة لديّ فحسب.

بحوث

١ - هل السجود لغير الله جائز؟!

كما بيّنا في الجزء الأوّل من هذا التّفسير عند بحثنا في شأن سجود الملائكة لآدم[1]، فقلنا: إنّ السجود بمعنى العبادة يختص بالله تعالى ولا تجوز العبادة لأي أحد في أيّ مذهب إلاّ لله سبحانه وهذا هو المراد من توحيد العبادة الذي هو قسم مهمّ من التوحيد الذي دعا إليه جميع الأنبياء.

فبناءً على هذا لم يكن يوسف وهو نبيّ الله يسمح لأحد أن يسجد له ويعبده من دون الله، ولا النّبي العظيم يعقوب كان يقدم على مثل هذا الأمر، ولا القرآن الكريم كان يعبّر عنه بأنّه عمل جدير أو على الأقل عمل مجاز.

فبناءً على ذلك فإنّ السجود المشار إليه في الآية - محلّ البحث - إمّا أنّه كان «سجدة الشكر» لله تعالى الذي أولى يوسف هذه المواهب والمقام العظيم، وفرّج عن آل يعقوب كربهم وأزال عنهم همومهم، وهذا السجود في الوقت الذي كان لله، بما أنّه كان من أجل عظمة موهبة يوسف، فإنّه كان يعتبر تعظيماً وتكريماً ليوسف أيضاً، ومن هذا المنطلق فإنّ الضمير في (له) الذي يعود على يوسف قطعاً ينسجم وهذا المعنى تماماً.

أو أنّ المراد من السجود هو مفهومه الواسع، أي الخضوع والتواضع، لأنّ السجدة - أو السجود - لا يأتي أي منهما بمعناه المعروف دائماً، بل ربّما يرد بمعنى الخضوع والتواضع أحياناً، فلذا قال بعض المفسّرين: إنّ التحيّة أو التواضع المتداول آنئذ كان الانحناء والتعظيم، وأنّ المراد من السجود في الآية هو هذا المعنى.

إلاّ أنّه مع الالتفات إلى جملة «خرّوا» التي تعني الهويّ نحو الأرض فإنّه لا يستفاد من السجود في الآية الانحناء والخضوع.

وقال بعض المفسّرين العظام: إنّ سجود يعقوب وإخوة يوسف وأُمّهم كان لله سبحانه، إلاّ أنّ يوسف كان - بمثابة الكعبة - قبلةً لهم، ولهذا جاء في بعض تعابير

---

(١) راجع ذيل الآية ٣٤ من سورة البقرة من هذا التفسير.

العرب قولهم: فلان صلّى للقبلة[١].

إلاّ أنّ المعنى الأوّل يبدو أقرب للنظر، وخاصّة أنّ بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تقول: «كان سجودهم لله، أو عبادةً لله»[٢].

كما جاء في بعض الرّوايات أنّ سجودهم كان طاعة لله وتحيّة ليوسف[٣].

كما أنّ السجود لآدم كان سجوداً لله العظيم الذي خلق مثل هذا الخلق البديع، وهو في الوقت الذي يعدّ عبادةً لله فهو دليل على احترام آدم وعظمته.

وهذا الأمر يشبه تماماً أن يؤدّي رجل - مثلاً - عملاً مهمّاً عظيماً، فنسجد نحن لله الذي خلق مثل هذا الإنسان، فهذا السجود هو لله كما أنّه في الوقت ذاته يعدّ احتراماً وتعظيماً للرجل أيضاً.

٢ - وساوس الشيطان

إنّ جملة ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ مع ملاحظة أنّ ﴿نَّزَغَ﴾ بمعنى الدخول في أمر ما بقصد الفساد أو الإفساد تدلّ على أنّ لوساوس الشيطان في مثل هذه الحوادث أثراً مهمّاً دائماً، إلاّ أنّنا نوّهنا من قبل بأنّ هذه الوساوس لوحدها لا تعمل شيئاً، فالمصمّم الأخير هو الإنسان نفسه، بل هو الذي يفتح أبواب قلبه للشيطان ويسمح له بالدخول.

فبناءً على ذلك فليس في الآية - محلّ البحث - أمر خلاف أصل حريّة الإرادة أساساً. غاية ما في الأمر أنّ يوسف عليه السلام بما لديه من حلم وسعة صدر لم يرغب أن يحرج إخوته ويزيد في خجلهم، فهم كانوا خجلين إلى درجة كافية، ولهذا لم يشر إلى المصمّم النهائي وإنّما ذكر وساوس الشيطان التي تعدّ العامل الثانوي فحسب.

٣ - الأمن نعمة الله الكبرى

لقد أشار يوسف إلى مسألة الأمن من بين جميع المواهب والنّعم بمصر، وقال لأبويه وإخوته ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وهذا الأمر يدلّ على أنّ نعمة الأمن أساس جميع النعم، والحقّ أنّها كذلك، لأنّه متى ذهبت نعمة الأمن، فإنّ سائر مسائل الرفاه والمواهب المادية والمعنوية يحدق بها الخطر.

---

(١) راجع تفسير الميزان، وتفسير الفخر الرازي ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٤٦٧. (٣) المصدر السابق، ص ٤٦٨.

ففي جوّ أو محيط غير آمن، ليس بالمقدور إطاعة الله فيه ولا الحياة الحرّة الكريمة، كما ليس بمقدور الإنسان أن يفكّر تفكيراً مطمئناً هادئاً، ولا السعي والجدّ والجهاد نحو تحقّق الأهداف الاجتماعية أيضاً.

وهذه الجملة لعلّها إشارة إلى هذه اللطيفة، وهي أنّ يوسف يريد أن يقول: إنّ أرض مصر في عهدي وحكومتي ليست هي تلك الأرض في عهد الفراعنة وحكمهم، فأُولئك الظالمون المستكبرون المستثمرون الأنانيون ولّوا ومضوا كما مضى ذلك التعذيب والأذى، فالجوّ جو آمن تماماً.

٤ - أهميّة مقام العلم

ومرّة أُخرى يعوّل يوسف عليه السلام في انتهاء عمله وأمره على مسألة علم تعبير الرؤيا، ويجعل هذا العلم البسيط - ظاهراً - إلى جانب تلك الحكومة العظمى ومن دون منازع، وهذا يكشف عن تأكيده على أهميّة العلم مهما كان بسيطاً، فيقول: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

٥ - حسن العاقبة

قد يتقلّب الإنسان في طول عمره في أشكال مختلفة متعدّدة، إلاّ أنّ من المسلّم به أنّ الصفحات الأخيرة من حياته أهمّ من جميع ما مضى عليه، لأنّ سجل عمره ينتهي بانتهائها ويتعلّق بها الحكم النهائي عليه، لذا فإنّ الرجال المؤمنين يطلبون من الله دائماً أن تكون هذه الصفحات من العمر مشرقة نيّرة، وأن يختم لهم بالخير.

ونجد يوسف عليه السلام يطلب من الله - هنا - هذا الأمر نفسه فيقول: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وليس معنى هذا الكلام طلب الموت من الله، كما تصوّره ابن عبّاس فقال: لم يطلب أحد من الأنبياء الموت من الله إلاّ يوسف، فعندما توفّرت له أسباب حكومته تأجّج العشق (والتعلّق بالله) في نفسه فتمنّى لقاء الله.

بل طلب يوسف إنّما كان الشرط والحالة فحسب، أي أنّه طلب أن يكون عند الوفاة مؤمناً مسلماً، وقد كان إبراهيم ويعقوب يوصيان أبناءهما بهذه الوصيّة أيضاً بقولهما لهم: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

وقد اختار كثير من المفسّرين هذا المعنى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

٦ - هل جاءت أُمّ يوسف إلى مصر؟

يستفاد من ظاهر الآيات - آنفة الذكر - بصورة جيّدة أنّ أُمّ يوسف كانت يومئذ حيّة، وقد جاءت مع يعقوب وأبنائها إلى مصر، وسجدت شاكرةً هذه النعمة، إلاّ أنّ بعض المفسّرين يصرّون على أنّ أُمّ يوسف «راحيل» كانت قد انتقلت من الدنيا يومئذ، وإنّما التي جاءت إلى مصر خالته التي تعدّ بمثابة أُمّه.

ونقرأ في سفر التكوين من التوراة - الفصل ٣٥ الجملة ١٨ - أنّ راحيل بعد أن ولدت بنيامين رحلت عن الدنيا، وجاء في بعض الرّوايات عن (وهب بن منبه) و(كعب الأحبار) هذا المعنى ذاته أيضاً، ويبدو أنّه مأخوذ من التوراة.

وعلى أي حال، فليس بوسعنا أن نغضي عن ظاهر آيات القرآن التي تقول: إنّ أُمّ يوسف كانت حيّة آنئذ، ونؤول ذلك ونوجّهه دون أي دليل.

٧ - عدم ذكر القصّة للأب

نقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال عليه السلام: «قال يعقوب ليوسف: يابُني حدّثني كيف صنع بك إخوتك؟!

قال: يا أبت دعني.

فقال: أقسمت عليك إلاّ أخبرتني!

فقال له: أخذوني وأقعدوني على رأس الجبّ، ثمّ قالوا لي: انزع قميصك، فقلت لهم إنّي أسألكم بوجه أبي يعقوب أن لا تنزعوا قميصي ولا تبدوا عورتي، فرفع فلان السكّين عليّ، وقال: انزل.

فصاح يعقوب فسقط مغشيّاً عليه ثمّ أفاق، فقال له: يابني كيف صنعوا بك؟!

فقال يوسف: إنّي أسألك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلاّ أعفيتني.

قال: فتركه» الخ[1].

وهذا الأمر يدلّ على أنّ يوسف لم يرغب بأيّ وجه أبداً أن يُعيد في ذهنه أو في ذهن أبيه الماضي المرير، بالرغم من أنّ رغبة يعقوب في التقصّي عن الأمر لم تدعه يستقرّ.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٥، ص٢٦٥.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

التّفسير

الأدعياء مشركون غالباً!

بعد ما انتهت قصّة يوسف عليه السلام بكلّ دروسها التربوية ونتائجها الغزيرة والقيّمة والخالية من جزاف القول والخرافات التاريخية. . . انتقل الكلام إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ. . .﴾.

إنّ هذه المعلومات الدقيقة لا يعلمها إلاّ الله، أو واحدٌ من الذين كانوا حاضرين هناك، وبما أنّك لم تكن حاضراً لديهم فالوحي الإلهي فقط هو الذي جاءك بهذه الأخبار.

ومن هنا يتّضح أنّ قصّة يوسف بما أنّها وردت في التوراة فأهل الحجاز عندهم معلومات تقريبيّة عنها، ولكن كلّ هذه الحوادث لم تطرح بهذه الدقّة في جزئياتها أبداً، وحتى في المحافل الخاصّة السابقة لم تكن تُعرف بدون إضافة وخرافة.

وعلى أي حال كان لزاماً على الناس أن يؤمنوا بعد مشاهدتهم لعلائم الوحي وسماعهم لهذه النصائح الإلهيّة، وأن يتراجعوا عن طريق الغيّ، ولكن يا أيّها النّبي: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ الوصف بـ (الحرص) هنا دليل على شوق ولهفة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن يؤمن الناس، ولكن ما الفائدة، فإصراره وشوقه لم يكونا كافيين، فمن شرط الإيمان الاستعداد والقابلية في نفس الشخص.

إنّ أبناء يعقوب عليه السلام كانوا يعيشون في بيت الوحي والنبوّة، ومع ذلك نرى كيف عصفت بهم الأهواء حتى كادوا أن يقتلوا أخاهم، فكيف نتوقّع من جميع الناس أن يتغلّبوا على أهوائهم وشهواتهم مرّةً واحدة وبشكل جماعي ويؤمنوا بالله؟

وهذه الآية بالإضافة إلى ما ذكرنا هي تسليةً لقلب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى لا ييأس أبداً من إصرارهم على الكفر والذنوب ولا يستوحش الطريق لقلّة أصحابه، كما نقرأ في آيات أُخرى من القرآن الكريم كسورة الكهف الآية ٦: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فهؤلاء في الواقع ليس لهم أي عذر أو مبرّر لعدم قبول الدعوة بالإضافة إلى ما اتّضح من علامات الحقّ أنّك لم تسألهم أجراً حتى يكون مبرّراً لمخالفتك: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهذه الدعوة عامّة للجميع، ومائدة واسعة للعام والخاص وكلّ البشرية.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

فهذه الدلائل يرونها بأعينهم كلّ يوم! تشرق الشمس عند الصباح لتنشر أشعتها الذهبية على الجبال والوديان والصحاري والبحار، وتغرب عند المساء ويعمّ الليل بستاره المظلم كلّ مكان.

إنّ أسرار هذا النظام العجيب وهذا الشروق والغروب وحياة النباتات والحشرات والإنسان، وهدير المياه، وحركة النسيم، وكلّ هذا الفن العجيب للوجود هو من الوضوح بحيث إن لم يتدبّر أحد فيه وفي خالقه سيكون كالخشبة المسنّدة.

كثيرة هي الدلائل التي نعتبرها صغيرة وغير مهمّة، فنحن نمرّ عليها كلّ يوم ولا نعير لها أهميّة، وفجأةً يظهر عالم ذو بصيرة فيكتشف بعد دراسة أشهر وسنين أسرار هذه الدلائل ويُذهَل العالم بها.

المهمّ أن نعلم أنّ كلّ ما في العالم ليس زخرفاً وبدون فائدة، لأنّها من مخلوقات الله الذي لا نهاية لعلمه ولا حدّ لحكمته، وإنّما الساذج والزخرف فهم أُولئك الذين يعتقدون بأنّ وجود العالم عبث وليس له غاية وفائدة، ولهذا فلا تعجب لعدم إيمانهم بالآيات المنزلة عليك، لأنّهم لم يؤمنوا بالآيات المحيطة بهم من كلّ مكان ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

قد يتصوّر هؤلاء أنّهم من المؤمنين المخلصين ولكن غالباً ما توجد جذور الشرك في أفكارهم وأقوالهم وضمائرهم.

ليس الإيمان هو الاعتقاد بوجود الله فقط، فالمؤمن المخلص هو الذي لا يعتقد بأيّ معبود سوى الله، فتكون أقواله وأعماله وكلّ أفعاله خاضعة له. ولا يعترف بغير قانون الله، ولا يضع طوق العبوديّة في رقبته لغيره، ويمتثل بقلبه وروحه لكلّ الأوامر الإلهيّة ولو كانت مخالفة لهواه، ويُقدّم دائماً الإله على الهوى، هذا هو الإيمان الخالص من الشرك في العقيدة والقول والعمل، فلو حسبنا حساباً دقيقاً في هذا المجال لوجدنا أنّ الموحّدين الصادقين والمخلصين قليلون جدّاً.

ولهذا السبب نقرأ في الرّوايات الإسلامية ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «الشرك أخفى من دبيب النحل»(١).

أو نقرأ: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم: «اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء»(٢).

ونُقل عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية أعلاه حيث يقول: «شرك طاعة وليس شرك عبادة، والمعاصي التي يرتكبون هي شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله في الطاعة لغيره»(٣).

وفي بعض الرّوايات نقرأ أنّ المقصود من (شرك النعمة) بهذا المعنى أنّ الله يهب الإنسان شيئاً فيقول: إنّ فلاناً قد جاءني به فلو لم يكن فلان لكنتُ من الهالكين! وكانت حياتي هباءً منثوراً(٤)، فهنا قد اعتبر الشريك مع الله الشخص الذي جرت على يده نعمة الله!

الخلاصة: إنّ ما يُفهم من الشرك ليس الكفر وإنكار الإله وعبادة الأصنام فقط، كما جاء في حديث عن الإمام الرضا عليه السلام: «شرك لا يبلغُ به الكفر»(٥) ولكن الشرك بمعناه الواسع يشمل جميع هذه الأُمور.

وفي آخر آية يحذّر القرآن الكريم أُولئك الذين لم يؤمنوا بعد ويمرّوا على الآيات الواضحة مرّ الكرام ويشركون في أعمالهم حيث يقول: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٦٩٧. (٢) التفسير في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٥٣.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٧٥ - أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٩٢؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص٢٧٤.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٧٥. (٥) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٧٥.

«الغاشية»: الغطاء أو الستار، ويقال للثوب الكبير الذي يغطّي سرج الجواد، ومعناه هنا البلاء والجزاء الذي يعمّ المفسدين[١].

«والساعة»: القيامة، وقد وردت بهذا المعنى في كثير من الآيات.

ويحتمل أن تكون كناية عن الوقائع العظيمة التي تحدث قبل يوم القيامة مثل الزلازل والعواصف والصواعق، أو إشارة إلى ساعة الموت، ولكن التّفسير الأوّل أقرب إلى المعنى كما نرى.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

التّفسير

أصدق الدروس والعبر

في الآية الأُولى من هذه المجموعة يتلقّى النّبي ﷺ الأوامر لتحديد الطريق والمنهج الذي يتّبعه، فيقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثمّ يضيف: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

وهذه الجملة توضّح أنّ كلّ فرد مسلم مقتد بالرّسول ﷺ له نفس الدور في الدعوة إلى الحقّ، ولابدّ من دعوة الآخرين إلى الله، من خلال، الأقوال والأفعال وكذلك تؤكّد هذه الجملة على أنّ القائد يجب أن تكون له بصيرة ومعرفة كافية، وإلاّ فإنّ دعوته

(١) غاشية مؤنثة لأنّها صفة «للعقوبة» التي هي مقدّرة.

ليست إلى الحق، وللتأكيد على ذلك يضيف القرآن الكريم: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

فهو يؤكّد على نزاهة الخالق الذي يدعو إليه وكماله المطلق الخالي من النقصان وأنّه لا يتّخذ معه شريكاً.

هذه في الواقع من خصائص القائد الصادق، أن يعلن بصراحة عن أهدافه وخُططه، وأن يسير هو والتابعين له على منهج واضح وسليم، لا أن تسودهم هالة من الإبهام في الهدف والطريقة، أو أن يسير كلّ واحد منهم في جهة معيّنة.

فواحدة من الطرق التي نتعرّف بها على القيادات الصادقة من الكاذبة هو أنّ القيادة الصادقة تتميّز بصراحة القول ووضوح الطريق أمّا الأُخرى فهي لكي تحاول التغطية على سلوكها تلتجىء إلى الحديث المبهم والمتعدّد الجوانب.

إنّ وقوع هذه الآية بعد الآيات المتعلّقة بيوسف تشير إلى أنّ طريقة ومنهج النّبي لا يختلفان عن طريقة ومنهج يوسف النّبي، فهو كان يدعو إلى «الله الواحد القهّار» حتى في زوايا السجن، أمّا غيره فكان يدعو إلى أسماء انتقلت إليه بسبب التقليد من جاهل إلى جاهل آخر، أمّا سيرة الأنبياء والرسل كلّها واحدة.

وبما أنّ الأقوام الضالّة والجاهلة كانت دائماً تثير هذا الاعتراض على الأنبياء وهو أنّكم بَشر؟! ولماذا لا تُكلّف الملائكة لهذا الأمر؟ وبما أنّ الناس في الجاهلية كانوا يثيرون نفس الاعتراض بالنسبة إلى الرّسول ﷺ ودعوته العامّة، فإنّ القرآن الكريم يجيب مرّة ثانية على هذا الاعتراض فيقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾.

هؤلاء الرّسل هم كباقي الناس يعيشون في المدن والقرى، ويتجوّلون بين الناس ويشعرون بآلامهم واحتياجاتهم ومشاكلهم.

فالوصف هنا بـ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ بالإضافة إلى ما تشمله القرية في اللغة من معنى المدينة أو الريف في مقابل «البدو» التي تطلق على أهل الصحراء، فإنّها قد تشير إلى أنّ أنبياء الله لم ينهضوا من بين سكنة الصحراء - كما صرّح بذلك بعض المفسّرين - لأنّ سكّان البادية يتّصفون بالجهل وعدم المعرفة وقلوبهم قاسية ويمتازون بقلّة معلوماتهم عن الحياة ومتطلّباتها.

صحيح أنّ أكثر سكّان أرض الحجاز كانوا من البدو، ولكن الرّسول من أهل مكّة التي تعتبر مدينة كبيرة نسبيّاً، وصحيح أيضاً أنّ مدينة كنعان لو قِيست بأرض مصر التي

كان يوسف يحكم فيها لكانت صغيرة وغير مهمّة ولذلك كان يعبّر عنها بالبدو، ولكن نحن نعلم أنّ يعقوب وأبناءه لم يكونوا من أهل البادية أبداً، فهم كانوا يعيشون في هذه المدينة الصغيرة كنعان.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم: إذا ما أراد هؤلاء أن يعلموا عاقبة مخالفتهم لدعوتك التي هي الدعوة إلى الله فإنّ عليهم أن يسيروا ليروا آثار السابقين: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

إنّ السير والتجوال في الأرض لمشاهدة آثار الماضين وخراب دورهم ومدنهم بسبب العذاب الإلهي، أفضل درس لهم، درس حي وملموس للجميع، ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

لماذا؟ لأنّ الدنيا دار مليئة بالمصائب والآلام وغير باقية، أمّا الآخرة فدار خالدة وخالية من الآلام والعذاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾(١).

تشير هذه الآية إلى أدقّ وأصعب لحظة في حياة الأنبياء فتقول: إنّ الأنبياء يواجهون دائماً مقاومة عنيفة من قبل أقوامهم وطواغيت زمانهم حتى يصل الحال بالأنبياء إلى اليأس إلى حدّ يظنّون أنّ أتباعهم المؤمنين القليلين قد كذبوا عليهم وتركوهم وحدهم في مسيرتهم في الدعوة إلى الحقّ، وفي هذه الأثناء حيث إنقطع أملهم في كلّ شيء أتاهم نصرنا، وفي نهايتها تشير إلى عاقبة المجرمين ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

فهذه سنّة الله في الذين أصرّوا على أعمالهم وأغلقوا باب الهداية على أنفسهم، فهم وبعد إتمام الحجّة عليهم ينالهم العذاب الإلهي فلا تستطيع أي قوّة أن تردّه.

في تفسير هذه الجملة من الآية: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ ومن المقصود بها، هناك عدّة آراء للمفسرين:

١ - إنّ كثيراً من علماء التّفسير يرون ما قلناه سابقاً، وخلاصته: إنّ عمل الأنبياء يصل إلى درجة يعتقدون فيها أنّ كلّ الناس سوف يكذبوهم، حتى تلك المجموعة التي تظهر إيمانها ولكنّها غير راسخة في عقيدتها.

(١) ذكر ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بشكل غائب لجملة محذوفة وتقديرها: (إن الرسل أقاموا على دعوتهم والكافرين بهم على مخالفتهم حتى إذا استيأس الرسل...).

٢ - ويحتمل في تفسير الآية أنّ فاعل «ظنّوا» هم المؤمنون، وأنّ المشاكل والاضطرابات تصل إلى حدّ بأن يسوء ظنّهم بما وعدهم الأنبياء من النصر ويخيل إليهم أنّه خلاف الواقع، وليس بعيداً سوء الظنّ هذا من الأفراد الذين آمنوا حديثاً.

٣ - وبعض آخر أعطى تفسيراً ثالثاً للآية، وخلاصته: إنّ الأنبياء - بدون شكّ - كانوا بشراً، فحين يُزلزلون زلزالاً شديداً وتبدو جميع الأبواب أمامهم موصدة ظاهراً، ولا يُرى في الأفق فرج، والحوادث المتتالية تعصف بهم، وصرخات المؤمنين الذين نفد صبرهم تصل إلى أسماعهم، نعم في هذه الحالة وبمقتضى الطبع البشري قد يتبادر إلى أذهانهم أنّ الوعد بالنصر بعيد عن الصحّة! أو أنّ النصر الموعود له شروطه التي لم تتحقّق بعد، ولكن سرعان ما يتغلّبون على هذه الأفكار ويبعدونها عن أذهانهم ويشع في قلوبهم بصيص الأمل، ومن ثمّ تتّضح لهم بشائر النصر.

وشاهدهم على هذا التّفسير الآية (٢١٤) من سورة البقرة: ﴿... حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ...﴾.

ولكن مجموعة أُخرى من المفسّرين أمثال العلاّمة «الطبرسي» في مجمع البيان و«الرازي» في تفسيره الكبير، بعد ما ذكروا هذا الاحتمال قالوا ببطلانه لأنّه حتى هذا المقدار من التوهّم ليس من مقام الأنبياء، وعلى أيّة حال فالأصحّ هو التّفسير الأوّل.

وآخر آية من هذه السورة ذات محتوىً شامل وجامع لكلّ الأبحاث التي ذكرناها في هذه السورة، وهي: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فهي مرآة يستطيعون من خلالها أن يروا عوامل النصر والهزيمة، الهناء والحرمان، السعادة والشقاء، العزّ والذلّة، والخلاصة كلّ ما له قيمة في حياة الإنسان وما ليس له قيمة. وهي مرآة لكلّ تجارب المجتمعات السابقة والرجال العظام، ومرآة نشاهد فيها ذلك العمر القصير للإنسان كيف يطول بمقدار عمر كلّ البشر. ولكن أُولي الألباب وذوي البصائر فقط باستطاعتهم أن يشاهدوا العبر في صفحة المرآة العجيبة هذه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

فهذه الآيات التي أنزلناها عليك والتي أزاحت الستار عن التاريخ الصحيح للأُمم السابقة ليست من العلم البشري الذي يمكن معرفته عن العلماء، بل إنّ الكتب السّماوية السابقة تشهد على ذلك وتصدّقه وتؤيّده وبالإضافة إلى ذلك ففي هذه الآيات كلّ ما يحتاجه الإنسان في تأمين سعادته وتكامله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

ولهذا السبب فهي ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالظاهر من الآية أعلاه أنّها تُريد أن تشير إلى هذه النقطة المهمّة وهي: إنّ القصص المصنوعة ذات الإثارة كثيرة في أوساط الأُمم وهي من الأساطير الخيالية، ولكن لا يتوهّم أحد بأنّ سيرة يوسف أو سير بقيّة الأنبياء التي ذكرها القرآن الكريم من ذلك القبيل.

المهمّ أنّ هذه القصص المثيرة وذات العِبَر هي عين الواقع ولا تحتوي على أدنى انحراف عن الواقع الموضوعي، ولهذا السبب يكون تأثيرها كبيراً جدّاً، لأنّنا نعلم أنّ الأساطير مهما تكن شيّقة ومثيرة فإنّ تأثيرها قليل إذا ما قُورنت مع سيرة واقعيّة لأنّ:

١ - عندما يصل القارىء أو المستمع للقصّة إلى أقصى لحظات الإثارة يتبادر إلى ذهنه فجأة أنّ هذا وهم وخيال ليس أكثر!

٢ - إنّ هذه القصص في الواقع هي من هندسة الإنسان، فهو يحاول أن يُجسّم أفكاره في سلوك بطل القصّة، ولذلك فهي ليست أكثر من فكر الإنسان، وهذه القصّة بالمقارنة مع السير الواقعيّة بينهما فرق شاسع ولا تستطيع القصّة البشرية أن تكون أكثر من موعظة لصاحب المقالة، ولكن التاريخ الواقعي للبشر ليس كذلك، فهو أكثر ثمراً ونفعاً وأكثر بركة.

«نهاية سورة يوسف»

اللهمّ! امنحنا البصر في أعيننا والسمع في آذاننا والعلم في قلوبنا، حتى نستطيع أن نحصل من سيرة السابقين على طرقٍ للنجاة من المشاكل التي نغوص الآن فيها.

ربّنا! ألهمنا بصراً حادّاً حتى نرى عاقبة الذين اختلفوا وتشتّتوا فيما بينهم فكان عاقبتهم الهزيمة والخسران، وحتى لا نسير في نفس الطريق الذي سلكوه.

اللهمّ! ارزقنا تلك النيّة الخالصة لكي نتغلّب بها على نفوسنا، وتلك المعرفة حتى لا يصيبنا الغرور بالنصر، وتلك السّماحة ونكران الذات بحيث إذا رأينا من هو أفضل منّا على إنجاز المسؤولية تركناها وتنازلنا عنها إليه.

فإن منحتنا هذا فسوف نستطيع أن نتغلّب على جميع المشاكل، وأن نحفظ نور الإسلام والقرآن في هذه الدنيا.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الثاني عشر

منشورات
مؤسسة الأعلى للمطبوعات
بيروت - لبنان

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكية وعدد آياتـها مائة وثلاث وأربعون

محتوى السورة

كما قلنا سابقاً، بما أنّ السور المكيّة كان نزولها في بداية دعوة النّبي ﷺ وأثناء محاربته للمشركين، فإنّها غالباً ما كانت تتحدّث عن المسائل العقائدية وخصوصاً الدعوة إلى التوحيد والمعاد ومحاربة الشرك، في الوقت الذي نرى فيه أنّ السور المدنية نزلت بعد انتشار الإسلام وقيام الحكومة الإسلامية، فقد تناولت الأحكام والمسائل المتعلّقة بالنظام الاجتماعي واحتياجات المجتمع.

فهذه السورة (سورة الرعد) التي هي من السور المكّية لها نفس الخصائص السابقة، فبعد ما تشير إلى أحقّية القرآن وعظمته، تتطرّق إلى آيات التوحيد وأسرار الكون التي هي من دلائل ذات الله المقدّسة، فتارةً تتحدّث عن رفع السّماوات بغير عمد، وأُخرى عن تسخير الشمس والقمر، ومرّةً عن مدّ الأرض وخلق الجبال والأشجار والثمار، ومرّة عن ستار الليل المظلم الذي يغشي النهار.

ومرّة أُخرى تأخذ بأيدي الناس وتنقلهم إلى جنّات النخيل والأعناب والزروع، وتُحصي لهم عجائبها.

ثمّ تتطرّق إلى المعاد وبعث الإنسان من جديد ومحكمة العدل الإلهي، وهذه المجموعة من أُصول المبدأ والمعاد تبيّن مسؤولية ووظائف الناس في حركة الحياة وأنّ أي تحوّل في قضاياهم المصيريّة يجب أن يبدأ من داخل أنفسهم.

ثمّ تعود مرّةً أُخرى إلى فكرة التوحيد، وتسبيح الرعد وخوف الناس من البرق والصاعقة، وسجود السّماوات والأرضين في مقابل عظمة الربّ، ولأجل أن تتعقّل القلوب والأسماع وتوقظ الأفكار، ولإيضاح أنّ الأوثان ليس لها أي ميزة أو فائدة، تدعوهم إلى التفكّر والتعلّم، وتضرب لهم الأمثال لمعرفة الحقّ من الباطل، الأمثال الحيّة والقابلة للإدراك.

ومن هنا فالحصيلة النهائية للإيمان بالتوحيد والمعاد هي تلك التطبيقات العملية والحيّة لها، فالقرآن في هذه السورة يدعو الناس إلى الوفاء بالعهد وصلة الأرحام

والصبر والاستقامة والإنفاق في السرّ والعلانية والنهي عن الانتقام، ويوضّح لهم أنّ الدنيا فانية، والطمأنينة والراحة لا تحصلان إلاّ في ظلّ الإيمان بالله.

وفي النهاية يأخذ بأيدي الناس ويغور بهم في أعماق التاريخ، ويريهم العواقب السيّئة للذين طغوا وعصوا وأبعدوا الناس عن الحقّ، ويختم السورة بتهديد الكفّار بعبارات وجمل لاذعة. إذن فالسورة تبتدىء بالعقائد والإيمان وتنتهي بالبرامج التربوية للإنسان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى
ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

التّفسير

آيات الله في السّماء والأرض وعالم النّبات

مرّةً أُخرى نواجه الحروف المقطّعة في بداية هذه السورة، والتي وردت في (٢٩) سورة أُخرى، ولكن الحروف المقطّعة المذكورة هنا تتكوّن من (الم) التي وردت في بداية عدّة سور، و﴿الٓر﴾ والتي وردت في بداية سور أُخرى، وفي الواقع إنّ هذه السورة تنفرد عن غيرها من السور بـ (المر).

ومن المعتقد في تفسير الحروف المقطّعة أنّ لها ارتباطاً مباشراً بمعاني نفس السورة، فمن المحتمل أنّ هذا التركيب في بداية سورة الرعد يشير إلى جمعها لمحتوى مجموعتين من السور التي تبتدىء بـ (الم) و(الر).

وإذا ما أمعنا النظر في محتوى هذه السور نجدها مطابقة لما قلناه، وبخصوص تفسير الحروف المقطّعة كانت لنا شروح مفصّلة عنها في بداية سورة البقرة وآل عمران والأعراف فلا ضرورة في التكرار.

وعلى أيّة حال فالآية الأُولى من هذه السورة تتحدّث عن عظمة القرآن ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾(١).

ولا يوجد أي شك أو ترديد في هذه الآيات، لأنّها تبيّن عين الحقيقة للكون ونظامه المرتبط بالإنسان، فهو حقّ لا يشوبه باطل، ولهذا السبب فإنّ علائم الحقّ واضحة فيه لا تحتاج إلى براهين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لأنّ الناس إذا ما تُركوا وشأنهم ولم يتّبعوا معلماً صادقاً يهديهم ويربيهم في حياتهم وكانوا أحراراً في اتباع أهوائهم فإنّهم سوف يتيهون في الطريق ويضلّون عن الحقّ.

وأمّا إذا كان الرسل وهداة الحقّ هـمُ الأئمّة والقادة حيث يضع الفرد نفسه في تصرّفهم، فإنّ الأكثرية تسير في طريق الحقّ.

ثمّ تتطرّق السورة إلى شرح القسم المهمّ من أدلّة التوحيد وآيات الله في الكون، وتتجوّل بالإنسان في عرض السّماوات وتريه الكواكب العظيمة وأسرار هذا النظام وحركته، حتى يؤمن بالقدرة المطلقة والحكمة اللامتناهية ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(٢).

الجملة ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ لها تفسيران:

١ - فكما ترون أنّ السّماء مرفوعة بدون عمد (أي إنّها في الأصل بلا عمد كما ترونها فعلاً).

٢ - والثانية إن ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة للعمد فيكون المعنى: إنّ السّماء مرفوعة بعمد ولكن لا ترونها لأنّها غير مرئية!

وهذا هو الذي يراه الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، ففي حديث رواه الحسين بن خالد قال: سألت الإمام أبا الحسن الرضا عليه السلام: ما المقصود في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ

(١) استخدام تلك للبعيد - وكما قلنا سابقاً - كناية عن عظمة القرآن وإعجازه.

(٢) ﴿عَمَدٍ﴾ على وزن (صَمد) «وعُمد» على وزن (زُحل) والاثنان جمع عمود، فالأوّل جمع، والثّاني اسم الجمع (مجمع البيان ذيل الآية).

ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[(١)]؟ قال: هذه السّماء لها طرق إلى الأرض، فقلت له: كيف تكون لها طرق إلى الأرض في الوقت الذي يقول سبحانه وتعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾؟ فأجابه الإمام: «سبحان الله، أليس الله يقول بغير عمد ترونها؟ قلت: بلى، فقال: ثمّ عمد ولكن لا ترونها»[(٢)].

إنّ هذه الآية بالرغم من وجود هذا الحديث الذي يفسّرها، فإنّها تكشف عن حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لأنّه في ذاك الوقت كانت نظرية «بطليموس» في الهيئة تتحكّم بكلّ قواها في المحافل العلمية في العالم وعلى أفكار الناس، وطبقاً لهذه النظرية فإنّ السّماوات عبارة عن أجرام متداخلة تشبه قشور البصل، وإنّها لم تكن معلّقة وبدون عمد، بل كلّ واحدة منها تستند إلى الأُخرى.

ولكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريباً توصل علم الإنسان إلى أنّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة أنّ الأجرام السّماوية لها مقرّ ومدار ثابت، ولا تستند إلى شيء، فالشيء الوحيد الذي يجعلها مستقرّة وثابتة في مكانها هو تعادل قوّة التجاذب والتنافر، فالأُولى تربط الأجرام فيما بينها، والأُخرى لها علاقة بحركتها.

هذا التعادل للقوّتين الذي يشكّل أعمدة غير مرئيّة يحفظ الأجرام السّماوية ويجعلها مستقرّة في مكانها.

وفي الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بخصوص هذا الموضوع قال: «هذه النّجوم التي في السّماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور»[(٣)].

وهل نجد أوضح من هذا الوصف «عمود غير مرئي» أو «عمود من نور» في أدب ذلك العصر لبيان أمواج الجاذبية وتعادل قوّتي الجذب والدفع. وللاطلاع أكثر راجع كتاب [القرآن وآخر الرسل] صفحة ١٦٦ وما بعدها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في خصوص معنى العرش والاستواء عليه هناك شرح واف عنه في ذيل الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

وبعد أن بيّن خلق السّماوات وهيمنة الخالق عليها، تحدّث عن تسخير الشمس والقمر ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٧.

(٢) الحديث في تفسير البرهان، عن علي بن إبراهيم عن العياشي (البرهان، ج ٢، ص ٢٧٨).

(٣) سفينة البحار، ج ٢، ص ٥٧٤ نقلاً من تفسير علي بن إبراهيم القمّي.

ما أعظم هذا التسخير الذي يقع تحت إرادة ومشيئة الخالق، وفي خدمة الوجود الإنساني والكائنات الحيّة حيث يشعّ نورهما وتضيئان العالم، وتحافظان على دفء الكائنات وتساعدانها على النمو، وتخلقان ظاهرة الجزر والمدّ في البحار، وخلاصة القول إنّهما منشأ لجميع البركات، ولكن هذا النظام المادّي ليس أبديّاً، بل ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

ثمّ يضيف بعد ذلك: إنّ هذه الحركات والتغيّرات في الأحوال ليست بدون حساب وكتاب، وبدون فائدة ونتيجة، بل ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

وتعقيباً للآيات السابقة التي نقلت الإنسان إلى السّماء لتريه الآيات الإلهيّة هناك، تنقله الآية الثانية من آيات التوحيد إلى كتاب الكون أي الأرض والجبال والأنهار وأنواع الثمار وشروق الشمس وغروبها، حتى يتفكّر في محلّ استقراره في البداية ماذا كان؟ وكيف أصبح الآن بهذه الصورة؟

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ وبسطها بالشكل الذي تتهيّأ فيه لحياة الإنسان ونمو النباتات والحيوانات، وملأ الأودية والمنحدرات الصعبة بالتراب من خلال تفتّت الصخور الجبليّة، وجعل الأرض مسطّحة وقابلة للسكن، بعد أن كانت التضاريس مانعة من سكن الإنسان عليها.

وقد يحتمل في تفسير هذه الجملة ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ الإشارة إلى ما يقوله علماء الطبيعة من أنّ الأرض كانت مغطاة بالماء، ثمّ استقرّت المياه في الوديان فظهرت اليابسة، وبمرور الوقت اتّسعت حتى أصبحت على ما نراه اليوم.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى ظهور الجبال ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ فهي تلك الجبال التي عبّرت عنها في آيات أُخرى بـ (الأوتاد) ولعلّ ذلك إشارة إلى أنّها متشابكة فيما بينها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقي وتغطّي سطح الأرض، فهي تبطل الضغوط الداخلية في الأسفل والضغط الخارجي المتمثّل بجاذبية القمر والمدّ والجزر، وكذلك تقضي على الاضطرابات والزلازل، وتجعل الأرض مستقرّة وساكنة وصالحة لحياة الإنسان.

إنّ ذكر القرآن الكريم الجبال بعد مدّ الأرض يُحتمل أن يكون المراد منه أنّ الأرض ليست منبسطة بشكل تامّ بحيث تنعدم فيها المرتفعات، ففي هذه الصورة لا تستقرّ فيها الأمطار والمياه، أو تتحوّل إلى مستنقعات وتجري فيها السيول وتتعرّض للطوفانات الدائمة، فخلق الجبال لتأمن البشرية من هذين الأمرين.

وليست الأرض كلّها جبالاً ووِدياناً فتكون غير قابلة للسكن، بل تحتوي على مناطق منبسطة ومناطق جبلية ووديان، وهذه أفضل صيغة لحياة الإنسان والكائنات الحيّة، ثمّ تضيف الآية بعد ذلك الأنهار ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.

رائع جدّاً نظام سقي الأرض بواسطة الجبال، وعلاقة الأنهار بالجبال، لأنّ كثيراً من الجبال تختزن المياه بشكل ثلوج على قممها وفي شقوق الوديان، ثمّ تذوب تدريجيّاً، وطبقاً لقانون الجاذبية تأخذ طريقها من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة بدون أن تحتاج إلى قوّة أُخرى لمساعدتها، فهي تقوم بسقي كثير من المناطق وبشكل طبيعي على مدار السنة.

فلو لم يكن للأرض انحدار كاف ولم تختزن الجبال المياه بهذا الشكل، لكان سقي كثير من المناطق اليابسة صعباً، وفي حالة الإمكان كُنّا نحتاج إلى صرف مبالغ هائلة لإيصال الماء إليها.

ثمّ يذكر القرآن بعد ذلك النباتات والأشجار التي تتكوّن من الأرض والمياه وأشعّة الشمس، والتي هي أفضل وسيلة لإمرار الإنسان بالغذاء: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

والآية تشير هنا إلى أنّ الفاكهة كائنات حيّة فيها الذكر والأُنثى، وبواسطة التلقيح تتكوّن الثمار.

فإذا كان العالم السويدي «لينه» المختص بعلم النبات هو الذي توصّل إلى هذه الحقيقة في حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وهي أنّ التزويج في عالم النباتات يعتبر قانوناً عامّاً تقريباً كالحيوانات ولها نُطَف ذكرية وأُنثوية وأنّ الثمرة تتكوّن من التلقيح، فالقرآن الكريم قبل ألف ومائة عام من ذلك كشف لنا عن هذه الحقيقة، وهذه واحدة من معاجز القرآن العلمية التي تبيّن عظمة هذا الكتاب السّماوي الكبير.

وليس من شكّ أنّ ما قبل «لينه» كان كثير من العلماء يعتقدون بوجود الذكور والإناث في بعض الأشجار، حتى الناس العاديين كانوا يعلمون بذلك، ولكن لم يكن يعلم أي واحد أنّ هذا القانون عام، حتى كشفه «لينه» ومن قبله القرآن الكريم.

وبما أنّ حياة الإنسان وكلّ الكائنات - وخصوصاً النباتات - لا يمكن لها الاستمرار إلاّ بوجود نظام دقيق للّيل والنهار، فإنّ القرآن يشير إلى ذلك في القسم الآخر من الآية ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

ولولا ظلمة الليل وهدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر كلّ النباتات، ولم تبق فاكهة ولا أي كائن حي على وجه الأرض، فسطح القمر ليس له نهار دائم ومع هذا نجد أنّ حتى هذا المقدار من نهاره الذي يعادل خمسة عشر يوماً من أيّام الأرض، نرى أنّ الدرجة فيها مرتفعة جدّاً بحيث لو وضعنا هناك ماءً أو أي سائل آخر فسوف يغلي ويتبخّر، ولا يمكن لأي موجود حيّ في الأرض أن يتحمّل هذه الحرارة.

وتبيّن الآية في النهاية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أُولئك الذين يتفكّرون في هذا النظام الرائع، في نظام النّور والظلام، وحركة الأجرام السّماوية، وتسخير الشمس والقمر وجعلها في خدمة الإنسان، وفي نظام مدّ الأرض وأسرار خلق الجبال والأنهار والنباتات، نعم! فهم يرون بوضوح في هذه الآيات الحكمة المطلقة والقدرة اللامتناهية للخالق العلاّم.

وفي الآية الأخيرة من هذه المجموعة يشير القرآن الكريم إلى عدّة نقاط حول علم الأرض وعلم النبات، والتي تعبّر عن النظام الدقيق للخلقة، يقول أوّلاً: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾[1] فبالرغم من أنّ هذه القطع متصلة مع بعضها البعض، فإنّ لكلّ واحد منها بناءه وتركيبه الخاص به، فبعضها قوي والآخر ضعيف، وبعضها مالح والآخر حلو، وكلّ قطعة لها الاستعداد في تربية نوع خاص من النباتات وأشجار الفاكهة والزراعة، لأنّ احتياجات الإنسان والحيوان كثيرة ومتفاوتة، وقد تكون لكلّ قطعة من الأرض المسؤولية في تلبية إحدى هذه الحاجات، وأمّا إذا كانت في مستوىً واحد، أو لم تكن استعداداتها مقسّمة بالشكل المطلوب، لكان الإنسان يمرّ بأزمة ونقص في مواده الغذائية والطبية وسائر الاحتياجات الأُخرى، ولكن هذا التقسيم المناسب للمسؤولية وتوزيعها على القطعات المختلفة للأرض سوف يسدّ الاحتياجات اللازمة للإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ[2] وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾[3].

---

(١) «متجاور» بمعنى الجار وما يكون قريباً، فقوله: ﴿قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ يقصد منه أنّ هذه القطع مختلفة وليست متساوية، وإلاّ لم يكن للجملة معنى.

(٢) ﴿أَعْنَابٍ﴾ جمع عنب و«النخيل» جمع نخلة، ويحتمل أنّهما ذكرتا بصيغة الجمع للدلالة على الأنواع المختلفة للعنب والتمر والتي قد تصل إلى مئات الأنواع في العالم.

(٣) وقد ذكروا معنىً آخر لصنو، وهو الشبيه، ولكن يحتمل أنّ هذا المعنى مأخوذ من نفس المعنى الذي ذكرناه آنفاً.

﴿صِنْوَانٌ﴾ جمع «صنو» بمعنى الغصن الخارج من أصل الشجرة، وعليه فالكلمة تعني الأغصان المختلفة الخارجة من أصل الشجرة.

والملفت للنظر أنّه يمكن أن يكون لكلّ واحد من هذه الأغصان نوع خاصّ من الثمر، وهذه قد تشير إلى قابلية الأشجار للتركيب. ففي بعض الأحيان يتمّ تركيب عدّة أغصان مختلفة على ساق واحدة، وبعد نمو هذه التراكيب تعطي كلّ واحدة منها نوعاً خاصاً من الثمر، فالتربة واحدة والساق والجذر واحد ولكن الثمر مختلف.

والأعجب من ذلك أنّها تسقى بماء واحد ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾.

وقد نرى كثيراً أنّه في الشجرة الواحدة أو في غصن واحد توجد ثمار من نفس الصنف ولكن لها أطعمة وألوان مختلفة، وفي العالم نشاهد أوراداً كثيرة، وقد يحمل الغصن الواحد أوراداً مختلفة الألوان.

أي مختبر للأسرار هذا الذي يعمل في أغصان الأشجار، والذي ينتج من مواد قليلة متحدة، تركيبات مختلفة تؤمّن احتياجات الإنسان.

أليست هذه الأسرار تدلّ على وجود من يقود هذا النظام بالعلم والحكمة؟! وهنا في آخر الآية يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

هناك عدّة نقاط:

١ - ما هو وجه العلاقة بين التوحيد والمعاد؟

كان الحديث في بداية الآية عن التوحيد وأسرار الكون، ولكن نقرأ في نهايتها ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فما هو وجه العلاقة بين التوحيد والمعاد حتى تكون الواحدة نتيجة للأخرى؟

للإجابة على هذا السؤال لابدّ من ملاحظة ما يلي:

أ - إنّ قدرة الله على إيجاد الكون دليل على قدرته في إعادته كما نقرأ في الآية (٢٩) من سورة الأعراف ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أو نقرأ في أواخر سورة «يس» قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

ب - وكما قلنا في بحثنا عن المعاد، فإنّه لا فائدة من خلق العالم إذا لم تكن الآخرة حقيقة، لأنّه لا يمكن أن تكون هذه الحياة هي الهدف من خلق هذا العالم الواسع،

يقول القرآن الكريم ضمن آياته المتعلّقة بالمعاد من سورة الواقعة الآية (٦٢): ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١].

٢ - الإعجاز العلمي للقرآن

هناك آيات كثيرة في القرآن المجيد أزاحت الستار عن مجموعة من الأسرار العلمية التي كانت خافية على العلماء في ذلك الوقت، وهذه واحدة من دلائل إعجاز وعظمة القرآن، وغالباً ما كان يشير إليها كثير من المحققين في مسألة الإعجاز.

فمن جملة هذه الآيات ما ذكرناه آنفاً وهي الآية التي تذكر الزوجية في النباتات، فكما قلنا سابقاً: إنّ ظاهرة الزوجية في النباتات كانت معروفة للناس منذ القديم ولو بشكلها الجزئي، ولكن لم تكن تعرف بشكل قانون عام حتى أواسط القرن الثامن عشر حين استطاع العالم «لينه» ولأوّل مرّة أن يكشف عن هذه الحقيقة، ولكن القرآن الكريم أخبر بذلك قبل أكثر من ألف عام.

كما أشار القرآن إلى هذا الموضوع في سورة لقمان الآية (١٠) قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

كما أشارت إليها آيات أُخرى.

٣ - تسخير الشمس والقمر

قرأنا في الآيات السابقة أنّ الله سخّر الشمس والقمر، كما نقرأ في آيات كثيرة أُخرى عن تسخير السّماء والأرض والليل والنهار للإنسان.

فنقرأ في آية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾[٢] وفي آية أُخرى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾[٣] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[٤] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[٥] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[٦] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٧] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[٨].

---

(١) للمطالعة أكثر راجع كتاب [المعاد والعالم بعد الموت].
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٢.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٣.
(٦) سورة النحل، الآية: ١٤.
(٧) سورة الحجّ، الآية: ٦٥.
(٨) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

من مجموع هذه الآيات يمكن أن نستفيد ما يلي:

أوّلاً: إنّ الإنسان أكمل من جميع الموجودات في هذا العالم، فمن وجهة إسلامية نرى أنّ الشريعة الإسلامية تعطي للإنسان القيمة الكبيرة بحيث تسخّر له كلّ ما في الكون، فهو خليفة الله، وقلبه مستودع نوره!

ثانياً: ويتّضح أنّ التسخير ليس المقصود منه أنّ جميع هذه الكائنات هي تحت إمرة الإنسان، بل هي بقدر معيّن تدخل ضمن منافعه وخدمته، وعلى سبيل المثال فإنّ تسخير الكواكب السّماوية من أجل أن يستفيد الإنسان من نورها أو لفوائد أُخرى.

فلا يوجد أي مبدأ يقيّم الإنسان بهذا الشكل، ولا يوجد في أيّة فلسفة هذا المقام لشخصيته، فهذه من خصائص المدرسة الإسلامية التي ترفع من قيمة الإنسان بهذا الشكل الكبير، فالمعرفة بها لها أثر عميق على تربيته، لأنّه حينما يفكر الإنسان بتعظيم الله له، وتسخير السحاب والهواء والشمس والقمر والنّجوم وجعلها في خدمته، فمثل هذا الإنسان لا تعتريه الغفلة ولا يكون عبداً للشهوات وأسيراً للمال والمقام، بل يحطّم القيود ويتطلّع إلى آفاق السّماء.

كيف يمكن القول: إنّ الشمس والقمر غير مسخّرين للإنسان في الوقت الذي نرى أنّ في أشعّتها نور يضيء حياة الإنسان ويحافظ على دفئه، ولولا أشعّة الشمس لما وجدت أي حركة أو نشاط على الكرة الأرضية، ومن جهة أُخرى فإنّ جاذبيتها تنظم حركة الأرض حول مدارها، وتوجد ظاهرة المدّ والجزر في البحار بمساعدة القمر وهي بالتالي منبع لكثير من الفوائد والبركات.

فالبحار والأنهار، والليل والنهار، والفلك؛ كلّ واحدة هي في خدمة الإنسان ومصالحه. والدقّة في هذا التسخير والنظام دليل واضح على عظمة وقدرة وحكمة الخالق المتعال.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

تعجّب الكفّار من المعاد

بعد ما انتهينا من البحث السابق عن عظمة الله ودلائله، تتطرّق الآية الأُولى من هذه المجموعة إلى مسألة المعاد التي لها علاقة خاصّة بمسألة المبدأ، ويؤكّد القرآن الكريم هذا المعنى حيث يقول: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(١) أي إذا أردت أن تتعجّب من قولهم هذا فتعجب لقولهم في المعاد.

هذا التعجّب من المعاد كان موجوداً عند جميع الأقوام الجاهلة، فهم يظنّون أنّ الحياة بعد الموت أمرٌ محال، ولكنّنا نرى أنّ الآيات السابقة وآيات أُخرى من القرآن الكريم تجيب على هذا التساؤل، فما هو الفرق بين بدء الخلق والبعث من جديد؟ فالقادر الذي خلقهم أوّل مرّة باستطاعته أن يبعث الروح فيهم مرّة ثانية، وهل نسي هؤلاء بداية خلقهم حتى يجادلوا في بعثهم!؟

ثمّ يبيّن حالهم الحاضر ومصيرهم في ثلاث جمل:

يقول أوّلاً: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ لأنّهم لو كانوا يعتقدون بربوبيّة الله لما كانوا يتردّدون في قدرة الله على بعث الإنسان من جديد، وعلى هذا فسوء ظنّهم بالمعاد هو نتيجة لسوء ظنّهم بالتوحيد وربوبية الله.

والأمر الآخر انّه بكفرهم وعدم إيمانهم وخروجهم من ساحة التوحيد قيّدوا أنفسهم بالأغلال، أغلال عبادة الأصنام والأهواء والمادة والجهل والخرافة، وجعلوها في أعناقهم ﴿وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾.

ومثل هؤلاء الأشخاص ليس لهم عاقبة سوى دخول النّار ﴿وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وفي الآية الثانية يشير إلى دعوى أُخرى للمشركين حيث يقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بدلاً من طلب الرحمة ببركة وجودك بينهم.

---

(١) ويحتمل في تفسير جملة ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أنّ المقصود منه إن تعجب من عبادتهم للأصنام فالأعجب أن ينكروا المعاد، ولكن هذا الاحتمال غير وارد، والصحيح ما هو ظاهر الآية المذكور في المتن.

لماذا يصرّ هؤلاء القوم على الجهل والعناد؟ لماذا لم يقولوا: لو كنت صادقاً لأنزلت علينا رحمة الله، أو لرفعت العذاب عنّا!؟

وهل يعتقدون بكذب العقوبات الإلهيّة؟ ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾[1].

ثمّ تضيف الآية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. إنّ العذاب الشديد غير مخالف لرحمته الواسعة، كما لا يتوهّم أحدٌ أنّ رحمته العامّة هي إعطاء الفرصة للظالمين أن يفعلوا ما يريدون، لأنّه في هذه الموارد يكون شديد العقاب، والحصول على نتائج هاتين الصفتين للربّ يعني ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ و﴿لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مرهونٌ بسلوك الإنسان نفسه.

ملاحظتان:

١ - لماذا التعجّب من الخلق الجديد؟

يستفاد من خلال آيات متعدّدة في القرآن الكريم أنّ من جملة مشاكل الأنبياء مع المشركين إثبات «المعاد الجسماني» لأنّهم كانوا يتعجّبون دائماً من هذا الموضوع وهو: كيف يبعث الإنسان من جديد بعد أن صار تُراباً؟ كما أشارت إليه الآية السابقة ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهناك سبع آيات أُخرى تشير إلى هذا الموضوع (الآيتان ٣٥ و٨٢ من سورة المؤمنون - ٢٧ النمل - ١٦ و٥٣ الصافات - ٣ق - ٤٧ الواقعة).

ومن هنا يتّضح أنّ هذا التساؤل كان مهمّاً بالنسبة إليهم حيث كانوا يكرّرونه في كلّ فرصة، ولكن القرآن الكريم يجيبهم بعبارات قصيرة وقاطعة، فمثلاً الآية (٢٩) من سورة الأعراف: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ تتكوّن من كلمات قليلة ولكنّها مفحمة لهم، وفي مكان آخر يقول تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2] لأنّكم في الخلق الأوّل لم تكونوا شيئاً أمّا الآن فتوجد على الأقل عظام نخرة مع التراب المتبقّي منكم.

وفي بعض الأحيان يأخذ بأيدي الناس ويدعوهم إلى التفكّر والإمعان في عظمة وقدرة الخالق ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[3].

٢ - هل إنّ الله يعفو عن الظالمين؟

قرأنا في الآيات المتقدّمة أنّ الله يعفو ويغفر للذين ظلموا، وهذا الغفران غير لازم

---

(١) ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ جمع «مثلة» بفتح الميم وضمّ الثاء ومعناها العقوبات النازلة على الأُمم الماضية.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧. (٣) سور يس، الآية: ٨١.

لمن يصرّ على ظلمه، ولكنّه من باب إعطاء الفرصة لهم لأن يصلحوا أنفسهم، وإلاّ فهو تعالى شديد العقاب.

ويمكن أن نستفيد من هذه الآية أنّ الذنوب الكبيرة - ومن جملتها الظلم - قابلة للغفران (ولكن بتحقّق شروطها)، وهو ردّ على قول المعتزلة بأنّ الذنوب الكبيرة لا يغفرها الله أبداً.

وعلى أيّة حال فـ «المغفرة الواسعة» و«العقاب الشديد» في الواقع تجعل كل المعترفين بوجود الله بين «الخوف» و«الرجاء» الذي يعتبر من العوامل المهمّة لتربية الإنسان، فلا ييأس من رحمة الله لكثرة الذنوب، ولا يأمن من العذاب لقلّتها.

ولهذا جاء في الحديث عن الرّسول الأعظم ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنىء أحد العيش، ولولا وعيد الله وعقابه لاتّكل كلّ واحد»(١).

ومن هنا يتّضح أنّ الذين يقولون - أثناء ارتكابهم المعاصي - إنّ الله كريم، يكذبون في اتّكالهم على كرم الله، فهم في الواقع يستهزئون بعقاب الله.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

التفسير

ذريعة أخرى!

بعد ما أشرنا في الآيات السابقة إلى مسألة «التوحيد» و«المعاد»، تتطرّق هذه الآية إلى واحدة من اعتراضات المشركين المعاندين حول مسألة النبوّة: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾.

ومن الواضح أنّ إحدى وظائف النّبي ﷺ إظهار معاجزه لكي يدلّ على صدقه وصلته بالوحي الإلهي، والذي يبحث عن الحقيقة له الحقّ في المطالبة بالمعجزة أثناء شكّه وتردّده في تصديق الدعوة، أو تتّضح له دلائل النبوّة عن طريق آخر.

ولكن يجب أن نلتفت إلى هذه النقطة وهي: إنّ أعداء الأنبياء لم يكن لديهم حُسن نيّة أو اتّباع للحقّ عند طلبهم المعجزة، بل لعنادهم وعدم تسليمهم للأمر الواقع ولذلك

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥ و٦، ص ٢٧٨ - ذيل الآية مورد البحث، تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٥١٤.

كانوا يقترحون بين فترة وأُخرى معاجز عجيبة وغريبة. وهذه ما يسمّى بـ «المعجزات الأخلاقية».

اقتراحهم للمعاجز لم يكن لكشف الحقيقة، ولهذا لم يستجب الأنبياء لمطاليبهم، وفي الحقيقة كانت هذه الفئة من الكفّار المعاندين يعتقدون أنّ النّبي ﷺ يدّعي القدرة على إنجاز أي عمل خارق للعادة، وأيّ واحد منهم يقترح عليه إنجاز عمل ما سوف يُلبّي مطاليبه.

ولكن الأنبياء كانوا يقولون لهم الحقيقة وهي أنّ المعاجز بيد الله، ورسالتنا هداية الناس.

ولذلك نقرأ في تكملة الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

بحثان

هنا يرد سؤالان:

١ - هل الآية ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ جواب للكفّار؟

كيف يمكن لجملة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أن تكون جواباً للكفّار عند طلبهم المعجزة؟

الجواب: بالإضافة إلى ما قلناه سابقاً فإنّ النّبي ﷺ ليست له القدرة الغيبية المطلقة كي يطلبوا منه الإعجاز، لأنّ الوظيفة الأُولى له هي إنذار أُولئك الذين يسيرون في طريق الضلال، والدعوة إلى الصراط المستقيم، وإذا ما احتاجت هذه الدعوة إلى المعجزة فسوف يأتي بها النّبي، ولكن لا يأتي بها للمعاندين البعيدين عن هذه المسيرة.

فمعنى الآية: إنّ الكفّار نسوا أنّ هدف الأنبياء الإنذار والدعوة إلى الله، واعتقدوا أنّ وظيفتهم القيام بالمعاجز.

٢ - ما هو المقصود من جملة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؟

قال بعض المفسّرين: إنّ هاتين الصفتين ﴿مُنذِرٌ﴾ و﴿هَادٍ﴾ صفتان للرسول، فأصل الجملة تكون ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

ولكن هذا التّفسير خلاف الظاهر، لأنّ الواو في جملة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ تفصل بين جملة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ ولو كانت كلمة ﴿هَادٍ﴾ قبل ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾ كان المعنى السابق صحيحاً. ولكن الأمر ليس كذلك.

والشيء الآخر هو أنّ هدف الآية بيان أنّ هناك قسمين من الدعوة إلى الله: أحدهما أن يكون عمل الداعي هو الإنذار فقط، والآخر: أن يكون العمل هو الهداية.

وسوف تسألون حتماً: ما هو وجه التفاوت بين (الإنذار) و(الهداية)؟ نقول في جواب هذا السؤال: إنّ الإنذار للذين أضلّوا الطريق ودعوتهم تكون إلى الصراط المستقيم، ولكن الهداية والاستقامة للذين آمنوا.

وفي الحقيقة إنّ المنذر مثل العلّة المحدثة، أمّا الهادي فبمنزلة العلّة الباقية وهذه هي التي تعبّر عنها بالرّسول والإمام، فالرّسول يقوم بتأسيس الشريعة والإمام يقوم بحفظها وحراستها، (ليس من شكّ أنّ الهداية في آيات أُخرى مطلقة للرسول، ولكن بقرينة المنذر في هذه الآية نفهم أنّ المقصود من الهادي هو الشخص الحافظ والحامي للشريعة).

هناك روايات عديدة تؤكّد ما قلناه سابقاً، فقد قال الرّسول الأعظم ﷺ: «أنا المنذر وعلي الهادي».

ولا بأس أن نشير إلى عدّة من هذه الرّوايات:

١ - في ذيل هذه الآية من تفسير الفخر الرازي مرفوعاً عن ابن عبّاس قال: وضع رسول الله يده على صدره فقال: «أنا المنذر» ثمّ أومأ إلى منكب علي عليه السلام وقال: (أنت الهادي بك يهتدي المهتدون من بعدي)[1] هذه الرّواية ذكرها العلاّمة «ابن كثير» في تفسيره، والعلاّمة «ابن الصبّاغ المالكي» في الفصول المهمّة، و«الكنجي» الشافعي في كفاية الطالب و«الطبري» في تفسيره، و«أبو حيّان الأندلسي» في تفسيره البحر المحيط، وكذلك «العلاّمة النيسابوري» في تفسيره الكشّاف، وعدد آخر من المفسّرين.

٢ - نقل «الحمويني» وهو من علماء أهل السنّة المعروفين في كتابه فرائد السمطين عن أبي هريرة قال: «إن المراد بالهادي علي عليه السلام».

٣ - «مير غياث الدين» مؤلّف كتاب (حبيب السيّد) كتب يقول في المجلّد الثّاني صفحة ١٢: «قد ثبت بطرق متعدّدة أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ قال لعلي: «أنا المنذر وأنت الهادي بك يا علي يهتدي المهتدون من بعدي».

كما نقل هذا الحديث «الآلوسي» في (روح المعاني) و«الشبلنجي» في (نور الأبصار) والشيخ «سليمان القندوزي» في (ينابيع المودّة).

---

(١) التفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٤.

وبما أنّ أكثر هذه الرّوايات مسندة إلى ابن عبّاس فإنّه لم يكن الشخص الوحيد الذي روى ذلك، فأبو هريرة نقل ذلك فيما ذكره الحمويني، وحتى علي نفسه - طبقاً لما نقله الثعلبي - قد قال: «المنذر النّبي والهادي رجل من بني هاشم» يعني نفسه[١].

لا شكّ أنّ هذه الأحاديث لا تصرّح بالخلافة، ولكن بالنظر إلى ما تحتويه هذه الكلمة (الهداية) من المعنى الواسع، فإنّها غير منحصرة بعلي عليه السلام بل تشمل جميع العلماء وأصحاب الرّسول صلى الله عليه وآله الذين كانوا يقومون بنفس المهمّة، ويتّضح لنا تخصيص علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه الرّوايات بهذا العنوان يدلّ على أنّه المصداق البارز له، وذلك لما يمتاز به من الخصوصيات، وهذا المطلب لا يكون منفصلاً عن خلافة الرّسول صلى الله عليه وآله حتماً.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

عِلم الله المطلق

نقرأ في هذه الآيات قسماً من صفات الخالق، والتي تكمل بحث التوحيد والمعاد، فالحديث عن علمه الواسع ومعرفته بكلّ شيء، هو ذاك العلم الذي يقوم عليه نظام التكوين وعجائب الخلقة وآيات التوحيد، وهو العلم الذي يكون أساساً للمعاد والعدالة الإلهيّة يوم القيامة وهذه الآيات استندت إلى هذين القسمين: (العلم بنظام التكوين والعلم بأعمال العباد).

تقول الآية أوّلاً: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ في رحمها، سواء من أُنثى الإنسان أو الحيوان ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي تنقص قبل موعدها المقرّر ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾[٢] أي

(١) للمزيد من الاطلاع راجع كتاب إحقاق الحقّ، ج ٣، ص ٨٧ وما بعدها.

(٢) ﴿تَغِيضُ﴾ أصلها الغيض بمعنى ابتلاع السائل وهبوط مستوى الماء. وتأتي بمعنى النقصان والفساد، و«الغيضة» المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه، و«ليلة غائضة» أي مظلمة.

يعلم بما تزيد عن موعدها المقرّر. وفي تفسير هذه الجمل الثلاث هناك آراء مختلفة بين المفسّرين:

يعتقد البعض أنّها تشير - كما ذكرنا آنفاً - إلى وقت الولادة، وهي على ثلاثة أنواع: فمرّة يولد المولود قبل موعده، ومرّة في موعده، وأخرى بعد الموعد المقرّر. فالله يعلم كلّ ذلك ويعلم لحظة الولادة بالتحديد، وهذه من الأمور التي لا يستطيع أي أحد أو جهاز أن يحدّد موعده، وهذا العلم خاص بذات الله المنزّهة، وسببه واضح لأنّ استعدادات الأرحام والأجنّة مختلفة، ولا أحد يعلم بهذا التفاوت.

وقال بعض آخر: إنّها تشير إلى ثلاث حالات مختلفة للرحم أيّام الحمل، فالجملة الأُولى تشير إلى نفس الجنين الذي تحفظه، والجملة الثانية تشير إلى دم الحيض الذي يُنصب في الرحم ويمصّه الجنين، والجملة الثالثة إشارة إلى الدم الإضافي الذي يخرج أثناء الحمل أحياناً، أو دم النفاس أثناء الولادة[1].

وهناك عدّة احتمالات أُخرى في تفسير هذه الآية دون أن تكون متناقضة فيما بينها، ويمكن أن يكون مراد الآية إشارةً إلى مجموع هذه التفاسير، ولكن الظاهر أنّ التّفسير الأوّل أقرب، بدليل جملة ﴿تَحۡمِلُ﴾ المقصود منها الجنين، والجملتان ﴿تَغِيضُ﴾ و﴿تَزۡدَادُۚ﴾ بقرينة الجملة السابقة تشير إلى الزيادة والنقصان في فترات الحمل.

روى الشيخ الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أو الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية أنّ «الغيض كلّ حمل دون تسعة أشهر، وما تزداد كلّ شيء حُمل على تسعة أشهر». وفي تكملة الحديث يقول: «كلّما رأت المرأة الدم الخالص في حملها فإنّها تزداد وبعدد الأيّام التي زاد فيها في حملها من الدم»[2].

﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ ولكي لا يتصوّر أحد أنّ هذه الزيادة والنقصان بدون حساب ودليل، بل إنّ كلّ ساعة وثانية ولحظة لا تمرّ دون حساب، كما أنّ للجنين ودم الرحم حساب وكتاب أيضاً، فالآية التي بعدها تؤكّد ما قلناه في الآية السابقة حيث

(١) يقول صاحب الميزان مؤيّداً هذا الرأي: إنّ بعض روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام يؤيّد هذا الرأي. وابن عبّاس ممّن يؤيّد هذا الرأي أيضاً، ولكن بالنظر إلى الرّوايات المنقولة في تفسير نور الثقلين في ذيل الآية فإنّ أكثرها يؤيّد ما قلناه في الرأي الأوّل.

(٢) أصول الكافي، ج ٦، ص ١٢، نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٨٥.

تقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فعلمه بالغيب والشهادة لهذا السبب ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ فهو يحيط بكلّ شيء، ولا يخفى عنه شيء.

ولتكميل هذا البحث وتأكيد علمه المطلق يضيف القرآن الكريم: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[1] وهذا هو الحقّ فالذي يوجد في كلّ مكان لا معنى للغيب والشهادة أو الليل والنهار عنده، فهو محيط بها وعالم بأخبارها بشكل متساوٍ.

بحوث

١ - القرآن وعلم الأجنّة

أشار القرآن المجيد مراراً إلى مسألة الجنين وعجائب تكوينه ليكون أحد الأدلّة على التوحيد ومعرفة الله وعلمه المطلق، وبالطبع فإنّ علم الأجنّة واحد من العلوم الحديثة وكان سابقاً عبارة عن معلومات أوّليّة محدودة ثمّ توسعت في هذا العصر. ولكن بتقدّم العلم والمعرفة حدثت قفزة في هذا المجال كشفت عن كثير من أسرار هذا العالم الساكن والهادىء وعن كثير من عجائبه بحيث نستطيع أن نقول: إنّ أكبر درس للتوحيد ومعرفة الله كامنٌ في تكوين الجنين ومراحل تكامله.

فمن هذا الذي يرعى هذا الكائن المخفي وبتعبير القرآن واقع «في ظلمات ثلاث» الذي يمتاز بالظرافة ودقّة التكوين وأن يوصل له المقدار اللازم من الغذاء ويرشده مراحل حياته؟

وعندما تقول الآية السابقة: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ فليس المقصود من ذلك علمه بالذكر والأنثى فقط، بل بكلّ خصائصه والطاقة الكامنة فيه، هذه الأشياء لا يستطيع أحد وبأي وسيلة أن يتعرّف عليها، وعلى هذا فإنّ وجود هذا النظام الدقيق والمعقّد للجنين ومراحل تكامله لا يمكن أن يكون بدون صانع عالم وقدير.

٢ - كلّ شيء له مقدار

نحن نقرأ في آيات مختلفة من القرآن الكريم أنّ كلّ شيء له حدّ محدود ولا يتجاوزه، ففي الآية (٣) من سورة الطلاق يقول تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ وفي الآية

(١) ﴿وَسَارِبٌ﴾ من سرَبَ على وزن ضرر، بمعنى الماء الجاري، ويقال للشخص الذاهب إلى العمل أيضاً.

(٢١) من سورة الحجر يقول تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ والآية التي نحن بصددها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

كلّ هذه تشير إلى أنّه ليس هناك شيء في العالم بدون حساب، حتى الموجودات في الطبيعة التي نعتبرها في بعض الأحيان غير مهمّة، فإنّ وجودها على أساس حساب دقيق، علمنا بذلك أم لم نعلم، وأساساً فإنّ معنى حكمة الله هو أن يجعل لكلّ ما في الكون حدّاً ومقداراً ونظاماً.

وكلّ ما حصلناه اليوم من أسرار الكون بواسطة العلوم يؤكّد هذه الحقيقة، فمثلاً نرى أنّ دم الإنسان - الذي هو المادّة الحياتية لوجود الإنسان والذي يقوم بنقل المواد الضروريّة اللازمة لخلايا الجسم - يتركّب من عشرين مادّة أو أكثر، وبنسب ثابتة دقيقة بحيث لو تمّ أي تغيير فيها لتعرّضت سلامة الإنسان للخطر، ولهذا السبب ولمعرفة النقص الحاصل في الجسم يقومون بتحليل الدم وقياس نسبة السكر والدهن وسائر مركّبات الدم الأُخرى، ويتمّ تشخيص العلّة بواسطة معرفة زيادة أو نقصان هذه النسب، وليس دم الإنسان وحده له هذه الميزة، بل كلّ ما في الوجود له نفس هذه الدقّة في النظام.

ولابدّ هنا من التنبيه على أنّ ما يظهر لنا في بعض الأحيان من عدم النظام في عالم الوجود هو في الواقع ناتج من قصور في علومنا ومعرفتنا، فالإنسان الذي يؤمن بالله لا يمكن أن يتصوّر ذلك، وبتطوّر العلوم تتأكّد لنا هذه الحقيقة.

وكي نستطيع أن نتعلّم هذا الدرس وهو أنّ المجتمع الإنساني الذي هو جزء من عالم الوجود إذا أراد له العيش بسلام، فعليه أن يجعل شعار ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يسود جميع جوانبه، ويجتنب الإفراط والتفريط في أعماله وتخضع جميع مؤسساته الاجتماعية للحساب والموازين.

٣ - الغيب والشهادة سواء عند الله

استندت هذه الآيات إلى أنّ الغيب والشهادة معلومان عند الله، فهما مفهومان نسبيان ويستخدمان للكائن الذي علمه ووجوده محدود، وعلى سبيل المثال نحن نمتلك حواساً ذات مدى نسبي، فمتى ما كان الشيء داخلا في هذا المدى فهو شاهد بالنسبة لنا، وما كان خارجاً عنه فهو غيب، فلو فرضنا أنّ أبصارنا لها قدرة غير محدودة ويمكنها النفوذ في باطن الأشياء وإدراكها، فإنّ كلّ شيء يعتبر شاهد عندنا.

وبما أنّ كلّ شيء له حدّ محدود غير الذات الإلهيّة، فإنّ لغير الله تعالى غيب وشهادة، ولأنّ ذات الله غير محدودة ووجوده عام ومطلق فإنّ كلّ شيء بالنسبة إليه شهادة، ولا معنى للغيب بالنسبة إليه، وإذا ما قلنا إنّ الله عالم الغيب والشهادة فهو ما نعتبره نحن غيب وشهادة، أمّا هو فهما عنده سواء. لنفترض أنّنا ننظر ما في أيدينا في النهار، فهل نجهل ما فيها؟! جميع الكون في مقابل علم الله أوضح من هذا وأظهر.

٤ - الآثار التربوية في إدراكنا لعلم الله

أثناء قراءتنا للآيات الماضية التي تقول: إنّ الله يعلم السرّ والجهر من القول وحركاتكم في الليل والنهار وكلّها مشهودة عنده، هل نجد في أنفسنا إيماناً بهذه الحقيقة؟.. لو كنّا مؤمنين بذلك حقّاً ونشعر بأنّ الله تعالى مطّلع علينا فإنّ هذا الإيمان والإحساس الباطني يبعث على تغيير عميق في روحنا وفكرنا وقولنا وضمائرنا؟.

نقل عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه لمن سأله عن طريقتهم في الحياة قال: «علمت أنّ الله مطلع عليّ فاستحييت»[1].

كما نشاهد كثيراً من المواقف من تأريخ المسلمين وحياتهم تتجلّى فيها هذه الحقيقة، يقال: دخل أب وابنه في بستان، فتسلّق الأب شجرةً ليقطف ثمارها دون إذن صاحبها، بينما بقي الابن أسفل الشجرة لمراقبة الأوضاع. وفجأة صاح الابن الذي كان مؤمناً ومتعلّماً ونادى أباه بأن ينزل بسرعة، عندها خاف الأب ونزل فوراً وسأل من الذي رآني؟ قال: الذي هو فوقنا، فنظر الأب إلى الأعلى فلم يجد أحداً، وسأل من الذي رآني؟ قال: الذي هو فوقنا، فنظر الأب إلى الأعلى فلم يجد أحداً، فقال الابن: كان قصدي هو الله المحيط بنا جميعاً، كيف يمكن أن تخاف أن يراك الإنسان، ولا تخاف أن يراك الله؟! أين الإيمان؟!

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

(١) مستدرك، ج ١٢، ص ١٧٢.

التفسير

المعقّبات الغيبية!

علمنا في الآيات السابقة أنّ الله بما أنّه عالم الغيب والشهادة فإنّه يعلم أسرار الناس وخفاياهم، وتضيف هذه الآية أنّه مع حفظ وحراسة الله لعباده فإنّ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾(١).

ولكي لا يتصوّر أحد أنّ هذا الحفظ بدون شروط وينغمِسُ في المزلاّت، أو يرتكب الذنوب الموجبة للعقاب، ومع كلّ ذلك ينتظر من الله أو الملائكة أن يحفظوه، يعلّل القرآن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

وكي لا يتبادر إلى الأذهان أنّه مع وجود الملائكة الحافظة فأيّ معنى للعذاب أو الجزاء؟ هنا تضيف الآية ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ ولهذا السبب فإنّه حين صدور العذاب الإلهي على قوم أو أُمّة، فسوف ينتهي دور المعقّبات ويتركون الإنسان عرضةً للحوادث.

بحوث

١ - ما هي المعقّبات؟

«المعقّبات» كما جاء في مجمع البيان للعلاّمة الطبرسي وكما قاله بعض المفسّرين جمع (معقبة) وهي بدورها جمع (معقّب) ومعناه المجموعة التي تعمل بشكل متناوب ومستمر. والظاهر من الآية أنّ الله سبحانه وتعالى أمر مجموعة من الملائكة بأن يحفظوا الإنسان في الليل والنهار ومن بين يديه ومن خلفه.

إنّ الإنسان - بدون شك - معرّض في حياته إلى كثير من الحوادث الروحية والجسمية، فالأمراض والمتغيّرات في السّماء والأرض محيطة بالإنسان، وخصوصاً في مرحلة الطفولة التي لا يدرك فيها ما يجري حوله ويكون هدفاً سهلاً للإصابة بها، فقد يتعجّب الإنسان كيف ينجو الطفل وينمو من بين جميع هذه الحوادث، وخصوصاً في

(١) هناك حديث بين المفسّرين في أنّ الضمير (له) لمن يعود، وكما تشير الآية فإنّه يعود للإنسان كما تؤكّد عليه الآيات السابقة، ولكن بعضهم قال: يعود للنّبي أو لله. وهذا يخالف ما جاء في ذيل الآية [فتأمّل].

العوائل التي لا تدرك هذه المسائل وتعاني من قلّة الإمكانيات كأبناء الريف الذين يعانون من الحرمان والفقر وهم معرضون للأمراض أكثر من غيرهم.

وإذا ما أمعنّا النظر في هذه المسائل فسوف نجد أنّ هناك قوىً محافظة، تحفظ الإنسان في مقابل هذه الحوادث كالدرع الواقي.

وكثيراً ما يتعرّض الإنسان إلى حوادث خطرة ويتخلّص منها بشكل إعجازي تجعله يشعر أنّ كلّ ذلك ليس صدفة وإنّما هناك قوى محافظة تحميه.

وهناك كثير من الأحاديث المنقولة عن أئمّة المسلمين تؤكّد ذلك ومن جملتها: الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية يقول: «يحفظ بأمر الله من أن يقع في ركي أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء، حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان في النهار يتعاقبانه»(١).

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ما من عبد إلاّ ومعه ملكان يحفظانه فإذا جاء الأمر من عند الله خليا بينه وبين أمر الله»(٢).

ونقرأ في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ مع كلّ إنسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه»(٣).

كما نقرأ في نهج البلاغة في وصف الملائكة من الخطبة الأُولى «ومنهم الحفظة لعباده».

إنّ عدم إدراكنا لوجود المعقّبات عن طريق الحسّ أو التجربة العلمية ليس دليلاً على عدم وجودهم، لأنّه غير منحصر في هذا المجال فقط، فالقرآن الكريم والمصادر المعرفية الأُخرى أشارت إلى أُمور كثيرة وراء الحسّ والتي لا يمكن إثباتها بالطرق العادية. وأكثر من ذلك ما قلناه سابقاً من أنّنا نتعرّض في حياتنا إلى كثير من المخاطر والتي لا يمكن النجاة منها إلاّ بوجود هذه القوى المحافظة (ورأيت في حياتي بعضاً من هذه النماذج المحيّرة، والتي كانت بالنسبة لي كشخص صعب التصديق دليلاً على وجود هذا المعقّب اللامرئي).

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٨٣ (ج ٣، ص ٢٨٣، طبعة البعثت).

(٢) المصدر السابق.

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٠١.

٢ - التغيير يبدأ من النفس (قانون عام)

تبيّن الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ والتي جاءت في موردين متفاوتين في القرآن الكريم، أنّها قانون عام، وقانون حاسم ومنذر!

هذا القانون الذي هو واحد من القوانين الأساسيّة لعلم الاجتماع في الإسلام، يقول لنا: إنّ ما يصيبكم هو من عند أنفسكم، وما أصاب القوم من السعادة والشقاء هو ممّا عملت أيديهم، وما يقال من الحظّ والصدفة وما يحتمله المنجّمون ليس له أساس من الصحّة، فالأساس والقاعدة هي إرادة الأمّة إذا أرادت العزّة والافتخار والتقدّم، أو العكس إن أرادت هي الذلّة والهزيمة، حتى اللطف الإلهي أو العقاب لا يكون إلاّ بمقدّمة، فتلك إرادة الأمم في تغيير ما بأنفسهم حتى يشملهم اللطف أو العذاب الإلهي.

وبتعبير آخر: إنّ هذا الأصل القرآني الذي يبيّن واحداً من أهمّ المسائل الاجتماعية في الإسلام، يؤكّد لنا أن أي تغيير خارجي للأُمم مرتبط بالتغيير الداخلي لها، وأي نجاح أو فشل يصيب الأمّة ناشىء من هذا الأمر، والذين يبحثون عن العوامل الخارجية لتبرير أعمالهم وتصرّفاتهم ويعتبرون القوى المستعمرة والمتسلّطة هي السبب في شقائهم يقعون في خطأ كبير، لأنّ هذه القوى الجهنميّة لا تستطيع أن تفعل شيئاً إذا لم تكن لديها قدرة ومركز في داخل المجتمع.

المهمّ أن نطهّر مجتمعاتنا من هذه المقرّات والمراكز للمستعمرين ولا نجعلها تنفذ في داخل مجتمعنا، فهؤلاء بمنزلة الشياطين، ونحن نعلم أنّ الشيطان ليس له سبيل على عباد الله المخلصين، فهو يتسلّط على الذي مهّد له السبيل في داخله.

يقول هذا الأصل القرآني: إنّنا يجب أن نثور من الداخل كي نُنهي حالة الشقاء والحرمان، ثورة فكرية وثقافية، ثورة إيمانيّة وأخلاقية، وأثناء وقوعنا في مخالب الشقاء يجب أن نبحث فوراً عن نقاط الضعف فينا، ونطهّر أنفسنا منها بالتوبة والرجوع إلى الله، ونبدأ حياة جديدة مفعمة بالنّور والحركة، كي نستطيع في ظلّها أن نبدّل الهزيمة إلى نصر، لا أن نخفي نقاط الضعف وعوامل الهزيمة هذه ونبحث عنها في خارج المجتمع ونظلّ ندور في الطرق الملتوية.

هناك كتب ومؤلّفات كثيرة كتبت عن عوامل انتصار المسلمين الأوائل ثمّ تضعضع سلطانهم بعد حين، وكثير من تلك الأبحاث ظلّت تتعثّر في الطرق الملتوية، ولكن إذا ما أردنا أن نستلهم من الأصل أعلاه والصادر من منبع الوحي فيجب أن نبحث عن ذاك

النصر أو تلك الهزيمة وعن عواملها الفكرية والعقائدية والأخلاقية في المسلمين، ففي الثورات المعاصرة ومن جملتها الثورة الإسلامية في إيران، أو ثورة الجزائر أو ثورة المسلمين الأفغان، نشاهد بوضوح انطباق هذا الأصل القرآني عليها. فقبل أن تغيّر الدول المستعمرة والمستكبرة طريقتها في التعامل معنا، غيّرنا نحن ما بأنفسنا فتغيّر كلّ شيء.

وعلى أيّة حال فهذا درس ليومنا ولغدنا ولمستقبلنا ولكلّ المسلمين والأجيال القادمة. ونحن نرى أنّ القيادات المنتصرة فقط هي التي استطاعت أن تقود وتغيّر شعوبها على أساس هذا الأصل الخالد، وفي تاريخ المسلمين والإسلام شواهد على ذلك كثيرة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

قسمٌ آخر من دلائل عظمة الله

يتطرّق القرآن الكريم مرّةً ثانية إلى آيات التوحيد وعلائم العظمة وأسرار الخلقة، فهذه الآيات تحاول أن تقرّب العلاقة بين الإنسان وربّه من خلال الإشارة إلى بعض الظواهر الطبيعيّة بشكل موجز وعميق المعنى لكي يشعّ نور الإيمان في قلوب الناس، فتشير أوّلاً إلى البرق ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فالبرق بشعاعه يبهر العيون من جانب، ويحدث صوتاً مخيفاً وهو الرعد من جانب آخر، وقد يسبّب أحياناً الحرائق للناس وخصوصاً في المناطق الصحراوية فيبعث على خوفهم ومن جانب آخر فإنّه يسبّب هطول الأمطار ويروي ظمأ الصحراء ويسقي المزروعات فيطمع فيه الناس، وبين هذا

الخوف والرجاء تمرّ عليهم لحظات حسّاسة، ثمّ تضيف الآية ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ القادرة على إرواء ظمأ الأراضي الزراعية.

بركات الرعد والبرق

نحن نعلم أنّ ظاهرة البرق في المفهوم العلمي هي اقتراب سحابتين إحداهما من الأخرى، وهما تحملان شحنات سالبة وموجبة، فيتمّ تفريغ الشحنات بين السحابتين فتحدث شرارة عظيمة، ويحدث مثل ذلك عند اقتراب سلكين أحدهما سالب والآخر موجب، وإذا كنّا قريبين منهما فإنّنا نسمع صوتاً خفيفاً، ولكن لاحتواء الغيوم على شحنات هائلة من الإلكترونات فإنّهما تحدثان صوتاً شديداً يسمّى الرعد.

وإذا ما اقتربت سحابة تحمل الشحنة الموجبة من الأرض التي تحتوي على شحنات سالبة فستحدث شرارة تسمّى بالصاعقة، وخطورتها تكمن في أنّ الأرض والمناطق المرتفعة تعتبر رأس السلك السالب، حتى الإنسان في الصحراء يمكن أن يمثّل هذا السلك فيحدث تفريغ للشحنات يحوّل الإنسان إلى رماد في لحظة واحدة، ولهذا السبب فعند وقوع البرق والرعد في الصحراء ينبغي أن يلجأ الإنسان إلى شجرة أو حائط أو جبل أو إلى أي مرتفع آخر، أو أن يستلقي في أرض منخفضة.

وعلى أيّة حال فإنّ للبرق - الذي يسمّى في بعض الأحيان مزاح الطبيعة - فوائد جمّة عُرِفت من خلال ما كشفه العلم الحديث. ونشير هنا إلى ثلاث منها:

١ - **السقي**: - من الطبيعي أنّ البرق تتولّد منه حرارة عالية جدّاً قد تصل بعض الأحيان إلى (١٥) ألف درجة مئوية، وهذه الحرارة كافية لأن تحرق الهواء المحيط بها، وفي النتيجة يقلّ الضغط الجوي، فيسبّب سقوط الأمطار، ولهذا السبب نرى هطول الأمطار الغزيرة بعد حدوث البرق.

وهذه في الواقع واحدة من وظائف البرق (السقي).

٢ - **التعقيم**: - ونتيجةً للحرارة العالية التي يسبّبها البرق فسوف يزداد مقدار الأوكسجين في قطرات الماء، ويسمّى هذا الماء بالماء الثقيل أو الماء المؤكسد (H_2O_2) ومن آثاره قتل المكروبات، ولهذا السبب يستعمل لغسل الجروح، فعند نزول هذه القطرات إلى الأرض سوف تُبيد بيوض الحشرات والآفات الزراعية، ولهذا السبب يقال إنّ السنة الكثيرة الآفات الزراعية هي السنة القليلة البرق والرعد.

٣ - **التغذية والتسميد**: - تتفاعل قطرات الماء مع الحرارة العالية للبرق لتنتج حامض

الكاربون، وعند نزولها إلى الأرض وتركيبها مع محتوياتها تضع نوعاً من السّماد النباتي، فتتمّ تغذية النبات من هذا الطريق.

يقول بعض العلماء: إنّ مقدار ما ينتجه البرق من الأسمدة في السنة يصل إلى عشرات الملايين من الأطنان، وهذه كميّة كبيرة جدّاً.

وعلى أيّة حال نرى من خلال ظاهرة طبيعيّة صغيرة كلّ هذه المنافع والبركات، فهي تقوم بالسقي ورشّ السموم والتغذية، فيمكن أن تكون دليلاً واضحاً لمعرفة الله، كلّ ذلك من بركات البرق. كما أنّه يمكن أن يكون البرق عاملاً مهمّاً في إشعال الحرائق من خلال الصاعقة، وقد تحرق الإنسان أو الأشجار، ومع أنّها نادرة الحدوث ويمكن الوقاية منها، فهي مع ذلك عامل خوف للناس، فمفهوم الخوف والطمع للبرق قد يكون إشارة إلى جميع هذه الأمور.

ويمكن أن تكون الجملة ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ لها علاقة بالبرق الذي يصنع هذه الغيوم المليئة بالمياه.

الآية الأُخرى تشير إلى صوت الرعد الذي يتزامن مع البرق ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1].

نعم، فهذا الصوت المدوّي في عالم الطبيعة يُضرب به المثل، فهو مع البرق في خدمة هدف واحد ولهما منافع متعدّدة كما أشرنا إليها، ويقومان بعملية التسبيح، وبعبارة أُخرى فالرعد لسان حال البرق يحكي عن عظمة الخالق وعن نظام التكوين. فهو كتاب معنوي، وقصيدة غرّاء، ولوحة جميلة وجذّابة، نظام محكم ومنظّم ومحسوب بدقّة، وبلسان حاله يتحدّث عن علم ومهارة وذوق الكاتب والرسام والمعمار ويحمده ويثني عليه، كلّ ذرّات هذا العالم لها أسرار ونظام دقيق. وتحكي عن تنزيه الله وخلوّه من النقص والعيوب (وهل التسبيح غير ذلك؟!).

وتتحدّث عن قدرته وحكمته (وهل الحمد غير بيان صفات الكمال؟!).

وقد احتمل بعض الفلاسفة أنّ لكلّ ذرّات هذا العالم نوعاً من العقل والشعور، فهي من خلال هذا العقل تسبّح الله وتقدّسه، ليس بلسان الحال فقط، بل بلسان المقال أيضاً.

---

(١) للتوضيح أكثر في معنيي التسبيح والتقديس للكائنات سيأتي في ذيل الآية ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وليس الرعد وسائر أجزاء العالم تسبّح بحمده تعالى، بل حتى الملائكة ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾[١] فهم يخافون من تقصيرهم في تنفيذ الأوامر الملقاة على عاتقهم، وبالتالي فهم يخشون العقاب الإلهي، ونحن نعلم أنّ الخوف يُصيب أُولئك الذين يحسّون بمسؤولياتهم ووظائفهم... خوف بنّاء يحثّ الشخص على السعي والحركة.

وللتوضيح أكثر في مجال البرق والرعد تشير الآية إلى الصاعقة ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ومع كلّ ذلك - وبمشاهدة آيات العظمة الإلهيّة في عالم التكوين من السّماء والأرض والنباتات والأشجار والبرق والرعد وأمثالها، وفي قدرة الإنسان الحقيرة تجاه هذه الحوادث، حتى في مقابل واحدة منها مثل شرارة البرق - نرى أنّ هناك جماعة جاهلة تجادل في الله ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

﴿ٱلْمِحَالِ﴾ في الأصل «الحيلة» بمعنى التدبير السرّي وغير الظاهر، فالذي له القدرة على هذا التدبير يمتلك العلم والحكمة العالية، ولهذا السبب يستطيع أن ينتصر على أعدائه ولا يمكن الفرار من حكومته.

وذكر المفسّرون وجوهاً عديدة في تفسير ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ فتارةً بمعنى «شديد القوّة»، أو «شديد العذاب»، أو «شديد القدرة» أو «شديد الأخذ»[٢].

الآية الأخيرة تشير إلى مطلبين:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ فهو يستجيب لدعواتنا، وهو عالم بدعاء العباد وقادرٌ على قضاء حوائجهم، ولهذا السبب يكون دعاؤنا إيّاه وطلبنا منه حقّاً، وليس باطلاً.

ولكن دعاء الأصنام باطل ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ نعم هكذا في دعوة الباطل ليست أكثر من وهم، لأنّ ما يقولونه من علم وقدرة الأصنام ما هو إلاّ أوهام وخيال، أو ليس الحقّ هو عين الواقع وأصل الخير والبركة؟ والباطل هو الوهم وأصل الشرّ والفساد؟ ولتصوير هذا الموضوع يضرب لنا القرآن الكريم مثالاً حيّاً ورائعاً يقول: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾. فهل يستطيع أحد أن يجلس على بئر ويطلب الماء بإشارة يد ليبلغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر إلاّ من إنسان مجنون!

---

(١) يقول الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسيره التبيان: «الخيفة» بيان لحالة الشخص أمّا «الخوف» فمصدر.

(٢) فسّر البعض ﴿ٱلْمِحَالِ﴾ من «المحلّ، الماحل» بمعنى المكر والجدال والتصميم على العقوبة، ولكن ما أشرنا إليه أعلاه هو الصحيح، والتفسيران قريبا المعنى.

وتحتمل الآية تفسيراً آخر، فهي تُشبّه المشركين كمن بسط كفّه في الماء ليتجمع فوقها الماء، وعند خروجها من الماء لم يجد فيها شيئاً منه لأنّ الماء يتسرّب من بين أصابع الكفّ المفتوحة.

وهناك تفسير ثالث وهو أنّ المشركين - لحلّ مشاكلهم - كانوا يلجأون إلى الأصنام، فمثلهم مثل الذي يحتفظ بالماء في يده، هل يُحفظ الماء في يد؟! وهناك مثل معروف بين العرب لمن يسعى بدون فائدة يقال له: هو كقابض الماء باليد، ويقول الشاعر:

فأصبحت فيما كان بيني وبينها   من الودّ مثل القابض الماء باليد(١)

ولكنّنا نعتقد أنّ التّفسير الأوّل أوضح!

وللتأكيد على هذا الحديث يأتي في نهاية الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ وأيّ ضلال أكبر من أن يسعى الإنسان ويجتهد في السبيل الضالّ... ولكنّه لا يصل إلى مقاصده، ولا يحصل على شيء نتيجة تَعبه وجهده.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة، ولكي تُبرهن كيف أنّ المشركين ضلّوا الطريق تقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

بحوث

١ - ما هو المقصود من سجود الكائنات؟

السجدة في هذه الموارد تعني الخضوع والتسليم، فإنّ جميع الملائكة والناس ذوي العقول والأفكار متواضعين لله وخاضعين لأوامره، وهناك نوعان من السجود، سجود تكويني وهو أنّ الكلّ خاضعون ومسلّمون للقوانين الطبيعيّة مثل الحياة والممات والمرض و... و...، والبعض منهم له سجود تشريعي بالإضافة إلى السجود التكويني، فهم بميلهم وإرادتهم يسجدون لله.

٢ - ما هو معنى ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾؟

عبارة ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ المؤمنين خاضعون لله بميلهم وإرادتهم، وأمّا غير المؤمنين فهم خاضعون كذلك للقوانين الطبيعيّة التي تسير بأمر الله إن شاؤوا وإن أبوا.

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٥٢٩.

و(الكُره) بضمّ الكاف تعني الكراهية في داخل الإنسان، و(كَره) بفتح الكاف ما حُمل عليه الإنسان من خارج نفسه، وبما أنّ الأشخاص غير المؤمنين مقهورون للعوامل الخارجية وللقوانين الطبيعيّة، استعمل القرآن ﴿وَكَرۡهٗا﴾ بفتح الكاف.

ويحتمل في تفسير ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ أنّ المقصود من «طوعاً» هو التوافق والميل الفطري والطبيعي بين الإنسان والأسباب الطبيعيّة (مثل حبّ أي إنسان للحياة) والمقصود من ﴿وَكَرۡهٗا﴾ هو ما فُرض على الإنسان من الخارج مثل موت أحد الأشخاص بسبب المرض أو أي عامل طبيعي آخر.

٣ - ما هو معنى كلمة (الظلال)؟

«الظّلال» جمع «ظِل» واستعمال هذه الكلمة في الآية يشير إلى أنّ المقصود في السجود ليس فقط السجود التشريعي، فظِلال الكائنات ليست خاضعة لإرادتهم واختيارهم، بل هو تسليم لقانون الضوء، وعلى هذا يكون سجودهم تكويني، يعني التسليم للقوانين الطبيعيّة.

وطبيعي ليس المقصود من «الظلال» أنّ جميع ما في السّماوات والأرض لها وجود مادّي كي يكون لها ظلال، ولكن الآية تشير إلى تلك الأشياء التي لها ظلال، فمثلاً يُقال: إنّ جمعاً من العلماء وأبنائهم شاركوا في المجلس الكذائي، وليس المقصود هنا أنّ لكلّ العلماء أبناء «فتدبّر».

وعلى أيّة حال فإنّ الظلّ أمر عدمي، وهو ليس أكثر من فقدان النّور، ولكن له آثاراً ووجوداً بسبب النّور المحيط به، ولعلّ الآية تشير إلى هذه النقطة، وهي أنّه حتى الظلال خاضعة لله.

٤ - ما هو معنى كلمة ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾؟

﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ جمع «أُصل» وهي جمع «أصيل» ومعناه آخر وقت من النهار، ولذلك يعتبر أوّل الليل، والغدو جمع غداة بمعنى أوّل النهار.

ورغم أنّ السجود والخضوع للأشياء الكونية في مقابل الأوامر الإلهيّة دائمة ومستمرّة في كلّ وقت، ولكن ذكرها هنا في موقعين (الصبح والعشاء) إمّا أنّه كناية عن دوام الوقت، فمثلاً تقول: إنّ فلاناً يطلب العلم صباحاً ومساءً، فالمقصود هو أنّه في كلّ وقت يطلب العلم، وإمّا أن يكون المقصود من الآية ما جاء في الكلام عن الظلال والتي تكون واضحة أكثر في أوّل النهار وآخره.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

لماذا عبادة الأصنام؟

كان البيان في الآيات السابقة عن معرفة الله وإثبات وجوده، وهذه الآية تبحث عن ضلال المشركين والوثنيين وتتناوله من عدّة جهات، حيث تخاطب - أوّلاً - النبي ﷺ حيث تقول: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ثمّ تأمر النّبي أن يجيب على السؤال قبل أن ينتظر جوابهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ ثمّ إنّه يلومهم ويوبّخهم بهذه الجملة ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

لقد بيّن - أوّلاً - عن طريق ربوبيته أنّه المدبّر والمالك لهذا العالم، ولكلّ خير ونفع من جانبه، وقادر على دفع أي شرّ وضرّ، وهذا يعني أنّكم بقبولكم لربوبيته يجب أن تطلبوا كلّ شيء من عنده لا من الأصنام العاجزة عن حلّ أيّة مشكلة لكم. ثمّ يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول: إنّ هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرّاً فكيف يمكنها أن تنفعكم أو تضرّكم؟ وهم والحال هذه لا يحلّون أي عقدة لكم حتى لو قمتم بعبادتهم، فهؤلاء لا يستطيعون تدبير أنفسهم فماذا يُنتظر منهم؟

ثمّ يذكر مثالين واضحين وصريحين يحدّد فيها وضع الأفراد الموحّدين والمشركين، فيقول أوّلاً: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فكما لا يستوي الأعمى والبصير لا يستوي المؤمن والكافر، ولا يصحّ قياس الأصنام على الخالق جلّ وعلا.

ويقول ثانياً: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ كيف يمكن أن نساوي بين الظلام الذي يعتبر قاعدة الانحراف والضلال، وبين النّور المرشد والباعث للحياة، وكيف يمكن أن نجعل الأصنام التي هي الظّلمات المحضة إلى جنب الله الذي هو النّور المطلق، وما المناسبة بين الإيمان والتوحيد اللذان هما نور القلب والروح، وبين الشرك الذي هو أصل الظلام؟!

ثمّ يُدلّل على بطلان عقيدة المشركين عن طريق آخر فيقول: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ والحال ليس كذلك، فإنّ المشركين أنفسهم لا يعتقدون بها، فهم يعلمون أنّ الله خالق كلّ شيء، وعالم الوجود مرتبط به، ولذلك تقول الآية: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

بحوث

١ - الخالقية والرّبوبية يتطلبّان العبادة

يمكن أن يستفاد من الآية أعلاه أنّ الخالق هو الربّ المدبّر، لأنّ الخلقة أمرٌ مستمر ودائمي، وليست مجرد إيجاد للكائنات ثم يتركهم وشأنهم، بل إنّه تعالى يفيض بالوجود عليهم باستمرار وكلّ شيء يأخذ وجوده من ذاته المقدّسة، وعلى هذا فنظام الخلقة وتدبير العالم كلّها بيد الله، ولهذا السبب يكون هو النافع والضارّ، وغيره لا يملك شيئاً إلاّ منه، فهل يوجد أحدٌ غير الله أحقّ بالعبادة؟

٢ - كيف يسأل ويجيب بنفسه؟

بالنظر إلى الآية أعلاه يطرح هذا السؤال: كيف أمر الله نبيّه أن يسأل المشركين من خلق السماوات والأرض؟ وبعدها بدون أن ينتظر منهم الجواب يأمر النّبي أن يجيب هو على السؤال... وبدون فاصلة يوبّخ المشركين على عبادتهم الأصنام، أي طراز هذا في السؤال والجواب؟

ولكن مع الالتفات إلى هذه النقطة يتّضح لنا الجواب وهو أنّه في بعض الأحيان يكون الجواب للسؤال واضح جدّاً ولا يحتاج إلى الانتظار. فمثلاً نسأل أحداً: هل الوقت الآن ليل أم نهار؟ وبلا فاصلة نجيب نحن على السؤال فنقول: الوقت بالتأكيد ليل، وهذه كناية لطيفة، حيث إنّ الموضوع واضح جدّاً ولا يحتاج إلى الانتظار للجواب، بالإضافة إلى أنّ المشركين يعتقدون بخلق الله للعالم ولم يقولوا أبداً إنّ الأصنام خالقة السّماء والأرض، بل كانوا يعتقدون بشفاعتهم وقدرتهم على نفع الإنسان ودفع الضرر عنه، ولهذا السبب كانوا يعبدوهم، وبما أنّ الخالقية غير منفصلة عن الرّبوبية يمكن أن نُخاطب المشركين بهذا الحديث ونقول: أنتم الذين تقولون بأنّ الله خالق، يجب أن تعرفوا أنّ الربوبية لله كذلك، ويختصّ بالعبادة أيضاً لذلك.

٣ - العين المبصرة ونور الشمس شرطان ضروريان

يشير ظاهر المثالين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورُ﴾ إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ النظر يحتاج إلى شيئين: العين المبصرة، وشعاع الشمس، بحيث لو انتفى واحد منهما فإنّ الرؤية لا تتحقّق، والآن يجب أن نفكّر: كيف حال الأفراد المحرومين من البصر والنّور؟ المشركون المصداق الواقعي لهذا، فقلوبهم عُميٌ ومحيطهم مليءٌ بالكفر وعبادة الأصنام، ولهذا السبب فهم في تيه وضياع، وعلى العكس فالمؤمنون بنظرهم إلى الحقّ، واستلهامهم من نور الوحي وإرشادات الأنبياء عرفوا مسيرة حياتهم بوضوح.

٤ - هل أنّ خلق الله لكلّ شيء دليل على الجبر؟

إستدلّ جمعٌ من أتباع مدرسة الجبر أنّ جملة ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في الآية أعلاه لها من السعة بحيث تشمل حتى عمل الأفراد، فالله خالق أعمالنا ونحن غير مختارين.

يمكن أن نجيب على هذا القول بطريقين:

أوّلاً: الجمل الأُخرى للآية تنفي هذا الكلام، لأنّها تلوم المشركين بشكل أكيد فإذا كانت أعمالنا غير اختيارية، فلماذا هذا التوبيخ؟! وإذا كانت إرادة الله أن نكون مشركين فلماذا يلومنا؟! ولماذا يسعى بالأدلّة العقليّة لتغيير مسيرتهم من الضلالة إلى الهداية؟ كلّ هذا دليل على أنّ الناس أحرار في انتخاب طريقهم.

ثانياً: إنّ الخالقية بالذات من مختصّات الله تعالى. ولا يتنافى مع اختيارنا في الأفعال، لأنّ ما نمتلكه من القدرة والعقل والشعور، وحتى الاختيار والحرية، كلّها من عند الله، وعلى هذا فمن جهة هو الخالق (بالنسبة لكلّ شيء وحتى أفعالنا) ومن جهة أُخرى نحن نفعل باختيارنا، فهما في طول واحد وليس في عرض وأُفق واحد، فهو الخالق لكلّ وسائل الأفعال، ونحن نستفيد منها في طريق الخير أو الشرّ.

فمثلاً الذي يؤسّس معملاً لتوليد الكهرباء أو لإنتاج أنابيب المياه، يصنعها ويضعها تحت تصرّفنا، فلا يمكن أن نستفيد من هذه الأشياء إلاّ بمساعدته، ولكن بالنتيجة يكون التصميم النهائي لنا، فيمكن أن نستفيد من الكهرباء لإمداد غرفة العمليات الجراحية وإنقاذ مريض مشرف على الموت، أو نستخدمها في مجالس اللهو والفساد، ويمكن أن نروي بالماء عطش إنسان ونسقي ورداً جميلاً، أو نستخدم الماء في إغراق دور الناس وتخريبها.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

وصف دقيق لمنظر الحقّ والباطل

يستند القرآن الكريم - الذي يعتبر كتاب هداية وتربية - في طريقته إلى الوقائع العينيّة لتقريب المفاهيم الصعبة إلى أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسّية الرائعة من حياة الناس، وهنا - أيضاً - لأجل أن يُجسّم حقائق الآيات السابقة التي كانت تدور حول التوحيد والشرك، الإيمان والكفر، الحقّ والباطل، يضرب مثلاً واضحاً جدّاً لذلك..

يقول أوّلاً: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الماء عماد الحياة وأصل النمو والحركة، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ تتقارب السواقي الصغيرة فيما بينها، وتتكوّن الأنهار وتتّصل مع بعضها البعض، فتسيل المياه من سفوح الجبال العظيمة والوديان وتجرف كلّ ما يقف أمامها، وفي هذه الأثناء يظهر الزّبد وهو ما يرى على وجه الماء كرغوة الصابون من بين أمواج الماء حيث يقول القرآن الكريم: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾.

«الرابي» من «الربو» بمعنى العالي أو الطافي، والربا بمعنى الفائدة مأخوذ من نفس هذا الأصل.

وليس ظهور الزبد منحصراً بهطول الأمطار، بل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ﴾(١) أي الفلزات المذابة بالنّار لصناعة أدوات الزينة منها أو صناعة الوسائل اللازمة في الحياة.

بعد بيان هذا المثال بشكله الواسع لظهور الزبد ليس فقط في الماء بل حتى للفلزات

---

(١) تشير هذه الآية إلى الأفران التي تستعمل لصهر الفلزات، فهذه الأفران تتميّز بوجود النّار من تحتها ومن فوقها يعني نارٌ تحت الفلز ونار فوقه، وهذه من أفضل أنواع الأفران حيث تحيط بها النّار من كلّ جانب.

وللمتاع، يستنتج القرآن الكريم ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ ثمّ يتطرّق إلى شرحه فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

فأمّا الزبد الذي لا فائدة فيه فيذهب جفاءً ويصير باطلاً متلاشياً، وأمّا الماء الصافي النقي المفيد فيمكث في الأرض أو ينفذ إلى الأعماق لتتكوّن منه العيون والآبار تروي العطاش، وتروي الأشجار لتثمر، والأزهار لتتفتّح، وتمنح لكلّ شيء الحياة.

وفي آخر الآية - للمزيد من التأكيد في مطالعة هذه الأمثال - يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

بحوث

هذا المثال البليغ الذي عبّر عنه القرآن الكريم بألفاظ موزونة وعبارات منظّمة، وصوّر فيها الحقّ والباطل بأروع صورة، فيه حقائق مخفيّة كثيرة ونشير هنا إلى قسم منها:

١ - ما هي علائم معرفة الحق والباطل؟

يحتاج الإنسان في بعض الأحيان لمعرفة الحقّ والباطل - إذا أشكل عليه الأمر - إلى علائم وأمثال حتى يتعرّف من خلالها على الحقائق والأوهام، وقد بيّن القرآن الكريم هذه العلامات من خلال المثال أعلاه:

ألف: - الحقّ مفيد ونافع دائماً، كالماء الصافي الذي هو أصل الحياة، أمّا الباطل فلا فائدة فيه ولا نفع، فلا الزبد الطافي على الماء يروي ظمآناً أو يسقي أشجاراً، ولا الزبد الظاهر من صهر الفلزات يمكن أن يستفاد منه للزينة أو للاستعمالات الحياتية الأُخرى، وإذا استخدمت لغرض فيكون استخدامها رديئاً ولا يؤخذ بنظر الاعتبار... كما نستخدم نشارة الخشب للإحراق.

باء: - الباطل هو المستكبر والمرفّه كثير الصوت، وكثير الأقوال لكنّه فارغ من المحتوى، أمّا الحقّ فمتواضع قليل الصوت، وكبير المعنى، وثقيل الوزن(١).

جيم - الحقّ يعتمد على ذاته دائماً، أمّا الباطل فيستمدّ اعتباره من الحقّ ويسعى للتلبّس به، كما أنّ (الكذب يتلبّس بضياء الصدق) ولو فقد الكلام الصادق من العالم لما

---

(١) يقول الإمام علي عليه السلام في وصفه أصحابه يوم الجمل: «وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل، ولسنا نرعد حتى نوقع ولا نسيل حتى نمطر» نهج البلاغة الخطبة ٩.

كان هناك من يصدق الكذب. ولو فقدت البضاعة السليمة من العالم لما وجد من يخدع ببضاعة مغشوشة، وعلى هذا فوجود الباطل راجع إلى شعاعه الخاطف واعتباره المؤقّت الذي سرقه من الحقّ، أمّا الحقّ فهو مستند إلى نفسه واعتباره منه.

٢ - ما هو الزّبد؟

«الزبد» بمعنى الرغوة التي تطفو على السائل، والماء الصافي أقلّ رغوة، لأنّ الزبد يتكوّن بسبب اختلاط الأجسام الخارجية مع الماء، ومن هنا يتّضح أنّ الحقّ لو بقي على صفائه ونقائه لم يظهر فيه الخبث أبداً، ولكن لامتزاجه بالمحيط الخارجي الملوّث فإنّه يكتسب منه شيئاً، فتختلط الحقيقة مع الخرافة، والحقّ بالباطل، والصافي بالخابط. فيظهر الزبد الباطل إلى جانب الحقّ.

وهذا هو الذي يؤكّده الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «لو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين»(١).

يقول بعض المفسّرين: إنّ للآية أعلاه ثلاثة أمثلة: «نزول آيات القرآن» تشبيهه بنزول قطرات المطر للخير، «قلوب الناس» شبيهة بالأرض والوديان وبقدر وسعها يستفاد منها، «وساوس الشيطان» شبيهة بالزبد الطافي على الماء، فهذا الزبد ليس من الماء، بل نشأ من اختلاط الماء بمواد الأرض الأُخرى، ولهذا السبب فوساوس النفس والشيطان ليست من التعاليم الإلهيّة، بل من تلوّث قلب الإنسان، وعلى أيّة حال فهذه الوساوس تزول عن قلوب المؤمنين ويبقى صفاء الوحي الموجب للهداية والإرشاد.

٣ - الاستفادة تكون بقدر الاستعداد واللياقة!

يستفاد من هذه الآية - أيضاً - أنّ مبدأ الفيض الإلهي لا يقوم على البخل والحدود الممنوعة، كما أنّ السحاب يسقط أمطاره في كلّ مكان بدون قيد أو شرط، وتستفيد الأرض والوديان منها على قدر وسعها، فالأرض الصغيرة تستفيد أقلّ والأرض الواسعة تستفيد أكثر، وهكذا قلوب الناس في مقابل الفيض الإلهي.

٤ - الباطل والأوضاع المضطربة

عندما يصل الماء إلى السهل أو الصحراء ويستقرّ فيها، تبدأ المواد المختلطة مع

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٥٠.

الماء بالترشّح ويذهب الزبد فيظهر الماء النقي مرّةً ثانية، وعلى هذا النحو فالباطل يبحث عن سوق مضطربة حتى يستفيد منها، ولكن بعد استقرار السوق وجلوس كلّ تاجر في مكانه المناسب وتحقّق الالتزامات والضوابط في المجتمع، لا يجد الباطل له مكاناً فينسحب بسرعة!

٥ - الباطل يتشكّل بأشكال مختلفة

إنّ واحدة من خصائص الباطل هي أنّه يغيّر لباسه من حين لآخر، حتى إذا عرفوه بلباسه يستطيع أن يخفي وجهه بلباس آخر، وفي الآية أعلاه إشارة لطيفة لهذه المسألة، حيث تقول: لا يظهر الزبد في الماء فقط، بل يظهر حتى في الأفران المخصوصة لصهر الفلزات بشكل ولباس آخر، وبعبارة أُخرى فإنّ الحقّ والباطل موجودان في كلّ مكان كما يظهر الزبد في السوائل بالشكل المناسب لها، وعلى هذا يجب أن لا نُخدع بتنوّع الوجوه وأن نعرف أوجه الباطل ونطرحه جانباً.

٦ - ارتباط البقاء بالنفع

تقول الآية: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليس الماء فقط يبقى ويذهب الزبد الطافي عليه، بل حتى الفلزات تلك التي تستعمل للزينة أو للمتاع يبقى الخالص منها ويذهب خبثه، وعلى هذا النحو فالناس والمدارس والمبادىء لهم حقّ الحياة على قدر منفعتهم، وإذا ما رأينا بقاء أصحاب المبادىء الباطلة لفترة فإنّ ذلك بسبب وجود ذلك المقدار من الحقّ الذي اختلط فيه، وبهذا المقدار له حقّ الحياة.

٧ - كيف يطرد الحقّ الباطل؟

«الجفاء» بمعنى الإلقاء والإخراج، ولهذا نكتة لطيفة وهي أنّ الباطل يصل إلى درجة لا يمكن فيها أن يحفظ نفسه، وفي هذه اللحظة يُلقى خارج المجتمع، وهذه العملية تتمّ في حالة هيجان الحقّ، فعند غليان الحقّ يظهر الزبد ويطفو على سطح ماء القدر ويُقذف إلى الخارج، وهذا دليل على أنّ الحقّ يجب أن يكون في حالة هيجان وغليان دائماً حتى يُبعد الباطل عنه.

٨ - الباطل مدينٌ للحقّ ببقائه

كما قلنا في تفسير الآية، فلو لم يكن الماء لما وجد الزبد، ولا يمكن له أن يستمر، كما أنّه لولا وجود الحقّ فإنّ الباطل لا معنى له ولو لم يكن هناك أشخاص صادقون لما

وقع أحد تحت تأثير الأفراد الخونة ولما صدّق بمكرهم، فالشعاع الكاذب للباطل مدين في بقائه لنور الحقّ.

٩ - صراع الحقّ والباطل مستمر

المثال الذي ضربهُ لنا القرآن الكريم في تجسيم الحقّ والباطل ليس مثالاً محدوداً في زمان ومكان معينين، فهذا المنظر يراه الناس في جميع مناطق العالم المختلفة، وهذا يبيّن أنّ عمل الحقّ والباطل ليس مؤقتاً وآنياً، وجريان الماء العذب والمالح مستمر إلى نفخ الصور، إلاّ إذا تحوّل المجتمع إلى مجتمع مثالي (كمجتمع عصر الظهور وقيام الإمام المهدي عليه السلام) فعنده ينتهي هذا الصراع، وينتصر الحقّ ويطوى بساط الباطل، وتدخل البشرية مرحلة جديدة من تاريخها، وإلى أن نصل إلى هذه المرحلة فالصراع مستمر بين الحقّ والباطل، ويجب أن نحدّد موقفنا في هذا الصراع.

١٠ - تزامن الحياة مع السعي والجهاد

المثال الرائع أعلاه يوضّح هذا الأساس لحياة الناس، وهو أنّ الحياة بدون جهاد غير ممكنة، والعزّة بدون سعي غير ممكنة أيضاً، لأنّه يقول: يجب أن يذهب الناس إلى المناجم لتهيئة مستلزمات حياتهم في المتاع والزينة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾. وللحصول على هذين الشيئين يجب تنقية المواد الخام من الشوائب بواسطة نيران الأفران للحصول على الفلز الخالص الصالح للاستعمال، وهذا لا يتمّ إلاّ من خلال السعي والمجاهدة والعناء.

وهذه هي طبيعة الحياة حيث يوجد إلى جانب الورد الشوك، وإلى جانب النصر توجد المصاعب والمشكلات، وقالوا في القديم: (الكنوز في الخرائب وفوق كلّ كنز يوجد ثعبانٌ نائم)، فإنّ هذه الخربة والثعبان تمثّلان المشاكل والصعوبات للحصول على الموفّقية في الحياة.

ويؤكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهي أنّ التوفيق لا يحصل إلاّ بتحمّل المصاعب والمحن، يقول جلّ وعلا في الآية (٢١٤) من سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

الأمثال في القرآن

إنّ دور المثال في توضيح وتفسير الغايات له أهميّة كبيرة غير قابلة للإنكار، ولهذا

السبب لا يوجد أي علم يستغني عن ذكر المثال لإثبات وتوضيح الحقائق وتقريب معناها إلى الأذهان، وتارةً ينطبق المثال مع المقصود بشكل يجعل المعاني الصعبة تنزل من السّماء إلى الأرض وتكون مفهومة للجميع، فيمكن أن يقال: إنّ المثال له دور مؤثّر في مختلف الأبحاث العلمية والتربوية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها، ومن جملة تأثيراته:

١ - المثال يجعل المسائل محسوسة

من المعلوم أنّ الإنسان يأنس بالمحسوسات أكثر، أمّا الحقائق العلمية المعقّدة فهي بعيدة المنال. والأمثال تقرّب هذه الفواصل وتجعل الحقائق المعنوية محسوسة، وإدراكها يسير ولذيذ.

٢ - المثال يُقرّب المعنى

تارةً يحتاج الإنسان لإثبات مسألة منطقية أو عقلية إلى أدلّة مختلفة، ومع كلّ هذه الأدلّة تبقى هناك نقاط مبهمة محيطة بها، ولكن عند ذكر مثال واضح منسّق مع الغاية يقرّب المعنى ويعزّز الأدلّة ويقلّل من كثرتها.

٣ - المثال يعمّم المفاهيم

كثير من البحوث العلمية بشكلها الأصلي يفهمها الخواص فقط، ولا يستفيد منها عامّة الناس، ولكن عندما يصحبها المثال تكون قابلة للفهم، ويستفيد منها الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية، ولهذا فالمثال وسيلة لتعميم الفكر والثقافة.

٤ - المثال يزيدُ في درجة التصديق

مهما تكن الكليّات العقلية منطقية، فإنّها لا تخلق حالة اليقين الكافية في ذهن الإنسان، لأنّ الإنسان يبحث عن اليقين في المحسوسات، فالمثال يجعل من المسألة الذهنيّة واقعاً عينيّاً، ويوضّحها في العالم الخارجي، ولهذا السبب فإنّ له أثره في زيادة درجة تصديق المسائل وقبولها.

٥ - المثال يُخرس المعاندين

كثيراً ما لا تنفع الأدلّة العقليّة والمنطقيّة لإسكات الشخص المعاند حيث يبقى مصرّاً على عناده ولكن عندما نصب الحديث في قالب المثال نوصد الطريق عليه بحيث لا يبقى له مجال للتبرير ولا لاختلاق الأعذار.

ولا بأس أن نطرح هنا بعض الأمثلة حتى نعرف مدى تأثيرها:

نقرأ في القرآن الكريم أنّ الله سبحانه وتعالى يردُ على الذين أشكلوا على ولادة السّيد المسيح عليه السلام كيف أنّه ولد من أُمّ بغير أب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[1].

لاحظوا جيداً، فنحن مهما حاولنا أن نقول للمعاندين: إنّ هذا العمل بالنسبة إلى قدرة الله المطلقة لا شيء، فمن الممكن أن يحتجّوا أيضاً، ولكن عندما نقول لهم هل تعتقدون أنّ آدم خلقه الله من تراب؟ فإنّ الله الذي له هذه القدرة كيف لا يستطيع إيجاد شخص بدون أب؟!

وبالنسبة إلى المنافقين الذين يقضون في ظلّ نفاقهم أيّاماً مريحة ظاهراً، فإنّ القرآن الكريم يضرب مثالاً رائعاً عن حالهم، فيشبههم بالمسافرين في الصحراء فيقول: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

فهل يوجد أوضح من هذا الوصف للمنافق التائه في الطريق، والذي يتحرك من خلال نفاقه وعمله كي يستمرّ في حياته؟

وعندما تقول للأفراد: إنّ الإنفاق يضاعفه لكم الله عدّة مرّات قد لا يستطيعون أن يفهموا هذا الحديث، ولكن يقول القرآن الكريم: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾[3]، وهذا المثال الواضح أقرب للإدراك.

وغالباً ما نقول: إنّ الرياء لا ينفع الإنسان، فقد يكون هذا الحديث ثقيلاً على البعض، كيف يمكن لهذا العمل أن يكون غير مفيد، فبناء مستشفى أو مدرسة حتى لو كان بقصد الرياء... لماذا ليست له قيمة عند الله؟! ولكن يضرب الله مثالاً رائعاً حيث يقول: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾[4].

ولكي لا نبتعد كثيراً فالآية التي نحن بصدد تفسيرها تبحث في مجال الحقّ والباطل وتجسّم هذه المسألة بشكل دقيق: المقدّمات والنتائج، والصفات والخصوصيات

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

والآثار، وتجعلها قابلة الفهم للجميع وتُسكت المعاندين، وأكثر من ذلك تكفينا تعب البحوث المطوّلة.

وفي مناظرة للإمام الصادق عليه السلام مع أحد الزنادقة حول قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(١) قال: فما بال الغير؟

أجابه الإمام: «ويحك هي هي وهي غيرها!» قال: فمثّل لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا! قال: «نعم، أرأيت لو أنّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها ثمّ ردّها في ملبنها، فهي هي وهي غيرها»(٢).

ولابدّ هنا من ملاحظة هذه اللفظة وهي أنّ المثال وما له من تأثير كبير ودور فعّال يجب أن يكون مطابقاً وموافقاً للمقصود، وإلاّ يكون ضالاً ومنحرفاً.

ولهذا السبب يستفيد المنافقون من هذه الأمثلة المنحرفة ليضلّوا بها الناس البسطاء، فهم يستعينون بشعاع المثال ليصدق الناس أكاذيبهم، فيجب أن نحذر من هذه الأمثلة المنحرفة ونلاحظها بدقّة.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾

التّفسير

الذين استجابوا لدعوة الحقّ

بعد ما كشفت الآيات السابقة عن وجهي الحقّ والباطل من خلال مثال واضح وبليغ، أشارت هذه الآية إلى مصير الذين استجابوا لربّهم والذين لم يستجيبوا لهذه الدعوة واتّجهوا صوب الباطل. تقول أوّلا: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ في معناها الواسع تشمل كلّ خير وسعادة، بدءاً من الخصال الحسنة

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) الاحتجاج، ص٣٥٤. أوردنا شرح هذا الحديث في التفسير الأمثل ذيل الآيتين ٥٦ و ٥٧ من سورة النساء، نقلاً عن مجالس الشيخ واحتجاج الطبرسي.

والفضائل الأخلاقية إلى الحياة الاجتماعية الطاهرة والنصر على الأعداء وجنّة الخلد.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾.

لا توجد صيغة أوضح من هذه الآية في بيان شدّة عذابهم وعقابهم، يمتلك الإنسان كلّ ما في الأرض وضعفه أيضاً ويفتدي به للنجاة ولا يحصل النجاة. تشير هذه الجملة في الواقع إلى آخر أُمنية والتي لا يمكن أن يتصوّر أكثر منها، وهي أن يمتلك الإنسان كلّ ما في الأرض، ولكن شدّة العذاب للظالمين ومخالفي الحقّ تصل بهم إلى درجة أن يفتدوا بكلّ هذه الأُمنية أو بأكثر منها لنجاتهم. ولنفرض أنّها قُبِلَت منهم فتكون نجاتهم من العذاب فقط، ولكن الثواب العظيم يكون من نصيب الذين استجابوا لدعوة الحقّ.

ومن هنا يتّضح أنّ العبارة ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ليس المقصود منها أن يكون لهم ضعف ما في الأرض، بل إنّهم مهما ملكوا أكثر من ذلك فإنّهم مستعدّون للتنازل عنه مقابل نجاتهم من العذاب. ودليله واضح، لأنّ الإنسان يطلب كلّ شيء لمنفعته، ولكن عندما يجد نفسه غارقاً في العذاب فما فائدة تملكه للدنيا كلّها؟

وعلى أثر هذا الشقاء (عدم قبول ما في الأرض مقابل نجاتهم) يشير القرآن الكريم إلى شقاء آخر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾.

فما هو المقصود من ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؟

للمفسّرين آراء مختلفة حيث يعتقد البعض أنّه الحساب الدقيق بدون أي عفو أو مسامحة، فسوء الحساب ليس بمفهوم الظلم، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو العدل المطلق، ويؤيّد هذا المعنى الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لرجل: «يافلان ما لك ولأخيك؟» قال: جعلت فداك كان لي عليه حقّ فاستقصيت منه حقّي إلى آخره، وعند سماع الإمام لهذا الجواب غضب وجلس ثمّ قال: «كأنّك إذا استقصيت حقّك لم تسئ إليه! أرأيت ما حكى الله عزّوجلّ: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أتراهم يخافون الله أن يجور عليهم؟! لا والله ما خافوا إلاّ الاستقصاء فسمّاه الله عزّوجلّ سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساءه»(١).

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٨٨، وإن جاء تفسير هذا الحديث في الآية ٢١ من هذه السورة ولكن كلمة ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ بصورة عامة وفي كل مكان بهذا المعنى.

وقال البعض: المقصود من سوء الحساب، أنّه يلازم حسابهم التوبيخ والملامة وغيرها، فبالإضافة إلى خوفهم من العذاب يؤلمهم التوبيخ.

ويقول البعض الآخر: المقصود هو الجزاء الذي يسوؤهم، كما نقول: إنّ فلاناً حسابه نقي، أو لآخر: حسابه مظلم، وهذا يعني نتيجة حسابهم جيدة أو سيّئة، أو تقول: (ضع حسابه في يده) يعني حاسبه طبقاً لعمله.

هذه التفاسير الثلاثة غير متضادّة فيما بينها، ويمكن أن يستفاد منها في تفسير الآية، وهذا يعني أنّ هؤلاء الأفراد يحاسبون حساباً دقيقاً، وأثناء حسابهم يُوبّخون ويُلامون ومن ثمّ يستقصى منهم.

وفي نهاية الآية إشارة إلى الجزاء الثّالث أو النتيجة النهائية لجزائهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿ٱلْمِهَادُ﴾ جمع مهد، بمعنى التهيؤ، ويستفاد منها معنى السرير الذي يستخدم لراحة الإنسان، هذا السرير يهيّأ للاستراحة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الكلمة للإشارة إلى أنّ هؤلاء الطغاة بدلاً من أن يستريحوا في مهادهم يجب أن يحرقوا بلهيب النار.

بحث

يستفاد من الآيات القرآنية أنّ الناس في يوم القيامة ينقسمون إلى مجموعتين، فمجموعة يحاسبهم الله بيسر وسهولة وبغير تدقيق ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾[(١)].

وعلى العكس من ذلك هناك مجموعة يحاسبون بشدّة حتى الذرّة والمثقال من الأعمال يحاسبون عليه، كما حدث لبعض البلاد التي كان أهلها من العاصين، ﴿فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾[(٢)].

إنّ هذا الحساب الشديد هو نتيجة لما كان يقوم به هؤلاء في حياتهم من استقصاء الآخرين حتى الدينار الأخير، وإذا ما حدث خطأ من أحد فإنّهم يعاقبونه بأشدّ ما يمكن، ولم يسامحوا أحداً حتى أبناءهم وإخوانهم وأصدقاءهم، وبما أنّ الآخرة انعكاس للحياة الدنيا فإنّ الله سبحانه وتعالى يحاسبهم حساباً شديداً على أي عمل

(١) سورة الانشقاق، الآيتان: ٧ - ٨. (٢) سورة الطلاق، الآية: ٨.

عملوه بدون أدنى سماح، وعلى العكس فهناك أشخاص سهلون ومسامحون ومن أهل العفو، خصوصاً في مقابل أصدقائهم وأقربائهم وذوي الحقوق عليهم أو الضعفاء، ويغضّون النظر عنهم وعن كثير من زلاّتهم الشخصيّة، وفي مقابل ذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى يشملهم بعفوه ورحمته الواسعة ويحاسبهم حساباً يسيراً.

وهذا درس كبير لكلّ الناس وخصوصاً أُولئك الذين يتصدّرون الأمور.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

الأبواب الثّمانية للجنّة وصفات أُولي الألباب

تتحدّث هذه الآيات عن سيرة أُولي الألباب وصفاتهم الحسنة، وفيها تكميل للبحث السابق.

في الآية الأُولى من هذه المجموعة استفهام إنكاري: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ﴾.

وهذا وصف رائع، فهو لم يقل: أفمن يعلم أنّ هذا القرآن على الحقّ كمن لا يعلم؟ بل قال: كمن هو أعمى؟ وهذه إشارة لطيفة إلى أنّه من المحال أن لا يعلم أحد بهذه الحقيقة إلاّ أن يكون أعمى القلب، فكيف يمكن لإنسان يمتلك عيناً سليمة ولا يرى نور الشمس، وهذا القرآن كالشمس. ولذلك يجيء في نهاية الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

«الألباب» جمع لبّ بمعنى جوهر الشيء، ويقابل أولي الألباب أولو الجهل والعمى.

إنّ هذه الآية - وكما يذهب إليه بعض المفسّرين - تحثّ الناس على طلب العلم ومحاربة الجهل، لأنّها تعدّ الفرد الفاقد للعلم كمن هو أعمى، ثمّ بيّن سيرة أولي الألباب من خلال ذكر صفاتهم الحميدة، وأوّل ما أشار القرآن إليه وفاؤهم بالعهد وعدم نقضهم له ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

إنّ «عهد الله» له معنى واسع، ويشمل العهود الفطرية التي عاهدوا بها ربّهم كالفطرة على التوحيد وحبّ الحقّ والعدالة، والمواثيق العقليّة التي يدركها الإنسان من خلال التفكير والتعقّل لعالم الوجود، والمبدأ والمعاد، وتشمل كذلك العهود الشرعيّة، وهي ما عاهدوا الرّسول ﷺ عليه من الطاعة للأوامر الإلهيّة وترك المعاصي والذنوب.

وتشمل هذه المجموعة كذلك الوفاء بالعهد بين الأفراد، لأنّ الله سبحانه وتعالى أوصى بها، بل تدخل ضمن الوفاء الشرعي والميثاق العقلي.

الصفة الثّانية من صفات أولي الألباب هي ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

لا نجد صيغةً أوسع من هذه في هذا المجال، فالإنسان له صلات وروابط كثيرة، صلته مع ربّه، ومع الأنبياء والقادة، وروابطه مع الأصدقاء والجيران والأقرباء ومع كلّ الناس، والآية تأمر أن تُحترم هذه الصلات، وتنهى عن أي عمل يؤدّي إلى قطع هذه الصلات والروابط.

والإنسان في الحقيقة ليس منزوياً أو منفكّاً من عالم الوجود، بل تحكم كلّ وجوده الصلات والروابط، ومن جملة هذه الصلات:

١ - صلته بالله سبحانه وتعالى، والتي إذا ما قطعها الإنسان تؤدّي إلى هلاكه كما في انطفاء نور المصباح في حالة قطع التيار الكهربائي عنه، وعلى هذا فإنّ هذه الصلة التكوينيّة بين الإنسان وربّه يجب أن تتبعها صلة بأوامره وأحكامه من حيث الطاعة والعبودية.

٢ - صلته بالأنبياء والأئمّة عليهم السلام على أساس أنّهم قادة للبشرية وقطعها يؤدّي بالإنسان إلى الضلال والانحراف.

٣ - صلته بالمجتمع كافّة وخصوصاً بذوي الحقوق عليه أمثال الأب والأُمّ والأقرباء.

٤ - صلته بنفسه، من حيث إنّه مأمور بحفظها وإصلاحها وتكاملها.

إنّ إقامة أي صلة من هذه الصلات، هي في الواقع مصداق للآية ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وقطعها قطع لما أمر الله به أن يوصل، لأنّ الله سبحانه وتعالى أمر بأن توصل ولا تقطع.

وبالإضافة إلى ما قلناه، فهناك أحاديث واردة بخصوص هذه الآية يتّضح منها أنّ المراد القرابة مرّة، ومرّة الإمامة أو آل الرّسول ﷺ، ومرّة أُخرى كلّ المؤمنين! فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية قال: «قرابتك» وعنه أيضاً عليه السلام قال: «نزلت في رحم آل محمّد وقد يكون في قرابتك» ومن الطريف أنّه عليه السلام يقول في نهاية الحديث: «فلا تكونن ممّن يقول للشيء أنّه في شيء واحد»(١) وهذه الجملة إشارة واضحة إلى المعاني الواسعة للقرآن الكريم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام في حديث ثالث يقول: «هو صلة الإمام في كلّ سنة (أي بالمال) بما قلّ أو أكثر، ثمّ قال: وما أُريد بذلك إلاّ تزكيتكم»(٢).

الصفتان الثّالثة والرّابعة من سيرة أُولي الألباب هي قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

لمعرفة الفرق بين «الخشية» و«الخوف» المتقاربان في المعنى يقول البعض: «الخشية» هي حالة الخوف مع احترام الطرف المقابل ومع العلم واليقين، ولذلك عدّها القرآن الكريم من خصوصيات العلماء حيث يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(٣).

ولكن بالنظر إلى استخدام القرآن الكريم لكلمة الخشية مرّات كثيرة يتّضح لنا أنّها تأتي بمعنى الخوف وتستعمل معها بشكل مترادف.

هنا يُطرح هذا السؤال: إذا كان الخوف من الخالق هو نفس الخوف من حسابه، فما هو الفرق بين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ و﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾؟

الجواب: إنّ الخوف من الله سبحانه وتعالى ليس ملزماً دائماً أن يكون خوفاً من حسابه وعقابه، بل إنّ العظمة الإلهيّة والإحساس بالعبوديّة له توجد حالة من الخوف في قلوب المؤمنين (بغضّ النظر عن الجزاء والعقاب)، والآية (٢٨) من سورة فاطر قد تشير إلى هذا المعنى.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٩٤، ح ٨٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٩٥، ح ٩٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

وهناك سؤال آخر يتعلّق بسوء الحساب، وهو: هل من الصحيح أنّ هناك ظلماً في محاسبة الأفراد؟

وقد تقدّم الجواب على هذا السؤال قبل عدّة آيات من هذه الآية وقلنا أنّ المراد هو التدقيق الشديد في الحساب من دون عفو أو تسامح وذكرنا أيضاً حديثاً في هذا الصدد.

الصّفة الخامسة من صفات أُولي الألباب الاستقامة في مقابل جميع المشاكل التي يواجهها الإنسان في مسيرة الطاعة وترك المعصية، وجهاد الأعداء ومحاربة الظلم والفساد[1]، والصبر في مرضاة الخالق، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لقد أشرنا مراراً إلى مفهوم الاستقامة التي هي المعنى الواسع للصبر.

أمّا معنى العبارة ﴿وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فقد تشير إلى أحد معنيين:

أوّلاً: كلمة الوجه في هذه الموارد تعني العظمة، كما نقول للرأي الصائب والمهمّ «هذا وجه الرأي» باعتبار أنّ الوجه يمثّل الشكل الظاهر والمهمّ للشيء، كما في وجه الإنسان الذي يعتبر أهمّ جزء من جسده، وفيه يقع السمع والبصر والنطق.

ثانياً: الوجه هنا بمعنى رضا الخالق، فهم يصبرون على المحن والمشاكل لجلب مرضاة الله، فاستعمال الوجه بهذا المعنى بسبب أنّ الإنسان عندما يريد أن يجلب رضا شخص يمعن النظر في وجهه (وعلى ذلك فهو يستعمل للكناية عن الشيء). وعلى أيّة حال فإنّ هذه الجملة تبيّن أنّ كلّ صبر وعمل خير تكون له قيمة عندما يصبح لوجه الله، وأيّ عمل آخر يقع تحت تأثير الرياء والغرور لا قيمة له مطلقاً.

يقول بعض المفسّرين: إنّ الإنسان يصبر مرّةً لكي يقول عنه الناس: إنّ هذا كثير الاستقامة، وأُخرى لخشيته أن يقولوا عنه إنّه قليل الصبر، أو يصبر حتى لا يشمت به الأعداء، أو يعلم أن لا فائدة من الجزع... كلّ هذه الأُمور والنيّات لا تدخل ضمن الكمال الإنساني إلاّ إذا كانت خالصة لوجه الله، فهو يصبر ويستقيم لأنّه يعلم أنّ أيّ فاجعة أو مصيبة لها حكمة ودليل، ولا يقول ما يسخط الربّ، فهذا الصبر هو المعني بقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾.

الصفة السّادسة من صفاتهم هي ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾. رغم أنّ إقامة الصلاة هي مصداق

(١) ليس الصبر على الطاعة والمعصية والمصيبة فقط بل الصبر على النعم كذلك حتى لا يصيب الإنسان الغرور.

للوفاء بعهد الله وكذلك المصداق البارز لحفظ ما أمر الله به أن يوصل، ومصداق للصبر والاستقامة، ولكن هناك بعض مصاديق تلك المفاهيم الكلّية أكثر أهميّة في مصير الإنسان، فهذه الجملة والجمل التي ما بعدها تشير إلى ذلك.

أي شيء أهمّ من هذا؟! إنّ الإنسان يجدّد عهده وصلته بالله سبحانه وتعالى صباحاً ومساءً، ويتفكّر بعظمة الخالق ويدعوه، ويُطهّر نفسه من الذنوب، ويرتبط بالحقّ المطلق، نعم... فإنّ الصلاة لها كلّ هذه الآثار والبركات.

ثمّ يبيّن الصفة السّابعة لدعاة الحقّ حيث يقول تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

وهذه الآية ليست الوحيدة التي تشير إلى مسألة الإنفاق أو الزكاة بعد ذكر الصلاة، فكثير من الآيات تشير إلى هذا الترادف، فواحدة تُحكم الصلة بين العبد وربّه والثّانية بين العباد.

والجملة ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ تشمل كلّ العطايا من الأموال والعلوم والقوّة والجاه، والإنفاق كذلك يشمل جميع هذه الأبعاد. والعبارة ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارة أُخرى إلى هذه الحقيقة وهي أنّ إنفاقهم يتمّ بشكل مدروس، فتارةً يكون سرّاً ويترتّب عليه أثر كبير، وذلك في الحالات التي توجب أن يحفظ فيها ماء الوجه للطرف الآخر أو تصون الطرف المنفق من الرياء، ومرّةً يكون الإنفاق العلني أكثر تأثيراً وذلك في الحالات التي تدعو الآخرين لكي يتأسّوا بهذا العمل الخيّر ويقتدوا به، فيكون سبباً لكثير من أعمال الخير.

ومن هنا يتّضح أنّ القرآن الكريم يدّقق في أعمال الخير بشكل كبير، ليس فقط في أصل العمل، بل حتى في كيفيّة تنفيذه.

الصفة الثّامنة والأخيرة هي قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

ومعنى هذه العبارة أنّهم لم يكتفوا بالتوبة والاستغفار فقط عند ارتكابهم الذنوب، بل يدفعونها كذلك بالحسنات على مقدار تلك الذنوب، حتى يطهّروا أنفسهم والمجتمع بماء الحسنات.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ مضارع «درأ» على وزن «زرع» بمعنى دفع.

ويحتمل في تفسير الآية أنّهم لا يقابلون السيّئ بالسيّئ، بل يسعون من خلال إحسانهم للمسيئين أن يجعلوهم يعيدون النظر في مواقفهم، كما نقرأ في الآية (٣٤) من سورة فصلت قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

وفي نفس الوقت ليس هناك مانع من أنّ الآية تشير إلى هذين المعنيين، كما أشارت إليها الأحاديث الإسلامية، ففي الحديث عن الرّسول ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «إذا عملت سيّئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «عاتب أخاك بالإحسان إليه واردُد شرّه بالإنعام عليه»[٢].

ولابدّ هنا من الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ هذه الأحكام أخلاقية تخصّ الحالات التي يحصل فيها تأثير على الآخرين، وهناك قوانين وأحكام جزائية واردة في التشريع الإسلامي لمعاقبة المسيئين.

وبعد ما ذكر القرآن الكريم الصفات الثماني لأُولي الألباب، أشار في نهاية الآية إلى عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٣].

الآية الأُخرى توضّح هذه العاقبة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

والشيء الذي يكمل هذه النعم الكبيرة واللامتناهية ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ فهذه السلامة جاءت بعد ما صبرتم على الشدائد وتحمّلتم المسؤوليات الجسام والمصائب، ولكم هنا كامل الطمأنينة والأمان، فلا حرب ولا نزاع، وكلّ شيء يبتسم لكم، والراحة الخالية من المتاعب - هنا - معدّة لكم.

بحوث

١ - لماذا ذكر الصبر فقط؟

جملة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ تشير إلى مسألة الصبر فقط، في الوقت الذي نرى فيه الآيات السابقة أشارت إلى ثماني صفات لأُولي الألباب، فما هو السرّ في ذلك؟

للإجابة على هذا الاستفهام نورد ما جاء عن الإمام علي عليه السلام في حديث قيّم وذي

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٨٩، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) الكلمات القصار في نهج البلاغة، الكلمة ١٥٨.

(٣) «العقبى» بمعنى العاقبة أو نهاية العمل خيراً كان أو شرّاً، ولكن بالنظر إلى قرينة الحال في الآية أعلاه تشير إلى العاقبة الحسنة.

مغزى كبير، حيث قال: «إنّ الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه»(١).

في الحقيقة إنّ كلّ الأفعال الحيّة والصفات الحميدة للأفراد والمجتمعات تستند إلى الصبر والاستقامة، وبدونها لا يمكن أن نحصل على أي شيء من هذه الصفات، لأنّ في مسيرة عمل الخير عقبات وموانع لا يمكن أن ننتصر عليها إلاّ بالاستقامة، فلا الوفاء بالعهد يمكن تنفيذه بدون الصبر والاستقامة ولا الصلات الإلهيّة، ولا الخوف من الله، ولا إقامة الصلاة ولا الإنفاق يمكن بلوغها بغير الصبر والاستقامة.

٢ - أبواب الجنّة

يستفاد من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أنّ للجنّة عدّة أبواب، ولكن هذا التعدّد للأبواب ليس لكثرة الداخلين إلى الجنّة فيضيق عليهم الباب الواحد، وليس كذلك للتفاوت الطبقي حتى تدخل كلّ مجموعة من باب، ولا لبعد المسافة أو قربها، ولا لجمال الأبواب وكثرتها، فأبواب الجنّة ليست كأبواب القصور والبساتين في الدنيا، بل تعدّدت هذه الأبواب بسبب الأعمال المختلفة للأفراد، ولذا نقرأ في بعض الأخبار أنّ للأبواب أسماء مختلفة، فهناك باب يسمّى باب المجاهدين، والمجاهدون يدخلون بسلاحهم من ذلك الباب إلى الجنّة، والملائكة تحييهم!(٢).

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب، عرض كلّ باب مسيرة أربعين سنة»(٣).

ومن الظريف أنّ القرآن الكريم يذكر لجهنّم سبعة أبواب ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾(٤) وطبقاً للرّوايات فإنّ للجنّة ثمانية أبواب، وهذه إشارة واضحة إلى أنّ طرق الوصول إلى السعادة وجنّة الخلد أكثر من طرق الوصول إلى الشقاء والجحيم، ورحمة الله سبقت غضبه «يامن سبقت رحمته غضبه»(٥).

ومن ألطف ما في الأمر أنّ الآيات السابقة أشارت إلى ثمان صفات من صفات أُولي

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٨٢.
(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٩٩٥.
(٣) الخصال للصدوق، ص ٤٧٣؛ الأبواب الثمانية، ح ٧.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٤.
(٥) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٣٩؛ البلد الأمين، ص ٤٠٤، دعاء الجوشن الكبير.

الألباب، وكلّ واحدة منها - في الواقع - هي باب من أبواب الجنّة وطريق للوصول إلى السعادة الأبدية.

٣ - يلحق بأهل الجنّة أقرباؤهم

الآية أعلاه وآيات أُخرى من القرآن الكريم تصرّح أنّ من بين أهل الجنّة آباؤهم وأزواجهم وأبناؤهم الصالحون، وهذا إنّما هو لإتمام النعمة عليهم، وكي لا يشعروا بفراق أحبّائهم، وبما أنّ تلك الدار متكاملة وكلّ شيء يتجدّد فيها، فإنّ أصحابها يدخلون فيها بوجوه جديدة وأكثر محبّة وألفة، المحبّة التي تضاعف من نعم الجنّة لهم.

لا شكّ أنّ الآية أعلاه أشارت إلى الآباء والأزواج والأبناء، ولكن في الواقع كلّ الأقرباء سيجتمعون هناك، لأنّه من غير الممكن وجود الأبناء والآباء بدون إخوانهم وأخواتهم... وحتى جميع أقربائهم، فالأب الصالح يلحق به أبناؤه وإخوته، وعلى هذا الأساس يكون حضور الأقرباء معهم بشكل طبيعي.

٤ - ما هي جنّات عدن؟

«العدن» الاستقرار، وهنا جاءت الكلمة بمعنى الخلود، ومنه المعدن لمستقرّ العناصر الفلزية. ويستفاد من مختلف آيات القرآن أنّ الجنّة دار خلود لأهلها، ولكن - كما قلنا في ذيل الآية (٧٢) من سورة التوبة - جنّات عدن هي محلّ خاص في الجنّة، ولها صفات ومنازل عالية، ولا يدخلها إلاّ ثلاثة: الأنبياء والصدّيقون والشهداء[1].

٥ - التطهير من آثار الذنوب

ممّا لا شكّ فيه أنّ الحسنات والسيئات لها أثر متقابل في النفس ونحن نرى في حياتنا اليوميّة كثيراً من النماذج بخصوص هذا الموضوع، فمرّةً يتحمّل الإنسان مشاق سنين كثيرة ويسعى للحصول على الثروة، ولكن يفقدها بعمل بسيط ناتج عن اللامبالاة، أو ليس هذا إحباطاً للحسنات المادية؟! ومرّةً أُخرى على العكس حيث يرتكب الإنسان كثيراً من الأخطاء في حياته ويتحمّل الخسارة الكبيرة، ولكن يسترجعها من خلال عمل شجاع ومحسوب.

والآية ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ إشارة إلى هذا الموضوع، لأنّ الإنسان غير

---

(١) للتوضيح أكثر راجع ما ذُكر ذيل الآية (٧٢) من سورة التوبة.

معصوم، وهو معرّض للخطأ والمعصية، فعليه أن يفكّر بإصلاح ما فسد، فأعمال الخير لا تمحو الآثار الاجتماعية للذنوب، بل كذلك تمحو من قلبه الظلمة وتعيده إلى النّور والصفاء الفطري.

وهذه الحالة تسمّى في القرآن الكريم بـ «التكفير» (كما تقدّم في ذيل الآية ٢١٧ من تفسير سورة البقرة إشارات كثيرة في هذا المجال).

ولكن كما قلنا - في تفسير الآية أعلاه - يمكن أن تكون إشارة إلى الفضيلة الأخلاقية لأُولي الألباب، وذلك أنّهم لا يواجهون السيّئة بالسيّئة، بل العكس يقابلون الانتقام بالإحسان والسيّئة بالحسنة.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

المفسدون في الأرض

بعد ما ذكرت الآيات السابقة صفات أُولي الألباب ودعاة الحقّ، أشارت هذه الآيات إلى قسم من الصفات الأصليّة للمفسدين الذين فقدوا حظّهم من العلم والمعرفة حيث يقول جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾.

في الحقيقة يتلخّص فساد عقيدتهم في الجمل الثلاث الآتية:

١ - نقض العهود الإلهيّة: وتشمل المواثيق الفطرية والعقليّة والتشريعيّة.

٢ - قطع الصلات: وتشمل الصلة مع الله والرسل والناس ومع أنفسهم.

٣ - الإفساد في الأرض: وهو نتيجة حتمية لنقض العهود وقطع الصلات.

أو ليس المفسد هو الذي ينقض عهد الله ويقطع الصلات؟!

فهذا السعي من قبل هذه المجموعة من الأفراد بهدف الوصول إلى الأغراض

المادّية، وعوضاً من أن تصل بهم هذه الجهود المبذولة إلى الأهداف النّبيلة تُبعدهم عنها، لأنّ اللعن هو عبارة عن الابتعاد من رحمة الله(١).

ومن الظريف أنّ الدار هنا وفي الآية السابقة جاءت بصيغة مطلقة، وهذه إشارة إلى أنّ الدار الحقيقيّة هي الدار الآخرة، وأي دار ما عداها فانية وزائلة.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ وهذه إشارة لأُولئك الذين يسعون للحصول على دخل أكثر فهم يفسدون في الأرض وينقضون عهد الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل لكي يزيدوا من دخلهم المادّي، وهم غافلون عن هذه الحقيقة وهي أنّ الرزق - في زيادته ونقصه - بيد الله سبحانه وتعالى.

وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن تكون هذه الجملة جواباً على سؤال مقدّر، وهو: كيف أنّ الله سبحانه وتعالى يرزق كلّ هؤلاء الناس الصالح منهم والطالح من فيض كرمه؟!

والآية تجيب على هذا السؤال وتقول: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ومع ذلك فهو متاع قليل وزائل، وما ينبغي السعي إليه هو الآخرة والسعادة الأبديّة.

وعلى أيّة حال فإنّ المشيئة الإلهيّة في مجال الرزق هي أنّ الله سبحانه وتعالى لا يبسط الرزق لأحد بدون الاستفادة من الأسباب الطبيعيّة له «أبى الله أن يجري الأُمور إلاّ بأسبابها».

ثمّ تضيف الآية ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾.

وقد ذكر ﴿مَتَٰعٞ﴾ بصيغة النكرة لبيان تفاهة الدنيا بالمقارنة مع الآخرة.

بحثان

١ - من هو المفسد في الأرض؟

الفساد يقابله الإصلاح، ويطلق على كلّ عمل تخريبي، ويقول الراغب في مفرداته: «الفساد خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان أو كثيراً، ويضادّه الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة» وعلى ذلك فكلّ عمل فيه نقص، وكلّ إفراط وتفريط في المسائل الفردية والاجتماعية هو مصداق للفساد!

---

(١) يقول الراغب في مفرداته: «اللعن» بمعنى الطرد مع الغضب، واللعن في الآخرة يشير إلى العقوبة وفي الدنيا الابتعاد من رحمة الله، وإذا كان من قبل الناس فمعناه دعاء السوء.

وفي كثير من موارد القرآن الكريم ذكر الفساد في مقابل الإصلاح ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٣).

كما ذكر الإيمان والعمل الصالح في مقابل الفساد، حيث يقول جلّ وعلا: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٤).

ومن جانب آخر ذكر الفساد، مع كلمة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في كثير من آيات القرآن الكريم نحو عشرين آية ونيّف، وهي توضّح الجوانب الاجتماعية للمسألة.

ومن جانب ثالث ذكر الفساد والإفساد مع ذنوب أُخرى، ويحتمل أن يكون مصداقاً لها، وبعض هذه الذنوب كبيرة وبعضها الآخر أصغر فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾(٨).

ومرّةً يعتبر فرعون من المفسدين، وأثناء توبته عند غرقه في النيل يقول: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٩).

وقد استعمل «الفساد في الأرض» تعبيراً عن السرقة كما في قصّة يوسف عليه السلام: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾(١٠).

ومرّة أُخرى كناية عن قلّة البيع، كما في قصّة شعيب حيث نقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(١١).

وأخيراً استخدم القرآن الكريم الفساد في التعبير عن اضطراب النظام الكوني ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١٢).

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.
(٤) سورة ص، الآية: ٢٨.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٣٣.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٧.
(٨) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٩) سورة يونس، الآية: ٩١.
(١٠) سورة يوسف، الآية: ٧٣.
(١١) سورة هود، الآية: ٨٥.
(١٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

نستفيد من مجموع هذه الآيات أنّ الفساد - بشكل عامّ - أو الفساد في الأرض، له معنىً واسع جدّاً، بحيث يشمل أكبر الجرائم مثل جرائم فرعون وسائر الطواغيت، كما يشمل الأعمال الأقل إجراماً منها مثل بخس الناس أشياءهم، ويشمل كذلك أي خروج عن حالة الاعتدال كما أشرنا إليه سابقاً، وبالنظر إلى أنّ العقوبة يجب أن تكون مطابقة للجريمة يتّضح لنا أنّ كلّ مجموعة من هؤلاء المفسدين لها عقوبة معيّنة وجزاء خاص.

ونرى في الآية (٣٣) من سورة المائدة التي ذكرت «الفساد في الأرض مع محاربة الله ورسوله» أنّ هناك أربع عقوبات، ويجب على الحاكم الشرعي أن يختار العقوبة المناسبة على مقدار الجريمة (القتل - الصلب - قطع الأيدي والأرجل - النفي) كما بيّن فقهاؤنا في كتبهم شروط وحدود المفسد في الأرض وعقوباته(١).

ولأجل أن نجتثّ هذه المفاسد، يجب أن نستخدم الوسائل الكافية في كلّ مرحلة من مراحلها، ففي المرحلة الأولى نستخدم أُسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن طريق النصائح والتذكير، ولكن إذا ما استوجب الأمر نستعمل الشدّة حتى لو أدّى ذلك إلى القتال.

وبالإضافة إلى ما أشرنا إليه، فإنّ الجملة ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ترشدنا إلى هذه الحقيقة في حياة المجتمع الإنساني، وهي أنّ الفساد الاجتماعي لا يبقى في مكان معيّن ولا يمكن حصره في منطقة معيّنة، بل ينتشر بين أوساط المجتمع وفي كافّة بقاع الأرض ويسري من مجموعة إلى أخرى.

ويستفاد من الآيات القرآنية أنّ واحدةً من أهداف بعثة الأنبياء هو إنهاء حالة الفساد في الأرض (في معناه الواسع) كما نقرأ في سورة هود الآية (٨٨) قول النّبي شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

٢ - الرزق بيد الله سبحانه وتعالى ولكن...!

لا نستفيد من الآية أعلاه فقط أنّ الرزق في زيادته ونقصانه بيد الله، بل نستفيد من آيات أُخر أنّ الله سبحانه وتعالى يبسط الرزق لمن يشاء وينقصه لمن يشاء، ولكن ليس كما يعتقده بعض الجهلاء من عدم الكسب والجلوس في زاوية البيت حتى يبعث الله لهم

(١) ونحن أشرنا إليه بشكل مفصّل في ذيل الآية (٣٣) من سورة المائدة.

الرزق، إن هؤلاء الأفراد - الذين يُعتبر تفكيرهم السلبي ذريعة لمن يقول بأنّ الدين أفيون الشعوب - قد غفلوا عن نقطتين أساسيتين هما:

أوّلاً: إنّ الإرادة والمشيئة الإلهيّة التي أشارت إليها الآيات القرآنية ليست مسألة اعتباطية وغير محسوبة، بل - وكما قلنا سابقاً - إنّ المشيئة الإلهيّة غير منفصلة عن حكمته جلّ وعلا وتدخل فيها الاستعدادات والتوفيقات.

ثانياً: إنّ هذه المسألة لا تعني نفي الأسباب، لأنّ عالم الأسباب هو عالم الوجود، وهذه العوالم وجدت بإرادة الله وهي غير منفصلة عن المشيئة التشريعيّة.

وبعبارة أُخرى: إنّ إرادة الله في مجال بسط الرزق ونقصه مشروطة بشرائط تتحكّم في حياة الناس، فالسعي والإخلاص والإيثار، وبعكس ذلك الكسل والبخل وسوء النيّة، لها دور فعّال وكبير، ولهذا السبب نرى القرآن الكريم يشير مراراً إلى أنّ الإنسان رهين بسعيه وإرادته وعمله، وما يستفيده من حياته إنّما هو بمقدار هذا السعي والاجتهاد ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

ولهذا فإنّ هناك باباً في السعي لتحصيل الرزق يذكره المحدّثون في موسوعاتهم الحديثة «كوسائل الشيعة» في باب التجارة، ويوردون أحاديث كثيرة في هذا المجال، كما أنّ هناك أبواباً أُخرى تذمّ البطالة والكسل، ومن جملتها الحديث المرويّ عن الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «إنّ الأشياء لمّا ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتجا بينهما الفقر»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تكسلوا في طلب معايشكم فإنّ آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّي لأبغض الرجل أن يكون كسلان عن أمر دنياه، ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل»[4].

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إنّ الله تعالى ليبغض العبد النوّام، إنّ الله ليبغض العبد الفارغ»[5].

---

(١) سورة النّجم، الآية: ٣٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٨؛ وأصول الكافي، ج ٥، ص ٨٦، ح ٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٧ و٣٨. المصدر السابق، ح ٢١٩٧٢.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾

التّفسير

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

في سورة الرعد - كما أشرنا سابقاً - بحوث كثيرة حول التوحيد والمعاد والنبوّة، فالآية الأُولى من هذه المجموعة تبحث مرّةً أُخرى في دعوة الرّسول ﷺ وتبيّن واحداً من أعذار المشركين المعاندين حيث يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾.

جملة: ﴿وَيَقُولُ﴾ فعل مضارع، للدلالة على أنّ هذا العذر كان يجري على ألسنتهم كثيراً، رغم ما يرونه من معجزات الرّسول (فعلى كلّ نبي أن يظهر المعجزة كدليل على صدقه) ومع ذلك كانوا يحتجّون عليه ولا يؤمنون بالمعاجز السابقة، ويطلبون منه معاجز جديدة تلائم أفكارهم.

وبعبارة أُخرى إنّ هؤلاء وجميع المنكرين لدعوة الحقّ كانوا دائماً يطلبون «المعاجز الاقتراحية»، ويتوقّعون من النّبي أن يجلس في زاوية الدار ويُظهر لكلّ واحد منهم المعجزة التي يقترحها، فإن لم تعجبهم لم يؤمنوا بها!.

في الوقت الذي نرى فيه أنّ الوظيفة الرئيسيّة للأنبياء هي التبليغ والإرشاد والإنذار وهداية الناس، وأمّا المعجزة فهي أمرٌ استثنائي وتكون بأمر من الله لا من الرّسول، ولكن نحن نقرأ في كثير من الآيات القرآنية أنّ هذه المجموعة المعاندة لا تأخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار، وكانت تؤذي الأنبياء دائماً بهذه الطلبات. ويجيبهم القرآن الكريم حيث يقول: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

وهذه إشارة إلى أنّ العيب ليس من ناحية الإعجاز، لأنّ الأنبياء قد أظهروا كثيراً من المعاجز، ولكن النقص من داخل أنفسهم. وهو العناد والتعصّب والجهل والذنوب التي تصدّ عن الإيمان.

ولأجل ذلك يجب أن ترجعوا إلى الله وتنيبوا إليه وترفعوا عن عيونكم وأفكاركم ستار الجهل والغرور كي يتّضح لكم نور الحقّ المبين.

تُشير الآية الثانية بشكل رائع إلى تفسير ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ حيث يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾. ثمّ يذكر القاعدة العامّة والأصل الثابت حيث يقول تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

وتبحث الآية الأخيرة مصير الذين آمنوا حيث تقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

كثير من المفسّرين قالوا: إنّ كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾ مؤنّث «أطيب»، وبما أنّ المتعلّق محذوف فإنّ للكلمة مفهوماً واسعاً وغير محدود، ونتيجة طوبى لهم هو أن تكون لهم أفضل الأشياء: أفضل الحياة والمعيشة، وأفضل النعم والراحة، وأفضل الألطاف الإلهيّة، وكلّ ذلك نتيجة الإيمان والعمل الصالح لأُولئك الراسخين في عقيدتهم والمخلصين في عملهم.

وما ذكره جمع من المفسّرين في معنى هذه الكلمة وأوصلها صاحب مجمع البيان إلى عشرة معانٍ، فانّها في الحقيقة تصبّ كلّها في هذا المعنى الواسع والشامل الذي ذكرناه.

ونقرأ في روايات متعدّدة أنّ ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرة أصلها في بيت النّبي ﷺ أو الإمام علي عليه السلام في الجنّة، وتنتشر أغصانها على رؤوس جميع المؤمنين وعلى دورهم، ولعلّ هذا تجسيماً لقيادتهم وإمامتهم والصلات القويّة التي تربط بين هولاء القادة وأصحابهم، وتكون ثمرتها كلّ هذه النعم المختلفة.

(وإذا ما رأينا أنّ طوبى جاءت مؤنثة لأطيب الذي هو مذكّر فإنّ ذلك بسبب أنّها صفة للحياة والمعيشة أو النعمة وكلّ هذه مؤنثة).

بحوث

١ - كيف يطمئن القلب بذكر الله؟

إنّ الاضطراب والقلق من أكبر المصاعب في حياة الناس، والنتائج الحاصلة منهما في حياة الفرد والمجتمع واضحة للعيان، والاطمئنان واحد من أهمّ اهتمامات البشر، وإذا حاولنا أن نجمع سعي وجهاد الإنسانية على طول التاريخ في بحثهم للحصول على

الاطمئنان بالطرق الصحيحة وغير الصحيحة، فسوف تتكوّن لدينا كتب كثيرة ومختلفة تعرض تلك الجهود.

يقول بعض العلماء: عند ظهور بعض الأمراض المُعدية - كالطاعون - فإنّ من بين عشرة أفراد يموتون بسبب المرض - ظاهراً - أكثرهم يموت بسبب القلق والخوف، وعدّة قليلة منهم تموت بسبب المرض حقيقة، وبشكل عام «الاطمئنان» و«الاضطراب» لهما دور مهمّ في سلامة ومرض الفرد والمجتمع وسعادة وشقاء الإنسانية، وهذه مسألة لا يمكن التغافل عنها، ولهذا السبب أُلّفت كتب كثيرة في موضوع القلق وطرق التخلّص منه، وكيفيّة الحصول على الراحة، والتاريخ الإنساني مليء بالمواقف المؤسفة لتحصيل الراحة، وكيف أنّ الإنسان يتشبّث بكلّ وسيلة غير مشروعة كأنواع الاعتياد على المواد المخدّرة لنيل الاطمئنان النفسي.

ولكن القرآن الكريم يبيّن أقصر الطرق من خلال جملة قصيرة ولكنّها كبيرة المعنى حيث يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾!

ولتوضيح هذا المعنى ومعرفة عوامل القلق والاضطراب لابدّ من ملاحظة ما يلي:

أوّلاً: يحدث الاضطراب مرّةً بسبب ما يجول في فكر الإنسان عن المستقبل المظلم، فيحتمل زوال النعمة، أو الأسر على يد الأعداء، أو الضعف والمرض، فكلّ هذه تؤلم الإنسان، لكن الإيمان بالله القادر المتعال الرحمن الرحيم، الله الذي تكفّل برحمة عباده هذا الإيمان يستطيع أن يمحو آثار القلق والاضطراب ويمنحه الاطمئنان في مقابل هذه الأحداث ويؤكّد له أنّك لست وحيداً، بل لك ربّ قادر رحيم.

ثانياً: ومرّةً يشغل فكر الإنسان ماضيه الأسود فيمسي قلقاً بسبب الذنوب التي ارتكبها وبسبب التقصير والزلاّت، ولكن بالنظر إلى أنّ الله غفّار الذنوب وقابل التوبة وغفور رحيم، فإنّ هذه الصفات تمنح الإنسان الثقة وتجعله أكثر اطمئناناً وتقول له: اعتذر إلى الله من سوالف أعمالك السيّئة واتّجه إليه بالنيّة الصادقة.

ثالثاً: ضعف الإنسان في مقابل العوامل الطبيعيّة، أو مقابل كثرة الأعداء يؤكّد في نفسه حالة القلق وأنّه كيف يمكن مواجهة هؤلاء القوم في ساحة الجهاد أو في الميادين الأُخرى؟

ولكنّه إذا تذكّر الله، واستند إلى قدرته ورحمته... هذه القدرة المطلقة التي لا يمكن

أن تقف أمامها أيّة قدرة أُخرى، سوف يطمئنّ قلبه، ويقول في نفسه: نعم إنّني لست وحيداً، بل في ظلّ القدرة الإلهيّة المطلقة!

فالمواقف البطولية للمجاهدين في ساحات القتال، في الماضي أو الحاضر، وشجاعتهم النادرة حتى في المنازلة الفردية لهم، كلّها تبيّن حالة الاطمئنان التي تنشأ في ظلّ الإيمان.

نحن نشاهد أو نسمع أنّ أحد الضبّاط المؤمنين فقد بصره مثلاً أو أصابته جراحات كثيرة بعد قتال شديد مع أعداء الإسلام ولكن عندما يتحدّث كأنّه لم يكن به شيء، وهذه نتيجة الاستقرار والطمأنينة في ظلّ الإيمان بالله.

رابعاً: ومن جانب آخر يمكن أن يكون أصل المشقّة هي التي تؤذي الإنسان، كالإحساس بتفاهة الحياة أو اللاهدفية في الحياة، ولكن المؤمن بالله الذي يعتقد أنّ الهدف من الحياة هو السير نحو التكامل المعنوي والمادّي، ويرى أنّ كلّ الحوادث تصبّ في هذا الإطار، سوف لا يحسّ باللاهدفيّة ولا يضطرب في المسيرة.

خامساً: ومن العوامل الأُخرى أنّ الإنسان مرّةً يتحمّل كثيراً من المتاعب للوصول إلى الهدف، ولكن لا يرى من يُقيّم أعماله ويشكر له هذا السعي، وهذه العملية تؤلمه كثيراً فيعيش حالة من الاضطراب والقلق، وأمّا إذا علم أنّ هناك من يعلم بهذا السعي ويشكره عليه ويثيبه، فليس للاضطراب والقلق هنا محل من الإعراب.

سادساً: سوء الظنّ عامل آخر من عوامل الاضطراب والذي يصيب كثيراً من الناس في حياتهم ويبعث فيهم الألم والهمّ، ولكنّ الإيمان بالله ولُطفه المطلق وحُسن الظنّ به التي هي من وظائف الفرد المؤمن سوف تزيل عنه حالة العذاب والقلق وتحلّ محلّها حالة الاطمئنان والاستقرار.

سابعاً: الهوى وحبّ الدنيا من أهمّ عوامل القلق والاضطراب، وقد تصل الحالة في عدم الحصول على لون خاص في الملبس، أو أي شيء آخر من مظاهر الحياة البرّاقة أن يعيش الإنسان حالة من القلق قد تستمر أيّاماً وشهوراً.

ولكن الإيمان بالله والتزام المؤمن بالزهد والاقتصاد وعدم الاستئسار في مخالب الحياة المادية ومظاهرها البرّاقة ينهي حالة الاضطراب هذه، وكما قال الإمام علي عليه السلام: «دُنياكم هذه أهون عندي من ورقة في فمّ جرادة تقضمها»[1] فمن كانت له

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

مثل هذه الرؤية كيف يمكن أن تحدث عنده حالة الخوف والقلق نتيجة لعدم الحصول على شيء من وسائل الحياة الماديّة أو فقدانها؟!

ثامناً: من العوامل المهمّة الأُخرى الخوف من الموت، وبما أنّ الموت لا يحصل فقط في السنّ المتأخرة، بل في كافّة السنين وخصوصاً أثناء المرض والحروب، والعوامل الأُخرى فالقلق يستوعب كافّة الأفراد، ولكن إذا اعتقدنا أنّ الموت يعني الفناء ونهاية كلّ شيء (كما يعتقده الماديّون) فإنّ الاضطراب والقلق في محلّه، ولابدّ أن يخاف الإنسان من هذا الموت الذي يُنهي كلّ الآمال والأماني والطموحات. ولكن الإيمان بالله يمنحنا الثقة بأنّ الموت هو باب لحياة أوسع وأفضل من هذه الحياة، وبرزخ يمرّ منه الإنسان إلى دارٍ فضاؤها رحب، فلا معنى للقلق حينئذ، بل إنّ مثل هذا الموت إذا ما كان في سبيل الله يكون محبوباً ومطلوباً.

إنّ عوامل الاضطراب لا تنحصر بهذه العوامل، فهناك عوامل كثيرة أُخرى، ولكن كلّ مصادرها تعود إلى ما ذكرناه أعلاه.

وعندما رأينا أنّ كلّ هذه العوامل تذوب وتضمحلّ في مقابل الإيمان بالله سوف نصدّق أنه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

٢ - الطمأنينة والخوف من الله

طرح بعض المفسّرين هنا هذا السؤال، وخلاصته: نحن قرأنا في الآية أعلاه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ومن جانب آخر فإنّ الآية (٢) من سورة الأنفال تقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهل إنّ هاتين الآيتين متناقضتان؟

الجواب: إنّ الطمأنينة المحمودة هي ما كانت في مقابل العوامل المادية التي تقلق الإنسان - كما أشرنا إليه سابقاً - ولكن المؤمنين لابدّ وأن يكونوا قلقين في مقابل مسؤولياتهم، وبعبارة أُخرى: إنّ المؤمنين لا يشكون من الاضطراب المدمّر الذي يشكّل غالبية أشكال القلق والاضطرابات، ولكن القلق البنّاء الذي يحسّ به الإنسان تجاه مسؤولياته أمام الله فهو المطلوب ولابدّ منه، وهذا هو الخوف من الله[2].

---

(١) للاستفادة أكثر راجع كتاب (طرق التغلّب على الاضطراب والقلق).

(٢) وقد أشرنا إلى هذه المسألة في تفسير الأمثل ذيل الآية (٣) من سورة الأنفال.

٣ - ما هو ذكر الله، وكيف يتمّ؟

«الذكر» كما يقول الراغب في مفرداته: حفظ المعاني والعلوم، ويُستعمل الحفظ للبدء به، بينما الذكر للاستمرار فيه، ويأتي في معنى آخر هو ذكر الشيء باللسان أو القلب، لذلك قالوا: إنّ الذكر نوعين «ذكر القلب» و«ذكر اللسان» وكلّ واحد منها على نوعين: بعد النسيان أو بدونه.

وعلى أيّة حال ليس المقصود من الذكر - في الآية أعلاه - هو ذكره باللسان فقط فنقوم بتسبيحه وتهليله وتكبيره، بل المقصود هو التوجّه القلبي له وإدراك علمه وبأنّه الحاضر والناظر، وهذا التوجّه هو مبدأ الحركة والعمل والجهاد والسعي نحو الخير، وهو سدّ منيع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذي له كلّ هذه الآثار والبركات كما أشارت إليه عدّة من الرّوايات.

فمن وصايا النّبي ﷺ للإمام علي عليه السلام يقول له: «ياعلي، ثلاث لا تطيقها هذه الأُمّة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كلّ حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عزّوجلّ عنده وتركه»(١).

وقال الإمام علي عليه السلام: «الذكر ذكران: ذكر الله عزّوجلّ عند المصيبة، وأفضل من ذلك ذكر الله عندما حرّم الله عليك فيكون حاجزاً»(٢).

ولهذا السبب اعتبرت بعض الرّوايات الذكر وقاية ووسيلة دفاعية، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ النّبي ﷺ خاطب أصحابه يوماً فقال لهم: اتّخذوا جُنناً، فقالوا يارسول الله أمن عدوّ وقد أضلنا؟ قال: لا، ولكن من النار، قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر»(٣).

وإذا ما رأينا أنّ بعض الرّوايات تتحدّث عن «ذكر الله» أنّه رسول الله ﷺ فذلك لأنّه ﷺ يذكّر الناس بالله تعالى، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ قال: «بمحمّد تطمئن القلوب وهو ذكر الله وحجابه»(٤).

(١-٣) سفينة البحار، ج ١، ص ٤٨٤.

(٤) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٩١.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

أسباب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ الآية الأُولى نزلت في صلح الحديبيّة في السنة السادسة للهجرة، وذلك عندما أرادوا كتابة معاهدة الصلح، قال النّبي ﷺ لعلي عليه السلام: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم...» قال سهيل بن عمرو ومعه المشركون: نحن لا نعرف الرحمٰن! وإنّما هناك رحمٰن واحد في اليمامة «وكان قصدهم مسيلمة الكذّاب» بل اكتب «باسمك اللّهم» كما كانوا يكتبونه في الجاهلية، ثمّ قال النّبي ﷺ لعلي عليه السلام: «اكتب: هذا ما اتّفق عليه محمّد رسول الله...» فقال المشركون: إذا كنت رسول الله فإنّه لظلمٌ كبير أن نقاتلك ونمنعك من الحجّ، ولكن اكتب: هذا ما اتّفق عليه محمّد بن عبد الله!...

وفي هذه الأثناء غضب صحابة الرّسول ﷺ وقالوا: دعنا نقاتل هؤلاء المشركين، ولكنّ رسول الله ﷺ قال: «لا، اكتب كما يشاؤون» وفي هذه الأثناء نزلت الآية أعلاه، وهي توبّخ المشركين على عنادهم ومخالفتهم في اسم الرحمن الذي هو واحد من صفات الله جلّ وعلا.

هذا السبب في النّزول يمكن أن يكون صحيحاً في حالة اعتقادنا بأنّ السورة مدنيّة حتى توافق حادثة صلح الحديبيّة، ولكنّ المشهور أنّها مكّية. إلاّ إذا اعتبرنا أنّ سبب النّزول هو ردّ على المشركين كما في الآية (٦٠) من سورة الفرقان ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

وعلى أيّة حال، وبغضّ النظر عن سبب النّزول، فإنّ الآية لها مفهوم واضح سوف نتطرّق إليه في تفسيرنا لها.

وقال بعض المفسّرين في سبب نزول الآية الثّانية: إنّها جواب لمجموعة من مشركي مكّة، حيث كانوا جالسين خلف الكعبة وطلبوا النّبي ﷺ، فجاءهم ﷺ: «على أمل هدايتهم» قالوا: إذا كُنت تحبّ أن نكون من أصحابك فأبعد هذه الجبال قليلاً إلى الوراء حتى تتّسع لنا الأرض! وشقّ الأرض لكي تتفجّر العيون والأنهار حتى نغرس الأشجار ونقوم بالزراعة! ألم تعتقد بأنّك لا تقلّ عن داود الذي سخّر الله له الجبال تسبح معه؟ أو أن تسخّر لنا الريح حتى نسافر عليها إلى الشام ونحلّ مشاكلنا التجارية وما نحتاج إليه ثمّ نعود في نفس ذلك اليوم! كما كانت مسخّرة لسليمان عليه السلام، ألم تعتقد أنّك لا تقلّ عن سليمان، أو أحيي لنا جدّك «قُصي» أو أي واحد من موتانا كي نسأله هل أنّ ما تقوله حقّ أم باطل، أو ليس عيسى كان يحيي الموتى!

وفي هذه الأثناء نزلت الآية الثانية تذكرهم بأنّ كلّ ما يقولونه سببه الخصومة والعناد لا لكي يؤمنوا، وإلاّ فهناك معاجز كثيرة حصلت لهم.

التّفسير

لا أمل في إيمان أهل العناد

تبحث هذه الآيات مرّةً ثانية مسألة النبوّة، والآيات أعلاه تكشف عن قسم آخر من جدال المشركين في النبوّة وجواب القرآن عليهم فتقول الآية: كما أنّنا أرسلنا رسلاً إلى الأقوام السالفة لهدايتهم: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ والهدف من ذلك ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. في الوقت الذي ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يكفرون بالله الذي عمّت رحمته كلّ مكان، وشمل فيضه المؤمن والكافر.

ثمّ قل لهم: إنّ الرحمن الذي عمّ فضله هو ربّي ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

ثمّ يجيب أُولئك الذين يتشبّثون دائماً بالحجج الواهية فيقول: لو أنّ الجبال تحرّكت من مكانها بواسطة القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. فمع ذلك لا يؤمنون به.

ولكنّ كلّ هذه الأفعال بيد الله ويفعل ما يريد متى يشاء ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

ولكنّكم لا تطلبون الحقّ، وإذا كنتم تطلبونه فهذا المقدار من المعجزة التي صدرت من الرّسول ﷺ كاف لإيمانكم.

ثمّ يضيف القرآن الكريم ﴿أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(١) وهذه إشارة إلى أنّ الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يجبر الناس وحتى المعاندين على أن يؤمنوا، لأنّه القادر على كلّ شيء، ولكنّه لا يفعل ذلك أبداً، لأنّ هذا الإيمان الإجباري لا قيمة له وهو فاقد للمعنى والتكامل الذي يحتاجه الإنسان في حياته.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ وهذه مصائب تنزل عليهم بشكل ابتلاءات مختلفة أو على شكل هجوم المسلمين عليهم. وهذه المصائب إن لم تنزل في دارهم فهي ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ لكي يعتبروا بها ويرجعوا إلى الله جلّ وعلا.

وهذا الإنذار مستمر ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾.

وهذا الوعد الأخير قد يشير إلى الموت، أو إلى يوم القيامة، أو على قول البعض إلى فتح مكّة التي سحقت آخر معقل للعدو.

وعلى أيّة حال فالوعد الإلهي أكيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تخاطب النّبي ﷺ فتقول له: لست الوحيد من بين الأنبياء تعرّض لطلب المعاجز الاقتراحية والاستهزاء من الكفّار، بل ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾. ولكن لم نعاقب هؤلاء الكفّار فوراً، بل ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لكي يستيقظوا ويعودوا إلى طريق الحقّ، أو نلقي عليهم الحجّة الكافية على الأقل، لأنّ هؤلاء إذا كانوا مذنبين فإنّ لطف الله وكرمه وحكمته لا تتأثّر بأفعال هؤلاء.

وعلى أيّة حال فهذا التأخير ليس بمعنى نسيان العقاب، بل ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وهذا المصير ينتظر قومك المعاندين أيضاً.

---

(١) ﴿يَايْـَٔسِ﴾ مأخوذة من مادّة اليأس، ولكن يقول جمهور من المفسّرين: إنّها جاءت هنا بمعنى العلم، وأمّا ما يقوله البعض [طبقاً لما نقله الفخر الرازي] أن «يئست» لا تأتي بمعنى «علمت» إطلاقاً، ويرى الراغب في مفرداته أنّ اليأس هنا هو نفس معناه، ولكن يحتاج لتحقّقه إلى العلم بعدم تحقّق الموضوع، وعلى هذا يكون ثبوت يأسهم يتوقّف على علمهم وتكون نتيجته أنّ اليأس هنا ليس العلم بالوجود، بل العلم بالعدم، وهو مخالف لمفهوم الآية، وعلى ذلك فالحقّ ما قاله جمهور المفسّرين، وما ذكروه من شواهد في قول العرب على ذلك، وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره أمثلة من هذه الشواهد [دقّقوا النظر].

بحوث

١ - لماذا التركيز على كلمة «الرحمن»؟

توضّح الآية أعلاه، وما ذكرناه في أسباب النّزول، أنّ كفّار قريش لم يوافقوا على وصف الله بالرحمن، وبما أنّ ذلك لم يكن سائداً لديهم، فإنّهم كانوا يستهزئون به، في الوقت الذي نرى فيه الآيات السابقة تصرّ وتؤكّد على ذلك، لأنّ في هذه الكلمة لطفاً خاصّاً، ونحن نعلم أنّ صفة الرحمانية تعمّ وتشمل المؤمن والكافر، الصديق والعدو، وفي الوقت نفسه فإنّ صفة الرحيم خاصّة بعباده المؤمنين.

فكيف لا تؤمنون بالله الذي هو أصل اللطف والكرم حتى شمل أعداءه بلطفه ورحمته، فهذا منتهى الجهل.

٢ - لماذا لم يستجب النّبي لمطاليبهم؟

ومرّة أُخرى نواجه هنا ما يقوله البعض من أنّ النّبي ﷺ لم تكن لديه معجزة غير القرآن الكريم، ويستندون في ذلك إلى الآية أعلاه وأمثالها، لأنّ ظاهر هذه الآيات أنّ النّبي لم يستجب إلى طلبهم في إظهار المعاجز المختلفة من قبيل تسيير الجبال أو شقّ الأرض وإظهار العيون وإحياء الموتى والتكلّم معهم.

ولكن - كما قلنا مراراً - الإعجاز يتمّ لإظهار الحقيقة فقط، ولأُولئك الذين يطلبون الحقّ، فليس النّبي ﷺ رجل الخوارق حتى يُنفّذ لهم كلّ ما يطلبونه منه أو يقترحونه عليه ثمّ بعد ذلك لا يقبلون منه.

إنّ مثل هذا الطلب للمعاجز (المعاجز الاقتراحية) كان يصدر - فقط - من الأفراد المعاندين والجاهليين الذين لم يستجيبوا لأيّ حقّ، والآيات أعلاه تشير إلى ذلك بوضوح، ففي الآية الأخيرة تتحدّث عن استهزائهم بالنّبي ﷺ، وهذا يعني أنّهم لم يطلبوا المعجزة من أجل الحقّ، بل كان طلبهم استهزاءً بالرّسول ﷺ.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه من أسباب النّزول في بداية التّفسير لهذه الآيات، يمكن أن نستفيد من خلال طلبهم من النّبي ﷺ إحياء واحد من أجدادهم لكي يسألوه: هل أنّ ما تقوله حقّ أم باطل؟

فلو استجاب لهم النّبي هذا الطلب فما معنى سؤالهم أنّ النّبي على حقّ أم باطل؟ وهذا يوضّح أنّ هؤلاء هم أفراد متعصّبون ومعاندون وهدفهم ليس البحث عن الحقيقة، (ولنا توضيح آخر لهذا الموضوع في ذيل الآية ٩٠ من سورة الإسراء).

٣ - ما هي القارعة؟

«القارعة» مأخوذة من مادّة «قرع» بمعنى طرقَ، وعلى ذلك تكون القارعة بمعنى الطارقة، وتشير هنا إلى الأحداث التي تقرع الإنسان وتنذره وإذا كان مستعدّاً للنهوض أيقظته.

وفي الحقيقة إنّ للقارعة معنىً واسعاً، فهي تشمل كلّ مصيبة ومشكلة وحادثة تحيط بالإنسان.

ولذلك يعتقد بعض المفسّرين أنّها تعني الحروب والجفاف والقتل والأسر، ويرى آخرون أنّها تشير إلى الحروب التي كانت تقع في صدر الإسلام تحت عنوان «السرية» التي لم يكن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يشترك فيها، بل كان يأمر أصحابه بها، ولكن معنى القارعة يشمل جميع هذه الأحداث.

ومن الطريف أنّ الآيات أعلاه تشير إلى أنّ الحوادث هذه إمّا أن تنزّل عليهم أو تقع قريباً من دارهم، وهذا يعني: إذا لم تصبهم هذه الحوادث في دارهم، فإنّها سوف تقع قريبة منهم، فهل لا تكفي هذه الحوادث لإيقاظهم؟

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

كيف تجعلون الأصنام شركاء مع الله؟!

نعود مرّةً أُخرى في هذه الآيات إلى البحث حول التوحيد والشرك، وهي تخاطب الناس من خلال دليل واضح حيث يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1] وهذه الجملة تريد أن تقول بوضوح إنّ الله سبحانه وتعالى وكأنّه واقف على

(١) الجملة أعلاه مبتدأ لخبر محذوف تقديره (أمّن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت كمن ليس كذلك).

رأس كلّ شخص ويعلم بما يفعلونه ويجازي عليه وبيده تدبير الأُمور، ولذلك فإنّ كلمة ﴿قَآئِمٌ﴾ لها معنىً واسع يشمل كلّ هذه الأمور، مع أنّ مجموعة من المفسّرين يرى لها أبعاداً خاصّة.

ولإتمام البحث السابق، ومقدّمة للبحث الآتي، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

ثمّ يجيبهم بلا فاصلة وبعدّة طرق:

يقول أوّلاً: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.

والمقصود من تسميتهم هو إمّا أن يكونوا ليست لهم أيّة قيمة بحيث لا تستطيعون تسميتهم، فكيف تجعلون هذه الموجودات التي لا تستحق حتى الأسماء والتي لا قيمة لها، في عداد الخالق القادر المتعال؟ أو يكون المقصود: بيّنوا صفاتهم لكي نرى هل يستحقّون العبادة، فنحن نقول في صفات الله جلّ وعلا بأنّه الخالق، والرازق، والمحيي والعالم والقادر، فهل تستطيعون أن تمنحوا هذه الصفات للأصنام؟! أو بالعكس إذا أردنا تسميتها نقول بأنّها أحجار وأخشاب ساكنة وفاقدة للعقل والشعور، ومحتاجة لمن يعبدها، وخلاصة القول إنّها فاقدة لكلّ شيء! فكيف نجعلها سواء مع الله؟ أفلا تعقلون؟!

أو يكون المقصود: عدّوا لنا أعمالهم، فهل كشفوا الضُّرّ لأحد أو منحوا الخير لأحد؟ وهل حلّوا العُقَد والمشاكل؟! ومع هذا الوضع فأي عقل يجيز لكم أن تجعلوهم قرناء مع الله جلّ وعلا وهو مصدر الخير والبركة والنافع والضارّ والمثيب والمعاقب!.

طبعاً لا مانع من أن تجتمع كلّ هذه المعاني في جملة ﴿سَمُّوهُمْ﴾!

ويقول ثانياً: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وهذا التعبير في الحقيقة أفضل أُسلوب للجواب على حديثهم الواهي، وكمثال على ذلك يقول لك أحد الأشخاص: إنّ فلاناً كان ضيفاً عندكم البارحة، فتقول له: هل تخبرني عن ضيف لا علم لي به؟! يعني هل من الممكن أن أحداً يكون ضيفي ولا أعلم به وأنت تعلم بذلك؟!

ثالثاً: حتى أنتم في الواقع لا تؤمنون بذلك في قرارة أنفسكم، بل ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

ولهذا السبب نرى المشركين عندما تضيق بهم المشاكل الحياتية يلوذون بالله، لأنّهم يعلمون في قلوبهم أنّ الأصنام لا يمكن أن تعمل لهم شيئاً، كما بيّن القرآن الكريم

حالهم في الآية (٦٥) من سورة العنكبوت حيث يقول تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

رابعاً: إنّ المشركين ليس لهم إدراك صحيح، وبما أنّهم تابعين لأهوائهم وتقليدهم الأعمى، فإنّهم غير قادرين على أن يقضوا بالحقّ وبشكل صحيح، ولهذا السبب ضلّوا الطريق، يقول تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وقد قلنا مراراً: إنّ هذا الضلال ليس جبراً، ولا هو اعتباطياً وبدون حساب، بل الإضلال الإلهي انعكاس لما يقوم به الإنسان من الأعمال السيّئة التي تجرّه إلى الضياع، وبما أنّ هذه الخاصيّة قد جعلها الله سبحانه وتعالى لمثل هذه الأعمال فلذلك نسب هذا العمل إليه.

ويشير القرآن الكريم في الآية الأخيرة من هذه المجموعة إلى العقاب الأليم الذي يشملهم في الدنيا والآخرة، الشقاء والهزيمة والحرمان وغيرها، حيث تقول: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ لأنّها دائمة ومستمرة، جسدية وروحية، وفيها أنواع الآلام.

وإذا اعتقدوا بأنّ لهم طريقاً للفرار أو سبيلاً للدفاع في مقابل ذلك، فإنّهم في اشتباه كبير، لأنّ ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥)﴾

التّفسير

بالنظر إلى تناوب آيات هذه السورة في بيان التوحيد والمعاد وسائر المعارف الإسلامية الأُخرى، تحدّثت هذه الآية مرّةً أُخرى حول المعاد وخصوصاً نِعَم الجنّة وعذاب الجحيم. يقول تعالى أوّلاً: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾[1].

(١) هناك نقاش بين المفسّرين حول تركيب هذه الجملة فقال البعض: إنّ ﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأ و﴿تَجْرِي﴾ خبرها، وقال بعض آخر: إنّ ﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأ وخبره محذوف تقديره «فيما نقص عليكم مثل الجنّة».

قد يكون التعبير بـ ﴿مَثَلُ﴾ إشارة إلى هذه النكتة، وهي أنّ الجنّة وسائر النعم الأُخروية غير قابلة للوصف بالنسبة إلى الساكنين في هذا العالم المحدود الذي هو في مقابل عالم بعد الموت يعتبر صغيراً جدّاً، ولذلك نستطيع أن نضرب لهم مثلاً أو صورة عن ذلك، كما أنّ الجنين في بطن أُمّه لو كان يعقل لا يمكن أن نصوّر له كلّ نعم الدنيا، إلاّ من خلال أمثال ناقصة وشاحبة!

الوصف الثّاني للجنّة هو ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾.

فهي ليست كفاكهة الدنيا فصلية وتظهر في وقت معيّن من السنة، بل في بعض الأحيان وبسبب الآفات الزراعية تنقطع تماماً، لكن ثمار الجنّة ليست فصلية ولا موسمية وغير مصابة بآفة، بل كإيمان المؤمنين المخلصين دائمة وثابتة.

وكذلك ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ ليس كظلّ أشجار الدنيا التي يظهر ظلّها إذا كانت الشمس أُفقية ويزول أو يقل إذا صارت عمودية، أو يظهر في الربيع والصيف عندما تكون الأشجار مورقة، ويزول في الخريف والشتاء عند تساقط الأوراق، (بالطبع هناك أشجار قليلة تعطي ثماراً وأزهاراً على مدار السنة، وهذه تكون في المناطق المعتدلة التي ليس فيها شتاء).

الخلاصة: ظلال الجنّة كبقيّة النعم الأُخرى خالدة ودائمة، ومن هذا يتّضح أن ليس في الجنّة فصل لتساقط الأوراق، ونعلم من ذلك - أيضاً - أنّ شعاع الشمس موجود في الجنّة، وإلاّ كان التعبير بالظلّ هناك بدون شعاع الشمس ليس له أي مفهوم، وأمّا ما جاء في الآية (١٣) من سورة الدهر ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ قد تكون إشارةً إلى اعتدال الهواء، فلا الشمس محرقة ولا البرد قارس، وهذا لا يعني أن لا تكون هناك شمس أصلاً.

إنّ انطفاء الشمس ليس دليلاً على زوالها أبداً، لأنّ القرآن الكريم يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾[1] تكون أوسع وبهيئة جديدة.

وإذا قيل: إن كانت شمس الجنّة غير محرقة، فعلام الظلّ؟

نقول في جوابهم: إنّ الظلّ ليس مانعاً لحرارة الشمس فقط، بل إنّ الرطوبة المعتدلة الصادرة من الأوراق باتّحادها مع الأوكسجين تعطي نشاطاً ولطافة خاصّة للظلّ، ولذلك كان ظلّ الأشجار مختلفاً عن ظلّ السقوف الجافّة.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

وبعد بيان هذه الصفات الثلاث قال تعالى في آخر الآية: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

لقد بيّن وفصّل في هذه العبارة نعم الجنّة، ولكن بالنسبة إلى أصحاب النّار ذكر جملة قصيرة وبعنف حيث ذكر أنّ عاقبة أمرهم إلى النار!

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)﴾

التّفسير

المؤمنون والأحزاب

أشارت هذه الآية إلى ردّ الفعل المتفاوت للناس في مقابل نزول الآيات القرآنية، فالأفراد الذين يبحثون عن الحقيقة يفرحون بما أُنزل على الرّسول، بينما المعاندون يخالفون ذلك.

يقول تعالى أوّلاً: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

إنّ الوصف بـ ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إشارة إلى اليهود والنصارى وأمثالهم ممّن لهم كتاب سماوي وقد ذكرهم القرآن في مواطن كثيرة، فكان الأشخاص الطالبون للحقّ من اليهود والنصارى وأمثالهم يفرحون عند نزول الآيات على الرّسول ﷺ، لأنّهم كانوا من جهة يرونها مطابقة لما في أيديهم من العلامات، ومن جهة أُخرى كان سبباً لحريتهم ونجاتهم من شرّ الخرافات ومن علماء اليهود والمسيحيّة الذين كانوا يستعبدونهم، وكانوا محرومين من حرية الفكر والتكامل الإنساني.

وأمّا ما قاله بعض المفسّرين الكبار من أنّ المقصود من ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ هم أصحاب النّبي محمّد ﷺ فبعيد جدّاً، لأنّ هذا الوصف ليس معهوداً بالنسبة للمسلمين، بالإضافة إلى ذلك فإنّها غير موافقة مع جملة ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1].

---

(١) لأنّه يلازم هذا الحديث أن يكون ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هو نفس ﴿الْكِتَابَ﴾ فالاثنان يشيران إلى القرآن، في الوقت الذي نرى فيه من قرينة المقابلة أنّ المقصود من ﴿الْكِتَابَ﴾ غير ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

وبما أنّ سورة الرعد مكّية فهي غير منافية لما قلناه آنفاً، مع أنّ المركز الأصلي لليهود في الجزيرة العربية كان المدينة وخيبر، والمركز الأصلي للمسيحيين هو نجران وأمثالها، ولكنّهم كانوا يتردّدون على مكّة ويعكسون أفكارهم ومعتقداتهم فيها، ولهذا السبب كان أهل مكّة يعرفون علامات آخر نبي مرسل وكانوا ينتظرونه (قصّة ورقة بن نوفل وأمثالها معروفة).

وهناك شواهد لهذا الموضوع في آيات أُخرى من القرآن الكريم والتي كان يفرح المؤمنون من أهل الكتاب عند نزول الآيات على النّبي ﷺ، فمثلاً الآية (٥٢) من سورة القصص تقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ المقصود من هذه المجموعة هي نفس جماعة اليهود والنصارى الذين غلبهم التعصّب الطائفي وأمثاله، ولذلك لم يعبّر القرآن الكريم عنهم بأهل الكتاب، لأنّهم لم يتّبعوا كتبهم السّماوية، بل كانوا في الحقيقة أحزاباً وكتلاً تابعين لخطّهم الحزبي، وهذه المجموعة كانت تنكر كلّ ما خالف ميلهم ولم يطابق أهواءهم.

ويحتمل أيضاً أنّ كلمة «الأحزاب» إشارة إلى المشركين، لأنّ سورة الأحزاب ذكرتهم بهذا التعبير، وهؤلاء في الحقيقة ليس لهم دين ولا مذهب بل كانوا على شكل أحزاب وكتل متفرّقة اتّحدوا في مخالفتهم للقرآن والإسلام.

ونقل العلاّمة الطبرسي وبعض آخر من المفسّرين الكبار عن ابن عبّاس، أنّ هذه الآية إشارة إلى المشركين الذين كانوا يخالفون وصف الله بالرحمن، وأهل الكتاب - خصوصاً اليهود - يفرحون بهذا الوصف «الرحمٰن» في الآيات القرآنية، ومشركي مكّة كانوا يسخرون منه بسبب عدم معرفتهم به.

وفي آخر الآية يأمر الله النّبي ﷺ أن لا يعتني بهذا وذاك من المخالفين، بل يدعوه إلى الثبات على الخطّ الأصيل والصراط المستقيم حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وتلك دعوة للموحّدين الصادقين والمؤمنين الرساليين أن يسلّموا أمام الأوامر الإلهيّة، فالرّسول ﷺ كان خاضعاً لكلّ ما أُنزل عليه، فلا يأخذ ما كان يوافق ميله ويترك غيره.

بحث

الإيمان والائتلاف الحزبي

رأينا في الآية كيف أنّ الله سبحانه وتعالى عبّر عن المؤمنين من اليهود والنصارى بأهل الكتاب، وعبّر عن أُولئك التابعين للعصبية والأهواء بالأحزاب، وهذا غير منحصر في تاريخ صدر الإسلام، بل إنّ هذا التفاوت موجود دائماً بين المؤمنين الحقيقيين والذين يدّعون الإيمان، فالمؤمنون الحقيقيون يقولون بالتسليم المطلق لكلّ الأوامر الإلهيّة، ولا يقولون بالتبعيض، ويجعلون ميلهم تحت ذاك الشعاع، فهم أهل لأن يسمّيهم القرآن أهل الكتاب والإيمان.

بينما أُولئك فهم مصداق الآية ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[1] ومعناه كلّ ما طابق خطّهم الفكري وميلهم الشخصي وأهواءهم يقبلونه، وكلّ ما خالف منافعهم الشخصيّة ينكرونه، فهؤلاء ليسوا بمسلمين ولا مؤمنين، بل أحزاب وكتل يبحثون عن مصالحهم في الدين، ولذلك كانوا يقولون بالتبعيض في التعاليم الإسلامية.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

الحوادث «الثّابتة» و«المتغيّرة»

تتابع هذه الآيات المسائل المتعلّقة بالنبوّة، ففي الآية الأُولى يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

«العربي» كما يقول الراغب في مفرداته: «الفصيح البيّن من الكلام» ولذلك يُقال للمرأة العفيفة والشريفة: إنّها «امرأة عروبة» ثمّ تضيف الآية ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ قيل معناه مفصحاً يحقّ الحقّ ويبطل الباطل.

ويحتمل في «العربي» أنّ معناه «الشريف» لأنّها جاءت في اللغة بهذا المعنى. وعلى هذا فوصف القرآن بالعربي لأنّ أحكامه واضحة وبيّنة. ولذلك وردت في عدّة آيات أُخرى بعد «عربياً» مسألة الاستقامة وعدم الاعوجاج أو العلم، منها في الآية (٢٨) من سورة الزمر قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ وفي الآية (٣) من سورة فصلت يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وعلى هذا فما قبل هذه الآية وما بعدها يؤيّدان أنّ المراد من ﴿عَرَبِيًّا﴾ هو الفصاحة والوضوح في البيان وخلوّه من الاعوجاج والالتواء.

وهذه العبارة وردت في سبع سور من القرآن الكريم، ولكن ذكرت في عدّة موارد بشكل ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(١) والتي يمكن أن يكون لها نفس المعنى. ويمكن أن يكون هذا الموضع الخاص إشارة إلى اللسان العربي، لأنّ الله سبحانه وتعالى بعث كلّ نبيّ بلسان قومه، حتى يهدي قومه أوّلاً، ثمّ تنتشر دعوته في المناطق الأُخرى.

ثمّ يخاطب القرآن النّبي ﷺ بلحن التهديد وبشكل قاطع حيث يقول: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وبما أنّ احتمال الانحراف غير موجود إطلاقاً في شخصيّة الرّسول ﷺ لما يتميّز به من مقام العصمة والمعرفة، فهذا التعبير - أوّلاً: يُوضّح أنّ الله سبحانه وتعالى ليس له ارتباط خاص مع أي أحد حتى لو كان نبيّاً، فمقام الأنبياء الشامخ إنّما هو بسبب عبوديتهم وتسليمهم واستقامتهم.

وثانياً: تأكيد وإنذار للآخرين، لأنّ النّبي ﷺ إذا لم يكن مصوناً من العقوبات الإلهيّة في حالة انحرافه عن مسيرة الحقّ واتّجاهه صوب الباطل، فما بال الآخرين؟

ولابدّ من ذكر هذه النقطة، وهي أنّ ﴿وَلِىٍّ﴾ و﴿وَاقٍ﴾ مع أنّهما متشابهان في المعنى، ولكن هناك تفاوت بينهما وهو أنّ أحدهما يبيّن جانب الإثبات والآخر جانب النفي، فواحد بمعنى النصرة والدعم، والآخر بمعنى الدفاع والحفظ.

الآية الأُخرى - في الواقع - جواب لما كان يستشكله أعداء الرّسول ﷺ.

---

(١) سورة النّحل، الآية: ١٠٣؛ وسورة الشعراء، الآية: ١٩٥.

ومن جملة هذه الإشكالات:

أوّلاً: كان البعض يقول: هل من الممكن أن يكون الرّسول من جنس البشر، يتزوّج وتكون له ذرّية؟ فالآية تجيبهم وتقول ليس هذا بالأمر الغريب: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾(١).

ويتبيّن من إشكالهم أنّهم إمّا أن يكونوا غير عالمين بتاريخ الأنبياء، أو أنّهم يتجاهلون ذلك وإلاّ لم يوردوا هذا الإشكال.

ثانياً: كان ينتظر هؤلاء من الرّسول أن يجيبهم على كلّ معجزة يقترحونها عليه بما تقتضيه أهواؤهم، سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، ولكن يجب أن يعلم هؤلاء أنّ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ثالثاً: لماذا جاء نبي الإسلام ﷺ وغيّر أحكام التوراة والإنجيل، أو ليست هذه كتب سماوية؟ وهل من الممكن أن ينقض الله أوامره؟ (هذا الإشكال كان يطابق ما يقوله اليهود من عدم نسخ الأحكام).

وتجيب الجملة الأخيرة من الآية فتقول: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كيما تبلغ البشرية المرحلة النهائية من الرشد والتكامل فليس من العجيب أن ينزّل يوماً التوراة، ويوماً آخر الإنجيل، ثمّ القرآن، لأنّ البشرية في تحوّلها وتكاملها بحاجة إلى البرامج المتغيّرة والمتفاوتة.

ويحتمل أنّ جملة ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ جواب لمن كان يقول: إذا كان الرّسول صادقاً، لماذا لا ينزل الله عذابه وسخطه على المخالفين والمعاندين؟ فيجيبهم القرآن بأنّ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ وليس بدون حساب وكتاب، وسوف يصل الوقت المعلوم للعقاب(٢).

الآية الأُخرى بمنزلة التأكيد والاستدلال لما ورد في ذيل الآية السابقة، وهو أنّ لكلّ حدث وحكم زمن معيّن كما يقال: إنّ الأمور مرهونة بأوقاتها، وإذا رأيت أنّ بعض الكتب السّماوية تأخذ مكان البعض الآخر فذلك بسبب ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ

---

(١) يقول بعض المفسّرين في سبب نزول هذه الآية: إنّها جواب لما كان يورده البعض من تعدّد أزواج الرّسول، في الوقت الذي نرى أنّ سورة الرعد مكّية وتعدّد الزوجات لم يكن حينذاك.

(٢) ولتطابق هذا المعنى يجب أن يكون هناك تقديم وتأخير في الجملة أعلاه، ويقال في تقديره «لكلّ كتاب أجل» كما قاله بعض المفسّرين.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيحذف بعض الأُمور بمقتضى حكمته وإرادته ويثبت أُموراً أُخرى، ولكن الكتاب الأصل عنده.

وفي النهاية وللتأكيد أكثر بالنسبة للعقوبات التي كان يوعدهم النبي ﷺ بها وكانوا ينتظرونها حتى أنّهم يقولون: لماذا لا تصبح هذه الوعود عملية؟ يقول تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ (من انتصارك عليهم وهزيمتهم وتحرير أتباعك وأسر أتباعهم في حياتك) ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾.

نقطتان:

يجب الانتباه إلى هاتين النقطتين:

١ - لوح المحو والإثبات وأمّ الكتاب

مع أنّ جملة ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ...﴾ نزلت في مجال المعاجز والكتب السّماوية إلى الأنبياء، لكنّها تبيّن قانوناً عامّاً وشاملاً وقد أشير إليه في مختلف المصادر الإسلامية، وهو أنّ تحقّق وصيرورة الحوادث المختلفة للعالم لها مرحلتين: الأُولى المرحلة القطعيّة أو الثابتة، ولا سبيل للتغيير فيها (والتي أشارت إليها الآية أعلاه بأمّ الكتاب) والأُخرى المرحلة المتغيّرة أو بعبارة أُخرى «المشروطة» والتي يجد التغيير سبيلاً إليها، وقد عبّر عنها بالمحو والإثبات، وأحياناً يُقال عن المرحلتين: «اللوح المحفوظ» و«لوح المحو والإثبات» كأنّ ما كُتب في اللوح الأوّل محفوظ لا يتغيّر، أمّا الثّاني فمن الممكن محو ما كتب فيه وتغييره.

وأمّا حقيقة الأمر فإنّنا - أحياناً - ننظر إلى الحوادث بأسباب وعلل ناقصة، فمثلاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار السمّ الذي بمقتضى طبعه يؤدّي إلى قتل الإنسان وكلّ من يتناوله سوف يموت، مع عدم علمنا بأنّ لهذا السمّ ترياق آخر ضدّه لو شربناه بعده سوف يبطل مفعول الأوّل (وقد نكون على علم به لكن لا نريد أن نتحدّث لسبب أو لآخر عن الترياق) لاحظوا هنا أنّ هذه الحادثة (الموت بسبب استعمال السمّ) ليس لها جانب قطعي، وببيان آخر إنّ مكانها في (لوح المحو والإثبات) ويجد التغيير سبيلاً إليه بالنظر إلى الأسباب الأُخرى المرتبطة به.

ولكن لو نظرنا إلى الحادثة من خلال العلّة التامّة لها، يعني توفّر الشروط اللازمة وإزالة الموانع (استعمال السمّ بدون استعمال الترياق) تكون الحادثة هنا قطعيّة وببيان

آخر: إنّ مكانها في [اللوح المحفوظ وأُمّ الكتاب] ولا سبيل للتغيير فيها.

ويمكن أن نوضّح هذا الحديث بشكل آخر، وهو: إنّ للعلم الإلهي مرحلتين (علم بالمقتضيات والعلل الناقصة) و(علم بالعلل التامّة) فما ارتبط بالمرحلة الثانية نعبّر عنها بـ (أمّ الكتاب واللوح المحفوظ) وما ارتبط بالمرحلة الأُولى نعبّر عنها بـ(لوح المحو والإثبات) وإلاّ فليس اللوح موضوعاً في زاوية من السّماء حتى يكتبوا أو يمحوا فيه شيئاً ويثبتوا بدله شيئاً آخر.

ومن هنا تتضّح الإجابة على كثير من الأسئلة في ضوء ما ورد في المصادر الأصليّة في الإسلام، لأنّنا نقرأ مرّةً في الرّوايات أو بعض الآيات القرآنية، أنّ العمل الفلاني له الأثر الكذائي، لكنّنا في بعض الأحيان لا نرى هذه النتيجة، وذلك بسبب أنّ تحقّق تلك النتيجة يعتمد على شرائط أو موانع لم تتحقّق.

وهناك روايات كثيرة في باب (اللوح المحفوظ) و(لوح المحو والإثبات) وعلم الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وعلى سبيل المثال نذكر قسماً منها:

١ - أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن علي عليه السلام أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية فقال له: «لأقرنّ عينيك بتفسيرها ولأقرنّ عين أُمّتي بعدي بتفسيرها، الصدقة على وجهها، وبرّ الوالدين، واصطناع المعروف، يحول الشقاء سعادة ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء»(١).

وهذه إشارة إلى أنّ الشقاء والسعادة ليست أُموراً حتمية، حتى إذا ارتكب الإنسان إثماً وعدّ من الأشقياء فإنّ باستطاعته أن يُغيّر من سلوكه ويتّجه صوب الخير، وخصوصاً مساعدة وخدمة عباد الله، لأنّ هذه الأُمور مكانها في (لوح المحو والإثبات) لا (أُمّ الكتاب).

ويجب الالتفات إلى أنّ ما جاء في هذا الحديث يبيّن قسماً من مفهوم الآية.

٢ - عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من الأُمور أُمور محتومة كائنة لا محالة، ومن الأُمور أُمور موقوفة عند الله يقدّم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء»(٢).

---

(١) تفسير الميزان، ج ١١، ص ٣٨٠ و ٤١٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٤١٩.

وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة، فقلت له: أيّة آية؟ فقال: قال الله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»[1].

وهذا الحديث دليل على أنّ اللوح المحفوظ ولوح المحو والإثبات بكلّ خصوصياتها مختصّة بالله جلّ وعلا، وهناك قسمٌ منها يُعلم بها الخواص من عباده إذا اقتضت الضرورة.

ونقرأ في أدعية ليالي شهر رمضان المبارك: «وإن كنت من الأشقياء فاكتبني عندك من السعداء».

وعلى أيّة حال فالمحو والإثبات بهذا الشكل الذي قلناه له معنىً جامع يشمل كلّ تغيير في الحال بسبب تغيير الشروط وحدوث الموانع، وأمّا ما قاله بعض المفسّرين من أنّ هذه الجملة إشارة إلى مسألة محو الذنوب بسبب التوبة، أو زيادة ونقصان الرزق على أثر تغيير الشروط، ليس صحيحاً، إلاّ إذا اعتبروها واحداً من مصاديقها.

٢ - ما هو البداء؟

«البداء» أحد البحوث العويصة بين الشيعة والسنّة.

يقول الرازي في تفسيره الكبير في ذيل الآية - محلّ البحث -: «يعتقد الشيعة أنّ البداء جائز على الله، وحقيقة البداء عندهم أنّ الشخص يعتقد بشيء ثمّ يظهر له خلاف ذلك الاعتقاد، ولإثبات ذلك يتمسكون بالآية ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ ثمّ يضيف الرازي: إنّ هذه العقيدة باطلة، لأنّ علم الله من لوازم ذاته، ومحال التغيير والتبديل فيه».

وممّا يؤسف له حقّاً أنّ عدم المعرفة بعقيدة الشيعة في مسألة البداء أدّت إلى أن ينسب كثيرون تهماً غير صحيحة إلى الشيعة الإماميّة.

ولتوضيح ذلك نقول:

«البداء» في اللغة بمعنى الظهور والوضوح الكامل، وله معنىً آخر هو الندم، لأنّ الشخص النادم قد ظهرت له - حتماً - أُمور جديدة.

لا شكّ، أنّ هذا المعنى الأخير بالنسبة إلى الله تعالى مستحيل، ولا يمكن لأي عاقل وعارف أن يحتمل أنّ هناك أُموراً خافية على الله ثمّ تظهر له بمرور الأيّام، فهذا القول

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥١٢، ح ١٦٠.

هو الكفر بعينه، ولازمه نسبة الجهل وعدم المعرفة إلى ذاته المقدّسة، وأنّ ذاته محلاً للتغيير والحوادث.

وحاشا للشيعة الإماميّة أن يحتملوا ذلك بالنسبة لذات الله المقدّسة! إنّ ما يعتقده الشيعة من معنى البداء ويصرّون عليه، هو طبقاً لما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام: ما عرف الله حقّ معرفته من لم يعرفه بالبداء.

كثيراً ما يكون - وطبقاً لظواهر العلل والأسباب - أن نشعر أنّ حادثة ما سوف تقع أو أنّ وقوع مثل هذه الحادثة قد أخبر عنه النّبي، في الوقت الذي نرى أنّ هذه الحادثة لم تقع، فنقول حينها: إنّ «البداء» قد حصل، وهذا يعني أنّ الذي كنّا نراه بحسب الظاهر سوف يقع واعتقدنا تحقّقه بشكل قاطع قد ظهر خلافه.

والأصل في هذا المعنى هو ما قلناه في بحثنا السابق، وهو أنّ معرفتنا مرّةً تكون فقط بالعلل الناقصة، ولا نرى الشروط والموانع ونقضي طبقاً لذلك، ولكن بعد أن نواجه فقدان الشرط أو وجود المانع ويتحقّق خلاف ما كنّا نتوقّعه سوف ننتبه إلى هذه المسائل، وكذلك قد يعلم النّبي أو الإمام بأُمور مكتوبة في لوح المحو والإثبات القابل للتغيير طبعاً، فقد لا تتحقّق أحياناً لمواجهتها بالموانع وفقدان الشروط.

ولكي تتّضح هذه الحقيقة لابدّ من مقايسة بين «النسخ» و«البداء»: نحن نعلم أنّ النسخ جائز عند جميع المسلمين، يعني من الممكن أن ينزل حكم في الشريعة فيتصوّر الناس أنّ هذا الحكم دائمي، لكن بعد مدّة يعلن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تغيير هذا الحكم وينسخه، ويحلّ محلّه حكماً آخر (كما قرأنا في حادثة تغيير القبلة).

إنّ هذا في الحقيقة نوع من «البداء» ولكن في القضايا التشريعيّة والقوانين والأحكام يسمّونه بـ«النسخ» وفي الأُمور التكوينيّة يسمّى بـ«البداء» ويقال أحياناً: (النسخ في الأحكام نوع من البداء، والبداء في الأُمور التكوينيّة نوع من النسخ).

فهل يستطيع أحد أن ينكر هذا الأمر المنطقي؟ إلاّ إذا كان لا يفرّق بين العلّة التامّة والعلل الناقصة، أو كان واقعاً تحت تأثير الدعايات المغرضة ضدّ شيعة أهل البيت عليهم السلام، ولا يجيز له تعصّبه الأعمى أن يطالع عقائد الشيعة من نفس كتبهم، والعجيب أنّ الرازي قد ذكر مسألة «البداء» عند الشيعة في ذيل الآية ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ بدون أن يلتفت إلى أنّ البداء ليس أكثر من المحو والإثبات، وهجم على الشيعة بعصبيته المعروفة واستنكر عليهم قولهم بالبداء.

اسمحوا لنا هنا أن نذكر أمثلة مقبولة عند الجميع:

١ - نقرأ في قصّة «يونس» أنّ عدم طاعة قومه أدّت إلى أن ينزل العذاب الإلهي عليهم، وقد تركهم النّبي لعدم هدايتهم واستحقاقهم العذاب، لكن فجأةً وقع البداء حيث رأى أحد علمائهم آثار العذاب، فجمعهم ودعاهم إلى التوبة، فقبل الجميع ورفع العذاب ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

٢ - وجاء في التاريخ الإسلامي أنّ السيّد المسيح عليه السلام أخبر عن عروس أنّها سوف تموت في ليلة زفافها، لكنّها بقيت سالمة! وعندما سألوه عن الحادثة قال: هل تصدّقتم في هذا اليوم؟ قالوا: نعم. قال: الصدقة تدفع البلاء المبرم[2]!.

لقد أخبر السيّد المسيح عليه السلام عن هذه الحادثة بسبب ارتباطه بلوح المحو والإثبات، في الوقت الذي كانت هذه الحادثة مشروطة (مشروطة بأن لا يكون هناك مانع مثل الصدقة) وبما أنّها واجهت المانع أصبحت النتيجة شيئاً آخر.

٣ - ونقرأ في قصّة إبراهيم عليه السلام - محطّم الأصنام - في القرآن الكريم أنّه أُمر بذبح إسماعيل، وذهب بابنه إلى المذبح وتلّه للجبين، فعندما أظهر إسماعيل استعداده للذبح ظهر البداء الإلهي وظهر أنّ هذا الأمر امتحان لكي يرى الله تعالى مستوى الطاعة والتسليم عند إبراهيم عليه السلام.

٤ - ونقرأ في سيرة موسى عليه السلام أنّه أُمر أن يترك قومه أوّلاً ثلاثين يوماً ويذهب إلى مكان الوعد الإلهي لاستلام أحكام التوراة، لكن المدّة زادت عليها عشرة أيّام أُخرى (وذلك امتحاناً لبني إسرائيل).

هنا يأتي هذا السؤال: ما هي الفائدة من هذه البداءات؟

الجواب على هذا السؤال ليس صعباً بالنظر إلى ما قلناه سابقاً، لأنّه تحدث مسائل مهمّة - أحياناً - مثل امتحان شخص مع قومه، أو تأثير التوبة والرجوع إلى الله (كما في قصّة يونس) أو تأثير الصدقة ومساعدة المحتاجين وعمل الخير، كلّ ذلك يؤدّي إلى دفع الحوادث المفجعة وأمثالها، وهذا يعني أنّ الحوادث المستقبلية قد نُظِّمت بشكل خاص

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.

(٢) بحار الأنوار الطبعة القديمة ج ٢، ص ١٣١ - نقلاً عن أمالي الصدوق، ج ٤، ص ٩٤.

ثمّ تغيّرت الشرائط فأصبحت شيئاً آخر، حتى يعلم الناس أنّ مصيرهم بأيديهم، وهم قادرون أن يغيّروا مصيرهم من خلال تغيير سيرتهم وسلوكهم، وهذه أكبر فائدة نلمسها من البداء «فتدبّر».

فما ورد من أنّ أحداً إذا لم يعرف الله بالبداء لم يعرفه معرفةً كاملة، فهي إشارة لتلك الحقائق.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما بعث الله عزّ وجلّ نبيّاً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبودية، وخلع الأنداد، وأنّ الله يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء»[1].

وفي الحقيقة إنّ أوّل عهد مرتبط بالطاعة والتسليم لله. وثاني عهد محاربة الشرك، والثّالث مرتبط بمسألة البداء، ونتيجته أنّ مصيره بيده، فيستطيع أن يغيّر الشروط فيشمله اللطف أو العذاب الإلهي.

الملاحظة الأخيرة في هذا المجال... يقول علماء الشيعة: إنّنا حينما ننسب البداء إلى الله جلّ وعلا فإنّه يكون بمعنى «الإبداء» أي إظهار الشيء الذي لم يكن ظاهراً لنا من قبل ولم يكن متوقّعاً.

وإنّ ما ينسب إلى الشيعة بأنّهم يعتقدون أنّ الله يندم على عمله أحياناً، أو يخبر عن شيء لم يعلمه سابقاً، فهذه من أكبر التّهم ولا يمكن الصفح عنها أبداً.

لذلك نقل عن الأئمّة عليهم السلام أنّهم قالوا: «من زعم أنّ الله عزّ وجلّ يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فابرؤوا منه»[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ١٤٧ - سفينة البحار، ج ١، ص ٦١.
(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٦١.

التّفسير

البشرية فانية ووجه الله باق

بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث مع منكري رسالة النّبي ﷺ، فقد تابعت هذه الآيات كذلك نفس البحث. والهدف هو دعوتهم إلى التفكّر، ثمّ الإصلاح عن طريق الإنذار والاستدلال وغيرها.

يقول تعالى أوّلاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ من الواضح أنّ المقصود من الأرض هنا هم أهل الأرض، يعني أنّ هؤلاء لا ينظرون إلى هذا الواقع من أنّ الأقوام والحضارات والحكومات في حال الزوال والإبادة، الأقوام الذين كانوا أكثر منهم قوّة وآثاراً قد أُلحدوا تحت الثرى حتى العلماء والعظماء - الذين هم قوام الأرض - التحقوا بالرفيق الأعلى.

فهل أنّ هذا القانون العامّ للحياة الذي يسري على جميع الأفراد وكلّ المجتمع البشري صغيره وكبيره، غير كافٍ لإيقاظهم وتفهيمهم أنّ هذه الأيّام القلائل للحياة ليست أبدية؟!

ثمّ يضيف: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ولذلك فإنّ قانون الفناء مكتوب على جبين كلّ الأفراد والأُمم من جهة، ومن جهة أُخرى لا يستطيع أحد أن يغيّر هذا الحكم ولا الأحكام الأُخرى، ومن جهة ثالثة أنّ حساب العباد سريع جدّاً، وبهذا الترتيب يكون جزاؤه قاطعاً.

وقد جاء في روايات متعدّدة في تفسير «البرهان» و«نور الثقلين» وسائر منابع الحديث، أنّ تفسير الآية أعلاه هو «فقدان العلماء» لأنّ فقدهم نقصان الأرض ونقص المجتمع الإنساني.

ونقل المفسّر الكبير الطبرسي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قال: «ننقصها بذهاب علمائها، وفقهائها وخيار أهلها»[1].

ونقرأ في حديث آخر أنّ «عبد الله بن عمر» تلا هذه الآية حين استشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام: ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٠٠.

ثمّ قال: «يا أمير المؤمنين، لقد كنت الطرف الأكبر في العلم، اليوم نقص علم الإسلام ومضى ركن الإيمان»[(١)].

إنّ للآية - بدون شكّ - معنىً واسعاً كما قلنا، وهي تشمل كلّ نقص في ذهاب الأفراد والمجتمع وأهل الأرض، وإنذار لكلّ الناس، الصالح منهم والطالح، حتى العلماء الذين يشكّلون أركان المجتمع البشري يكون موت أحدهم أحياناً نقصاناً للدنيا، فهذا إنذار بليغ وساطع.

وأمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المقصود بالنقصان هو نقص أرض الكفّار وإضافتها إلى أرض المسلمين، فلا نراه صحيحاً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أنّ السورة مكّية، لأنّ الفتوحات في ذلك الوقت لم تكن موجودة حتى يراها الكفّار أو يشير إليها القرآن الكريم.

وأمّا ما قاله بعض المفسّرين الذين غرقوا في العلوم الطبيعيّة، من أنّ الآية أعلاه تشير إلى نقص الأرض من ناحية القطبين واستواؤها في خطّ الاستواء، فهذا كذلك نراه بعيداً عن الواقع، لأنّ القرآن الكريم ليس في مقام الإشارة إلى ذلك.

ثمّ يستمرّ البحث في الآية الثانية ويقول: ليست هذه الفئة فقط نهضت بمكرها ومحاربتها لك، بل ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. لكن خططهم كُشفت، وأُجهضت مؤامرتهم بأمر من الله، لأنّه أعلم الموجودات بهذه المسائل ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ذاك هو العالم بكلّ شيء و﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾. ثمّ يحذرهم بصيغة التهديد من عاقبة عملهم ويقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

الآية الأخيرة من هذا البحث (كما بدأت هذه السورة بكتاب الله والقرآن) تُنهي سورة الرعد في التأكيد أكثر على معجزة القرآن يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾.

فهم يصطنعون كلّ يوم عذراً، ويطلبون في كلّ وقت المعاجز، ثمّ آخر الأمر يقولون: لست بنبي! قل في جوابهم ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فالله سبحانه وتعالى يعلم بأنّي رسوله، وكذلك هؤلاء لهم المعرفة الكافية بأنّ القرآن هو كتاب سماوي، فهم يعلمون جيّداً أنّ هذا الكتاب ليس من صنع البشر، ولا يمكن نزوله إلاّ من قبل الله.

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٠١.

وهذا تأكيد جديد على إعجاز القرآن بمختلف جوانبه وقد ذكرنا ذلك في أماكن أُخرى.

وبناءً على ما قلناه أعلاه فإنّ المقصود بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم العالمون بمحتوى القرآن الكريم.

واحتمل بعض المفسّرين أنّها تشير إلى علماء أهل الكتاب الذين قرأوا علائم نبي الإسلام ﷺ في كتبهم السّماوية، ومن جهة حبّهم ومعرفتهم آمنوا به.

لكن التّفسير الأوّل نراه أقرب إلى الصحّة.

وقد ذكرت كثير من الرّوايات أنّ المقصود بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو علي بن أبي طالب عليه السلام وأئمّة الهدى، وهذه الرّوايات جُمعت في تفسير نور الثقلين والبرهان.

وهذه الرّوايات غير دالّة على الحصر، وكما قلنا مراراً فإنّها تشير إلى مصداق أو مصاديق تامّة وكاملة، وعلى أيّة حال فالتّفسير الأوّل الذي ذكرناه يؤيّد ذلك.

ومن المناسب أن ننهي حديثنا هنا بهذه الرّواية عن النّبي ﷺ:

عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله جلّ ثناؤه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾(١) قال: «ذاك وصي أخي سليمان بن داود» فقلت له: يارسول الله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: «ذاك علي بن أبي طالب»(٢).

اللهمّ افتح لنا أبواب رحمتك وألهمنا من علم الكتاب.

ربّنا أنِر قلوبنا بمعرفة القرآن واحبس أفكارنا على الحاجة إليك حتى لا نتوجّه لغيرك في مسائلنا، إنّك موضع الحاجات.

---

(١) سورة النّمل، الآية: ٤٠.

(٢) تفسير الميزان، ج ١١، ص ٤٢٧.

سُورَة ابراهِيم

مكيّة وعدد آياتها اثنان وخمسون

تحتوي على (٥٢) آية، السورة مكّية باستثناء الآيتين (٢٨) و(٢٩) طبقاً لما قاله كثير من المفسّرين أنّها نزلت بالمدينة في قتلى المشركين في بدر.

محتوى السورة

المعلوم من اسم السورة أنّ قسماً منها نازل بشأن بطل التوحيد ومحطّم الأصنام سيّدنا إبراهيم عليه السلام : «قسمٌ من أدعيته».

والقسم الآخر من هذه السورة يشير إلى تاريخ الأنبياء السابقين أمثال نوح وموسى، وقوم عاد وثمود، وما تحتوي من دروس وعِبَر فيها.

وتكمل هذه المجموعة من البحوث في السورة آيات الموعظة والنصيحة والبشارة والإنذار.

كما نقرأ في أغلب السور المكّية أنّ قسماً كبيراً منها أيضاً يبحث مواضيع «المبدأ» و«المعاد» والتي تعمّق الإيمان في قلب الإنسان وفي روحه ونفسه ثمّ في قوله وفعله، فيظهر له نور آخر في مسيرة الحقّ والدعوة إلى الله.

وخلاصة هذه السورة أنّها تبيّن عقائد ونصائح ومواعظ سيرة الأقوام الماضية، والهدف من رسالة الأنبياء ونزول الكتب السّماوية.

فضيلة السورة:

روي عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قرأ سورة إبراهيم والحجر أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها»(١).

وكما أسلفنا مراراً فإنّ ما ورد من الثواب حول قراءة السور القرآنية يلازمه التفكّر ومن ثمّ العمل، ولمّا كانت هذه السورة وسورة الحجر تبحثان موضوع التوحيد والشرك وأُصولهما وفروعهما، فإنّ من البديهي أنّ العمل بمضمونهما له نفس الفضيلة، أي إنّهما تصيغان الإنسان بصياغتهما حتى توصلاه إلى مثل هذا الثواب.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ونور الثقلين، في بداية السورة.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

التّفسير

الخروج من الظّلمات إلى النّور

شرعت هذه السورة - كبعض السور القرآنية الأخرى - بالحروف المقطّعة، التي ذكرنا تفسيرها في بداية سورة البقرة وآل عمران، والنقطة التي يجب ملاحظتها هنا أنّ من بين ٢٩ مورداً لسور القرآن التي ابتدأت بالحروف المقطّعة هناك ٢٤ مورد ذكر بعدها مباشرةً القرآن الكريم، والتي تُبيّن أنّ هناك علاقة بين الاثنين، أي بين الحروف المقطّعة والقرآن، ولعلّ هذه العلاقة هي نفسها التي ذكرناها في بداية سورة البقرة، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يوضّح من خلال هذا البيان أنّ هذا الكتاب السّماوي العظيم المتعّهد لقيادة الإنسانيّة يتكوّن من مواد بسيطة تسمّى بحروف الألفباء، وهذه تشير إلى أهميّة هذا الإعجاز، حيث يوجد أصدق بيان من أبسط بيان.

وعلى أيّة حال فبعد ذكر الحروف (ألف لام راء) يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

في الواقع إنّ جميع الأهداف التربوية والإنسانية، المعنوية والمادية من نزول القرآن قد جُمعت في هذه الجملة (الخروج من الظّلمات إلى النّور) أي الخروج من ظلام الجهل إلى نور المعرفة، ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان، من ظلم الظالمين إلى نور العدالة، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الذنوب إلى الطهارة والتقوى، ومن التفرقة والنفاق إلى نور الوحدة.

ومن الطريف أنّ «الظّلمات» هنا (كما في بعض السور الأُخرى) جاءت بصيغة الجمع و«النّور» بصيغة المفرد، وهذه إشارة إلى أنّ كلّ الحسنات والطيّبات والإيمان والتقوى

لها حالة واحدة في ظلّ التوحيد ونوره، فهي مترابطة ومتّحدة فيما بينها، فتصنع مجتمعاً واحداً متّحداً وطاهراً من كلّ جهة.

بينما الظّلمات تعني التشتّت وتفرقة الصفوف، وحتى الطواغيت والمذنبين والمفسدين والمنحرفين في مسيرتهم الانحرافية نراهم غير متوحّدين غالباً، وفي حالة حرب فيما بينهم.

ومن هنا لمّا كان مصدر كلّ الخير هي الذات الإلهيّة المقدّسة، والشرط الأساس لدرك التوحيد هو الالتفات إلى هذه الحقيقة، فإنّه يضيف بلا فاصلة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

ولكي يبيّن أكثر ما هو النّور يقول تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1] فعزّته دالّة على قدرته، لأنّه لا يستطيع أحد أن يغلبه، والحميد دالّة على نعمه ومواهبه غير المتناهية، لأنّ الحمد والثناء دائماً تكون في مقابل النعم والمواهب.

الآية الثانية ولكي تعرّف الله بصفاته، تبيّن درساً من دروس التوحيد حيث تقول: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] فله كلّ شيء، لأنّه خالق جميع الموجودات، ولهذا السبب هو القادر والعزيز وواهب النعم والحميد.

ثمّ يتطرّق في نهاية الآية إلى مسألة المعاد (بعد أن ذكر المبدأ) فتقول الآية: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

ثمّ يُعرّف القرآن الكريم الكفّار في الآية الأُخرى، ويذكر لهم ثلاث صفات كيما نستطيع أن نعرفهم من أوّل وهلة، يقول تعالى أوّلاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[3] فهم يضحّون بالإيمان والحقّ والعدالة والشرف التي هي من خصائص محبّي الآخرة، من أجل منافعهم الشخصيّة وشهواتهم.

ثمّ يبيّن تعالى أنّ هؤلاء غير قانعين بهذا المقدار من الضلال، بل يسعون في أن يضلّوا الآخرين ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهم في الواقع يوجدون الموانع المختلفة في

---

(١) «إلى صراط الله» في الواقع بدل من «إلى النّور» فالمقصود من الهداية إلى النّور هو الهداية إلى صراط العزيز الحميد، و﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب أنزلناه.

(٢) ﴿ٱللَّهِ﴾ بالكسر لأنه بدل من ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

(٣) يقول الراغب في مفرداته: استحبّ الكفر على الإيمان، والاستحباب هو سعي الإنسان لأن يحبّ شيئاً، وإذا ما تعدّى بـ(على) فسوف يصرف عنه المعنى المتقدّم كما في ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

طريق الفطرة الإلهيّة فيزيّنون الهوى، ويدعون الناس إلى الذنوب، ويخوّفونهم من الصدق والإخلاص.

ولا يقتصر عملهم على ذلك فحسب، بل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ثمّ يحاولون أن يصبغوا الآخرين بصبغتهم، ويسعون في أن يحرفوا السبيل للوصول إلى هدفهم من خلال نشر الخرافات وابتداع السنن الخبيثة ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

وهذا الضلال قد أوجد بُعد المسافة بينهم وبين الحقّ فكان من العسير جدّاً عودتهم إلى طريق الحقّ، ولكن ذلك كان نتيجة لأعمالهم.

ملاحظات:

١ - مثل الإيمان وطريق الله مثل النّور

بالنظر إلى أنّ النّور ألطف الموجودات الماديّة في العالم، وسرعة مسيره أعلى سرعة، وبركته من أكبر البركات، ويمكن أن يقال إنّه أصل لكلّ المواهب والبركات، فإنّه يتّضح إلى أي مدى يشتمل النّور على معنىً كبير بحيث إنّ القرآن شبّه الإيمان والسير في طريق الله بالنّور. والنّور أصل التجمّع بينما الظلمة عامل للتفرّق، النّور علامة الحياة والظلمة علامة الموت.

ولهذا السبب شبّه القرآن الكريم كثيراً من الأُمور القيّمة بالنّور، ومن جملتها العمل الصالح ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾(١).

وكذلك الإيمان والتوحيد، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(٢).

وقد شبّه القرآن الكريم بالنّور في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

وكذلك الدين ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾(٤).

بل أكثر من ذلك عبّر عن ذاته المقدّسة التي هي أفضل وأسمى ما في الوجود بالنّور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٥).

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٢.
(٥) سورة النّور، الآية: ٣٥.

ومع أنّ كلّ هذه الأمور تعود إلى تلك الحقيقة، لأنّها من الله، ومن الإيمان به، فإنّها وردت بصيغة المفرد، وعلى عكس الظّلمات التي هي عامل التشتّت لذلك وردت بصيغة الجمع التي تبيّن الكثرة والتعدّد. وبما أنّ الإيمان بالله والسير في طريقه باعث على الحركة وموجباً لليقظة، وعامل للاجتماع والوحدة، ووسيلة للتقدّم والكمال، فإنّ هذا التشبيه على كلّ حال أكثر محتوىً ودلالة تربوية.

٢ - التعبير بـ ﴿لِتُخْرِجَ﴾ في الآية الأُولى تشير إلى نقطتين:

الأُولى: بما أنّ القرآن الكريم كتاب هداية ونجاة للبشر، لكنّه بحاجة إلى من يطبقه ويجريه، فيجب أن يكون هناك قائد كالرّسول لكي يستطيع أن يخرج الضالّين عن الحقيقة من ظلمات الشقاء وهدايتهم إلى نور السعادة، ولهذا فالقرآن الكريم بعظمته لا يمكن له أن يحلّ جميع المشاكل بدون وجود القائد والمنفّذ لهذه الأحكام.

الثانية: إنّ صيغة الإخراج في الواقع دليل على التحرّك المشفوع بالتغيّر والتحوّل، وكأنّ غير المؤمنين موجودون في محيط مغلق ومظلم، والرّسول - أو القائد - يأخذ بأيديهم ويدخلهم إلى جوّ واسع ومنير.

٣ - الملفت للنظر أنّ بداية هذه السورة شرعت بمسألة هداية الناس من الظّلمات إلى النّور، ونهايتها خُتِمت بمسألة إبلاغ وإنذار الناس، وهذه توضّح أنّ الهدف الأصلي في كلّ الأحوال هو الناس ومصيرهم وهدايتهم، فإنزال الكتب السّماوية وبعث الأنبياء في الواقع هو للوصول إلى هذا الهدف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

التفسير

الأيّام الحسّاسة في الحياة

كان الحديث في الآيات السابقة عن القرآن الكريم وآثاره الروحية، وتتابع الآية الأولى من هذه المجموعة نفس الموضوع، لكن في بُعد خاص وهو أنّ دعوة الأنبياء وكتبهم السّماوية نزلت بلسان أقوامهم الذين بُعِثوا إليهم. يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾.

لأنّ الأنبياء يرتبطون في الدرجة الأُولى مع قومهم، وأوّل نور الوحي يشعّ من بينهم، وأوّل الصحابة والأنصار يُنتخبون منهم، لذلك فإنّ الرّسول يجب أن يحدّثهم بلغتهم وبلسانهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

وفي الحقيقة فإنّ هذه الجملة تشير إلى أنّ دعوة الأنبياء لا تنعكس في قلوب أتباعهم بأُسلوب مرموز وغير معروف، بل كانت توضّح لهم من خلال التبيين والتعليم والتربية وبلسانهم الرائج.

ثمّ يضيف القرآن الكريم بعد أن بيّن لهم الدعوة الإلهيّة ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فليست الهداية والضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإبلاغ والتبيين، الله سبحانه وتعالى هو الموجّه والهادي الحقيقي لعباده.

ولكي لا يتصوّر أحد أنّ هذا القول بمعنى الجبر وسلب الحريّات، فيضيف القرآن مباشرة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وبمقتضى عزّته وقدرته فإنّه قادر على كلّ شيء، ولا أحد له قدرة على المقاومة في مقابل إرادته تعالى، ولكن بمقتضى حكمته لا يهدي ولا يضلّ أحداً بدون سبب ودليل، بل الخطوة الأُولى تبدأ من قبل العباد وبكامل الحرية في السير إلى الله، ثمّ يشعّ نور الهداية وفيض الحقّ في قلوبهم، كما في سورة العنكبوت الآية (٦٩) ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وكذلك حال الذين تاهوا في وادي الضلالة وحُرِموا من فيض الهداية، فهو نتيجة لتعصّبهم الأعمى ومحاربتهم للحقّ، وغرقهم في الشّهوات، وتلوّثهم بالظلم والجور. كما يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾(١)، ويقول أيضاً: ﴿وَمَا

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣٤.

﴿يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

وعلى هذا النحو فإنّ محور الهداية والضلال في أيدي الناس أنفسهم.

تشير الآية الأُخرى إلى واحدة من نماذج إرسال الأنبياء في مقابل طواغيت عصرهم، ليخرجوهم من الظّلمات إلى النّور: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٣).

وكما قرأنا في الآية الأولى من هذه السورة فإنّ خلاصة دعوة رسول الإسلام ﷺ هي إخراج الناس من الظّلمات إلى النّور، فهذه دعوة كلّ الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر، فهل الظلم غير الضلال والانحراف والذلّ والعبوديّة والفساد والظلم؟! وهل النّور غير الإيمان والتقوى والحرية والاستقلال والعزّة والشرف؟! لذلك فإنّها تمثّل الخطّ المشترك والجامع بين كلّ دعوات القادة الإلهيين.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى واحدة من أكبر مسؤوليات موسى عليه السلام حيث يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.

من المتيقّن أنّ كلّ الأيّام هي أيّام الله، كما أنّ كلّ الأماكن متعلّقة بالله جلّ وعلا، وإذا كانت هناك نقطة خاصّة تسمّى (بيت الله) فذلك بدليل ميزاتها، كذلك أيّام الله تشير إلى أيّام مميّزة لها خصائص منقطعة النظير.

ولهذا السبب اختلف المفسّرون في تفسيرها:

قال البعض: إنّها تشير إلى أيّام النصر للأنبياء السابقين وأُممهم والأيّام التي شملتهم النعم الإلهيّة فيها على أثر استحقاقهم لها.

وقال البعض الآخر: إنّها تشير إلى العذاب الإلهي الذي شمل الأقوام الطاغين والعاصين لأمر الله.

وقال آخرون: إنّها تشير إلى المعنيين السابقين معاً.

لكنّنا - حقّاً - لا نستطيع أن نجعل هذه العبارة البليغة والواضحة محدودة، فأيّام الله هي جميع الأيّام العظيمة في تاريخ الإنسانيّة. فكلّ يوم سطعت فيه الأوامر الإلهيّة وجعلت بقيّة الأُمور تابعة لها، هي من أيّام الله، وكلّ يوم يُفتح فيه فصل جديد من حياة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦. (٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٣) المعجزات التي ظهرت من موسى بن عمران أشارت إليها الآية أعلاه بلفظ الآيات، وهي ٩ معاجز مهمّة طبقاً للآية (١٠١) من سورة الإسراء، والتي سوف تأتي إن شاء الله في تفسير تلك الآية.

الناس فيه درس وعبرة، أو ظهور نبي فيه، أو سقوط جبّار وفرعون - أو كلّ طاغ - ومحوه من الوجود. خلاصة القول: كلّ يوم يُعمل فيه بالحقّ والعدالة ويتلاشى فيه الظلم وتنطفي فيه البدعة، هو من أيّام الله.

وكما سوف نرى أنّ روايات الأئمّة عليهم السلام في تفسير هذه الآية تشير إلى هذه الأيّام الحسّاسة.

وفي آخر الآية يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿صَبَّارٍ﴾ و ﴿شَكُورٍ﴾ صيغة مبالغة فأحدهما تشير إلى شدّة الصبر، والأخرى إلى زيادة الشكر، وتعني أنّ المؤمنين كما لا يستسلمون للحوادث والمشاكل التي تصيبهم في حياتهم، كذلك لا يغترّون ولا يغفلون في أيّام النصر والنعم، وذكر هاتين الصفتين بعد الإشارة إلى أيّام الله دليل على ما قلناه.

تشير الآية الأُخرى إلى أحد هذه الأيّام التي كانت ساطعة ومثمرة في تاريخ بني إسرائيل، وذكرها تذكرةً للمسلمين حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ هؤلاء الفراعنة الذين كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي يوم أكثر بركة من ذلك اليوم حيث أزال الله عنكم فيه شرّ المتكبّرين والمستعمرين، الذين كانوا يرتكبون أفظع الجرائم بحقّكم، وأي جريمة أعظم من ذبح أبنائكم كالحيوانات (انتبه إلى أنّ القرآن عبّر بالذبح لا بالقتل) وأهمّ من ذلك فإنّ نواميسكم كانت خدماً في أيدي الطامعين.

وليس هذا المورد خاصّ ببني إسرائيل، بل في جميع الأُمم والأقوام. فإنّ يوم الوصول إلى الاستقلال والحرية وقطع أيدي الطواغيت يوم من أيّام الله الذي يجب أن نتذكّره دوماً حتى لا نعود إلى ما كنّا عليه في الأيّام الماضية.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ من مادّة (سَوْمَ) على وزن (صوم) بمعنى البحث عن الشيء، وتأتي بمعنى فرض عمل على الآخرين(١)، ولهذا فإنّ معنى جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: إنّ أُولئك كانوا يفرضون عليكم أسوأ الأعمال وأكثرها تعذيباً. وهل أنّ تجميد وإبادة الكتلة

(١) راجع المفردات للراغب، وتفسير المنار، [ج ١، ص ٣٠٨] وتفسير الرازي [ج ٧، ص ٧].

الفعّالة في المجتمع واستخدام نسائهم وإذلالهنّ على يد فئة ظالمة وطاغية يعتبر أمراً هيّناً؟!

ثمّ إنّ التعبير بفعل المضارع «يسومون» إشارة إلى أنّ هذا العمل كان مستمرّاً لمدّة طويلة.

وجملة ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ...﴾ معطوفة على ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وفي عين الوقت هي من مصاديق سوء العذاب، وذلك بسبب أهميّة هذين العذابين، وهذا توضيح أنّ فرعون وقومه الظالمين فرضوا على بني إسرائيل أحكاماً جائرة أُخرى، إلاّ أنّ هذين العذابين كانا أشدّ وأصعب.

ثمّ يضيف القرآن الكريم ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾(١) يمكن أن تكون هذه الآية من كلام موسى لبني إسرائيل حيث دعاهم فيها إلى الشكر في مقابل ذلك النجاة والنصر والنعم الكثيرة، ووعدهم بزيادة النعم، وفي حالة كفرهم هدّدهم بالعذاب، ويمكن أن تكون جملة مستقلّة وخطاباً للمسلمين، ولكن على أيّة حال فالنتيجة واحدة، لأنّه حتى إذا كان الخطاب موجّهاً لبني إسرائيل فإنّ وروده في القرآن الكريم من أجل أن يكون درساً بنّاءً لنا. ومن الطريف أنّه في حالة الشكر يقول بصراحة: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أمّا في حالة كفران النعم فلا يقول (أُعذّبكم) بل يقول: ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ وهذا التفاوت دليل على سموّ اللطف الإلهي.

بحوث

١ - التذكّر لأيام الله

كما قلنا في تفسير الآية أعلاه، فإنّ إضافة «أيّام» إلى «الله» إشارة إلى الأيّام المصيرية والمهمّة في حياة الناس، فإنّها بسبب عظمتها أُضيفت إليها كلمة «الله»، وكذلك لأنّ واحدة من النعم الإلهيّة الكبيرة شملت حال قوم أو أُمّة، أو إحدى العقوبات الكبرى أصابت قوماً طاغين بالعذاب الإلهي، وقد أراد الله تعالى أن يجعل هذه الأيّام تذكرة باقية للناس.

(١) ﴿تَأَذَّنَ﴾ من باب «تفعّل» بمعنى الإعلام للتأكيد، لأنّ مادّة إفعال من (إيذان) بمعنى إعلام، ولمّا يصبح من باب تفعّل يستفاد منه الإضافة والتأكيد.

الرّوايات الواردة من أهل البيت عليهم السلام تشير أنّهم فسّروا «أيّام الله» بأيّام مختلفة، فعن الإمام الباقر عليه السلام قال «أيّام الله، يومٌ يقوم القائم عليه السلام ويوم الكرّة[1]، ويوم القيامة»[2].

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم «أيّام الله ثلاثة أيّام، يوم قيام المهدي عليه السلام ويوم الموت، ويوم القيامة».

وعن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أيّام الله نعماؤه وبلاؤه ببلائه سبحانه»[3].

وكما قلنا سابقاً فإنّ مثل هذه الأحاديث غير دالّة على الحصر إطلاقاً، بل هي بيان لقسم من مصاديقها.

وعلى أيّة حال فتذكر الأيّام العظيمة (من أيّام النصر أو من أيّام الشدّة) له دور مؤثّر في يقظة الشعوب، وبالإلهام من هذا النداء السّماوي سوف نحيي الأيّام العظيمة في التاريخ الإسلامي، ونخصّص لها أيّاماً معيّنة في السنة لتجديد ذكراها، لكي نتعلّم منها الدروس التي لها أثر مهمّ في يومنا هذا.

وفي تاريخنا المعاصر - خصوصاً في تأريخ الثورة الإسلامية في إيران - توجد أيّام مثيرة جدّاً والتي هي بحقّ مصداق لـ «أيّام الله» ويجب أن نذكرها في كلّ سنة، وهي التي امتزجت بذكرى الشهداء، والمقاتلين، والمجاهدين الكبار، ومن ثمّ نستلهم منها ونحفظ ميراثهم الكبير.

وعلى هذا الأساس يجب أن نُدخل هذه الأيّام العظام ضمن برامج الكتب الدراسيّة في مدارسنا، وضمن التعليم والتربية لأبنائنا، ولكي نعلم مسؤوليتنا «وذكّرهم» في مقابل الأجيال القادمة.

لقد أشار القرآن الكريم مراراً إلى «أيّام الله» فنسبها لبني إسرائيل مرّة، وأُخرى للمسلمين، وذكّرهم بأيّام النعم والعذاب.

٢ - طريقة الجبّارين في التعامل

نقرأ مراراً في آيات القرآن الكريم أنّ الفراعنة كانوا يذبحون أبناء بني إسرائيل ويحتفظون بنسائهم، وهذا العمل لا يقتصر على فرعون، بل كان على طول التاريخ

---

(١) يوم الكرّة - أي يوم الرجعة.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٢، ٥٢٦، ح ٧.

(٣) المصدر السّابق.

طريقة كلّ المستعمرين حيث كانوا يبيدون قسماً من القوى الفاعلة والمقاومة، ويضعفون قسماً آخر منها ويستخدمونها في منافعهم الخاصّة، وبدون هذا العمل لا يمكنهم الاستمرار في استعمارهم.

والمهمّ يجب أن نعلم أنّهم كانوا يذبحون الأبناء مباشرةً مرّةً (كالفراعنة) وأحياناً يبيدوهم بالإدمان على المخدّرات والمشروبات الكحولية، وإغراقهم في دوّاهة الفحشاء لذلك يجب أن ينتبه المسلمون إلى هذه المسألة، فإذا سلك جيل الشباب هذه المسالك المهلكة وفقد سلاح الإيمان ومقدرته الجسدية، فيجب أن يعلم عبوديته للأجانب حتمية.

٣ - الحرية من أفضل النعم

من الطريف أنّ الآية أعلاه بعد أن ذكرت «أيّام الله» أشارت بصراحة إلى يوم واحد منها، وهو يوم نجاة بني إسرائيل من قبضة الفراعنة ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ إنّ تاريخ بني إسرائيل مليء بالأيّام العظيمة التي وهبهم الله فيها النعم الكبيرة تحت ظلّ هداية موسى، ولكن ذكر (يوم النجاة) في الآية أعلاه دليل على أهميّة الحرية والاستقلال في مصير الأمم.

نعم لا تستطيع أي أُمّة أن تُظهر نبوغها واستعدادها إلاّ من خلال قطع التبعية للأجنبي والتحرّر من قبضة الاستعمار وأسره. ولا يمكن أن ترفع قدماً في سبيل الله إلاّ من خلال محاربة الشرك والظلم.

ولهذا السبب كان العمل الأوّل للقادة الإلهيين هو تحرير الشعوب من التبعيّة الفكرية والثقافية والسياسيّة والاقتصادية، ثمّ العمل في إيجاد البرامج التوحيديّة والإنسانيّة لهم.

٤ - الشكر سبب لزيادة النعم والكفر سبب للفناء

ممّا لا شكّ فيه أنّ الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى شكرنا في مقابل نعمه علينا، وإذا أمرنا بالشكر فذاك لنستوجب نعمة أُخرى وهي واحدة من المبادىء السامية في التربية.

المهمّ أن نعرف ما هي حقيقة الشكر؟ لكي يتّضح علاقته في زيادة النعمة من أين؟ وكيف تستطيع أن تكون عاملاً مهمّاً للتربية؟

إنّ حقيقة الشكر ليس فقط ما يقوله الإنسان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أو الشكر اللفظي، بل هناك ثلاث مراحل للشكر:

الأولى: يجب أن نعلم مَن هو الواهب للنعم؟ هذا العلم والإيمان الركن الأوّل للشكر.

والثّانية: الشكر باللسان.

والثّالثة: وهي الأهمّ الشكر العملي، أي أن نعلم الهدف من منحنا للنعمة، وفي أيّ مورد نصرفها، وإلاّ كفرنا بها، كما قال العظماء: (الشكر صرف العبد جميع ما أنعمه الله تعالى فيما خلق لأجله).

لماذا أعطانا الله تعالى العين؟ ولماذا وهبنا السمع والنطق؟ فهل كان السبب غير أن نرى عظمته في هذا العالم، ونتعرّف على الحياة؟

وبهذه الوسائل نخطو إلى التكامل، ندرك الحقّ وندافع عنه ونحارب الباطل، فإذا صرفنا النعم الإلهيّة في هذا المسير كان ذلك هو الشكر العملي له، وإذا أصبحت هذه الأدوات وسيلة للطغيان والغرور والغفلة والابتعاد عن الله فهذا هو عين الكفران!

يروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أدنى الشكر رؤية النعمة من الله من غير علّة يتعلّق القلب بها دون الله، والرضا بما أعطاه، وأن لا تعصيه بنعمة وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب من نعمته»[1].

وهنا يتّضح أنّ شكر العلم والمعرفة والفكر والمال والسلامة، كلّ واحد منها من أي طريق يتمّ؟ وكيف يكون كفرانها؟

الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام دليل واضح على هذه التّفسيرات حيث يقول: «شكر النعمة اجتناب المحارم»[2].

وتتضّح أيضاً هذه العلاقة بين الشكر وزيادة النعمة، لأنّ الناس لو صرفوا النعم الإلهيّة في هدفها الحقيقي، فسوف يثبتون عمليّاً استحقاقهم لها وتكون سبباً في زيادة الفيوضات الإلهيّة عليهم.

من الثابت أنّ هناك نوعين من الشكر، (شكر تكويني) و(شكر تشريعي). «الشكر التكويني» هو أن يستفيد الكائن الحي من مواهبه في نموّه ورشده، فمثلاً يرى المزارع أنّ القسم الفلاني من مزرعته تنمو فيه الأشجار بشكل جيد، وكلّما يخدمها أكثر تنتج أكثر، فهذا الأمر سوف يؤدّي إلى أن يقوم المزارع على خدمة وتربية ذلك القسم بشكل أكبر،

(١) سفينة البحار، ج ١، ٧١٠.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٢، ٥٢٩، ح ٢٤.

ويوصي مساعديه بها، لأنّ الأشجار تناديه بلسان حالها: أيّها المزارع، نحن لائقون مناسبون، أفض علينا من النعم، وهو يجيبهم بالإثبات.

أمّا إذا رأى في قسم آخر أشجاراً ذابلة ويابسة وليس لها ثمر، فكفران النعمة من قبلها بهذه الصورة يسبّب عدم اعتناء المزارع بها، وإذا استمرّ الوضع بهذه الحال سوف يقوم بقلعها.

وهذه الحالة موجودة في عالم الإنسانيّة بهذا التفاوت، وهو أنّ الأشجار ليس لها الاختيار، بل هي خاضعة للقوانين التكوينيّة، أمّا الإنسان فباستفادته من إرادته واختياره وتربيته التشريعيّة يستطيع أن يخطو في هذا المجال خطوات واثقة.

ولذلك فمن يستخدم نعمة القوّة في الظلم، ينادي بلسان حاله: إلهي، أنا غير لائق لهذه النعمة، ومن يستخدمها لإقامة الحقّ والعدالة يقول بلسان حاله: إلهي، أنا مناسب ولائق فزد نعمتك عليّ!

وهناك حقيقة غير قابلة - أيضاً - للترديد، وهي أنّنا في كلّ مرحلة من مراحل الشكر الإلهي - إن كان باللسان أو العمل - سوف نحتاج إلى شكر جديد لمواهب وعطايا جديدة، ولذلك فلسنا قادرين أن نؤدّي حقّ الشكر، كما نقرأ في مناجاة الشاكرين للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «كيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد»!

ولهذا فإنّ أعلى مراحل الشكر أن يُظهر الإنسان عجزه أمام شكر نعمائه تعالى، كما جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى: اشكرني حقّ شكري، فقال: يا ربّ، وكيف أشكرك حقّ شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلاّ وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: ياموسى، الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك منّي»(١).

هناك عدّة نقاط في مجال شكر النعمة:

١ - قال الإمام علي عليه السلام في إحدى حكمه: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر»(٢).

---

(١) أُصول الكافي، ج ٤، ص ٨٠ باب الشكر. وج ٢، ص ٩٨ باب الشكر، ح ٢٧.
(٢) نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ١٣.

٢ - يجب الالتفات إلى هذا الموضوع، وهو أنّ الشكر والحمد ليس كافياً في مقابل نعمائه تعالى، بل يجب أن نشكر - كذلك - الأشخاص الذين كانوا وسيلة لهذه المواهب ونؤدّي حقوقهم من هذا الطريق، ونشوّقهم أكثر بالخدمة في هذا السبيل، كما نقرأ في الحديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «وإنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين ويحبّ كلّ عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس»[(١)].

٣ - إنّ الوعد في زيادة نعم الشاكرين لا ينحصر في النعم المادية فقط، بل الشكر نفسه مصحوباً بالتوجّه الخاص لله والحبّ لساحته المقدّسة هو واحد من النعم الإلهيّة الروحيّة الكبيرة، والتي لها تأثير كبير في تربية نفوس الناس، ودعوتهم لطاعة الأوامر الإلهيّة، بل الشكر ذاته طريق إلى معرفة الله، ولهذا السبب ورد عن علماء العقائد في علم الكلام أنّ وجوب شكر المنعم طريق إلى إثبات وجوب معرفة الله.

٤ - إنّ إحياء روح الشكر في المجتمع وتقديمه إلى مستحقّيه وتقديرهم وحمدهم وثنائهم على خدمتهم في طريق تحقيق الأهداف الاجتماعية بعلمهم ومعرفتهم وإيثارهم واستشهادهم، هو عامل مهمّ في حركة ورُقيّ المجتمع.

ففي المجتمع الفاقد للشكر والتقدير نجد القليل جدّاً ممّن يريد الخدمة، وعلى العكس فالمجتمع الذي يقيّم ويثني على خدمات الأشخاص، يكون أكثر نشاطاً وحيوية.

والالتفات إلى هذه الحقيقة أدّى إلى أن تقام في عصرنا مراسم إحتفال لتقدير وشكر الأساطين في الذكرى المئوية، أو الذكرى الألفية، وضمن هذا الشكر لخدماتهم يدعى الناس إلى الحركة والسعي بشكل أكبر.

إحياء هذه الذكريات يساعد على ترشيد الإيثار والتفاني لدى الآخرين، فيرتفع المستوى الثقافي والأخلاقي لدى الناس، وبتعبير القرآن فإنّ شكر هذه النعمة سوف يبعث على الزيادة، ومن دم شهيد واحد يُبعث آلاف المجاهدين، ويكون مصداقاً حيّاً لـ ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

---

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٩٩، ح ٣٠.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

أفي الله شكّ؟

الآية الأُولى من هذه المجموعة تؤيّد وتُكمل البحث السابق في الشكر والكفران، وذلك ضمن الكلام الذي نقل عن لسان موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(١).

إنّ الشكر والإيمان بالله - في الواقع - سبب في زيادة النعم والتكامل الإنساني، وإلاّ فالله عزّ وجلّ ليس بحاجة إلى أي شيء، ولو كفرت جميع الكائنات ولم تحمده لا تَمسُّ كبرياءه بأدنى ضرر، لأنّه حميد في ذاته.

ولو كان محتاجاً لم يكن واجب الوجود، وعلى هذا فمفهوم الغني هو اشتماله لجميع الكمالات، وإذا كان كذلك فهو محمود في ذاته، لأنّ «الحميد» من استحقّ الحمد.

ثمّ يشرح مصير الفئات من الأقوام السابقة ضمن عدّة آيات، الفئات التي كفرت بأنعم الله وخالفت الدعوة الإلهيّة، وهي تأكيد للآية السابقة يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

---

(١) ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ جملة شرطيّة جوابها محذوف، وجملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ تدلّ على ذلك وكأنّ التقدير «إن تكفروا... لا تضرّوا الله شيئاً».

يمكن أن تكون هذه الجملة تعقيباً على كلام موسى، أو بيان مستقلّ يخاطب به المسلمين، لكن النتيجة غير متفاوتة كثيراً، ثمّ يضيف تعالى: ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ﴾ فهؤلاء لم يطّلع على أخبارهم إلاّ الله ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾[1].

ممّا لا شكّ فيه أنّ قسماً من أخبار قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم قد وصلتنا، ولكن لم يصلنا القسم الأكبر منها ولا يعلمها إلاّ الله، فتاريخ الأقوام الماضية مليءٌ بالأسرار والخصوصيّات بحيث لم يصل إلينا منها إلاّ القليل. ولكي يوضّح القرآن الكريم مصيرهم يقول: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم من التعجّب والإنكار ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾. لماذا؟ بسبب ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾. ومعه كيف يمكننا أن نؤمن بما تدعونا إليه؟

ويرد هنا سؤال، وهو أنّهم أظهروا الكفر وعدم الإيمان بالرّسول في البداية، ولكن بعد ذلك أظهروا الشكّ والريب، فكيف ينطبق الاثنان؟

الجواب: إنّ بيان الشكّ والترديد - في الحقيقة - علّة لعدم الإيمان، لأنّ الإيمان بحاجة إلى اليقين، والشكّ مانع لذلك.

وبما أنّ الآية السابقة بيّنت قول المشركين والكفّار في عدم إيمانهم بسبب شكّهم وترديدهم، فالآية بعدها تنفي هذا الشكّ من خلال دليل واضح وعبارة قصيرة حيث يقول تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

مع أنّ ﴿فَاطِرِ﴾ من «فطر» وهي في الأصل بمعنى «شقّ» إلاّ أنّه هنا كناية عن «الخلق» فالخالق هو الموجد للأشياء على أساس نظام دقيق ثمّ يحفظها ويحميها، كأنّ ظلمة العدم شقّت بنور الوجود، وكما يطلع الفجر من عتمة الليل، وكما يتشقّق التمر من غلافه.

ولعلّ ﴿فَاطِرِ﴾ تشير إلى تشقّق المادّة الأوّلية للعالم، كما نقرأ في العلوم الحديثة أنّ مجموع مادّة العالم كانت واحدة مترابطة ثمّ انشقّت إلى كُرات مختلفة.

وعلى أيّة حال، فالقرآن الكريم هنا - كما في أغلب الموارد الأُخرى - يستند لإثبات وجود الخالق وصفاته إلى نظام الوجود وخلق السّماوات والأرض، ونحن نعلم أنّه ليس

---

(١) جملة ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ قد تكون معطوفة على ما قبلها والواو محذوفة، وقد تكون جملة وصفية للجملة السابقة.

هناك أوضح من هذا الدليل لمعرفة الله، لأنّ هذا النظام العجيب مليء بالأسرار في كلّ زواياه، وينادي بلسان حاله: ليس هناك من له القدرة على هذه الهندسة إلاّ القادر الحكيم والعالم المطلق، ولهذا السبب فكلّما تقدّمت العلوم ظهرت أسرار تدلّ على الخالق أكثر من السابق وتقرّبنا من الله في كلّ لحظة.

وما أكثر العجائب في القرآن؟ فكلّ بحوث معرفة الله والتوحيد - والتي وردت بصيغة الاستفهام الإنكاري - أشارت إليها هذه العبارة: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذه العبارة إذا أردنا تجزئتها وتحليلها بشكل موسّع لا تكفيها آلاف الكتب.

إنّ مطالعتنا لأسرار الوجود ونظام الخلقة لا تهدينا إلى وجود الله فحسب، بل إلى صفاته الكمالية أيضاً كعلمه وقدرته وحكمته.

ثمّ يجيب القرآن الكريم على ثاني اعتراض للمخالفين، وهو اعتراضهم على مسألة الرسالة (لأنّ شكّهم كان في الله وفي دعوة الرّسول) ويقول إنّ من المسلّم أنّ الله القادر والحكيم لا يترك عباده بدون قائد، بل إنّه بإرسال الرسل: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[(١)].

وزيادة على ذلك فإنّه ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كيما تسلكوا سبيل التكامل وتستفيدوا من موهبة الحياة بأقصى ما يمكنكم.

إنّ غاية دعوة الأنبياء أمران: أحدهما غفران الذنوب، بمعنى تطهير الروح والجسم والمحيط الإنساني، والثّاني استمرار الحياة إلى الوقت المعلوم، والاثنان علّة ومعلول، فالمجتمع الذي يستمرّ في وجوده هو المجتمع النقي من الظلم والذنوب.

ففي طول التاريخ أُبيدت مجتمعات كثيرة بسبب الظلم والذنوب واتّباع الهوى، وبتعبير القرآن لم يصلوا إلى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

روي في حديث جامع عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممّن يعيش بالأعمال»[(٢)].

---

(١) هناك جدل بين المفسّرين في معنى ﴿مِّن﴾، فقال بعضهم بالتبعيض، أي يغفر قسماً من ذنوبكم، وهذا الاحتمال ضعيف لأنّ الإيمان يؤدّي إلى غفران الذنوب كلّها (الإسلام يجب ما قبله) واحتمل البعض الآخر أنّ ﴿مِّن﴾ بدل، فيكون معنى الجملة يدعوكم ليغفر ذنوبكم بدل الإيمان، وقال آخرون: إنّ ﴿مِّن﴾ هنا زائدة للتأكيد، ومعناه: إنّ الله تعالى يدعوكم للإيمان ليغفر لكم ذنوبكم، وهذا التّفسير نراه أقرب إلى الصحّة.

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٤٨٨؛ مستدرك، ج ١١، ص ٣٢٧، ح ١٣١٦٧.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إنّ الرجل يذنب فيحرم صلاة الليل، وإنّ العمل السيّئ أسرع في صاحبه من السكّين في اللحم»[1].

ونستفيد من هذه الآية - ضمنياً - أنّ الإيمان بدعوة الأنبياء والعمل بأحكامها يأخذ طابع الأجل المعلّق، وتستمرّ حياة الإنسان إلى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (لأنّنا نعلم أنّ للإنسان نوعين من الآجال، أجل محتوم ويكون بانتهاء الحياة في جسم الإنسان، وأجل معلّق ويكون بفناء الإنسان على أثر عوامل وموانع في وسط العمر، وهذا غالباً ما يكون بسبب اللامبالاة وارتكاب الذنوب، وقد بحثنا هذا الموضوع في ذيل الآية (٢) من سورة الأنعام).

ومع كلّ ذلك لم يقبل الكفّار المعاندون دعوة الحقّ المصحوبة بوضوح منطق التوحيد، ومن خلال بيانهم المشوب بالعناد وعدم التسليم كانوا يجيبون الأنبياء بهذا القول: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ علاوة على ذلك ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وأكثر من ذلك ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

وقد ذكرنا مراراً (كما صرّح القرآن بذلك) أنّ كون الأنبياء بشراً ليس مانعاً لنبوّتهم، بل هو مكمّل لها، ولكن أُولئك الأقوام يوردون هذه الحجّة دليلاً لإنكار الرسالة، والهدف - غالباً - هو التبرير والعناد.

وكذلك الحال في الاستنان بسنّة الأجداد، فإنّها وبالنظر إلى هذه الحقيقة وهي أنّ معرفة الأجيال القادمة أكثر من الماضين، لا تعدو سوى خرافة وجهل.

ويتّضح من هنا أنّ طلبهم لم يكن لإقامة البرهان الواضح، بل لهروبهم من الحقيقة، لأنّ القرآن الكريم - كما قرأنا مراراً - ذكر أنّ هؤلاء المعاندين أنكروا الآيات الواضحة والدلائل البيّنة، وكانوا يقترحون في كلّ مرّة معجزة ودليلاً للتهرّب من الأمر الواقع.

وعلى كلّ حال نقرأ في الآيات القادمة كيف أجابهم الأنبياء.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

(١) المصدر السابق. أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٢، ح ١٦.

التفسير

التوكّل على الله وحده

نقرأ في هاتين الآيتين جواب الرسل على حجج المخالفين المعاندين، واعتراضهم على بشرية الرسل، فكان جوابهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني لو افترضنا أنّ الله تعالى أرسل لكم ملائكة بدل البشر، فهي لا تمتلك شيئاً لذاتها، فكلّ المواهب ومن جملتها موهبة الرسالة والقيادة هي من عند الله، فالذي يستطيع أن يهب الملائكة هذا المقام قادر أن يعطيها للإنسان.

وبديهي أنّ هذه المنح من قبل الله ليست بدون حساب، وقد قلنا مراراً: إنّ المشيئة الإلهيّة تُساير حكمته تعالى، فعندما نسمع قول القائل: «إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً...» يكون المراد العبد المستعدّ لهذه الموهبة، ومن المعلوم أنّ مقام الرسالة موهبة إلهيّة، ونحن نرى أنّ الأنبياء بالإضافة إلى الرسالة الإلهيّة لهم استعداد وأهلية لتحمّلها.

ثمّ يجيب على السؤال الثّالث دون أن يجيب على الثاني، وكأنّ الاعتراض الثّاني الذي هو الاستنان بسنّة الأجداد ليس له أي أهميّة وفارغ من المحتوى بحيث إنّ أيّ إنسان عاقل - بأقلّ تأمّل - يفهم جوابه، بالإضافة إلى أنّ القرآن الكريم قد أجاب عنه في آيات أُخر.

وجواب السؤال الثّالث هو أنّ عملنا ليس الإتيان بالمعاجز، فنحن لا نجلس في مكان ونلبّي لكم المعاجز الاقتراحية وكلّ ما سوّلت لكم أنفسكم، بل ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ومع ذلك فإنّ كلّ نبي كان يظهر لقومه المعاجز بمقدار كافٍ بدون أن يطلبها الناس منه، وذلك لكي يثبت الأنبياء أحقّيتهم ولتكون المعاجز سنداً لصدقهم، مع أنّ مطالعة دعوتهم وحدها أكبر إعجاز لهم، ولكن المعترضين غالباً لم يصغوا لذلك، وهم يقترحون كلّ يوم شيئاً جديداً، فإن لم يستجب لهم الرّسول، يقيمون الدنيا ويقعدوها، ولكي يردّ الرسل على تهديداتهم المختلفة ويقولون: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وبعد ذلك استدلّ الأنبياء على مسألة التوكّل حيث قالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ فالذي منحنا أفضل المواهب، يعني موهبة الهداية إلى طرق السعادة، سوف يقوم بحمايتنا في مقابل أي هجوم أو مشكلة تعترضنا.

ثمّ أضافوا: إنّ ملاذنا هو الله، ملاذ لا يُقهر وهو فوق كلّ شيء: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ وأخيراً أنهوا كلامهم بهذه الجملة: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

بحوث

١ - ما هو معنى التوكّل؟

قرأنا في الآية الأولى ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وفي الآية الثانية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وكأنّ الجملة الثانية تشير إلى مرحلة أوسع وأعمّ من الجملة الأولى، يعني أنّ توكّل المؤمنين ممّا لا شكّ فيه - لأنّ الإيمان بالله غير منفصل عن الإيمان بقدرته وحمايته والتوكّل عليه - بل حتى غير المؤمنين ملجأهم إلى الله ولا يجدون سبيلاً غيره، لأنّ غيره فاقد للأشياء، وكلّ ما في الوجود ملك لذاته المقدّسة، ولذلك يجب أن يجعلوه وليّاً لهم، ويطلبوا منه أن يهديهم توكّلهم هذا للإيمان بالله.

٢ - المعاجز بيد الله تعالى

أجابت الآيات أعلاه - بشكل واضح - الأشخاص الذين كانوا ينكرون إعجاز الرسل، أو ينكرون معاجز رسول الإسلام غير القرآن، وتُعلّمنا هذه الآيات أنّ الرسل لم يقولوا أبداً: نحن لا نأتي بالمعاجز، بل إنّ الأوامر الإلهيّة كانت تمنعهم من ذلك، لأنّ الإعجاز بيده وفي اختياره، وكلّ ما يراه مصلحة يأمرنا به.

٣ - ما هي حقيقة وفلسفة التوكّل؟

«التوكّل» في الأصل من «الوكالة» وكما قال الراغب: التوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك، ونحن نعلم أنّ الوكيل الصالح له أربع خصال رئيسيّة: العلم الكافي، والأمانة، والقدرة، والمبالغة في رعاية مصلحة موكّله، فانتخاب الوكيل المحامي يتمّ في الأعمال التي لا يستطيع الإنسان نفسه أن يدافع عنها، فيستفيد من مساعدة قوّة الآخرين في حلّ مشاكله.

وعلى ذلك فالتوكّل على الله يتمّ في حالة عدم استطاعة الإنسان من حلّ المشاكل الحياتية وفي مقابل الأعداء وإصرار المخالفين، وأحياناً في الطرق المسدودة التي تواجهه في مسيرة أهدافه، ولذلك فهو يستند إلى الله جلّ وعلا ويستمر في سعيه، بل حتى لو كان مستطيعاً في أداء أعماله، فيجب أن يعلم أنّ الله هو المؤثّر الأصلي، لأنّ الله تعالى في نظر المؤمن هو منبع لكلّ القدرات.

والنقطة التي تقابل التوكّل على الله هي التوكّل على غيره، يعني الاتّكالية في الحياة والتبعية للآخرين، وعدم الاستقلاليّة، يقول علماء الأخلاق: التوكّل الثمرة المباشرة لتوحيد أفعال الله، لأنّه - وكما قلنا - من وجهة نظر المؤمن يرتبط كلّ ما في الكون بالنهاية بذات الله المقدّسة، ولذلك فالموحّد يرى أنّ جميع أسباب القدرة والنصر من عند الله.

فلسفة التوكّل:

نستفيد ممّا ذكرناه أنّه:

أوّلاً: إنّ الإنسان سوف تزداد مقاومته للمشاكل الصعبة لتوكّله على الله الذي هو منبع جميع القدرات والاستطاعات.

ولهذا السبب فعندما انهزم المسلمون في «أُحد» يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

وهناك نماذج أُخرى للمقاومة والثبات في ظلّ التوكّل، ومن جملتها الآية (١٢٢) من آل عمران يقول تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفي الآية (١٢) من سورة إبراهيم يقول تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾.

وفي الآية (١٥٩) من آل عمران ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وكذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

نستفيد من مجموع هذه الآيات أنّ القصد من التوكّل أن لا يحسّ الإنسان بالضعف في مقابل المشكلات العظيمة، بل بتوكّله على قدرة الله المطلقة يرى نفسه فاتحاً ومنتصراً، وبهذا الترتيب فالتوكّل عامل من عوامل القوّة واستمداد الطاقة وسبب في زيادة المقاومة والثبات، وإذا كان التوكّل يعني الجلوس في زاوية ووضع إحدى اليدين على الأُخرى، فلا معنى لأن يذكره القرآن بالنسبة للمجاهدين وأمثالهم.

وإذا اعتقد البعض أنّ التوكّل لا ينسجم مع التوجه إلى العلل والأسباب والعوامل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٩.

الطبيعيّة، فهو في خطأ كبير، لأنّ فصل العوامل الطبيعيّة عن الإرادة الإلهيّة يعتبر شركاً بالله، أو ليست هذه العوامل تسير بأوامر ومشيئة الله؟

نعم إذا اعتقدنا أنّ العوامل مستقلّة عن إرادته فسوف لاينسجم هذا الاعتقاد مع روح التوكّل، فهل من الصحيح أن نفسّر التوكّل بهذا التّفسير، مع أنّ الرّسول الأكرم ﷺ الذي هو رأس المتوكّلين لم يغفل من استخدام الخطط الصحيحة والاستفادة من الفرص المتاحة وأنواع الوسائل والأسباب الظاهرية لتحقيق أهدافه، إنّ هذا يثبت أنّ التوكّل ليس له مفهوم سلبي.

ثانياً: إنّ التوكّل ينجّي الإنسان من التبعية التي هي أصل الذلّ والعبودية، ويمنحه الحرية والاعتماد على النفس.

«التوكّل» و«القناعة» لهما جذور مشتركة، وفلسفتهما متشابهة، وفي نفس الوقت متفاوتة، ولا بأس هنا أن نذكر عدّة روايات في مجال التوكّل وأصله وجذوره:

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ الغنا والعزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطنا»[(١)] وقد عرّف الإمام التوكّل بأنّه موطن العزّة وعدم الحاجة للآخرين.

وعن النّبي ﷺ قال: سألت جبرئيل: ما هو التوكّل؟ قال: «العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله فهذا هو التوكّل»[(٢)].

وسئل الإمام الرضا عليه السلام: ما حدّ التوكّل؟ فقال: «أن لا تخاف مع الله أحداً»[(٣)].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، ح ٣.
(٢) بحار الأنوار، ج١٥ القسم الثّاني في الأخلاق، ص١٤ الطبعة القديمة؛ سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٨٣.
(٣) سفينة البحار، ج ٢، ص٦٨٣؛ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٧٤، ح ٢٠٥٠٠.

يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾

التّفسير

خطط الجبّارين المعاندين ومصيرهم

عندما يعلم الظالمون بضعف منطقهم وعقيدتهم، يتركون الاستدلال، ويلجأون إلى القوّة والعنف، ونقرأ هنا أنّ الأقوام الكافرة العنيدة عندما سمعوا منطق الأنبياء المتين والواضح قالوا لرسلهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ وكأنّ هؤلاء القوم يعتبرون جميع ما في الأرض ملكهم، حتى أنّهم لم يمنحوا لرسلهم حقوق المواطنة، ولذلك يقولون «أرضنا»، وفي الحقيقة فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وكلّ مواهبها للصالحين، وهؤلاء الجبابرة في الواقع ليس لهم أي حقّ فيها.

وقد يتوهّم البعض أنّ جملة ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ إشارة إلى أنّ الأنبياء السابقين كانوا من أنصار عبادة الأصنام، مع أنّ الحقيقة ليست كذلك، لأنّهم - وبصرف النظر عن كونهم معصومين حتى قبل نبوّتهم - فعقلهم ودرايتهم كان أكبر من أن يفعلوا هذا العمل غير الحكيم، فيسجدوا أمام الأحجار والأخشاب.

ويمكن أن يكون هذا التعبير بسبب أنّ الأنبياء قبل بعثهم لم يؤمروا بالتبليغ، فسكوتهم أوجد هذا الوهم بأنّهم من المشركين.

بالإضافة إلى أنّ الخطاب وإن كان موجّهاً للرسل، إلاّ أنّه في الواقع يشمل حتى الأصحاب، ونعلم أنّهم كانوا مع المشركين من قبل، فنظر المشركين كان منصرفاً إلى الأصحاب فقط، وتعبير ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ من باب التغليب (يعني حكم الأكثرية يسري على العموم)[1].

---

(١) وكذلك أجيب هذا التوهم بجواب آخر وهو (عود) إذا تعدى بـ (إلى) يكون بمعنى الرجوع، وإذا تعدى بـ (في) يكون بمعنى التغيير والتحوّل ولا يعطي معنى الرجوع، فعليه أنّ هذه الجملة ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ مفهومها يجب أن تغيروا أنفسكم وتتحولوا من عقيدتكم إلى عقيدة أخرى وتنصاعوا إلى ديننا، هذا ما اختاره العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان، ولكن عند مراجعة الآية ٢٠ من سورة السجدة ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وآيات قرآنية أخرى أنّ كلمة (عود) حتى لو تعدّت بـ (في) أيضاً تعطي معنى الرجوع. (فتأمّل).

وهناك جواب آخر لهذا الوهم وهو أنّ «عود» إذا عدّيت بـ «إلى» يكون معناها الرجوع، وإذا عُدِيَت بـ «في» فتفيد تغيير الحال... لذلك فمعنى الآية ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يكون مفهومها أن تغيّروا من حالكم وتدخلوا في ملّتنا، وقد اختار هذا المعنى العلاّمة الطباطبائي في الميزان، ولكن عند مراجعتنا لبعض الآيات ومنها ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[1] تبيّن أن «عود» حتى لو عُدّيت بـ «في» فمعناها الرجوع أيضاً (فتدبّر).

ثمّ يضيف القرآن الكريم لتسلية قلوب الأنبياء ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ فلا تخافوا من وعيدهم، ولا تُظهروا الضعف في إرادتكم.

وبما أنّ الظالمين كانوا يهدّدون الأنبياء بالتبعيد عن أرضهم، فإنّ الله في مقابل ذلك كان يعد الأنبياء ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ ولكن هذا النصر والتوفيق لا يناله إلاّ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فلطفه ومنّه ليس بدون حساب ودليل، ولا يناله إلاّ من أحسّ بمسؤوليته في مقابل العدل الإلهي، لا الظالمين والمعاندين لطريق الحقّ.

وحين انقطعت الأسباب بالأنبياء من كلّ جانب، وأدّوا جميع وظائفهم في قومهم، فآمن منهم من آمن، وبقي على الكفر من بقي، وبلغ ظلم الظالمين مداه، في هذه الأثناء طلبوا النصر من الله تعالى ﴿وَاسْتَفْتَحُوا...﴾ وقد استجاب الله عزّوجلّ دعاء المجاهدين المخلصين ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

«خاب» من الخيبة بمعنى فقدان المطلوب.

و﴿جَبَّارٍ﴾ بمعنى المتكبّر هنا، ورد في الحديث أنّ امرأة جاءت النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فأمرها بشيء، فلم تطعه فقال النّبي: دعوها فإنّها جبّارة[2].

وتطلق هذه الكلمة أحياناً على الله جلّ وعلا فتعطي معنىً آخر، وهو (جبر وإصلاح من هو بحاجة إلى الإصلاح) أو بمعنى (المتسلّط على كلّ شيء)[3].

و«العنيد» في الأصل من «العَنَد» على وزن (رَنَد) بمعنى الاتّجاه، وجاءت هنا بمعنى الانحراف عن طريق الحقّ.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج ١٩، ص ١٠٢.

(٣) للتوضيح أكثر راجع تفسير الآيات ٢٠-٢٦ و ٤٣ من سورة المائدة من تفسيرنا هذا.

ولذلك نقرأ في رواية عن النّبي ﷺ قال: «كلّ جبّار عنيد من أبى أن يقول لا إله إلاّ الله»(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «العنيد المعرض عن الحقّ»(٢).

ومن الطريف أنّ ﴿جَبَّارٍ﴾ تشير إلى صفة نفسانية بمعنى روح العصيان، و﴿عَنِيدٍ﴾ تشير إلى آثار تلك الصفة في أفعال الإنسان حيث تصرفه عن طريق الحقّ. ثمّ يُبيّن نتيجة عمل الجبّارين في الآخرة ضمن آيتين في خمسة مواضع:

١ - إنّ مثل هذا الشخص: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾.

مع أنّ كلمة «وراء» بمعنى «الخلف» في مقابل أمام، إلاّ أنّها في هذه الموارد تعني نتيجة وعاقبة العمل.

٢ - أمّا في جهنّم فإنّه ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

«الصديد» القيح المتجمّع بين اللحم والجلد، وهو بيان للماء المتعفّن الكريه الذي يسقونه.

٣ - فهذا المجرم المذنب عندما يرى نفسه في مقابل هذا الشراب ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يسيغه: من إساغة، وهي وضع الشراب في الحلق.

٤ - ووسائل التعذيب كثيرة بحيث ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. حتى يذوق وبال عمله وسيّئاته.

٥ - وقد يتصوّر أن ليس هناك عقاباً أكثر من ذلك، ولكن ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

وبهذا الترتيب فإنّ كلّ ما يخطر في ذهن الإنسان وما لا يخطر من شدّة العقاب هو في انتظار هؤلاء الظالمين والجبّارين والمذنبين، أسوؤها الشراب المتعفّن الكريه، والعقوبات المختلفة من كلّ طرف، وفي نفس الوقت عدم الموت، بل الاستمرار في الحياة وإدامة العذاب.

ولكن لا يتصوّر أنّ هذا العقاب غير عادل، لأنّه - وكما قلنا مراراً - النتيجة الطبيعيّة لعمل الإنسان، بل تجسيم أفعالهم في الآخرة، فكلّ عمل يجسّم بشكل مناسب، وإذا ما شاهدنا جنايات بعض المجرمين في عصرنا أو في التاريخ القديم لقلنا: حتى هذه العقوبات قليلة.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٥٣٢، ح ٣٧.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٥٣٢، ح ٣٨.

بحوث

١ - ماذا يعني مقام الربّ؟

قرأنا في الآيات أعلاه أنّ النصر على الظالمين وإسكان الأرض للذين يخافون مقام ربّهم، فما هو المقصود من «المقام»؟ هناك عدّة احتمالات:

الف - المقصود هو مقام الربّ عند الحساب، كما ذكرت بعض الآيات الأخرى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ...﴾[1]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[2].

باء - المقام بمعنى القيام أي المراقبة، ومعناه الشخص الذي يخاف من مراقبة الله له، ويحسّ بالمسؤولية.

ج - والمقام بمعنى «القيام لإجراء العدالة وإحقاق الحقّ».

وعلى أيّة حال، فلا مانع أن تكون الآية الشريفة متضمّنة لكلّ هذه المفاهيم، فالذين يرون مراقبة الله لهم، يخافون من حسابه وإجراء عدالته، خوفاً بنّاء يجعلهم يحسّون بمسؤولياتهم في كلّ عمل يقومون به، ويبعدهم عن الظلم والذنوب، فالغلبة وحكومة الأرض من نصيبهم.

٢ - ما المراد من جملة ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾

هناك جدل بين المفسّرين حول جملة ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ حيث إعتقد البعض بأنّها بمعنى طلب الفتح والنصر، كما ذكرناه سابقاً، وشاهدهم الآية (١٩) من سورة الأنفال ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

وقال بعض آخر: إنّها بمعنى القضاء والحكومة، يعني أنّ الأنبياء طلبوا من الله أن يحكم بينهم وبين الكفّار، وشاهدهم الآية (٨٩) من سورة الأعراف ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

٣ - تفأل الوليد بن يزيد بالقرآن

جاء في التاريخ والتّفسير أنّ الوليد بن يزيد بن عبدالملك الحاكم الأُموي الجبّار تفأل بالقرآن يوماً لكي يرى حظّه في المستقبل، فظهر قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الرحمان، الآية: ٤٦.

جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ في بداية الصفحة، فاستوحش وأخذته العصبية بحيث مزّق القرآن الكريم ثمّ أنشد:

أتوعد كلّ جبّار عنيد؟ فها أنا ذاك جبّار عنيد؟
إذا ما جئت ربّك يوم حشر فقل يا ربّ مزّقني الوليد

ولكن لم يمض وقت طويل حتى قُتل أسوأ قتلة من قبل أعدائه، وقطعوا رأسه وعلّقوه فوق سطح قصره، ومن ثمّ نقلوه إلى باب المدينة[1].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

رمادٌ اشتدّت به الريح

ضربت هذه الآية مثالاً واضحاً وبليغاً لأعمال الكفّار، وبذلك تكمل بحث الآيات السابقة في مجال عاقبة أمرهم.

يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ فيتناثر الرماد في الريح العاصف بحيث لا يستطيع أحد جمعه، كذلك منكرو الحقّ ليست باستطاعتهم أن يجمعوا ما كسبوا ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

بحوث

١ - لماذا شبّهت أعمالهم كرماد اشتدّت به الريح؟

الجواب:

١ - التشبيه بالرماد (مع إمكان الاستفادة من التراب والغبار في ذلك) لأنّه عبارة عن بقايا الاحتراق، والآية توضّح أنّ أعمالهم ظاهرية فقط وليس لها أي محتوى، فيمكن

---

(١) تفسير القرطبي، ص ٣٥٧٩.

أن تنمو وردة جميلة في حفنة من التراب، ولكن لا يمكن أن ينمو في الرماد حتى العلف الرّديء.

٢ - إن ذرّات الرماد غير متلاصقة، وحتى بمساعدة الماء لا يمكن ترابطها فالذرّات تنفصل عن بعضها البعض بسرعة، وكأنّ ذلك يشير إلى أنّ أعمال الكفّار غير منسجمة ولا موحّدة، على العكس من أعمال المؤمنين حيث نراها منسجمة وموحّدة ومترابطة وكلّ عمل يكمل العمل الآخر، فروح التوحيد والوحدة لا تقتصر على توحيد الجماعة المؤمنة في ما بينهم بل تنعكس حتى في أعمال الفرد المسلم.

٣ - بالرغم من تناثر الرماد في اشتداد الريح، إلّا أنّه يؤكّده في يوم عاصف، لأنّ الرياح إذا كانت محدودة وآنيّة فمن الممكن أن ينتقل الرماد من مكان إلى مكان ليس بالبعيد، ولكن إذا كان يوماً عاصفاً فمن البديهي أن يتناثر الرماد بشكل واسع، وتنتشر ذرّاته ولا يمكن لأيّة قدرة جمعها.

٤ - إذا كانت العاصفة تهبّ على التبن وأوراق الشجر وتنثرها في أماكن بعيدة إلّا أنّه يمكن تشخيصها، ولكن ذرّات الرماد من الصغر بحيث لو انتثرت لا يبقى لها أي أثر وكأنّ ليس لها وجود سابق.

٥ - إنّ الرياح وحتى العواصف لها فوائد جمّة في الطبيعة بغضّ النظر عن آثارها المدمّرة في بعض الأحيان، وفوائدها هي:

الف - تقوم بنشر بذور النباتات في كلّ مكان من الكرة الأرضيّة، كما يصنع المزارع والفلاح.

ب - تُلقّح الأشجار بنقل حبوب اللقاح من الذكور إلى الإناث.

ج - تقوم بتحريك السحاب من المحيطات إلى الأراضي اليابسة.

د - تحكّ الجبال العالية وتحوّلها إلى تراب ناعم ومفيد.

هـ - تنقل الهواء من المناطق القطبية إلى المناطق الاستوائية وبالعكس، حيث تقوم بدور فعّال في تعديل درجات الحرارة.

و - إنّ حركة الرياح تثير البحار فتجعلها متلاطمة وموّاجة كي يدخل فيها الهواء، لأنّها إذا ركدت سوف تتعفّن، وهكذا نجد أنّ كلّ ما في الوجود من الأشجار والكائنات الحيّة قد استفاد من هبوب الرياح كلّ على قدره.

ولكن «الرماد» الخفيف الوزن والتافه وعديم الفائدة والذي لا يمكن لأي موجود أن

يعيش فيه، هذا الرماد المتناثر يتلاشى بسرعة حينما تهبّ الريح عليه، ويزول حتى ظاهره المخادع.

٢ - لماذا فرغت أعمالهم من المحتوى؟

يجب أن نرى لماذا كانت أعمال الكفّار غير ذات قيمة وغير ثابتة؟ ولماذا لا يستطيع الكفّار الاستفادة من نتائج أعمالهم؟

ويتّضح الجواب على هذا السؤال لو درسنا المسألة من ناحية النظرة التوحيديّة للعالم، لأنّ النيّة والهدف والمنهجية هي التي تعطي للعمل شكله ومضمونه، فإذا كانت الخطّة والنيّة والغاية سالمة وجديرة بالاهتمام فسوف يكون العمل كذلك، ولكن لو قمنا بأحسن الأعمال بنيّة غير صادقة وخطّة سقيمة وهدف شيطاني، فإنّ ذلك العمل يكون ممسوخاً ويفقد محتواه ويزول كليّاً كالرماد إذا اشتدّت به الريح!

ولا بأس هنا أن نذكر مثالاً حيّاً لذلك، نشاهد الآن برامج تحت عنوان حقوق الإنسان في العالم الغربي ومن قبل القوى المستكبرة، هذه البرامج نفسها كانت تجري من قبل الأنبياء أيضاً، ولكن حصيلة الاثنين متفاوتة كما بين الأرض والسّماء، فالقوى الاستكبارية عندما تنادي بحقوق الإنسان فمن المسلّم أنّ أهدافها غير إنسانية وغير أخلاقية، بل التغطية على جرائمهم واستعمارهم بشكل أكثر، لذلك وعلى سبيل المثال لو اعتقل أحد جواسيسهم في مكان ما، فسوف يملأ عويلهم وصراخهم الدنيا بالدفاع، عن حقوق الإنسان، ولكن عندما تلطّخت أيديهم بدماء آلاف الناس في فيتنام، وارتكبوا الفجائع في الدول الإسلامية، ونُسيت فيه حقوق الإنسان، بل إنّهم استغلّوا حقوق الإنسان لمساعدة الأنظمة الجائرة والعميلة!

ولكن الأنبياء عليهم السلام أو أوصياءهم ينادون بحقوق البشر لتحرير الإنسان من القيود والأغلال والظلم، وعندما يرون إنساناً مظلوماً نراهم يهبون للدفاع عنه بالقول والعمل.

وبهذا النحو يكون الأوّل رماداً اشتدّت به الريح، والثّاني أرضاً مباركة طيّبة لنمو النباتات والثمار والأوراد.

ويتّضح من هنا ما دار بين المفسّرين من المقصود من العمل في الآية أعلاه، وهو أنّ مراد الآية جميع أعمال الكفّار حتى أعمالهم الحسنة في الظاهر، إلّا أنّها مبطّنة بالشرك والإلحاد.

٣ - مسألة الإحباط

هناك جدل كبير بين علماء المسلمين في مسألة «حبط الأعمال» فهل معناه ذهاب عمل الخير بسبب عمل الشرّ، أو بسبب الكفر وعدم الإيمان، ولكن الحقّ ما قلناه في ذيل الآية (٢١٧) من سورة البقرة، من أنّ الإصرار على الكفر والعناد وأيضاً بعض الأعمال الأُخرى كالحسد والغيبة وقتل النفس لها آثار سيّئة كبيرة بحيث تذهب بأعمال الخير والحسنات.

والآية أعلاه دليل آخر في إمكان حبط الأعمال(١).

٤ - هل للمخترعين والمكتشفين ثواب إلهي؟

بالنظر للبحوث الآنفة الذكر يرد سؤال مهمّ، وهو أنّنا من خلال مطالعتنا في تأريخ العلوم والاختراعات والاكتشافات نرى أنّ هناك مجموعة من العلماء استطاعوا أن يقدّموا خدمات جليلة للبشرية وتحمّلوا في سبيل خدمة البشرية منتهى الشدّة والصعوبة ليقدّموا اختراعاتهم واكتشافاتهم للناس، فعلى سبيل المثال مخترع الكهرباء «أديسون» تحمّل الصعاب ويُقال فقد حياته في هذا الطريق لكنّه أضاء العالم، وحرّك المعامل، وببركة اختراعه وجدت الآبار العميقة حيث اخضرّت الأرض وتغيّرت الدنيا، و«باستور» الذي اكتشف المكروب، وأنقذ ملايين الناس من الموت المحتوم. . . فهؤلاء وعشرات مثلهم كيف يجعلهم الله في جهنّم لكونهم غير مؤمنين؟ مع أنّ هناك أفراداً لم يقدّموا أيّة خدمة للإنسانية طول حياتهم، ويدخلون الجنّة!

الجواب: إنّ العمل في حدّ ذاته ليس كافياً من وجهة نظر العقيدة الإسلامية، بل قيمته في النيّة والقوى المحرّكة له، فكثيراً ما نشاهد من أعمال الخير كبناء مدرسة أو مستشفى أو أي عمل آخر وهدف صاحبه في الظاهر هو خدمة المجتمع الإنساني، إلّا أنّه تحت هذا الغطاء شيء آخر وذاك هو حفظ جاهه أو ماله أو جلب أنظار الناس إليه، وتحكيم منافعه المادية، أو حتى ستر خيانته بعيداً عن أنظار الآخرين!

وعلى العكس، فمن الممكن أن يعمل شخص عملاً صغيراً، إلّا أنّه مخلص في نيّته صادق، والآن يجب أن نحقّق في ملفات هؤلاء الرجال العظام من وجهة نظر عملهم وكذلك الأسباب والدوافع، وهي لا تخرج من أحد أُمور:

---

(١) للاطلاع أكثر راجع تفسير الآية (٢١٧) من سورة البقرة من تفسيرنا هذا.

ألف - يكون الهدف من الاختراع أحياناً عملاً تخريبياً (كما في اكتشاف الطاقة النووية حيث كان الهدف الأوّل منها صناعة القنابل النووية) ويمكن الاستفادة منها لخدمة الإنسان، إلّا أنّه لم يكن الهدف الأصلي من اختراعها، فقيمة عمل هذه المجموعة من المخترعين واضح تماماً.

ب - وقد يكون هدف المخترع أو المكتشف الربح الماديّ أو الشهرة، فحكمه - في الحقيقة - حكم التاجر الذي يقوم بتأسيس الخدمات العامّة لكي يحصل على أرباح أكثر، ويقوم بتشغيل العمّال وإنتاج المحاصيل الزراعية للبلد، فالهدف من كلّ ذلك هو الحصول على أكبر وارد ممكن، ولو كان هناك عمل أكثر ربحاً لركض وراءه.

بالطبع فإنّ هذه التجارة لو كانت طبقاً للموازين الشرعيّة، فإنّها ليست حراماً، إلّا أنّها لا تحتسب عملاً مقدّساً ومهمّاً.

ومثل هؤلاء المخترعين والمكتشفين ليسوا قليلين على طول التاريخ، فطريقة تفكيرهم أن يقدّموا العمل الأكثر ربحاً - حتى لو كان مضرّاً بالمجتمع - (فمثلاً صناعة الأدوية لها من الفوائد ٢٠٪ بينما في صناعة الهيروئين ٥٠٪ فهم يرجّحون الثّاني على الأوّل) فحكم هذه المجموعة واضح أيضاً، حيث لم يتحركوا في عملهم هذا من موقع الخدمة للآخرين والإنسانية أو نيل الثواب الإلهي، فجزاؤهم الربح والشهرة فقط.

ج - هناك مجموعة ثالثة لا شكّ في أنّ دوافعها إنسانية، أو إلهيّة إذا كانت الجماعة مؤمنة، وأحياناً يمضون سنين طويلة في زوايا المختبرات بكامل الفاقة والحرمان على أمل أن يقدّموا خدمة لبني جنسهم، أو هديّة للعالم، ليحلّوا أغلال المتعبين، ويمسحوا التراب من وجوه المعذّبين. فإذا كان هؤلاء الأفراد مؤمنين ودوافعهم إلهيّة فمصيرهم واضح.

وأمّا إذا كانوا غير مؤمنين ودوافعهم إنسانيّة، فسوف يحصلون على الجزاء المناسب من الله بلا أدنى شكّ، هذا الجزاء يمكن أن يكون في الدنيا أو الآخرة، فالله عزّوجلّ عالم وعادل لا يحرمهم من ذلك، ولكن كيف؟ تفاصيله غير واضحة لنا، ويمكن أن نقول: (إنّ الله لا يضيّع أجر هؤلاء المحسنين فيما إذا كانوا غير مقصّرين لعدم إيمانهم).

وليس عندنا أي دليل من أنّ الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] لا تشمل

(١) سورة يوسف، ٩٠؛ وسورة هود، الآية: ١٥.

هؤلاء الأفراد، فإطلاق المحسنين في القرآن ليس خاصّاً بالمؤمنين فقط، ولذلك نرى أنّ إخوة يوسف لما حضروا عنده وهم لا يعرفونه ويظنّون أنّه عزيز مصر قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وكذلك الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾(٢) تشمل هؤلاء الأفراد.

عن علي بن يقطين عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «كان في بني إسرائيل رجل مؤمن وجاره كافر، وكان هذا الجار الكافر يحسن إلى جاره المؤمن، فعندما ارتحل من الدنيا بنى له الله بيتاً يمنعه من نار جهنّم. وقيل له: إنّ هذا بسبب حسن سيرتك مع جارك المؤمن»(٣).

وعن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ ابن جدعان أقلّ أهل جهنّم عذاباً» قالوا: لماذا يارسول الله؟ قال: «إنّه كان يطعم الطعام» وعبد الله بن جدعان أحد مشركي مكّة المعروفين ومن زعماء قريش(٤).

وعن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعدي بن حاتم الطائي: «رفع عن أبيك العذاب الشديد بسخاء نفسه»(٥).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أتى رسول الله وفد من اليمن وكان فيهم رجل أعظمهم كلاماً وأشدّهم في محاجة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، فغضب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى التوى عرق الغضب بين عينيه، وتغيّر وجهه وأطرق إلى الأرض فأتاه جبرئيل فقال: ربّك يقرئك السلام ويقول لك: هذا رجل سخي يطعم الطعام، فسكن عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم الغضب ورفع رأسه وقال: لولا أنّ جبرئيل أخبرني عن الله عزّ وجلّ أنّك سخي تُطعم الطعام، لشدوت بك وجعلتك حديثاً لمن خلفك، فقال له الرجل: وإنّ ربّك ليحبّ السخاء؟ فقال: نعم، قال: إنّي أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله والذي بعثك بالحقّ لا رددت عن مالي أحداً»(٦).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الزّلزلة، الآيتان: ٧ - ٨.
(٣) البحار، ج٣، مطبعة كمباني ص٣٧٧. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٩٦، ح ٤٨.
(٤) المصدر السابق، ص٣٨٢. وص ٣١٦، ح ٩٦.
(٥) سفينة البحار، ج١، ص٦٠٧.
(٦) المصدر السابق.

وهنا يأتي هذا السؤال والذي يمكن أن نستفيده من بعض الآيات وكثير من الرّوايات، وهو: هل أنّ الإيمان والولاية شرط لقبول الأعمال والدخول إلى الجنّة؟ فإذا كان كذلك فإنّ أفضل أعمال الكفّار ليس مقبولاً عند الله.

ويمكن أن نجيب على هذا السؤال بأنّ مسألة «قبول الأعمال» شيء، و«الجزاء المناسب» شيء آخر، فمثلاً المشهور بين علماء المسلمين أنّ الصلاة بدون حضور القلب أو مع ارتكاب بعض الذنوب كالغيبة غير مقبولة عند الله، ونحن نعلم أنّ مثل هذه الصلوات صحيحة شرعاً، وتحتسب طاعة لأوامر الله وتفرغ بها ذمّة المصلّي والطاعة لا تكون بدون أجر، ولذلك فقبول العمل هو الدرجة العالية للعمل، ونحن نقول هذا أيضاً: إذا كانت الخدمات الإنسانية مصاحبة للإيمان فلها أعلى المضامين، ولكن في غير هذه الصورة لا تكون بدون مضمون وجزاء، وجزاء العمل لا ينحصر بدخول الجنّة. (هذه عصارة الفكرة بما يتناسب وهذا التّفسير، وتفصيل ذلك في الأبحاث الفقهيّة).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾

التّفسير

الخلق على أساس الحقّ

بعد ما بحثنا عن الباطل وأنّه كالرماد المتناثر إذا اشتدّت به الريح، نبحث في هذه الآية عن الحقّ واستقراره، يقول الله تعالى مخاطباً النّبي ﷺ باعتباره الأسوة لكلّ دعاة الحقّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

«الحقّ» كما يقول الراغب في مفرداته «المطابقة والتنسيق» وله استعمالات أُخرى: فتارةً يستعمل الحقّ في العمل الصادر وفقاً للحكمة والنظام كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا... مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾(١).

وتارةً يطلق على الشخص الذي قام بهذا العمل المحكم، كما نطلقها على الله عزّ وجلّ: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾(٢).

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٢.

وتارةً أُخرى يطلق على الاعتقاد الذي يطابق الواقع كما في قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[١].

ومرّةً يقال للقول والعمل الذي يتحقّق في الوقت المناسب كما في قوله تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[٢].

وعلى أيّة حال فمقابل «الحقّ» الباطل والضلال واللعب وأمثالهما.

لكنّ الآية التي نحن بصددها تشير إلى المعنى الأوّل، وهو إنشاء عالم الخلق. حيث توضّح أن الغرض من خلق السّماء والأرض هو الحكمة والنظام والحساب، فالله تعالى ليس محتاجاً في خلقها ولا ناقصاً لكي يسدّ نقصه بها، بل هو الغني عن كلّ شيء، وهذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات وتكاملها.

ثمّ يضيف: إنّ الدليل في عدم الحاجة إليكم ولا إلى إيمانكم هو: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وهذا العمل ليس صعباً عند الله ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

والشاهد على هذا القول في سورة النساء ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾[٣] ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾[٤] وهذا التّفسير بخصوص الآية أعلاه منقول عن ابن عبّاس.

وهناك احتمال آخر، وهو أنّ الجملة أعلاه تشير إلى مسألة المعاد وأنّ الله قادر على أن يفني جميع الناس ويأتي بخلق آخر، فهل تشكّون في مسألة المعاد وبعثكم من جديد؟

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٣١.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٣٣.

﴿أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

التّفسير

المحادثة الصريحة بين الشيطان وأتباعه

أشارت الآيات السابقة إلى العقاب الشديد للمخالفين والمعاندين والكافرين، وهذه الآيات تكمل ذاك البحث.

يقول تعالى أوّلاً: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(١).

وفي هذه الأثناء يقول الضعفاء الذين تاهوا في وادي الضلالة للمستكبرين الذين كانوا سبب ضلالهم ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فيجيبونهم بدون توقّف ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾.

ولكن للأسف فالمسألة منتهية ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

ملاحظات:

١ - ما هو المراد من ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؟.

أوّل سؤال يطرح بخصوص هذه الآية هو: هل أنّ الناس في هذه الدنيا غير ظاهرين في علم الله لكي تقول الآية: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؟

في الجواب على هذا السؤال قال كثير من المفسّرين: إنّ المقصود عدم إحساس الناس بهذا الظهور والبروز أمام الله في هذه الدنيا، فيكون إحساسهم ظاهراً لهم في الآخرة.

وقال بعض أيضاً: المقصود هو البروز والظهور من القبور في ساحة العدل الإلهي للحساب.

هذان التّفسيران جيدان وليس هناك مانع من أن يتجمعا في مفهوم الآية.

---

(١) يجب الانتباه إلى أنّ ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ فعل ماضي، إلاّ أنّه جاء هنا بصيغة المستقبل، لأنّ المسائل المتعلّقة بالقيامة قطعيّة وغير قابلة للنقاش، ولذلك وردت في كثير من الآيات بصيغة الماضي.

٢ - ما هو المقصود من جملة ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾؟

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ المقصود بالهداية هو النجاة من العقاب الإلهي في ذلك العالم، لأنّ هذا الحديث قاله المستكبرون لأتباعهم حينما طلبوا منهم أن يغنوا عنهم قسماً من العذاب، فالسؤال والجواب متناسبان ويوحيان أنّ المقصود هو هدايتهم للنجاة من العذاب.

وقد استخدم القرآن هذه الكلمة «الهداية» بخصوص الوصول إلى نعم الجنّة، كما يقول أهل الجنّة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1].

وهناك احتمال أنّ «قادة الضلالة» حينما يرون أنفسهم أمام طلب أتباعهم، ولكي يتنصّلوا من الذنب ويلقوا باللائمة على الغير - كما هي طريقة كلّ المستكبرين - يقولون بكلّ وقاحة: ماذا نعمل؟ فلو كان الله قد هدانا إلى الطريق الصحيح لهديناكم إليه! ومعناه أنّنا مجبورون على ذلك وليست لنا إرادة حرّة.

وهذا هو منطق الشيطان بعينه، أو ليس هو القائل: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؟[2] ولكن يجب أن يعلم المستكبرون أنّهم يتحمّلون مسؤولية ذنوب أتباعهم شاؤوا أم أبوا، طبقاً لصريح القرآن والرّوايات، لأنّهم المؤسّسون للانحراف والضلال دون أن ينقص أي شيء من عذاب أتباعهم.

٣ - أوضح بيان في ذمّ التقليد الأعمى

يتّضح لنا من الآية أعلاه ما يلي:

أوّلاً: الأشخاص الذين يضعون زمام أُمورهم بيد الآخرين هم ضعفاء الشخصيّة، وقد عبّر عنهم القرآن الكريم بـ ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾.

ثانياً: إنّ مصيرهم ومصير قادتهم واحد، وهؤلاء البؤساء لا يستطيعون حتى في أحلك الظروف أن يستفيدوا من حماية قادتهم المضلّين، أو أنّ يخفّفوا عنهم قليلاً من العذاب، بل يسخرون منهم ويقولون لهم: لا تجزعوا ولا تفزعوا فلا طريق للخلاص والنجاة من العذاب!

ثالثاً: ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ في الأصل من مادّة «البروز» أي الظهور أو الخروج من الصفّ في مقابل الخصم في ساحة القتال، وتأتي أيضاً بمعنى المقاتلة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦.

«المحيص» من «المحص» بمعنى التخلّص من العيوب أو الألم.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى موقف آخر من مواقف القيامة والعقاب النفسي للجبّارين والمذنبين وأتباعهم الشياطين، حيث يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وبهذا الترتيب فالشيطان وجميع المستكبرين الذين هم قادة طرق الضلال، أصبحوا يلومون ويوبّخون تابعيهم البؤساء.

ثمّ يضيف ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ ويستمرّ في القول ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾.

أنتم فعلتم فاللعنة عليكم!!

وعلى كلّ حال فلا أنا أستطيع إنقاذكم من العذاب ولا أنتم تستطيعون إنقاذي: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ والآن أُعلمكم بأنّي أتبرّأ من شرككم وإطاعتكم لي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ فقد فهمت الآن أنّ الشرك في الطاعة أدّى إلى شقائي وشقائكم، وهذه التعاسة ليس لها طريق للنجاة، واعلموا ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

بحوث

١ - جواب الشيطان الحاسم لأتباعه

مع أنّ كلمة «الشيطان»(١) لها مفهوم واسع وتشمل كلّ الطواغيت ووساوس الجنّ والإنس، ولكن في قراءتنا لهذه الآية وما قبلها علمنا أنّ المقصود هنا هو شخص إبليس الذي يعتبر رئيساً للشياطين، ولذلك انتخب جميع المفسّرين هذا التّفسير أيضاً.

ونستفيد بشكل أكيد من هذه الآية أنّ وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان اختياره وحرية إرادته، بل هي مجرّد دعوة ليس أكثر، فالناس هم الذين يلبّون دعوته بإرادتهم، وقد تصل الأرضيّة السابقة والدوام على الخلاف بالإنسان إلى حالة من سلب الاختيار في مقابل وساوسه، كما نشاهد بعض المدمنين على المخدرات، ولكن نعلم أنّ السبب الأوّل كان هو الاختيار. يقول تعالى في الآية (١٠٠) من سورة النحل: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) للتوضيح أكثر في معنى الشيطان في القرآن راجع تفسير الآية ٣٦ من سورة البقرة من تفسيرنا هذا.

وعلى هذا فالشيطان يجيب بشكل قاطع على كلام من يعتبرونه العامل الأوّل في انحرافهم وضلالهم، أو ما يقوله بعض الجهلاء لتبرير أعمالهم والتملّص من ذنوبهم، فإنّ السلطان الحقيقي على الإنسان هو إرادته وعمله ولا شيء غيره.

٢ - كيف استطاع الشيطان أن يلتقي بأتباعه ويلومهم في ذاك الموقف الكبير؟

الجواب: هو أنّ الله تعالى يمنحه القدرة على ذلك، وهذا في الواقع نوع من العقاب النفسي لأتباع الشيطان، وإنذار لكلّ السائرين في طريقه في هذه الدنيا، لكي يعلموا من الآن مصيرهم ومصير قادتهم، وعلى أيّة حال فالله تعالى بطريقة ما يهيىء وسيلة الارتباط بين الشيطان وأتباعه.

ومن الطّريف أنّ هذه المواجهة غير منحصرة بالشيطان وأتباعه، بل إنّ جميع أئمّة الضلالة في هذا العالم لهم نفس البرنامج أيضاً، يأخذون بأيدي أتباعهم (بموافقتهم طبعاً) ويذهبون بهم إلى أمواج العذاب والبلاء، وحينما يرون الأوضاع سيّئة يتركونهم وشأنهم حتى إنّهم يلومونهم ويوبّخونهم في خسران الدنيا والآخرة.

٣ - «المصرخ» من مادّة «إصراخ» وفي الأصل من مادّة «صرخ»، وهي بمعنى الإغاثة وطلب المساعدة، ولذلك فالمصرخ بمعنى المغيث، والمستصرخ طالب الاستغاثة.

٤ - القصد من اتّخاذ الكفّار الشيطان شريكاً في الآية أعلاه شرك الطاعة وليس شرك العبادة.

٥ - في أنّ جملة ﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تابعة لحديث الشيطان أم كلام مستقل من الله تعالى، هناك آراء مختلفة عند المفسّرين، لكن التّفسير الأقرب هو أنّ الجملة مستقلّة ومن كلام الله حيث قالها في نهاية حديث الشيطان مع أتباعه لتكون درساً تربويّاً.

وبعد بيان حال الجبّارين والظالمين ومصيرهم المؤلم، تتطرّق الآية الأخيرة من هذا البحث إلى حال المؤمنين وعاقبتهم حيث يقول تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ إلى آخر الآية.

«التحيّة» في الأصل «الحياة» وتستعمل لسلامة وحياة الأفراد، وتطلق لكلّ تحيّة وسلام ودعاء في بداية اللقاء.

قال بعض المفسّرين: «التحية» هنا من الله للمؤمنين قرينة على نعمهم وسلامتهم من كلّ أذىً ونزاع (لذلك فتحيّتهم إضافة لمفعول وفاعله الله).

وقال البعض الآخر: إنّ القصد هو تحيّة المؤمنين فيما بينهم، أو تحيّة الملائكة لهم،

وعلى أيّة حال فـ «سلام» التي قيلت بشكل مطلق لها من المفهوم الواسع بحيث يشمل كلّ سلامة من أي نوع من أنواع العذاب الروحي والجسمي(١).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

التّفسير

الشّجرة الطيّبة والشّجرة الخبيثة

هنا مشهد آخر في تجسيم الحقّ والباطل، الكفر والإيمان، الطيّب والخبيث ضمن مثال واحد جميل وعميق المعنى... يُكمل البحوث السابقة في هذا الباب.

يقول تعالى أوّلاً: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ثمّ يشير إلى خصائص هذه الشجرة الطيّبة في جميع أبعادها ضمن عبارات قصيرة.

ولكن قبل أن نستعرض هذه الخصائص يجب أن نعرف ما المقصود من «الكلمة الطيّبة»؟

قال بعض المفسّرين: إنّها كلمة التوحيد ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقال آخرون: إنّها تشير إلى الأوامر الإلهيّة.

وقال البعض الآخر: إنّه الإيمان الذي محتواه ومفهومه ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقال آخرون في تفسيرها: إنّها شخص المؤمن.

وأخيراً قال بعضهم: إنّها الطريقة والبرامج العمليّة.

---

(١) بحثنا هذا الموضوع «السلام والتحيّة» في المجلد الثّاني، ذيل الآية (٨٦): من سورة النساء من تفسيرنا هذا.

ولكن بالنظر إلى سعة مفهوم ومحتوى الكلمة الطيّبة نستطيع أن نقول: إنّها تشمل جميع هذه الأقوال، لأنّ «الكلمة» في معناها الواسع تشمل جميع الموجودات، ولهذا السبب يقال للمخلوقات «كلمة الله».

و «الطيّب» كلّ طاهر ونظيف، فالنتيجة من هذا المثال أنّه يشمل كلّ سنّة ودستور وبرنامج وطريقة، وكلّ عمل، وكلّ إنسان... والخلاصة: كلّ موجود طاهر ونظيف وذي بركة، وجميعها كشجرة طيّبة فيها الخصائص التالية:

١ - كائن يمتلك الحركة والنمو، وليس جامداً ولا خاملاً، بل ثابت وفاعل ومبدع للآخرين ولنفسه «التعبير بـ «الشجرة» بيان لهذه الحقيقة».

٢ - هذه الشجرة طيّبة، ولكن من أيّة جهة؟ بما أنّه لم يذكر لها قسم خاص بها، فإنّها طيّبة من كلّ جهة... منظرها، ثمارها، أزهارها، ظلالها، ونسميها جميعها طيب وطاهر.

٣ - لهذه الشجرة نظام دقيق، لها جذور وأغصان، وكلّ واحد له وظيفته الخاصّة، فوجود الأصل والفرع فيها دليل على سيادة النظام الدقيق عليها.

٤ - أصلها ثابت محكم بشكل لا يمكن أن يقلعها الطوفان ولا العواصف، وباستطاعتها أن تحفظ أغصانها العالية في الفضاء وتحت نور الشمس، لأنّ الغصن كلّما كان عالياً يحتاج إلى جذور قوّية ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾.

٥ - إنّ أغصان هذه الشجرة الطيّبة ليست في محيط ضيّق ولا رديء، بل مقرّها في عنان السّماء، وهذه الأغصان والفروع تشقّ الهواء وتصعد فيه عالياً ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

ومن الواضح أنّ الأغصان كلّما كانت عالية وسامقة تكون بعيدة عن التلوّث والغبار وتصبح ثمارها نظيفة، وتستفيد أكثر من نور الشمس والهواء الطلق، فتكون ثمارها طيّبة جدّاً(١).

٦ - هذه الشجرة كثيرة الثمر لا كالأشجار الذابلة العديمة الثمر، ولذلك فهي كثيرة العطاء ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾.

---

(١) ويظهر هذا الأمر بشكل واضح في ثمار الأشجار، فثمار الأغصان العالية تكون أنضج وأطيب طعماً من ثمار الأغصان الواطئة.

٧ - وثمارها ليست فصلية، بل في كلّ فصل وزمان، فإذا أردنا أن نمدّ يدنا إلى أغصانها في أي وقت لم نرجع خائبين ﴿كُلَّ حِينٍ﴾.

٨ - إنّ إنتاجها من الثمار يكون وفق قوانين الخلقة والسنن الإلهيّة وليس بدون حساب ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

والآن يجب أن نفتّش، أين نجد هذه الخصائص والبركات؟

نجدها بالتأكيد في كلمة التوحيد ومحتواها، وفي الإنسان الموحّد ذي المعرفة، وفي البرامج الحيّة النظيفة، وجميعها نامية ومتحرّكة ولها أُصول ثابتة ومحكمة وفروع كثيرة وعالية بعيدة عن التلوّث بالأدران الجسديّة والدنيوية، وكلّها مثمرة وفيّاضة.

وما من أحد يأتي إليها ويمدّ يده إلى فروعها إلّا ويستفيد من ثمارها اللذيذة العطرة، وتتحقّق فيه الخصال المذكورة، فعواصف الأحداث الصعبة والمشاكل الكبيرة لا تزحزحه من مكانه، ولا يتحدد أُفق تفكيره في هذه الدنيا الصغيرة، بل يشقّ حجب الزمان والمكان ويسير نحو المطلق اللامتناهي.

سلوكهم وبرامجهم ليست تابعة للهوى والهوس، بل طبقاً للأوامر الإلهيّة وبإذن ربّهم، وهذا هو مصدر الحركة والنمو في حركتهم.

الرجال العظام من المؤمنين هم كلمة الله الطيّبة، وحياتهم أصل البركة، دعوتهم توجب الحركة، آثارهم وكلماتهم وأقوالهم وكتبهم وتلاميذهم وتاريخهم... وحتى قبورهم جميعها ملهمة وحيّة ومُربّية.

نعم ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وهناك سؤال مطروح بين المفسّرين وهو: هل لوجود هذه الشجرة وصفاتها واقع خارجي؟

يعتقد البعض بوجودها وهي النخلة، ولذلك اضطروا إلى أن يفسّروا ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ بستّة أشهر.

ولكن لا حاجة إلى الإصرار في وجود مثل هذه الشجرة، بل هناك تشبيهات كثيرة وليس لها وجود خارجي أصلاً.

وعلى أيّة حال، فالهدف من التشبيه هو تجسيم الحقائق والمسائل العقليّة وصبّها في قالب الحواس، وهذه الأمثال ليس فيها أي إبهام، بل هي مقبولة ومؤثّرة وجذّابة.

وفي عين الحال هناك أشجار في هذه الدنيا ثمارها لا تنقطع على طول السنة، وقد

رأينا بعض الأشجار في المناطق الحارّة وكانت مثمرة وفي نفس الوقت لها أزهار جديدة للثمار المقبلة!

وبما أنّ أحد أفضل الطرق لتوضيح المسائل هو الاستفادة من طريق المقابلة والمقايسة، فقد جعلت النقطة المقابلة للشجرة الطيّبة، الشجرة الخبيثة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

والكلمة «الخبيثة» هي كلمة الكفر والشرك، وهي القول السيّئ والرديء، وهي البرنامج الضالّ والمنحرف، والناس الخبثاء، والخلاصة: هي كلّ خبيث ونجس.

ومن البديهي أنّ مثل هذه الشجرة ليس لها أصل، ولا نمو ولا تكامل ولا ثمار ولا ظلّ ولا ثبات ولا استقرار، بل هي قطعة خشبيّة لا تصلح إلّا للاشتعال... بل أكثر من ذلك هي قاطعة للطريق وتزاحم السائرين وأحياناً تؤذي الناس!

ومن الطريف أنّ القرآن الكريم فصّل الحديث في وصف الشجرة الطيّبة بينما اكتفى في وصف الشجرة الخبيثة بجملة قصيرة واحدة ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، وهذا نوع من لطافة البيان أن يتابع الإنسان جميع خصوصيات ذكر «المحبوب» بينما يمرّ بسرعة في جملة واحدة بذكر «المبغوض»!

ومرّة أُخرى نجد المفسّرين اختلفوا في تفسير الشجرة الخبيثة، وهل لها واقع خارجي؟

قال البعض: إنّها شجرة «الحنظل» والتي لها ثمار مرّة ورديئة.

واعتقد آخرون أنّها «الكشوت» وهي نوع من الأعشاب المعقّدة التي تنبت في الصحراء ولها أشواك قصيرة تلتفّ حولها وليس لها جذر ولا أوراق.

وكما قلنا في تفسير الشجرة الطيّبة، ليس من اللازم أن يكون للشجرة الخبيثة وجود خارجي في جميع صفاتها، بل الهدف هو تجسيم الوجه الحقيقي لكلمة الشرك والبرامج المنحرفة والناس الخبثاء، وهؤلاء كالشجرة الخبيثة ليس لها ثمار ولا فائدة... إلّا المتاعب والمشاكل. مضافاً إلى أنّ الأشجار والنباتات الخبيثة التي قلعتها الأعاصير ليست قليلة.

وبما أنّ الآيات السابقة جسّدت حال الإيمان والكفر، الطيّب والخبيث من خلال مثالين صريحين، فإنّ الآية الأخيرة تبحث نتيجة عملهم ومصيرهم النهائي، يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ لأنّ إيمانهم لم يكن

إيماناً سطحياً وشخصيتهم لم تكن كاذبة ومتلوّنة، بل كانت شجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السّماء، وبما أنّ ليس هناك من لا يحتاج إلى اللطف الإلهي، وبعبارة أُخرى: كلّ المواهب تعود لذاته المقدّسة، فالمؤمنون المخلصون الثابتون بالاستناد إلى اللطف الإلهي يستقيمون كالجبال في مقابل أيّة حادثة. والله تعالى يحفظهم من الزلاّت التي تعتريهم في حياتهم، ومن الشياطين الذين يوسوسون لهم زُخرف الحياة ليزلّوهم عن الطريق.

وكذلك فالله تعالى يثبّتهم أمام القوى الجهنّمية للظالمين القُساة، الذين يسعون لإخضاعهم بأنواع التهديد والوعيد.

ومن الطريف أنّ هذا الحفظ والتثبّت الإلهيين يستوعبان كلّ حياتهم في هذه الدنيا وفي الآخرة، فهنا يثبّتون بالإيمان ويبرؤون من الذنوب، وهناك يُخلدون في النعيم المقيم.

ثمّ يشير إلى النقطة المقابلة لهم ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

قلنا مراراً: إنّ الهداية والضلال التي تنسب إلى الله عزّوجلّ لا تتحقّقان إلّا بأن يرفع الإنسان القدم الأوّل لها، فالله عزّوجلّ عندما يسلب المواهب والنعم من العبد أو يمنحها له يكون ذلك بسبب استحقاقه أو عدم استحقاقه.

ووصف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ بعد جملة ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أفضل قرينة لهذا الموضوع، يعني ما دام الإنسان غير ملوّث بالظلم لا تسلب الهداية منه، أمّا إذا تلوّث بالظلم وعمّت وجوده الذنوب، فسوف يخرج من قلبه نور الهداية الإلهيّة، وهذه عين الإرادة الحرّة، وبالطبع إذا غيّر مسيره بسرعة فطريق النجاة مفتوح له، ولكن إذا استحكم الذنب فإنّ طريق العودة يكون صعباً جدّاً.

بحوث

١ - هل القصد من الآخرة في الآية هو القبر؟

نقرأ في روايات متعدّدة أنّ الله يثبت الإنسان على خطّ الإيمان عندما يواجه أسئلة الملائكة في القبر، وهذا معنى الآية ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾.

ولقد وردت كلمة «القبر» بصراحة في بعض هذه الرّوايات(١).

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٤٠ و٥٤١.

ولكن هناك رواية شريفة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه وعن شماله ليضلّه عمّا هو عليه، فيأبى الله عزّ وجلّ له ذلك، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»(١).

وأكثر المفسّرين يميلون إلى هذا التّفسير، طبقاً لما نقله المفسّر الكبير العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ الآخرة ليست محلاً للأعمال ولا للانحراف، بل هي محلّ الحصول على النتائج فحسب ولكن عند وقوع الموت وحتى في البرزخ (الذي هو عالم بين الدنيا والآخرة) قد تحصل بعض الهفوات، فهنا يكون اللطف الإلهي عاملاً في حفظ وثبات الإنسان.

٢ - دور الثبات والاستقامة

من بين جميع الصفات التي ذكرتها الآيات أعلاه للشجرة الطيّبة والخبيثة، وردت مسألة الثبات وعدم الثبات بشكل أكثر، وحتى في بيان ثمار هذه الشجرة يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وبهذا الترتيب تتّضح لنا أهميّة الثبات ودوره في حياة الإنسان.

فكثير من الأشخاص من ذوي القابليات المتوسطة، إلّا أنّهم ينالون انتصارات كبيرة في حياتهم، ثمّ إذا حقّقنا في الأمر لم نجد دليلاً إلّا الثبات والاستقامة لديهم.

ومن جهة اجتماعية لا يتحقّق أي تقدّم في البرامج إلّا في ظلّ الثبات، ولهذا السبب نجد المخرّبين يسعون في تدمير الاستقامة، ولا نعرف المؤمنين الصادقين إلّا من خلال استقامتهم وثباتهم في مقابل الحوادث الصعبة.

٣ - الشجرة الطيّبة والخبيثة في الرّوايات الإسلامية

كما قلنا أعلاه فإنّ كلمة «الطيّبة» و«الخبيثة» التي شبّهت الشجرتان بها، لها مفهوم واسع بحيث تشمل كلّ شخص وبرنامج ومبدأ وفكر وعلم وقول وعمل، ولكن وردت في بعض الرّوايات في موارد خاصّة ولكن لا تنحصر بها.

ومن جملتها ما ورد في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال: «رسول الله أصلها وأمير المؤمنين فرعها، والأئمّة من ذرّيتهما أغصانها، وعلم الأئمّة ثمرها، وشيعتهم المؤمنون ورقها، هل فيها

---

(١) المصدر السابق؛ الفقيه، ج ١، ص ١٣٤، ح ٣٦٠.

فضل؟» (أي هل يبقى شيء) قال قلت: لا والله، قال: «والله إنّ المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، وإنّ المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها»(١).

وعنه أيضاً عليه السلام حينما سأله سائل عن معنى الآية ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: «ذاك علم الأئمّة يأتيكم كلّ عام من كلّ المناطق»(٢).

وفي رواية أُخرى: «الشجرة الطيّبة رسول الله وعلي وفاطمة وبنوها، والشجرة الخبيثة بنو أميّة»(٣).

وفي بعضها الآخر فسّرت الشجرة الطيّبة بالنخل والخبيثة بالحنظلة(٤).

وعلى أيّة حال ليس هناك من تضادّ بين هذه التفاسير، بل بينها وبين ما قلناه أعلاه ترابط وتنسيق، لأنّها مصاديقها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

نهاية كفران النعم

الخطاب في هذه الآيات موجّه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو في الحقيقة عرض لواحد من موارد «الشجرة الخبيثة».

يقول تعالى أوّلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا...﴾ إلى نهاية الآية. هؤلاء هم جذور الشّجرة الخبيثة وقادة الكفر والانحراف، لديهم أفضل نعمة وهو رسول الله، وباستطاعتهم أن يستفيدوا منه في الطريق إلى السعادة، إلّا أنّ تعصّبهم الأعمى وعنادهم وحقدهم صار سبباً في تركهم هذه النعمة الكبيرة، ولم يقتصروا على تركها فحسب. بل أضلّوا قومهم أيضاً ممّا جعلهم يسلكون هذا السلوك.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٣٥، ح ٥٣.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٣٥ و ٥٣٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير الدرّ المنثور، ج ٥، ص ٢٢.

مع أنّ بعض المفسّرين الكبار عند متابعتهم للروايات الإسلامية فسّروا - أحياناً - هذه النعمة بوجود النّبي ﷺ، وأحياناً أُخرى بالأئمّة عليهم السلام، وفسّروا الكافرين بهذه النعمة بـ «بني أُميّة» و«بني المغيرة» مرّةً، ومرّةً أُخرى جميع الكفّار الذين عاصروا عهد النّبي ﷺ، ولكن من المسلّم به أنّ للآية مفهوماً أوسع من هذا، وليس مختصّاً بمجموعة معيّنة، بل تشمل جميع الأفراد الذين يكفرون بالنعم الإلهيّة.

وتثبّت الآية ضمناً هذه الحقيقة، وهي أنّ الاستفادة من وجود القادة العظام تعود لنفس الإنسان، كما أنّ الكفر بهذه النعمة العظيمة يؤدّي إلى الهلاك والبوار.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يُفسّر دار البوار بقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾(١).

ثمّ يشير في الآية الأُخرى إلى واحدة من أسوأ أنواع كفران النعم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ لكي يستفيدوا عدّة أيّام من حياتهم الماديّة ومن رئاستهم وحكومتهم في ظلّ الشرك والكفر لإضلال الناس عن طريق الحقّ.

أيّها النّبي ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

فحياتكم هذه شقاء ورئاستكم فاسدة، ومع ذلك فإنّها تعدّ حياة لذيذة وسعيدة بالنسبة للنهاية التي تنتظرهم، كما نقرأ في آية أُخرى ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾(٢).

بحوث

١ - يقال في العبارات الدارجة: إنّ الشخص الفلاني كفر بنعمة الله، ولكن الآية أعلاه تقول: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ إنّ هذا التعبير الخاص يدلّ على أحد أمرين:

ألف: المراد من تبديل «النعمة» إلى «كفران» هو عدم شكرهم لهذه النعم، فبدّلوا الشكر بالكفران (في الحقيقة كلمة الشكر مقدّرة ففي التقدير الذين بدّلوا شكر نعمة الله كفراً).

ب: - إنّ المقصود هو تبديلهم نفس «النعمة» «كفراً»، وفي الحقيقة فإنّ النعم الإلهيّة

---

(١) «يصلون» من «الصلي» بمعنى الاشتعال والاحتراق بالنار.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٨.

وسائل، وطريقة استعمالها مرتبطة بإرادة الإنسان، فمثلما يمكن أن نستفيد منها في طريق السعادة والإيمان والعمل الصالح، يمكن أن نستعملها كذلك في مسير الكفر والظلم والفساد، فهي كالمواد الأوّلية التي يمكن بمساعدتها الحصول على أنواع مختلفة من الإنتاج، إلّا أنّها خُلقت في الأصل للخير والسعادة.

٢ - ليس «كفران النعم» عدم الشكر اللساني فقط، بل كلّ استفادة غير صحيحة ومنحرفة للنعم، تلك هي حقيقة الكفران، وأمّا عدم الشكر باللسان ففي الدرجة الثانية، وكما قلنا سابقاً فإنّ شكر النعمة تعني صرفها في الهدف الذي خُلِقَت من أجله، والشكر عليها باللسان يأتي في الدرجة الثانية، فإذا قلنا آلاف المرّات: الحمد لله، ولكنّنا أسأنا عمليّاً الاستفادة من النعم، فذلك كفران للنعم.

وفي عصرنا الحاضر أفضل نموذج لتبديل النعم بالكفران هو استخدام الإنسان لمواهب الطبيعة بفكره ومهارته التي منحها الله للإنسان لخدمة منافعه الخاصّة. فالاكتشافات العلميّة والخبرات الصناعية غيّرت وجه العالم ورفعت عن كاهل الإنسان عبئاً ثقيلاً ووضعته على عجلات المعامل. فالمواهب والنعم الإلهيّة أكثر من أي زمن آخر، ووسائل نشر المعارف وانتشار العلوم ومعرفة جميع أخبار العالم متوفّرة في أيدي الجميع، فيجب على الناس في هذا العصر أن يكونوا سعداء من الناحية الماديّة والمعنوية.

ولكن بسبب تبديل النعم الإلهيّة الكبيرة إلى كفران، وصرف القوى الطبيعيّة في طريق الظلم والطغيان واستخدام الاختراعات والاكتشافات في طريق الأهداف المخربة بحيث إنّ كلّ تطور صناعي يستخدم أوّلاً في عمليات التدمير، وخلاصة القول: إنّ عدم الشكر هذا والذي هو بعيد عن التعاليم الصالحة للأنبياء أدّى إلى أن يجرّوا قومهم ومجتمعهم إلى دار البوار.

ودار البوار هذه هي مجموعة من الحروب الإقليميّة والعالميّة بكلّ آثارها التخريبيّة، وكذلك عدم الأمن والظلم والفساد والاستعمار حيث يبتلى بها في النهاية المؤسّسون لها أيضاً، كما رأينا في السابق ونراه اليوم.

وما ألطف تصوير القرآن حيث جعل مصير كلّ الأقوام والأُمم التي كفرت بأنعم الله إلى دار البوار.

٣ - «أنداد» جمع «ندّ» بمعنى «المثل» ولكن الراغب في مفرداته والزبيدي في تاج

العروس قالا: إنّ «النِدّ» يقال للشيء الذي يشابه الشيء الآخر جوهرياً، و«المثل» يطلق على كلّ شيء شبيه لشيء، ولذلك فالنِدّ له معنى أعمق وأدقّ من المثل.

وطبقاً لهذا المعنى نستفيد من الآية أعلاه أنّ أئمّة الكفر كانوا يسعون لأن يجعلوا لله شركاء ويشبهوهم في جوهر ذاتهم بالله عزّوجلّ، لكي يضلّوا الناس عن عبادة الله ويحصلوا على مقاصدهم الشريرة.

فتارةً يقرّبون لهؤلاء الشركاء القرابين، وأُخرى يجعلون قسماً من النعم الإلهيّة (كبعض الأنعام) مخصوصة للأصنام، ويعتقدون أحياناً بعبادتها. وأوقح من ذلك كلّه كانوا يقولون أثناء حجّهم في عصر الجاهلية: (لبّيك لا شريك لك - إلّا شريك هو لك - تملكه وما ملك)[1].

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن

تعقيباً للآيات السابقة في الحديث عن برنامج المشركين والذين كفروا بأنعم الله وكون مصيرهم إلى دار البوار، تتحدّث هذه الآيات عن برنامج عباد الله المخلصين والنعم النازلة عليهم، يقول تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لا يستطيع فيه الإنسان من التخلّص

(١) تفسير الفخر الرازي ذيل الآية مورد البحث.

من العذاب بشراء السعادة والنعيم الخالد، ولا تنفع الصداقة حينئذ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

ثمّ تتطرّق الآية إلى معرفة الله عن طريق نعمه، معرفة تؤدّي إلى إحياء ذكره في القلوب، وتحثّ الإنسان على تعظيمه في مقابل لطفه وقدرته، لأنّ من الأُمور الفطرية أن يشعر الإنسان في قلبه بالحبّ والودّ لمن أعانه وأحسن إليه.

ويبيّن هذا الموضوع من خلال عدّة آيات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾.

ثمّ إنّه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ سواء من جهة موادّها الأوّلية المتوفّرة في الطبيعة، أو من جهة القوّة المحرّكة لها وهي الرياح التي تهب على البحار والمحيطات بصورة منتظمة لتسيير هذه السفن فتنقل الإنسان وما يحتاج إليه من منطقة إلى أُخرى بيسر وسهولة: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ كي تسقوا من مائها زروعكم، وتشربوا أنتم وأنعامكم، وفي كثير من الأحيان تكون طريقاً للسفن والقوارب، وتستفيدون منها في صيد الأسماك.

وليست موجودات الأرض - فقط - مسخّرةً لكم، بل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾(1).

وليست مخلوقات العالم بذاتها فقط، بل حتى الحالات العرضية لها هي في خدمتكم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ ۝٣٤﴾ من احتياجاتكم البدنيّة والاجتماعية وجميع وسائل السعادة والرفاه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ لأنّ النعم المادية والمعنوية للخالق شملت جميع وجودكم وهي غير قابلة للإحصاء، وعلاوةً على ذلك فإنّ ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلونه كقطرة في مقابل البحر.

وعلى الرغم من كلّ هذه الألطاف والنعم ف ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾.

فلو كان الإنسان يستفيد من هذه النعم بشكلها الصحيح لاستطاع أن يجعل الدنيا حديقة غنّاء ولنفّذ مشروع المدينة الفاضلة، ولكن بسبب عدم الاستفادة الصحيحة لها

---

(١) ﴿دَآئِبَيۡنِ﴾ من مادّة «الدؤوب» بمعنى إدامة العمل طبقاً للسنّة الثابتة، وبما أنّ الشمس والقمر مستمرّان بشكل ثابت من ملايين السنين، وما لها من فوائد عظيمة للكائنات، لا نجد هناك عبارة لهما أفضل من ﴿دَآئِبَيۡنِ﴾.

أصبحت حياته مظلمة، وأهدافه غير سامية، فتراكمت عليه المشاكل والصعاب وقيّدته بالسلاسل والأغلال.

بحوث

١ - الصلة بالخالق والصلة بالخلق

نواجه في هذه الآيات مرّةً أُخرى وفي تنظيم برنامج المؤمنين الصادقين مسألة «الصلاة» و«الإنفاق»، وفي البداية قد يطرح هذا السؤال، وهو: كيف أشار القرآن الكريم لهاتين المسألتين من بين جميع البرامج العمليّة للإسلام؟ العلّة في ذلك أنّ للإسلام أبعاد مختلفة يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط: علاقة الإنسان بربّه، وعلاقته بخلق الله، وعلاقته بنفسه، وهذا القسم الأخير في الحقيقة نتيجة للقسم الأوّل والثاني، فالصلاة والإنفاق كلّ واحدة منهما رمز للعلاقة الأُولى والثانية.

والصلاة مظهر لصلة الإنسان بربّه وهذه الصلة تظهر في الصلاة بشكل أوضح من أي عمل آخر، والإنفاق رمز للصلة بين المخلوقين، فالرزق في مفهومه الواسع يشمل كلّ نعمة مادية ومعنوية.

وبالنظر إلى أنّ هذه السورة مكّية، وأثناء نزولها لم يكن حكم الزكاة نازلاً بعد، لا نستطيع القول: إنّ هذا الإنفاق مرتبط بالزكاة، بل له معنىً واسع بحيث يشمل حتى الزكاة بعد نزولها.

وعلى أيّة حال إذا تأصّل الإيمان فسوف يتجلّى بالعمل فيقرب الإنسان إلى ربّه من جانب وإلى عباده من جانب آخر.

٢ - لماذا السرّ والعلانية؟

نقرأ مراراً في آيات القرآن أنّ المؤمنين ينفقون أو يتصدّقون في السرّ والعلانية، وبهذا الترتيب فإنّه تعالى مع ذكره للإنفاق يذكر كيفيّة الإنفاق، لأنّه يكون مرّةً في السرّ أكثر تأثيراً وكرامة، ويكون مرّةً أُخرى في الجهر سبباً في تشجيع الآخرين واقتدائهم في إقامة الشعائر الدينيّة.

ولو قامت حرب بين دولة إسلامية وأُخرى كافرة لرأينا الناس المؤمنين يحملون كلّ يوم مقادير كبيرة من التبرعات إلى المناطق المنكوبة لمساعدة المتضرّرين بالحرب، أو

الجرحى والمعوّقين أو المقاتلين، ومن المعلوم أنّ نشر أخبار هذه التبرّعات مفيد جدّاً لتكون دليلاً على مواساتهم، ودعمهم لمقاتليهم، وإحياءً لروح الإنسانيّة في عامّة الناس، وتشجيعاً للذين تخلّفوا عن هذه القافلة لكي يوصلوا أنفسهم بها، ومن البديهي أنّ الإنفاق هنا في العلانية أكثر تأثيراً.

ويقول بعض المفسّرين: إنّ الفرق بين الإنفاقين هو أنّ الإنفاق العلني مرتبط بالواجبات، فلا يخشى عليه من الرياء، لأنّ العمل بالواجبات لازم للجميع ولا داعي لإخفائه، وأمّا الإنفاق المستحبّ - ولأنّه زائد عن الوظيفة الواجبة - فمن الممكن أن تتخلّله حالة من التظاهر والرياء ولذلك كان إخفاؤه أفضل.

ولكن الظاهر أنّ هذا التّفسير ليس أصلاً كلّياً على حدة، بل هو فرع من التّفسير الأوّل.

٣ - يومٌ لا بيع فيه ولا خلال

من المعلوم أنّ يوم القيامة هو يوم استلام النتائج ومتابعة جزاء الأعمال، وبهذا الترتيب لا يستطيع أحد هناك أن ينجو من العذاب بفدية، حتى لو افترضنا أنّه ينفق جميع ما في الأرض فإنّه لا يمكن أن يمحو ذرّةً من جزاء أعماله، لأنّ صحيفته في «دار العمل» أي الدنيا مليئة بالأخطاء والذنوب وهناك «دار الحساب».

وكذلك لا تستطيع العلاقة المادية للصداقة مع أي شخص كان أن تنجيه من العذاب، وبعبارة أُخرى: إنّ الإنسان غالباً ما يلجأ إلى المال أو الواسطة (الرشوة، العلاقات) في نجاته من المصاعب في هذه الدنيا، فإذا كان تصوّرهم أنّ الآخرة كذلك فهذا دليل وهمهم وجهلهم.

ومن هنا يتّضح أنّ نفي وجود الخلّة والصداقة في هذه الآية لا يتنافى مع صداقة المؤمنين بعضهم لبعض في الآخرة والتي أشارت إليها بعض الآيات، لأنّها صداقة مودّة معنوية في ظلّ الإيمان.

وأمّا مسألة «الشفاعة» فقد قلنا مراراً إنّها تخلو من أي مفهوم مادّي، بل بالنظر إلى ما صرّحت به بعض الآيات فإنّها في ظلّ العلاقات المعنوية وصلاحية البعض بسبب أعمال الخير (وقد شرحنا هذا الموضوع في ذيل الآية ٢٥٤ من سورة البقرة).

٤ - كلّ الموجودات تحت إمرة الإنسان!

نواجه في هذه الآيات مرّةً أُخرى تسخير مختلف الموجودات في الأرض والسّماء

للإنسان، وقد قسمت إلى ستّة أقسام: تسخير الفلك، والأنهار، والشمس، والقمر، والليل، والنهار. ونرى أنّ قسماً من هذه المسخّرات من السّماء، وقسماً آخر من الأرض، وقسماً ثالثاً من الظواهر بين الاثنين (الليل والنهار).

وقلنا سابقاً، ونكرّر هنا للتذكرة: إنّ الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة بحيث سخّر الله له جميع ما في الوجود، إمّا أن يكون زمام أُمورها بيده أو تتحرّك ضمن منافعه، وعلى أيّة حال فهذه العظمة جعلته من أشرف الموجودات.

«فالشمس»: تسطع له بالنّور، وتعطيه الحرارة، وتساعد على نمو النباتات له، وتطهّر محيطه من الأمراض، وتخلق له البهجة والسرور، وتعلّمه الحياة.

وأمّا «القمر»: فمصباح في ليله المظلم، ومفكرة طبيعيّة دائمة، ومن آثاره تتكوّن ظاهرة الجزر والمدّ لتحلّ كثيراً من مشاكله، فتسقي الأشجار (بسبب ارتفاع منسوب المياه في الأنهار المجاورة للبحار) وتتحرّك مياه البحار الراكدة كي لا تتعفّن، وليدخل الأوكسجين فيها بسبب الأمواج ليكون تحت تصرّف الكائنات الحيّة.

«الرياح»: تؤدّي إلى حركة السفن في المحيطات حيث تشكّل السفن أكبر واسطة نقل وفي أوسع طريق لخدمة الإنسان، بحيث تستطيع الرياح - أحياناً - أن تدفع سفينة بحجم مدينة صغيرة بكامل أفرادها وتنقلها في المحيطات.

«الأنهار»: تجري في خدمة الإنسان، تسقي زرعه، وتروي مواشيه، وتجعل محيطه ذا طراوة، وتربّي له الأسماك لتغذيته.

«ظلام الليل»: حيث هو سكن للإنسان، ويمنحه الطمأنينة والراحة، ويخفّف من حرارة الجو الملتهبة في النهار.

وأخيراً «ضياء النهار»: يدعوه إلى الحركة والسعي، ويخلق له الدفء والحرارة.

والخلاصة: إنّ كلّ ما على الأرض وحولها لنفع الإنسان، وبيان هذه النعم وشرحها يمنح الإنسان شخصية جديدة، وتفهمه عظمة مقامه وتبعث فيه الإحساس بالشكر أكثر.

ونستفيد أيضاً من هذا البيان أنّ للتسخير في لغة القرآن معنيان:

الأوّل: التسخير لخدمة الإنسان وتحقيق منافعه ومصالحه (كتسخير الشمس والقمر).

والثّاني: التسخير الذي يكون زمام أُموره بيد الإنسان (كتسخير الفلك والبحار).

وأمّا ما اعتقده البعض من أنّ هذه الآيات إشارة إلى تسخير الإنسان للقمر وغيره في عصرنا الحاضر فإنّنا لا نراه صحيحاً، لأنّ هناك بعض الآيات تقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1]، فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى جميع الكرات السّماوية بتاتاً.

نعم هناك بعض الآيات قد تشير إلى هذا النوع من التسخير، وسوف نبحث هذا الموضوع بإذن الله في تفسير سورة الرحمن (وسبق لنا بحث في تسخير الموجودات للإنسان في ذيل الآية (٢) من سورة الرعد).

٥ - ﴿دَآئِبَيْنِ﴾

قلنا إنّ «دائب» من مادّة «الدؤوب» بمعنى استمرار العمل طبقاً للعادة والسنّة، فالشمس لا تدور حول الأرض، بل الأرض تدور حول الشمس، ونحن نظنّ أنّ الشمس تدور حولنا، وهذه الحركة ليست المقصودة في معنى «دائب» بل الاستمرار في إنجاز العمل يدخل في مفهوم الدؤوب، ونحن نعلم أنّ الشمس والقمر لهما برنامج في انبعاث النّور وما يتبعه من توقّف الحياة على الأرض عليه بشكل مستمر وفي غاية من الدقّة (وهناك حركات أُخرى للشمس كما يقوله العلماء منها الحركة حول نفسها وحركتها مع المجموعة الشمسية).

٦ - هل يُعطينا الله كلّ ما نطلب منه؟

قرأنا في الآيات أعلاه أنّ الله عزّوجلّ لطف بكم وأعطاكم من كلّ ما سألتموه (﴿مِن﴾ في الآية تبعيضيّة) وذلك بسبب أنّ كثيراً ممّا يطلبه الإنسان من ربّه قد يعود عليه بالضرر والهلاك، ولكنّ الله حكيم وعالم ورحيم فلا يستجيب لمثل هذه الطلبات، وفي المقابل نرى في أكثر الأحيان أنّ الإنسان لا يطلب شيئاً بلسانه، ولكن يتمنّاه بفطرته ووجدانه فيستجيب الله له، وليس هناك مانع من أن يكون السؤال في جملة ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ شاملاً للسؤال باللسان والسؤال بالفطرة والوجدان.

٧ - لماذا لا تُحصى نعماؤه؟

نعم الله - في الحقيقة - تعمّ كلّ وجودنا، وإذا ما طالعنا الكتب المختلفة في العلوم الطبيعيّة والإنسانيّة والنفسيّة وأمثالها فسوف نرى إلى أي مدى تتّسع أطراف هذه النعم، وفي الحقيقة إنّ لكلّ نَفَس يتنفّسه الإنسان نعمتان، ولكلّ نعمة شكر واجب.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

وأكثر من ذلك فنحن نعلم بأنّ متوسّط عدد الخلايا الحيّة في جسم الإنسان نحو عشرة ملايين ميليارد خلية، وكلّ مجموعة تشكّل قسماً فعّالاً في الجسم، وهذا العدد كبير جدّاً بحيث لو أردنا إحصاءه نحتاج إلى مئات السنين!

فهذا قسم من نعمه علينا، ولذلك - حقّاً - لا نستطيع عدّ نعمه، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

ويوجد في دم الإنسان مجموعتان من الكريّات (وهي خلايا صغيرة سابحة في الدم ولها وظائف حياتية مهمّة) ملايين من «الكريّات الحمراء» وظيفتها إيصال الأوكسجين لأجل الاحتراق وصنع خلايا الجسم، وملايين من «الكريات البيض» وظيفتها حفظ سلامة الإنسان مقابل هجوم المكروبات، والعجيب أنّ هذه الكريات في حالة حركة مستمرة لخدمة الإنسان.

فهل نستطيع في هذه الأحوال أن نحصي نعمه تعالى غير المتناهية؟!

٨ - أسفاً... إنّ الإنسان ظلومٌ وكفّار

توصّلنا في البحوث السابقة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الله سخّر للإنسان جميع الموجودات، وهيّأ له كلّ هذه النعم بحيث سدّ جميع احتياجاته، ولكن الإنسان بسبب ابتعاده عن نور الإيمان والتربية، نراه يخطو في طريق الظلم والطغيان ويكفرُ بالنعم.

ويسعى المحتكرون في احتكار النعم الإلهيّة الواسعة والسيطرة على منابعها الحياتية، مع أنّهم لا يستهلكون إلّا الشيء القليل ويحرمون الآخرين منها، ويظهر هذا الظلم بأشكال مختلفة من السيطرة على الشعوب الضعيفة واستعمارها والتجاوز على حقوق الآخرين، فيعرّض الإنسان حياته الهادئة إلى الهلاك، يخلق الحروب، ويسفك الدماء، ويقضي على الأموال والأنفس.

وفي الحقيقة فإنّ القرآن الكريم يناديه: أيّها الإنسان، كلّ شيء بالقدر الكافي تحت تصرّفك، بشرط أن لا تكون ظلوماً كفّاراً، عليك أن تقنع بحقّك ولا تتجاوز على حقوق الآخرين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى

زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير

دعاء إبراهيم عليه السلام

لمّا كان الحديث في الآيات السابقة عن المؤمنين الصادقين والشاكرين لأنعم الله، عقّبت هذه الآيات في بحث بعض أدعية وطلبات العبد المجاهد والشاكر لله إبراهيم عليه السلام ليكون هذا البحث تكملة للبحث السابق ونموذجاً حيّاً للذين يريدون أن يستفيدوا من النعم الإلهيّة أفضل استفادة.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ لأنّه عليه السلام كان يعلم حجم البلاء الكبير الكامن في عبادة الأصنام، ويعلم كثرة الذين ذهبوا ضحيّةً في هذا الطريق ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأيّ ضلال أكبر من هذا الضلال الذي يفقد الإنسان فيه حتى عقله وحكمته.

إلهي إنّني أدعو إلى توحيدك، وأدعو الجميع إلى عبادتك ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

في الحقيقة إنّ إبراهيم عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يقول لله تعالى: إنّه حتى لو انحرف أبنائي عن مسيرة التوحيد واتّجهوا إلى عبادة الأصنام فإنّهم ليسوا منّي، ولو كان غيرهم في مسيرة التوحيد فهم أبنائي وإخواني.

إنّ تعبير إبراهيم المؤدّب والعطوف جدير بالملاحظة، فهو لم يقل: ومن عصاني فإنّه ليس منّي وسأعاقبه عقاباً شديداً، بل يقول: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثمّ يستمر بدعائه ومناجاته ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وكان ذلك عندما رزقه الله إسماعيل من جاريته «هاجر» فأثار ذلك حسد زوجته الأولى «سارة» ولم تستطع تحمّل وجود هاجر وابنها، فطلبت من إبراهيم أن يذهب بهما إلى مكان آخر، فاستجاب لها إبراهيم طبقاً للأوامر الإلهيّة، وجاء بإسماعيل وأُمّه إلى صحراء مكّة القاحلة، ثمّ ودّعهم وذهب.

ولم يمض قليل من الوقت حتى عطشت الأمّ وابنها في تلك الشمس المحرقة، وسعت هاجر كثيراً في إنقاذ ابنها، ولكنّ الله تعالى أراد أن تكون تلك الأرض قاعدة عظيمة للعبادة فأظهر عين زمزم، ولم يمض وقت حتى علمت قبيلة «جرهم» البدوية التي كانت قريبة منهم بالأمر، فرحلوا وأقاموا عندهم، فأخذت مكّة بالتحضّر شيئاً فشيئاً.

ثمّ يتابع إبراهيم عليه السلام دعاءه: إلهي، إنّ أهلي قد سكنوا في هذه الصحراء المحرقة احتراماً لبيتك المحرّم: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

ومن هنا لمّا كان الإنسان الموحّد والعارف يعلم بمحدودية علمه في مقابل علم الله، وأنّه لايعلم مصلحته إلّا الله تعالى، فما أكثر ما يطلب شيئاً من الله وليس فيه صلاحه، أو لا يطلبه وفيه صلاحه، وأحياناً لا يستطيع أن يقوله بلسانه فيضمره في أعماق قلبه، ولذلك يعقّب على ما مضى من دعائه ويقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

فإن كنت مغتمّاً لفراق ابني وزوجتي فأنت تعلم بذلك... وترى دموع عيني المنهملة. وإن كان قلبي قد ملأه همّ الفراق، وامتزج بفرح العمل بالتكليف والطاعة لأوامرك فأنت أعلم بذلك...

وعندما فارقت زوجتي وقالت لي: «إلى من تكلني» فأنت أدرى بها وبمستقبلها ومستقبل هذه الأرض.

ثمّ يشير القرآن إلى شكر إبراهيم عليه السلام لنعمه تعالى والتي هي من أهمّ ما امتاز به عليه السلام شكره على منحه ولدين بارّين إسماعيل وإسحاق وذلك في سنّ الشيخوخة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾[1] نعم ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

(١) هناك اختلاف بين المفسّرين في سنّ إبراهيم عند ولادة إسماعيل وإسحاق، فمنهم من قال: كان عمره عند ولادة إسماعيل ٩٩ عاماً وعند ولادة إسحاق ١١٢ عام، ومنهم من يقول أكثر من ذلك وأقل، ولكن القدر المسلّم به أنّ عمره كان في سن يصعب أن يولد منه الأبناء.

ثمّ يستمرّ بدعائه ومناجاته أيضاً فيقول: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾.

ثمّ يختم دعاءه هنا فيقول: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾.

بحوث

١ - هل كانت مكّة في ذلك الوقت مدينة؟

رأينا في الآيات السابقة أنّ إبراهيم قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي ﴾ وهذه إشارة إلى أوّل دخوله أرض مكّة والتي كانت غير مزروعة ولا معمورة ولا ساكن فيها سوى أسس بيت الله الحرام، ومجموعة من الجبال الجرداء.

ولكنّنا نعلم أنّها لم تكن رحلته الوحيدة إلى مكّة، بل وطأت قدمه عدّة مرّات تلك الأرض، وفي الوقت نفسه كانت مكّة تأخذ طابع المدينة، وسكنتها قبيلة «جرهم» وبظهور عين زمزم أصبحت صالحة للسكن.

والمعتقد أنّ أدعية إبراهيم هذه كانت في إحدى رحلاته، ولذلك عبّر عنها بالبلد، أي المدينة فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

وأمّا قوله: ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ فقد تكون إشارة إلى رحلته الأُولى أو إشارةً إلى أرض مكّة بعد أن أخذت طابع المدينة، فإنّها لا زالت غير صالحة للزراعة، لأنّها من الناحية الجغرافية تقع بين جبال يابسة وقليلة المياه.

٢ - أمان أرض مكّة

من الطريف أنّ أوّل ما سأل إبراهيم من ربّه في هذه الأرض هو الأمان، وهذا يوضّح أنّ نعمة الأمن هي من الشروط الأُولى لحياة الإنسان وسكنه في منطقة ما، فالمكان غير الآمن لا يمكن السكن فيه، حتى لو اجتمعت كلّ النعم الدنيويّة فيه، وفي الحقيقة أي مدينة أو بلد فاقد لنعمة الأمن سوف يفقد جميع النعم!

ولابدّ هنا من الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ استجابة الله لدعاء إبراهيم بخصوص أمن مكّة له جهتان: فمن جهة منحها أمناً تكوينيّاً، ولذلك لم تشهد في تاريخها إلّا النزر القليل من إخلال الأمن، ومن جهة ثانية منحها الأمن التشريعي، أي إنّ الله أقرّ أن يأمن جميع الناس - وحتى الحيوانات - في هذه الأرض، ومنع صيد

الحيوانات، وعدم متابعة المجرمين الذين يلجأون إلى حرم الكعبة، ونستطيع - فقط - أن نمنع عليهم الغذاء لكي يخرجوا، ومن ثمّ تطبيق العدالة في حقّهم.

٣ - دعاء إبراهيم لاجتناب عبادة الأصنام؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ إبراهيم عليه السلام كان نبيّاً معصوماً، وكذلك ابناه إسماعيل وإسحاق كانا نبيّين معصومين، لأنّهما داخلان في كلمة «بنيّ» في الآية قطعاً، ومع ذلك يدعو الله أن يجنّبهم عبادة الأصنام!

وهذا دليل في التأكيد على محاربة عبادة الأصنام بحيث كان يطلب هذا الأمر من الله حتى للأنبياء المعصومين ومحطّمي الأصنام، وهذا نظير اهتمام النّبي في وصاياه لعلي - أو الأئمّة الآخرين بالنسبة لأوصيائهم - في أمر الصلاة، والتي لا يمكن احتمال تركها من قبلهم أبداً، بل إنّ الصلاة أساساً قامت ببركة سعيهم وجهودهم.

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف قال إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ في حين أنّ الأصنام ليست سوى أحجار وخشب ولا استطاعة لهنّ في إضلال الناس.

ويمكن الجواب على هذا السؤال من جهتين:

أوّلاً: لم تكن الأصنام من الأحجار والخشب دائماً، بل هناك الفراعنة وأمثال نمرود الذين كانوا يدعون الناس لعبادتهم ويسمّون أنفسهم بالربّ الأعلى والمحيي والمميت.

ثانياً: وأحياناً يكون القائمون بأمر الأصنام مظهرين تعظيمها وتزيينها بالشكل الذي تكون حقّاً مضلّة لعوام الناس.

٤ - من هم أتباع إبراهيم؟

قرأنا في الآيات أنّ إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ فهل أنّ أتباع إبراهيم من كان في عصره فقط، أم الذين كانوا على دينه في العصور اللاحقة، أو يشمل كلّ الموحدين والمؤمنين في العالم - باعتبار إبراهيم عليه السلام مثالاً في التوحيد ومحطّماً للأصنام.؟

نستفيد من الآيات القرآنية - ومن ضمنها الآية (٧٨) من سورة الحج - أنّ دعاء إبراهيم يشمل جميع الموحدين والمجاهدين في طريق التوحيد. ويؤيّد هذا التّفسير ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام أيضاً: فعن الباقر عليه السلام قال: «من أحبّنا فهو منّا أهل البيت. قلت، جعلت فداك: منكم؟ قال منّا والله، أما سمعت قول إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾»[1].

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٤٨، ح ١٠٢.

ويوضّح هذا الحديث صيرورة الفرد من أهل البيت معنوياً إن سار على خطّهم وتابع منهجهم.

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «نحن آل إبراهيم، أفترغبون عن ملّة إبراهيم! وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾»؟[1].

٥ - واد غير ذي زرع والحرم الآمن

الذين سافروا إلى مكّة يعلمون جيداً أنّها تقع بين جبال صخرية يابسة لا ماء فيها ولا كلأ، وكأنّ الصخور وضعت في أفران حارّة ثمّ صبّت في أماكنها. وفي نفس الوقت فهي أكبر مركز للعبادة وأقدم قاعدة للتوحيد على وجه المعمورة، وكذلك هي حرم الله الآمن.

وهنا قد يرد هذا السؤال في أذهان الكثيرين وهو: لماذا جعل الله هذا المركز المهمّ في مثل هذه الأرض؟

يجيب الإمام علي عليه السلام على هذا السؤال من خلال أوضح العبارات وأجمل التعابير الفلسفيّة في خطبته القاصعة حيث يقول: «وضعه بأوعر بقاع الأرض صخراً وأقلّ نتائق الدنيا مدراً... بين جبال خشنة ورمال دمثة... ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنّات وأنهار وسهل وقرار، جمّ الأشجار، داني الثمار، ملتفّ البنا، متّصل القوى، بين برّة سمراء وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة ورياض نضرة وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء، ولو كان الأساس المحمول عليها والأحجار المرفوع بها بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفّف ذلك مصارعة الشكّ في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس، ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبّدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلّل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه»[2].

٦ - الأدعية السبعة لإبراهيم

دعا إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات سبعة أدعية في مجال التوحيد والمناجاة ومحاربة الأصنام وعبادتها ومحاربة الظالمين:

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٤٨، ح ١٠٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

أوّل هذه الدعوات هو أمان مكّة القاعدة العظيمة لمجتمع التوحيد (وما أعمق مغزى هذا الطلب).

الثّاني: دعاؤه في الاجتناب عن عبادة الأصنام والتي هي الأساس والقاعدة لجميع العقائد والبرامج الدينيّة.

الثّالث: دعاؤه في تمايل قلوب المؤمنين وارتباطهم العاطفي بالنسبة لأبنائه والتابعين لدينه.

دعاؤه الرابع: أن يرزقهم الله من أنواع الثمرات، لتكون عنواناً للشكر والالتفات بشكل أعمق لخالق النعم.

الدعاء الخامس: التوفيق لإقامة الصلاة والتي هي أقوى صلة بين الإنسان وربّه، ودعاؤه عليه السلام ليس له فقط، بل حتى لأبنائه.

دعاؤه السادس: قبول دعائه، ونحن نعلم أنّ الله يقبل الدعاء من مواقع الإخلاص والقلوب الطاهرة والأرواح السامية، وفي الواقع إنّ هذا الطلب من إبراهيم عليه السلام يحتوي ضمناً الحصول على القلب الطاهر والروح السامية.

وآخر دعائه عليه السلام: أن يشمله الله بلطفه ورحمته فيما إذا صدر منه ذنب أو خطيئة، وأن يرحم أُمّه وأباه وجميع المؤمنين في يوم القيامة.

وبهذا الترتيب فإن دعواته تبدأ بالأمن وتنتهي بالعفو والغفران، ومن الطريف أنّه لم يطلبها لنفسه فقط، بل للآخرين كذلك، لأنّ عباد الرحمن ليسوا أنانيّين!

٧ - هل يدعو إبراهيم لأبيه؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ «آزر» كان يعبد الأصنام، وكما يشير إليه القرآن فإنّ إبراهيم سعى جاهداً لأن يهديه لكن خاب سعيه، وإذا سلّمنا أنّ آزر كان أباً لإبراهيم، فلماذا يدعو إبراهيم أن يغفر الله له في الوقت الذي نرى أنّ القرآن يقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾(١).

ومن هنا يتّضح أنّ آزر لم يكن أباً لإبراهيم، وأنّ كلمة أب تطلق أحياناً على العمّ، وكثيراً ما يستعملها العرب كذلك، بينما (الوالد) خاصّة بالأب الحقيقي والتي جاءت في

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

الآيات أعلاه. أمّا كلمة أب والتي وردت بخصوص آزر فمن الممكن أنّ المراد بها العمّ.

ونستنتج من الآيات أعلاه وممّا ورد في سورة التوبة من النهي عن الاستغفار للمشركين أنّ «آزر» لم يكن أباً لإبراهيم حتماً. (وللتوضيح أكثر راجع تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام و٣٦ من سورة الأعراف في تفسيرنا هذا).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

اليوم الذي تشخص فيه الأبصار

كان الحديث في الآيات السابقة عن يوم الحساب، وبهذه المناسبة تجسّم هذه الآيات حال الظالمين والمتجبّرين في ذلك اليوم، ثمّ تبيّن المسائل المتعلّقة بالمعاد وتكمل الحديث السابق حول التوحيد وتبدأ في تهديد الظالمين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وهذا في الواقع جواب لأُولئك الذين يقولون: إذا كان لهذا العالم إله عادل فلماذا يترك الظالمين وحالهم؟ هل هو غافل عنهم أم لا يستطيع أن يمنعهم وهو يعلم بظلمهم؟

فيجيب القرآن الكريم على ذلك بأنّ الله ليس غافلاً عنهم أبداً، لأنّ عدم عقابهم مباشرةً هو أنّ هذا العالم محلّ الامتحان والاختبار وتربية الناس، وهذا لا يتمّ إلّا في ظلّ الحرية، وسوف يأتي يوم حسابهم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿تَشْخَصُ﴾ من مادّة «الشخوص» بمعنى توقّف العين عن الحركة والنظر إلى نقطة بدهشة.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ من مادّة «إهطاع» بمعنى رفع الرقبة، ويعتقد البعض أنّها بمعنى «السرعة» وقال آخرون: تعني «النظر بذلّة وخشوع». ولكن بالنظر إلى الجمل الأُخرى يكون المعنى الأوّل أقرب إلى الصحّة.

﴿مُقْنِعِي﴾ من مادّة «الإقناع» بمعنى رفع الرأس عالياً.

ومفهوم جملة ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يقدرون على أن يطرفوا من شدّة الهول، وكأنّ أعينهم كأعين الأموات عاطلة عن العمل!

وجملة ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ بمعنى قلوبهم خالية ومضطربة بحيث ينسون كلّ شيء حتى أنفسهم وفقدت قلوبهم وأنفسهم كلّ إدراك وعلم، وفقدوا كلّ قواهم.

إنّ بيان هذه الصفات الخمس: تشخص الأبصار، مهطعين، مقنعي رؤوسهم، لا يرتدّ إليهم طرفهم، أفئدتهم هواء، صورة بليغة لهول وشدّة ذلك اليوم على الظالمين الذين كانوا يستهزئون بكلّ شيء، وأصبحوا في هذا اليوم لا يستطيعون حتى تحريك أجفان أعينهم.

ولكي لا يشاهدوا هذه المناظر المفجعة ينظرون إلى الأعلى فقط، فهؤلاء كانوا يعتقدون بكمال عقولهم ويعدّون الآخرين من الحمقى، فأصبحوا اليوم مدهوشين لدرجة أنّ نظرهم نظر المجانين، بل الأموات... نظر جاف عديم الروح ومليء بالرعب والفزع...

نعم، عندما يريد القرآن الكريم أن يصوّر منظراً أو يجسّم موقفاً يستخدم أقصر العبارات في أكمل بيان كما في الآية أعلاه.

ولكي لا يعتقد أحد أنّ هذه المجازات تتعلّق بمجموعة معيّنة، يقول تعالى لنبيّه الكريم: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ حتى نستفيد من هذه الفرصة ثمّ ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ ولكن هيهات إنّ ذلك محال ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ فكلّ هذه الدروس لم تؤثّر بكم وأدمتم ظلمكم وجوركم، والآن وبعد أن وقعتم في يد العدالة تطلبون تمديد المدّة، أي مدّة؟ لقد انتهى كلّ شيء!

بحوث

١ - لماذا وجّه الخطاب هنا إلى الرّسول الأكرم؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ النّبي ﷺ لا يتصوّر أبداً أنّ الله غافلٌ عن الظالمين، ومع ذلك نرى الآيات أعلاه توجّه خطابها إلى النّبي وتقول له: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

إنّه - في الواقع - إيصال الخطاب بشكل غير مباشر إلى الآخرين، والذي هو أحد فنون الفصاحة، كما نقول: إيّاك أعني واسمعي ياجارة.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ هذا التعبير كناية عن التهديد، كما نقول في بعض الأحيان للشخص المقصّر «لا تعتقد أنّنا غافلون عن أفعالك» يعني سوف نحاسبك على ما فعلت!

وعلى أي حال فأساس الحياة يقوم على إعطاء المهلة الكافية للأفراد حتى ينفقوا ممّا عندهم، ولكي لا يبقى عذر لأحد تعطى المهلة الكافية قبل ساعة الامتحان، وإعطاء المهلة الكافية للرجوع والإصلاح للجميع.

٢ - ما هو المقصود من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾؟

لقد أمر النّبي ﷺ أن ينذر الناس بهذا اليوم الذي ينزل عليهم فيه العذاب الإلهي، ولكن أي يوم هذا؟ ذكر المفسّرون له ثلاثة احتمالات:

الأوّل: يوم القيامة.

الثّاني: يوم وقوع الموت، حيث تبدأ مقدّمة العذاب الإلهي للظالمين.

الثّالث: المقصود هو نزول جزء من العذاب والبلاء الدنيوي، كعذاب قوم لوط وعاد وثمود وقوم نوح وفرعون، والذي تمّ من خلال الطوفان أو الزلازل والعواطف والريح وغيرها.

ومع أنّ كثيراً من المفسّرين رجّحوا التّفسير الأوّل، إلّا أنّ الآيات التي تليها تشير إلى قوّة الاحتمال الثّالث، والتي توضح أنّ المقصود هو العقاب الدنيوي لأنّنا نقرأ بعد هذه الآية ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾.

فالتعبير ﴿أَخِّرْنَآ﴾ قرينة واضحة في الطلب لاستمرار الحياة في الدنيا، لأنّه لو كان في

الآخرة لقالوا: ربّنا ارجعنا إلى الدنيا، كما نقرأ في الآية (٢٧) من سورة الأنعام ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث يردّ عليهم القرآن الكريم ويقول: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1].

وقد يسأل سائل: إذا كانت هذه الآية تشير إلى عذاب الدنيا، والآية ما قبلها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ تشير إلى عذاب الآخرة، فكيف يمكن أن تتوافق هاتان الآيتان، بالنظر إلى أنّ كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ دالّة على عقابهم في الآخرة فقط وليس في الدنيا.

ويتّضح الجواب بملاحظة أنّ العقاب الأُخروي الذي يشمل جميع الظالمين، ليس له أي تبديل وتغيير، بينما الجزاء الدنيوي - بالإضافة إلى أنّه غير شامل - فهو قابل للتبديل.

ولابدّ من ذكر هذه النقطة أيضاً وهو أنّ العقاب الدنيوي - كعقاب قوم نوح وفرعون وأمثالهم - إذا حلّ بهم سوف تُغلق أبواب التوبة كليّاً وليس لهم طريق للرجوع والتوبة، لأنّ أغلب المذنبين عندما يرون العذاب يندمون على ما فعلوا، وهذا الندم اضطراري وليس له أي قيمة، ولذلك يجب عليهم أن يتوبوا قبل نزول العذاب[2].

٣ - لماذا لا تُقبل المهلة؟

نقرأ في آيات مختلفة من القرآن الكريم أنّ الظالمين والمذنبين في مواقف متعدّدة، يطلبون الرجوع إلى الحياة لتصحيح مسيرتهم، فبعض هذه المواقف مرتبط بيوم القيامة كما أشرنا في الآية (٢٨) من سورة الأنعام، وبعض آخر مرتبط بساعة الموت كما تشير إليه الآية (٩٩) من سورة المؤمنون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾﴾ والبعض الآخر يطلب الرجوع عند نزول العذاب المهلك - كما في هذه الآية - حيث يقول الظالمون عند رؤيتهم للعذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ ومن الطريف أنّ الجواب في جميع هذه المواقف يكون بالنفي.

ودليله واضح، لأنّ أي واحد من هذه الأُمنيات لا يمثّل حقيقة واقعيّة ولا جديّة، ورجاؤهم هذا هو حالة اضطرارية تظهر حتى عند أسوأ الأشخاص، وليست حالة دالّة على التغيّر الذاتي والتصميم الواقعي الصادق لتصحيح مسيرة حياتهم، كالمشركين عندما

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

(٢) للمطالعة أكثر راجع ذيل الآية (١٨) من سورة النساء.

يأخذهم الطوفان يسألون الله النجاة، وعندما ينجيهم إلى الساحل ينكثون عهودهم كأن لم يكن شيء إطلاقاً.

ولذلك يقول القرآن الكريم في بعض آياته - كما أشرنا إليه أعلاه - ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾

التّفسير

لا فائدة من مكرهم!

أشارت الآيات السابقة إلى نوع من عقاب الظالمين، وفي هذه الآيات أيضاً أشارت - أوّلاً - إلى جزء من أفعالهم، ومن ثمّ إلى قسم آخر من جزائهم الشديد وعقابهم الأليم.

تقول الآية الأولى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾.

لقد عملوا كلّ ما بوسعهم من أجل طمس حقائق الإسلام، بدءاً من الترغيب والتهديد وحتى الأذى ومحاولات القتل والاغتيال وبثّ الشائعات، ومع كلّ ذلك فإنّ الله مطّلع على جميع مؤامراتهم وقد أحصى أعمالهم: ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ وعلى أي حال فلا تقلق فإنّهم لا يستطيعون بمكرهم هذا أن يصيبوك بسوء حتى ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

«المكر» - وكما أشرنا إليه سابقاً - بمعنى الاحتيال، فمرّةً يلازمه الفساد ومرّةً أُخرى لا يلازمه، وفي تفسير جملة ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ رأيان:

يقول البعض ومن جملتهم العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان: المراد بكون مكرهم عند الله إحاطته تعالى به بعلمه وقدرته.

ويقول البعض الآخر، كالعلاّمة الطبرسي في مجمع البيان: إنّ المراد هو ثبوت جزاء مكرهم عند الله تعالى (وعلى هذا التّفسير يكون تقدير الآية: عند الله جزاء مكرهم) فكلمة الجزاء محذوفة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى الصحّة، لأنّه يوافق ظاهر الآية ولا يحتاج إلى الحذف والتقدير، وتؤيّده جملة ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي إنّ مكرهم مهما كان قوياً. ومهما كانت لديهم قدرة على المؤامرة، فإنّ الله أعلم بهم وأقدر عليهم وسيدمّر كلّ ما مكروا.

ثمّ يتوعّد الله الظالمين والمسيئين مرّة أُخرى من خلال مخاطبة النّبي ﷺ: «فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله» لأنّ الإخلاف يصدر من الذي ليست له قدرة واستطاعة، ولكن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

وهذه الآية - في الواقع - مكمّلة للآية التي قبلها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وتعني أنّ المهلة التي أُعطيت للظالمين ليست بسبب أنّ الله غافل عنهم وعن أعمالهم ولا مخلف لوعده، بل سينتقم منهم في اليوم المعلوم. والانتقام لا يراد به ما كان مصحوباً بالحقد والثأر كما يستخدم عادة في أعمال البشر، بل هو الجزاء والعقاب وإقامة العدالة بحقّ الظالمين، بل إنّها نتيجة عمل الإنسان نفسه، ولا حاجة إلى القول بأنّ الله تعالى لو لم ينتقم من الظالمين لكان ذلك خلافاً لعدله وحكمته.

ثمّ يضيف تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وسوف يتجدّد كلّ شيء بعد الدمار، ويبعث الإنسان في خلق جديد وعالم جديد يختلف في كلّ شيء عن هذا العالم، في سعته، في نعيمه وعقابه وسيظهر الإنسان بكلّ وجوده لله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

و«البروز» من مادّة «البراز» على وزن «فراز» بمعنى الفضاء والمحلّ الواسع، وغالباً ما تأتي بمعنى الظهور، لأنّ وجود الشيء في الفضاء الواسع بمعنى ظهوره، وهناك آراء مختلفة للمفسرين في معنى بروز الناس لله تعالى، الكثير يرى أنّها تعني الخروج من القبر.

ويحتمل أن يكون المعنى انكشاف بواطن وظواهر جميع الناس في يوم المحشر، كما نقرأ في الآية (١٦) من سورة غافر ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ وكذلك الآية (٩) من سورة الطارق ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ وعلى أي حال فوصفه بالقهّار دليل على تسلطه على كلّ الأشياء وسيطرته على ظاهرها وباطنها.

وهنا يأتي هذا السؤال، وهو: هل أنّ شيئاً خفي على الله في هذه الدنيا لكي يظهر في الآخرة؟ أم أنّ الله لا يعلم بما في القبور ولا يعلم بأسرار الناس؟

ويتّضح الجواب من الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ لنا ظاهراً وباطناً في هذه الدنيا، وقد يشتبه على البعض - بسبب علمنا المحدود - أنّ الله لا يرى باطننا، ولكن سوف يظهر كلّ شيء في الآخرة ولا وجود للظاهر والباطن هناك، وبعبارة أُخرى فالظهور بالقياس إلى علمنا وليس إلى علم الله المطلق.

وتصوّر الآية التالية كيفيّة بروزهم إلى الله فتقول: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾ جمع «صفد» بمعنى الغلّ، وقال البعض هو الغلّ والسلاسل التي تجمع اليد إلى العنق.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ من مادّة «القرن والاقتران» وهي بنفس المعنى، لكن لو استخدمت من باب التفعيل يستفاد منها التكثير، وعلى ذلك فكلمة مقرّنين بمعنى الأشخاص المتقاربين مع بعضهم البعض.

وللمفسّرين ثلاثة آراء حول المقصود من هذه الكلمة:

الأوّل: هو تقييد المجرمين بالسلاسل والأغلال بعضهم مع البعض الآخر وظهورهم بهذه الصورة في يوم القيامة، إنّ هذا الغِل هو عبارة عن تجسيد للروابط العملية والفكرية بين المجرمين في هذه الدنيا، حيث كان يساعد بعضهم البعض على الظلم والفساد، وتتجسّد هذه العلاقة في الآخرة بصورة سلاسل تربطهم فيما بينهم.

الثّاني: إنّ المجرمين يقرّنون مع الشياطين بالسلاسل في يوم القيامة بسبب علاقتهم الباطنية معهم في هذه الدنيا.

الثّالث: أن تقيّد أيديهم برقابهم في الآخرة.

ولا مانع هناك من أن تجمع هذه الصفات للمجرمين، لكن المعنى الأوّل الذي ذكرناه يوافق ظاهر الآية.

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم إلى لباسهم والذي هو أحد أفراد المجازاة الشديدة ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

«سرابيل» جمع (سربال) على وزن (مثقال) بمعنى القميص من أي قماش كان، ويقول البعض بأنّه كلّ أنواع اللباس، لكن الأوّل أقرب إلى المعنى.

﴿قَطِرَانٍ﴾ بفتح القاف وسكون الطاء أو بكسر القاف وسكون الطاء، وهي مادّة تؤخذ من شجرة الأبهل ثمّ تُغلى فتثخن وتُطلى بها الإبل عند إصابتها بمرض الجرب(١)، وكانوا يعتقدون أنّ المرض يزول بسبب وجود الحرقة في هذه المادّة، وعلى أي حال فهي مادّة سوداء نتنة وقابلة للاشتعال(٢).

فيكون معنى الجملة ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أنّهم يلبسون ثياباً من مادّة سوداء ونتنة وقابلة للاشتعال، حيث تمثّل أسوأ الألبسة لما كانوا يعملونه في هذه الدنيا من ارتكاب الذنوب والفواحش. وسوادها يشير إلى أنّ الذنوب تؤدّي إلى أن يكون الإنسان مسودّ الوجه أمام ربّه، وتعفّنها يشير إلى تلوّث المجتمع بهم ومساعدتهم على إشعال نار الفساد، وكأنّ القطران تجسيد لأعمالهم في الدنيا.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بسبب لباسهم الذي هو من قطران، لأنّه عند اشتعاله لا يحرق جسمهم فقط، بل يصل لهيبه إلى وجوههم، كلّ ذلك لأجل ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

ومن الطريف أنّه لم يقل أنّ الجزاء بما كسبت أنفسهم، بل يقول: ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ ليكون تجسيداً حيّاً لأعمالهم، وهذه الآية بهذا التعبير الخاص دليل آخر على تجسّم الأعمال.

وفي الختام يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهذا واضح تماماً لأنّ كلّ إنسان حسابه معه!

ونقرأ في بعض الرّوايات: إنّ الله تعالى يحاسب الخلائق كلّهم في مقدار لمح البصر، ولا ريب أنّ الله تعالى لا يحتاج إلى وقت لمحاسبة الأفراد، وما جاء في الرّواية أعلاه إشارة إلى أقصر الفترات. (للتوضيح أكثر راجع تفسير الآية ٢٠٢ من سورة البقرة من تفسيرنا هذا).

---

(١) التفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٤٨.

(٢) يقول فريد وجدي في دائرة المعارف في مادّة (القطران) مائع ناتج من تقطير الفحم الحجري، والقطران النباتي يتمّ الحصول عليه من بعض الأشجار.

وبما أنّ آيات هذه السورة - وكذلك جميع الآيات - لها جانب الدعوة إلى التوحيد وإبلاغ الأحكام الإلهيّة إلى الناس وإنذارهم، يقول تعالى في آخر آية من هذه السورة: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

بحوث

١ - تبديل الأرض غير الأرض والسماوات

قرأنا في الآيات أعلاه أنّ في يوم القيامة تبدّل الأرض غير هذه الأرض وكذلك السّماوات، فهل التبديل تبديل ذاتي، أي أن تفنى هذه الأرض وتُخلق مكانها أرض أُخرى للقيامة؟ أم المقصود هو تبديل الصفات، يعني دمار ما في الأرض والسّماوات وخلق أرض وسماوات جديدة على أنقاضها؟ حيث تكون النسبة بينهما أنّ الثانية أكمل من الأولى.

الظاهر في كثير من الآيات القرآنية أنّها تشير إلى المعنى الثاني، ففي الآية (٢١) من سورة الفجر يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وفي الآيتين الأُولى والثانية من سورة الزلزلة يقول تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ وفي الآيتين (١٥) و(١٦) من سورة الحاقة ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾[2] وقوله تعالى في سورة الانفطار في الآيات ١ - ٤ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾.

يستفاد من مجموع هذه الآيات والآيات الأُخرى التي تتحدّث عن بعث الناس من القبور، أنّ النظام الحالي للعالم لا يبقى بهذه الصورة التي هو عليها، ولا يفنى فناءً تامّاً، بل تتغيّر صورة العالم وتعود الأرض مسطّحة مستوية ويبعث الناس في أرض جديدة (بالطبع تكون الأرض أكثر كمالاً لأنّ الآخرة كلّ ما فيها أوسع وأكمل).

ومن الطبيعي أنّ عالمنا اليوم ليس له الاستعداد لتقبّل مشاهد الآخرة، وهو محدود

(١) سورة طه، الآيات: ١٠٥ - ١٠٨. (٢) سورة التكوير، الآيات: ١ - ٣.

المجال بالنسبة لحياتنا الأُخروية وكما قلنا مراراً: إنّ نسبة عالم الآخرة إلى عالم الدنيا كنسبة عالم الجنين في الرحم إلى الدنيا.

والآيات التي تقول: ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(١) دليل واضح على هذه الحقيقة.

من الطبيعي أنّنا لا نستطيع أن نصوّر الآخرة وخصائصها بشكل دقيق - كما هو حال الجنين في بطن أُمّه لو افترضنا أنّ له عقلاً كاملاً، فإنّه لا يستطيع أن يتصوّر عالم الدنيا - إلّا أنّنا نعلم أنّه سوف يحدث تغيير عظيم لهذا العالم، حيث يتمّ تدميره وتبديله بعالم جديد، ومن الطريف ما ورد في الرّوايات من أنّ الأرض تبدّل بخبزة نقيّة بيضاء يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب.

وقد وردت هذه الرّوايات بطرق مختلفة في تفسير نور الثقلين، وأشار إليها القرطبي في تفسيره كذلك.

وليس من المستبعد أن يكون المقصود من هذه الرّوايات أنّ الأرض سوف تغطّيها مادّة غذائية يمكن للإنسان أن يستعملها بسهولة، ووصفها بالخبز لأنّه الأكثر احتواءً لهذه المادّة الغذائية.

٢ - بداية وختام سورة إبراهيم

وكما رأينا فإنّ سورة إبراهيم ابتدأت في بيان دور القرآن الكريم في إخراج الناس من الظّلمات إلى نور العلم والتوحيد، وانتهت في بيان دور القرآن في إنذار الناس وتعليمهم التوحيد.

إنّ هذه البداية والنهاية تبيّن هذه الحقيقة، وهو أنّ كلّ ما نحتاجه موجود في هذا القرآن، حيث يقول الإمام علي عليه السلام: «فيه ربيع القلوب وينابيع العلم، فاستشفوه من أدوائكم» وهذا البيان دليل على خلاف ما يراه بعض المسلمين من أنّ القرآن الكريم كتاب مقدّس يقتصر وجوده في ترتّب الثواب لقارئه. بل هو كتاب شامل لجميع مراحل الحياة الإنسانية.

كتاب رشد وهداية ودستور للعمل، فهو يذكّر العالِم ويستلهم منه عموم الناس.

إنّ مثل هذا الكتاب يجب أن يأخذ موقعه في قلوب المسلمين، ويشكّل قانوناً ونظاماً

(١) سورة السجدة، الآية: ٥.

أساسياً في حياتهم، ويجب عليهم أن يطالعوه ويبحثوا مضامينه بدقّة في تطبيقاتهم العمليّة.

إنّ هجران القرآن الكريم واتّخاذ المبادىء المنحرفة الشرقيّة منها والغربية، أحد العوامل المهمّة في تأخّر المسلمين.

وما أروع ما قاله الإمام علي عليه‌السلام: «واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى»[1].

وما أشدّ مصيبتنا في غربتنا عن القرآن، ومعرفة الغرباء به!

ومن المؤلم أن تكون وسيلة السعادة في دارنا ونحن نبحث عنها في دور الناس!

وما أعظم المصاب حين نكون إلى جانب نبع ماء الحياة، عطاشى، ظمأى، أو نهرول في الصحاري حفاة وراء السراب!

اللهمّ ارزقنا العقل والهداية والإيمان حتى لا نفقد وسيلة السعادة هذه، التي هي من ثمار دماء الشهداء في سبيلك!

والطف علينا بالجدّ حتى نعلم ضالّتنا في هذا الكتاب العظيم ولا نمدّ أيدينا إلى الآخرين.

٣ - التوحيد هو البداية والنهاية

الفائدة الأُخرى التي علّمتنا إيّاها الآية أعلاه، هي التأكيد على التوحيد بعنوان الحديث الأخير، وعلى أُولي الألباب بعنوان التذكّر الأخير.

نعم، فالتوحيد أعمق أصل إسلامي حيث تنتهي إليه جميع خطوط التربية والتعليم في الإسلام، ويجب أن نبتدىء به وننتهي إليه لأنّه العمود الفقري للاسلام. وليس توحيد الله في العبادة فقط، بل التوحيد في الهدف، والتوحيد في صفوف القتال، والتوحيد في البرامج العملية والتنفيذيّة، فكلّها توضّح الأركان الأصليّة للدين، وسبب وجود المشاكل الكثيرة في مجتمعاتنا الإسلامية هو حذف التوحيد من واقعنا العملي.

ومع الأسف الشديد نلاحظ أنّ الدول العربية والتي هي مهد الإسلام قد اقترنت برامجها وأهدافها بالشرك والقومية وتكالبت خلف أمجاد العروبة وعظمة العرب وأمثال ذلك من الأهداف والغايات الوهميّة، واتّخذت الدول الأُخرى لها أصناماً من هذا

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

القبيل، وبذلك قطعوا أواصر التوحيد الإسلامي التي كانت تربط في ما مضى شرق العالم وغربه، وتغرّبوا عن مبادئهم السّماوية إلى درجة أنّ الحرب والاقتتال فيما بينهم أكثر وأشدّ من حربهم مع أعدائهم!!

حياة النّبي إبراهيم عليه السلام

مع أنّ سورة إبراهيم هي السورة الوحيدة في القرآن سمّيت بهذا الاسم، رأينا من المناسب أن نفهرس حياة هذا الرجل العظيم ومحطّم الأصنام - مع العلم أنّها لا تذكر حالات إبراهيم الأخرى التي وردت في آيات أُخرى من القرآن - لكي يكون القارىء العزيز على علم كاف بحياة هذا الرجل العظيم التي فصّلتها الآيات الأُخرى.

ونستطيع أن نقسّم مراحل حياته الشريفة إلى ثلاث فترات:

١ - فترة ما قبل النبوّة.

٢ - فترة نبوّته ومحاربته للأصنام في بابل.

٣ - فترة الهجرة من بابل وتجواله في أرض مصر وفلسطين ومكّة.

ولادته وطفولته

ولد إبراهيم عليه السلام في أرض «بابل» التي كانت من بلدان العالم المهمّة، وتحكمها حكومة قويّة وجائرة، وفتح عينيه على العالم في الوقت الذي كان نمرود بن كنعان الملك الجبّار الظالم يحكم أرض بابل ويعتبر نفسه الربّ الأعلى(١).

بالطبع لم يكن للناس في ذلك الوقت هذا الصنم فقط، بل كانت لهم أصنام مختلفة يعبدونها ويتقرّبون إليها، والدولة في ذلك الوقت كانت تدافع بقوّة عن الأصنام، لأنّها الوسيلة المؤثّرة في تخدير وتسخيف المجتمع، بحيث لو صدرت أي إهانة من أحد تجاهها يعتبرونها خيانة عظمى.

وقد نقل المؤرخّون قصّة عجيبة حول ولادة إبراهيم عليه السلام وخلاصتها هي: توقّع المنجّمون أنّه سوف يولد شخص ويحارب نمرود بكلّ قوّة، ولذلك فقد سعى جاهداً لأن يوقف ولادة هذا الشخص أو أن يقتله حين ولادته، إلّا أنّه لم يتمكّن من ذلك وولد المولود.

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أنّ ولادته عليه السلام - في مدينة (أور) التابعة لدولة بابل.

واستطاعت أُمّه أن تحفظه عبر تربيته في زوايا الغار القريب من مولده، بالشكل الذي أمضى ثلاثة عشر عاماً هناك.

وفي النهاية وبعد أن ترعرع في مخفاه بعيداً عن أنظار شرطة نمرود، ووصل إلى سنّ الشباب، صمّم على الخروج منه والنّزول إلى المجتمع ليشرح لهم دروس التوحيد التي استلهمها من دخيلة نفسه وتأمّلاته الفكرية.

محاربته للمجاميع المختلفة من الوثنيين

وفي هذه الأثناء التي كان يعبد فيها شعب بابل - بالإضافة إلى الأصنام - الموجودات السّماوية كالشمس والقمر والنّجوم، صمّم إبراهيم عليه السلام على أن يوقظ وجدانهم عن طريق المنطق والأدلّة الواضحة، ويزيل عن فطرتهم النقيّة ستار الظّلمات حتى يشعّ في نفوسهم نور الفطرة ويسلكوا في طريق التوحيد.

وكان يتفكّر في خلق السّماوات والأرض حتى شعّ نور اليقين في قلبه [٧٥ - الأنعام].

الجهاد المنطقي مع الوثنيين

واجه إبراهيم أوّلا عبّاد النّجوم ووقف مع مجموعة ممّن يعبدون الزهرة، التي تظهر بعد غروب الشمس مباشرةً، حيث كانوا منشغلين في عبادتها، نادى إبراهيم - إمّا من باب الاستفهام الإنكاري، أو من باب التنسيق مع الطرف المقابل بعنوان المقدّمة، لإثبات اشتباههم - ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ وحينما أفل قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ وبدأ عبدة القمر مراسم دعائهم ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾؟ فلمّا أفل قال: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ﴾ وقد نشرت أشعّتها الذهبية على السهول الخضراء، وبدأ عبّاد الشمس تضرّعهم وعبادتهم لها قال إبراهيم ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾(١). إنّ هذه الآلهة دائمة الأُفول والغروب، فلا اختيار لها إطلاقاً، بل هي أسيرة القوانين الطبيعية فكيف تكون خالقة للكون؟

وأنهى عليه السلام هذه الفترة مع الوثنيين على أفضل صورة واستطاع أن يوقظ جماعة منهم ويجعل مجموعة أُخرى تشكّ في عقيدتها.

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٧٥ - ٧٩.

ولم يمض وقت طويل حتى شاع صيتهُ. . . هذا الشاب الذي أنار قلوب الناس بمنطقه وبيانه البليغين!

الحديث مع آزر

وفي مرحلة أُخرى بدأ حديثه مع عمّه آزر بعبارات محكمة جدّاً وواضحة مقترنة بالمحبّة، وأحياناً يوبّخه وينذره من مغبّة عبادة الأصنام ويقول له: لماذا تعبد شيئاً لا يسمع ولا يرى ولا يغني عنك شيئاً؟

﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾[1]، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[2] إلّا أنّ عمّه لم يستجب له وهدّده بالرجم إذا لم يرجع عن مساره هذا، لكن إبراهيم بقلبه الواسع قال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[3].

نبوّة إبراهيم عليه السلام

ليس عندنا دليل واضح على عمر إبراهيم عليه السلام حينما تقلّد مقام النبوّة، ولكن نستفيد من الآيات في سورة مريم، أنّه أثناء محاورته لعمّه كان من الأنبياء، حيث يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾[4].

ونعلم أنّ هذه الحادثة كانت قبل إلقائه في النار، وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ما قاله بعض المؤرّخين من أنّ عمره أثناء القائه في النّار كان ١٦ عاماً سوف يثبت لدينا أنّه تحمّل أعباء الرسالة منذ صباه.

الجهاد العملي مع الوثنيين

على أي حال ازداد صدامه مع الوثنيين يوماً بعد يوم حتى انتهى إلى قيامه بكسر الأصنام في معبد بابل (إلاّ كبيرهم) بالاستفادة من الفرصة الملائمة!

الحديث مع الحاكم المتجبّر!

لقد وصلت هذه الأحداث إلى أسماع نمرود فأمر بإحضاره ليطفئ هذا النّور من خلال النصيحة والتهديد، وكان ماهراً في الدجل، فسأل إبراهيم: إذا كنت لا تعبد الأصنام، فمن هو إلهك؟

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٣.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٤٧.
(٤) سورة مريم، الآيتان: ٤١ - ٤٢.

قال: ربّي الذي يحيي ويُميت.

قال: أنا أُحيي وأُميت، ألا ترى أنّي أُطلق سراح المحكوم بالإعدام، وأُعدم من أُريد إعدامه؟

فأجابه إبراهيم عليه‌السلام بكلام حاسم وقاطع: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾(١).

وممّا لا شكّ فيه أنّ إبراهيم كان يعلم أنّ نمرود لا يستطيع أن يحيي الموتى، ولكن مهارته في الدجل جعلت إبراهيم يأتيه بسؤال لا قدرة له على جوابه.

هجرة إبراهيم

لقد أحسّت حكومة نمرود الجبّارة بخطر هذا الشاب على دولته وأنّ من الممكن أن يسبّب يقظة الشعب الرازح تحت ظلمه، وأن يحطّم القيود الاستعمارية المتسلّطة على رقاب الشعب، فصمّم على الإيقاع بإبراهيم من خلال إحراقه بالنّار التي أجّجها جهل الناس وإرهاب النظام الحاكم.

وحينما أصبحت النّار برداً وسلاماً بأمر من الله تعالى وخرج إبراهيم سالماً منها، أصابت نمرود وحكومته الدهشة، وفقدوا معنوياتهم لأنّهم كانوا يصوّرون إبراهيم على أنّه شاب مغامر يريد تفرقة الناس، لكنّه ظهر قائداً إلهيّاً وبطلاً شجاعاً يستطيع أن يقارع الجبّارين لوحده.

ولهذا السبب صمّم نمرود وأعوانه - الذين كانوا يمتصّون قوّتهم من دماء الناس البؤساء - على أن يقفوا بوجه إبراهيم بكلّ قواهم.

ومن جهة أُخرى فإنّ إبراهيم قد أدّى دوره في هذا المجتمع، حيث جعل القلوب المستعدّة تميل إليه وتؤمن بدعوته، ولذلك رأى من الأفضل أن يترك أرض بابل هو والتابعون له، ولأجل نشر دعوته سافر إلى بلاد الشام وفلسطين ومصر، واستطاع هناك أن يدعو كثيراً من الناس إلى التوحيد وعبادة الواحد القهّار.

المرحلة الأخيرة للرسالة

أمضى إبراهيم عليه‌السلام عمره في جهاد الوثنيين وخصوصاً صنمية الإنسان، واستطاع أن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

ينير قلوب المؤمنين بنور التوحيد، ويبعث فيهم روحاً جديدة، ويحرّر مجاميع أُخرى من قيود المتسلّطين.

والآن يجب أن يصل إلى ذروة عبوديته لله ويبذل كلّ ما عنده في هذا الطريق بإخلاص، ويصل إلى مرحلة الإمامة بقفزة روحية كبيرة من خلال الامتحانات الإلهيّة الكثيرة، وفي نفس الوقت يقوم ببناء القواعد للكعبة حتى تكون أكبر قاعدة للعبادة التوحيديّة، ويدعو جميع المؤمنين لهذا المؤتمر العظيم إلى جانب هذا البيت الكريم.

وقد أدّى حسد سارة زوجته الأُولى لهاجر التي كانت جارية واختارها زوجة له وولدت له إسماعيل... أدّى إلى أن يأتي بها من فلسطين بأمر الله إلى مكّة ويتركها وابنها بين الصحاري والجبال اليابسة، بدون مأوى ولا قطرة ماء، ويعود ثانية إلى فلسطين.

إنّ ظهور عين زمزم ومجيء قبيلة جرهم والسّماح لها بالسكن كلّ ذلك أدّى لأن تعمّر هــذه الأرض. ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾(١).

ومن الطريف ما يقوله بعض المؤرّخين: حينما وضع إبراهيم زوجته هاجر وابنه الرضيع إسماعيل في مكّة وأراد الرجوع، نادته: يا إبراهيم، من أمرك أن تضعنا في أرض قاحلة لا نبات فيها ولا ماء ولا إنسان؟ فأجابها بجملة قصيرة: ربّي أمرني بذلك، قالت: ما دام كذلك فإنّ الله لا يتركنا.

وقد سافر إبراهيم عليه السلام مراراً إلى مكّة بقصد زيارة ابنه إسماعيل، وفي واحدة من هذه السفرات أدّى مراسم الحجّ، وجاء بإسماعيل الذي كان شابّاً قوياً ومؤمناً صادقاً إلى المذبح ليفتدي به بأمر من الله وعندما لبّى أمر ربّه وخرج من هذا الامتحان العظيم بأفضل صورة، قبل الله سبحانه وتعالى فديته، وحفظ له إسماعيل، وبعث له كبشاً ليفتدي به.

وفي النهاية وبعد أن أبلى بلاءً حسناً نال المرتبة العليا والمقام الأسمى من المقامات التي يمكن للإنسان أن يصل إليها حيث يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

منزلته عليه السلام في القرآن

توضّح الآيات القرآنية أنّ الله سبحانه وتعالى أعطى لإبراهيم مقاماً لم يعطه لأحد من الأنبياء من قبله، ويمكن ترتيب الآيات كما يلي:

١ - انّ الله تعالى ذكره بعنوان أنّه «أمّة»: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[(١)].

٢ - مقام الخلّة ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[(٢)].

وقد جاء في بعض الرّوايات: «إنّما اتّخذ الله إبراهيم خليلاً لأنّه لم يردّ أحداً ولم يسأل أحداً قطّ غير الله تعالى»[(٣)].

٣ - وكان من المصطفين الأخيار[(٤)]، ومن الصالحين[(٥)]، والقانتين[(٦)]، والصدّيقين[(٧)]، وكان أوّاهاً حليماً[(٨)]، ومن الموفين بعهدهم[(٩)].

٤ - إنّ إبراهيم كان محبّاً للضيوف، وقد ورد في بعض الرّوايات أنّه كان يلقّب بـ«أبي الأضياف»[(١٠)].

٥ - وكان من المتوكّلين على الله، ولا يطلب حاجةً إلّا منه، وقد ورد في التاريخ أنّه كان معلّقاً بين السّماء والأرض أثناء قذفه بالمنجنيق سأله جبرئيل: هل لك حاجة؟ قال: نعم، ولكن ليست منك بل من الله[(١١)]!.

٦ - وكان شجاعاً مقداماً حيث وقف وحيداً بوجه التعصّبات الوثنيّة، ولم يُظهر أي خوف في مقابلتهم، كسّر أصنامهم وجعلها ركاماً، وتحدّث مع نمرود وأعوانه بكلّ شجاعة.

٧ - كان لإبراهيم عليه السلام منطق قوي واستطاع من خلال عباراته وجمله القصيرة المحكمة أن يبطل أقوال المضلّين. ولم يثنه بأسهم عن مواصلة الطريق، بل كان يواجه الأمور بالصبر والحلم المعبّرين عن روحه الكبيرة، كما جاء في محاجته مع نمرود ومع

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٥.
(٣) سفينة البحار، ج١، ص٧٤.
(٤) سورة ص، الآية: ٤٧.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٢.
(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٠.
(٧) سورة مريم، الآية: ٤١.
(٨) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(٩) سورة النجم، الآية: ٣٧.
(١٠) سفينة البحار، ج ١، ص ٧٤.
(١١) الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٩٩.

عمّه آزر ومع القضاة أثناء محاكمته حيث قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[1] لقد استطاع من خلال هذه الجملة أن يفحمهم ويسدّ عليهم طريق الردّ عليه، فإذا قالوا: آلهتنا لا تسمع ولا تنطق. فتبّاً لهذه الآلهة! وإذا قالوا: تنطق. فلماذا لا يتكلّمون؟! ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2] أي قالت لهم أنفسهم: إنّكم ظالمون، وعلى أي حال كان عليهم أن يجيبوا ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[3] هكذا كان جواب إبراهيم كالصاعقة على رؤوسهم ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

وعندما رأوا أنّهم لا يستطيعون مقاومة هذا المنطق الرصين ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[5].

هذا نموذج من المنطق الواضح المبين والذي كان إبراهيم فيه هو الفائز.

٨ - لقد عدّ القرآن الكريم الحنيفيّة الإبراهيميّة واحدة من مفاخر المسلمين[6] ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[7].

٩ - وضع مناسك الحجّ بأمر من الله، ولذلك امتزج اسمه في جميع مراسم الحجّ، حيث يتذكّر كلّ مسلم أثناء أدائه للفرائض هذه الشخصيّة العظيمة ويحسّ بعظمة نبوّته في قلبه، إنّ أداء فريضة الحجّ بدون ذكر إبراهيم تصبح خاوية المعنى.

١٠ - لقد حاولت كلّ المذاهب أن تنسب إبراهيم لنفسها، فاليهودية والنصرانية تؤكّدان على صلتهما به بسبب شخصيته الكبيرة، ولكن القرآن الكريم ينفي هذه الصلة حيث يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[8].

(١ - ٦) سورة الأنبياء، ٦٣ - ٦٨، وسورة الحجّ، ٧٨ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

(٧) سورة الحجّ، الآية: ٧٨.

(٨) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

سُورَةُ الحِجرْ

مكيّة وعدد آياتها تسع وتسعون

محتوى السّورة

المشهور عند جلّ المفسّرين أنّ سورة الحجر مكّية، وهي السورة الثّانية والخمسون من السور التي نزلت على النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة المكرمة على ما ذكره ابن النديم في فهرسته تحت موضوع تاريخ القرآن، وعدد آياتها تسع وتسعون آية باتفاق كلّ المفسّرين.

و لم تشذ السورة في سياقها ومضامينها عن السور المكّية السابقة لها، وكما ذكرنا سابقاً فإنّ السور المكّية تتضمن بعض الكلام حول أُصول الدين كالتوحيد والمعاد، وإنذار المشركين والعاصين والظالمين، بالإضافة إلى ما يحمله تاريخ الأقوام السالفة من دروس وعِبر يستضيء بها الانسان في حركة الحياة.

و يمكننا تلخيص ما حوته السورة في سبع نقاط:

١ - الآيات المتعلقة بمبدأ عالم الوجود، والإيمان به من خلال التدبّر في أسرار الإيجاد.

٢ - الآيات المتعلقة بالمعاد وعقاب الفجرة الفسقة.

٣ - أهمية القرآن باعتباره كتاباً سماوياً.

٤ - محاولة إيقاظ وتنبيه البشر من خلال طرح قصّة خلق آدم، وتمرّد إبليس، وتبيان عاقبة التمرّد.

٥ - زيادة في محاولة الإيقاظ والتنبيه من خلال عرض القصص القرآني لما جرى لأقوام لوط وصالح وشعيب عليهم السلام.

٦ - إنذار وبشارة، مواعظ لطيفة وتهديدات عنيفة، إضافة إلى المرغّبات المشوّقة.

٧ - مخاطبة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لتقوية صبره وثباته قبال ما يحاك من دسائس، وبالذات ما كان يجري داخل إطار مكّة.

وقد اختير اسم السورة من الآية الثمانين التي ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر،

علماً بأنّ السورة تناولت ذلك في خمس آيات، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي ذكرتهم بهذه التسمية، وسيأتي ذلك مفصّلاً في تفسير الآيات (٨٠ - ٨٤) إن شاء الله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

الأماني الزّائفة!

سورة أُخرى تفتتح بالحروف المقطعة (ألف، لام، راء) لتبيّن من جديد أنّ مفردات كتاب نور السماء إلى ظلام أهل الأرض، ما هي إلّا عين تلك الأبجدية التي تلوك ألفاظها ألسن كلّ البشر، صغيرهم وكبيرهم، بين مختلف اللغات، ومع ذلك فلا يستطيع أي مخلوق الوصول لبناء وتركيب كلام القرآن، وهو ذروة التحدي الرباني المعجز، وعليه فقد جاءت ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ مباشرة.

كما نعلم أنّ ﴿تِلْكَ﴾ اسم إشارة للبعيد، والمفروض في هذا الموضع استعمال اسم الإشارة (هذه) للدلالة على القرب، لأنّ القرآن كتاب بين أيدينا، إلّا أنّ لغة العرب - كما بيّنا سابقاً - تسمح بذلك لبيان عظمة المشار إليه، فالمراد أنّ لشأن القرآن عظمةً، وكأنّه في موضع بعيد جدّاً بين طيّات السماء لا يناله إلّا منْ مَلَكَ مستلزمات التحليق إليه، ويقارب ذلك ما نتداوله فيما بيننا عند تعظيم شخص معيّن فنقول له مثلاً: (إنْ سمح لنا ذلك السيّد أنْ. . .) فنستعمل (ذلك) مع كون الشخص مخاطباً.

وأمّا بشأن مجيء صيغة «قرآن» نكرة فلبيان عظمته أيضاً، وذكر «القرآن» بعد «الكتاب» تأكيدٌ، ووصفه بالـ«مبين» لأنّه يظهر الحقائق ويبيّن الحق من الباطل.

وأمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المراد بكلمة «الكتاب» إشارة إلى التوراة والإنجيل، فهو كما يبدو بعيد جدّاً ويفتقد الى الدليل.

ثمّ يحذّر الذين يصرّون على الفساد ومخالفة آيات الله الجليّة، ويخبر بأنّهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامة بما كسبت أيديهم من كفر وتعصب أعمى وعناد. ويقول: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾.

فالمراد بكلمة ﴿يَوَدُّ﴾ التمني حسب ما ورد في تفسير الميزان، وذكر كلمة ﴿لَوْ﴾ للدلالة على تمنيهم الإسلام في وقت لا يمكنهم فيه العودة إلى ما كانوا ينكرون، وهذه إشارة إلى أن تمنيهم سيكون في العالم الآخر وبعد معاينة نتائج الأعمال.

ويؤيد هذا المعنى ما ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام قوله: «ينادي مناد يوم القيامة - يسمع الخلائق - إنّه لا يدخل الجنّة إلا مسلم، فثمّ يودّ سائر الخلائق أنّهم كانوا مسلمين»[(١)].

وروي أيضاً عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «إذا اجتمع أهل النّار في النّار ومعهم مَنْ يشاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النّار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب (كبائر) فأخذنا بها «وهذا الاعتراف بالذنب والتقصير ولوم الأعداء يكون سبباً لأن يسمع الله عزّ وجلّ ما قالوا» فأمر مَنْ كان في النّار من أهل الإسلام فأُخرجوا منها فحينئذ يقول الكفار: يا ليتنا كنّا مسلمين»[(٢)].

وربّما كان ظاهر الآية يوحي إلى أُولئك الكفرة الذين ما زالت جذوة الفطرة تسري في أعماق وجدانهم، وحينما لمسوا من نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم تلك الآيات الرّبانية التي تناغي أوتار القلوب، لانت قلوبهم وتمنّوا أن لو يكونوا مسلمين، إلّا أنّ تعصبهم الأعمى وعنادهم القاتم، أو قل منافعهم المادية حجبتهم عن قبول دعوة الحق، وبذلك بقوا بين قضبان كفرهم واستحوذت عليهم أحابيل الكفر الضلال.

ذكر لنا أحد الأصدقاء من المؤمنين المجاهدين وكان قد سافر إلى أوربا قائلاً: ذات مرّة التقيت بأحد المسيحيين - وكان رجلاً منصفاً - وبعد أن بيّنت له بعض خصال ديننا، استهوته ومال إليها قائلاً: أهنئكم من أعماقي على عظمة معتقدكم، ولكن ماذا نصنع مع الظروف الاجتماعية التي أجبرتنا على أن لا نحيد عنها!

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٣، ص ٣٢٨، كذلك ورد الحديث الأوّل في تفسير الثقلين عن تفسير العياشي، وأورد الفخر الرازي في تفسيره حديثاً يشابه الحديث الثّاني مع تفاوت يسير، وذكر في تفسير الطبري أيضاً عدّة أحاديث في مضمون الحديث الثّاني ضمن تفسير الآية المذكورة.

(٢) المصدر السّابق.

ومن تاريخ الإسلام نطالع ما حصل لقيصر الروم عندما وصله رسول النّبي ﷺ، ويذكر بأنّ قيصر قد أظهر الإيمان سرّاً للرسول حتى أنّه رغب في دعوة قومه لدين التوحيد، إلّا أنّه خاف قومه وفكّر بامتحانهم فـ(أمر منادياً ينادي: ألا إنّ القيصر قد ترك النصرانية واتبع دين محمّد ﷺ، فأقبل جنده بأسلحتهم حتى طافوا بقصره، فأمر مناديه ينادي: ألا إنّ القيصر إنّما أراد أن يجرّبكم كيف صبركم على دينكم؛ فارجعوا فقد رضي عنكم. ثمّ قال للرسول: إنّي أخاف على ملكي. إنّي لأعلم أنّ صاحبك نبيّ مرسل، والذي كنّا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكنّي أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتّبعته)[1].

وعلى أية حال، ينبغي التنويه بعدم وجود تعارض بين أيٍّ من التّفسيرين، فيمكن حمل الآية على ندم بعض من الكافرين في كلا العالمين ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، واعتبار عدم استطاعتهم العودة إلى الإسلام في حياتهم الدنيا وفي الآخرة لجهات مختلفة، فتأمل.

ثمّ يأتي نداء السماء بلهجة لاذعة، يا محمّد ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فهم كالأنعام التي لا تعرف سوى الحقل والعلف، ولا تفهم سوى اللّذات المادية، وكلّ ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف وتفهم.

إنّهم لا يدركون فقه الحقائق، لأنّ حجب الغرور والغفلة والأماني الزائفة ختمت على قلوبهم.

ولكن، عندما يصفع الأجل وجوههم وترتفع تلك الحجب عن أعينهم، وحينما يجدون أنفسهم أمام الموت أو في عرصة يوم القيامة، هنالك سيدركون عظمة حجم غفلتهم ومدى خسرانهم، وكيف أنّهم قد ضيّعوا أغلى ما كانوا يملكون!

الآية التالية توضّح محدودية اللذائذ الدنيوية لكي لا يظن أحد أنّها خالدة فتقول: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ ثمّ يقول تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

فقد سرت سنّة الباري جلّ شأنه بأن يعطي المدّة الكافية لرجوع المضللين إلى بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبة تارةً، وبفيوضات الرخاء تارةً أُخرى، فمن لا تنفعه البشارة يأتيه الإنذار وهكذا، كلّ ذلك إتماماً للحجة عليهم.

---

(١) مكاتيب الرّسول، ج١، ص١١٢.

صحيح أنّ المصلحة الموجبة للتربية الرّبانية تقتضي (بعلم ربّ الأرباب) أن يمهل ولكنّه سبحانه لا يمهل، وعاجلاً أم آجلاً سينال كلٌّ نصيبه بما كسبت يداه.

من الآيتين الآخيرتين، تتّضح لنا فلسفة تكرار آيات القرآن لذكر تأريخ الأُمم السابقة.

أفلا تكفينا قصص السابقين عبرة لإصلاح أنفسنا والرجوع إلى الله تعالى؟ بل كيف نسترخي بالقعود حتى يقدّر علينا ما كتب على الذين ضلّوا وظلموا من قبلنا؟! إذن علينا الاعتبار، وإلاّ فسنكون عبرة لمن سيأتي بعدنا.

بحث

الغفلة وطول الأمل

ممّا لا شك فيه أنّ الأمل بمثابة العامل المحرّك لعجلة حياة الإنسان، فلو ارتفع الأمل يوماً من قلوب الناس لارتبكت مسيرة الحياة ولا تجد إلّا القليل ممن يجد في نفسه دافعاً لمواجهة صراع الحياة معه، والحديث النبوي الشريف: «الأمل رحمة لأُمتي، ولولا الأمل ما رضعت والدة ولدها، ولا غرس غارس شجراً»(١) يشير لهذه الحقيقة.

وإذا ما تجاوز الأمل حدّه المعقول فإنّه سيتحول إلى (طول الأمل) وهو ما ينذر بالانحراف والهلاك، ومثله كمثل ماء المطر الذي يمثل عامل الحياة الفيّاض للأرض والنبات والحيوان، فلو زاد عن حدّ الحاجة إليه، أصبح عاملاً للغرق والهلاك.

وهذا الأمل القاتل هو أساس الجهل بالله وعدم معرفة الحق والابتعاد عن الحقيقة، ويؤدّي إلى تقوقع الإنسان في دائرته الفردية بما ينسجه الخيال الواسع ويبتعد عن هدف وجود الإنسان على الأرض والمصير الذي يصبو إليه.

ويحدثنا أمير المؤمنين علي عليه السلام عن هذا المضمون بقوله: «يا أيّها الناس، إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباعُ الهوى وطول الأمل؛ فأمّا اتّباع الهوى فيصدُّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فيُنْسي الآخرة»(٢).

حقاً، كم هم أولئك الذين امتازوا بالملكات الفائقة والكفاءات اللائقة، ولكنّهم سقطوا في شباك فخّ طول الأمل فتحولوا إلى موجودات ضعيفة، بل وممسوخة!

---

(١) سفينة البحار، ج١، ٣٠ مادة (أمل).
(٢) نهج البلاغة، من الخطبة ٤٢.

وأصبحوا لا يستطيعون تقديم شيء لمجتمعهم، بل ضيّعوا حتى ما ينفع أنفسهم وأُثقِلُوا عمّا يسمون به إلى التكامل.

وهذه الصورة نتلمس ملامحها بجلاء في دعاء كميل: «وحبسني عن نفعي بُعد أملي».

بديهي أنّ الأمل الذي يتجاوز الحدّ المعقول، يجعل الإنسان عرضة للانهماك والعجز والاضطراب، ويُصوِّر لصاحبه أنّ هذه الحال ستوصله إلى السعادة والرفاه، وما يدري أنّه يخطو صوب جرف الشقاء والنكد.

وغالباً ما تطوى صفحات هؤلاء بالدمعة الجارية والحسرة لما آل إليه المآل ليكونوا عبرة لكل ذي عين بصيرة وأذن سميعة.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

التّفسير

طلب نزول الملائكة

تبتدىء الآيات بتبيان موقف العداء الأعمى والتعصب الأصم للقرآن الحكيم والنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من قبل الكفار، فتقول: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

ومن خلال كلامهم يظهر بجلاء مدى وقاحتهم وسوء الأدب الذي امتازوا به حين مخاطبتهم للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم، فتارة يقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى﴾، وأُخرى: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ بصيغة الهزؤ والإنكار لآيات الله سبحانه، وثالثة: يستعملون أدوات التوكيد ﴿إِنَّ﴾ ولام القسم ليتّهموا أشرف خلق الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون!

نعم، الخصم المريض الجاهل حينما يقابل حكيماً لا نظير له، فأوّل ما يرميه بالجنون، لأنّه ينطلق من جهله الذي لا يستوعب الحكمة والمعقول، فيرى كل ما فوق تصوره القاصر غير معقول، ويوصم خصمه بالمجنون!

هؤلاء الأشخاص لديهم تعصب خاص نحو كلّ ما ألفوه في محيطهم الاجتماعي

حتى وإن كان ضلالاً وانحرافاً، لذا تراهم يواجهون كلّ دعوة جديدة على أساس أنّها غير معقولة، فهم يخشون من كلّ جديد، ويتمسكون بشدّة بالعادات والتقاليد القديمة.

أضف إلى ذلك، أنّ مَن استهوته الدنيا وعاش لها لا يفقه المعاني الروحية والقيم الإنسانية ويوزن كلّ شيء بالمعايير المادية، فإذا شاهد شخصاً يضحي بكلّ شيء وحتى بنفسه لأجل أنْ يصل إلى هدف معنوي، فسوف لا يصدّق بأنّه عاقل، لأنّ العقل في عرفهم هو ما يصيب: المال الوافر، الزوجة الجميلة، الحياة المرفّهة، والوجاهة الكاذبة!

وعليه، فحينما يرون رجلاً قد عرضت عليه الدنيا بكلّ ما يحلمون به فأبى أن يقبلها وقال: «والله لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته» فسيقولون عنه: إنّه لمجنون!

الملفت في التهم الموجّهة إلى أنبياء الله تعالى أنّها تحمل بين طيّاتها تضاداً واضحاً يُلمس بأدنى تدبّر، ففي الوقت الذي يرمون النّبي بالجنون يعودون ويقولون عنه: إنّه لساحر، فمع أنّ الساحر لابدّ له من الذكاء والنباهة، فهل يعقل أن يكون الساحر، مجنوناً؟!

إنّهم لم يكتفوا بنسبة الجنون إلى النّبي ﷺ، بل تحججوا قائلين: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

فيجيبهم الباري جلّ شأنه: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾. فلو تمّ إنزال الملائكة وشاهدوا الحقيقة بأعينهم ثمّ لم يؤمنوا بها فسوف يحيق بهم العذاب الإلهي دون إمهال.

وللمفسّرين وجوهاً متباينة في تفسير ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾:

١ - يرى البعض، أنّ أمر تنزيل الملائكة لا يتعلق بما يتقوّله القائلون تحججاً، بل هو إعجاز رباني لإظهار الحق وإحقاقه.

وبعبارة أُخرى، فالإعجاز ليس أمراً ترفيهياً يناغي تصورات الآخرين بقدر ما هو حجة إلهيّة لإثبات الحق وإماطة الباطل.

وقد أشبعت هذه الحقيقة بصورة وافية لمن يرى النّور نوراً والظلام ظلاماً من خلال ما أوصله نبي الإسلام ﷺ عن طريق القرآن والمعاجز الأُخرى.

٢ - المقصود من كلمة «الحق» هو العقاب الدنيوي بالبلاء المهلك، وبعبارة أُخرى (عذاب الاستئصال).

أيْ... في حال عدم إيمان الكفار المعاندين بعد نزول الملائكة على ضوء اقتراحهم فهم هالكون قطعاً.

وبهذا تكون جملة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ مؤكّدة لهذا المعنى، وأمّا على التّفسير الأوّل فإنّها تتناول موضوعاً جديداً.

٣ - وقيل المراد بالحق في الآية: الموت، أي أنّ الملائكة لا تنزل إلّا لقبض الأرواح.

لكنّ هذا المعنى بعيد جدّاً أمام ما يحفل به القرآن من ذكر نزول الملائكة في قصتي إبراهيم ولوط عليهما السلام ومعركة بدر... الخ.

٤ - وقيل المراد بالحق الشهادة (المشاهدة).

أيْ... ما دام الإنسان يعيش في عالم الدنيا فهو عاجز عن رؤية ما وراء هذا العالم حيث هناك تسبح الملائكة بحمد ربّها، لأنّ الحجب المادية قد أفسدت رؤيته ولا يتسنى له ذلك إلّا بعد الرحيل إلى العالم الآخر، وحين ذلك ينتهي مفعول الماديات فتزال الحجب ويرى الملائكة.

يواجه هذا التّفسير نفس ما واجهه التّفسير الثّالث من إشكال، فقوم لوط مثلاً، على ما كانوا عليه من كفر وانحراف، فقد رأوا ملائكة العذاب في دنياهم[1].

من خلال ما تقدم يتبيّن لنا أنّ التّفسيرين الأوّل والثّاني ينسجمان مع ظاهر الآية دون الآخرين.

أمّا ما ورد في ذيل الآية من عدم الامهال بعد استجابة مطاليبهم في رؤية المعاجز الحسيّة وعدم إيمانهم بها، فلأنّه قد تمّت الحجة عليهم وانتفت جميع أعذارهم وتبريراتهم، وبما أنّ استدامة الحياة إنّما هو لأجل إتمام الحجة واحتمال التوبة ورجوع الأفراد المنحرفين إلى الصراط المستقيم، وهذا الأمر لا موضوع له في مثل هؤلاء الأشخاص، فلذلك يحين أجلهم وينالون جزاءهم الذي يستحقونه. (فتدبّر).

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

التّفسير

حفظ القرآن من التحريف

بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار واستهزائهم بالنّبي ﷺ والقرآن، تأتي هذه الآية المباركة لتواسي قلب النّبي ﷺ من جهة ولتطمئن قلوب المؤمنين المخلصين من جهة أُخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغة لحياة الرسالة، ألا وهي حفظ القرآن من التلاعب والتحريف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ . . . فبناء هذا القرآن مستحكم وشمس وجوده لا يغطيها غبار الضلال، ومصباح هديه أبديّ الإنارة، ولو اتحد أعتى جبابرة التاريخ وطغاته وحكّامه الظلمة، محفوفين بعلماء السوء، ومزوّدين بأقوى الجيوش عدّة وعتاداً، على أن يخمدوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأنّ الحكيم الجبّار سبحانه تعهد بحفظه وصيانته . .

وقد اختلف المفسّرون في دلالة (حفظ القرآن) في هذه الآية المباركة:

١ - قال بعضهم: الحفظ من التحريف والتغيير، والزيادة والنقصان.

٢ - وقال البعض الآخر: حفظ القرآن من الضياع والفناء إلى يوم قيام الساعة.

٣ - وقال غيرهم: حفظه أمام المعتقدات المضلّة المخالفة له.

بما أنّه لا يوجد أي تضاد بين هذه التفاسير وتدخل ضمن المفهوم العام لعبارة ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فلا داعي لحصر مصاديقها في بُعد واحد، خصوصاً وإنّ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ ذُكرت بصيغة مطلقة وليس هناك ما يخصصها.

والصحيح، وفقاً لظاهر الآية المذكورة، أنّ الله تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحي: من التحريف، من التلف والضياع، ومن سفسطات الأعداء المزاجية ووساوسهم الشيطانية.

أمّا ما احتمله بعض قدماء المفسّرين بأنّه الحفظ على شخص النّبي ﷺ باعتبار أنّ ضمير ﴿لَهُۥ﴾ في الآية يعود إلى النّبي ﷺ بدلالة إطلاق لفظة ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ على شخص النّبي ﷺ في بعض الآيات[1]، فهو احتمال يتعارض مع سياق الآيات السابقة التي

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٠.

عنت بـ ﴿الذِّكْرَ﴾ «القرآن»، بالإضافة إلى إشارة الآية المقبلة لهذا المعنى.

بحث في عدم تحريف القرآن

المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين شيعة وسنّة، أنّ القرآن لم يتعرض لأيّ نوع من التحريف، وأنّ الذي بين أيدينا هو عين القرآن الذي نزل على صدر الحبيب محمّد النّبي ﷺ. فلا زيادة أو نقصان، حتى بكلمة واحدة، أو بحرف واحد.

ومن جملة مَنْ صرّح بهذا من العلماء الأعلام الشيعة (من المتقدمين والمتأخرين) تغمّدهم الله برحمته:

١ - الشّيخ الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (٤٦٠ هـ ق)، وله بحث صريح وقاطع بهذا الشأن في أوّل تفسيره المعروف بـ (التبيان).

٢ - الشريف المرتضى، ويعتبر من كبار علماء الإمامية في القرن الرّابع الهجري.

٣ - الشّيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه المعروف برئيس المحدّثين، حيث يقول في بيان عقائد الإمامية: (إنّ اعتقادنا بالقرآن أنّه سالم من أي تحريف).

٤ - المفسّر الكبير الشّيخ الطبرسي، وله في مقدمة تفسيره بحث مفصّل بهذا الشأن.

٥ - المرحوم الشّيخ محمد حسين كاشف الغطاء، من كبار العلماء المتأخرين.

٦ - المرحوم المحقق اليزدي، وقد نقل في كتابه (العروة الوثقى) مسألة عدم تحريف القرآن عن جمهور مجتهدي الشيعة.

٧ - بالإضافة إلى جمع من العلماء الآخرين، أمثال: الشّيخ المفيد، الشّيخ البهائي، القاضي نور الله مع سائر محققي الشيعة.

وقد نحى هذا المنحى علماء ومحققو أهل السنّة.

وقد نُقل عن بعض مُحدِّثي الشيعة وبعض أهل السنة، اعتقادهم بوقوع التحريف في القرآن، إلّا أنّ كبار علماء الفريقين بأدلتهم القاطعة قد أبطلوا زعم هؤلاء وأدخلوه في حيّز النسيان.

وأفاد العلاّمة الشريف المرتضى في جواب (المسائل الطرابلسيات) «إنّ صحة نقل القرآن واضحة وبيّنة كمعرفتنا لعواصم العالم والحوادث المهمّة في التاريخ والكتب الشهيرة».

فهل هناك مَنْ يشك في وجود مدن كمكّة والمدينة أو لندن وباريس وإن لم يزرها؟!

أو هل هناك مَن ينكر وقوع الهجوم المغولي على الشرق، أو الثورة الفرنسية، والحرب العالمية الأُولى أو الثّانية؟!

فإن لم يكن هناك من يشك أو ينكر، بسبب تواتر ذكر وجودها، فكذلك آيات القرآن الكريم، وهذا ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وإذا كان بعض المغرضين قد نسبوا للشيعة اعتقادهم بتحريف القرآن، فغايتهم إشعال فتيل التفرقة والفتنة بين الشيعة والسنّة، وقد فنّدت كتب كبار علماء الشيعة هذه الأباطيل الفاقدة لأيّ دليل منطقي.

ولا نستغرب من الفخر الرازي قوله في ذيل الآية مورد البحث: (إنّ الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ دليل على بطلان قول الشيعة في حصول التغيير والزيادة والنقصان في القرآن)، لما نعلمه عن هذا الرجل من حساسيّة وتعصب تجاه الشيعة.

وهنا لابدّ من كلمة: إن كان يقصد بالشيعة كبار علمائهم ومحققيهم، فليس هناك مَنْ يعتقد بذلك.

وإن كان يقصد بوجود قول ضعيف بهذا الشأن بين أوساط الشيعة، فإنّ نظيره موجود في أوساط السنّة أيضاً، وهو ما لم يُعتَن به من قبل الطرفين.

وقد تطرق لذلك بوضوح المحقق الشيخ جعفر المعروف بكاشف الغطاء في كتابه (كشف الغطاء) بقوله: لا ريب أنّه (أيْ القرآن) محفوظ من النقصان بحفظ المَلك الديّان، كما دل عليه صريح القرآن، وإجماع العلماء في كلّ زمان، ولا عبرة بالنادر[1].

إنّ التاريخ الإسلامي مزدحم بالتهم الباطلة المتغذية من ثدي العصبية المقيتة، مع علمنا القاطع بأنّ أعداء الإسلام يقفون وراء حياكة ونشر هذه التهم لإيقاع البغضاء بين أبناء الدين الواحد، وأنّ غاية ما يسعون إليه أن يروا المسلمين أُمّةً مفككة غير قادرة على القيام بمهامها الوحدوية التوحيدية.

ترى كاتباً معروفاً (من أهل الحجاز) في عرض ذمّه للشيعة من خلال كتابه (الصراع) يقول: (والشيعة هم أبداً أعداء المساجد)[2].

والحال لو أجرينا إحصاءً لعدد المساجد في شوارع وأسواق وأزقّة المدن الشيعية

---

(١) تفسير آلاء الرحمن، ٣٥.

(٢) الصراع، لعبد الله علي القصيمي، ج٢، ص٢٣، على ما نقل عنه العلاّمة الأميني في الغدير، ج٣، ص٣٠٠.

لأخذ منّا الوقت الطويل لكثرتها، لدرجة أنّ بعضاً من الشيعة بات يُشكِل على كثرة المساجد في المنطقة الواحدة ويرى لو يلتفت المحسنون لدور الأيتام والمستشفيات الخيرية وما شاكلها، بدلاً من بناية المساجد لكفاية الموجود ومع هذا ترى كاتباً معروفاً يتحدث بصراحة عن أمر يدعو إلى الضحك.

وعليه فلا ينبغي الاستغراب لما افتراه الفخر الرازي.

أدلة عدم تحريف القرآن

١ - إنّ أدلة عدم تحريف القرآن كثيرة - فبالإضافة إلى الآية محل البحث وآيات أُخر - نلاحظ كيفية تعامل الناس مع هذا الكتاب السماوي العظيم عبّر التاريخ.

وقبل البداء ينبغي التنويه بأنّ من احتمل التحريف في القرآن، إنّما أراد بذلك حصول النقص فيه، ولم نر مَنْ احتمل الزيادة في القرآن.

ونظرة فاحصة إلى تاريخ حياة المسلمين نرى من خلالها أنّهم كانوا يعايشون القرآن في كافة مرافق حياتهم، فهو القانون والدستور الحاكم، ونظام الدولة، وهو الكتاب المقدّس السماوي ورمز العبادة.. وبعد هذا كلّه هل يحتمل أن تطرأ عليه الزيادة أو النقصان؟!

يحدثنا التاريخ بأنّ القرآن ما كان ليفارق الإنسان المسلم في: صلاته، المسجد، البيت، ميدان الحرب عند مواجهة الأعداء، بل إنّ المسلمين كانوا يجعلون تعليم القرآن مهوراً للنساء. فكان للقرآن الحضور الفاعل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون المسلمين، حتى أنّ الطفل ينمو على هديه.

ومرّة أُخرى نقول: أوَ يعقل أن يصاب هذا الكتاب السماوي المقدّس بسهام التحريف والتغيير وهو محفوظ في قلوب وسلوك المسلمين على مرّ التاريخ؟!

لقد تمّ جمع القرآن - كما ذكرنا في المجلد الأوّل من هذا التّفسير - في عهد رسول الله ﷺ، واهتمّ به المسلمون الأوائل أقصى درجات الاهتمام، في مجال تعلّم أحكامه وحفظه، لدرجة أصبحت فيها مكانة الفرد الاجتماعية تقاس بقدر حفظه من سور القرآن الكريم، حتى أصبح عدد حفّاظ القرآن من الكثرة بحيث إنّه في إحدى المعارك قتل فيها أربعة آلاف منهم[(١)].

(١) منتخب كنز العمال، كما نقل عنه (البيان في تفسير القرآن)، ص٢٦٠.

وكذلك الحال في عهد رسول الله ﷺ حينما استشهد سبعون رجلاً من الصحابة من حفظة القرآن في معركة بئر معونة (وهي إحدى المناطق المجاورة للمدينة)[1].

من هذين المثلين (وأمثالهما كثير) يتّضح لنا أنّ حفظة وقرّاء ومعلمي القرآن الكريم من الكثرة بحيث يستشهد منهم في معركة واحدة ذلك العدد الضخم.

وهذا طبيعي جداً إذا ما نظرنا إلى طريقة تعامل المسلمين مع القرآن، باعتباره القانون الحاكم النافذ، والكتاب المقدّس الذي لا يوجد سواه.

لم يكن القرآن الكريم كتاباً مهملاً في زوايا البيوت والمساجد يعلوه غبار النسيان حتى تسنح الفرصة لمن يريد أن يزيد فيه أو ينقص، بل إنّ مسألة حفظه كانت وما زالت عبادة عظيمة وسنّة متبعة تمتد جذورها في عمق التاريخ الإسلامي.

وبعد أن ظهرت الطباعة كان القرآن الكريم أكثر الكتب من حيث الطبع والانتشار بين صفوف المسلمين في كافة بلدانهم، ولا تخلو مدينة إسلامية من حفّاظ للقرآن، والأمثلة أكثر من أن تقال، ففي البلدان الإسلامية هناك مدارس خاصة لقراءة وحفظ القرآن وذكر أحد المطلعين: أنّه يوجد في بعض البلاد الإسلامية ما يقرب من مليون ونصف المليون حافظ للقرآن.

وبناءً على ما ذكره فريد وجدي في كتابه (دائرة المعارف): إنّ من شروط القبول في كلية الأزهر في مصر، هو حفظ القرآن الكريم كاملاً ودرجة النجاح في ذلك (٢٠) من (٤٠) كحد أدنى.

خلاصة القول: إنّ حفظ القرآن منذ عصر ظهور الإسلام أصبح سنّة حية في حياة المسلمين، من خلال ما أمر وأكّد عليه النّبي ﷺ (وهو ما تعضده الرّوايات الكثيرة)، وإلى هنا نعاود طرح السؤال: هل هناك مجال لاحتمال وجود التحريف في القرآن؟!

٢ - بالإضافة إلى ما تقدم تواجهنا مسألة (كتّاب الوحي) وهم الأشخاص الذين أوكل إليهم النّبي ﷺ مهمّة تسجيل الآيات القرآنية بعد نزولها، ويذكر أنّ عددهم كان بين ١٤ - ٤٣ رجلاً.

يقول أبو عبد الله الزنجاني في كتابه القيّم (تأريخ القرآن): (كان للنّبي كتّاب يكتبون الوحي وهم ثلاثة وأربعون، أشهرهم الخلفاء الأربعة، وكان ألزمهم للنّبي زيد بن ثابت

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٥٧.

وعلي بن أبي طالب عليه السلام) فكيف لكتاب له كلّ هؤلاء الكتّاب أن تمتد إليه يد التحريف؟!

٣ - دعوة الأئمّة المعصومين عليهم السلام للعمل بالقرآن الموجود بين أيدينا. ولو تفحصنا كلامهم عليهم السلام لوجدنا أنّهم قد دعوا الناس لتلاوة ودراسة القرآن والعمل على هديه منذ صدر الإسلام وعلى امتداد وجودهم المبارك بين الناس، وهذا دليل على أنّ الأيادي المفسدة ما استطاعت النيل من هذا الكتاب السماوي.

وخطب الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة خير شاهد ينطق بهذا الادعاء، فنقرأ في الخطبة (١٣٣): «وكتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعز لا تهزم أعوانه».

ويقول في الخطبة (١٧٦): «واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل...».

ونطالع قوله عليه السلام في نفس الخطبة المذكورة: «وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى».

ونتابع ذات الخطبة حتى نصل لقوله عليه السلام: «وإنّ الله سبحانه لم يعظْ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين، وسببه الأمين».

ونقرأ في الخطبة (١٩٨): «ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده...، ومنهاجاً لا يضل نهجه...، وفرقاناً لايخمد برهانه» وأمثال ذلك كثير في كلام علي والأئمّة عليهم السلام.

ولو فرضنا أنّ يد التحريف قد طالت كتاب السماء، فهل من الممكن أن يدعو إليه الأئمّة عليهم السلام بهذه القوة؟ ويصفونه بأنّه: صراط هداية، وسيلة التفريق بين الحق والباطل، النّور الذي لا يطفأ أبداً، مصباح هداية لا يخبو، حبل الله المتين والعروة الوثقى.

٤ - وإذا ما سلمنا بـ(خاتمية) النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنّ الدين الإسلامي هو خاتم الأديان الإلهيّة، وأنّ رسالة القرآن باقية إلى يوم القيامة، فهل يصدّق أنّ الله سبحانه سوف لا يحفظ دليل دينه وحجّة نبيّه الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهل يجتمع تحريف القرآن مع بقاء الإسلام عبر آلاف السنين ودوامه حتى نهاية العالم؟!

٥ - وهناك دليل آخر على أصالة القرآن وحفظه من أية شائبة نتلمسه في روايات الثقلين المروية عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بطرق متعددة معتبرة.

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»(١).

فهل يصح هذا التعبير عن كتاب تطاله يد التحريف؟!

٦ - بالإضافة إلى كل ذلك فالقرآن طُرح على المسلمين باعتباره الحدّ الفاصل المعيار الأمين في تمييز الأحاديث الصادقة من الكاذبة، وتشير كثير من الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى أنّ صدق أو كذب أي حديث يتبيّن من خلال عرضه على القرآن، فما وافق القرآن فهو حق وما خالفه فهو باطل.

فلو افترضنا أنّ تحريفاً قد طرأ على القرآن (ولو بصورة نقصان) فهل يمكن اعتباره فاصلاً بين الحق والباطل، أو معياراً دقيقاً لتمييز الحديث الصحيح من السقيم؟!

روايات التّحريف

يستند القائلون بتحريف القرآن مرّة على روايات قد أُسيء فهمها نتيجة عدم الوصول لما كانت ترمز إليه من معنى، وأُخرى على روايات ضعيفة السند ويمكن تقسيم روايات التحريف إلى ثلاثة أقسام:

١ - الرّوايات القائلة

إنّ علياً عليه السلام شرع بجمع القرآن بعد وفاة النّبي ﷺ، وعندما تمّ جمعه عرضه على جمع من الصحابة ممن تربعوا في مقام الخلافة فلم يقبلوه منه، فقال علي عليه السلام: إنّكم لن تروه بعد الآن أبداً.

وبنظرة فاحصة إلى تلك الرّوايات نصل إلى أنّ القرآن الذي كان عند علي عليه السلام لا يختلف مع بقية النسخ من حيث المضمون، سوى اختلافه - من حيث العرض والترتيب - في ثلاثة أُمور:

الأوّل: أنّ آياته وسوره كانت مرتبة حسب تأريخ النّزول.

الثّاني: تثبيت سبب النّزول لكل آية وسورة.

الثّالث: تضمّن تفسير النّبي ﷺ للآيات بالإضافة إلى ذكر الناسخ والمنسوخ.

---

(١) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة، رواه عن النّبي ﷺ جمع من الصحابة مثل: أبو سعيد الخدري، زيد بن أرقم، زيد بن ثابت، أبو هريرة، حذيفة بن أسيد، جابر بن عبد الله الأنصاري، عبد الله حنطب، عبد ابن حميد، جبير بن مطعم، ضمرّة الأسلمي، أبو ذر الغفاري، أبو رافع، أم سلمة وغيرهم.

فالقرآن الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام ليس إلّا عين القرآن الموجود سوى أنّه أضاف إليه: (التّفسير) و(التأويل) و(سبب النّزول) و(تبيان الناسخ والمنسوخ) وما شابه ذلك، وبعبارة أُخرى: كان قرآناً مع تفسيره الأصيل.

كما أنّه ورد في كتاب سُليم بن قيس: (إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما رأى غدر الصحابة وقلّة وفائهم لزم بيته، وأقبل على القرآن، فلما جمعه كلّه، وكتبه بيده، وتأويله الناسخ والمنسوخ، بعث إليه أن اخرج فبايع، فبعث إليه إنّي مشغول فقد آليت على نفسي لا أرتدي بردائي إلا لصلاة حتى أؤلف القرآن وأجمعه)[١].

٢ - الرّوايات المشيرة إلى «التحريف المعنوي» للقرآن

إنّ التحريف - كما نعلم - على ثلاثة ضروب: لفظي، معنوي، وعملي.

فالتحريف اللفظي: هو تغيير ألفاظ وعبارات القرآن وحصول الزيادة والنقصان فيها. (وهذا ما نرفضه بشدة - وجميع محققي الإسلام - وننكره إنكاراً قاطعاً).

والتحريف المعنوي: هو تفسير الآية خلافاً لمفهومها ومعناها الحقيقي.

أمّا التحريف العملي: فهو العمل على خلاف المقتضى.

ففي تفسير علي بن إبراهيم عن أبي ذر رضي الله عنه أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[٢] قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ترد عليّ أُمتي يوم القيامة على خمس رايات، فراية مع عجل هذه الأمة، فأسألهم: ماذا فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فحرفناه ونبذناه وراء ظهورنا...»[٣].

وواضح أنّ التحريف هنا يقصد به التحريف المعنوي للقرآن ونبذه وراء الظهور.

٣ - الرّوايات المختلقة:

فقد سعى أعداء الدين والمنحرفون عن الصراط المستقيم، وتبعهم الجهلة، في اختلاق بعض الرّوايات للحطّ من شرف القرآن وقدسيته، ومنها الرّوايات التي رواها أحمد بن محمّد بن السياري والبالغة (١٨٨) رواية[٤]، وقد استدل العلاّمة الشّيخ النّوري بكثير من هذه الرّوايات في كتابه (فصل الخطاب).

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٢، ص٤٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.
(٣) تفسير البرهان، ذيل الآية (١٠٦) من سورة آل عمران.
(٤) أورد هذا الإحصاء مؤلف كتاب (البرهان المبين).

والسياري هذا مطعون عند كثير من علماء (علم الرجال) ويقولون إنّه كان: فاسد المذهب، لا يعتمد عليه، وضعيف الحديث.

وعلى قول بعضهم: إنّه من أهل الغلو، منحرف، معروف بالقول بالتناسخ، وكذّاب، ويقول عنه الكشي (صاحب كتاب الرجال المعروف): إنّ الإمام الجواد عليه السلام وصف ادّعاءات السياري في رسالته بأنّها باطلة.

مع أنّ روايات التحريف غير مقتصرة على السياري، إلّا أنّ أكثرها وأهمها تعود إليه.

وبين هذه الرّوايات المزيّفة ما تضحك الثكلى، وينكرها كلّ ذي لب لبيب، وعلى سبيل المثال ما جاء في إحداها بخصوص الآية الثّالثة من سورة النساء ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أنّه: قد سقط بين شرطها وجزائها ثلث القرآن!!!

وقد ذكرنا في تفسير الآية المذكورة، أنّ الشرط والجزاء في الآية مرتبطان ارتباطاً تاماً، ولم يسقط من بينهما ولو كلمة واحدة.

أضف إلى ذلك، أنّ ثلث القرآن ما يعادل أربعة عشر جزءاً منه تقريباً، فكيف يدّعي هذا المدعى مع ما للقرآن من كتّاب وحي وحفّاظ وقرّاء منذ عهد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهل يعقل أن يحصل ذلك دون أن يلتفت إليه أحد؟!

وكأنّ هؤلاء لم يعيشوا ويعايشوا التاريخ بواقعيته وجلائه، ألم يثبت التاريخ بأنّ الشيء الأساسي في حياة المسلمين هو القرآن؟ أوَلَمْ يكن القرآن يتلى في آناء الليل وأطراف النهار في جميع البيوت والمساجد؟ إذن.. فكيف يحتمل إسقاط كلمة واحدة دون أن يلتفت إليه أحد، فضلاً عن كون السقط ثلث القرآن؟!

لا يسعنا إلّا أن نقول: إنّ كذبة بهذه المواصفات لدليل جلي على سذاجة واضعي مثل هذه الأحاديث.

وقد اعتمد الكثير من المتذرعين في إثبات تحريف القرآن على كتاب (فصل الخطاب) المشار إليه آنفاً.

ولابدّ من الإشارة إلى غرض وغاية هذا الكتاب من خلال ما كتبه تلميذ المؤلف العلاّمة الشيخ آغا بزرك الطهراني في الجزء الأوّل من كتاب (مستدرك الوسائل)، حيث يذكر أنّه سمع من أستاذه مراراً: إنّ ما في كتاب فصل الخطاب لا يمثل عقيدتي الشخصية، إنّما ألّفته للبحث والمناقشة، وأشرت فيه إلى عقيدتي في عدم تحريف القرآن دون أنْ أصرّح، وكان من الأفضل أن أسمّيه (فصل الخطاب في عدم تحريف الكتاب).

ثمّ يقول المحدّث الطهراني: هذا ما سمعناه من قول شيخنا نفسه، وأمّا عمله فقد رأيناه لايقيم وزناً لما ورد في مضامين هذه الأخبار، ويراها أخبار آحاد لابدّ أن تُضرب عرض الحائط، ولا أحد يستطيع نسبة التحريف إلى أستاذنا إلّا مَنْ هو غير عارف بعقيدته ومرامه.

وأخيراً... فالأيادي المغلولة لا يسعها في هذا المجال إلّا أن تبذل كل جهودها للنيل من أصالة وعظمة وقدسية كتاب السماء عند المسلمين عن طريق بثّ الخرافات والأباطيل.

وطالعتنا الصحف من مدّة ليست بالبعيدة بأنّ أياد إسرائيلية صهيونية قامت بطبع نسخة جديدة للقرآن غيّروا فيها كثيراً من الآيات القرآنية، وكما هو معهود فقد انتبه علماء المسلمين بسرعة لهذه الدسيسة الخبيثة وجمعوا تلك النسخ، فباءت محاولتهم بالفشل والخذلان.

وفات هؤلاء الأعداء من أصحاب القلوب الداكنة، أنّ نقطة واحدة لو غُيِّرَتْ في القرآن فسيعيدها إلى نصابها المفسّرون والحفّاظ وقرّاء هذا الكتاب العظيم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

العناد والتعصب

تواسي الآياتُ قلب النّبي ﷺ وقلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب في طريق دعوتهم، من خلال الإشارة إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالة والمتعصبة.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

فتقول أوّلاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ولكنّهم من العناد والتعصب لدرجة ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ذلك الاستهزاء وتلك السخرية لاعتبارات عدّة:

- مرةً، يريدون بالسخرية إسقاط شخصية النّبي كي لا يؤثّر في أوساط الفئة الواعية.

- وأخرى، يحاولون بالاستهزاء تغطية ضعفهم وعجزهم أمام المنطق القوي والحجج الدامغة لرسل الله عزّوجلّ.

- وتارةً، يأخذهم الاستغراب لدعوات الأنبياء الثورية ضد طريقة حياتهم الموبوءة وتقاليدهم البالية، ولمّا كانوا مكيّفين لها ومسترخين بين أجوائها، فيدفعهم جهلهم وتعصبهم الأعمى - لما هو سائد - لأن يستهزئوا.

- وأُخرى، محاولة تخدير وجدانهم السارح في المتاهات كي لا يصحوا على حين غرّة فيعتنق الحق وينهض بأعباء مسؤوليته.

- وقد يكون الاستهزاء بسبب خطل مقياسهم ومعيارهم للقدوة والقائد، فما تعارفوا عليه في مواصفات الزعيم أو القائد، أن يكون من الطبقة الثريّة المرفّهة، وقيمة الإنسان عندهم من خلال: لباسه الأنيق، مركبه الفاره، بيته الفخم، وحياته المحفوفة بالزخارف، وإذا نهض بدعوة الحق إنسان فقير لا يمتلك من حطام الدنيا شيئاً، فسيكون موضع سخريتهم!

- وأخيراً، فقبولهم لدعوة الأنبياء عليهم السلام - حسب تصورهم - يستلزم تقويضاً لكلّ شهواتهم الدنيوية، وتحميلهم وظائف جديدة لا يطيقونها، فيلجؤون للاستهزاء لتبرير إعراضهم وإنكارهم وإراحة ضمائرهم.

ثمّ يقول جلّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي نوصل الآيات القرآنية إلى أعماق وجدانهم وعقولهم.

ومع وضوح البلاغ والتأكيد وبيان المنطق الربّاني وإظهار المعجزات، ترى المتعصبين المستهزئين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وهو ليس بجديد ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ويصل أمر الغارقين في شهواتهم والمصرّين في عنادهم على الباطل إلى أنّهم لا يؤمنون حتى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ومع ذلك ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

عجباً، أن يصل الإنسان لهذا الدرك من العناد والتعصب!

إنّ الذنوب والجهل ومعاداة الحق تؤثّر على الروح الطاهرة والفطرة السليمة، فتحجبهما عن رؤية وجه الحقيقة الناصع، وتمنعهما من إدراك الحقائق، وإذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب وإزالة الموانع، فإنّ صورة الحق ستتلوّث في نظره فينكر كلّ ما هو معقول ومحسوس معاً، ومن الممكن تطهير الفطرة في المراحل الأُولى، ولكن إذا رسخت في قلبه هذه الحالة وتجذّرت وأمست «ملكة» وصفة أخلاقية، فلا يمكن إزالتها بسهولة، وعندها سوف لا تترك أقوى الأدلة العقلية ولا أوضح الأدلة الحسية أيّ تأثير في قلبه.

ملاحظات:

١ - (شيع) جمع (شيعة)

ويطلق على المجموعة والفرقة التي تمتلك نهجاً مشتركاً.

يقول الراغب الأصفهاني في كتاب (المفردات)، باب شيع: الشياع الانتشار والتقوية، يقال شاع الخبر أي كثر وقوي، وشاع القوم انتشروا وكثروا، وشيّعت النّار بالحطب قويّتها، والشيعة: من يتقوى بهم الإنسان.

أمّا العلاّمة الطبرسي في (مجمع البيان) فيعتبر أنّ أصلها من المشايعة، وهي المتابعة، يقال شايع فلان فلاناً على أمره أي تابعه عليه، ومنه شيعة علي عليه السلام وهم الذين تابعوه على أمره ودانوا بإمامته، وفي حديث أم سلمة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «شيعة علي هم الفائزون يوم القيامة» إشارة لهذا المعنى.

وعلي أية حال.. فالشياع بمعنى الإنتشار والتقوية، أو المشايعة بمعنى المتابعة، كلاهما دليل على وجود نوع من الاتحاد والارتباط الفكري والديني في مفهوم (الشيعة) و(التشيع).

وإطلاق لفظ (شيع) على الأقوام السابقة يدل على أنّهم في قبال دعوة الأنبياء عليهم السلام كانوا متحدين في توجّههم ومتآزرين متعاضدين في عملهم.

فإن كان لأهل الضلال هذا الاتحاد والتنسيق أفلا ينبغي لأتباع الحق أن يسيروا على نور هديه متكاتفين ومتآزرين؟

٢ - مرجع الضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾:

من لطف الباري جلَّ شأنه أنْ يوصل ويفهم آياته للمجرمين والمخالفين بطرق شتى، عسى أن تستقر في قلوبهم، ولكن عدم صلاحية ولياقة المحل يكون سبباً لخروجها من

تلك الأجواف النتنة، فتبقى قلوباً غير متأثرة، شبيهاً بمرور الغذاء النافع في معدة مريضة فلا تتقبله وتقذفه إلى الخارج. (ويستفاد هذا المعنى من (السلوك) المادّة الأصلية لعبارة ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾).

وعلى هذا الأساس فضمير ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ يعود إلى ﴿ٱلذِّكْرُ﴾ أيْ القرآن كما ورد في الآيات المتقدمة، وكذلك حال الضمير في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعود إليه أيضاً، أيْ: إنّهم مع كلّ ذلك لا يؤمنون بالذكر.

فنلحظ التوافق التام بين الضميرين بالضبط كما جاء في سورة الشعراء في الآيتين (٢٠٠) و(٢٠١).

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ ضمير ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ يعود إلى الاستهزاء المذكور في الآية المتقدمة عليها، فيكون المعنى: إنّا ندخل الاستهزاء والسخرية في قلوبهم نتيجةً لذنوبهم وعنادهم.

ويكفينا لتضعيف هذا التّفسير أن نقول: إنّه يُذهب بالتناسق بين الضميرين.

ونستوحي كذلك من عبارة ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أنّ على المبلّغ والمرشد أن لا يكتفي في أداء وظيفته بإيصال صوته الى أسماع الناس، بل عليه أن يطرق كلّ الآفاق حتى يوصل صوت الحق إلى القلوب ليقرّ فيها.

وبعبارة أُخرى، ينبغي الاستفادة من جميع الوسائل.. السمعية والبصرية، البرامج العملية، الأدبُ - شعراً وقصة - والفن الأصيل الهادف، لتكون كلمة الحق واضحة لذوي القلوب الواعية، والحجة تامة على مَنْ ظلم وعاند.

٣ - ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

تفيدنا الآية الآنفة الذكر بأنّ أساليب أهل الضلال الرامية لتخدير الناس ومحاولة تفريقهم وإبعادهم عن أولياء الله لا تختص بزمان ومكان معينين، بل هي ممارسة موجودة منذ القدم وباقية ما بقي صراع الحق ضد الباطل على الأرض ولهذا لا ينبغي أن نستوحش من ذلك ونتراجع أمام المشاكل والعراقيل التي يدبرها الأعداء.

ولا نسمح لليأس من أنْ يدخل قلوبنا، ولا لأساليب الأعداء من أن تفقدنا الثّقة بالنفس فذكر سنن الأوّلين في القرآن ما هي إلّا مواساة وتسلية مؤثرة لقلوب دعاة الإيمان.

وإذا ما تصوّرنا يوماً أنّ نشر دعوة الحق ورفع راية العدل والهداية لا يواجهان بردّ فعل الأعداء، فإنّنا في خطأ كبير، وأقل ما فيه أنّنا سنصاب بحالة اليأس المهلكة، وما علينا إلّا أن نستوعب مسير خط الأنبياء عليهم السلام في مواجهاتهم لأعداء الله، وأن نجسّد ذلك الاستيعاب في سلوكنا، بل وعلينا أن نزداد في كلّ يوم عمقاً في دعوتنا.

٤ - تفسير ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾

يظهر هذا المقطع القرآني - بوضوح - تصويراً لحال المعاندين، فلو أنّ باباً من السماء فتحت لهم وظلّوا يصعدون وينزلون من خلاله، لقالوا: سحرت عيوننا وحجبت عن رؤية الواقع! (يبدو أنّ المراد من السماء هنا: الفضاء الخارجي الذي لا يمكن النفوذ منه بسهولة).

علماً بأنّ كلمة «ظلوا» تستعمل لاستمرار العمل في النهار وتقابلها كلمة (باتوا) من البيتوتة باللّيل.

ويميل إلى هذا المعنى غالب المفسّرين، ولكنّ العجيب أنّ بعض المفسّرين احتملوا عودة ضمير «ظلّوا» إلى الملائكة، فيكون المعنى: أنّهم لو رأوا الملائكة تصعد وتنزل من السماء بأُمّ أعينهم لما آمنوا أيضاً.

ولكن إضافةً لعدم انسجام هذا الاحتمال مع تسلسل الآيات السابقة واللاحقة التي تتحدث عن المشركين، أنّ ذكر الملائكة إنّما ورد قبل ست آيات (فعودة الضمير إلى الملائكة بعيد جدّاً) فإنّ هذا المعنى يقلل من بلاغة العبارة القرآنية، لأنّ القرآن يريد أن يقول إنّ المشركين لايستسلمون للحق حتى لو صعدوا وهبطوا من السماء مراراً في ساعات النهار.

٥ - معنى عبارة ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾

جملة ﴿سُكِّرَتْ﴾ من مادة (سكر) أي: التغطية.

ويراد بها: أنّ الكافرين المعاندين يقولون: قد غطّيت عيوننا عن رؤية الواقعيات، وإذا رأينا أنفسنا نصعد إلى السماء وننزل إلى الأرض سنحكم على ذلك بأنّه وهم وخيال، كما في ما يسمّى بالشعبذة التي يستفيد صاحبها من خفة حركة يده فيخدع أنظار الحاضرين بها.

ويضيفون القول: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾، فبالرغم من أنّ الشعبذة هي لون من ألوان

السحر، لكنّهم ربما يشيرون إلى ما هو أشدّ من الشعبذة التي تختص بخداع البصر فقط، ألا وهو السحر الكامل الذي يغطّي على كلّ وجود الانسان ويفقد معه الإحساس بكلّ ما هو واقع!

فلو أغلقنا عين إنسان ما فإنّه لا يفقد الشعور في أنّه يُصَعَّد به إلى الأعلى أو يُنَزَّل إلى الأسفل.

فمعنى الآية: لو أخذنا المشركين إلى أقطار السماوات لقالوا أوّلاً: إنّنا أصبنا بالشعبذة، وبعد أن يجدوا أنّ هذه العملية لا تتوقف على العين فقط فسيقولون حينها: إنّنا مسحورون!

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات لتعميق معرفة وتوحيد الله، وبسياقها جاءت تكملةً لبحثي القرآن والنّبوة المذكورين في الآيات السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾.

«البروج»: جمع «برج» ويعني «الظهور»، ولهذا يطلق على البيت الذي يبنى في سور المدينة أو على سور الحصن الذي يعتصم به المقاتلون، وذلك لما له من بروز وارتفاع خاص. ويقال كذلك (تبرجت) للمرأة التي تظهر زينتها.

والبروج السماوية: هي منازل الشمس والقمر. وبعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس والقمر بإمعان فسنراها في كلّ فصل من فصول السنة ولفترة زمنية معيّنة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إنّ الشمس في برج الحمل[١] - مثلاً - أو الثور أو الميزان أو العقرب أو القوس.

ويعتبر وجود الأبراج السماوية، وكذلك النظام الدقيق في حركة منازل الشمس

(١) «الحمل» مجموع منظومات شمسية تظهر في السماء على هيئة الحمل تقريباً. وكذلك الثور والميزان وغيرها.

والقمر ضمن هذه البروج (وهو التقويم المجسّم لعالم وجودنا)، من الأدلة الواضحة على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا.

إنّ هذا النظام العجيب بما يحمل من دقة في حساب تشكيله يكشف لنا وجود هدف لخلق هذا العالم، وكلّما أمعنا النظر في خلق الله ازددنا مقربة من معرفة الخالق الجليل.

ثمّ يضيف: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾(١).

انظروا لإحدى الليالي المظلمة ذات النجوم الكثيرة فسترون مجموعات نجمية ائتلفت فيما بينها في كلّ زاوية من زوايا السماء، وكأنّها حلقات تنظيمية تتجاذب أطراف الحديث، وترى تلك كأنّها ترمقنا شابحة، وأُخرى تغمزنا باستمرار وكأنّها تدعونا إليها، ويُخال من بعضها وكأنّها تقترب منّا لشدة تلألئها، وتلك التي تنادينا بخافت ضوئها وينطق لسان حالها من أعماق السماء وجوفها المتباعد.. إنّني هنا!

هذه اللوحة الشاعرية الرائعة ربّما أَلِفَها البعض على أنّها عاديّة نتيجةً لتكرار المشاهدة، ومع ذلك فلها جذبٌ خاص وهي جديرة بالتأمل.

وحينما يبزغ القمر (وبأشكاله المختلفة) وسط تلك المجاميع، يضيف إلى سحرها وجمالها رونقاً جديداً.

وتراها خجلةً، لا تقوى على أن ترفع رأسها إلّا بعد غروب الشمس، فتتلألأ الواحدة تلو الأخرى، وكأنّهن يخرجن على استحياء من خلف ستار.. وما إن يحل الطلوع حتى نراها تفر فراراً لتختفي.

ومضافاً الى ذلك فإنّ لها من الجمالية العلميّة والأسرار المخفيّة ما لا يصدّق، ويكفيك لجماليتها أنّها جعلت أنظار العلماء تشخص إليها منذ آلاف السنين حتى زماننا هذا الذي ما توصّل العلماء إلى صناعة المرقبات (التلسكوبات)، إلّا للوصول لاكتشاف أسرار جديدة عن هذا العالم الدائب الملتهب رغم صمته.

ويضيف في الآية التالية: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

الآية المذكورة، من الآيات التي أُشبعت شرحاً وتفسيراً من قبل المفسّرين، وكلٌّ منهم قد نحى منحىً خاصاً في فهم معناها.

---

(١) ضمير ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ يعود إلى «السماء» لأنّها مؤنث مجازي.

وقد ورد ذات المضمون في سورة الصافات (الآيتان ٦ و٧) وكذلك في سورة الجن الآية (٩).

وربّما ارتسمت في أذهان البعض أسئلةً لم يُسْعَفوا بالإجابة عنها، فكان لزاماً علينا في بادئ الأمر أن نلقي نظرة إلى آراء كبار المفسّرين فيما يخصّ الموضوع الذي نحن بصدده، ومن ثمّ نعرج إلى ما نراه راجحاً من هذه الآراء:

١ - بعض المفسّرين ومنهم صاحب تفسير (في ظلال القرآن) قد اكتفوا بالتّفسير الإجمالي ولم يغوصوا في كثير من التفاصيل، ولم يعيروا أهميةً لكثير من المسائل على اعتبار أنّها حقائق فوق البشر ولا يمكننا إدراكها، وما علينا إلّا أن نهتم بالآيات التي ترتب الآثار على حياتنا العملية وتنظّم لنا السلوك والتوجّه إلى الحق.

فكتب يقول: وما الشيطان؟ وكيف يحاول استراق السمع؟ وأيّ شيء يسترق؟..

كلّ هذا غيب من غيب الله لا سبيل لنا إليه إلّا من خلال النصوص، ولا جدوى في الخوض فيه، لأنّه لا يزيد شيئاً في العقيدة ولا يثمر إلّا انشغال العقل البشري بما ليس من اختصاصه، وبما يعطّله عن عمله الحقيقي في هذه الحياة، ثمّ لا يضيف إليه إدراكاً جديداً لحقيقة جديدة[1].

وينبغي التنويه هنا إلى أنّ القرآن كتابٌ سماوي جاء لتوجيه الإنسان إلى الحق، وهو كتابُ حياة وتربية، فإن كان فيه ما لا يخصّ الحياة الإنسانية فمن الأُولى أن لا يطرح أصلاً، وهذا خلاف التخطيط والمنهج الرّباني، وكلُّ ما فيه دروس لنا ومنهجٌ قويم للحياة.

والتسليم بوجود حقائق غامضة في القرآن أمرٌ مرفوض.. أوَ ليس القرآن كتاب نور، وكتاباً مبيناً؟! أوَ لم ينزل كي يفهمه الناس ويسيروا بهديه؟! فكيف إذن.. لا يهمنا فهم بعض آياته؟!

وبكلمة: فإنّ هذا التّفسير مرفوض.

٢ - يصرّ جمع لا بأس به من المفسّرين (وخصوصاً القدماء منهم) على الوقوف عند المعنى الظاهري لهذه الآيات.

فالسماء هي هذه السماء، والشهاب هو ما نراه ونسميه شهاباً (أي الكرات الصغيرة

(١) التفسير في ظلال القرآن، ج٥، ص ٣٩٦.

التي تسبح في الفضاء، وتخترق بين الحين والآخر جاذبية الأرض فتنطلق نحوها بسرعة فتحترق نتيجةً لاحتكاكها بالهواء المسبب لزيادة حرارتها).

والشيطان هو ذلك الموجود الخبيث المتمرّد الذي يحاول أن يخترق أعماق السماوات ليطّلع على أخبار ذلك العالم ليوصل تلك الأخبار إلى أوليائه الأشرار على الأرض من خلال استراقه السمع، ولكنّه يُمنع من الوصول إلى هدفه برميه بالشهب[١].

٣ - وذهب جمع من المفسّرين مثل العلاّمة الطّباطبائي في (تفسير الميزان) والطنطاوي في تفسير (الجواهر) إلى حمل هذه الآيات على التشبيه والكناية وضرب الأمثال، أو ما يسمّى بـ(البيان الرمزي) ثمّ شرحوا ذلك بصور عدّة:

أ: نقرأ في تفسير الميزان: «أورد المفسّرون أنواعاً من التوجيه لتصوير استراق السمع من الشياطين ورميهم بالشهب، وهي مبينة على ما سبق إلى الذهن من ظاهر الآيات والأخبار، إنّ هناك أفلاكاً محيطة بالأرض تسكنها جماعات من الملائكة ولها أبواب لا يلج فيها شيء إلّا منها، وإنّ في السماء الأُولى جمعاً من الملائكة بأيديهم الشهب يرصدون المسترقين للسمع من الشياطين فيقذفونهم بالشهب.

وقد اتّضح اليوم اتضاح عيان بطلان هذه الآراء.

ويحتمل - والله العالم - أنّ هذه البيانات في كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبة تصوّر بها الحقائق الخارجة عن الحس في صورة المحسوس لتقريبها من الحس، وهو القائل عزّوجلّ في سورة العنكبوت (٤٣): ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾، وهو كثير في كلامه تعالى ومنه العرش والكرسي واللوح والكتاب.

وعلى هذا يكون المراد من السماء التي تسكنها الملائكة عالماً ملكوتياً ذا أفق أعلى، نسبته إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة بأجرامها إلى الأرض، والمراد باقتراب الشياطين من السماء واستراقهم السمع وقذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخلقة والحوادث المستقبلة ورميهم بما لا يطيقونه من نور الملكوت»[٢].

---

(١) ذكر هذا التّفسير الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وكذلك الآلوسي في (روح المعاني) بعد طرح الإشكالات المختلفة في الموضوع اعتماداً على علم الهيئة والطبقات الفلكية القديم وأمثال ذلك. وأكثر العلماء فيه البيان من خلال الإجابة على تلك التساؤلات، ولا ضرورة لذكرها لما وصل إليه علم الفلك في يومنا.

(٢) تفسير الميزان، ج١٧، ص ١٣٠ (في تفسير الآيات من سورة الصافات).

ب: والطنطاوي في تفسيره المعروف، هكذا يرى: «إنّ العلماء المحتالين المرائين الذين يتبعهم عوام الناس دون أن تكون لهم الأهلية لأن يطلعوا على عجائب السماوات وبدائع العالم العلوي وأجرامه غير المحدودة، وما يحكمها من نظم وحساب دقيق، فإنّ الله تعالى يمنع عنهم هذا العلم ويجعل هذه السماء المليئة بالنجوم الوضّاءة بكلّ أسرارها في اختيار مَنْ له عقل ونباهة وإخلاص وإيمان، ومن الطبيعي أن يمنع هذا الصنف من العلماء من النفوذ في أسرار هذه السماء، فكل شيطان يطرد عن الحضرة الإلهيّة سواء كان من البشر أو من غيرهم، وليس له حق الوصول إلى هذه الحقائق، ومتى ما اقترب منها طرد عنها، فيمكن أن يعيش هكذا أشخاص سنوات كثيرة ثمّ يموتون ولكنّهم لا يدركون هذه الأسرار أبداً، لهم أبصار ينظرون بها ولكن لا تستطيع رؤية هذه الحقائق، أليس العلم لا يناله إلّا عشّاقه ولا يدرك جماله ولا ينظر إليه إلّا عرفاؤه»(١)؟!

ويقول في مكان آخر: «ما المانع أن تكون هذه التعبيرات كناية، فيكون المنع الحسي رمزاً للمنع العقلي، والكناية من أجمل أنواع البلاغة، ألا ترى أنّ كثيراً من الناس حولك محبوسون في هذه الأرض، غائبةٌ أبصارهم، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ولا يفهمون رموز هذه الدنيا وعجائبها وقد قذفوا من كلّ جانب، مطرودين حيث طردتهم شهواتهم وعداواتهم وكبرياؤهم وحروبهم وطمعهم وشرّهم، عن تلك المعاني العالية(٢)، وإن أصيب أحَدٌ بهذه الأهواء يوماً بسبب التلوثات التي تملأ قلبه وروحه فإنّه سيطرد أيضاً».

ج: وله كلام في مكان آخر، خلاصته: تبقى قائمة بين أرواح البشر المنتقلة إلى عالم البرزخ مع الأرواح التي ما زالت مع البشر في الحياة الدنيا، وإذا ما توفر التشابه والسنخية فيما بينها فيمكن والحال هذه إحضارها والتكلّم معها فتطلعها على أُمور واقعة ودقيقة جدّاً، ولا تتمكن من أن تعطي الصورة الحقيقية لبعض الأمور، لأنها لا تنقل بدقّة إلا ما هو ضمن عالمها المحدود، ولا يمكنها أن تصل إلى عالم أعلى منها، فكما أنّ الأسماك لا تتمكن من اختراق عالمها المائي، كذلك هذه الأرواح فإنّها لا تقوى على الخروج لأكثر من حدود عالمها.

د: وقال بعض آخر: «أظهرت الاكتشافات الأخيرة وجود أشعّة قويّة تنبعث باستمرار من الفضاء البعيد، ويمكن استلامها على الأرض بوضوح بواسطة أجهزة استقبال

---

(١) تفسير الجواهر، ج٨، ص١١.
(٢) المصدر السابق ج١٨، ص١٠.

خاصة، وإنّ مصدر هذه الأمواج لا زال مجهولاً، إلّا أنّ بعض العلماء يحتملون وجود كائنات حيّة كثيرة تعيش على الأجرام السماوية البعيدة وربّما كانت متفوقة علينا مدنياً فيرسلون هذه الأمواج ليخبرونا عن وجودهم وبعض أخبارهم، وفي تلك الأخبار مسائل جديدة علينا، ولكنّ الجن تسعى للاستفادة من تلك المسائل فتطرد بتلك الأشعّة القويّة المقتدرة لكي لا تصل لفهم ما أرسل إلى أهل الأرض»(١).

كانت هذه آراء المفسّرين والعلماء وأقوالهم المختلفة.

نتيجة البحث:

طال بنا البحث في تفسير الآيات الآنفة الذكر، وقبل الخروج بمحصلة البحث لابدّ من ذكر بعض الملاحظات:

١ - أشار القرآن الكريم بكلمة «السماء» إلى نفس هذه السماء التي يتبادر الذهن إليها تارة، وإلى السمو المعنوي والمقام العلوي تارة أُخرى.

فمثلاً نقرأ في الآية (٤٠) من سورة الأعراف ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

فمن الممكن حمل معنى السماء هنا على الكناية عن مقام القرب من الله عزّوجلّ، كما نقرأ في الآية العاشرة من سورة فاطر ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وكما هو بيّن أنّ كلاً من الكلم الطيب والعمل الصالح ليسا من الأشياء التي يقال عنها ذلك، بل المراد هو الارتفاع إلى مقام القرب الإلهي والتشرّف بالسموّ والرفعة المعنوية.

والمقصود من تعبير «أنزل» و«نزل» في آيات القرآن هو النّزول من الساحة الإلهيّة المقدّسة على قلب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقرأنا في تفسير الآية (٢٤) من سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أنّ أصل الشجرة الطيبة المشار إليها في الآية هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والفرع علي عليه السلام (والفرع هنا هو الأصل الثانوي الذي يرتفع في السماء) والأئمّة عليهم السلام هم الفروع الأصغر(٢).

---

(١) القرآن على مر العصور، ص ٢٥٨ ع. نوفل.

(٢) راجع تفسير البرهان، ج٢، ص٣١٠.

وكذلك ما نقرؤه في أحد الأحاديث: «كذلك الكافرون لا تصعد أعمالهم إلى السماء».

لا ريب أنّ «السماء» المستعملة هنا ليست السماء المشاهدة.

نستنتج ممّا سبق أنّ «السماء» قد استعملت بمفهوميها المادي والمعنوي أو الحقيقي والمجازي.

٢ - و«النجوم» كذلك، بمفهومها المادي.. هذه الأجرام السماوية التي تشاهد في السماء. ومفهومها المعنوي.. أُولئك العلماء والأشخاص الذين ينيرون درب المجتمعات البشرية.

فكما أنّ سالك الصحراء وعابر البحر يستهديان بالنجوم في الليالي الحالكة الداكنة، فكذلك المجتمعات البشرية، فإنّها تسلك الطرق السليمة لترشيد حياتها ونيل سعادتها بنور أُولئك المؤمنين الواعين من العلماء والصالحين.

وفي الحديث المعروف عن النّبي ﷺ: «مثل أصحابي فيكم كمثل النجوم بأيّها اقتديتم اهتديتم»[1] وهو إشارة جليّة لهذا المعنى.

كما نقرأ في تفسير علي بن إبراهيم في ذيل الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[2].. أنّ الإمام عليه السلام قال: «النجوم آل محمد ﷺ»[3].

٣ - يستفاد من الرّوايات العديدة التي وردت في تفسير الآيات المبحوثة، أنّ منع الشياطين من الصعود إلى السماوات وطردها بالشهب تمّ حين ولادة النّبي ﷺ، ويستفاد من بعضها أنّ ذلك حدث أثناء ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام ولكن لفترة معيّنة، وأمّا عند ولادة نبيّنا الأكرم ﷺ فقد تمّ المنع بشكل كامل[4].

ومن كلّ ما تقدم يمكننا القول: إنّ «السماء» كناية عن سماء الحق والإيمان، والشياطين تسعى أبداً لاختراق هذه السماء والتسلّل إلى قلوب المؤمنين المخلصين عن طريق تخدير حماة الحق بأنواع الوساوس لصرعهم.

ولكن علم وتقوى أولياء الله وقادة دعوة الحق من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام والعلماء العاملين كفيل بأن يبعد عبدة الجبت والطاغوت عن هذه السماء.

(١) سفينة البحار، ج٢، ص٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٧٥٠.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٥ - تفسير القرطبي، ج٥، ص٣٦٢٦.

وهذا ما يساعدنا على فهم ذلك الترابط بين ولادة النبي ﷺ أو ولادة المسيح عليه السلام، وبين طرد الشياطين عن السماء.

ويساعدنا كذلك على أن نفهم تلك الرابطة بين الصعود إلى السماء والاطلاع على الأسرار، لتيقننا بعدم وجود أخبار خاصّة بين طبقات هذه السماء المشاهدة، وكلّ ما هناك لا يتعدى عجائب الخلقة التي صوّرها الباري جلّ شأنه والتي يمكن دراسة الكثير منها على سطح الأرض، والذي ربما أصبح شبيهاً بالبديهي من أنّ الأجرام السماوية المنتشرة في الفضاء اللامتناهي بعضها أجرام فاقدة للحياة وأُخرى حيّة، ولكنّ حياتها ليست كحياتنا.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ مسألة وجود الشهب منحصرة ضمن منطقة الغلاف الجوّي للأرض فقط، وذلك حينما تلتهب تلك الصخور المتساقطة صوب الأرض من خلال احتكاكها بالهواء، أمّا خارج منطقة الغلاف الجوّي فخال من الشهب، نعم، هناك صخور وكرات تسبح في الفضاء، إلّا أنّها لا تسمى شهباً إلّا بعد دخولها في منطقة الغلاف الجوّي فتلتهب وتظهر للعيان على هيئة خط ناري واضح تخيّل للناظر أنّها نجمة متحركة بسرعة.

وكما هو معلوم، فإنّ إنسان العصر الحديث قد نفذ مراراً من هذه المنطقة، بل وغالى في نفوذه حتى وطأت قدماه سطح القمر (علماً بأنّ سمك الغلاف الجوّي يبلغ من مائة إلى مائتي كيلومتر طولاً وأنّ القمر يبعد عن الأرض بأكثر من ثلاثمائة ألف كيلومتر).

فإن كان المقصود من الشهب في الآية عين الشهب المشاهدة لنا، فيمكن القول: إنّ علماء البشر قد اكتشفوا هذه المنطقة ولم يجدوا الأسرار الخاصة المدعاة.

والخلاصة: يظهر لنا من خلال ما ذكر من قرائن وشواهد كثيرة أنّ المقصود من السماء هو سماء الحق والحقيقة، وأنّ الشياطين ذوي الوساوس يحاولون أن يجدوا سبيلاً لاختراق السماء واستراق السمع، ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك، ولكنّ النجوم والشهب (وهم القادة الربانيون من الأنبياء والأئمّة والعلماء) يبعدونهم ويطردونهم بالعلم والتقوى.

ولكنْ. . . بما أنّ القرآن الكريم بحر غير متناه، فلا ينبغي البناء القطعي على هذا التأويل، وربّما المستقبل سيحفل بتفسير آخر لهذه الآيات مستنداً على حقائق لم نصل لها في زماننا.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

التّفسير

وإتماماً لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، ومظاهر عظمة الباري على وجه البسيطة، ويبدأ بنفس الأرض ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾.

«المد»، في الأصل بمعنى: التوسعة والبسط، ومن المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء، لأنّ سطح الأرض (كما هو معلوم) كان مغطىً بالمياه بشكل كامل نتيجة للأمطار الغزيرة، واستقرت المياه على سطح الأرض بعد أن مرّت السنين الطويلة على انقطاع الأمطار، وبشكل تدريجي ظهرت اليابسة من تحت الماء، وهو ما تسمّيه الرّوايات بـ«دحو الأرض».

ثمّ يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّة كآية من آيات التوحيد ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

عبّر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، ولعلّ المراد بـ«إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد) لأنّ الجبال هي الارتفاعات الشاخصة على سطح الأرض الناشئة من برودة قشرة الأرض التدريجي، أو من المواد البركانية.

ومن بديع خلق الجبال إضافةً إلى كونها أوتاداً لتثبيت الأرض وحفظها من التزلزل نتيجة الضغط الداخلي، فإنّها تقف كالدرع الحصين في مواجهة قوّة العواصف، بل وتعمل على تنظيم حركة الهواء وتعيين اتجاهه، ومع ذلك فهي المحل الأنسب لتخزين المياه على صورة ثلوج وعيون.

واستعمال كلمة ﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع (راسية) بمعنى الثابت والراسخ، إشارة لطيفة لما ذكرناه.

فهي: ثابتة بنفسها، وسبب لثبات قشرة الأرض وثبات الحياة الإنسانية عليها.

ثمّ ينتقل إلى العامل الحيوي الفعّال في وجود الحياة البشرية والحيوانية، ألا وهو النبات ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾.

ما أجمل هذا التعبير وأبلغه! ﴿مَّوْزُونٍ﴾ من مادة (وزن)(١)، ويشير بذلك إلى: الحساب الدقيق، النظام العجيب، والتناسق في التقدير في جميع شؤون النباتات، وكلّ أجزائها تخضع لحساب معيّن لا يقبل التخلخل من الساق، الغصن، الورقة، الوردة، الحبة وحتى الثمرة.

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، وكلّ تحمل خواصاً معيّنة ولها من الآثار ما يميّزها عن غيرها، وهي بابٌ لمعرفة البارئ المصوّر جلّ شأنه، وكلّ ورقة منها كتاب ينطق بمعرفة الخالق.

وقد ذهب البعض إلى أنّ المقصود هو إحداث المعادن والمناجم المختلفة في الجبال، لأنّ كلمة «إنبات» تستعمل في اللغة العربية للمعادن أيضاً.

وقد وردت الإشارة في بعض الرّوايات لهذا المعنى، ففي رواية عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما سئل عن تفسير هذه الآية أنبتنا فيها من كلّ شيء موزون، أنّه قال: «فإنّ الله تبارك وتعالى انبت في الجبال الذهب والفضة والجوهر والصفر والنحاس والرصاص والكحل والزرنيخ وأشباه هذه لايباع إلّا وزناً»(٢).

وهناك من ذهب إلى أنّ المقصود من الإنبات في الآية معنىً أوسع، يشمل جميع المخلوقات على هذه الأرض، كما يشير إلى ذلك نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين مخاطبته قومه ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾(٣).

وعليه، فليس هناك ما يمنع من إطلاق مفهوم الإنبات في الآية ليشمل النبات والبشر والمعادن... الخ.

وبما أنّ وسائل وعوامل حياة الإنسان غير منحصرة بالنبات والمعادن فقط، ففي الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾.

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحيّة حتى الخارجة عن مسؤوليتكم ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

نعم، لقد كفينا الجميع احتياجاتهم.

﴿مَعَٰيِشَ﴾ جمع «معيشة»، وهي: الوسائل والمستلزمات التي تتطلبها حياة الإنسان، والتي يحصل عليها بالسعي تارة، وتأتيه بنفسها تارة أُخرى.

---

(١) «الوزن» معرفة قدر الشيء - مفردات الراغب.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٦ (يعود ضمير «فيها» بناءً على هذا التّفسير إلى الجبال).

(٣) سورة نوح، الآية: ١٧.

ومع أنّ بعض المفسّرين قد حصر كلمة ﴿مَعَايِشَ﴾ بالزراعة والنبات أو الأكل والشرب فقط، ولكنّ مفهومها اللغوي أوسع من أن يخصص، ويطلق ليشمل كلّ ما يرتبط بالحياة من وسائل العيش.

وانقسم المفسّرون في تفسير ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ إلى قسمين:

الأوّل: أنّ الله تعالى يريد أن يبيّن مواهبه ونعمه الشاملة للبشر والحيوان والكائنات الحيّة الأُخرى التي لا يملك الإنسان أمر تغذيتها ولا يستطيعه.

الثّاني: أنّ الله تعالى يريد تذكير الإنسان بأنّه سبحانه هو الرازق، وقد تكفّل بإيصال رزقه إلى كلّ محتاج له سواء كان بواسطة الإنسان أو بواسطة أُخرى[١].

ويبدو لنا أنّ التّفسير الأوّل أكثر صواباً، ويعزز ذلك الحديث المروي في تفسير علي ابن إبراهيم، حيث يتناول معنى ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ على أنّه: (لكل ضرب من الحيوان قدّرنا له مقدراً)[٢].

أمّا آخر آية من الآيات المبحوثة، فتحوي جواباً لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من والاعتراضان مردودان، لأنّ عدم تكرار حرف الجر جار على لسان العرب، وكذا الحال بالنسبة لاستعمال ﴿وَمَن﴾ لغير العاقل. بل التّفسير الثّاني يواجه ما لسعة المفهوم لـ ﴿مَعَايِشَ﴾، حيث يشمل جميع وسائل الحياة حتى الحيوانات الداجنة وما شابهها.. وعلى هذا الأساس رجحنا التّفسير الأوّل. الناس، وهو: لماذا لم تهيّأ النعم والأرزاق بما لا يحتاج إلى سعي وكدح؟! فتنطق الحكمة الإلهيّة جواباً: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. فليست قدرتنا محدودة حتى نخاف نفاد ما نملك، وإنّما منبع ومخزن وأصل كلّ شيء تحت أيدينا، وليس من الصعب علينا خلق أيّ شيء وبأيّ وقت يكون، ولكنّ الحكمة اقتضت أن يكون كلّ شيء في هذا الوجود خاضعاً لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنّما تنزل إليكم بقدر.

ونقرأ في مكان آخر من القرآن: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾[٣].

---

(١) بناء على التّفسير الأوّل يكون الإسم الموصول ﴿وَمَن﴾ في ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ عطفاً على ضمير «لكم» وبناء على التّفسير الثّاني عطفاً على ﴿مَعَايِشَ﴾، وبعض المفسّرين اعترض على التّفسير الأوّل بأنّ الاسم الصريح المجرور لا يعطف على ضمير مجرور إلاّ بإعادة ذكر حرف الجر، أيْ: دخول اللام على ﴿وَمَن﴾ هنا واجب، وثمة اعتراض آخر يقول: كيف يطلق الاسم الموصول ﴿وَمَن﴾ على غير العاقل؟

(٢) تفسير نور الثّقلين، ج٣، ص٦، ح١٨.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٧.

إنّ السعي والكدح في صراع الحياة يضفي على حركة الإنسان، الحيوية والنشاط، وهو بقدر ما يعتبر وسيلة سليمة ومشروعة لتشغيل العقول وتحريك الأبدان، فإنه يطرد الكسل ويمنع العجز ويحيي القلب للتحرك والتفاعل مع الآخرين. . وإذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الرّباني، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشرية؟

فيكفي لحفنة ضئيلة من العاطلين، ذوي البطون المنتفخة، وبدون أيّ وازع انضباطي، يكفيهم لأن يعيثوا في الأرض الفساد. لماذا؟

لأنّ الناس ليسوا كالملائكة، بل هناك الأهواء التي تلعب بالقلوب والمغريات التي تُدني إلى الانحراف.

لقد اقتضت الحكمة الرّبانية أن يكون الإنسان حاملاً لجميع الصفات الحسنة والسيئة، ويمتحن على هذه الأرض بما يحمل، وبماذا يعمل، وعن ماذا يتجاوز؟. . والسعي والحركة لما هو مشروع، المجال الأمثل للامتحان.

والفقر والغنى من البلاء الذي يدخل ضمن مخطط التمحيص والامتحان، فكما أنّ الفقر والعوز قد يجرّان الإنسان نحو هاوية السقوط في مهالك الانحراف، فكذلك الغنى في كثير من حالاته يكون منشأً للفساد والطغيان.

بحوث

١ - ما هي خزائن الله تعالى؟

نقرأ فى آيات القرآن: أنّ لله عَزَّوَجَلَّ خزائن، ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وبيده خزائن كلّ شيء. . . فما هي خزائنه تعالى؟

«الخزائن» لغةً جمع «خزانة»: وهي المكان المخصص لحفظ وتجميع المال.

وهي من مادة (خَزَنَ) على وَزْنِ (وَزَنَ) بمعنى: حفظ الشيء وحبسه.

بديهي، أنّ مَنْ كانت قدرته محدودة وغير قادر على أن يهيّئ لنفسه كلّ ما يحتاج إليه على الدوام، يبدأ بجمع ما يملك وخزنه لوقت الحاجة إليه مستقبلاً.

وهل يمكن تصوّر ذلك في شأنه سبحانه!؟ الجواب بالنفي قطعاً. . ولهذا فسّر جمع من المفسّرين أمثال العلاّمة الطبرسي في (مجمع البيان) والفخر الرازي في (تفسيره الكبير) والراغب في (المفردات)، فسّروا خزائن الله بمعنى (مقدورات الله)، يعني: أنّ

كلّ شيء جمع في خزانة قدرة الله، وكلّ ما يراه ضرورياً أو صلاحاً لمخلوقه يخلقه بقدرته.

وقد فسّر بعض كبار المفسّرين «خزائن الله» بأنّها: (مجموع ما في الكون من أصوله وعناصره وأسبابه العامّة المادية، ومجموع الشيء موجود في مجموع خزائنه لا في كلّ واحد منها)[1].

هذا التّفسير وإن كان مقبولاً من الناحية الأصولية ولكنّ تعبير «عندنا» ينسجم أكثر مع التّفسير الأوّل.

وإنّ عبارة «خزائن الله» وما شابهها لا تصف مقام الرب وشأنه الجليل، ولا يصح أن نعتبرها بعين معناها، وإنّما استعملت للتقريب، من باب تكلّم الناس بلسانهم، ليكونوا أكثر قرباً للسمع وأشد فهماً للمعنى.

وذكر بعض المفسّرين أنّ «خزائن» تختص بالماء والمطر، ولكن من الواضح حصر مفهوم «خزائن» بهذا المصداق المحدّد تقييد بلا مقيّد لإطلاق مفهوم الآية، وهو خال من أيِّ دليل أو قرينة.

٢ - النّزول مكانيّ ومقامي

كما بيّنا سابقاً أنّ النّزول لا يرمز إلى الحالة المكانية دوماً (أيْ النّزول من مكان عال إلى أسفل)، بل يرمز إلى النّزول المقامي في بعض الموارد، فمثلاً.. في حال وصول نعمة من شخص ذي شأن إلى من هم أقل منه شأناً، فإنّه يعبّر عنها بالنّزول.

وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن الكريم في مورد النعم الإلهيّة، سواء كانت نازلة من السماء إلى الأرض كالمطر، أو ما يتوالد على الأرض كالحيوانات، وهذا ما نلاحظه في الآية السادسة من سورة الزمر ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، وكذلك في الآية الخامسة والعشرين من سورة الحديد، بشأن الحديد، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ ... الخ.

خلاصة القول:

إنّ (نزول) و(إنزال) هنا بمعنى وجود وإيجاد وخلق، وما استعمال هذا اللفظ إلّا لأنّها نعم الله عزّوجلّ التي وهبها لعباده.

(١) تفسير الميزان، ج١٢، ص١٤٢.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

دور الرّياح والأمطار

بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة قسماً من أسرار الخليقة والنعم الإلهيّة كخلق الأرض والجبال والنباتات وما تحتاجه الحياة من مستلزمات، يشير في أولى الآيات المبحوثة إلى حركة الرياح وما لها من آثار في عملية نزول المطر، فيقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع «لاقح»... وهي تشير هنا إلى دور الرياح في تجميع قطع السحاب مع بعضها لتهيئة عملية سقوط الأمطار.

وقد ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أنّ الآية تشير إلى عملية تلقيح النباتات بواسطة الرياح، وبها يستدلون على الإعجاز العلمي للقرآن، على اعتبار أنّ عصر نزول القرآن ما كان يحظى بما وصل إليه عصرنا من العلوم الحديثة، وأنّ إخبار القرآن بهذه الحقيقة العلمية (عملية التلقيح) من ذلك الوقت لدليل على إعجازه العلمي.

مع قبولنا بحقيقة تلقيح النباتات ودور الرياح فيها، إلّا أنّنا لا نرى ما يشير لما ذهب إليه علماء اليوم لسببين:

الأوّل: وجود قرينة نزول المطر بعد كلمة لواقح مباشرة.

ثانياً: وجود فاء السببية بينهما (بين لواقح ونزول المطر).

ممّا يبيّن بشكل جلي أنّ تلقيح الرياح يعقبه نزول المطر.

ويعتبر ما جاء في الآية المباركة من روائع الكلم، حيث شبّه قطع السحاب بالآباء والأمهات، يتمّ تزاوجهم بأثر الرياح، فتحمل الأُمهات، ثمّ تلقي بما حملت (قطرات المطر) إلى الأرض.

ويمكن حمل ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ على أنّها إشارة لخزن ماء المطر في السحب قبل نزوله، أي إنّكم لا تستطيعون استملاك السحب التي هي المصدر الأصلي للأمطار.

ويمكن حملها على أنها إشارة إلى جمع وخزن الأمطار بعد نزولها، أي إنّكم لا تقدرون على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيرة حتى بعد نزوله، وأنّ الله عزّوجلّ هو الذي يحفظها ويخزنها على قمم الجبال بهيئة ثلوج، أو ينزلها في أعماق الأرض لتكون بعد ذلك عيوناً وآباراً.

ثمّ ينتقل من مظاهر توحيد الله إلى المعاد ومقدماته: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾، فيذكر مسألة الحياة والموت التي تعتبر من أهمّ المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسألة من مكمّلات موضوع التوحيد، باعتبار أنّ مسألة الحياة منذ بدايتها وحتى انتهائها بالموت تشكّل نظاماً مترابطاً في عالم الوجود لا يمكن تصوّر تشكيله إلّا بوجود علم وقدرة مطلقين، بالإضافة إلى أنّ وجود الحياة والموت بحدّ ذاته دليل على أنّ موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عمّا هو بأيديها، وأنّ الوارث الحقيقي لكلّ شيء هو الله تعالى.

ثمّ يضيف: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾.

أيْ، نحن على علم بهم وبما يعملون، وإنّ أمر محاسبتهم وجزائهم في المعاد علينا سهل يسير.

ولهذا، نرى الآية التي تليها: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ مرتبطة تماماً مع ما قبلها ومتمّمة من خلال طرحها مسألة ما سيكون بعد الموت.. فحكمة الباري أوجبت أن لا يكون الموت نهاية لكلّ شيء.

فلو أنّ الحياة انحصرت بهذه الفترة الزمنية المحدودة وينتهي كلّ شيء بالموت لكانت عملية الخلق عبثاً، وهذا غير معقول، لأنّه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمة الإلهيّة اقتضت من «حياة الدنيا أن تكون مرحلة إستعداد لمسيرة دائمة نحو المطلق»، وبتعبير آخر: مقدمة لحياة أبديّة خالدة. وأمّا كونه سبحانه عليماً.. فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة في قلب هذا العالم الطبيعي من جهة، وكذلك في أعماق وجود الإنسان من جهة أُخرى، ولا تخفى عليه خافية يوم يقوم الحساب.

وكونه سبحانه الحكيم العليم في هذا المورد دليل قوي وعميق الغور على مسألة الحشر والمعاد.

بحث

مَنْ هم المستقدمون والمستأخرون؟

ذكر المفسّرون في تفسير ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ احتمالات كثيرة، فذكر العلامة الطبرسي في (مجمع البيان) ستة احتمالات، والقرطبي ثمانية احتمالات، وأبو الفتوح الرازي بحدود العشرة احتمالات، والملاحظة الدقيقة تظهر أنّه يمكن لنا أن نجمع كلّ ما ذكروه في تفسير واحد، لأنّ كلمة ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين والمتأخرين من حيث الزمان، وكذلك من حيث أعمال الخير والجهاد وحتى الحضور في الصفوف المتقدمة لصلاة الجماعة وما شابهها. وإذا ما أخذنا بهذا المعنى الجامع فيمكننا جمع كلّ الاحتمالات الواردة في كلمة «تقدّم» و«تأخّر» المذكورتين في الآية في تفسير واحد.

وفيما روي عن النّبي ﷺ في الحثّ على الاشتراك في الصف الأوّل من صفوف صلاة الجماعة أنّه قال: «إنّ الله وملائكته يصلّون على الصف المتقدّم» فازدحم الناس وكانت دور بني عذرة بعيدة عن المسجد فقالوا: «لنبيعنّ دورنا ولنشترينّ دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدّم»، فنزلت هذه الآية. (وأفهمتهم على أنّ الله تعالى عليم بنيّاتكم فحتى لو كنتم في الصف الأخير فإنّه يكتب لكم ثواب الصف الأوّل حسب نيّتكم وعزمكم على ذلك)[1].

فمحدودية شأن نزول الآية لا يدلّ أبداً على حصر مفهومها الواسع.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٣٤؛ ذيل الآية مورد البحث.

خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾
وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي
لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ
إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ
أَبْوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنْهُمْ جُزْءٞ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

التّفسير

خلق الإنسان

بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات الله في الآيات السابقة، تأتي هذه الآيات لتبيّن أنّ الهدف الأساسي من إيجاد كلّ الخليقة إنّما هو خلق الإنسان، وتتطرق الآيات إلى جزئيات عديدة في شأن الخلق، زاخرةً بالمعاني.

وقبل الدخول في بحوث مفصلة حول بعض المسائل التي ذكرت في الآيات المباركات نشرع بتفسير إجمالي. . .

يقول تعالى في البداية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ﴾، «الصلصال» هو التراب اليابس الذي لو اصطدم به شيء أحدث صوتاً. . . و«الحمأ المسنون» هو طينٌ متعفن.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

﴿ٱلسَّمُومِ﴾ لغة: الهواء الخارق، وسميَّ بالسموم لأنّه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان، وكذلك يطلق على المادّة القاتلة (السم) لأنّها تنفذ في بدن الإنسان وتقتله.

ثمّ يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرّة أُخرى فيتعرض إلى كلام الله تعالى مع الملائكة قبل خلق الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴿٢٩﴾﴾ وهي روح شريفة طاهرة جليلة ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

وبعد أن تمّ خلق الإنسان من الجسم والروح المناسبين ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

ولم يعص هذا الأمر إلّا إبليس: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

وهنا سأل الله إبليسَ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

فأجاب إبليس بعد أن كان غارقاً في بحر الغرور المظلم، وتائهاً في حبّ النفس المقتم، وبعد أن غطّى حجاب الخسران عقله... أجاب بوقاحة ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾... فأين النّار المضيئة من التراب الأسود المتعفن! وهل لموجود شريف مثلي أن يتواضع ويخضع لموجود أدنى منه! أيُّ قانون هذا؟!..

ونتيجةً للغرور وحبّ النفس، فقد جهل أسرار الخليقة، ونسي بركات التراب الذي هو منبع كلّ خير وبركة، والأهم من ذلك كلّه... فقد تجاهل شرافة تلك الروح التي أودعها الرّب في آدم.. وكنتيجة طبيعية لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد أن أصبح غير لائق لأن يكون في درجة الملائكة وبين صفوفهم، فجاء الأمر الإلهي مقرعاً: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، أي اخرج من الجنّة، أو من السماوات أو اخرج من بين صفوف الملائكة.

واعلم يا إبليس بأنّ غرورك أصبح سبباً لكفرك، وكفرك قد أوجب طردك الأبدي ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي، إلى يوم القيامة.

وهنا... حينما وجد إبليس نفسه مطروداً من الساحة الإلهيّة، ساوره إحساس بأنّ خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد والضغينة في قلبه لينتقم لنفسه من أولاد آدم عليه السلام.

فبالرغم من أنّ السبب الحقيقي يرجع إلى إبليس نفسه وليس لآدم دخل في ذلك، إلّا أنّ غروره وحبّه لنفسه وعناده المستحكم لم يعطياه الفرصة لدرك حقيقة شقائه، ولهذا ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ليركّز عناده وعداءه!

وقبل الله تعالى طلبه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

ولكن ليس إلى يوم يبعثون كما أراد، بل ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾. فما هو يوم الوقت المعلوم؟

قال بعض المفسّرين: هو نهاية هذا العالم وانتهاء التكليف، لأنّ بعد ذلك (كما يفهم

من ظاهر الآيات القرآنية) تحلّ نهاية حياة جميع الكائنات، ولا يبقى حيّ إلّا الذات الإلهيّة المقدّسة، ومن هذا نفهم حصول الموافقة على بعض طلب إبليس.

وقال بعض آخر: هو زمان معيّن لا يعلمه إلّا الله، لأنّه لو أظهره عزّوجلّ لكان لإبليس ذريعة في المزيد من التمرّد والمعاصي.

وثمّة مَنْ قال: إنّه يوم القيامة، لأنّ إبليس أراد أن يكون حيّاً إلى ذلك اليوم ليكون بذلك من الخالدين في الحياة، وإنّ يوم الوقت المعلوم قد ورد بمعنى يوم القيامة في سورة الواقعة (الآية / ٥٠)، وهو ما يعزّز هذا القول.

ويبدو أنّ هذا الاحتمال بعيد جدّاً لأنّه يتضمن الموافقة الإلهيّة على كل طلب إبليس، والحال أنّ ظاهر الآيات المذكورة لا تعطي هذا المعنى، فلم تبيّن الآيات أنّ الله استجاب لطلبه بالكامل، بل إلى يوم الوقت المعلوم... ومن هنا يكون التّفسير الأوّل أكثر توافقاً مع روح وظاهر الآية، وكذلك ينسجم مع بعض الرّوايات عن الإمام الصّادق عليه السلام بهذا الخصوص[1].

وهنا أظهر إبليس نيّته الباطنيّة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ وكان هذا الإنسان سبباً لشقائي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نعمها المادّية ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بإلهائهم بتلك النعم.

إلاّ أنه يعلم جيّداً بأنّ وساوسه سوف لن تؤثّر في قلوب عباد الله المخلصين، وأنّهم متحصنون من الوقوع في شباكه، لأنّ قوّة الإيمان ودرجة الإخلاص عندهم بمكان يكفي لدرء الخطر عنهم بتحطيم قيود الشيطان عن أنفسهم.. ولهذا نراه قد استثنى في طلبه ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

من البديهي أنّ الله سبحانه منزّه عن تضليل خلقه، إلّا أنّ محاولة إبليس لتبرير ضلاله وتبرئة نفسه جعلته ينسب ذلك إلى الله سبحانه وتعالى. هذا الموقف هو ديدن جميع الأبالسة والشياطين، فهم يلقون تبعة ذنوبهم على الآخرين أوّلاً ومن ثمّ يسعون لتبرير أعمالهم القبيحة بمنطق مغلوط ثانياً، والمصيبة أنّ مواقفهم تلك إنّما يواجهون بها ربّ العزة والجبروت، وكأنّهم لا يعلمون أنّه لا تخفى عليه خافية.

وينبغي ملاحظة أنّ «المخلصين» جمع مخلَص (بفتح اللام) وهو - كما بيّناه في تفسير سورة يوسف - المؤمن الذي وصل إلى مرحلة عالية من الإيمان والعمل بعد تعلّم وتربية ومجاهدة مع النفس، فيكون ممتنعاً من نفوذ وساوس الشيطان وأيّ وسواس آخر.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص١٣، الحديث ٤٥.

ثمّ قال تعالى تحقيراً للشيطان وتقوية لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيد الخالص: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

يعني، يا إبليس ليس لك القدرة على إضلال الناس، لكن الذين يتبعونك إن هم إلّا المنحرفين عن الصراط المستقيم والمستجيبين لدواعي رغباتهم وميولهم.

وبعبارة أُخرى.. إنّ الإنسان حرّ الإرادة، وإنّ إبليس وجنوده لا يقوون على أن يجبروا إنساناً واحداً على السير في طريق الفساد والضلال، لكنّ الإنسان هو الذي يلبّي دعوتهم ويفتح قلبه أمامهم ويأذن لهم في الدخول فيه!

وخلاصة القول: إنّ الوساوس الشيطانية وإن كانت لا تخلو من أثر في تضليل وانحراف الإنسان، إلّا أنّ القرار الفعلي للانصياع للوساوس أو رفضها يرجع بالكامل إلى الإنسان، ولا يستطيع الشيطان وجنوده مهما بلغوا من مكر أن يدخلوا قلب إنسان صاحب إرادة موجّهة صوب الإيمان المخلص.

وأراد الله سبحانه بهذا القول نزع الخيال الباطل والغرور الساذج من فكر الشيطان من أنّه سيجد سلطة فائقة على الناس وبلا منازع، يمكنه من خلالها إغواء من يريد.

ثمّ يهدد الله بشدّة أتباع الشيطان: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وأنْ ليس هناك وسيلة للفرار، والكلّ سيحاسب في مكان واحد.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

هي أبواب للذنوب التي يدخلون جهنّم بسببها، وكلّ يحاسب بذنبه... كما هو الحال في أبواب الجنّة التي هي عبارة عن طاعات وأعمال صالحة ومجاهدة للنفس يدخل بها المؤمنون الجنّة.

بحوث

١ - التكبر والغرور من المهالك العظام

المستفاد تربوياً من قصة إبليس في القرآن هو أنّ الكبر والغرور من الأسباب الخطيرة في عملية الانهيار والسقوط من المكانة المحترمة المرموقة إلى مدارك الدون والخسران.

فكما هو معلوم أنّ إبليس لم يكن من الملائكة (كما تشير إلى ذلك الآية الخمسون

من سورة الكهف) إلّا أنّه ارتقى الدرجات العُلا ونال شرف العيش بين صفوف الملائكة نتيجة لطاعته السابقة لله عزّوجلّ ، حتى أنّ البعض قال عنه: إنّه كان معلّماً للملائكة، ويستفاد من الخطبة القاصعة في (نهج البلاغه) أنّه عبد الله عزّوجلّ آلاف السنين.

لكن شراك التعصب الأعمى وعبادة هوى النفس المهلك قد أدّيا الى خسرانه كلّ ذلك في لحظة تكبر وغرور.

بل إنّ حبّ الذات والغرور والتعصب والتكبّر قد جعلته يستمر في موقفه المريض ويوغل قدمه في وحل الإصرار على الإثم والسير المتخبط في جادة العناد، فنسي أو تناسى ما للتوبة والاستغفار من أثر إيجابي، حتى دعته الحال لأن يشارك كلّ الظلمة والمذنبين من بني آدم في جرائمهم وذنوبهم بوسوسته لهم.. وبات عليه أن يتحمل نصيبه من عذاب الجميع يوم الفزع الأكبر.

وليس إبليس فحسب، بل إنّ التاريخ يحدثنا عن أصحاب النفوس المريضة ممن ركبهم الغرور والكبر فعاثوا في الأرض فساداً بعد أن غطّت العصبية رؤاهم، وحجب الجهل بصيرتهم، وسلكوا طريق الظلم والاستبداد وسادوا على الرقاب بكلّ جنون فهبطوا إلى أدنى درجات الرذيلة والانحراف عن الطريق القويم.

إنّ هاتين السمتين الأخلاقيتين (التكبّر والغرور) في الواقع.. نار رهيبة محرقة. فكما أنّ مَنْ صرف وطراً من عمره في بناء وتأثيث دار، لربّما في لحظات معدودات يتحول إلى هباء منثور بسبب شرارة صغيرة.. فالتكبّر والغرور يفعل فعل النّار في الحطب ولا تنفع معه تلك السنين المعمورة بالطاعة والبناء.

فأيُّ درس أنطق من قصة إبليس وأبلغ؟!

إنّ إبليس قد اختلطت عليه معاني الأشياء فراح يضع المعاني حسب تصوراته الخادعة المحدودة ولم يدرك أنّ النّار ليست أفضل وأشرف من التراب، والتراب مصدر جميع البركات كالنباتات والحيوانات والمعادن وهو محلّ حفظ المياه، وبعبارة أشمل هو منبع وأصل كلّ الكائنات الحيّة، وما عمل النّار إلّا الإحراق، وكثيراً ما تكون مخرّبة ومهلكة.

ويصف أمير المؤمنين عليه السلام إبليسَ بأنّه «عدو الله، إمام المتعصبين وسلف المستكبرين» ثمّ يقول: «ألا ترون كيف صغّره الله بتكبره ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً وأعدّ له في الآخرة سعيراً»[1].

---

(١) نهج البلاغة، من الخطبة ١٩٢.

وكما أشرنا سابقاً أنّ إبليس كان أوّل مَنْ وضع أُسس مذهب الجبر الذي ينكره وجدان أي إنسان. حيث إنّ الدافع المهم لأصحاب هذا المذهب تبرئة ساحة المذنبين من أعمالهم المخالفة لشرع الله، وكما قرأنا في الآيات مورد البحث من أنّ إبليس تذرّع بتلك الكذبة الكبيرة لأجل تبرئة نفسه، وأنّه على حق في إضلاله لبني آدم حين قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢ - على مَنْ يتسلط الشيطان؟

نرى من الضروري أن نكرر القول بأنّ نفوذ الوساوس الشيطانية في قلب الإنسان لا تأتي فجأة أو إجباراً، وإنّما بوجود الرغبة الكافية عند الإنسان بفسح المجال أمام دخول الوساوس إلى دواخله، وعلى هذا فالشيطان يعلم تماماً بأنْ ليس له سبيل على المخلصين الذين طهّروا أنفسهم في ظلّ التربية الخالصة من الشوائب والأدران وغسلوا قلوبهم من صدأ الشرك والضلال. وبتعبير القرآن الكريم إنّ رابطة الشيطان مع الضّالين هي رابطة التابع والمتبوع وليست رابطة المُجْبِر والمجبور.

٣ - أبواب جهنّم!

قرأنا في الآيات مورد البحث أنّ لجهنّم سبعة أبواب (وليس بعيداً أن يكون ذكر العدد في هذا المورد للكثرة كما ورد هذا العدد في الآية السابعة والعشرين من سورة لقمان بهذا المعنى أيضاً).

ومن الواضح أنّ تعدد أبواب جهنّم (كما هو تعدد أبواب الجنّة) لم يكن لتسهيل أمر دخول الواردين نتيجة لكثرتهم، بل هي إشارة إلى الأسباب والعوامل المتعددة التي تؤدّي لدخول الناس في جهنّم، وأنّ لكلّ من هذه الذنوب باب معيّن يؤدّي إلى مدركه.

ففي نهج البلاغة: «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه»(١)، وفي الحديث المعروف: «إن السيوف مقاليد الجنّة».. فهذه التعبيرات تبيّن لنا بوضوح ما المقصود من تعدد أبواب الجنّة والنّار.

وثمّة نكتة لطيفة في ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب»(٢)، في حين أنّ الآيات تذكر أنّ لجهنّم سبعة أبواب، وهذا الاختلاف في العددين إشارة إلى أنه

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

(٢) الخصال للشيخ الصدوق - باب الثمانية، ح ٦.

مع كثرة أبواب العذاب والهلاك إلّا أنّ أبواب الوصول إلى السعادة والنعيم أكثر، (وقد تحدثنا عن ذلك في تفسير الآية الثّالثة والعشرين من سورة الرعد).

٤ - (الحمأ المسنون) و(روح الله)

يستفاد من الآيات أنّ خلق الإنسان تمّ بشيئين متغايرين، أحدهما في أعلى درجات الشرف والآخر في أدنى الدرجات (بقياس ظاهر القيمة).

فالطين المتعفن خلق منه الجانب المادي من الإنسان، في حين جانبه الروحي والمعنوي خلق بشيء سُمي (روح الله).

وبديهي أنّ الله سبحانه منزّه عن الجسمية وليس له روح، وإنّما أضيف الروح إلى لفظ الجلالة لإضفاء التشريف عليها وللدلالة على أنّها روح ذات شأن جليل قد أودعت في بدن الإنسان، بالضبط كما تسمّى الكعبة (بيت الله) لجلالة قدرها، وشهر رمضان المبارك (شهر الله) لبركته.

ولهذا السبب نرى أنّ الخط التصاعدي للإنسان يرتفع في العلو حتى يصل الى أن لا يرى سوى الله عزّوجلّ ، وخط تسافله يستمر في الانحطاط حتى يركد في أدنى مرتبة من الحيوانات ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وهذا البون الشاسع بين الخطين التصاعدي والتنازلي بحدّ ذاته دليلٌ على الأهميّة الاستثنائية لهذا المخلوق.

إنّ شرف مقام الإنسان وتكريمه يأتي من خلال هذا التركيب الخاص، ولكن ليس بفضل جنبته المادّية لأنّه ليس سوى ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وإنّما بفضل الروح الإلهيّة المودعة فيه، بما تحمل من استعدادات ولياقة لأن تكون منعكساً للأنوار الإلهيّة، تلك الأنوار التي استمد منها الإنسان شرف قدره ومقامه.. ولا سبيل لتكامل الانسان إلّا ببنائه الروحي ووضع بُعده المادّي في خدمة طريق التكامل والوصول لساحة رضوانه جلّ شأنه.

والمستفاد من الآيات المتعلقة بخلق آدم في أوائل سورة البقرة أنّ مسألة سجود الملائكة لآدم، كان لما أودع فيه من العلم الإلهي الخاص.

وقد أجبنا على سؤال: كيف يصحّ السجود لغير الله؟ - وهل أنّ سجود الملائكة كان في الحقيقة لله عزّوجلّ لأجل هذا الخلق العجيب أم كان لآدم؟ - في تفسير الآيات المتعلقة بخلق آدم في سورة البقرة.

٥ - ما هو الجان؟

إنّ كلمة (الجن) في الأصل بمعنى: الشيء الذي يُسْتَرُ عن حسّ الإنسان، فمثلاً نقول (جَنَّهُ الليلُ) أو (فلما جنَّ عليه الليل) أي عندما غطّته ستارة الليل السوداء، ويقال (مجنون) لمن فقد عقله أيْ سُتِرْ، و(الجنين) للطفل المستور في رحم أُمّه، و(الجنّة) للبستان الذي تغطّي أشجاره أرضه، و(الجِنَان) للقلب الذي سُتِرَ داخل صدر الإنسان، و(الجُنّة) للدرع الذي يحمي الإنسان من ضربات الأعداء.

والمستفاد من آيات القرآن أنّ «الجِنَّ» نوعٌ من الموجودات العاقلة قد سُترت عن حسّ الإنسان، وخُلِقَتْ من النّار، أو من مارج من نار، أيْ من صافي شعلتها، وابليس من هذا الصنف.

وقد عبّر بعض العلماء عن الجنّ بأنّها: نوع من الأرواح العاقلة المجردة من المادة (وواضح أنّ تجردها ليس كاملاً، فما يخلق من المادة فهو مادي، ولكنْ يمكن أن يكون نصف تجرد لأنّه لا يدرك بحواسنا، وبتعبير آخر: إنّه نوع من الجسم اللطيف).

ويستفاد من الآيات القرآنية أيضاً أنّ الجن فيهم المؤمن المطيع والكافر العاصي، وأنّهم مكلفون شرعاً، ومسؤولون.

ومن الطبيعي أنّ شرح هذه الأُمور ومسألة انسجامها مع العلم الحديث يتطلب منّا بحثاً مطوّلاً، وسنتناوله إن شاء الله في تفسير سورة الجن.

وممّا ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد.. أنّ كلمة «الجان» الواردة في الآيات مورد البحث هي من مادة (الجن) ولكن.. هل ترمزان إلى معنى واحد؟ فقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الجان نوع خاص من الجن، ولكننا لا نرى ذلك.

فلو جمعنا الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن مع بعضها البعض لاتضح أنّ كلا المعنيين واحد، لأنّ الآيات القرآنية وضعت «الجن» في قبال الإنسان تارة، ووضعت «الجان» تارة أُخرى.

فمثلاً نقرأ في الآية (٨٨) من سورة الإسراء ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾.

وفي الآية (٥٦) من سورة الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

في حين نقرأ في الآيتين (١٤) و (١٥) من سورة الرحمن ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾.

وفي الآية (٣٩) من نفس السورة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.

فمن مجموع الآيات أعلاه والآيات القرآنية الأُخرى يستفاد بوضوح أنّ الجنّ والجان لفظان لمعنى واحد، ولهذا وردت في الآيات السابقة كلمة «الجن» في مقابل الإنسان، وكذا الحال بالنسبة لـ «الجان».

وينبغي التنويه إلى أنّ القرآن الكريم قد ذكر «الجان» ويريد به نوعاً من الأفاعي كما جاء في قصة موسى عليه السلام: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في سورة القصص الآية (٣١)، إلّا أن ذلك خارج نطاق بحثنا.

٦ - القرآن وخلق الإنسان

شاهدنا في الآيات الآنفة أنّ القرآن قد تناول مسألة خلق الإنسان بشكل مختصر ومكثّف تقريباً، لأنّ الهدف الأساسي من التناول هو الجانب التربوي في الخلق، وورد نظير ذلك في أماكن أُخرى من القرآن، كما في سورة السجدة، والمؤمنون، وسورة ص، وغيرها.

وبما أنّ القرآن الكريم ليس كتاباً للعلوم الطبيعية بقدر ما هو كتاب حياة الإنسان يرسم له فيه أساليب التربية وأسس التكامل. فلا ينتظر منه أن يتناول جزئيات هذه العلوم من قبيل تفاصيل: النمو، التشريح، علم الأجنّة، علم النبات وما شابه ذلك، إلّا أنّه لا يمنع من أن يتطرق بإشارات مختصرة إلى قسم من هذه العلوم بما يتناسب مع البحث التربوي المراد طرحه.

بعد هذه المقدمة نشرع بالموضوع من خلال بحثين:

١ - التكامل النوعي من الناحية العلمية.

٢ - التكامل النوعي وفق المنظور القرآني.

في البدء، نتناول البحث الأوّل وندرس المسألة وفق المقاييس الخاصة للعلوم الطبيعية بعيداً عن الآيات والرّوايات:

ثمّة فرضيتان مطروحتان في أوساط علماء الطبيعة بشأن خلق الكائنات الحيّة بما فيها الحيوانات والنباتات:

ألف: فرضية تطوّر الأنواع (ترانسفور ميسم) والتي تقول: إنّ الكائنات الحيّة لم تكن في البداية على ما هي عليه الآن، وإنّما كانت على هيئة موجودات ذات خليّة واحدة

تعيش في مياه المحيطات، وظهرت بطفرة خاصة من تعرقات طين أعماق البحار.

أيْ أنّها كانت موجودات عديمة الروح، وقد تولّدت منها أوّل خليّة حيّة نتيجة لظروف خاصّة.

وهذه الكائنات الحيّة لصغرها لا ترى بالعين المجرّدة وقد مرّت بمراحل التكامل التدريجي وتحوّلت من نوع إلى آخر.

وتمّ انتقالها من البحار إلى الصحاري ومنها إلى الهواء.. فتكوّنت بذلك أنواع النباتات والحيوانات المائية والبريّة والطيور.

وإنّ أكمل مرحلة وأتمّ حلقة لهذا التكامل هو الإنسان الذي نراه اليوم، الذي تحوّل من موجودات تشبه القرود إلى القرود التي تشبه الإنسان ثمّ وصل إلى صورته الحالية.

ب: فرضية ثبوت الأنواع (فيكنسيسم)، والتي تقول: إنّ أنواع الكائنات الحيّة منذ بدايتها وما زالت تحمل ذات الأشكال والخواص، ولم يتغير أي من الأنواع إلى نوع آخر، ومن جملتها الإنسان فكان له صورته الخاصّة به منذ بداية خلقه.

وقد كتب علماء كلا الفريقين بحوثاً مطوّلة لإثبات عقيدتهم، وجرت مناظرات ومنازعات كثيرة في المحافل العلمية حول هذه المسألة، وقد اشتد النزاع عندما عرض كلّ من (لامارك) العالم الفرنسي المعروف المتخصص بعلوم الأحياء والذي عاش بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، و(داروين) عالم الاحياء الإنكليزي الذي عاش في القرن التاسع عشر، نظريتهما في مسألة تطوّر الأنواع بأدلة جديدة.

وممّا ينبغي التنوية إليه، هو أنّ معظم علماء اليوم يميلون إلى فريضة تطوّر أو تكامل الأنواع هذه خصوصاً في محافل العلوم الطبيعية.

أدلة القائلين بالتكامل

يمكننا تلخيص أدلتهم في ثلاثة أقسام:

الأوّل: الأدلة المأخوذة من الهياكل العظمية المتحجّرة للكائنات الحيّة القديمة فإنّ الدراسات لطبقات الأرض المختلفة (حسب اعتقادهم) تُظهر أنّ الكائنات الحيّة قد تحوّلت من صور بسيطة إلى أُخرى أكمل وأكثر تعقيداً، ولا يمكن تفسير ما عثر عليه من متحجّرات الكائنات الحيّة إلّا بفرضية التكامل هذه.

الثّاني: مجموع القرائن التي جمعت في (التشريح المقارن).

ويؤكّد هؤلاء العلماء عبر بحوثهم المطوّلة المفصّلة: إنّنا عندما نشرّح الهياكل

العظمية للحيوانات المختلفة ونقارنها فيما بينها، نجد أنّ ثمّة تشابهاً كبيراً فيما بينها، ممّا يشير إلى أنّها جاءت من أصل واحد.

الثّالث: مجموع القرائن التي حُصِلَ عليها من (علم الأجنّة).

فيقولون: إنّنا لو وضعنا جميع الحيوانات في حالتها الجنينية - قبل أن تأخذ شكلها الكامل - مع بعضها، فسنرى أنّ الأجنَّة قبل أن تتكامل في رحم أُمهاتها أو في داخل البيوض تتشابه إلى حدٍّ كبير.. وهذا ما يؤكّد على أنّها قد جاءت في الأصل من شيء واحد.

أجوبة القائلين بثبوت الأنواع

إلاّ أنّ القائلين بفرضيّة ثبوت الأنواع لديهم جوابٌ واحد لجميع أدلة القائلين بالتكامل وهو: أنّ القرائن المذكورة لا تملك قوّة الإقناع، والذي لا يمكن إنكاره أنّ الأدلة الثلاثة توجد في الذهن احتمالاً ظنيّاً لمسألة التكامل، إلّا أنّها لا تقوى أن تصل إلى حال اليقين أبداً.

وبعبارة أوضح: إنّ إثبات فرضيّة التكامل وانتقالها من صورة فرض علمي إلى قانون علمي قطعي.. إمّا أن يكون عن طريق الدليل العقلي، أو عن طريق الحسّ والتجربة والاختبار، ولا ثالث لها.

أمّا الأدلة العقلية والفلسفية فليس لها طريق إلى هذه المسائل كما نعلم، وأمّا يد التجربة والاختبار فأقصر من أن تمتد إلى مسائل قد امتدت جذورها إلى ملايين السنين.

إنّ ما ندركه بالحس والتجربة لا يتعدى بعض الحالات السطحية، ولفترة زمنية متباعدة، على شكل طفرة وراثية (موتاسيون) في كلّ من الحيوان والنبات.

فمثلاً.. نرى أحياناً في نسل الأغنام العادية ولادة مفاجئة لخروف ذي صوف يختلف عن صوف الخراف العادية، فيكون أنعم وأكثر ليناً من العادية بكثير، فيكون بداية لظهور نسل جديد يسمّى (أغنام مرينوس).

أو أنّ حيوانات تحصل فيها الطفرة الوراثية فيتغير لون عيونها أو أظفارها أو شكل جلودها وما شابه ذلك.. لكنّه لم يشاهد لحدّ الآن طفرة تؤدّي إلى حصول تغيير مهم في الأعضاء الأصلية لبدن أيّ حيوان، أو يتبدل نوع منها إلى نوع آخر.

بناء على ذلك.. يمكننا أنْ نتخيّل أنّ نوعاً من الحيوان يتحوّل إلى نوع آخر بطريق

تراكم الطفرة الوراثية، كأن تتحول الزواحف إلى طيور ولكنّ ذلك ليس سوى حدس ومجرّد تخيّل لا غير، ولم نر الطفرات الوراثية قد غيّرت عضواً أصلياً لحيوان ما إلى صورة أُخرى.

نخلص ممّا تقدم إلى النتيجة التالية: إنّ الأدلة التي يطرحها أنصار فرضية (الترانسفور ميسم) لا تتجاوز كونها فرضاً لا غير، لذا نرى أنصارها يعبّرون عنها بـ(فرضية تطوّر الأنواع) ولم يجرؤ أيٌّ منهم من تسميتها بالقانون أو الحقيقة العلمية.

نظرية التكامل و... الإيمان بالله

الكثير ممّن يحاولون تصوير نوع من التضاد بين هذه الفرضية ومسألة الإيمان بالله، ولعلّ الحق يعطى لهم من جهة، حيث إنّ العقيدة الداروينية في واقعها قد أوجدت حرباً شعواء بين أصحاب الكنيسة من جانب ومؤيدي داروين من جانب آخر، حتى وصل الصراع ذروته بين الطرفين في تلك الفترة بعدما لعب الظرف السياسي وكذا الاجتماعي دورهما (ممّا لا يسع المجال لشرح ذلك هنا)، فكانت النتيجة أن اتهم أصحاب الكنيسة الداروينيةَ بأنّها لا تنسجم مع الإيمان بالله.

وقد كشفت الأيّام عن عدم وجود تضاد بين الأمرين، فإنّنا سواء قبلنا بفرضية التكامل أو نفيناها لفقدانها الدليل، فلا يمنع من الإيمان بالله في كلا الاحتمالين.

فإذا قبلنا بالفرضية فلكونها قانوناً علمياً مبنيّاً على العلّة والمعلول، ولا فرق في العلاقة بين العلّة والمعلول في عالم الكائنات الحيّة وبقية الموجودات، فهل يعتبر اكتشاف العلل الطبيعية من قبيل نزول الأمطار، المد والجزر في البحار، الزلازل وما شابهها، مانعاً من الإيمان بالله؟ الجواب بالنفي قطعاً، إذن فاكتشاف وجود رابطة وعلاقة تكاملية بين أنواع الموجودات الحيّة لا يؤدّي إلى تعارض مع مسألة الإيمان بالله كذلك.

إذن، فالأشخاص الذين يتصورون أنّ كشف العلل الطبيعية ينافي الإيمان بوجود الله هم الذين يذهبون هذا المذهب، وإلاّ فإنّ كشف هذه العلل ليس فقط لا يتعارض مع التوحيد، وإنّما سيعطينا أدلة جديدة من عالم الخليقة لإثبات وجوده سبحانه وتعالى.

وممّا ينبغي ذكره: أنّ داروين قد تبرأ من تهمة الإلحاد وصرّح في كتابه (أصل الأنواع) قائلاً: إنّني مع قبولي لتكامل الأنواع فإنّي أعتقد بوجود الله، وأساساً فإنّه بدون الاعتقاد بوجود الله لا يمكن توجيه مسألة التكامل.

وقد كُتب عن داروين بما نصه: «إنّه بقي مؤمناً بالله الواحد رغم قبوله بالعلل الطبيعية في ظهور الأنواع المختلفة من الأحياء، وقد كان إحساسه بوجود قدرة ما فوق البشر يشتد في أعماقه كلّما تقدّم في السن، معتبراً أنّ لغز الخلق يبقى لغزاً محيّراً للإنسان»(١).

كان يعتقد أن توجيه هذا التكامل النوعي المعقّد والعجيب، وتحويل كائن حي بسيط جدّاً إلى كل هذه الأنواع المختلفة من الأحياء لا يتمّ إلّا بوجود خطّة دقيقة يضعها ويسيّرها عقل كلّي.

وهو كذلك.. إذ كيف يمكن إيجاد كلّ هذه الأنواع العجيبة والمحيّرة والتي لكلّ منها تفصيلات وشؤون واسعة، من مادة واحدة بسيطة جدّاً وحقيرة... كيف يمكن ذلك بدون الاستناد على علم وقدرة مطلقين؟!

النتيجة: إنّ الضجّة المفتعلة في وجود تضاد بين عقيدة التكامل النوعي وبين مسألة الإيمان بالله إنّما هي بلا أساس وفاقدة للدليل (سواء قبلنا بالفرضية أو لم نقبلها).

تبقى أمامنا مسألة جديرة بالبحث وهي: هل أنّ فرضية تطور الأنواع تتعارض مع ما ذكره القرآن حول قصة خلق آدم، أو لا؟

القرآن ومسألة التكامل

الجدير بالذكر أنّ كلاً من مؤيدي ومنكري فرضية التكامل النوعي - نعني المسلمين منهم - قد استدل بآيات القرآن الكريم لإثبات مقصوده، ولكنّهما في بعض الأحيان وتحت تأثير موقفهما قد استدلا بآيات لا ترتبط بمقصودهما إلّا من بعيد، ولذلك سنتطرق إلى الآيات القابلة للبحث والمناقشة.

أهم آية يتمسك بها مؤيدو الفرضية، الآية الثّالثة والثلاثون من سورة آل عمران ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فيقولون: كما أنّ نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران كانوا يعيشون ضمن أُممهم فاصطفاهم الله من بينهم فكذلك آدم، أي ينبغي أنّه كان في عصره وزمانه أناس باسم ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاصطفاه الله من بينهم، وهذا يشير إلى أنّ آدم لم يكن أوّل إنسان على وجه الأرض، بل كان قبله أناس آخرون، ثمّ امتاز آدم من بينهم بالطفرة الفكرية والروحية فكانت سبباً لاصطفائه من دونهم.

---

(١) الداروينية، تأليف محمود بهزاد، ص ٧٥ و٧٦.

هذا وذكروا آيات أُخر ولكنّها من حيث الأصل لا ترتبط بمسألة البحث، ولا يعدو تفسيرها بالتكامل أن يكون تفسيراً بالرأي، وهناك آيات قرآنية يمكن الاستدلال بها لكلا المعنيين، فالسياق ينسجم مع التكامل النوعي وينسجم كذلك مع الثبوت النوعي والخلق المستقل لآدم ولهذا ارتأينا صرف النظر عنها.

أمّا ما يؤخذ على هذا الاستدلال فهو أنّ كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنْ كانت بمعنى الناس المعاصرين لآدم عليه السلام وأنّ الاصطفاء كان من بينهم، كان ذلك مقبولاً، أمّا لو اعتبرنا ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أعم من المعاصرين لآدم، حيث تشمل حتى غير المعاصرين، كما روي في الحديث المعروف عن النّبي صلى الله عليه وآله في فضل فاطمة عليها السلام حيث قال: «أمّا إبنتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين»، ففي هذه الحال سوف لا تكون لهذه الآية دلالة على مقصودهم، وهو شبيه بقول قائل: إنّ الله تعالى اصطفى عدّة أشخاص من بين الناس جميعاً في كلّ القرون والأزمان، وآدم عليه السلام أحدهم، وعندها سوف لا يكون لازماً وجود أناس في زمان آدم كي يطلق عليهم اسم ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويصطفى آدم من بينهم، وخصوصاً أنّ الاصطفاء إلهي، والله عزّ وجلّ مطّلع على المستقبل وعلى كافّة الأجيال في كلّ الأزمان[1].

وأمّا مؤيدو ثبوت الأنواع فقد اختاروا الآيات مورد البحث وما شابهها، حيث تقول: إنّ الله تعالى خلق الإنسان من تراب من طين متعفن.

ومن الملفت للنظر أنّ هذا التعبير قد ورد في صفة خلق ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ - الآية السادسة والعشرون من سورة الحجر.، وأيضاً في صفة خلق «البشر» ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ - الآية الثامنة والعشرون من سورة الحجر -، وفي مسألة سجود الملائكة بعد خلق شخص آدم أيضاً (لاحظ الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١ من سورة الحجر).

عند الملاحظة الأُولى للآيات يظهر أنّ خلق آدم كان من الحمأ المسنون أوّلاً، ومن ثمّ اكتملت هيئته بنفخ الروح الإلهيّة فيه فسجد له الملائكة إلّا إبليس.

ثمّ إنّ أُسلوب تتابع الآيات لا ينمّ عن وجود أيٍّ من الأنواع الأُخرى منذ أن خلق آدم من تراب حتى الصورة الحالية لبنيه.

---

(١) وهناك احتمال آخر وهو: أن اصطفاء آدم من بين أولاده بعد أن مرّت عليهم مدّة ليست بالطويلة، فتشكل من بينهم مجتمع صغير.

وعلى الرغم من استعمال الحرف ﴿ثُمَّ﴾ في بعض من هذه الآيات لبيان الفاصلة بين الأمرين، إلّا أنّه لا يدل أبداً على مرور ملايين السنين ووجود آلاف الأنواع خلال تلك الفاصلة.

بل لا مانع إطلاقاً من كونه إشارة إلى نفس مرحلة خلق آدم من الحمأ المسنون، ثمّ مرحلة خلقه من الصلصال، فخلق بدن آدم، ونفخ الروح فيه.

وذلك ما نلاحظه في استعمال ﴿ثُمَّ﴾ في مسألة خلق الإنسان في عالم الجنين والمراحل التي يطويها.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ... ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾(١).

فهذه الآية المباركة تدلل على أنّ استعمال ﴿ثُمَّ﴾ يعبّر عن وجود فاصلة ليس من الضروري أن تكون طويلة، فيمكن كونها فاصلة طويلة أو قصيرة.

وخلاصة ما ذكر: أنّ الآيات القرآنية وإن لم تتطرق مباشرة لمسألة التكامل النوعي أو ثبوت الأنواع، لكنّ ظاهرها (في خصوص الإنسان) ينسجم مع مسألة الخلق المستقل، ولكن من دون تصريح لأنّ أكثر ما يدور ظاهر الآيات حول الخلق المستقل المباشر، أمّا ما يتعلق بخلق سائر الأحياء (من غير الإنسان) فقد سكت القرآن عنه.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

نِعَمُ الجنّة الثّمان

رأينا في الآيات السابقة كيف وصف الله تعالى عاقبة أمر الشيطان وأنصاره وأتباعه، وأنّ جهنم بأبوابها السبعة مفتحة لهم.

وجرياً على أسلوب القرآن في التربية والتعليم جاءت هذه الآيات المباركات (ومن

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

باب المقارنة) لترفع الستار عن حال الجنّة وأهلها وما ترفل به من نعم مادية ومعنوية، جسدية وروحية.

وقد عرضت الآيات ثماني نعم كبيرة (مادية ومعنوية) بما يساوي عدد أبواب الجنّة.

١ - أشارت في البدء إلى نعمة جسمانية مهمّة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ويلاحظ أنّ هذه الآية قد اتخذت من صفة (التقوى) أساساً لها، وهي الخوف من الله والورع والالتزام، فهي إذن... جامعة لكافّة صفات الكمال الإنساني.

إنّ ذكر الجنّات والعيون بصيغة الجمع إشارة إلى تنوّع رياض الجنّة وكثرة عيونها، والتي لكلّ منها لذّة مميزة وطعم خاص.

٢ و٣ - ثمّ تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمّتين أخريتين (السلامة) و(الأمن).. السلامة من أيّ أذىً وألم، والأمن من كلّ خطر، فتقول - على لسان الملائكة مرحّبة بهم -: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

وفي الآية التّالية بيان لثلاث نعم معنوية أُخرى:

٤ - ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أيْ: الحسد والحقد والعداوة والخيانة[1].

٥ - ﴿إِخْوَٰنًا﴾ تربطهم أقوى صلات المحبّة.

٦ - ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[2].

إن جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التي يُعاني منها عالمنا الدنيوي، فلا طبقية ولا ترجيح بدون مرجّح والكلّ إخوان، يجلسون متقابلين في صف واحد ومستوى واحد.

وبطبيعة الحال، فهذا لا ينافي تفاوت مقاماتهم ودرجاتهم الحاصلة من درجة الإيمان والتقوى في الحياة الدنيا، ولكنّ ذلك التساوي إنّما يرتبط بجلساتهم الاجتماعية.

٧ - ثمّ تأتي الإشارة إلى النعمة المادية والمعنوية السابعة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ إنّه ليس كيوم استراحة بهذه الدنيا يقع بين تعب ونصب قبله وبعده، ولا يدع الإنسان يجد طعم الراحة والاستقرار.

---

(١) «الغل» في الأصل بمعنى النفوذ الخفي للشيء، ولهذا يطلق على الحسد والحقد والعداوة التي تنفذ بخفاء في نفس الإنسان، فالغل مفهوم واسع يشمل الكثير من الصفات الأخلاقية القبيحة.

(٢) «السّرر» جمع سرير، وهي المقاعد التي يجلسون عليها في جلسات سهرهم. (علماً بأنّ كلّاً من سرر وسرير من مادة واحدة).

٨ - ولا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نِعَم ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليلة التي ينالها المتّقون في الجنّة بذلك الرونق المؤثّر الذي يوقع المذنبين والعاصين في بحار لجّية من الغمّ والحسرة ويجعلهم يقولون: يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح الله الرحمن الرحيم أبواب الجنّة لهم ولكن بشرط، فيقول لهم بلهجة ملؤها المحبّة والعطف والرحمة وعلى لسان نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

إنّ كلمة ﴿عِبَادِيَ﴾ لها من اللطافة ما يجذب كلّ إنسان، وحينما يختم الكلام بـ ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يصل ذلك الجذب إلى أوج شدّته المؤثّرة.

وكما هو معهود من الأسلوب القرآني، تأتي العبارات العنيفة حين تتحدث عن الغضب والعذاب الإلهي لتمنع من سوء الاستفادة من الرحمة الإلهيّة، ولتوجد التعادل بين مسألتي الخوف والرجاء، الذي يعتبر رمز التكامل والتربية فيقول وبدون فاصلة: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

بحوث

١ - رياض وعيون الجنّة

إنّ فهم واستيعاب أبعاد النعم الإلهيّة التي تزخر بها الجنّة ونحن نعيش في هذا العالم الدنيوي المحدود، يعتبر أمراً صعباً جدّاً، بل ومن غير الممكن، لأنّ نعم هذا العالم بالنسبة لنعم الآخرة كنسبة الصفر إلى رقم كبير جدّاً.. ومع ذلك فلا يمنع من أن نحسّ ببعض أشعّتها بفكرنا وروحنا.

إنّ القدر المسلّم بهذا الخصوص، هو أنّ النعم الأخروية متنوعة جدّاً، وينطق بهذه الحقيقة التعبير بالـ «جنات» في الآيات المتقدمة وغيرها من الآيات الأُخر، وكذلك التعبير بالـ «عيون».

لقد ورد في القرآن الكريم (في سور الإنسان، الرحمن، الدخان، محمد وغيرها) إشارة إلى أنواع مختلفة من هذه العيون، وأُشير إلى تنوعها بإشارات صغيرة، ولعلّ ذلك تصوير لأنواع الأعمال الصالحة في هذا العالم، وسنشير إلى هذا الأمر إن شاء الله عند تفسيرنا لهذه السور.

٢ - النّعم المادية وغير المادية

على خلاف ما يتصور البعض. . فإنّ القرآن لم يبشّر الناس دائماً بالنعم المادية للجنّة فقط، بل تحدّث مراراً عن النعم المعنوية أيضاً، والآيات مورد البحث نموذج واضح لذلك حيث نرى أنّ أوّل ما يواجه أهل الجنّة هناك هو الترحيب والبشارة من الملائكة لأهل الجنّة عند دخولهم فيها ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

ومن النعم الروحية الأُخرى التي أشارت إليها هذه الآيات. . تطهير الصدور من الأحقاد وكلّ الصفات المذمومة كالحسد والخيانة وما شابهها، والتي تذهب بروح الأخوّة.

وكذلك حذف الاعتبارات والامتيازات الاجتماعية المغلوطة التي تخدش استقرار فكر وروح الإنسان، وهو ما ذكره في وصف جلساتهم.

ومن نافلة القول. . أنّ (السلامة) و(الأمن) المجعولتين على رأس النعم الأخروية، هما أساس لكلّ نعمة أُخرى، ولا يمكن الاستفادة الكاملة من أيّة نعمة بدونهما وهذا ما ينطبق حتى على الحياة الدنيا، فالأمن والسلام أساس لكلّ نعيم ورخاء وإلاّ فلا.

٣ - الحقد والحسد عدوّا الأخوّة

من لطيف ما يلاحظ في هذه الآيات أنّها بعد أن ذكرت نعمة السلامة والأمن، وقبل أن تتعرض لبيان حال الأخوّة والألفة التي سيكون عليها أهل الجنّة، أشارت إلى مسألة نزع الصفات المانعة للأخوّة، كالحقد والحسد والغرور والخيانة، جامعة كلّ ذلك بكلمة «الغل» ذات المفهوم الواسع.

وفي الحقيقة، إنّ قلب الإنسان ما لم يطهر من هذا «الغل» فسوف لا تتحقق نعمة السلامة والأمن ولا الأخوّة والمحبّة، بل الحروب والمظالم والمجابهات والصراعات على الدوام، وهو ما يؤدّي إلى قلع جذور الأخوّة والسلامة والأمن من الحياة.

٤ - الجزاء الكامل

يقول بعض المفسّرين: إنّ الجزاء لا يكتمل إلّا بأربعة أُمور: منافع وفيرة، أن تكون مقرونة بالاحترام، خالية من أيّ ألم، دائمة وخالدة.

وقد أشارت الآيات مورد البحث إلى هذه الأُمور الأربعة. . .

فعبارة ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ إشارة إلى المنفعة الأُولى.

وعبارة ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ دليل على الاحترام والتقدير.

وعبارة ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ إشارة إلى نفي أي نوع من الآلام والمعاناة الروحية (النفسية).

وعبارة: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ إشارة إلى نفي الآلام الجسمانية.

أمّا عبارة ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ فهي حاكية عن آخر شرط، وهو دوام وبقاء النعم. وبهذا يكون هذا الجزاء والثواب كاملاً من كلّ الجهات[1].

٥ - تعالوا لنجعل من هذه الدنيا جنّة

إنّ النعم المادية والروحية الأخروية التي صوّرتها الآيات السابقة في حقيقتها تشكّل أصول النعم لهذا العالم، ولعلّ القرآن الكريم يريد أن يفهمنا بأنّنا يمكن أن نوجد جنّة صغيرة في حياتنا تكون شبيهة بتلك الجنّة الكبيرة، فيما لو استطعنا أن نوفر شرائطها المطلوبة اللازمة.

فلو طهّرنا قلوبنا من الحقد والعداوة.

وقوّينا بيننا روابط الأخوّة والمحبّة.

وحذفنا من حياتنا تلك الاعتبارات وأشكال الترف الزائدة والمفرّقة.

وإذا ما عملنا لتحقيق الأمن والسلام في مجتمعنا.

وإذا أدرك الناس بأنّه لا استعباد ولا استغلال ولا طبقية فيما بينهم... فإنّنا - والحال هذه - سنكون في جنّة الحياة الدنيا!!

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ
وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن
مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ
﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ
أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا
لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج١٩، ص١٩٣.

التّفسير

الضّيوف الغرباء...!

تتحدث هذه الآيات المباركات وما بعدها عن الجنبة التربوية في تاريخ حياة الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، وتطرح الآيات نماذج حيّة للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد الله المخلصين من طرف وأتباع الشيطان من طرف آخر).

ومن لطيف البيان القرآني شروع الآيات بذكر قصّة ضيف إبراهيم (وهم الملائكة الذين جاؤوا بهيئة البشر وبشّروه بولد جليل الشأن ومن ثمّ أخبروه عن أمر عذاب قوم لوط).

فقد جاء في الآيتين السابقتين أمر الله إلى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بتبيان سعة رحمة الله للناس مع تبيان أليم عذابه، ويطرح في هذه القصّة نموذجين حيّين لهاتين الصفتين، وبذلك تتبيّن صلة الربط بين هذه الآيات.

فتقول أوّلاً: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

فكلمة ﴿ضَيْفِ﴾ جاءت بصيغة المفرد، ولا مانع من ذلك حيث ذهب بعض كبار المفسّرين إلى أنّ ﴿ضَيْفِ﴾ تستعمل مفرداً وجمعاً.

وهؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم عليه السلام بوجوه خالية من الابتسامة، فابتدأوه بالسلام ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾.

فقام إبراهيم عليه السلام بوظيفته (إكرام الضيف)، فهيّأ لهم طعاماً ووضعه أمامهم، إلّا أنّهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبّر عمّا جال في خاطره ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[1].

وكان مصدر خوف إبراهيم عليه السلام ممّا كان عليه متعارفاً في مسألة ردّ الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود نيّة سوء أو علامة عداء.

ولكنّ الملائكة لم يتركوا ابراهيم في هذه الحال حتى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

---

(١) إنّ الآيات مورد البحث لم تذكر هذا التفصيل في تهيئة الطعام وعدم مد أيديهم إليه، إلاّ أنّ ذلك ورد في الآيتين (٦٩) و(٧٠) من سورة هود فليراجع.

مَنْ هو المقصود بالغلام العليم؟

يبدو من خلال متابعة الآيات القرآنية أنّ المقصود هو (إسحاق)، حيث نقرأ في سورة هود، الآية (٧١) أنّ امرأة إبراهيم كانت واقفة بقربه عندما بشّرته الملائكة، ويظهر كذلك أنّها كانت امرأة عاقراً فبشّروها أيضاً ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾.

وكما هو معروف فإنّ سارة، هي أم إسحاق، ولإبراهيم عليه السلام ولد آخر أكبر من إسحاق واسمه (إسماعيل) من (هاجر) - الأمَة التي تزوجها إبراهيم.

كان إبراهيم يعلم جيّداً أنّه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (ومع أنّ كلّ شيء مقدور لله عزّ وجلّ)، ولهذا أجابهم بصيغة التعجب: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ .. هل البشارة منكم أم من اللّه عزّ وجلّ وبأمره، أجيبوني كي أزداد اطمئناناً؟

إنّ تعبير ﴿مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ إشارة الى ما كان يجده من بياض في شعره وتجاعيد في وجهه وبقية آثار الكبر فيه.

ويمكن لأحد أن يشكل: بأنّ إبراهيم عليه السلام قد سبق بحالة مشابهة حينما ولد له إسماعيل عليه السلام وهو في الكبر.. فلِمَ التعجب من تكرار ذلك؟

والجواب، أوّلاً: كان بين ولادة إسماعيل وإسحاق (على ما يقول بعض المفسّرين) أكثر من عشر سنوات، وبذلك يكون تكرار الولادة مع مضي هذه المدّة ضعيف الاحتمال.

وثانياً: إنّ حدوث ووقوع حالة مخالفة للموازين الطبيعية مدعاة للتعجب، وإذا ما تكررت فلا يمنع من التعجب لحدوثها وتكرارها مرّة أُخرى.

فولادة مولود جديد في هكذا سن أمر غير متوقع، وإذا ما وقع فهو غريب وعجيب في كلّ الأحوال[1].

وعلى أيّة حال... لم يدع الملائكة مجالاً لشك وتعجب إبراهيم حيث ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ فهي بشارة من الله وبأمره، فهي حقٌّ مُسَلَّمٌ به.

وتأكيداً للأمر ودفعاً لأي احتمال من غلبة اليأس على إبراهيم، قالت الملائكة: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾.

---

(١) يذكر بعض المفسّرين أن عمر إبراهيم عليه السلام عند ولادة ابنه إسماعيل كان (٩٩) عاماً، وعند ولادة إسحاق كان عمره (١١٢) عاماً.

لكنّ إبراهيم عليه السلام طمأنهم بعدم دخول اليأس إلى قلبه، لأنّه مطمئن من أنّ أمر القدرة الإلهيّة نافذ في جميع أرجاء الكون حتى مع خرق النواميس الطبيعية وبدون الخلل في الموازنة، ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

إنّ الضالين هم الذين لا يعرفون الله وقدرته المطلقة، الله الذي خلق الإنسان ببنائه العجيب المحيّر من ذرّة تراب ومن نطفة حقيرة ليخرجه ولداً سويّاً، الله الذي حوّل نخلة يابسة الى حاملة للثمر بإذنه، الله الذي جعل النّار برداً وسلاماً.. هل من شك بأنّه سبحانه قادر على كلّ شيء، بل وهل يصح ممن آمن به وعرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته!؟!

وراود إبراهيم عليه السلام - بعد سماعه البشارة - أنّ الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشارة، وما البشارة إلّا مهمّة عرضية ضمن مهمّتهم الرئيسية، ولهذا ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ومع علم الملائكة بإحساس إبراهيم عليه السلام المرهف وأنّه دقيق في كلّ شيء ولا يقنع بالعموميات، فبيّنوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إنّ ظاهر تعبير ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ وما ورد من تأكيد بكلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ سيشمل امرأة لوط الضّالة التي وقفت في صف المشركين، ولعلّ إبراهيم كان مطلعاً على ذلك، ولذا أضافوا قائلين: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

و﴿قَدَّرْنَآ﴾ إشارة إلى المهمّة التي كُلّفوا بها من الله عزّ وجلّ .

هذا وقد بحثنا قصّة نزول الملائكة على إبراهيم عليه السلام وتبشيره بإسحاق عليه السلام وحديثهم معه بشأن قوم لوط عليه السلام مفصّلاً في تفسيرنا للآيتين (٦٩ و٧٠) من سورة هود من هذا التّفسير.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ
بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ
﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾

التفسير

عاقبة مذنبي قوم لوط

طالعتنا الآيات السابقة بقصّة اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء وبين إبراهيم عليه السلام، وهذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصّة فتبتدئ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السلام.

فنقرأ أوّلاً: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

فالتفت إليهم لوط ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾.

يقول المفسّرون: قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصورة وريعان الشباب، وهو يعلم ما كان متفشياً بين قومه من الانحراف الجنسي.. فمن جهة، هم ضيوفه ومقدمهم مبارك ولابدّ من إكرامهم واحترامهم، ولكنّ المحيط الذي يعيشه لوط عليه السلام مريض وملوّث.

ولهذا ورد تعبير ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ في الآيات المتعرّضة لقصّة قوم لوط في سورة هود، أي إنّ هذا الموضوع كان صعباً على نبيّ الله وقد اغتمّ لقدومهم لتوقعه يوماً عصيباً!

ولكنّ الملائكة لم يتركوه وهذه الهواجس طويلاً حتى سارعوا إلى القول: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، أيْ إنّنا جئنا بالعذاب الذي واعدتهم به كثيراً، وذلك لأنّهم لم يعتنوا ولم يصدّقوا بما ذكرته لهم.

ثمّ أكّدوا له قائلين: ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي العذاب الحتمي والجزاء الحاسم لقومك الضالين.

ثمّ أضافوا لزيادة التأكيد: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

فهؤلاء القوم قد قطعوا كلّ جسور العودة ولم يبق في شأنهم محلاً للشفاعة والمناقشة، كي لا يفكّر لوط في التشفّع لهم وليعلم أنّهم لا يستحقونها أبداً.

ثمّ قالت الملائكة للوط: اخرج وأهلك من المدينة ليلاً حين ينام القوم أو ينشغلوا بشرابهم وشهواتهم، لأجل نجاة الثلّة المؤمنة من قومه (وهم أهله ما عدا زوجته).

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وكن خلفهم كي لا يتخلف أحد منهم ولتكون محافظاً ورقيباً لهم ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وعلى أن يكون نظركم إلى الأمام ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، أي إلى أرض الشام، أو أيّ مكان آخر يكون فيه الناس مطهّرين من هذه الآثام.

ثمّ ينتقل مجرى الحديث حين يقول تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، أي سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.

ومن الملفت للنظر، أنّ القرآن قد ترك القصّة عند هذا الحدّ وعاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه - لسبب سنشير إليه فيما بعد - فيقول: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي إنّهم قد ظنوا بحصول لقمة جديدة سائغة عن طريق ضيوف لوط!

إنّ تعبير ﴿أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ يوحي إلى أنّ الذين تحرّكوا صوب منزل لوط عليه السلام كانوا جمعاً كبيراً، وهو ما يوضّح بجلاء تلك الوقاحة والقبح والجسارة التي كانوا عليها، وخصوصاً قوله ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ التي تحكي عمق تلوّثهم بذلك الدرك السافل، مع أنّ مثل هذا الفعل القبيح ربّما لا يشاهد حتى بين الحيوانات، وإذا ما ابتلي به إنسان (والعياذ بالله) فإنّه سوف يحاول كتمه وإخفاءه، حيث إنّ الإتيان به مدعاة للتحقير والازدراء من قبل الآخرين.. أمّا قوم لوط، فكانوا مستبشرين بذلك الصّيد الجديد وكلّ يهنّئ الآخر على ما سيصيبه من نصيب!!

وحينما سمع لوط أصواتهم وضجيجهم اغتمّ غمّاً شديداً لأجل ضيوفه، لأنّه ما كان يدري أنّهم ملائكة العذاب إلى ذلك الوقت ولهذا ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾.

أي... إن كنتم لا تؤمنون بالله ولا تصدّقون بالنّبي ولا تعتقدون بثواب وعقاب، فراعوا حق الضّيافة التي هي من السنن المتعارف عليها عند كلّ المجتمعات سواء كانت مؤمنة أم كافرة، أيّ بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانية، فإنْ لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم!

ثمّ أضاف قائلاً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾[1] أمام ضيفي.

ولكنّهم من الوقاحة والإصرار على الانحراف بحيث صاروا لا يشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا يحاججون لوطاً ويحاسبونه، وكأنّه ارتكب جرماً في استضافته لهؤلاء القوم ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، باستضافتهم! فلماذا خالفت أمرنا؟!

وكان قوم لوط من البخل بحيث إنّهم لا يحبّون الضيافة، وكانت مدينتهم على طريق القوافل، ويبررون فعلهم القبيح ببعض الواردين لدفع الضيوف ولأجل أن لاينزل عندهم أحد من القوافل المارّة، وتعارفوا على ذلك حتى أصبح عندهم عادة.

وكما يبدو أنّ لوطاً كان حينما يسمع بأحد الغرباء يدخل المدينة يسرع لاستضافته خوفاً عليه من عمل قومه الخبيث، ولمّا علم أهل المدينة بذلك جاؤوا إليه غاضبين ونهوه عن أن يستضيف أحداً مستقبلاً.

وعليه، فكلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ في الآية أعلاه - كما يبدو - إشارة إلى عابري السبيل، ومن هم ليسوا من أهل تلك المدينة.

أمّا الخزي: فهو بمعنى الإبعاد وكذلك بمعنى الخجل (وأراد لوط أن يقول لهم: لا تخجلوني أمام ضيوفي وتباعدوا بيني وبينهم).

وعندما رآهم لوط على تلك الحال من الوقاحة والجسارة، أتاهم من طريق آخر لعلّهم يستفيقون من غفلتهم وسكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلماذا تسلكون سبيل الانحراف ولا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج) ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

ممّا لا شك فيه أنّ بنات لوط لا يكفين لذلك العدد الهائل من المتحجّرين حول داره، ولكن لوطاً الذي كان يهدف إلى إلقاء الحجّة عليهم أراد أن يقول لهم: إنّني مستعد إلى هذه الدرجة للتضحية من أجل الضيف، وكذلك لأجل إنقاذهم من الفساد ونجاتهم من الانحراف.

---

(١) نرى في هذه الآيات أن لوطاً يطلب من قومه أن لا يفضحوه تارة وألاّ يخزوه تارة أُخرى، الفضيحة لغة بمعنى: انكشاف شيء، وظهور العيب أيضاً (وأراد لوط أن يفهمهم بأنّ عملكم القبيح هذا سيخجلني أمام ضيوفي ويعرفوا مدى خباثة أهل مدينتي).
أما «الخزي» فهو بمعنى الإبعاد وكذلك بمعنى الخجل (وأراد لوط أن يقول لهم: لا تخجلوني أمام ضيوفي وتباعدوا بيني وبينهم).

وذهب البعض إلى أنّ المقصود من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ كل بنات المدينة، باعتباره أباً روحياً للجميع. (إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى معنى الآية).

وليس بخافٍ أنّ لوطاً ما كان ليزوّج بناته من أُولئك المشركين الضّالين، ولكنّه أراد أن يقول لهم: تعالوا آمنوا لأزوجكم بناتي.

لكنّ الويل، كلّ الويل من سكرات الشهوة، الانحراف والغرور والعناد.. التي مسحت عنهم كلّ قيم الأخلاق الإنسانية وأفرغتهم من العواطف البشرية، والتي بها يحسّون بالخجل والحياء أمام منطق لوط عليه السلام، أو أن يتركوا بيت لوط وينسحبوا عن موقفهم، ولكن أنّى لهم ذلك، والأكثرية بسبب عدم تأثّرهم بحديث لوط استمروا في غيّهم وأرادوا أن يمدّوا أيديهم إلى الضيوف.

وهنا يخاطب الله تعالى نبيّه قائلاً: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقرأنا في سورة هود - فيما يتعلق بهذه القصّة - أنّ ملائكة العذاب قد كشفوا عن أمرهم وقالوا للوط: لا تخف إنّهم لن يصلوا إليك.

وفي الآية السابعة والثلاثين من سورة القمر نقرأ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾.

وفي بعض الرّوايات: إنّ أحد هؤلاء الضيوف أخذ قبضة من تراب فرماها في وجوه القوم فأصبحوا لا يبصرون جميعاً.

وبعد ذلك يبلغ كلام الله تعالى عن هؤلاء القوم الذروة حينما يبيّن عاقبتهم السيّئة في آيتين قصيرتين وبشكل قاطع مليء بالدروس والعبر بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أي صوت شديد عند شروق الشمس.

ويمكن حمل ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ على أنّها صاعقة عظيمة أو صوت زلزلة رهيب، والمهم أنه كان صوتاً مرعباً أسقط الجميع مغمياً عليهم أو ميّتين.

والمعلوم أنّ الأمواج الصوتية إذا ما تعدّت حدّاً معيّناً فستكون مرعبة مخيفة تهزّ فرائص الإنسان، وإذا ما ازدادت شدّتها فستبهت الإنسان وتشلّه عن الحركة وربّما تؤدّي بحياته، بل ومن الممكن لها أن تهدم الأبنية، وهذا ما تفعله المتفجرات.

ولم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينة أيضاً ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

وزيد في التنكيل بهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

إنّ سقوط الحجارة على رؤوسهم ربّما كان يستهدف مَنْ لم يمت من الصيحة المرعبة

ولم يصبح تحت الأنقاض، وربّما لأجل محو أجسادهم وجثثهم من على الأرض كي لا يبقى أثر لهؤلاء القوم المجرمين، حتى أنّ المار على تلك الديار بعد نزول الأحجار لا يصدّق بسهولة أنّها كانت مدينة معمورة!

ثمّ إنّ نزول هذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصيحة الرهيبة، قلب المدينة، المطر الحجري) - رغم أنّ كلّ واحدة منهنّ كانت تكفي لقطع دابر القوم - كان لمضاعفة عذابهم لشدّة فسادهم وجسارتهم وإصرارهم على إدامة التلوّث بتلك القبائح الشنيعة، وكي يكون عبرة لمن يعتبر.

وهنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائج الأخلاقية والتربويّة فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] العقلاء الذين يفهمون الأحداث بفراستهم وذكائهم ونظرهم الثاقب ويحملون من كلّ إشارة حقيقة ومن كلّ تنبيه درساً.

ولا تتصوروا أنّ آثارهم ذهبت تماماً، بل هي باقية على طريق القوافل والمارّة ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

وإن لم تصدّقوا فاذهبوا لرؤية آثار المدن المعذّبة الواقعة على طريق المسافرين إلى الشام (من المدينة) فانظروا وفكّروا واعتبروا، وعودوا إلى الله، واسلكوا طريق التوبة، وطهّروا نفوسكم من الآثام والذنوب.

ثمّ تدعو الآية المؤمنين إلى التفكّر مليّاً في هذه القصّة واستخلاص العبر منها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فكيف يمكن للمؤمن أن لا يعتبر ولا يهتز عندما يطالع خبر هذه الواقعة؟!

بحثنا بشيء من التفصيل في الآيات المتعلقة بقوم لوط في سورة هود من هذا التفسير، فبحثنا في معنى «سجيل»، ولماذا أُمطر على هؤلاء القوم المنحرفين بالحجارة، ولماذا قلبت مدينتهم، ولماذا كان العذاب صباحاً، ولماذا أُمر لوط وأهله أن لا يلتفتوا إلى الوراء، وكذلك بحثنا مسألة تحريم الشذوذ الجنسي في الأديان السماوية وفلسفة التحريم، بالإضافة إلى بحث في أخلاق قوم لوط... وسنبحث هنا بعض ما تبقّى من الإشارات المتعلقة بهذه القصّة.

---

(١) «متوسم» من مادة (وسم) - على وزن رسم - أي ترك أثراً، ويقال لمن يخلص من أثر صغير إلى نتائج وحقائق كبيرة (متوسم).

بحوث

١ - ما المقصود بـ ﴿بِقِطْعٍ مِنَ ٱلَّيْلِ﴾؟

«القطع» بمعنى سواد الليل. يقول المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان): القطع كأنّه جمع قطعة، ومعناه: سر بأهلك بعدما يمضي أكثر الليل وتبقى قطعة منه.

ولكنّ الراغب الأصفهاني في مفرداته يعتبر كلمة «قطع» بمعنى قطعة على صيغة المفرد، مع أنّ كثيراً من المفسّرين فسّروها بأواخر الليل وعند السحر، ولعلّ تفسيرهم يعود إلى الآيات الأُخرى التي تحدّد هذا الوقت في قصّة آل لوط ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾(١).

أيْ إنّهم خرجوا عندما كان عبّاد الشهوة غارقين في نوم غفلتهم وقد أفسد وجودهم سكر الشراب والغرور والشهوات، فكانت المدينة مهيّئة لآل لوط في الخروج بسلام.

ثمّ إنّ نزول العقاب كان في الصباح عند شروق الشمس، ولعلّ انتخاب هذا الوقت كان لإعطاء المهلة لقوم لوط بعد أن فقدوا أبصارهم، عسى أن يتفكروا في أمرهم فيعيدوا النظر في شركهم وعصيانهم، فكانت تلك الليلة آخر فرصة لهم.

ويستفاد من بعض الرّوايات.. أنّ بعضاً منهم عندما كانوا في طريق عودتهم إلى دورهم أقسموا أن لا يدعوا أحداً من آل لوط حيّاً عند الصباح، ولهذا نزل عليهم العذاب الإلهي في ذلك الوقت(٢).

٢ - تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾

ذكرنا أنّ الملائكة أوصت آل لوط بالخروج آخر الليل إلى المكان الذي عيّن لهم، إلّا أن الآيات القرآنية لم تدخل في تفاصيل ذلك السفر ولم تعيّن المنطقة التي سيذهبون إليها، لذلك عرض المفسّرون جملة آراء بهذا الخصوص.

فمنهم مَنْ قال: أُمروا بالسير نحو الشام لأنّ محيطها أكثر طهارة.

وقال بعض آخر: إنّ الملائكة عيّنت لهم قرية وطلبت منهم الذهاب إليها.

واكتفى تفسير الميزان بعبارة: كان لديهم نوع من الهداية الإلهيّة والدلالة العلمية في سلوك طريقهم.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٣٤.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٣٥٨، ح ١٦٧.

٣ - علاقة الربط بين «المتوسم» و«المؤمن»

لاحظنا تعبير ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الآيات الحاكية عن قصّة قوم لوط، والجمع بين التعبيرين يعطينا: أنّ المؤمن الحقيقي هو المتوسم الذكي ذو الفراسة والنباهة.

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام عندما سئل عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: هم الأمّة، ثمّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله عزّ وجلّ»[١].

وفي رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «هم الأئمّة»[٢].

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «كان رسول الله المتوسم، وأنا من بعده، والأئمّة من ذريتي المتوسمون»[٣].

٤ - سكر الشّهوة والغرور!

إنّ سكر الخمر معروف، وثمّة سكر أشد منه تأثيراً كسكر المنصب وسكر الشهوة، وقرأنا في الآيات السابقة كيف أنّ الله يقسم بروح نبيّه ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ولهذا فإنّهم لا يبصرون أوضح طرق النجاة، وبلغ بهم الحال أنْ يردّوا ما عرض عليهم نبيّهم عليه السلام أن يشبعوا شهواتهم بالطريق الصحيح المشروع ليتخلصوا من الذنوب والتلوّثات وقبائح الأفعال!

والذي نستفيده من موقف لوط عليه السلام هو أنّ مكافحة الفساد لا يتم بالنهي عنه فقط، بل لابدّ من تهيئة وتعبيد الطريق البديلة، لينتقل الضال أو المضلل من جادّة الفساد إلى جادّة الصلاح، فلابدّ من تهيئة الأوضاع والأجواء السليمة للناس مع وجود البرامج المؤثّرة الهادفة.

ومن غريب ما نطالعه في بعض الرّوايات... أنّ لوطاً (هذا النّبي الجليل) قد قضى بين قومه ثلاثين عاماً وهو يدعوهم إلى الهدى ويحذّرهم من مغبّة الانغماس في متاهات الضلال، ومع ذلك لم يؤمن به إلّا أهل بيته (ما عدا زوجته)[٤].

ما أعظم ثباته عليه السلام! مع منحرفين لدرجة لا يطيق أيُّ إنسان العيش معهم حتى ولو لساعة واحدة! بل وما أصعب العيش مع تلك الزوجة!

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٢٣، ح ٨٢.
(٢) المصدر السابق، ح ٨٣.
(٣) المصدر السابق، ح ٨٤.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٣٨٢، ح ١٦٥.

ونقرأ في الآيتين الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين من سورة الذاريات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾؟

فيتّضح لنا.. أنّ العقاب الإلهي لا يكون عشوائياً، بل لا يشمل إلّا المستحقين له ولو كان هناك مؤمن واحد عامل بواجباته لأنقذه الله تعالى من بينهم.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾
وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ
﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

التّفسير

خاتمة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر

يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى قصّتين من قصص الأُمم السالفة، وهما ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ ليكمل البحث الذي عرضه في الآيات السابقة حول قوم لوط.

يقول أوّلاً: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾[1].

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وعاقبناهم على ظلمهم واستبدادهم..

وجعلنا أرضهم وأرض قوم لوط - المتقدمة قصّتهم - على طريقكم ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ فانظروا إليها وإلى عاقبة أمرهم، واعتبروا يا أُولي الألباب.

مَنْ هم أصحاب الأيكة؟

قال جمع من المفسّرين، بالإضافة إلى أرباب اللغة: «الأيكة»: هي الأشجار المتشابكة مع بعضها، و«أصحاب الأيكة»: هم قوم «شعيب» الذين عاشوا في بلدة مليئة بالماء والأشجار بين الحجاز والشام وكانت حياتهم مرفّهة ثريّة فأُصيبوا بالغرور والغفلة، فأدّى ذلك إلى الاحتكار والفساد في الأرض.

---

(١) إنّ كلمة «إنْ» في هذه الآية ليست شرطية وإنّما هي مخففة، فيكون تقدير الكلام (إنّه كان أصحاب الأيكة لظالمين).

وقد دعاهم شعيب عليه السلام إلى التوحيد ونهج طريق الحق، مع تحذيره المكرر لهم من عاقبة أعمالهم السيئة فيما لو استمروا على الحال التي هم عليها.

ومن خلال ما بيّنته الآيات في سورة هود، فإنّهم لم ينصاعوا للحق ولم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب الله المهلك.

فبعد أن يئس من إصلاحهم أصابهم حرٌّ شديد استمر لعدّة أيّام متصلة، وفي اليوم الأخير ظهرت سحابة في السماء اجتمعوا في ظلّها، ليتفيّؤوا من حرّ ذلك اليوم، فنزلت عليهم صاعقة مهلكة فقطعت دابرهم عن آخرهم.

ولعلّ استعمال القرآن لعبارة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ في تسميتهم، إشارة إلى النعم التي أعطاها الله لهم، ولكنّهم استبدلوا الشكر بالكفر، فأقاموا صرح الظلم والاستبداد، فحقّت عليهم كلمة الله فأهلكوا بالصاعقة هم وأشجارهم.

وورد ذكرهم مفصّلاً - مع التصريح باسم شعيب - في الآيات (١٧٦) حتى (١٩٠) من سورة الشعراء.

وينبغي الالتفات إلى أنّ عبارة ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يمكن أن تشمل قوم لوط وأصحاب الأيكة معاً، بدليل ما يأتي بعدها مباشرة ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

والمشهور عند المفسّرين أنّ الآية تشير إلى مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة.

وكلمة «إمام» بمعنى طريق وجادّة، لأنّها من مادة «أمَّ»، بمعنى القصد، حيث إنّ الإنسان حينما يسير في طريق ما إنّما يسير لأجل الوصول إلى غاية معيّنة أو قصد معيّن.

واحتمل البعض أنّ الإمام المبين هو اللوح المحفوظ، بدلالة الآية (١٢) من سورة يس.

ولكن هذا الاحتمال مستبعد، لأنّ القرآن هنا في صدد إعطاء درس العبرة للاعتبار، ووجود اسم هذين البلدين في اللوح المحفوظ سيكون بعيداً عن التأثير في اعتبار الناس وتذكيرهم، في حين أنّ وجود هذين البلدين على طريق القوافل والمارّة يمكن أن يكون له الأثر البالغ فيهم.

فعند وقوف الناس قرب تلك الآثار وتذكّر خبر أهلها وما جرى لهم من سوء العاقبة، سيثير عناصر الموعظة في نفوس العابرين عند أرض قوم لوط مرّة، وعند أرض أصحاب الأيكة مرّة أُخرى. . . فتكون تلك اللحظات لحظات اعتبار، بعدما عرفوا أو استذكروا ما حلّ بالقومين من دمار وهلاك نتيجة ظلمهم وضلالهم.

أمّا «أصحاب الحجر» فهم قومٌ عُصاة عاشوا مرفّهين في بلدة تدعى «الحجر» وقد بعث الله إليهم نبيّه صالح عليه السلام لهدايتهم.

ويقول القرآن عنهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ .

ولكنْ أين تقع هذه البلدة؟

يذكر بعض المفسّرين والمؤرّخين: أنّها كانت على طريق القوافل بين المدينة والشام في منزل يسمّى (وادي القرى) في جنوب (تيماء) ولا أثر لها اليوم تقريباً.

ويذكرون أنّها كانت إحدى المدن التجارية في الجزيرة العربية، ولها من الأهمّية بحيث ذكرها (بطليموس) في مذكراته لكونها إحدى المدن التجارية.

وكذلك ذكرها العالم الجغرافي (بلين) باسم (حجري).

ونستشف من بعض الرّوايات أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم عندما قاد جيشاً لدفع جيش الروم في السنة التاسعة للهجرة، أراد الجنود أن يتوقفوا في هذا المكان، فمنعهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: هنا نزل عذاب الله على قوم ثمود[1] .

ومن الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم ذكر مسألة تكذيب الأنبياء في خبر أصحاب الحجر (وكذلك قوم نوح وقوم عادٍ وقوم لوط في الآيات (١٠٥ و١٢٣ و١٦٠ من سورة الشعراء) بالإضافة إلى أقوام أُخر كذّبت الأنبياء عليهم السلام ، والواضح من خلال ظاهر القصص أنّ لكلّ قوم كان نبيٌّ واحد لا أكثر.

ولعلّ مجيء هذا التعبير ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في هذه الآية، باعتبار أنّ الأنبياء لهم برنامج واحد وهدف واحد، وبينهم درجة من الصلة بحيث إنّ تكذيب أيّ منهم هو تكذيب للجميع.

واحتمل آخرون وجود أكثر من نبي وسط الأُمّة الواحدة، وذكر اسم أحدهم لأنّه أكثر شهرة.

وكما يبدو فإنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى الصواب منه إلى الثّاني.

ويستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وموقف الإعراض المشار إليه - كما يبدو - هو عدم استعدادهم لسماع الآيات والتفكّر بها.

---

(١) أعلام القرآن، الخزائلي، ص ٢٩٢.

وتشير الآية إلى أنّهم كانوا من الجدّ والدقّة في أُمور معاشهم وحياتهم الدنيوية حتى أنّهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾.

وهو ما يبيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جبليّة، بالإضافة إلى ما توصّلوا إليه من مدنيّة متقدمة، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول والعواصف والزلازل.

والعجيب من أمر الإنسان، أنّه يحزم أمره لتجهيز وتحصين مستلزمات حياته الفانية، ولا يعير أيَّ اهتمام لحياته الباقية، حتى يصل به المآل لأنْ لا يكلّف نفسه بسماع آيات الله والتفكّر بها!!.

وأيُّ عاقبة ينتظرون بعد عنادهم وكفرهم غير أنْ يطبّق عليهم القانون الإلهي الموعودين به (البقاء للإصلاح) وعدم إعطاء حق إدامة الحياة لأقوام فاسدين ومفسدين.. فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك، ولهذا يقول القرآن: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

وكانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمّر نزل على دورهم وكان من القوّة والرهبة بحيث جعل أجسادهم تتناثر على الأرض.

والشاهد على ما قلناه ما تحدّثنا به في الآية الثّالثة عشرة من سورة فصلت: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

فالعذاب الإلهي لا تقف أمامه الجبال الشاهقة، ولا البيوت المحصّنة، ولا الأبدان القويّة أو الأموال الوافرة، ولهذا يأتي في نهاية قصّتهم ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وجاءت الآيات (١٤١ إلى ١٥٨) من سورة الشعراء بتفصيل أكثر، وهو ما سيأتي في محلّه إن شاء الله تعالى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾

التفسير

يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفة - كقوم لوط وقوم شعيب وصالح - إلى مسألة التوحيد والمعاد، لأنّ سبب ضلال الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيدة صحيحة، ولعدم ارتباطه بمسألة المبدأ والمعاد، فيشير إليهما معاً في آية واحدة ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ . فنظامها محسوب ومحكم وهو حق، وكذا هدف خلقها حقٌّ.

فيكون هذا النظام البديع والخلق الدقيق المنظّم دليلاً واضحاً على الخالق العالم القادر جلَّ وعلا، وهو حق أيضاً، بل هو حقيقة الحق، وكلّ حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، وكلّ شيء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل... هذا ما يخصّ التوحيد أمّا المعاد فيقول: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ .. وإنْ تأخّرت فإنّها آتية بالنتيجة.

ولا يبعد أن تكون الفقرة الأُولى بمنزلة الدال على الفقرة الثّانية، لأنّ هذا العالم إنّما يكون حقاً عندما يكون لهذه الأيّام الدنيوية المليئة بالآلام والمتاعب هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير - فليس الغرض من هذه الدنيا أن يعيش فيها الإنسان هذه الحياة وتنتهي - ولهذا فمسألة خلق السماوات والأرض وما بينهما إنّما هو من موقع الحقّ ويدل على وجود يوم القيامة والحساب، وإلاّ لكان الخلق عبثاً وليس حقّاً، فتأمل.

وبعد ذلك... يأمر الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ أنْ يقابل عناد قومه وجهلهم وتعصّبهم وعداءهم بالمحبّة والعفو وغضّ النظر عن الذنوب، والصفح عنهم بالصفح الجميل، أي غير مصحوب بملامة ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ .

لأنّك تملك الدليل الواضح على ما أمرت بالدعوة إليه، فلا تحتاج وإيّاهم إلى الخشونة لتثبيت عقيدة المبدأ والمعاد في قلوب الناس، فالعقل والمنطق السليم معك.

بالإضافة إلى أنّ الخشونة مع الجهلة غالباً ما تؤدّي بهم إلى الردّ بالمثل، بل وبأشد من ذلك.

الصفح: هو وجه كلّ شيء، كوجه الصورة[(١)]، ولهذا فقد جاءت كلمة ﴿فَٱصْفَحِ﴾ بمعنى أدر وجهك وغضّ النظر عنهم.

---

(١) يقول الفيروز آبادي في القاموس، ج ١، ص٢٤٢: الصفح: الجانب، ومن الجبل مضطجعه، ومنك جنبك، ومن الوجه والسيف عرضه.

وبما أنّ إدارة الوجه وصرفه عن الشيء قد تعطي معنى عدم الاهتمام والنفرة وما شابه ذلك وكذلك معنى العفو والصفح، فقد ذكرت الآية المتقدمة كلمة «الجميل» بعد «الصفح» لكي تحدد المعنى الثّاني.

وفي رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: (العفو من غير عتاب)(١).

وروي مثل ذلك عن الإمام زين العابدين عليه السلام (٢).

الآية التالية - كما يقول جمع من المفسّرين - بمنزلة الدليل على وجوب العفو والصفح الجميل، حيث تقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

فالله يعلم بأنّ الناس ليسوا سواسية من جهة الطبائع والمستويات الفكرية والعاطفية وهو سبحانه مطلع على ما تخفيه صدورهم، وينبغي معاملتهم بروحية العفو والمسامحة ليهتدوا إلى طريق الحق بأسلوب الإصلاح المرحلي أو التدريجي.

ولا يرمز ذلك إلى الجبر في أعمال الناس وسلوكهم، بقدر ما هو إشارة إلى أمر تربوي يأخذ بنظر الاعتبار اختلاف الناس في القابليات.

وممّا يجدر ذكره... تصوّر البعض أنّ الأمر الإلهي مختصّ بفترة حياة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة قبل الهجرة، وعندما هاجر صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة أصبح للمسلمين القدرة والقوّة فنسخ هذا الأمر وجاء الجهاد بدله.

ولكننا نجد ورود هذا الأمر في السور المدنية أيضاً (كسورة البقرة وسورة النّور والتغابن والمائدة)، فبعض منها يأمر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعفو والصفح، والبعض الآخر يأمر المؤمنين بذلك.

فيتّضح لنا أنّ أمر الصفح عام ودائم، وهو لا يعارض أمر الجهاد أبداً، فلكلٍّ محلّه الخاص به.

فإذا كان الموقف يستدعي العفو والتسامح، فَلِمَ لا يؤخذ به! وإذا كان مدعاة للتجرؤ والجسارة من قبل الأعداء ولا ينفع معهم إلّا الشدّة، فلا مناص حينئذ من الأخذ بأمر الجهاد.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٢٧، ح ٩٥.

(٢) المصدر السّابق، ح ٩٦.

ثمّ يواسي الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ . . أنْ لا تقلق من وحشية الأعداء وكثرتهم وما يملكون من إمكانات مادية واسعة، لأنّ الله أعطاك ما لا يقف أمامه شيء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

وكما هو معلوم، فإنّ «السبع» هو العدد سبعة، و«المثاني» هو العدد اثنان، ولهذا اعتبر أكثر المفسّرين أنّ «سبعاً من المثاني» كناية عن سورة الحمد، والرّوايات كذلك تشير لهذا المعنى.

والداعي لذلك كونها تتألف من سبع آيات، لأهميتها وعظمة محتواها فقد نزلت مرّتين على النّبي محمّد ﷺ، أو لأنّها تتكون من قسمين (فنصفها حمد وثناء للّه عزّوجلّ والنصف الآخر دعاء عبادة)[1]، أو لأنّها تقرأ مرّتين في كلّ صلاة[2].

واحتمل بعض المفسّرين أنّ «السبع» إشارة إلى السور السبع الطوال التي ابتدأ بها القرآن، و «المثاني» كناية عن نفس القرآن، لأنّه نزل مرّتين على النّبي ﷺ مرّة بصورة كاملة، وأُخرى نزل نزولاً تدريجياً حسب الاحتياج إليه في أزمنة مختلفة.

وعلى هذا يكون معنى ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ سبع سور مهمّات من القرآن.

ودليلهم في ذلك الآية الثّالثة والعشرون من سورة الزمر، حيث يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾، أيْ مرّتين على النّبي ﷺ.

ولكنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صواباً، خصوصاً وأنّ روايات أهل البيت عليهم السلام تشير إلى أنّ «السبع المثاني» هي سورة الحمد.

واعتبر الراغب في مفرداته أنّ كلمة «المثاني» أطلقت على القرآن لما يتكرر من قراءة آياته، وهذا التكرار هو الذي يحفظه من التلاعب والتحريف (إضافة إلى أنّ حقائق القرآن تتجلى في كلّ زمان بشكل جديد ينبغي له أن يوصف بالمثاني).

وعلى أيّة حال، فذكر عبارة «القرآن العظيم» بعد ذكر سورة الحمد، بالرغم من أنّها جزء منه، دليل آخر على شرف وأهمّية هذه السورة المباركة، وكثيراً ما يذكر الجزء مقابل الكل لأهمّيته، وهو كثير الاستعمال في الأدب العربي وغيره.

وخلاصة المطاف أنّ الله تعالى قد صرّح لنبيّه الكريم ﷺ بأنّك قد ملكت سنداً عظيماً (القرآن)، ولا تستطيع أي قوة في عالم الوجود أن تصرعه.

---

(١) وفي حديث عن النّبي ﷺ: «إنّ الله عزّوجلّ قال: قسّمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي» مجمع البيان، ج١، ص١٧.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٢٨ و ٢٩.

سنداً كلّه نور، بركة، دروس تربوية، برامج عملية، هداية وتسديد، وبالذات سورة الفاتحة منه التي لها من المحتوى والأثر بحيث لو ارتبط العبد بربّه ولو للحظة واحدة لحلّقت روحه لساحة قدس الرّب، وهي تعيش حال التعظيم والتسليم والمناجاة والدّعاء.

وبعد هذه الهبة العظيمة يأمر الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ بأربعة أوامر فيقول له أوّلاً: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[1].

فمتاع الحياة الدنيا ليست دائمة ولا خالية من التبعات، والحفاظ عليها أمر صعب في أحسن الحالات.

ولهذا، لا تستحق الاهتمام بها مقابل ما أعطاك الله عزّوجلّ من العطاء المعنوي الجزيل (أيْ القرآن).

ثمّ يقول في الأمر الثّاني: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لما عندهم من أموال ونعم مادية.

فالأمر الأوّل في الحقيقة يتعلّق بعدم الاهتمام والتوجّه نحو النعم المادية، والأمر الثّاني يتعلق بعدم التأثّر لفقدانها.

وقد جاء ما يشبه هذا المضمون في الآية (١٣١) من سورة طه حيث يقول جلّ وعلا بتفصيل أكثر: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

والأمر الثّالث: جاء بخصوص ضرورة اللين والتواضع مع المؤمنين حيث يقول: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ هذا التعبير، كناية جميلة عن التواضع والمحبّة والملاطفة، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها، فتجسّم بذلك أعلى صور العاطفة والحنان وتحفظهم من الحوادث والأعداء، وتحميهم من التشتّت.

والتعبير المذكور عبارة عن كناية مختصرة بليغة ذات مغزىً ومعان كثيرة جدّاً.

ويمكن أن يحمل ذكر هذه الجملة بعد الأوامر الثلاثة المتقدمة إشارة تحذير بعدم إظهار التواضع والانكسار أمام الكفّار المتنعمين بزهو الحياة الدنيا، بل لابدّ للتواضع والحب والعاطفة الفيّاضة لمن آمن وإنْ كان محروماً من مال الدنيا.

---

(١) ﴿أَزْوَٰجًا﴾ مفعول ﴿مَتَّعْنَا﴾. ومنهم: جار ومجرور متعلق بفعل مقدر. فيكون المعنى إجمالاً: مجموعات مختلفة من الكفّار.

ونصل إلى الأمر الرّابع: وقل لهؤلاء الكفرة المنعّمين بكلّ حزم ﴿إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

قل: أنذركم من أمر الله بنزول عذابه عليكم ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾(١)، أي الذين قسّموا الآيات القرآنية أصنافاً، فما كان ينفعهم أخذوه، وما لا ينسجم ومشتهياتهم تركوه.

فبدل أن يتخذوا كتاب الله هادياً وقائداً لهم، جعلوه كآلة بأيديهم ووسيلة للوصول لأهدافهم الشريرة، فلو وجدوا فيه كلمة واحدة تنفعهم لتمسكوا بها، ولو وجدوا ألف كلمة لا تنسجم مع منافعهم الدنيوية لتركوها بأجمعها!!

بحوث

١ - القرآن... عطاء إلهي عظيم

يخبر الله تعالى في الآيات المذكورة نبيّه الكريم ﷺ وبعنوان تنبيه لجميع مسلمي العالم، أنّ هذا القرآن جعل في اختياركم، وفيه من العطاء ما لا يُعَدْ، وليكن رأس مالكم الذي تتعاملون فيه في حياتكم، ولو عملتم به لجعلتم دنياكم كلّها سعادة ورفاه وأمن وصلاح.

وهذه حقيقة يعترف بها حتى غير المسلمين، فهم يعتقدون بأنّ المسلمين إذا أخذوا القرآن وجعلوه أساس حياتهم، وعملوا بأحكامه وهديه، فسيكونون من القوّة والتقدّم بحيث لا يسبقهم في ذلك أحد.

فنرى مثلاً: سورة الحمد «سبعاً من المثاني» والتي تسمّى «خاتمة الكتاب» لوحدها تمثّل مدرسة كاملة للحياة:

فأوّلها... يشير إلى خالق الوجود الذي يربّي جميع أهل العالم في مسيرة تكاملية شاملة، هذا الخالق الذي وسعت رحمته «خاصّة» و«عامّة» كلّ شيء... ثمّ تشير إلى محكمة العدل الإلهيّة التي يكفل الإيمان بها خلق رقابة دقيقة على جميع سلوكيات الإنسان ونواياه.

ثمّ الإشارة إلى عدم الاتكال على غير الله، وعدم الخضوع والتسليم لغيره لتتهيّأ

---

(١) ﴿عِضِينَ﴾: جمع «عضة» أي التفريق، ويقال لكل جزء ممّا قسم «عضين» أيضاً.

الأرضية الصالحة للسير على صراطه المستقيم الذي لا عوج فيه ولا ميل لا إلى شرق ولا إلى غرب، كما أنّه ليس فيه إفراط ولا تفريط، وكذلك ليس فيه ضلال ولا غضب من الله عزّوجلّ.

إنّها جملة أُمور، لو تمثّلها الإنسان وبنى عليها كيانه، لكانت كفيلة بأن تجعل له شخصية سامية متكاملة.

وللأسف الشديد فقد وقع هذا العطاء الإلهي بأيدي أُناس لم يعرفوا جلالة قدره، ولم يتوغلوا في عمق محتواه ومعناه، بل إنّهم من الجهل بمكان حتى وصل بهم الأمر أن تركوا تلك الآيات الرّبانية المنجية من التيّه والضلال والجهل، وركضوا لاهثين وراء مَنْ ملكته شهواته ومَنْ لم يصل إلى أدنى درجات النضج الفكري، ليستجدوا منهم القوانين والبرامج التربوية التي صنعها جهلهم المتلبس بلباس العلم والتقدّم!

فهؤلاء المساكين يبيعون أغلى ما عندهم بثمن بخس، ويشترون به ما يبعدهم عن بناء أُخراهم!

ولا يعني هذا بأنّا ضد التقدّم التقني، بل علينا أن لا نحصر كلّ همّنا في هذا الجانب من الحياة الإنسانية.. ففي الوقت الذي نجد في القرآن تلك العيون الفياضة بالمعنويات، نراه كذلك صاحب برامج حيوية في مجالات التقدّم والرفاه الماديين، وهذا ما أوضحناه في الآيات المتقدمة وما سنزيد فيه في الآيات القادمة إن شاء الله تعالى.

٢ - الطمع بما عند الغير... مصدر الانحطاط

هناك الكثير من أصحاب العيون الضيّقة الذين يلاحظون هذا وذاك باستمرار بعيون ملؤها الطمع والجشع!

لقد دأب هؤلاء على قياس حالهم بحال الآخرين ويغتمّون غمّاً شديداً لو وجدوا أنّ شيئاً من الحاجات المادية الحياتية ناقصاً عندهم، فيبذلون كلّ شيء في سبيل الحصول عليها حتى وإن كلّفهم ذلك خسارة القيم الإنسانية وبيع كرامتهم!

هذا نمط من التفكير ينمّ عن حالة التخلّف، ويكشف عن الشعور بعقدة الحقارة ونقص الهمّة. وهو من العوامل الفاعلة في تخلّف الإنسان في حياته، وعلى كافّة الأصعدة.

والشخص المستقل لا يتعامل مع مجريات الحياة بذلك النمط من التفكير المتخلّف،

وإنّما يستعمل قواه الفكريّة والجسمانيّة في طريق رشده وتكامله، فهو كمن يحدّث نفسه قائلاً: بما أنّه لا ينقصني عن الآخرين شيء، ولا يوجد دليل على عدم استطاعتي التقدّم أكثر منهم أو الوصول لمصافهم.. فلماذا أمدّ عيني لما متّع به الآخرين من مال وجاه وما شاكل...

فصاحب الشخصية المستقلة لا يربط هدفه ومقصده من الحياة بالجوانب المادية البحتة فقط، بل يطلبها لإشباع ما يحتاجه روحياً وتربوياً، ويطلبها لكي يحفظ بها استقلاله وحريّته، ولكي لا يكون عالة على الآخرين، فهو لا يطلبها بحرص، ولا يطلبها بكلّ ما يملك، لأنّ ذلك ليس بيع الأحرار، ولا هو بيع عباد الله الصالحين.

ونختم الحديث بالحديث النّبوي الشريف: «مَنْ رمى ببصره ما في يد غيره كثر همّه ولم يشف غيظه»[1].

٣ - تواضع القائد

لقد أُوصي النّبي ﷺ مراراً من خلال القرآن أنْ يكون مع المؤمنين متواضعاً، محبّاً، سهلاً ورحيماً، والوصايا ليست منحصرة بخصوص نبي الإسلام ﷺ، بل هي عامّة لكل قائد ومُوجِّه، سواء كانت دائرة قيادته واسعة أم محدودة، فعليه أن يأخذ بهذا الأصل الأساسي في الإدارة والقيادة الصحيحة.

إنّ حب وتعلّق الأفراد بقائدهم من الأُسس الفاعلة لنجاح القائد، وهذا ما لا يتحقق من دون تواضعه وطلاقة وجهه وحبّه لخير أفراده.

أمّا خشونة وقساوة القائد فلا تؤدّي إلّا إلى فصم رابطة الالتحام بينه وبين الأفراد ممّا يؤدّي إلى تفرّق وتشتّت الناس عن قائدهم.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في رسالته إلى محمّد بن أبي بكر: «فاخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللحظة والنظرة»[2].

٤ - مَنْ هم المقتسمون؟

إنّ التوجيهات الإلهيّة بلاشك تراعى فيها المصلحة العامّة ومصلحة الأفراد بصورة عامة، ولكنّ البعض منها قد يوافق مصالحنا الشخصية بحسب الظاهر والبعض الآخر

---

(١) تفسير الصافي، ج ٣، ص ١٢١ في تفسير الآيات مورد البحث.
(٢) نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة ٢٧.

على خلافها. ومن خلال قبول أو رفض ما يدعونا إليه الله يمحّص المؤمن الخالص من المدّعي للإيمان، فالذي يقبل كلّ شيء نازل من الله ويسلّم له، حتى وإنّ ظاهره لا يتوافق مع مصلحته، ويقول ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾(١) ولا يجرؤ على تجزئة أو تقسيم أو تبعيض الأحكام الإلهيّة... فذلك هو المؤمن حقّاً.

أمّا الذين استفحل المرض في قلوبهم فيحاولون تسخير دين الله وأحكامه لخدمة مصالحهم الشخصية، فيقبلون ما يدعم منافعهم ويتركون غيره، فتراهم يجزّئون الآيات القرآنية، بل وتراهم في بعض الأحيان يجزّئون الآية الواحدة، فما يوافق ميولهم احتذوا به ويتركون القسم الباقي من الآية! ولكن من القبح أن نردد ما قاله بعض الأقوام السابقة ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾(٢) فهذا شأن عبيد الدنيا.

أمّا معيار تشخيص أتباع الحق من أتباع الباطل فمن خلال التسليم للأوامر والتوجيهات الإلهيّة التي لا تنسجم مع الميول والأهواء والمنافع الدنيوية، فمن هنا يُعرف الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق.

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود تفاسير أُخرى لمعنى المقتسمين (غير ما ذكرناه)، حتى أنّ القرطبي قد ذكر في تفسيره سبعة آراء في معنى هذه الكلمة، إلّا أنّ أكثرها خالٍ من القرينة، والبعض الآخر لا يخلو من مناسبة وهو ما سنذكره أدناه:

فمنها.. أنّ جمعاً من رؤوس المشركين كانوا يقفون في أيّام الحج على رؤوس طرق وأزقّة مكّة، ويشرع كلّ واحد منهم بالسخرية والاستهزاء بالنّبي ﷺ والقرآن لينفّروا الناس عنه.

فبعض يقول: إنّه «مجنون» فإنّ ما يقوله ليس بموزون..

وبعض يقول: إنّه «ساحر» وقرآنه نوع من السحر...

وبعض يقول: إنّه «شاعر» والنغمة البلاغيّة للآيات السماوية هي شعر..

وبعض يقول: إنّه «كاهن» وإنّ أخبار القرآن الغيبية هي نوع من الكهانة.

وقد سُمي هؤلاء بالمقتسمين لتقسيمهم شوارع وأزقّة مكّة ومعابرها بينهم ضمن خطة دقيقة ومحسوبة.

ولا مانع من دخول هذا التّفسير وما ذكرناه معاً ضمن مفهوم الآية المبحوثة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ
إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ
(٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ (٩٩)﴾

التّفسير

اصدع بما تؤمر!

يبيّن القرآن في أواخر سورة الحجر مصير المقتسمين الذين ذُكروا في الآيات السابقة فيقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

إنّ عالم السر والعلن ومَنْ لا يخفى عليه ذرة ما في السماوات والأرضين لا يسأل لكشف أمر خفي عليه (سبحانه وتعالى عن ذلك)، وإنّما السؤال لتفهيم المسؤول قبح فعله، أو كون السؤال نوعاً من العقاب الروحي، لأنّ الجواب سيكون عن أمور قبيحة ومصحوباً باللوم والتوبيخ، وذلك ما يكون له بالغ الأثر في ذلك المقام، حيث إنّ الإنسان عندها أقرب ما يكون إلى الحقائق وإدراكها.

وعلى هذا الأساس فالسؤال قسم من العقاب الروحي.

وعموم قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يرشدنا إلى أنّ السؤال سيكون عن جميع أفعال الإنسان بلا استثناء، وهو درس بليغ كي لا نغفل عن أفعالنا.

أمّا ما اعتبره بعض المفسّرين من اختصاص السؤال عن التوحيد والإيمان بالأنبياء، أو هو مرتبط بما يعبد المشركون.. فهو كلام بلا دليل، ومفهوم الآية عام.

وقد يُشْكِلُ البعض، من كون الآية المتقدمة تؤكّد على أنّ الله تعالى سيسأل عباده، في حين نقرأ في الآية التاسعة والثلاثين من سورة الرحمن ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾.

وقد أجبنا عن ذلك سابقاً، وخلاصته: في القيامة مراحل، يُسأل في بعضها ولا يسأل في البعض الآخر حيث تكون الأُمور من الوضوح بحيث لا تستوجب السؤال، أو

أن لا يكون السؤال باللسان، وهذا ما نستنتجه من الآية الخامسة والستين من سورة يس حيث تشير إلى غلق الأفواه وبدء أعضاء البدن - حتى الجلد - بالسؤال[1].

ثمّ يأمر الله تعالى نبيّه ﷺ بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أيْ لا تخف من ضوضاء المشركين والمجرمين، ولا تضعف أو تتردد أو تسكت، بل ادعهم إلى رسالتك جهاراً.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، ولا تعتنِ بهم.

﴿فَاصْدَعْ﴾، من مادة (صدع) وهي لغة بمعنى «الشق» بشكل مطلق، أو شق الأجسام المحكمة بما يكشف عمّا في داخلها، ويقال أيضاً لألم الرأس الشديد (صداع) وكأنّه من شدّته يريد أن يشق الرأس!

وهي هنا... بمعنى: الإظهار والإعلان والإفشاء.

وعلى أيّة حال... فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال، أو ترك مجاهدتهم وحربهم، لأنّ المسلمين في ذلك الوقت لم تصل قدرتهم - بعد - لمستوى المواجهة مع الأعداء وحربهم.

ثمّ يطمئن الله تعالى نبيّه ﷺ تقويةً لقلبه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

إنّ مجيء الفعل بصيغة الماضي في هذه الآية مع أنّ المراد المستقبل يشير إلى حتمية الحماية الرّبانية، أي: سندفع عنك شرّ المستهزئين، حتماً مقضياً.

وقد ذكر المفسّرون رواية تتحدث عن ست جماعات (أو أقل) كل منهم يمارس نوعاً من الاستهزاء تجاه النّبي ﷺ.

فكلّما صدع النّبي ﷺ بالدعوة قاموا بالاستهزاء تفريقاً للناس من حوله ﷺ، إلّا أنّ الله تعالى ابتلى كلاً منهم بنوع من البلاء، حتى شغلهم عن النّبي ﷺ، (وقد ورد تفصيل تلك الابتلاءات في بعض التفاسير).

ثمّ يصف المستهزئين: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

كأنّ القرآن يريد أن يقول: إنّ أفكار وأعمال هؤلاء بنفسها عبث، سخف، حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر وخشب، ودفعهم جهلهم لأن يجعلوا مع الله - ما صنعوه بأيديهم - آلهة! ومع ذلك.. يستهزئون بك!

ولمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النّبي ﷺ، يضيف تعالى قائلاً: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ

---

(١) لمزيد من الإيضاح، راجع ذيل تفسير الآية ٧ من سورة الأعراف.

أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، فروحك اللطيفة وقلبك الطيّب الرقيق لا يتحملان تلك الأقوال السيّئة وأحاديث الكفر والشرك، ولذلك يضيق صدرك.

ولكنْ لا تحزن من قبح أقوالهم ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

لأنّ تسبيح الله يذهب أثر أقوالهم القبيحة من قلوب أحبّاء الله، هذا أوّلاً... وثانياً: يعطيك قدرة وقوّة ونوراً وصفاءً، ويخلق فيك تجلّياً وانفتاحاً، ويقوي ارتباطك مع الله، ويقوي إرادتك ويبث فيك قدرة أكبر للتحمّل والثبات والمجاهدة في قبال أعداء الله.

ولهذا نقرأ في رواية نقلاً عن ابن عباس أنّه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة.

ثمّ يعطي الله نبيّه ﷺ آخر أمر في هذا الشأن: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

المعروف والمشهور بين المفسّرين أنّ المقصود من ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ هنا الموت، وسُمّي باليقين لحتميته، فربما يشك الإنسان في كلّ شيء، إلّا الموت فلا يشك فيه أحد قط.

أو لأنّ الحجب تزال عن عين الإنسان عند الموت فتتّضح الحقائق أمامه ويحصل له اليقين.

وفي الآيتين السادسة والأربعين والسابعة والأربعين من سورة المدّثر نقرأ عن لسان أهل جهنّم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ أي الموت.

ومن هنا يتّضح خطأ ما نقل عن بعض الصوفية من أنّ الآية أعلاه دليل على ترك العبادة، فقالوا: اعبد الله حتى تحصل على درجة اليقين، فإذا حصلت عليها فلا حاجة للعبادة بعدها!

ونقول:

أوّلاً: اليقين هنا بمعنى الموت بشهادة الآيات القرآنية المشار إليها، وهو ما يحصل للمؤمن والكافر سواء.

ثانياً: المخاطب بهذه الآية هو النّبي ﷺ، ومقام اليقين للنّبي من المسلّمات، وهل يجرؤ أحد أن يدّعي أنّ النّبي ﷺ لم يصل لدرجة اليقين، حتى يخاطب بالآية المذكورة؟!!

ثانياً: المقطوع به أنّ النّبي ﷺ لم يترك العبادة حتى آخر لحظات عمره الشريف، وكذا الحال بالنسبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام وهو المستشهد في المحراب، وهو ما سار عليه بقية الأئمّة عليهم السلام.

بحوث

١ - بداية الدعوة العلنية للإسلام

المستفاد من بعض الرّوايات أنّ الآيتين ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ نزلتا في مكّة بعد أنْ قضى رسول الله ﷺ ثلاث سنوات في الدعوة السرّية لرسالته، ولم يؤمن به إلّا القليل من المقربين إليه، وأوّل مَنْ آمن من النساء خديجة عليها السلام ومن الرجال علي عليه السلام.

من البديهي، أنّ الدعوة إلى التوحيد الخالص التي اقترنت مع انهدام نظام الشرك وعبادة الأصنام في تلك البيئة كانت في الواقع عملاً عجيباً ومخيفاً، واستهزاء المشركين وسخريتهم كان معلوماً عند الله من قبل أن يُمارس، ولهذا أراد الله تعالى تقوية قلب نبيّه ﷺ كي لا يخشى المستهزئين، ويعلن رسالته بكلّ قوّة على الملأ ويشرع بجهاد منطقي معهم[(١)].

٢ - الأثر الرّوحي لذكر الله

إنّ حياة الإنسان (كانت وما زالت) زاخرة بالمشاكل بحسب ما تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا، وكلّما علا الإنسان درجة كثرت مشاكله وتعددت، ومن هنا نفهم شدّة ما واجهه النّبي ﷺ من مشاكل وصعاب في طريق دعوته الكبيرة.

ويكون العلاج الرّباني لتجاوز العقبات عبارة عن محاولة تحصيل القوّة من مصدرها الحق مع التحلّي بسعة الصدر، فيأمر نبيّه ﷺ بالتسبيح والذكر والدعاء والسجود، لما للعبادة من أثر عميق في تقوية روح الإنسان وإيمانه وإرادته.

ونستفيد من روايات مختلفة أنّ الأئمّة عليهم السلام إذا واجهتهم المصاعب الشداد والبلاء، لجؤوا إلى الله وشرعوا بالعبادة والدعاء، كي يستمدوا القوّة من معينها الأصيل.

٣ - العبادة والتكامل

وكما هو معلوم فإنّ الإنسان قد بدأ انطلاقته في الحياة من نقطة العدم ولا يزال يسير نحو المطلق، ولن تتوقف عجلة تكامله (ما دام مداوماً على الطريق) كما أنّه يمتلك مقوّمات السير ويمتاز بقابليّة فائقة واستعداد كامل في طلبه للتكامل، هذا من جهة.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٣٢، ح ١٢٦.

ومن جهة أُخرى تعتبر العبادة مدرسة عالية للتربية، لأنّها توقظ عقل الإنسان، وتوجّه فكره نحو المطلق، وتغسل غبار الذنوب والغفلة من قلبه وروحه، وتنمّي فيه الصفات الإنسانية الرفيعة، وتقوّي إيمانه وتجعله أكثر وعياً وأكبر مسؤولية.

فلا يمكن للإنسان الواقعي أن يستغني عن هذه المدرسة الراقية، أمّا الذين يعتقدون بأنّ الإنسان قد يصل إلى درجة معيّنة لا يحتاج عندها إلى العبادة، فأُولئك إمّا أنّهم يعتبرون عملية تكامل الإنسان محدودة وتنتهي بحدّ معين، أو أنّهم لم يدركوا معنى العبادة حقّاً.

وللعلاّمة الطّباطبائي رحمه الله في تفسير الميزان بيان بهذا الشأن، إليك ملخّصه: إنّ كلّ نوع من أنواع الموجودات له غاية كمالية، وكذلك الإنسان له غاية تكاملية لا ينالها إلّا بالاجتماع المدني، ولهذا فهو اجتماعي بالطبع، ولو تحقق هذا الاجتماع فسيحتاج أفراد المجتمع إلى أحكام وقوانين يتنظم باحترامها والعمل بها شتات أُمورهم، وترتفع بها اختلافاتهم الضرورية، ويقف بها كلّ منهم في موقفه الذي ينبغي له، ويحوز بها سعادته وكماله الوجودية.

وبعبارة أُخرى: إن كان المجتمع الإنساني صالحاً أمكن لأفراده الوصول إلى هدفهم النهائي في الكمال، وإنْ فسد المجتمع تخلّف أفراده عن هذا التكامل.

وإنَّ هذه الأحكام والقوانين سواء كانت اجتماعية أو عبادية، لا تكون مؤثّرة إلّا إذا أخذت من طريق النّبوة والوحي السماوي لا غير.

ونعلم أيضاً أنّ الأحكام العبادية تشكّل جزءاً من هذا التكامل الفردي والاجتماعي.

وبهذا يتبيّن أنّ التكليف الإلهي يلازم الإنسان ما عاش في هذه النشأة الدنيوية، وأنّ تجويز ارتفاع التكليف ملازم لتجويز تخلّفه عن الأحكام والقوانين، وهذا يوجب فساد المجتمع!

ومن الجدير بالملاحظة أنّ الأعمال الصالحة والعبادات منبع للملكات النفسانية الفاضلة فإذا أُدّيت هذه الأعمال بقدر كاف، وقوّيت تلك الملكات الفاضلة في نفس الإنسان، فستكون نفسها منبعاً جديداً لأعمال صالحة أكثر وطاعات وعبادات أفضل.

ومن هنا يظهر فساد ما ربّما يتوهّم أنّ الغرض من التكليف هو تكميل الإنسان فإذا كَمُلَ لم يكن لبقاء التكليف معنى، وما ذلك إلّا مغالطة ليس أكثر، لأنّ الإنسان لو

تخلّف عن التكليف الإلهي فإنّ المجتمع سيسير نحو الفساد فوراً، فكيف يتسنّى للفرد الكامل أن يعيش في هكذا مجتمع!

وكذلك فرضية تخلّف الإنسان عند امتلاكه الملكات الفاضلة عن العبادات وطاعة الله، فإنّها تعني تخلّف هذه الملكات عن آثارها[1]، فتأمل.

(١) تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٢١٠.

فهرس الجزء الحادي عشر

سورة هود

محتوى هذه السورة وفضيلتها ٥
شيبتني سورة هودا! ٦
التأثير المعنوي لهذه السورة ٧
الأصول الأربعة في دعوة الأنبياء ٨
علاقة الدين بالدنيا ١٠
جميع الأحياء ضيوف مأدبته ١٢
تقسيم الأرزاق والسعي من أجل الحياة ١٤
الهدف من الخلق ١٩
استيعاب المؤمنين وعدم استيعاب غيرهم ٢٢
بحوث: ١ - الأمة المعدودة وأصحاب المهدي عليه السلام ٢٤
٢ - أربع ظواهر لضيق الأفق الفكري . ٢٤
٣ - معيار الضعف النفسي ٢٥
٤ - النعم جميعها مواهب ٢٥
٥ - أثران للأعمال الحسنة ٢٥
القرآن المعجزة الخالدة ٢٦
بحوث: جميع القرآن أو عشر سور منه أو سورة واحدة! ٣٠
١ - في بداية الآية يقول الحق سبحانه . ٣٥
بحوث: ١ - ما المقصود «بالشاهد» في الآية؟! ٣٧
٢ - لماذا أشير إلى التوراة فحسب؟! .. ٣٩
٣ - من هو المخاطب في قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾؟ ٣٩
أخسر الناس أعمالاً ٤٠
قصة نوح المثيرة مع قومه ٤٦
ما أنا بطارد الذين آمنوا ٥٠
بحثان: ١ - أولياء الله ومعرفة الغيب .. ٥٢
٢ - مقياس معرفة الفضيلة ٥٣
٣ - معنى علم الغيب في القرآن ٥٣
كفانا الكلام فأين ما تعدنا به؟! ٥٤
بداية النهاية ٥٨
١ - التصفية لا الانتقام ٦١
٢ - علائم المستكبرين ٦١
٣ - سفينة نوح ٦٢
شروع الطوفان ٦٣
بحوث: ١ - هل كان طوفان نوح مستوعباً للعالم؟! ٦٦
٢ - هل تقبل التوبة بعد نزول العذاب؟! ٦٧
٣ - دروس تربوية من طوفان نوح ٦٨

نهاية الحادث ٧١
أين يقع الجودي؟ ٧٢
حادثة ابن نوح المؤلمة ٧٤
بحوث: ١ - لم كان ابن نوح «عملا غير صالح»؟! ٧٥
٢ - دائرة الوعد الإلهي ٧٦
٣ - هناك حيث تنقطع العلائق ٧٦
٤ - المسلمون المطرودون ٧٧
هبوط نوح بسلام ٧٩
محطم الأصنام الشجاع ٨٢
بحوث: ١ - التوحيد أساس دعوة الأنبياء ٨٣
٢ - قادة الحق لا يطلبون أجراً من أتباعهم ٨٤
٣ - الذنب وهلاك المجتمعات ٨٤
٤ - ما المراد من قوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ٨٦
قوة المنطق ٨٧
اللعن الأبدي على القوم الظالمين ٩٠
بحثان: ١ - قوم عاد من منظار التاريخ . ٩٣
٢ - اللعن الدائم الأبدي على «عاد» .. ٩٥
قصة ثمود ٩٦
ناقة صالح ١٠٠
العلاقة الدينية ١٠١
نهاية ثمود «قوم صالح» ١٠٣
٣ - ما المراد من الصيحة؟ ١٠٤
جانبٌ من حياة محطم الأصنام ١٠٦
قوم لوط وحياة الخزي ١١٣
عاقبة الجماعة الظالمة ١١٨
١ - لم كان العذاب صباحاً؟ ١٢١
٢ - لم قلب الله عاليها سافلها؟ ١٢١
٣ - لماذا الوابل من الأحجار؟! ١٢١
٤ - لماذا العلامة المتميزة؟! ١٢٢
٥ - تحريم الانحراف الجنسي ١٢٢
فلسفة تحريم الميول الجنسية لأمثالها .. ١٢٣
مدين بلدة شعيب ١٢٦
المنطق الواهي ١٣٠
التهديدات المتبادلة بين شعيب وقومه .. ١٣٤
عاقبة المفسدين في مدين ١٣٦
دروس تربوية في قصة شعيب ١٣٧
١ - أهمية المسائل الاقتصادية ١٣٧
٢ - لا ينبغي التضحية بالأصالة من أجل التعصب ١٣٧
٣ - الصلاة تدعو إلى التوحيد والتطهير ١٣٨
٤ - النظرة الذاتية (الأنانية) رمزٌ للجمود! ١٣٨
٥ - تلازم الإيمان والعمل ١٣٨
٦ - الملكية غير المحدودة أساس الفساد ١٣٩
٧ - هدف الأنبياء هو الإصلاح ١٤٠
البطل المبارز لفرعون ١٤٠
السعادة والشقاوة ١٤٥
بحوث: ١ - هل أن السعادة والشقاوة ذاتيان؟ ١٤٧
٢ - واقع الإنسان بين السعادة والشقاوة ١٤٩
٣ - مسألة الخلود في القرآن ١٤٩

الحل النهائي للإشكال ١٥١
٤ - مفهوم الخلود في هذه الآيات ... ١٥٣
٥ - ما معنى الاستثناء في الآية؟ ١٥٤
أسباب السعادة والشقاء ١٥٦
الاستقامة والثبات ١٥٩
المسؤولية الكبيرة!! ١٦١
الركون إلى الظالمين ١٦٣
١ - ما هو مفهوم الركون؟ ١٦٣
٢ - في أي الأمور لا ينبغي الركون إلى الظالمين؟ ١٦٣
٣ - فلسفة تحريم الركون إلى الظالمين ١٦٤
٤ - من المقصود بـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؟ ١٦٤
٥ - إشكال ١٦٥
الصلاة والصبر ١٦٦
الأهمية القصوى للصلاة ١٦٨
أرجى آية في القرآن ١٦٩
عامل الانحراف والفساد في المجتمعات ١٧٢
من هم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾؟ ١٧٣
أربعة معطيات لقصص الماضين ١٧٧
١ - علم الغيب خاص بالله ١٧٩
٢ - العبادة لله وحده ١٨٠

سورة يوسف

«بداية سورة يوسف» ١٨٢
قصة يوسف قبل الإسلام وبعده ١٨٣
لم ذكرت قصة يوسف في مكان واحد بخلاف قصص سائر الأنبياء؟! ١٨٤
فضيلة سورة يوسف ١٨٥
أحسن القصص بين يديك ١٨٦
أثر القصة في حياة الناس ١٨٩
بارقة الأمل وبداية المشاكل ١٩٢
الرؤيا والحلم ١٩٤
١ - التفسير المادي. ١٩٥
٢ - التفسير المعنوي ١٩٦
٢ - تعبير يعقوب عليه السلام لرؤية يوسف عليه السلام ١٩٩
٣ - حفظ الأسرار ٢٠٠
المؤامرة ٢٠٠
المؤامرة المشؤومة! ٢٠٦
بحوث: ١ - مؤامرات الأعداء في ثياب الأصدقاء ٢٠٨
٢ - حاجة الإنسان الفطرية والطبيعية إلى التنزه والارتياح ٢٠٩
٣ - الولد في ظل الوالد ٢١١
٤ - لا قصاص ولا اتهام قبل الجناية .. ٢١٢
٥ - تلقين العدو ٢١٢
الكذب المفضوح ٢١٤
١ - حول الترك «الأولى» ٢١٧
٢ - دعاء يوسف البليغ الجذاب ٢١٨
٤ - تسويل النفس ٢١٩
٥ - الكذاب عديم الحافظة ٢٢٠
٦ - ما هو الصبر الجميل؟ ٢٢٠
نحو أرض مصر ٢٢١

في قصر عزيز مصر ٢٢٤
١ - ما هو اسم «عزيز» مصر؟ ٢٢٦
٢ - يوسف عليه السلام وتعبير الأحلام ٢٢٧
٣ - المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ٢٢٨
العشق الملتهب ٢٣٠
المراد من كلمة ﴿رَبِّيٓ﴾ ٢٣١
ما المراد من ﴿بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾؟ ٢٣٥
بحوث: ١ - جهاد النفس ٢٣٦
٢ - ثواب الإخلاص ٢٣٨
٣ - العفة والمتانة في البيان ٢٣٨
فضيحة امرأة العزيز!! ٢٤١
بحوث: ١ - من كان الشاهد؟! ٢٤٣
٢ - الموقف الضعيف لعزيز مصر ٢٤٤
٣ - حماية الله في الأزمات ٢٤٤
٤ - خطة امرأة العزيز ٢٤٥
مؤامرة أخرى ٢٤٦
السجن بسبب البراءة ٢٥٢
السجن أو مركز التربية ٢٥٦
بحوث: ١ - السجن مركز للإرشاد أو بؤرة للفساد ٢٥٩
٢ - حين يصلب المصلحون! ٢٦٠
٣ - أكبر دروس الحرية ٢٦٠
٤ - استغلال شعار بناء بشكل سيىء .. ٢٦١
٥ - التوجه لغير الله ٢٦٢
رؤيا ملك مصر وما جرى له ٢٦٣
تبرئة يوسف من كل اتهام! ٢٦٧
١ - هذه عاقبة التقوى ٢٧٠
٢ - الهزائم التي تكون سبباً للتيقظ ... ٢٧١
٣ - الحفاظ على الشرف خير من الحرية الظاهرية ٢٧١
٤ - النفس الأمارة «المتمردة» ٢٧٢
يوسف أميناً على خزائن مصر ٢٧٣
بحوث: ١ - كيف استجاب يوسف لطلب طاغوت زمانه؟ ٢٧٥
٢ - أهمية المسائل الاقتصادية والإدارية ٢٧٧
٣ - الرقابة على الاستهلاك ٢٧٨
٤ - مدح النفس ٢٨٠
٥ - أفضلية الجزاء المعنوي على سواه . ٢٨٠
٦ - الدفاع عن المسجونين ٢٨١
اقتراح جديد من يوسف لإخوته ٢٨٢
بحوث: ١ - لماذا لم يظهر يوسف حقيقته لإخوته؟ ٢٨٤
٢ - لماذا أرجع يوسف الأموال إلى إخوته؟ ٢٨٥
٣ - كيف وهب يوسف إلى إخوته أموال بيت المال؟ ٢٨٦
موافقة يعقوب ٢٨٦
يوسف يخطط للاحتفاظ بأخيه ٢٩٢
بحوث: ١ - لماذا لم يعترف يوسف بالحقيقة؟ ٢٩٦
٢ - لماذا اتهم يوسف أخاه؟ ٢٩٦
٣ - لماذا اتهم الجميع بالسرقة؟ ٢٩٦
٤ - عقوبة السرقة في تلك الأزمنة ٢٩٧

٥ - السقاية أو الصواع ٢٩٨
موقف إخوة يوسف ٢٩٩
رجوع الإخوة إلى أبيهم خائبين ٣٠١
بحوث: ١ - من هو أكبر الإخوة؟ ٣٠٣
٢ - الحكم وفق الدلائل الظاهرة ٣٠٣
يعقوب والألطاف الإلهية ٣٠٤
اليأس علامة الكفر! ٣٠٧
بحوث: ١ - من الذي حمل قميص يوسف؟ ٣١٢
٢ - يوسف وجلالة شأنه ٣١٢
٣ - الشكر على الانتصار ٣١٣
وأخيراً شملتهم رعاية الله ولطفه ٣١٤
بحوث: ١ - كيف أحس يعقوب برائحة قميص يوسف؟! ٣١٧
٢ - اختلاف حالات الأنبياء ٣١٨
٣ - كيف رد على يعقوب بصره؟! ٣١٩
٤ - الوعد بالاستغفار ٣١٩
٥ - التوسل جائز ٣١٩
٦ - نهاية الليلة السوداء ٣٢٠
عاقبة أمر يوسف وأبيه وإخوته ٣٢٠
بحوث: ١ - هل السجود لغير الله جائز؟! ٣٢٣
٢ - وساوس الشيطان ٣٢٤
٣ - الأمن نعمة الله الكبرى ٣٢٤
٤ - أهمية مقام العلم ٣٢٥
٥ - حسن العاقبة ٣٢٥
٦ - هل جاءت أم يوسف إلى مصر؟ ٣٢٦
٧ - عدم ذكر القصة للأب ٣٢٦
الأدعياء مشركون غالباً! ٣٢٧
أصدق الدروس والعبر ٣٣٠
«نهاية سورة يوسف» ٣٣٤

فهرس الجزء الثاني عشر

سورة الرعد

محتوى السورة ٣٣٥
آيات الله في السماء والأرض وعالم النبات ٣٣٦
لها تفسيران ٣٣٧
١ - ما هو وجه العلاقة بين التوحيد والمعاد؟ ٣٤٢
٢ - الإعجاز العلمي للقرآن ٣٤٣
٣ - تسخير الشمس والقمر ٣٤٣
تعجب الكفار من المعاد ٣٤٥
١ - لماذا التعجب من الخلق الجديد؟ . ٣٤٦
٢ - هل إن الله يعفو عن الظالمين؟ ... ٣٤٦
ذريعة أخرى! ٣٤٧
بحثان: ١ - جواب للكفار؟ ٣٤٨
٢ - ما هو المقصود من جملة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؟ ٣٤٨
علم الله المطلق ٣٥٠
بحوث: ١ - القرآن وعلم الأجنة ٣٥٢
٢ - كل شيء له مقدار ٣٥٢

٣ - الغيب والشهادة سواء عند الله ... ٣٥٣
٤ - الآثار التربوية في إدراكنا لعلم الله . ٣٥٤
المعقبات الغيبية! ٣٥٥
بحوث: ١ - ما هي المعقبات؟ ٣٥٥
٢ - التغيير يبدأ من النفس (قانون عام) ٣٥٧
قسمٌ آخر من دلائل عظمة الله ٣٥٨
بركات الرعد والبرق ٣٥٩
بحوث: ١ - ما هو المقصود من سجود الكائنات؟ ٣٦٢
٢ - ما هو معنى ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾؟ .. ٣٦٢
٣ - ما هو معنى كلمة (الظلال)؟ ٣٦٣
٤ - ما هو معنى كلمة ﴿وَالْآصَالِ﴾؟ ... ٣٦٣
لماذا عبادة الأصنام؟ ٣٦٤
بحوث: ١ - الخالقية والربوبية يتطلبان العبادة ٣٦٥
٢ - كيف يسأل ويجيب بنفسه؟ ٣٦٥
٣ - العين المبصرة ونور الشمس شرطان ضروريان ٣٦٦
٤ - هل أن خلق الله لكل شيء دليل على الجبر؟ ٣٦٦
وصف دقيق لمنظر الحق والباطل ٣٦٧
بحوث: ١ - ما هي علائم معرفة الحق والباطل؟ ٣٦٨
٢ - ما هو الزبد؟ ٣٦٩
٣ - الاستفادة تكون بقدر الاستعداد واللياقة! ٣٦٩
٤ - الباطل والأوضاع المضطربة ٣٦٩
٥ - الباطل يتشكل بأشكال مختلفة ... ٣٧٠
٦ - ارتباط البقاء بالنفع ٣٧٠
٧ - كيف يطرد الحق الباطل؟ ٣٧٠
٨ - الباطل مدينٌ للحق ببقائه ٣٧٠
٩ - صراع الحق والباطل مستمر ٣٧١
١٠ - تزامن الحياة مع السعي والجهاد . ٣٧١
الأمثال في القرآن ٣٧١
١ - المثال يجعل المسائل محسوسة .. ٣٧٢
٢ - المثال يقرب المعنى ٣٧٢
٣ - المثال يعمم المفاهيم ٣٧٢
٤ - المثال يزيد في درجة التصديق ... ٣٧٢
٥ - المثال يخرس المعاندين ٣٧٢
الذين استجابوا لدعوة الحق ٣٧٤
فما هو المقصود من ﴿سُوءُ الْحِسَابِ﴾؟ .. ٣٧٥
الأبواب الثمانية للجنة وصفات أولي الألباب ٣٧٧
بحوث: ١ - لماذا ذكر الصبر فقط؟ ... ٣٨٢
٢ - أبواب الجنة ٣٨٣
٣ - يلحق بأهل الجنة أقرباؤهم ٣٨٤
٤ - ما هي جنات عدن؟ ٣٨٤
٥ - التطهير من آثار الذنوب ٣٨٤
المفسدون في الأرض ٣٨٥
بحثان: ١ - من هو المفسد في الأرض؟ ٣٨٦
٢ - الرزق بيد الله سبحانه وتعالى ولكن...! ٣٨٨
﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ٣٩٠

بحوث: ١ - كيف يطمئن القلب بذكر الله؟ ٣٩١
٢ - الطمأنينة والخوف من الله ٣٩٤
٣ - ما هو ذكر الله، وكيف يتم؟ ٣٩٥
أسباب النزول ٣٩٦
لا أمل في إيمان أهل العناد ٣٩٧
بحوث: ١ - لماذا التركيز على كلمة «الرحمن»؟ ٣٩٩
٢ - لماذا لم يستجب النبي لمطاليبهم؟ ٣٩٩
٣ - ما هي القارعة؟ ٤٠٠
كيف تجعلون الأصنام شركاء مع الله؟! ٤٠٠
المؤمنون والأحزاب ٤٠٤
بحث: الإيمان والائتلاف الحزبي ٤٠٦
الحوادث «الثابتة» و«المتغيرة» ٤٠٦
١ - لوح المحو والإثبات وأم الكتاب . ٤٠٩
٢ - ما هو البداء؟ ٤١١
البشرية فانية ووجه الله باق ٤١٥

سورة إبراهيم

محتوى السورة ٤١٨
فضيلة السورة ٤١٨
الخروج من الظلمات إلى النور ٤١٩
١ - مثل الإيمان وطريق الله مثل النور . ٤٢١
الأيام الحساسة في الحياة ٤٢٣
بحوث: ١ - التذكر لأيام الله ٤٢٦
٢ - طريقة الجبارين في التعامل ٤٢٧
٣ - الحرية من أفضل النعم ٤٢٨
٤ - الشكر سبب لزيادة النعم والكفر سبب للفناء ٤٢٨
أفي الله شك؟ ٤٣٢
التوكل على الله وحده ٤٣٦
بحوث: ١ - ما هو معنى التوكل؟ ٤٣٧
٢ - المعاجز بيد الله تعالى ٤٣٧
٣ - ما هي حقيقة وفلسفة التوكل؟ ٤٣٧
فلسفة التوكل ٤٣٨
خطط الجبارين المعاندين ومصيرهم .. ٤٤٠
بحوث: ١ - ماذا يعني مقام الرب؟ ... ٤٤٣
٢ - ما المراد من جملة ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ .. ٤٤٣
٣ - تفأل الوليد بن يزيد بالقرآن ٤٤٣
رماد اشتدت به الريح ٤٤٤
بحوث: ١ - لماذا شبهت أعمالهم كرماد اشتدت به الريح؟ ٤٤٤
٢ - لماذا فرغت أعمالهم من المحتوى؟ ٤٤٦
٣ - مسألة الإحباط ٤٤٧
٤ - هل للمخترعين والمكتشفين ثواب إلهي؟ ٤٤٧
الخلق على أساس الحق ٤٥٠
المحادثة الصريحة بين الشيطان وأتباعه ٤٥٢
١ - ما هو المراد من ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ٤٥٢
٢ - ما هو المقصود من جملة ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾؟ ٤٥٣
٣ - أوضح بيان في ذم التقليد الأعمى . ٤٥٣
بحوث: ١ - جواب الشيطان الحاسم لأتباعه ٤٥٤

الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة ٤٥٦
بحوث: ١ - هل القصد من الآخرة في الآية هو القبر؟ ٤٦٠
٢ - دور الثبات والاستقامة ٤٦١
٣ - الشجرة الطيبة والخبيثة في الروايات الإسلامية ٤٦١
نهاية كفران النعم ٤٦٢
عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن ... ٤٦٥
بحوث: ١ - الصلة بالخالق والصلة بالخلق ٤٦٧
٢ - لماذا السر والعلانية؟ ٤٦٧
٣ - يومٌ لا بيع فيه ولا خلال ٤٦٨
٤ - كل الموجودات تحت إمرة الإنسان! ٤٦٨
٥ - ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ ٤٧٠
٦ - هل يعطينا الله كل ما نطلب منه؟ .. ٤٧٠
٧ - لماذا لا تحصى نعماؤه؟ ٤٧٠
٨ - أسفاً... إن الإنسان ظلومٌ وكفار . ٤٧١
دعاء إبراهيم عليه السلام ٤٧٢
بحوث: ١ - هل كانت مكة في ذلك الوقت مدينة؟ ٤٧٤
٢ - أمان أرض مكة ٤٧٤
٣ - دعاء إبراهيم لاجتناب عبادة الأصنام؟ ٤٧٥
٤ - من هم أتباع إبراهيم؟ ٤٧٥
٥ - واد غير ذي زرع والحرم الآمن .. ٤٧٦
٦ - الأدعية السبعة لإبراهيم ٤٧٦
٧ - هل يدعو إبراهيم لأبيه؟ ٤٧٧
اليوم الذي تشخص فيه الأبصار ٤٧٨
بحوث: ١ - لماذا وجه الخطاب هنا إلى الرسول الأكرم؟ ٤٨٠
٢ - ما هو المقصود من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾؟ ٤٨٠
٣ - لماذا لا تقبل المهلة؟ ٤٨١
لا فائدة من مكرهم! ٤٨٢
بحوث: ١ - تبديل الأرض غير الأرض والسماوات ٤٨٦
٢ - بداية وختام سورة إبراهيم ٤٨٧
٣ - التوحيد هو البداية والنهاية ٤٨٨
حياة النبي إبراهيم عليه السلام ٤٨٩
ولادته وطفولته ٤٨٩
محاربته للمجاميع المختلفة من الوثنيين ٤٩٠
الجهاد المنطقي مع الوثنيين ٤٩٠
الحديث مع آزر ٤٩١
نبوة إبراهيم عليه السلام ٤٩١
الجهاد العملي مع الوثنيين ٤٩١
الحديث مع الحاكم المتجبر! ٤٩١
هجرة إبراهيم ٤٩٢
المرحلة الأخيرة للرسالة ٤٩٢
منزلته عليه السلام في القرآن ٤٩٤

سورة الحجر

محتوى السورة ٤٩٦
الأماني الزائفة! ٤٩٧
بحث: الغفلة وطول الأمل ٥٠٠

طلب نزول الملائكة ٥٠١
حفظ القرآن من التحريف ٥٠٤
بحث في عدم تحريف القرآن ٥٠٥
أدلة عدم تحريف القرآن ٥٠٧
روايات التحريف ٥١٠
١ - الروايات القائلة ٥١٠
٢ - الروايات المشيرة إلى «التحريف المعنوي» للقرآن ٥١١
٣ - الروايات المختلقة ٥١١
العناد والتعصب ٥١٣
١ - (شيع) جمع (شيعة) ٥١٥
٢ - مرجع الضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ ... ٥١٥
٣ - ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ٥١٦
٤ - تفسير ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ٥١٧
٥ - معنى عبارة ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ ٥١٧
بحوث: ١ - ما هي خزائن الله تعالى؟ . ٥٢٩
٢ - النزول مكاني ومقامي ٥٣٠
دور الرياح والأمطار ٥٣١
بحث: من هم المستقدمون والمستأخرون؟ ٥٣٣
خلق الإنسان ٥٣٤
بحوث: ١ - التكبر والغرور من المهالك العظام ٥٣٧
٢ - على من يتسلط الشيطان؟ ٥٣٩
٣ - أبواب جهنم! ٥٣٩
٤ - (الحمأ المسنون) و(روح الله) ... ٥٤٠
٥ - ما هو الجان؟ ٥٤١
٦ - القرآن وخلق الإنسان ٥٤٢
أدلة القائلين بالتكامل ٥٤٣
أجوبة القائلين بثبوت الأنواع ٥٤٤
نظرية التكامل و. . . الإيمان بالله ٥٤٥
القرآن ومسألة التكامل ٥٤٦
نعم الجنة الثمان ٥٤٨
بحوث: ١ - رياض وعيون الجنة ٥٥٠
٢ - النعم المادية وغير المادية ٥٥١
٣ - الحقد والحسد عدوا الأخوة ٥٥١
٤ - الجزاء الكامل ٥٥١
٥ - تعالوا لنجعل من هذه الدنيا جنة .. ٥٥٢
الضيوف الغرباء. . .! ٥٥٣
من هو المقصود بالغلام العليم؟ ٥٥٤
عاقبة مذنبي قوم لوط ٥٥٦
بحوث: ١ - ما المقصود بـ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؟ ٥٦١
٢ - تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ٥٦١
٣ - علاقة الربط بين «المتوسم» و«المؤمن» ٥٦٢
٤ - سكر الشهوة والغرور! ٥٦٢
خاتمة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر ٥٦٣
من هم أصحاب الأيكة؟ ٥٦٣
بحوث: ١ - القرآن. . . عطاء إلهي عظيم ٥٧١
٢ - الطمع بما عند الغير. . . مصدر الانحطاط ٥٧٢
٣ - تواضع القائد ٥٧٣

٤ - من هم المقتسمون؟ ٥٧٣
اصدع بما تؤمر! ٥٧٥
بحوث: ١ - بداية الدعوة العلنية للإسلام ٥٧٨
٢ - الأثر الروحي لذكر الله ٥٧٨
٣ - العبادة والتكامل ٥٧٨
الفهرس ٥٨١